

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ



جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل: .....

الحروب في المغرب الأوسط وانعكاساتها على الأوضاع  
الاقتصادية والعمرائية خلال العهد الزياني  
(633هـ/962هـ)

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه ل م د في العلوم الإنسانية - تاريخ -

تخصص: تاريخ المغرب السياسي والحضاري في العصر الوسيط

إشراف الأستاذ الدكتور:

يوسف عابد

من إعداد الطالب:

بلال زيتوني

أعضاء لجنة المناقشة:

| الاسم واللقب         | الرتبة               | الجامعة الأصلية                      | الصفة        |
|----------------------|----------------------|--------------------------------------|--------------|
| أ.د/علاوة عمارة      | أستاذ التعليم العالي | جامعة الأميرة عبد القادر - قسنطينة - | رئيسا        |
| أ.د/عابد يوسف        | أستاذ التعليم العالي | جامعة الأميرة عبد القادر - قسنطينة - | مشرفا ومقررا |
| أ.د/قريان عبد الجليل | أستاذ التعليم العالي | جامعة الأميرة عبد القادر - قسنطينة - | ممتحنا       |
| أ.د/قويسم محمد       | أستاذ التعليم العالي | جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة -         | ممتحنا       |
| أ.د/بولعراس خميسي    | أستاذ التعليم العالي | جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2 -    | ممتحنا       |
| د/بوقاعدة البشير     | أستاذ محاضر - أ -    | جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2 -    | ممتحنا       |

السنة الجامعية: 1443-1444هـ/2022-2023م



جامعة الإمامية  
الاسلامية

# شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كلّ من تعب وصبر معي من أجل إخراج هذا العمل إلى الحياة، استهلالاً بالأستاذ المشرف الدكتور يوسف عابد الذي يرجع إليه كلّ الفضل في ميلاده، وإلى كل الذين لم يبخلوا بمساعداتهم لي طيلة فترة إنجازهِ.

شكر خاص للجنة المناقشة لجهودهم المبذولة في قراءة وتقويم هذا العمل.

# مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



مقدمة:

إنّ تعطّش الباحث للوصول إلى الحقيقة التاريخيّة يجعله -غالباً- يتجاوز أسباب وقوع حوادث التاريخ إلى محاولة تفسير مختلف الظواهر التاريخيّة ومحاولة ربطها بالعلل والأسباب الدّاعية إلى تكرارها، وقد توسع تفسير الظواهر التاريخيّة، واتسعت آفاقها بتوسع المعارف وتنوع الوثائق وتقدّم طرائق البحث والتّقيب في حقل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، كما تنوع المفسرون لمسار التاريخ وقيام الدّول وسقوطها باختلاف ثقافتهم وأفكارهم وأزمنتهم، فانعكس ذلك على طبيعة تفسيراتهم وأنواعها، فابن خلدون الذي تمّ التأسيس لنظريّته "التّعاقب الدّوري للحضارات" آذن لخراب العمران بسبب عدوان العصبّيّات المنافسة للملك<sup>1</sup>، وكذلك أرنولد توينبي الذي بسط نظريّته "التّحدّي والاستجابة" بناءً على تقديم الإنسان للاستجابات النّاجحة<sup>2</sup>، وقد تنكّس الحضارة وتسقط الدّول -حسبه- أمام دافع التّكبات والحروب الذي يعتبر ظاهرة دوريّة إذا ما قوبلت بنوع الاستجابات الفاشلة، بينما يرجع مالك بني نبيّ سبب سقوط الحضارة الإسلاميّة إلى فقدان القيم الرّوحيّة أو المرّكب -الدّين- للعناصر الثّلاث المكوّنة للحضارة (الإنسان، الوقت، التّراب) لصالح الغريزة<sup>3</sup>، مستندلاً على انتكاسها بسقوط دولة الموحّدين الذي آل بدوره إلى ظهور الدّول الثّلاث الحفصيّة والزّيانيّة والمرينيّة. وبغضّ النظر عن فحوى النّظريات المطروحة فإن العامل المشترك بينها هو تدخّل العامل البشري كعنصر فاعل في ذبذبة التاريخ عن طريق مشاركته في العمل الحربي، والإفرازات التي يخلّفها هذا التّشاط في مختلف مناحي الحياة.

إنّ التطور الحاصل في المناهج العلميّة المعاصرة كفيل بإعادة تشكيل بعض ملامح التاريخ العسكري في المغرب الإسلامي، إذ أنّ بروز بعض التخصصات المعاصرة، يضع الباحث أمام تقديم تفسيرات جديدة للظاهرة الحربيّة تتجاوز سطحيّة ما تقدّمه المصادر الإخباريّة<sup>4</sup>، ومصادر التاريخ الحولي التي أخذ فيها الجانب السياسي وشؤون البلاط حظّها الأوفر، كما تساعد على تقديم تفسير موضوعي لمخرجات الظاهرة الحربيّة المتعلّقة بأعمال تخريب البنى العمرانيّة وإحداث التّزيّف الديموغرافي والاقتصادي المصاحب لحالة الحرب، وإرجاعها إلى المعطيات النّفسية والاستراتيجيّة التي تتجاوز مستوى الإخبار وترتبط وثيق الارتباط بما تقتضيه منظومة الحرب.

<sup>1</sup> جاسم محمد سلطان، فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة، 2005، ص31، ص47.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص51، ص72.

<sup>3</sup> مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، ترجمة بسام بركة وآخرون، دار الفكر، بيروت، سورية، 2002، ص44.

<sup>4</sup> المراد بذلك تجاوز نمطية التّدوين التّاريخي الوصفي أو السردية وخصوصيّة ذلك العصر الذي بدأ فيه مفهوم التاريخ في التبلور.

فغالبا ما يتحدد مسار كسب رهان الحرب بالاستراتيجيات العسكرية المسطرة، وفاعلية سياسة التدبير الحربي، ومدى تطبيق هذه الاستراتيجيات والتدابير في ميدان الحرب، مما ينم عن وجود علاقة تلازمية بين حالة الحرب وما يحويه المجال الذي يكون مسرحا لحدوثها، تفضي هذه العلاقة - في ثوب التناسج بين التأثير والتأثر - إلى مجموعة من التفاعلات بينهما، ذلك أن العمليات العسكرية تجري في بيئات مختلفة كالأراضي والصحاري والتلال وغيرها، هذا ما يجعلها هدفا مباشرا باعتبارها ميدانا للحرب، وبالموازاة مع ذلك فإن المجال غالبا ما يكون محرضا للحرب، حيث أن الحرب في أحد صورها هي مشروع اقتصادي يهدف إلى استنزاف الثروات والقطاعات الإنتاجية، من هذا المنظور تنبئ أهمية تجديد البحث التاريخي في هذا الموضوع عبر الاشتغال على رؤى جديدة غايتها الاهتمام بالتاريخ الإشكالي وتجاوز نمطية المصادر الإخبارية التقليدية من خلال دراسة ثلاثية الحرب والاقتصاد والعمران .

تأسيسا على ما تم طرحه شد انتباهنا أثناء تتبع مسار تاريخ الحرب ودراسة المآسي والتوائب التي عصفت بالمجموعات البشرية، وحركة العمران في المغرب الإسلامي، تاريخ "دولة بني زيّان" التي شكّلت أحد حلقات التاريخ الحضاري لبلاد المغرب الإسلامي، فالمتتبع لتاريخها يدرك جليا أنّ قيامها في المغرب الأوسط على مدار أزيد من ثلاثة قرون ووقوعها بين فكيّ الدولة الحفصية شرقا والدولة المرينية غربا علاوة عن الحروب التي دارت رحاها بين هذه الأطراف جعل من تاريخها تاريخ حرب تخلّلتها فترات سلم، الأمر الذي قد يزيل ضبابية الأثر عن مظاهر الخراب العمراني والانتكاس الاقتصادي الوارد في توصيفات المصادر التي أرّخت لهذه الفترة، فكان ذلك محرّكا لاختيارنا موضوع: "الحروب في المغرب الأوسط وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية خلال العهد الزيّاني (633-962هـ/1236-1554م)".

#### - دوافع اختيار الموضوع:

- طالما كان تكرار الظواهر محفزا لجرّ العقول نحو التساؤل عن القوانين المتحكّمة فيها واستخلاص العبر منها للاستفادة من هذه التجارب من خلال دراستها واستنطاقها، وقد كان هذا الغرض - حقيقة - من بين الدوافع التي حرّكت فينا نوازع البحث في موضوع الحرب وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية خلال العصر الزيّاني، ومن الطبيعي أن يجرّنا ذلك إلى دراسة أكثر الظواهر تكرارا منذ خلق الإنسان إلى غاية لحظتنا هذه، فقد وقع اختيارنا على العصر الزيّاني لاعتبارات ذكرناها سابقا، فضلا عن دوافع أخرى عزّزت في ذهني سبر أغوار هذا الموضوع، يمكن حصرها فيما يلي:

- الرغبة في الولوج إلى عالم البحث الأكاديمي من خلال تقديم دراسة تكتسي بعدا قيميا وقيمة مضافة يكون الغرض منها الحفر في موضوع الحرب خلال العهد الزياني على مستويات عميقة، تتضمن مقاربات واستنتاجات رصينة يستند إليها الباحثون في دراسة تاريخ الدولة الزيانية العسكري.

- زيادة على ذلك فإن ممارستي للتدريس بقسم التاريخ في جامعة الأمير عبد القادر بعدما أسند إليّ تدريس العديد من المقاييس، عزّز لديّ الرغبة في التمسك بموضوع الحرب نظرا لتقاطعه مع أغلب المقاييس التي درستها، فكان ذلك دافعا قويا لي للبحث موازاة مع إنجاز هذه الدراسة لكي أنشر مقالات ترتبط بهذا الموضوع.

### - إشكالية البحث:

تروم إشكالية هذا الموضوع تجاوز النظرة الاختزالية التي تنظر للحرب من حيث غايتها السياسية التوسعية إلى البحث في العلاقة الجدلية بين الحرب ومظاهر العمران، من حيث مظاهر التأثير والتأثر، وذلك بتسليط الضوء على متغيرين أساسيين هما "الأوضاع الاقتصادية والعمرائية"، وفي سياق هذا الطرح المتعلق بالبحث في هذه العلائق تنبري إشكالية هذا الموضوع: إلى أي مدى أثرت الحروب على الواقع الاقتصادي والعمرائي في المغرب الأوسط الزياني؟ ولمفصلة هذه الإشكالية كان لا بدّ من طرح مجموعة من الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها، تتلخص هذه الأسئلة فيما يلي:

- ما مدى رصد المصادر للمواجهات العسكرية المباشرة خلال العهد الزياني لأخذها كمرجعية تكون منطلقا لدراسة أثر الحرب على البنى الاقتصادية والعمرائية؟ وهل أفصحت لنا المدونة الوسيطية عن مضامين موثوقة توافقيّة لم تنزع إلى الميولات الإيديولوجية والتّقول السطحيّة في وصفها لأخبار الحرب وآثارها خلال هذا العصر؟
- ما مدى تأثير الحرب ومناخ اللّامن على شرايين الاقتصاد الثّلاث؛ الرّاعة، الصّناعة، التّجارة؟
- ماهي الوحدات العمرائية الأكثر تضرّرا؟ وهل اقتصرت مظاهر التّدمير المصاحبة لحالة الحرب على نوع واحد من البنى كالعجارة العسكريّة أم أنّها جاءت شاملة؟
- ما هي العوامل المتحكّمة في أعمال التّخريب العمرائي واستهداف الوحدات الإنتاجيّة خلال العهد الزياني، هل يرجع ذلك إلى طبيعة الحرب ودورها الوظيفي، أم أنّ هناك معايير نفسيّة واستراتيجيّة غدّت عامل التّخريب في الحروب التي شهدتها المغرب الأوسط الزياني؟

### - الدّراسات السّابقة للموضوع:

يعتبر موضوع الحرب خلال العهد الزياني من المواضيع التاريخيّة التي تمّ التّطرق إليها في بعض الدّراسات، وتجدد الإشارة إلى نوع ومستوى وعمق تناول موضوع الحرب في هذه الدّراسات لبيان أهميّة موضوع دراستنا، فنظرا لأهميّة

موضوع الحرب وفاعليته في ذبذبة مسار التاريخ، تأتي أغلب الدراسات التي تناولت تاريخ الدولة الزيانية لإقحام موضوع الحرب في قالب انتقائي للاستدلال على ما تقتضيه خصوصية بحوثهم، غير أنّ الدراسات التي تناولت بالبحث مستوى انعكاسات الحرب على البنى الاقتصادية والعمراية ولا مست موضوع بحثنا بشكل مباشر تعدّ قليلة، ومع أنّها ارتبطت بموضوعنا في شقّه المتعلّق بالجانب الاقتصادي إلا أنّها أهملت بعض المواطن منه، الأمر الذي جعلنا نتدارك ذلك في هذه الدراسة بصياغة هذه المباحث المهمة والبحث فيها، أمّا بخصوص انعكاسات الحرب على البنى العمراية خلال هذا العصر فقد ظلّ - حسبنا - موضوعا بكرّا إذا ما استثنينا بعض الإشارات الواردة في هذه الدراسات - عرضا -، وحتى لا ننسب لأنفسنا السبق في معالجة هذا الموضوع نستعرض فيما يلي الدراسات السابقة لانعكاسات الحرب على البنى خلال العهد الزياني:

- الدراسة الموسومة بـ "انعكاسات الفتن والحروب على مجتمع المغرب الأوسط ما بين القرنين 7-8هـ/13-14م"<sup>1</sup> للباحثة حياة مشري، وتعدّ من بين الدراسات التي تقاطعت مع موضوع دراستنا بشكل كبير نظرا لأنّها تناولت في بحثها؛ مدى انعكاسات الحرب على البنى، وإن كانت قد خصّصت الباحثة فيها موضوع الدراسة للتأثير على سوسيولوجيا الأزمة ومدى تأثير الحروب في العهد الزياني على مجتمع المغرب الأوسط، ومستويات تأثير الحرب على السلوك والذهنيات، فإنّ دراستها لم تُعنى بالبحث في هذه الانعكاسات وتأثيراتها على الوضع الاقتصادي والعمراي، الأمر الذي جعلنا نستأنس بعض فصولها فقط، إذ أنّ هذه الدراسة جاءت للكشف عن مفاهيم الحرب وآثارها على بنية الدولة الزيانية انطلاقا من أحد العناصر الفاعلة في النشاط العمراي وهو "المجتمع".

- الدراسة الموسومة بـ "انعكاسات الحروب في السلوك والذهنية لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني"<sup>2</sup> للباحثة حسبية عمروش، ناقشت فيها الباحثة أيضا العلاقة الجدلية بين الحرب والمجتمع خلال العهد الزياني انطلاقا من مستويات تأثير الحرب على أفكار وذهنيات وعادات وسلوكيات الفرد في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، ومع أنّ موضوع هذه الدراسة كان التجريد والبحث في اللاماديات بما يتنافى وموضوع بحثنا الذي عني بدراسة تأثير الحرب على البنى المادية، إلا أنّها تقاطعت مع موضوعنا في بعض مواطنه، وساعدتنا أيضا في الوقوف - خاصة في فصلها الأوّل - على بعض المعطيات المتعلّقة بموضوع بحثنا في شقّه المتعلّق بمستويات التأثير على الأوضاع الاقتصادية.

<sup>1</sup> هي مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصّص التاريخ الاجتماعي للمغرب الأوسط في العصر الوسيط، نوقشت بجامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة - سنة 2015.

<sup>2</sup> هي أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، نوقشت بجامعة المسيلة في 2018/12/13.

- الدراسة الموسومة بـ "أثر الحروب على النشاط الاقتصادي في المغرب الأوسط من القرن الثاني إلى القرن السابع الهجريين/ 8-13م"<sup>1</sup>، وعلى الرغم من تقاطع موضوع هذه الدراسة مع موضوع بحثنا إلا أنّ الفترة التي عنيبت بها هذه الدراسة تسبق الفترة الزبانية التي خصّصنا لها موضوع بحثنا، ومع ذلك فقد استفدت من هذه الدراسة من حيث طريقة تناول الباحثة ومقارباتها المنهجية لدراسة أثر الحرب على الأوضاع الاقتصادية.

#### - أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذه الدراسة فيما يلي:

- إنّ الدراسات المتعلقة بالنشاط الحربي والتاريخ العسكري في المغرب الأوسط الزباني - وإن أخذت حيزاً معتبراً من الدراسة - إلا أنّها ركزت في متونها على التأشير لسوسيولوجيا الأزمة بتناول مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وذهنية، ولم يتعدّ وصفها المدى استنكاء البنى العمرانية مستويات الوصف، الأمر الذي شدّ انتباهنا إلى محاولة إحداث عملية توأمة بين الدور الوظيفي للحرب وتبعاتها من خلال استعراض الوقائع الحربية الزبانية - تاريخاً - والوقوف على النظريات العسكرية الداعية إلى التخريب - تنظيراً -، وبيان مخرجات هذه الظاهرة وانعكاساتها على الأصعدة الاقتصادية والعمرانية.

- طالما كانت كثرة الحروب والحصارات في المغرب الأوسط الزباني سبباً لإغفال الحروب والحصارات القصيرة المدى ومدعاة للتركيز على الحروب والحصارات المفصلية التي لعبت أدواراً تاريخية حاسمة، الأمر الذي قد يضع تاريخ الدولة الزبانية في قالب انتقائي تفاضلي بحسب درجة التأثير، ممّا قد يساهم في ترسيخ تاريخ عسكري مغرب - أوسطي مشوّه، وأمام عدم وجود أي مسند إحصائي لتقديم تقديرات عددية، أو لترتيب حروب وحصارات العهد الزباني في إطار كرونولوجي واضح تأتي هذه الدراسة لتغطية هذا النقص بتتبع مسار الحروب والحصارات على مدار عمر دولة بني زيان.

- تعددت الدراسات التي عنيبت بالبحث في مجال المغرب الأوسط وحدوده اعتماداً على مآخذ جغرافية وثقافية، وانتهت إلى الإقرار بنسبية نتائجها كما قامت بإرجاء الفصل في هذا الموضوع، وقد أهملت العديد منها الجانب العسكري في ترسيم الحدود ووضع التخوم، وبالموازاة مع ذلك فإنّ بعض الدراسات تضع حدوداً ثابتة للمغرب الأوسط في مواضيع بحثها، دون مراعاة مظاهر الانقطاع والسيطرة التي تفرضها القوة العسكرية، وعليه فإنّ موضوع

1 هي أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الأوسط الاقتصادي في العصر الوسيط، نوقشت بجامعة عبد الحميد مهري، -قسنطينة- سنة 2021م.

هذا البحث جاء ليضع البعد العسكري في الإطار التراتبي الأول لمعالجة هذه المسألة، بغرض الوقوف على نتائج إخضاع هذا الموضوع لمعيار الحرب ومدى القوة والوهن العسكري للدولة لبيان مدى نسبية الطروحات السابقة.

- تزخر الدراسات التاريخية عن المغرب الأوسط الزياني بحمولة معرفية كبيرة في القضايا المتعلقة بدراسة التاريخ الرسمي السياسي والديبلوماسي والتاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي وتاريخ الذهنيات، ومع أنّ موضوع الحرب قد شكّل قاعدة لمختلف المظاهر السابقة لارتباطها بها بشكل أو بآخر، إلا أنّ الوقوف انعكاساته شكّل استثناءً في العديد منها، وقد يعزى الأمر إلى تشظّي هذه الدراسات من خلال التركيز على متغيّرات البحث في هذه الدراسات والانكباب عليها - بما تقتضيه خصوصية كل موضوع بحث - دون إخضاعها إلى العامل العسكري الذي يعتبر عاملاً معيارياً في دراسة كلّ هذه المظاهر. تأسيساً على ذلك فإنّ أهمية هذه الدراسة تكمن - على المستوى الأول - في إبراز العامل المتحكّم في هذه الانعكاسات خلال هذا العصر، وتوضيح مكانة الحرب والتداخل الذي يربطها بكافة الظواهر التاريخية، الأمر الذي نعتبره دعوة صريحة للتنبص على إشراك مباحث التاريخ العسكري في دراسة أغلب مواضيع التاريخ.

- تأتي هذه الدراسة للوقوف على حجم الخراب المرافق لتسارع حوادث الحرب في المغرب الأوسط الزياني على مدار ثلاثة قرون، ولضبط العوامل المتحكّمة في هذا الخراب، فضلاً عن استظهار الجوانب الخفية للحرب واستراتيجياتها ونتائجها على الصّاعدين الاقتصادي والعمري، وهو ما نعتبره موضوعاً أسدل عليه الستار في أغلب الدراسات التي عنيت بدراسة تاريخ الدولة الزيانية، وعلى الرغم ممّا يكتسبه هذا الموضوع من أهمية تاريخية قصوى إلا أنّه بقي محفوفاً بالغموض إذا ما استثنينا بعض الشذرات الواردة في بعض الدراسات التي عنيت بالبحث في النشاط العمري في المغرب الأوسط الزياني على ضوء النظر الفقهي ومعطياته.

### - خطة البحث:

لاستمكاننا من معالجة إشكالية بحثنا ارتأينا هيكله موضوع الدراسة وفقاً لبناء منهجي نوضّحه فيما يلي:  
حوت الدراسة استهلالاً مقدّمة تضمّنت الخطوات التي اتّبعتها في إعداد هذه الدراسة، أردفنا إليها ثلاثة فصول حاولنا من خلالها استنطاق إشكالية بحثنا وتساؤلاته الفرعية، وصولاً إلى الخاتمة التي حوت جملة النتائج التي توصلنا إليها بعد عمليّة البحث.

جاء الفصل الأوّل الموسوم بـ "واقع الحروب والمواجهات العسكرية المباشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني" لوضع أرضية صلبة يرتكز عليها هيكل البحث ودعامة ترتكز عليها بقية فصول الموضوع، من خلال محاولة تتبّع وتغطّي مسار المواجهات العسكرية - حروباً كانت أم حصاراً - في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني،



وحصرها على ضوء المعطى الكرونولوجي، وقد تضمّن أربع مباحث، عني أولها بالبحث في المسألة الحدودية في المغرب الأوسط على ضوء المعطى الجغرافي والتاريخي والعسكري في قالب تفاضلي بين هذه المرجعيّات الثلاث، وذلك لتحديد الإطار المكاني لمسرح هذه الحروب وضبطه، بينما عمدنا في المبحث الثاني إلى صياغة مسند كرونولوجي وإحصائي لهذا الزخم من الحروب اعتمادا مصادر دراسة التاريخ الزياني العسكري الأساسية ونقدها، أما الفصل الثالث فقد تطرّقنا فيه - في قالب تحليلي كرونولوجي - إلى تتبع كرونولوجيا الحصارات العسكرية من قيام دولة بني عبد الواد إلى غاية سقوطها، أعقبها المبحث الرابع لدراسة مختلف الاستراتيجيات العسكرية المفعلّة خلال حروب العهد الزياني على المستويات الميدانية، وقد زواجنا بين هذه الاستراتيجيات الحربية الميدانية والإسقاطات النظرية التي دعت إليها مصنّفات المدرسة العسكرية. تأسيسا على ما تمّ طرحه سابقا تظهر أهمية هذا المبحث في كونه المحطّة الأولى لإبراز العلاقات بين الاستراتيجيات العسكرية ومستويات تطبيقها وبين ارتباطها بحركة التخريب وثنى حركة العمران.

أما الفصل الثاني الموسوم بـ "أثر الحرب على الأوضاع الاقتصادية" فقد جاء للبحث في علاقة الحرب وإفرازاتها على الوضع الاقتصادي، حاولنا من خلاله استظهار واقع الدولة الزيانية الاقتصادي المصاحب لحالة الحرب من خلال صياغة أربعة مباحث، جاء في مقدّمته عرض لواقع خراب الأراضي الزراعية المقترن بحالة الحرب، حاولنا من خلاله ملامسة هذا الموضوع من خلال التّطرق إلى الأبعاد الثلاث (مرجعيات تخريب الأراضي الزراعية خلال حالة الحرب، مغذّيات تخريب الأراضي الزراعية خلال العهد الزياني، رصد لجغرافية تخريب الأراضي الزراعية جزاء الحروب خلال العهد الزياني)، كما تطرّقنا فيه إلى انعكاسات الحرب على الفئات الفاعلة في هذا المجال كالفلاحين، بالإضافة إلى محاولة دراسة تداخل الوظائف السياسية المرتبطة بحالة الحرب وأثرها على النشاط الفلاحي من خلال التّطرق إلى معادلة الإقطاع والولاء لكسب الحلفاء خلال الحرب وأثر هذه الإستراتيجية على النشاط الفلاحي. أما المبحث الثاني فقد تطرّقنا فيه إلى الانعكاسات التّاجمة عن النشاط الحربي خلال هذه الفترة على النشاط الحربي والصّناعي من خلال تسليط الضّوء على المقوم البشري (الصّناع) وإفقار موارد الإنتاج الصّناعي، بينما جاء المبحث الثالث لتغطية أثر الحرب على نشاط التجارة الداخليّة والخارجيّة، وحاولنا في المبحث الرابع تجاوز أثر الحرب على شرايين الاقتصاد الثلاث وتدارك مظاهر الانتكاس الاقتصادي من خلال استعراض مظاهر أخرى للركود الاقتصادي المرافق لحالة الحرب كظاهرة غلاء الأسعار، والاحتكار ومظاهر غشّ وفساد العملة وانقطاعها خلال الحرب.

بينما تمّ تخصيص الفصل الثالث الموسوم بـ "أثر الحرب على البنى العمرانية" لدراسة مختلف إفرازات الحرب وتأثيراتها على العمائر العسكرية والمدنية والدينية والثقافية الزيانية، حيث تمّ التّطرق فيه إلى تتبع مغذّيات تخريب هذه

العمائر من خلال تسليط الضوء على الأبعاد النفسية للقادة العسكريين كاستحضار مكنون الشخصية العسكرية المغرب أوسطية خلال العهد الزياني، ووازع النزعات الانتقامية لديهم، واستعراض الاستراتيجيات العسكرية التي كانت في خدمة الخراب، مروراً بالمغذي التفعلي الذي يجعل من الحرب معاشاً للاقتيات لدى العامة، فضلاً عن استخدام أسلحة الحرب الثقيلة التي يعزى إليها حمل ثقيل من هذا الخراب، وحاولنا بعد ذلك التأسيس لموضوع الخراب انطلاقاً من العوامل المذكورة سابقاً ثم استعراض مظاهر الخراب بدءاً بحظيرة المنشآت العسكرية الدفاعية الزيانية ومظاهر خرابها كالأسوار والأبواب والحصون، مروراً بالمبحث الثاني الذي عمدنا فيه إلى بيان مظاهر الخراب على العمائر الدينية والثقافية كالمساجد والزوايا والمقابر، وصولاً إلى مظاهر خراب العمائر المدنية وفي مقدمتها المنازل في المجالين الحضري والبدوي.

### - صعوبات البحث:

لا يخلو أي بحث أكاديمي من مصاعب تعترض سبيل الباحث في إعداد موضوعه، خاصة إذا تعلّق الأمر بموضوع الحرب الذي يعتبر حقلاً واسعاً للدراسة، وحتّى يُجيز هذه الصعوبات، نستذكر:

- شحّ المادة الخريّة المتعلقة بربط الظاهرة الخريّة خلال العهد الزياني ومخرجاتها من انعكاسات على البنى الاقتصادية والعمرائية، فهي غالباً ما تأتي على ذكر الحروب والمعارك مفصولة عن سياقات التأثير والتأثر، في قالب إخباري وصفي، ومن زاوية أخرى ركونها إلى النزعات الذاتية من خلال إبراز مآثر السلاطين والقادة بأعمال التشييد، أو التّطرق إلى جهودهم المبذولة في ترشيد الحياة الاقتصادية والعمرائية ووصف بطولاتهم في معاركهم التي خاضوها، الأمر الذي يستدعي جهداً مضاعفاً منّا لتغطية هذا البتر بإحصاء عدد المعارك والحصارات من مشارب مختلفة تخصّ المصادر المرينية والزيانية والحفصية ومراكمة مضامينها وأسبابها ثمّ نتائجها للبحث في هذه العلائق (الانعكاسات) قصد ملممة الأخبار المنقوصة في أحدها لتغذية الفكرة الرئيسية في قالب تحليلي موضوعي.

- تضارب الروايات التي رسمتها طبيعة المصادر نفسها بحسب توجهاتها الإيديولوجية في ذكر أخبار الحرب خلال العهد الزياني، خاصة ذلك التّباع الذي رسمت أبعاده النزاعات السياسية أو توظيف الهالة الكرامية، رسخ لدينا ذلك حالة من الشك في كلّ معلومة مستقاة لتغذية هذا الموضوع، وحتّم علينا البحث عن قرائن لتبني الطّروحات التّرجيحية على خلفيّة معايير وحجج منطقية، تفسّر تبنيهاً لطرح وإقصائنا لآخر في كلّ موضع وقع فيه التناقض.

- وجود دراسات سابقة ترتبط بموضوع بحثنا في شقّه المتعلّق بانعكاسات الحرب على البنى الاقتصادية والاجتماعية، وفي شقّه المتعلّق بأثر الحرب على تهينة المجال العمراني (إيجابيات الحرب)، قلّص من دائرة بحثنا في هذا الموضوع، وجعلنا نستعيز عن التكرار بالجدّة والابتكار، وذلك بملامسة مباحث في التاريخ العسكري الزياني على



درجة أعمق مما سبق البحث فيه في هذه الدراسات، فضلا عن تقليص دائرة مفهوم العمران -الواسع- من مفهوم شامل يتعلّق بكافة أنشطة اجتماع النوع الإنساني إلى التركيز في هذه الدراسة على الصورة السوداوية لأثر الحرب على البنى العمرانية وحركة التشييد، ومدى تعرّض هذه الوحدات إلى الخراب جرّاء حالة الحرب، مع التّطرق إلى أثرها السلبي على حركة العمران على مستويات أقلّ تركيزا.

- منهج الدراسة : للإجابة على إشكالية البحث والوصول إلى مقارنة تاريخية وفق ما يقتضيه البحث التاريخي في هذا الموضوع، قمنا بتوظيف المنهج التاريخي، ومرّد ذلك إلى الخصوصية التي ينفرد بها علم التاريخ عن بقية العلوم، فعائق إعادة إنتاج الحادثة التاريخية، ووفور خاصية إعادة استحضارها بشكل غير مباشر من خلال استنطاق المصادر الأولية والثانوية، فضلا عن عملية التركيب التاريخي بعد التحليل والمقارنة والإحصاء، وملا الفجوات التاريخية اعتمادا على تخمينات الباحث وما أُتيح له من استنتاجات من خلال عملية البحث، تعتبر -كلّها- خصوصيات لا يمكن لبقية المناهج استدراكها واحتواؤها، وباعتبار التاريخ العسكري ومظاهر تأثير الظاهرة الحربية على الاقتصاد والعمران خلال العهد الزياني موضوعا للتاريخ، فقد كان علينا لزاما سلوك هذا السبيل الموصل إلى الحقيقة التاريخية في أقرب صورها لذلك لعصر.

- المصادر المعتمدة :

1- كتب التاريخ العام:

أ- المصادر الزيانية:

- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد<sup>1</sup> لأبي زكريا يحيى بن خلدون (ت780هـ/1378م):

يكتسي كتاب يحيى بن خلدون طابع الأهمية في موضوعنا من حيث المناصب السياسية والإدارية التي تقلدها، والمعروف أنّ يحيى تولّى منصب كتابة الانشاء في تلمسان على عهد السلطان أبو حمّو موسى الثاني<sup>2</sup>، وقد جعله ذلك قريبا من دوايب الحكم ومصادر صناعة القرار السياسية التي ترتبط ارتباطا أساسيا مع موضوع الحرب في المغرب الأوسط الزياني، حيث اشتغل في خدمة الأمير أبي عبد الله الحفصي، وفي خدمة السلطان الزياني أبي حمّو موسى الثاني، ثم في بلاط الأمير عبد العزيز المريني، ثم عاد أخيرا إلى خدمة أبي حمّو الثاني في تلمسان، وقد وافته المنية في رمضان سنة 780هـ/1378م، وكانت السنوات السبع التي قضاها يحيى بن خلدون بتلمسان أزهى وأجمل أيام هذه

<sup>1</sup> تقديم وتعليق وتحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

<sup>2</sup> التنسي، تاريخ ملو بني زيّان مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيّان، تحقيق محمود آغا بوعباد، موفم للنشر،

2011، ص 45.

الفترة، فكان التأليف الوحيد الذي أنتجه حول تاريخ دولة بني عبد الواد، وقد غطّى فيه تاريخ الدولة منذ تأسيسها لنتهي أخباره عنها مع سنة 777هـ/1375م.

- أبو زيد عبد الرحمان ابن خلدون (ت808هـ-1405م) :

إنّ كلّ محاولة لدراسة تاريخ الحرب في المغرب الأوسط الزياني لا يمكن أن تنعت بالجدية إلا عندما تستوعب الإرث التاريخي لابن خلدون في العبر، فالرجل خبر عن قرب حوادث وحروب القرن 8هـ/14م؛ القرن الذي شهد بداية تراجع الهيمنة السياسية للدول المغربية، ولعلّ صدمة هذا التراجع كانت محرّكا دفع ابن خلدون إلى محاولة فهم هذا التراجع وأسبابها العميقة، فنظر للحرب في مقدمته وأرخ لها في العبر، وصوّر عن كتب غمارها وآثارها على دولة بني زيّان، فضلا عن ذلك فإنّ عبره تكتسي بعدا قيما فقد حوت روايات شفوية مباشرة عن بعض شيوخه كالأبلي الذي كانت عائلته تشتغل في البلاط الزياني، ونقل عنه أخبار الحصار الطويل، ووصايا يغمراسن لأحفاده فيما بعد، هذه الوصايا المتعلقة بالشأن العسكري وتدير الملك لضمان استقرار دولة بني عبد الواد، كما غطّى عبد الرحمان شذرات تاريخ حروب دولة بني عبد الواد الداخلية والخارجية لأوّل عهدهم إلى أن تنتهي أخباره عند سنة 796هـ/1393م.

عاصر ابن خلدون فترة حكم السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني، وربطته معه مراسلات سرية تتعلق بأمر الحرب ومجرياتها ضدّ السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة بعد ثورته على أبي عبد الله صاحب بجاية، حيث طلب منه أبو حمو تأليب قبيلة رياح لصالح جيش السلطان الزياني في الحرب التي جمعته بأبي العباس، كما أنّه استدعاه لحجابه<sup>1</sup>، وقد ربطته أيضا مراسلات معه لنفس الغرض في حربه مع السلطان عبد العزيز المريني سنة 769هـ/1367م، فقد كان يرسل ابن خلدون لتأليب القبائل وترغيبهم في مشايعة أبي حمو وإيلاف ما بينه وبين الدّواودة، وزغبة، والسلطان أبي إسحاق صاحب تونس، وابنه خالد من بعده<sup>2</sup>. الأمر الذي يعكس ضلوعه ومعاينته للوقائع الحربية المؤرخ لها في العبر.

<sup>1</sup> ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، لبنان، 1979م، ص ص 107، 110.

<sup>2</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 141.

- القسم الثاني من كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيّان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى

من الزّمان للتنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت 899هـ/1494م) :

يعتبر كتاب التنسي الدّعامّة الأساسيّة لدراسة تاريخ المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني، فعلى الرّغم من طابعه الأدبي ومقصده البلطي وميله للاختصار في سرد الحوادث التاريخيّة والعسكريّة والعمرائيّة خلال هذا العصر، إلّا أنّنا نصنّفه كمصدر متفرد غير قابل للمقارنة مع المصادر السّابقة -رغم ما تزخر به من حمولة معرفيّة وثقل تاريخي حربي-، ويأتي هذا الحكم والتّقييم على خلفيّة أنّه المصدر العربيّ الوحيد الذي حفظ لنا المواجهات العسكريّة لفترة تزيد عن سبعين سنة من التّاريخ الذي انتهت فيه أخبار السّفرة الثاني من كتاب زهر البستان سنة 764هـ/1362م، وتاريخ توقف يحيى بن خلدون عن تدوين أخبارها في بغيّة الرّواد سنة 777هـ/1375م وانتهاء أخبار كتاب العبر عن الدّولة الزيّانية حوالي 796هـ/1393م، إلى أن يختم التنسي أخبار المواجهات العسكريّة سنة 868هـ/1463م، وبذلك فإنّه يخلف لنا فجوة تاريخيّة في التّاريخ العسكريّ خلال العهد الزيّاني تقارب القرن من الزّمن فقط، على عكس سابقه.

عاصر التنسي فترة حكم السّلطان الزيّاني المتوكّل (866هـ-873هـ/1462-1468م)<sup>1</sup>، ربّ المؤلف كتابه حسب تتابع السّلاطين الزيّانيين -كرونولوجيا- ويبيّن أخبار كل سلطان بشكل مستقلّ، ومّا زاد هذا التّقسيم أهميّة في موضوع بحثنا هو تفردّه بذكر الحملات العسكريّة لكلّ سلطان من سلاطين بني زيّان ملدن نشأتهم حتّى تاريخ انتهائه من تدوين كتابه، فضلا عن وصفه للخراب الذي طال الوحدات العمرائيّة وعمليات الترميم والتّشيد التي قام بها سلاطين بني زيّان خلال وأثناء شغلهم لمناصبهم في الدّولة.

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس لابن أبي زرع محمد الفاسي

(ت 741هـ/1341م):

يعتبر من بين المصادر الأساسيّة لاحتوائه على رصيد هام لتاريخ المغرب الأقصى باعتبار دولة بني مرين طرفا رئيسيا في معادلة الحرب مع دولة بني عبد الواد، وقد ساعدنا هذا المصدر في ترتيب الحوادث التاريخيّة العسكريّة بين الدّولتين وضبط تسلسلها، والوقوف على مظاهر التّناقض والتّوافق بعد مقابلة مضامينه مع المصادر الزيّانيّة.

- السفر الثاني من كتاب زهر البستان في دولة بني زيّان لمؤلف مجهول<sup>2</sup>:

<sup>1</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 254، 272.

<sup>2</sup> عناية وتقديم محمد بن أحمد باغلي، دار الأصدالة والنّشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012.

ألفه صاحبه في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، والكتاب عبارة عن ثلاثة أجزاء وصلنا منها الجزء الثاني الذي يؤرخ للدولة الزيانية بين سنوات (759-764هـ / 1358-1363م)، تشير الأخبار التي ضمّنها هذا المؤلف كتبا إلى استناده إلى روايات شفوية مباشرة الأمر الذي يعكس قرينه من الحوادث التي قيدها في كتابه، ويظهر ذلك استشهاده بجوارات جرت داخل البلاط الزياني بين أبي حمو وعامة تلمسان، وبين فارح حاكم مليانة وبجي بن علي عامل بني مرين على مليانة، وبين رسول أبي سالم المريني وأبي حمو موسى... إلخ، تظهر بصمة صاحب كتاب زهر البستان واضحة في تأييده لاتخاذ السلطان الزياني أبي حمو لبعض لقرارات العسكرية في حروبه ضد بني مرين، كما أنه يكتسي طابع الأهمية في موضوع بحثنا كونه غطى المواجهات العسكرية الزيانية في السنوات الأربع الأولى لحكم السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، وصور لنا بعض المنشآت التي قام أبو حمو بتشييدها كالمدرسة اليعقوبية التي شيدها تكريما لأبيه.

ب- المصادر المرينية:

الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس<sup>1</sup> لابن أبي زرع الفاسي (كان حيا سنة 726هـ/1325م) : موضوع كتاب القرطاس هو تاريخ المغرب عموما وتاريخ مدينة فاس خصوصا، اعتمد فيها أيضا على طريقة الحوليات في ذكر الحوادث التاريخية، تقاطعت الأخبار الواردة في هذا الكتاب مع موضوع بحثنا في الكثير من المواقف التاريخية الحربية خاصة في عهد مؤسس الدولة الزيانية، الأمر الذي أتاح لنا مقارنة وقائع الحروب والمعارك بين مصادر الدولتين الزيانية وهذا المصدر المريني بما يتوافق ومقابلة النصوص ورصد على مواطن الاختلاف والتوافق للوقوف على مقاربات وتحليلات أكثر قربا للحقيقة التاريخية.

الذخيرة السنية في محاسن الدولة المرينية<sup>2</sup> مؤلف مجهول: نجهل الكثير من المعلومات عن هذا الكتاب، وقد أرجعه عبد الله كنون إلى ابن أبي زرع الفاسي، يرتبط هذا الكتاب بموضوع بحثنا كونه غطى لنا أخبار دولة بني مرين إلى غاية سنة 647هـ/1249م، وقد تحلل ذلك تغطيته للوقائع الحربية التي جمعت الدولة المرينية والحفصية ضد الزيانيين إلى غاية انتهاء أخبار الكتاب في السنة المذكورة سابقا، خاصة سنوات 640هـ/1242 و 666هـ/1267م و 670هـ/1271م.

<sup>1</sup> صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

<sup>2</sup> دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

فضلا عن مصادر مريّنة أخرى لا تقل أهمية عما ذكرناه، ككتاب الاستقصا لدو المغرب الأقصى للتّاصري، وفيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قسنطينة والزّاب لابن الحاج النّميري (768هـ/1366م) وغيرها.

### ج- المصادر الحفصية:

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية<sup>1</sup> لابن القنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسين بن علي (ت810هـ/1407م) : اعتمد ابن القنفذ في كتابه هذا على منهج الحوليات التاريخية، وحافظ على النّسق الكرونولوجي المحكم للحوادث التاريخية لتظهر للمتلقّي في النهاية مرتبة وموقية للغرض الذي كتبه المؤلّف، منذ بداية الدولة الحفصية إلى تاريخ فراغه من كتابه في أوائل 806هـ/1403م<sup>2</sup>، ومن هنا تظهر أهميته كونه يؤرّخ لأحد الأطراف التي عاصر الدولة الزيانية وجمعها معها العديد من الوقائع الحربية، كما تطرّق للحملات العسكرية الموجهة لدولة الزيانية خاصة حملة أبو زكريا على تلمسان سنة 640هـ/1242م وما حملته أخبار هذا الكتاب من معطيات تاريخية وتقديرات عديدة حول الجند المشاركين في هذه المعركة.

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية<sup>3</sup> لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي (ت بعد 894هـ/1488م): تتبع فيه الزركشي منهج التاريخ الحولي كسابقه، تظهر قيمة هذا المؤلّف جلية لوقوع أخبار تخصّ وقائع التاريخ العسكري المشترك بين الدولتين الزيانية والحفصية في وقت متأخّر تعود للقرن 9هـ/15م، وهو ما لم نجده في المصادر الزيانية -عدا التنسي-، ومما وقفنا عليه فيما يخصّ موضوع بحثنا هو حملة السلطان الحفصي أبو فارس على تلمسان سنة 728هـ/1423م، فضلا عن أخبار أخرى تتعلّق بتاريخ الدولة الحفصية ترتبط وثيق الارتباط بموضوع بحثنا لتداخل العلاقات بينها وبين دولة بني عبد الواد.

### 2- كتب التوازل:

نوازل ابن مرزوق المنسوب لأبي عبد الله علي بن أحمد بن مرزوق الحفيد<sup>4</sup> (ت842هـ/1439م) : يُنسب هذا المخطوط لابن مرزوق الحفيد لاحتوائه على الكثير من نوازل فيه، لكن الأخذ بتاريخ وفاة ابن مرزوق الحفيد وورود أخبار تتعدّى تاريخ وفاته بثلاث سنوات يجعلنا نترتّب في نسب هذا المخطوط لهذا المؤلّف، فقد وُجدت هذه

<sup>1</sup> تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص20.

<sup>3</sup> تحقيق وتعليق محم ماضي، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966.

<sup>4</sup> مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1342.

القرينة في ما أورده ابن مرزوق في سؤال موجّه لمحمد بن قاسم المشدالي ونصّ ذلك: "الحمد لله المبدى المعيد الفعّال لما يريد والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد المبعوث على هذه الأُمّة شهيدا وبعده، لما قضى من بعد الحكم والقضاء بوفاة التّأرج أبي الحسن سنة خمسة وأربعين وثمانمائة"<sup>1</sup>، أفادنا هذا المخطوط في موضوع بحثنا لارتباط بعض نوازله بمسائل تتعلّق بالحرب، ومسائل الأمن في قرى ومدن المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، والضّرائب المفروضة على السّاكنة بها الموجهة لغرض تلافي الضّرر الحربي وتأمين المدن والقرى وتعزيز الاستحكامات العسكريّة الدفاعيّة فيها.

### - المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيّة وتونس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحيى

**الونشريسي (ت 914هـ/1509م):** عاش الونشريسي في تلمسان في عهد المتوكّل الزياني ثمّ هاجر إلى المغرب الأقصى فرارا من السّلطان الزياني، يزخر هذا المصنّف بنصوص نوازليّة كثيرة سئل فيها فقهاء تلمسان عن أمور عدّة أهمّها مسائل الحرب التي تكشف عن واقع الحرب، كما سجّلت نوازله بعض المسائل الخلافيّة التي سئل فيها فقهاء تلمسان حول خراب المساجد ونش المقابر للضرورة الأمنيّة وتخريب كنائس اليهود، وبعض المعاملات الاقتصاديّة المحظورة شرعا التي ترافق حالة انعدام الأمن، الأمر الذي يرتبط ارتباطا أساسيا بموضوع بحثنا في شقّه المتعلّق بخراب البنى العمرايّة وانعكاسات الحرب على الأوضاع الاقتصاديّة.

### - الدّرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المازوني (ت 833هـ/1479م):

لا يقلّ كتاب الدّرر أهميّة عن سابقه للونشريسي، فقد نقل الأخير الكثير من الفتاوى استنادا إلى هذا المؤلّف، جمع يحيى في كتابه العديد من النّوازل التي أجاب فيها فقهاء المغرب الأوسط وعلى رأسهم العقباني وابن مرزوق خاصة خلال القرنين 7-8هـ/13-14م وهو بذلك يغطّي جزءا كبيرا من الأخبار التي تهّمنا في دراستنا حول موضوع الحرب، حيث أمدّنا في خضم تقييده لأسئلة وأجوبة فقهاء المغرب الأوسط بأخبار تتعلّق بأحكام الحرب وحالة انعدام الأمن في بعض الفترات خاصة في قرى المغرب الأوسط، بالإضافة إلى تطرّقه لأحكام التّضمين خلال الحرب وأعمال الحراية، ومع أن صعوبة تعميم نصوص النّوازل-التي تكون في غالب الأمر استثناءات- والاستدلال بها لتصوير الواقع والحرك المجتمعي بصفة قطعّيّة شموليّة يشكّل عاملا معيقا للوصول إلى الحقيقة التاريخيّة، إلّا أنّ تكرار بعض النّوازل المتعلّقة بالحرب وأعمال القطع والإغارة في قرى المغرب الأوسط بصفة متكرّرة يجلّنا إلى الأخذ بديمومة الظّاهرة واستمرارها في عهد المؤلّف، بالتالي فإنّ هذا المصدر النّوازلي يرتبط بصفة وثيقة بموضوع بحثنا-الحرب- بالإضافة إلى أنّه عاصر دولة بني زيّان.

### 3- كتب المناقب :

<sup>1</sup> يرجع الفضل في تحديد هذه القرينة إلى الباحث شريحي نبيل الذي تبهني في بداية بحثي إلى عدم نسب هذا المخطوط لابن مرزوق الحفيد مستشهدا بهذا النصّ.



- مناقب صلحاء الشلف وهو مختصر كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأختيار لأبي عمران

موسى بن عيسى المازوني<sup>1</sup>:

تكتسي المادة المستقاة من هذا الكتب أهميتها كونها ساهمت في الكشف عن سلوك المتضررين المصاحب لحالة الحرب وانعدام الأمن، حيث تمّ الوقوف على العديد من النصوص التي ترصد العلاقة بين المجتمع الزياني والأولياء وإقبال المستضعفين عليهم لالتماس الحماية منهم ومن الأماكن المقدسة التي تكون محلاً لهم على اختلاف أنواعها، الأمر الذي يجعلها ترتبط وثيق الارتباط بموضوعنا في شقّه المتعلّق بالبنى العمرانية نظراً لاستهداف هذه الأماكن ذات الرّمزية الروحية والدينية كالزوايا.

- المناقب المرزوقية لابن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1380م) :

ألّف ابن مرزوق كتابه هذا للتعريف بمناقب وشمائل قبيله وأسرته وتخلّل ذلك تطرّقه لأخبار الحروب في المغرب الأوسط الزياني، عاد إلى تلمسان من رحلته إلى القاهرة سنة 737هـ ولقي السلطان المريني أبو الحسن محاصراً لتلمسان فسهّل له التّقرب من البلاط المريني بعد فتحه لتلمسان خلال هذه السنّة، ليلي ذلك مشاركته في رسم الصّلاح بين أبي عنان وأبيه أبي الحسن بعد ثورة أعراب إفريقية سنة 749هـ، كما كان سفيراً للأمير أبي سعيد الزياني الذي رسله في شأن الصّلاح سرا للسلطان المريني أبي الحسن<sup>2</sup>، ألّف كتابه حوالي سنة 763هـ/1362م<sup>3</sup> على إثر اغتيال السلطان المريني أبي سالم (760-762هـ/1359-1361م)، وكلّ هذه القرائن تعكس قربه من البلاط السياسي مما يعطي أخباره بعداً قيمياً خاصة في وصفه للحروب التي سبقت سنة 763هـ/1362م، كما أنّ فائدته لموضوع بحثنا تكمن في رصد العديد من الآثار المترتبة عن الحروب كخراب العمارة الدينية، والأحوال الاجتماعية المرافقة لحالة الحرب لفئة العلماء وأرباب الأموال وعمامة تلمسان، فضلاً تتبّع مسار الاحتراف السلالي الأسري - في هالة مناقبية - في تلمسان خلال العهد الزياني ورصد المؤثرات التي ساهمت في تشييط حركتها كالحروب.

- المسند الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن<sup>4</sup> لنفس المؤلّف :

ساق ابن مرزوق في مسنده الذي ألّفه للإشادة بمآثر السلطان المريني أبي الحسن المريني مادة خيرية عن الحروب أكثر منها عن البنى العمرانية المشيدة على عصر أبي الحسن المريني خاصة منصوره تلمسان وملحقاتها، والخراب الذي

<sup>1</sup> دراسة وتحقيق عبد القادر بويابة، دار الرّشاد للطباعة والنّشر، الجزائر، 2017.

<sup>2</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص ص 66، 67.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 311.

<sup>4</sup> دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغرا، تقديم محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

لحق بها، وأعمال الترميم التي باشر السلطان المريني القيام بها بعد سيطرته على تلمسان سنة 737هـ/1336م لتنتهي أخباره بفراغه من تأليف كتابه مع سنة 772هـ/1370م<sup>1</sup>، وهو المؤرخ الوحيد الذي أعطى معلومات مفصلة ودقيقة عن هذه الأعمال، باعتباره مشرفا عليها، وتحسّس ذلك من القرائن التي قدّمها في مسنده كقوله: "... بعد أيام جاءني أحد شاهدي البناء بالجامع الأعظم من المنصورة ... فردّهما إليّ لأنّ مولانا [أبا الحسن] كلّفني بتعاهد الجامع المذكور واعلامه بالمزيد فيه"<sup>2</sup>، وكذلك قوله: "وأما الثريا فكان عملها على يدي وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها بخطّي"<sup>3</sup>، فكانت من بين العمائر التي شيدها أبو الحسن في المغرب الأوسط، وفي هذا الصدد يقدّم لنا ابن مرزوق المعاصر لإعادة إعمار المنصورة شهادة عيانة بقوله: "... كثرت في دولته العمارات وامتدّت الآمال ... وبني رضي الله عنه بلدين مستقلين أنشأ جميعهما بما اشتملتا عليه من جوامع وحمامات وفنادق وهما المنصورة بسبته ومنصورة تلمسان التي لم ير الزاؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها... فما أظنّ المعمور اشتمل على مثلها فلحا الله من خزبها ولقد حضرت ما أحكيه ممّا يدلّ على اقتداره رضي الله عنه على ذلك وضخامة ملكه وشموخ همته"<sup>4</sup> ممّا يدلّ عن معيّنته لإعادة إعمارها ثم لخربها في المرّة الثانية بعد سقوط عاصمة الدّولة في يد بني عبد الواد سنة 749هـ/1348م.

- أنس الفقير وعز الحقير لابن القنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) : يعتبر هذا المؤلّف من بين المصادر المناقبيّة الغنيّة بأخبار الأولياء والمتصوّفة، استفدنا منه من بعض النّصوص التي تطرّق ابن القنفذ من خلالها إلى دور شريحة الأولياء في التّدخل في الأزمات والحروب خلال العهد الزياني، خاصة أخبار تطرّقه لأخبار حصار تلمسان الطّويل الذي قيّد فيه -رغم الهالة الكراميّة التي أحيطت بها- معلومات هامة تتعلّق بالشّق العسكري.

- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: لابن مريم محمد بن محمد الملبتي التلمساني (ت1014هـ/1605م)<sup>5</sup>: فضلا عن المعلومات التي قدّمها صاحب الكتاب في مجال التّرجمة والتّأريخ للتّخب العاملة والمتصوّفة في مغارب العصر الوسيط خلال الفترة المدروس فيها، فإنّه يتطرّق إلى أخبار حروب وحصارات تلمسان عاصمة الدّولة الزيانيّة ومدى تدخّل الأولياء والصّوفية في تلافي تبعاتها واحتواء إفرازاتها، كما ساهم في تزويدنا

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 29.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 492.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 402.

<sup>4</sup> ابن مرزوق، المسند، مصدر سابق، ص 447-448.

<sup>5</sup> تقديم محمد الصالح الصديق، منشورات السهل، الجزائر، 2009.



بمعلومات مهمة تتعلق بأماكن العمارة العسكرية واستحكاماتها داخل العاصمة الزّيانية كالأبواب والحنادق وغيرها، فضلا عن تطوّره لتضّرر وحدات الانتاج الصّناعي وفضاءات التجارة داخلها بسبب الحروب التي دارت في المغرب الأوسط خلال العهد الزّياني.

#### 4- كتب الآداب السلطانية:

##### - واسطة السلوك في سياسية الملوك لأبي حمو موسى الزّياني (760-791هـ/1359-1389م)<sup>1</sup>:

ألّف أبو حمو الثاني سلطان الدّولة الزّيانية كتابه هذا حوالي سنة 771هـ/1369م وضمّنه مجموعة من الوصايا التي تتعلّق بتدبير الملك والأخلاق والآداب التي يجب على السلطان التحلي بها لوريث عرشه أبو تاشفين الثاني، يكتسي هذا المؤلّف طابع الأولوية في موضوع بحثنا نظرا لأنّ مؤلّفه زواج بين خبرته في المجال العسكري باعتباره مشاركا ومقاتلا في الحروب الزّيانية، ومراكما لهذه التجارب الحربية الميدانية وتقييدها لها في كتابه هذا في شكل وصايا وقواعد وتنظيرات، الأمر الذي يجعل كل الأخبار الواردة بين دفتي كتابه مادة لموضوع بحثنا، علاوة عن ذلك فإنّ أبا حمو يتفرد بتقديم تنظيرات خاصّة بالاستراتيجيات العسكرية النّاجحة كتحريق الأراضي الزراعيّة ومواقيت شنّ الحملات الموسميّة، ويستشهد بوقائع حربيّة شارك فيها خلال العهد الزّياني.

##### - الشهب الّلامعة في السياسة النّافعة لابن رضوان المالقي (ت 783هـ/1381م):

هو أبو القاسم بن عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي نشأ ببلدة مالقة، عينه السلطان أبو الحسن المريني كاتباً له لتميّزه ببراعة الإنشاء والفصاحة وسرعة الفهم وسداد الرأي<sup>2</sup>، ألّف ابن رضوان كتبه هذا بإيعاز من السلطان المريني أبي سالم المريني لتطوير شؤون السياسة والملك<sup>3</sup>، يعتبر كتاب الشهب الّلامعة من بين المرجعيّات المهمّة في فنّ السياسة والحرب، يتضمّن المؤلّف خمسة وعشرون بابا، وقد عقد الباب الثّالث والعشرين في "في سياسة الحروب وتديورها"<sup>4</sup>.

##### - ابن منكلي وكتابه الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدّروب (ت بعد 779هـ/1376م):

هو محمد بن منكلي النّاصري، يعتبر من بين أحد مقدّمي الحلقة السلطانية ثم نقيباً للجيش المملوكي في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن السلطان محمد بن قلاوون (764-778هـ/1362-1376م)، اشتهر

<sup>1</sup> تحقيق وتعليق محمود بوترة، دار الشّيماء للنشر والتوزيع ودار النّعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012.

<sup>2</sup> خميسي بولعراس، مرجع سابق، ص 115.

<sup>3</sup> أبو القاسم ابن رضوان المالقي، الشهب الّلامعة في السياسة الّلامعة، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، المغرب، 1984، ص 17.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 389-415.

بأنه كلن على معرفة وبصيرة تامة بفنون الحرب وحيلها علما وعملا<sup>1</sup>، له العديد من التأليف الحربية: أهمها كتاب الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب السالف الذكر وقد احتوى هذا الكتاب بين دفتيه على تسعة أبواب خصصها ابن منكلي لبسط مختلف الحيل المتعلقة بالحرب وأساليب المواجهة وصناعة مختلف الأسلحة بمختلف أنواعها وطرق الوقاية منها، فضلا عن تطرقه لعلم التعمية وفك شفرات الحرب وطرق التواصل السرية بين أفراد الجيش خلال الحرب.

علاوة على ذلك ألف ابن منكلي العديد من المؤلفات العسكرية نذكر منها: الأدلة الرسمية في التعابي الحربية، المنهل العذب لورود أهل الحرب الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن قتال البحر، التدابير السلطانية في سياسة الصناعة الحربية... وغيرها من المؤلفات الخاصة بالحرب والجوانب العسكرية<sup>2</sup>.

#### - الهرمي وكتابه مختصر سياسة الحروب:

يعتبر كتاب مختصر سياسة الحروب مختصرا مؤلف كبير فقد أيام نكبة بغداد خلال الغزو التتري، يسمى "الحيل في الحروب" ألفه الهرمي الشعراني للخليفة المأمون العباسي<sup>3</sup>، وقد تحدت عن ابن التديم في الفهرست عن هذا الكتاب الكبير تحت عنوان الكتب المؤلفة في الفروسية وحمل السلاح وآلات الحرب والتدبير والعمل بذلك لجميع الأمم فوصفه وصفا يدل على ضخامته فقال عنه: "كتاب الحيل للهرمي الشعراني، ألفه للمأمون في الحروب، جود في تأليفه وجعله مقالتين: المقالة الأولى ثلاثة أجزاء، والمقالة الثانية ستة وثلاثون فصلا، ألف خمسة وعشرون بابا: الجزء الأول عشرون بابا يحتوي على مائتين وأربع وستين مسألة، والجزء الثاني سبعة أبواب..."<sup>4</sup>.

يعتبر المختصر الذي وصلنا إلينا مؤلفا قصيرا بالنسبة إلى أصله حيث احتوى هذا الكتاب على أربعين بابا تختص بأساليب المواجهة والتحصن خلال المواجهات العسكرية، والحيل التي يمكن أن يستخدمها الجيش وغيرها من الصّروب المتعلقة بفنّ الحرب.

#### - التذكرة الهروية للهروي (ت611هـ/1215م):

<sup>1</sup> ابن منكلي، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000، ص 5.

<sup>2</sup> ابن منكلي، المصدر السابق، ص 12.

<sup>3</sup> الهرمي، مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون، مراجعة محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، [د.ت.]، ص 5.

<sup>4</sup> ابن التديم، الفهرست، تح إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط2، 1997، ص 382.

يعدّ مصنّف التذكرة لعلي بن أبي بكر الهروي من بين المصنّفات الهامة في مجال الخطط الحربيّة التي لا مناص لكلّ من رام دراسة التاريخ العسكري خلال العصر الوسيط من الوقوف على مضامينه<sup>1</sup>، يتضمّن الكتاب أربعة وعشرون باباً تختصّ بفنون الحرب وحيلها، وأهمّ ما جاء في هذا الكتاب -فيما يخصّ دراستنا- هو أسلوب نشر الوباء خلال حالة الحرب عن طريق وسيطي الماء والهواء في بابه الثالث والعشرين<sup>2</sup>.

#### - كتاب آثار الأول في تدبير الدّول للحسن العبّاسي:

هو الحسن بن عبد الله بن عمر بن محاسن العبّاسي من نسل الخليفة هارون الرّشيد، تجاهلت كتب التّراجم هذا الرّجل فلم تتعرّض لحياته ولا لتكوينه في هذا العلم ولا يوجد لدينا سوى ما سجله عن نفسه في كتابه هذا<sup>3</sup>.

#### 5- كتب الأدب:

#### صبح الأعشى لشهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ/1418م)<sup>4</sup>:

عاصر القلقشندي عصر المماليك في مصر وألّف كتبه صبح الأعشى خلال هذه الفترة، ومع أنّ كتاب ينتمي إلى فروع الأدب إلا أنّه تقاطع مع علم التاريخ، فقد تطرّق المؤلّف في كتابه لوصف تلمسان عاصمة الدّولة الزيانيّة، كما تطرّق في بيانه واستحضاره لنماذج رسائل الملوك نماذج من رسائل تعود بعضها إلى العصر الزياني، وفي مقدّماتها رسالة أبي الحسن المريني (731-749هـ/1332-1348م) التي بعثها لسلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون (709-741هـ/1310-1341م) بعدما ضيق السلطان الزياني أبو تاشفين الأوّل الخناق على بجاية، وقد احتوت هذه الرّسالة على معلومات مهمّة تتعلّق بالحصار الطويل الذي ضربه المرينيون على تلمسان (698-706هـ/1299-1307م) والحصار المضروب عليها من طرف أبي الحسن المريني بين سنوات (735-737هـ/1335-1337م).

#### 6- الجغرافيا والرّحلات :

#### - المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري (ت487هـ/1094م)<sup>5</sup>:

<sup>1</sup> بوقاعدة البشير، خطة الحصار العسكري في بلاد المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والثامن هجريين (10-14م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي، إشراف جميلة بن موسى، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2016-2017م، ص65.

<sup>2</sup> أبو بكر الهروي، التذكرة الهروية في الحيل الحربيّة، مكتبة الثقافة الدّينيّة، بور سعيد-مصر، [د.ت.]، ص26.

<sup>3</sup> العبّاسي الحسن بن عبد الله (ت710هـ/1310م)، آثار الأول في ترتيب الدول، تحقيق عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، 1989، ص22.

<sup>4</sup> المطبعة الأميريّة، القاهرة، 1915.

<sup>5</sup> دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [د.ت.] .

احتوى هذا المؤلف - وإن سبق عهد الدولة الزيانية - عن الكثير من المعطيات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والعمرائية، ترجع أهميته في موضوع بحثنا لاشترائه في أحد متغيرات العنوان - المغرب الأوسط - الذي اخترناه ليكون موضوعا لبحثنا، إذ يعتبر هذا المسند الجغرافي أول مسند تطرق إلى ذكر مصطلح المغرب الأوسط، مما جعله مرجعية لبحثنا للتأسيس لظهور المغرب الأوسط إلى فترة سابقة لظهور دولة بني عبد الواد.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (ت 749هـ/1348م) :

عاصر ابن فضل الله العمري فترة حكم دولة بني عبد الواد إلى غاية ثورة أهل تونس على أبي الحسن المريني، ترجع أهميته إلى ما احتواه مصنفه حول أهمية الحصانة الطبيعية والصناعية لعديد المدن ومنها تلمسان، ومما زاد هذا المصنف قيمة تطرقه إلى انعكاسات الحرب وتبعاتها وانعدام حالة الأمن على أسعار الأقوات، فضلا عن تطرقه لأخبار حصار أبي الحسن المريني لتلمسان وكشفه لمصادر المياه السرية التي كانت تنزود بها تلمسان خلال ضرب الحصارات المرينية عليها.

- الرحلة المغربية لمحمد العبدري البننسي (ت 720هـ/1320م) :

انطلق العبدري لآدا فريضة الحج في 25 ذي القعدة من سنة 1289/688م وسجل أثناء رحلته كل ما رآه في ذهابه وإيابه وكان قد مرّ بكثير من المدائن في المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، وقد مرّ في طريقه بتلمسان في سياق زمني كان فيه المغرب الأوسط تحت حكم مؤسس دولة بني عبد الواد، وقيد بعض الملاحظات التي تتعلق بموضوع بحثنا، ذلك أنه نوه إلى انعدام الأمن وندد بأعمال اللصوصية في الطريق الرابط بين تلمسان وفاس كونه لا يخلو من قطاع الطرق، بالإضافة إلى وصفه لبلد تلمسان ومقوماتها الطبيعية وحماتها وبعض بُناها العمرانية خلال هذه الفترة مما يسمح بمراكمه بعض المعلومات عن المعطى الاقتصادي خلال القرن الثامن.

- الرّوض الباسم في حوادث العمر والتّراجم<sup>1</sup> لعبد الباسط بن خليل (ت 920هـ/1514م) :

رغم قلة الأخبار الواردة في هذا التّأليف بخصوص الدولة الزيانية إلا أنه من بين أهم المصادر التي اعتمدنا عليها، لكونه من المصادر الرحالاتية القليلة التي قدّمت معلومات مباشرة عن تاريخ هذه الدولة باعتباره زار المغرب الأوسط خلال النّصف الثاني من القرن 9هـ/15م<sup>2</sup> على عهد السلطان المتوكّل الزياني (866هـ-873هـ/1462-

<sup>1</sup> نشره روبرار برنشفيك بعنوان: deux récits de voyage inédits en afrique du nord au XV<sup>e</sup> siècle. larose edieurs , publications de d'études orientales de la faculté des lettres d'alger, 11, rue victor,cousin,paris, 1936.

<sup>2</sup> التنسي، نظم الدرّ والعقيان، مصدر سابق، ص 54.

1468م) وغطى لنا بعض الحوادث التاريخية المتعلقة بالمغرب الأوسط الزياني بين تاريخي 869هـ-871هـ/1465-1467م أين قضى هذه الفترة في المغرب الأوسط منتقلاً بين مدن المغرب الأوسط<sup>1</sup>، كما أنه يربط بموضوع بحثنا لاشتماله على أخبار بعض الحروب التي تعود لهذه الفترة، زيادة على ذلك فإنه حوى بين دفتيه على أخبار تتعلق بتأثير الحروب في المغرب الأوسط الزياني على الجوانب الاقتصادية كالسكة وغيرها من معطيات الوضع الاقتصادي آنذاك.

- الحسن بن محمد الوزان الفاسي الوزان المعروف بليون الإفريقي (ت بعد 957هـ/1550م)<sup>2</sup>:

تكمن أهمية هذا المصدر ويظهر ارتباطه بموضوع بحثنا في العديد النقاط؛ فالوزان زار تلمسان أثناء رحلته إلى الحجاز سنة 921هـ/1516م وسلك فيها مع ركب الحجاج الفاسيين الطريق الشمالي عبر مدن تازا فدبدو فتلمسان فتونس<sup>3</sup>، مما يعطي مشاهداته التي قيدها في كتابه وصف إفريقيا عن المغرب الأوسط قيمة جغرافية وتاريخية كبيرة ذلك أن الجغرافي زار كل من تلمسان وإقليم بني راشد وتنس والجزائر وغيرها، قدم لها وصفا جغرافيا وتاريخيا في مرحلة متأخرة من عمر الدولة الزيانية، ترتبط هذه الأوصاف ارتباطا وثيقا بموضوع بحثنا كونها تطرقت إلى الحياة الاقتصادية والمؤثرات التي أثرت عليها وقللت من نشاطها بسبب الحرب، فضلا عن وصفه لخراب بعض المدن واندثارها بسبب الحروب، كما قدم معلومات تعلق بقضية حدود الدولة الزيانية منذ تأسيسها وارتباطها بالحرب فاتحا المجال للمطارحة التي شرعنا فيها استهلالا في التأسيس لموضوع الحدود انطلاقا من التاريخ العسكري للدولة الزيانية. زيادة إلى العديد من المصادر الجغرافية - التي يضيق المقام عن لتطرق إليها جميعا - التي ساعدتنا - بعد مقارنتها - في رسم مجال المغرب الأوسط مرحليا، والوقوف على مواطن التداخل والتوافق في تحديد أبعاد وتخوم المغرب الأوسط إلى غاية قيام دولة بني زيان.

-7 كتب الحسبية:

- كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر لأبي عبد الله محمد بن قاسم بن سعيد العقباني (ت 871هـ/1468م): كتاب يتضمّن نصائح وإرشادات للمحتسبين والقضاة في إطار تحقيق مقاصد الشريعة وإصلاح مجتمع المغرب الأوسط وتغيير المناكر المحدثّة في عصر المؤلف استنادا إلى مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يرتبط هذا المصدر بموضوع دراستنا كونه تطرّق إلى المعاملات الاقتصادية التي اختلف العلماء في

<sup>1</sup> عبد الباسط، المصدر نفسه، ص 48-63.

<sup>2</sup> ترجمة محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 10/1.

مشروعيتها وبعض المعاملات التي ترافق حالة الحرب كتدليس العملة والغشّ فيها، فضلا عن تطوّقه لمسائل ترتبط بالحرب كالحراقة وصناعة الأسلحة بمعادن نفسية كالذهب.

## 8- الوثائق:

### - وثائق ومراسلات أرشيف التاج الأروغوني:

اعتمدنا على قسم الوثائق والمراسلات الملكية الديبلوماسية (Cartes Real Diplomaticas) بأرشيف تاج أرغون (Archivo de la Corona Aragon)، نظرا لكونها غطت فترة هامة من تاريخ المغرب في العصر الوسيط تعود لفترة حكم الحفصيين (626-982هـ/1227-1274م) والزيايين (633-962هـ/1235-1554م) والمرينيين (668-869هـ/1269-1465م).

وترتبط هذه المصادر الأولية بموضوعنا ارتباطا وثيقا كونها -أولا- تتضمن مادة تاريخية تعود للعهد الزياني في صيغة تقريرية الغرض منها الإعلام وليس كتابة التاريخ الأمر الذي يجعلها أكثر موضوعية، فضلا عن كونها تغطي تاريخ العلاقات السياسية والعسكرية لمملكة أرغون مع إفريقية ومملكة تلمسان والمغرب الأقصى وقرطبة ومصر، وهي مؤرخة بين القرنين 7 و9هـ/1315م، كما يختص معظمها بالعلاقات التجارية بين العدوتين بما فيها الضرائب والإتاوات السنوية والامتيازات الجمركية ومعاهدات السلم، وتحتوي أيضا على مراسلات تخص الملاحة والقرصنة البحرية بين ممالك شمال إفريقيا والدول الأوروبية، ومعاهدات خاصة بمسائل الأسرى وتعيين القناصل والسفراء.

## 9- المراجع :

- الحرب والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني لحميد تيتاوي<sup>1</sup> : شكّلت هذه الدراسة مرجعية هامة لموضوع بحثنا حول الحرب وانعكاساتها على البنى في المغرب الأوسط، لاشتراك متغيرات موضوع حميد تيتاوي -باعتبار دراسته قد غطت جوانب مهمة من تاريخ الحرب بالمغرب الأقصى وأبانت على انعكاساتها على البنى الاجتماعية والعمرائية والذهنية - في شق كبير من دراسته مع موضوع بحثنا، والتقاءها معه في العديد من المواطن، حيث عالج فيه الباحث موضوع الحرب باستفاضة وهيكل موضوع بحثه وقسمه إلى بابين حوت مضامينها مقاربات رصينة حول التاريخ العسكري في المغرب الأقصى، الأمر الذي أسس لنا للانطلاق في موضوع بحثنا عن الحرب بناءً على ما راكمناه من معرفة من هذا الكتاب، وتظهر أهميته أيضا في كونه غطى موضوع الحرب المتعلق بأحد الأطراف الفاعلة

<sup>1</sup> إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2010.



في التاريخ العسكري الزباني وهي الدولة المرينية التي تشترك معها دولة بني عبد الواد في العديد من الوقائع التاريخية العسكرية.

- **النخب العسكرية بالغرب الإسلامي لخميسي بولعراس<sup>1</sup>**: عُدَّت دراسته من بين الأبحاث المتميزة والفريدة نظرا لاعتباره متخصصا في البحوث التاريخية العسكرية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، وقد جاء كتابه هذا ليوضح مساهمة الطبقة العسكرية في تطوير المشروع العسكري بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط انطلاقا مما حوت مصنفاتهم من نظريات واستراتيجيات عسكرية وبسط لأساليب القتال وهيكله للمنظومة القتالية الناجحة التي ضمنتها هذه النخب مصنفاتها، وهو بذلك يفتح أفقا جديدة باقتراح موضوع جديد لدراسة التاريخ العسكري انطلاقا من مصنفات النخب القيادية، تكمن أهمية هذا المرجع في مساهمته - في بعض فصوله - في تحليل النظريات العسكرية التي تصاحب حالة الحرب وتكون مدعاة لوقوع الضرر الاقتصادي والعمري، كما عقد الباحث في مؤلفه فصلا كاملا عن النظريات العسكرية المنتهجة من طرف السلطان الزباني أبي حمو موسى الثاني مستأنسا بكتابه واسطة السلوك، الأمر الذي ساعدنا في فهم أثر الحرب على هذه البنى بناءً على نظريات عسكرية مغرب-أوسطية بحتة، تتعلق بتخريب الأراضي الزراعية وتحويلها، وتخريب للبنى العمرانية بما يتوافق وأسلوب الحرب وتكتيكه الناجح لدى هذه النخب.

- **الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين للوبني زبير<sup>2</sup>**: يسلط هذا الكتاب الضوء على أحد العناصر التي يتم إغفالها في أغلب البحوث التي تناول بالبحث موضوع الحرب، وهو عنصر الماء الذي يعتبر عاملا معياريا في الحروب خلال العصر الوسيط، وتأتي أهمية هذا الكتاب في المقاربات التي قدمتها الباحثة حول الماء وارتباطه بالبعد الاجتماعي والعمري خلال الحرب والكوارث الطبيعية في المغرب الأقصى خلال العصر السعدي، الأمر الذي جعلنا في نركن في بعض تفسيراتنا في بحثنا هذا إلى تجاوز معايير العدة والعتاد في تفسير مخرجات المعارك والحروب والوقوف على هذا العنصر الذي شكّل فارقا في نتائج الحروب في المغرب الأوسط الزباني.

- **خطة الحصار لعسكري في بلاد المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والثامن هجريين (14/10م)** للبشير بوقاعدة: هي في الأصل أطروحة دكتوراه عالج فيها الباحث -بنزعة تحليلية رصينة- أحد صور الحرب ألا وهي حصار المدن، ونظرا لأنّ حرب الحصار تكون في مخرجاتها أكثر وطأة على الخراب بمختلف صورته فإنّ موضوع

<sup>1</sup> النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018.

<sup>2</sup> دار الأمان، الرباط، 2016.

## مقدمة

دراسته شكّل حجر الأساس في الكثير من المقاربات التي وُظفت في دراستنا، خاصة وأن الباحث قد أردف بحثه بنماذج انتقائية لصور الخراب وحالة التّزيف العمراني تعود للعهد الزّياني، كما قدّم بعض الأسانيد لتبعات الحرب من خراب وإعادة تأهيل للمجال العمراني.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



# الفصل الأوّل:

واقع الحروب والمواجهات العسكريّة المباشرة في  
المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

## المبحث 01: مسألة<sup>1</sup> الحدود بالمغرب الأوسط بين التقسيم الجغرافي والظاهرة الحربية:

تعتبر إشكالية تحديد مجال المغرب الأوسط خلال العهد الزياني وحصره بمحدّدات واضحة المعالم من بين أشدّ المواضيع تعقيدا، وأكثرها احتياجا للاستناد -المتزامن- إلى المآخذ الجغرافية والفقهية<sup>2</sup> والثقافية<sup>3</sup> والعسكرية، دون الاشتغال عليها منفصلة للوصول إلى مقاربات رصينة تهدف إلى ضبط مجاله خلال العصر الوسيط. إنّ اعتماد المآخذ الجغرافي لضبط مجال المغرب الأوسط Meghreb Central<sup>4</sup> في القرون التي سبقت قيام الدولة الزيانية 633هـ/1235م، يضع الباحث أمام مطارحة ذات أبعاد ظرفية ومرحلية؛ ذلك أنّ بعض الجغرافيين أثناء وصفهم لبلاد المغرب الإسلامي كانوا لا يضعون حدودا وإتّما يصفون المجال على امتداده من برقة إلى طنجة<sup>5</sup>، كما يجعلون مفهوم المغرب أو المغرب يعني مجموعة جغرافية وبشرية متناسقة فيما بينها، تستخدم هذه المجموعة للدلالة على فضاء متميز من دار الإسلام يمتد من برقة إلى المحيط الأطلسي وينزل من الشمال المتوسطي في اتجاه السوس الأقصى وما وراء سجلماسة إلى حدود السنغال، هذا الفضاء الكبير الذي يحوي هذه التجمعات البشرية والتكبيات القبليّة جعل -أيضا- ثلّة الجغرافيين يجاوزون التقسيم الجغرافي ويعمدون إلى تسمية الجهات باسم القبائل الصّارية فيها، تفاديا للخلط بين جذور القبائل وتفرعاتها، وعليه فإن ضبط الحدود الجغرافية مرهون باستقرار هذه الجماعات والتكبيات البشرية والقبليّة في أماكن تواجدها<sup>6</sup>، وهو ما لا يتأتى دائما في ظلّ التغيّرات السياسيّة، والحراك القبلي، والنشاط العسكري الذي شهدته معظم دول المغرب في العصر الوسيط.

<sup>1</sup> تمّ توظيف هذا المصطلح لاستعصاء حلّ إشكالية الحدود في المغرب الأوسط، فمعظم الدراسات التي تناولت الموضوع كانت نتائجها نسبية وفي هذا الصّدّد سنحاول استغلال القرائن التاريخية العسكريّة كمأخذ بديل لدراسة الظاهرة الحدودية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني.

<sup>2</sup> استند الدكتور عبد القادر بوعقادة إلى هذه المرجعيّات في مقارنته لرصد مجال المغرب الأوسط. هل المغرب الأوسط خرافة، مجلة عصور الجديدة، العدد 21-22، ماي 2016، ص 60-75.

<sup>3</sup> استند الدكتور طاهر بونابي إلى هذه المرجعية، لتحديد مجال المغرب الأوسط من خلال تتبعه للمصنّفات الفقهية ومؤلفات النخبة العاملة. الطاهر بونابي، الحركة الصوفيّة في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع هجريين (14-15 ميلاديين)، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، إشراف عبد العزيز فيلاي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008، ص 110-111.

<sup>4</sup> Fouad Zaim, histoire et analyse des faites économique et sociaux, Edition guessous, 1993, p63

<sup>5</sup> حميد أجميلي، جوانب من التاريخ الديمغرافي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (6-8هـ/ 12-14م)، تق: ابراهيم القادري بودشيش، منشورات مركز تافيلالت للدراسات والتنمية والأبحاث التراثية، المغرب، 2016، ص 63.

<sup>6</sup> محمد تضرغوت، نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامي، تق: محمود اسماعيل، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص 95.

أما بالنسبة إلى الاستناد إلى المآخذ الثقافي فإنّ الباحث طاهر بونابي قد عمد إلى استحداث نمط آخر لتحديد مجال المغرب الأوسط وحدوده، من خلال مزاجته بين المجتمع وإنتاجه الثقافي للوقوف على مقاربات تهدف إلى رصد هذا المجال في مرحلة متأخرة<sup>1</sup>، وذلك بتتبعه لانتماءات ومؤلفات النخبة العاملة والمتصوّفة في كتب الطبقات والتّراجم استناداً إلى مؤلّف الغبريني (ت 714هـ/1314م) "عنوان الدّراية"، وأقرّ أنّ حدود المغرب الأوسط امتدت من بلاد العنّاب شرقاً إلى تلمسان غرباً إلى صحراء توات جنوباً، إذ أنّ الغبريني البجائي ترجم لعلماء ومتصوفة وفقهاء من عنابة وبجاية وبواديهما من بني يتورغ وبني غليس وبني منجلات ومشدالة ومن قسنطينة وأريس وبكسرة وقلعة بني حماد والمسيلة وجزائر بني مزغنة ودلس ومليانة ووهران وتلمسان، وجعل انتماء هذه المدن والقبائل إلى المغرب الأوسط<sup>2</sup>، ووظّف مصطلحات "المغرب الأوسط" و"الأقصى" و"إفريقية" في تراجمه، إذ نجده عند ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد القرشي (ت 692هـ/1296م) يقول: "وفي مدة خطورة على بجاية اجتمع بمشائخنا رحمهم الله وسألهم عما صنّفوه... وانفصل إلى المغرب فبلغ أقصاه.... ثم رجع إلى حاضرة إفريقية"<sup>3</sup>، أما عن مصطلح "المغرب الأوسط" فقد وظّفه عند ترجمته لعبد الحق بن الربيع بن أحمد البجائي (ت 675هـ/1295م) بقوله: "...وعرض عليه قضاء بجاية فامتنع ووصل إليه كتاب المستنصر من حاضرة إفريقية لتولّي قضاء قسنطينة فاعتذر. وسمعت كثيراً من أهل العلم يثنون عليه، ويقولون أنه لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله"<sup>4</sup>، رغم أنّ بجاية آنذاك كانت تابعة للحكم الحفصي، وعليه فإنّ الاستدلال استناداً إلى المآخذ الثقافي لتحديد مجال المغرب الأوسط لا يكاد يخلو من مزالق قد تحيد بالباحث عن الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

**المطلب الأول: إشكالية التقسيم الجغرافي الإزدواجي (شرقي/غربي) لمغرب العصر الوسيط:**

بالموازاة مع ما تمّ بسطه فإنّ استغلال التّزر اليسير من القرائن الموجود في المصادر الجغرافية والتاريخية يضع الباحث أمام مفارقة تتعلّق بظاهرة تغييب مجال المغرب الأوسط، أو تسمية هذا المجال باسم القبائل والتّركيبات البشرية<sup>5</sup> التي تشغل هذا الحيز الجغرافي، كما يضعه أمام إشكالية تداخل تحومه الشّرقية والغربية مع حدود المغربين

<sup>1</sup> عبد القادر بوعقادة، الحركة الفقهية في المغرب الأوسط بين القرنين 8-7هـ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تخصص التاريخ الوسيط، إشراف لطيفة بشاري، قسم التاريخ، جامعة الجزائر-2، أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 2015-201م، ص 268.

<sup>2</sup> عبد العزيز فيلاي، بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2014، ص 13.

<sup>3</sup> أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجالية، تح: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979، ص 384.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 60.

<sup>5</sup> يذكر ابن خلدون في عبره أن يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط. كما يذكر في مواضع أخرى أنّ المغرب الأوسط هو ديار زناتة. وهو بذلك يستدلّ بالتركيب القبلي للدلالة على مجال المغرب الأوسط. عبد الرحمان بن

الأقصى والأدنى، فعلى المستوى الأول نجد أنّ اعتماد الجغرافيين على التقسيم الإزدواجي (شرقي/غربي) قد أقصى المغرب الأوسط من حيث هو مجال يتوسّط شرق وغرب بلاد المغرب، وعلى هذا الأساس قسّم العديد منهم هذا التقسيم وأهمهم ابن حوقل (ت 367هـ/977م) الذي يرى أنّ المغرب " ممتد على بحر الروم ولبحره عمارتان تنقسم بنصفين فنصف من شرقيّ هذا البحر للعرب والرّوم ... وأما الغربيّ منه فمن مصر وبرقة إلى إفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة فللعرب"<sup>1</sup>، والاصطخري (ت في النصف الأول من ق 4هـ/10م) الذي قسّم بلاد المغرب إلى قسمين " يمتدان على بحر الرّوم نصف من شرقيّه ونصف من غربيّه"<sup>2</sup>، ويرى صاحب كتاب حدود العالم الذي كتب كتابه سنة 372هـ/982م أنّ حدوده " شرقيّها بلاد مصر، وجنوبيّها برية ينتهي آخرها ببلاد السودان وغربيّها بلاد بحر الأقيانوس المغربي وشماليتها بحر الرّوم"<sup>3</sup>، كما نجد أنّ المرّاكشي (ت 647هـ/1249م) يضع حدودا لبلاد المغرب بقوله: " فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرّومي، مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة، وآخرها ممّا على ساحل البحر الأعظم مدينة طنجة"<sup>4</sup> ويجعلها قسمين : قسم شرقيّ هو إفريقيّة و"قسطنطينة آخر بلاد إفريقيّة ما يلي البحر منها وما يلي الصّحراء"<sup>5</sup>، وغربيّ " ما بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير إفريقية"<sup>6</sup>.

أمّا عن مواطن التّداخل فنجد أنّ العديد من المصادر الجغرافيّة والتّاريخية تضع كلا من الحاضرتين بجاية وتلمسان قاعدة للمغرب الأوسط، فبينما تجمع ثلّة من الجغرافيين على أنّ تلمسان قاعدته<sup>7</sup> وفي مقدّماتهم البكري (ت 487هـ/1094م) الذي أجمع الباحثون دونما استثناء أنّه أولّ من استخدم مصطلح "المغرب الأوسط" رغم

---

خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، لبنان، 2000، ص 228. 134/6.

<sup>1</sup> ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1996، ص 64.

<sup>2</sup> الاصطخري، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927، ص 36.

<sup>3</sup> مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1999، ص 135.

<sup>4</sup> عبد الواحد المرّاكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدّمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949، ص 354.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 357.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

<sup>7</sup> نرجح أن يكون الغرض من توظيف كلمة قاعدة في التّص الجغرافي الدّلالة على التّخم والحدّ سواء كان شرقيا أو غربيا، وبذلك فإنّ إشكاليّة هذا التّداخل في تعيين كلّ من تلمسان وبجاية قاعدة للمغرب الأوسط قد تفكّ، خاصّة وأنّ المدلولات اللّغويّة لكلمة "قاعدة" تُؤيّد هذه الفرضيّة إذ أنّ القواعد أصل الأسّ، والقواعد أساطين البناء التي تعمّده، وقال ابن الأثير: أراد بالقواعد ما اعتزّض منها وسفل، تشبيها بقواعد البناء. ابن منظور، لسان العرب، ص 3689.

ما في ذلك من مجازفة<sup>1</sup>، إذ يرى أن تلمسان "قاعدة المغرب الأوسط"<sup>2</sup>، وصاحب كتاب الاستبصار(ت ق6هـ/12م) بقوله أنّ المغرب الأوسط " فيه مدن كثيرة، وقاعدتها تلمسان"<sup>3</sup>، وابن خلدون بقوله: "... وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان"<sup>4</sup>، إلّا أنّ نفرا من الجغرافيين والمؤرخين يخالفون الآراء السابقة، فالحميري (ت728هـ/1328م) يرى أنّ بجاية "هي قاعدة المغرب الأوسط"<sup>5</sup>، كذلك محمد بن علي البروسي (ت997هـ/1589م) بقوله " بجاية بكسر الباء الموحدة ... هي قاعدة المغرب الأوسط"<sup>6</sup>، ويتفق معهما صاحب كتاب بسط الأرض (ت685هـ/1418م) ونلمس ذلك في قوله: " وهي فرضة مشهورة وفي شرقها قاعدة المغرب الأوسط بجاية"<sup>7</sup>، وقدّم القلقشندي طرحا تجاوزيا يفضي إلى أن بجاية هي مدينة من مدن الأوسط وقاعدة له بقوله: " وبجاية بكسر الباء الموحدة...مدينة من مدن المغرب الأوسط ... هي قاعدة المغرب الأوسط"<sup>8</sup> ويشير إلى تناص مادته ونقله لهذه الأخبار من كتاب تقويم البلدان.

بناءً على ما سبق عرضه من شواهد يتضح أنّ هذه القرائن لا تعكس بدقة مجال المغرب الأوسط، فبالإضافة إلى التّضارب الصّارخ في المصنّفات الجغرافيّة السابقة، نجد أنّ العديد من المناطق والمجالات أُخليت من

<sup>1</sup> يجدر الإشارة إلى أن هذا التاريخ يشكل امتدادا للمعلومات الجغرافية التي استقى منها البكري معلومات كتابه "المسالك والممالك" من كتاب " في مسالك إفريقيا وممالكها" الضائع لمحمد بن يوسف الوراق(ت363هـ/973م)، الذي عاش في القيروان وقرطبة وأفرد كتابه لوصف المغرب في هذا المصنّف، وعليه فإن الصّورة توجب التساؤل عن ظهور مصطلح المغرب الأوسط في مصنّف الوراق قبل سنة 487هـ أي قبل أول ظهور له في كتاب البكري؟ خاصة وأنه تتوافر لدينا قرائن تفيد بأنّ البكري اعتمد "اعتمادا كلياً" على كتاب محمد بن يوسف الوراق "مسالك إفريقيا وممالكها". ويبقى هذا التساؤل مقيدا نظرا لضيق مؤلف محمد بن يوسف الوراق. انظر: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، القسم الأول، تر: صلاح الدين عثمان، مراجعة ايغور بايايف، moskova, leninorad، 1957، ص 169. الحبيب الجنحاني، دراسات مغربيّة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، داري الطليعة، بيروت، 1980، ص 80.

<sup>2</sup> أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [د.س.]، ص76.

<sup>3</sup> مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، [د.ت.]، ص176.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، 76/1.

<sup>5</sup> محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت، 1984، ص135.

<sup>6</sup> ابن سباهي زادة، أوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك، تح: المهدي عبد الرواحية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص194.

<sup>7</sup> ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، تح: خوان قرنيط خينيس، خزنة محمد نزار الدباغ، تطوان، المغرب، 1958، ص 76.

<sup>8</sup> القلقشندي، مصدر سابق، 109/5.

سكانها وكثيرا من المدن خزيت وكثير من القبائل غيرت مقرّ استقرارها<sup>1</sup>، نتيجة للاضطرابات السياسية والحروب التي كانت لها إفرازاتها وتأثيراتها على ولاء القبائل وانتماءاتها الجغرافية، وهو ما أثر على حيوية المجال من حيث امتداده وتقلصه، ذلك أنّ الشرخ السياسي أو الصّراع على " المتاخمة في العملات"<sup>2</sup> - كما يسمّيه ابن خلدون - بين هذه الدول آل في غالب الأحيان إلى التّدخلات العسكرية، وإقامة مراكز عسكرية تعتبر حدودا مؤقتة فاصلة بين القوى المتصارعة، يؤول دورها كعلامات حدودية إلى الزوال بمجرد تراجع نفوذ أصحابها، كما يمكن أيضا اعتبار بعض القبائل الموالية لأحد الأطراف المتحاربة حواجز بشرية تتموضع في خط التماس لتكون خطّ الدفاع الأوّل عند حالة الحرب، الأمر الذي يجعل من دورها الوظيفي يشبه إلى حدّ بعيد دور الحصون المعدة لهذا الغرض<sup>3</sup>، خاصة إذا علمنا أنّ الحرب هي سلوك اجتماعي يتعلق بظاهرة عنف جمعية بين قوتين أو دولتين تهدف إحداها إلى إضعاف الأخرى واحتلال مواقعها وأراضيها بكلّ الطّرق المتاحة<sup>4</sup>.

تأسيسا على ذلك لم يكن أفيد تبني النصوص الجغرافية على وجه التّخصيص لتحديد المجالات الحدودية في المغرب الأوسط نظرا للمتغيّرات التي تطرأ عليها بسبب العوامل السياسية المختلفة، وعليه فإنّ تركيب النصوص التاريخية يضع الحتمية العسكرية في الإطار التراتبي الأول كميّار لتحديد المجال الجغرافي، وهي المطارحة التي أدلى بها التنسي عند عرضه لأخبار دولة بني زيّان في أوج قوتها العسكرية على عهد أبي تاشفين الأول في قوله "ومهد الأرضين... إلى أن بلغت أيامه أقصى مداها"<sup>5</sup>، وقد توافق معه ابن خلدون عندما زواج بين تقلّص حدود الدولة الزيانية في عهد ذات السلطان استنادا إلى المعطى العسكري، إذ يرى أن الضّغط العسكري المريني على عهد أبي الحسن كان سببا في تراجع حدود الدولة، ويتّضح ذلك في قوله: "فانكمش بنو عبد الواد إلى ما وراء تخومهم"<sup>6</sup>، وقد كان ابن خلدون دقيقا في استعماله لمصطلح "تخوم" إذ أنّ الدّلالة اللّغوية للكلمة تمثّل حدود وفواصل المجالات الجغرافية<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> حميد أجميلي، جوانب من التاريخ الديمغرافي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (ق6-8هـ/12-14م)، تق: إبراهيم القادري بودشيش، منشورات مركز تافيلالت للدراسات والتنمية والأبحاث التراثية، المغرب، 2016، ص 68.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 171/7.

<sup>3</sup> نلمس ذلك في حملة السلطان أبي زكريا الحفصي على تلمسان سنة 640هـ/1242م، فبعد أن دخلها عنوة قام بتسليمها إلى سلطانها يغمراسن وتراجع إلى بلاده بعد أن " أقام في في طريقه ملوكا من توجين ومغراوة ومليكش، جعلهم أسوارا حاجزة بينه وبين أمير المسلمين يغمراسن" حسب شهادة التنسي. التنسي، مصدر سابق، ص 118.

<sup>4</sup> محمد العادل لطيف، الخوف ببلاد المغرب في العصر الوسيط، تق: محمد الطاهر المنصوري، زينب للنشر والتوزيع، تونس، 2019، ص 357.

<sup>5</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 140.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 146/7-147.

<sup>7</sup> يشير جرودن ايست على أنّ مصطلح "التخوم" يمثّل من حيث الدّلالة اللّغوية حدود وفواصل المجالات الجغرافية الحيوية بين دول العصور الوسطى مشرقا ومغربا. محمد تضرغوت، مرجع سابق، ص 83.



إنّ القرائن السابقة قد توضّح ما ساقته بعض الدّراسات حول حدود المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، وإرجاء ضبط حدوده إلى غاية بلوغ القرن الثامن فدهينة عطا الله يرى بأن محدّدات الدّولة الزيانيّة الجغرافيّة ومجالها لم يُضبط إلّا في عهد أبي تاشفين الأوّل ويرى بأنّه المؤسس الفعلي للدّولة، وفي هذا الصّدّد يقول دهينة: "... تعتبر هذه العشريّات الثلاث (707-738هـ/1307-1337م) هامّة نظرا للاستقلال التام الذي عرفته مملكة تلمسان، هذه المملكة القائمة على الأرض المسماة اليوم بالجزائر وكانت هذه المملكة مستقلة تماما ومنفردة بكلّ وضوح عن جارتها في الشرق والغرب"<sup>1</sup>، بينما أرجى أبو القاسم سعد الله ضبط حدوده إلى قرن لاحق من التاريخ الذي قدّمه دهينة نظرا للاضطرابات السياسيّة التي شهدتها المغرب الأوسط خلال القرن التاسع هجري، ونلمس ذلك في قوله: "... وبالرغم من أنّ القرن التاسع كان عهد إنتاج ثقافي وثير فإنّه على المستوى السياسي كان عهد اضطراب و... إنّ عبارة المغرب الأوسط التي أطلقها العرب المسلمون لم تكن تعني بالضبط حدود الجزائر الحاليّة لأنّ هذه العبارة وأمثالها (المغرب الأدنى والأقصى) كانت غامضة غموض حدود الإمارات الإسلاميّة التي تعاقبت على حكم المغرب العربي"<sup>2</sup>. وأيّما ما كان الاختلاف في هذه الشّواهد فإنّها تعكس بجلاء أثر المظهر العسكري في تشكيل حدود المغرب الأوسط، وتضعه عاملا معياريا يتجاوز التّوصيف الجغرافي-الظرفي- والمأثور التّقافي الدّال على مجالات الدّول القائمة في المغرب الإسلامي، ولعلّ ابن خلدون قد جانب الصّواب حينما زواج بين مجال الدّول المغاربيّة وبين الامتداد المكاني للعصبيّات ذات الغلبة، حيث أقرّ أنّ انحصارها أو تمدّدها كان يتوقّف على مقدار قوّة العصبيّة أو وهنها<sup>3</sup>.

المطلب الثاني: المظهر العسكري مأخذ آخر لتفسير المسألة الحدوديّة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني:

ظلّت المسألة الحدودية بالمغرب الأوسط مدار بحث للعديد من الباحثين الأكاديميين وديدنا للكثير من الدّراسات التاريخيّة<sup>4</sup>، وقد عمدت هذه النّخب إلى الاستقصاء في جميع المآخذ التاريخيّة لاستجلاء معايير محدّدة

<sup>1</sup> عطا الله دهينة، العصر الذهبي للزيانيين، من كتاب الجزائر في التاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 383.

<sup>2</sup> أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر التّقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، 1/39-40.

<sup>3</sup> عقد ابن خلدون في المقدّمة فضلا سمّاه " في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانيّة واسم الكوهن عند اليهود" وضرب العديد من الأمثلة لدور العصبيّات الغالبة في تأسيس الدّول وانحصار وتمدّد مجالاتها. عبد الرحمان بن خلدون، المقدّمة، تح: عبد السلام الشّدادي، خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدّار البيضاء، 2005، 1/388-394.

<sup>4</sup> الطاهر بونابي، مظاهر المجال والدّين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، النشر الجامعي الجديد، 2020، ص 13. عبد القادر بوعقادة، مرجع سابق، ص 60-75. عبد القادر بوعقادة، هل المغرب الأوسط خرافة؟، مجلة عصور الجديدة، ع21-22، ماي 2016، ص ص 60-75. سعدي شخوم، خرافة المغرب الأوسط، academia.edu، صفحة الدكتور

تكون بمثابة إطار حاصر لمجال المغرب الأوسط، وعلى الرغم من وجهة التفسيرات المقدّمة من طرفهم لعضد مقارباتهم وتفسيراتهم بناءً على هذه المآخذ، إلا أنّ المظهر العسكري لم يشغل حيزًا كبيرًا من هذه التفسيرات على الرغم من كونه عاملاً معيارياً في توسّع حدود الدولة وانكماشها، ومصداقاً لذلك فإنّ ابن خلدون قد عقد في مقدّمته فصلاً " في أنّه إذا كانت الأُمَّة وحشيّة كان ملكها أوسع" <sup>1</sup> ... " وذلك لأنّهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه، واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم ... وهؤلاء مثل العرب وزناتة" <sup>2</sup>، ولعلّ ذلك ما جعل أحد الباحثين يجزم " أنّ واقع الدّول التي سادت المجال المغربي قد قامت في بنيتها وتوجّهها على أسس عسكريّة وهي حقيقة لا يمكن إغفالها ... هذا التّعاش شكلاً ومحتوى لم ينزع عملياً إلى تعايش الكيانات السياسيّة المجاورة واحترام حدود ومناطق نفوذها" <sup>3</sup>.

لقد لاحظ بعض المؤرّخين العلاقة الطردية بين حالة الحرب وإقامة القواعد العسكريّة والحصون كعامل مرافق للحرب، وبسطوها في مصنّفاتهم عرضاً دون الإشارة إلى تدخّل هذه القواعد في رسم الملامح الجغرافيّة الحدوديّة للمغرب الأوسط الزياني، وقدّموا بذلك للباحث مأخذاً رصيناً يمكن الانطلاق منه لتحليل الواقع الحدودي اعتماداً على الرّصد الكرونولوجي لإقامة هذه الحصون ومواقع تشييدها، وبذلك يظهر أثر الحرب في رسم الملامح الحدوديّة وانكماشها تبعاً لحالة القوّة والوهن العسكري، ذلك أنّ هذه القواعد كانت تمثل علامات حدودية تفصل المغرب الأوسط الزياني عن غيره من المغرب، وقد تعرّض ابن خلدون لذلك في عبره أثناء الحديث عن حصن تيكلات <sup>4</sup>، إذ قال: "... ونهضوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد المجرمة بها الكتائب لحصار بجاية، ... فلحقوا بآخِر عملهم من المغرب الأوسط ... وأناخ عليه السّلطان أبو يحيى بعساكر من الموحدّين والعرب والبربر وسائر الحشود، فخرّبوا عمرائها وانتهبوا ما كان من الأقوات مختزناً بها، وكان بحراً لا يدرك ساحله، لما كان السّلطان أبو حمو من لدن اختطّها قد أوعز إلى العمال بسائر البلاد الشّرقيّة من عمل البطحاء أن ينقلوا أعشار الحبوب إليها" <sup>5</sup>، كما نلمس الغرض نفسه في قول صاحب بلاط أبي حمو مؤلّف

---

سعدى شخوم. ولم تقتصر المسألة الحدودية على المغرب الأوسط فقط فقد واجه الدّارسون لحدود المغرب الأقصى نفس الإشكاليّة. محمد تضرّغوت، مرجع سابق، ص 82-83. حميد أجميلي، جوانب من التاريخ الديمغرافي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، (ق 6-8هـ)، تق: ابراهيم القادري بوتشيش، مطبعة انفوبرانت، منشورات مركز تافيلالت للدراسات والتنمية والأبحاث التراثية، 2016. ص 14-15.

<sup>1</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 237/1.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>3</sup> محمد تضرّغوت، مرجع سابق، ص 92-94.

<sup>4</sup> تيكلات: هو ثان مرحلة للخارج من بجاية وبه المنزل، وهو حصن منيع على شرف مطل على وادي بجاية. الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1984، ص 147.

<sup>5</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 335/7.



كتاب زهر البستان إذ يرى أنّ "أبا عنان سلطان بني مرين، كان من دهاة السلاطين ... فجعل في كلّ قاعدة ولدا، وكتب عليه من الجيش عددا، فكان في قواعد المغرب الأوسط منهم من كان، وفي مغربنا الأوسط منهم اثنان : أحدهما بالجزائر والآخر بتلمسان"<sup>1</sup>، الأمر الذي يعكس أنّ هذه القواعد العسكرية كانت تمثل مظهرا من مظاهر سيادة الدّول والاستقلال المجالي.

ظلت الحدود الشرقية بين مدّ وجزر إذ نجد أنّ أبو حمّو موسى الأول في سنة 713هـ/1313م قام ببناء حصن أصفون بالقرب من بجاية أثناء عملياته التوسعية في الجهات الشرقية<sup>2</sup>، وفي سنة 721هـ/1321م قام أبو تاشفين الأول ببناء حصن بكر " لأول مضيق الوادي، وادي بجاية وأنزل به العساكر"<sup>3</sup>، وزالت هذه العلامة الحدودية بعد 726هـ/1325م بعد أن رأى أبو تاشفين أنّ هذا الحصن غير صالح لتجهيز الكتائب الزيانية<sup>4</sup>، فقام الجيش الزياني بقيادة موسى بن علي بشن حملة على بجاية واختطت قرب بجاية حصن تيمزديكت الذي يعد علامة حدودية أخرى للمغرب الأوسط الزياني في الجهات الشرقية، ويقول ابن خلدون عنه: "... ثم أغزاه السلطان [ أبو تاشفين الأول ] سنة ست وعشرين وسبعمئة في الجيوش وعهد إليه بتدويخ ضاحيتها ومحاصرة الثغور ... فاختط بمكان سوق الخميس بوادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب لها على بجاية ... فتمت لأربعين يوما وسموها تاميزدكت"<sup>5</sup>، كما أنّه يذكر ذات الحصن على أنه كان حصنا تابعا لبني عبد الواد في الجهات الغربية قبالة وجدة، وهذا ما نستشفّه من قوله: "... وسموها تاميزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجل قبله وجدة"<sup>6</sup>، وقد اعتبره الوزان علامة حدودية بقوله " قصر تيميزدكت هو قصر واقع في الحدّ بين هذا القفر وبلاد تلمسان"<sup>7</sup>، ومّا يدلّ على اتساع رقعة المغرب الأوسط خلال هذا التاريخ هو أنّ أبا تاشفين وحيوشه حين تقدّموا إلى بجاية "أخذ الزهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم"<sup>8</sup>، والظاهر أنّ الحدود قد تقدّمت لتشارف بجاية بعد أن قام أبو تاشفين الأول بتولية عيسى بن مزروع العبد الوادي على الجيش بحصن تاميزدكت إذ " أوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية من تاميزدكت فبناه

<sup>1</sup> مجهول، زهر البستان في دولة بني زيّان، تح: محمد بن أحمد باغلي، الأصالة والنشر للتوزيع، الجزائر، ط2، 2012، ص 33.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر سبق، 477/6-478.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 143/7.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص144.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة. التنسي، مصدر سابق، ص 143.

<sup>6</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 144/7.

<sup>7</sup> الحسن الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983/2، ص11.

<sup>8</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 144/7.

بالياقوتة من أعلى واد قبالة بجاية"<sup>1</sup>، وهو الحدّ الذي يقارب الحدود التي وضعها ابن خلدون في منتصف القرن 7/13م حينما جعل حدود المغرب الأوسط بين بجاية وتلمسان في خضم تناوله لأخبار ثورة أبي علي بن أبي العباس الملياني سنة 659هـ/1227م بقوله: "كان المغرب الأوسط من تلمسان وأعمالها إلى بجاية في طاعة السلطان منذ تغلب أبوه السلطان أبو زكريا عليه"<sup>2</sup>.

الملاحظ أيضا أنّ هذه الحصون والمراكز العسكريّة لم تكن علامات للدلالة على الفواصل الحدوديّة بين الدّول الثلاث التي قامت في المغرب بعد سقوط دولة الموحدّين فقط، وإنما كانت علامات تجسّد السّيادة أيضا للقبائل المناهضة للسلطة المركزيّة بتلمسان كقبائل بني توجين وحصنهم تافركينت<sup>3</sup>.

ارتبط مصطلح المغرب الأوسط خلال العهد الزياني بالدولة الزيانية وقبيلة بني عبد الواد ومصداقا لذلك فإنّ ابن خلدون يذهب للقول: "... ثم يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط"<sup>4</sup>، لكن إذا ما تتبّعنا تاريخها فإننا لا نجد لها قد أخذته بالكامل إلا في فترة وجيزة من الزمن<sup>5</sup>، في عهد أبو حمو الأول (707-718هـ/1308-1318م) وبلغت حدودها ما بين ملوية غربا إلى بجاية شرقا<sup>6</sup>، بينما بلغت في عهد ابنه أبو تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1357م) مداها في التوسّع شرقا إلى غاية تونس بسبب الضغط العسكري الموجه عليها من قبله<sup>7</sup>، ففي سنة 730هـ/1329م قدم أبو يحيى أبو بكر الحفصي (718-746هـ/1318-1346م) بجيش كبير للتصدي للجيش العبد الوادي عن بجاية، ووقع اللقاء بين الفريقين بوادي شارف شرقي قسنطينة، فانهزم أبو يحيى وفرّ هاربا جريحا إلى قسنطينة واستطاع أبو تاشفين دخول تونس والإقامة بها مدّة أربعين يوما<sup>8</sup>، ويبدو أنّ أبا الفدا إسماعيل المعاصر لفترة حكم أبو تاشفين الأول لم يخالف ما ذهبنا إليه - وإن كان قد أهمل دخول أبا تاشفين إلى تونس وسيطر عليها فترة وجيزة - ذلك أنّه يرسم لنا حدود الدّولة الزيانية في أقصى اتّساعها شرقا فيقول: "والقطعة الثانية تعرف بالمغرب الأوسط وهي من شرقي وهران

<sup>1</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 7/145.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 6/420.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 7/117-211.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 228.

<sup>5</sup> مصطفى بن دريس، الروابط الاقتصادية للمغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا (ق 7-10هـ/13-16م)، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018، ص 19.

<sup>6</sup> عطا الله دهينة، العصر الذهبي للزيانيين، مرجع سابق، ص 383.

<sup>7</sup> استطاعت الجيوش الزيانية في الحملة الموجهة إلى تونس سنة 729هـ/1328م بقيادة يحيى بن موسى الكمي من الانتصار على أميرها الحفصي أبي يحيى الذي فرّ إلى بونة بعد أن أئختته الجراح وعيّن الزيانيون عليها أبي عمران لمُدّة وجيزة وفي هذا الصّدّد يقول ابن خلدون " ودخلها محمد بن أبي عمران وسموه باسم السّلطان ومقاداته في يد يحيى بن موسى". ابن خلدون، العبر، 333/7. التنسي، مصدر سابق، ص 143-148. يحيى بن خلدون، بغية الزّواد، مصدر سابق، 1/242-243.

<sup>8</sup> عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 19.

عن تلمسان مسيرة يوم في شرقها إلى آخر حدود مملكة بجاية من الشرق<sup>1</sup>، غير أنّها تقلّصت في عهد لاحقيه الأمير أبو ثابت والسلطان أبو حمّو موسى الثاني إلى مدينة الجزائر وهي: "آخر وسطي الغرب وأوّل بلاد إفريقيّة"<sup>2</sup>، عدا ذلك فإنّ حالة الحرب التي شهدتها الدّولة الزيانيّة لوجودها بين فكّي بني مرين غربا والحفصيين شرقا جعل حدودها بين مدّ وجزر<sup>3</sup>، فقد كانت تتّسع أحيانا لتبلغ قرية تاويرت غربا، وعمالة قسنطينة شرقا، كما كانت تضيق أحيانا لتعبّر عن منطقة تلمسان فقط<sup>4</sup>، ولم تقتصر هذه التغيّرات في الحدود على هذا العهد فقط وإنما امتدت حتّى العهد السّعدي (916-1069هـ/1510-1659م)<sup>5</sup>.

مع أنّ المصادر المتأخّرة تطرّقت إلى حدود الدّولة الزيانية إلا أنّها عبّرت عن الحالة التي آلت إليها حدود الدّولة في مرحلة زمنية متأخرة، ولم تعكس بالضرورة ما كانت عليه من قبل كالجزائري (ق8هـ/14م) وابن الشّماع (ق9هـ/15م)<sup>6</sup>، ومن هذه المصادر أيضا الوزان الذي ذكر أنّ حدودها واد زا ونهر ملوية غربا، والواد الكبير (الصومام) شرقا، ونهر نوميديا جنوبا، وقدّر بالمعطيات الإحصائية أنّ مملكة تلمسان تمتدّ على مسافة ثلاثمائة وثمانون ميلا من الشرق إلى الغرب وخمسة وعشرين ميلا من الشّمال إلى الجنوب حيث تخوم الصحراء، وعلى الرّغم من أنّ هذه الأرقام قد تمّ تصحيحها من طرف المعلّقين الفرنسيين في ترجمة الوزان<sup>7</sup>، حيث ورد في كتابه بأنّها 580 ميلا وتمّ تقديرها من طرفهم بـ: 930 كم<sup>8</sup>، إلا أنّ ترجمة هذه المعطيات الرّقميّة والتّقديرات

<sup>1</sup> أبو الفدا إسماعيل، تقويم البلدان، مصدر سابق، ص 122.

<sup>2</sup> ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتح: ماريا خيسوس بيغرا، تق: محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 398.

<sup>3</sup> يتوافق هذا الطّرح مع الرّأي الذي استقرّ عليه عبد الله العروي الذي يقول: "فيما يخصّ الممالك المغربيّة عرفت كلّ من الحفصيّة في تونس، والمرينية في فاس، فترة ازدهار وتوسّع، في حين أنّ الزيانيّة في تلمسان لم تزدهر وتستقلّ إلا في حالة ضعف الأولى أو الثّانية. عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، 194/2.

<sup>4</sup> عبد الجليل قريان، التعليم بتلمسان خلال العهد الزياني، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 46.

<sup>5</sup> كانت الحدود الشرقية للمغرب خلال عهد الدولة السعدية شرقا بين مد وجزر سنوات (940هـ حتى 1042هـ/1533م-1632م) إذ يعتبر واد الشلف وواد ملوية بمثابة حدود فاصلة في ظل الاضطرابات السياسية التي شهدتها هذه الدولة. انظر: لوبني زبير، الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين، دار الأمان، الرباط، 2016، ص 99.

<sup>6</sup> على الرّغم من تأخر هذه المصادر زمانيا إلا أنّها تقدم حدودا يعترفها الكثير من الغموض لأنّها تغيب أكبر حاضرتين في هذه الفترة وهما تلمسان وبجاية وتقدم تاهرت على أنّها معلم مفيد يشغل الحيز الجغرافي للمغرب الأوسط في القرن الثامن والتاسع هجري. بوعقادة، مرجع سابق، ص 273.

<sup>7</sup> تجدر الإشارة إلى أنّ الترجمة العربيّة لكتاب وصف إفريقيا كانت بناءً على مرجعيّة فرنسيّة، هذه الأخيرة التي اعتمدت على الكتاب في لغته الأم الإيطاليّة، وبالتالي فإنّ التّقديرات والمعلومات التي حوتها دقّي الكتاب لا يمكن أن تخلو من أخطاء نظرا لترجمته أكثر من مرّة في أنساق زمنيّة غير متقاربة. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، 19/1.

<sup>8</sup> المصدر نفسه، 8/2.

لتحديد المسافة حسابيا فإنّ النتائج لم تكن مطابقة لما وضعه المعلقون الفرنسيون بشأن هذه التقديرات<sup>1</sup>، وأخذوا بالتقديرات التي تقدّمها صور الأقمار الصناعية اليوم فإنّنا، نقف على المسافة الفاصلة بين الواد الكبير قبالة مجاية شرقا حتّى نهر ملوية غربا المقدّرة ب: 720 كلم فقط.

وقصارى القول أنّ ضبط حدود المغرب الأوسط خلال العهد الزياني على خلفيّة ما تقدّمه المصادر الثّانوية الجغرافيّة والإخباريّة والتّراجميّة، مع إغفال الحراك السياسيّ الذي كان محرّكا غالبا للتدخل العسكريّ والمؤثّر بدوره على تخوم وفواصل مغارب العصر الوسيط الحدوديّة، من شأنه أن يضع الباحث أمام تفسيرات عامّة سطحيّة لا تعكس بالضرّورة واقع الحدود الجغرافيّة الذي فرضته القوّة العسكريّة، وأنّ أفضل تفسير للواقع الحدودي بالمغرب الأوسط الزياني يكون بناءً على ذلك التّاريخ المرحلي -العسكري- الذي كان وراء رسم هذه الحدود بما يتوافق وقوّة الدّولة أو وهنها، وهو ما يوضّحه الجدول الآتي:

<sup>1</sup> إنّ الأخذ بالمكاييل التي تقرّ بأنّ الميل هو 1.340 متر، أو ما تمّ الاتّفاق عليه حديثا بأنّ الميل هو 1.852 متر جعل من مترجمي كتاب الوزان يشكّكون في هذه المعطيات الرقميّة ذلك أنّ هذه المسافة لا تتطابق أو تساوي حسابيا المسافة التي وضعها المعلقون الفرنسيون. حسن الوزان، المصدر نفسه، 24/1، 8/2.

الفصل الأول: واقع الحروب والمواجهات العسكرية المباشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

| الصفحة        | الإحالة  | الحد الجنوبي | الحد الغربي         | الحد الشرقي                        | الفترة المشار إليها خلال العهد الزياني      | المصدر                   |
|---------------|--|--------------|---------------------|------------------------------------|---|--------------------------|
| .11/2         | "قصر تيميزدكت هو قصر واقع في الحد بين هذا القفر وبلاد تلمسان".   | /            | حصن تيميزدكت الغربي | /                                  | 633-681هـ/1235-1282م                        | الحسن الوزان وصف إفريقيا |
| 349/1         | "لما استولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة. فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضمّوها إلى مملكتهم... إلى أن دمرت ... عام 780هـ". | /            | توريرت              | /                                  | 668هـ - 760هـ/1269-1358م                    | الحسن الوزان وصف إفريقيا |
| ص109          | "وفي شهر ربيع الأول من سنة أربعين وستمائة دخلها عنوة من باب كشوطة.... ثم رجع الأمير أبو زكريا إلى تونس غانما سالما وقد سلم البلاد للعبد الواديين إلا من مليانة شرقا".  | /            | /                   | مليانة                             | حملة أبو زكريا لحفصي على تلمسان 640هـ/1242م | ابن القنفذ الفارسية      |
| .290/7        | "بلاد تاويرت... كانت تحما لعمل بني مرين وبني عبد الواد في جانبها عامل السلطان لأبي يعقوب، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن".   | /            | تاويرت              | /                                  | 694هـ/1294م                                 | بن خلدون، العبر          |
| -477/6<br>478 | "ثم جاوزوها إلى الجهات الشرقية... وقفلوا راجعين فشيّدوا حصنا بأصفون وشحنوه بالأقوات".  | /            | /                   | حصن أصفون العلامة الحدودية الشرقية | أبو حمو الأول سنة 713هـ/1313م               | ابن خلدون، العبر         |

|           |   |   |   |  |   |                               |
|-----------|---|---|---|--|---|-------------------------------|
| ص<br>140. | "ومهد الأرضين... إلى أن بلغت أيامه أقصى مداها".   | / | / | /  | عهد أبو اشفين الأول<br>718-737هـ/1318-<br>1336م | التنسي، نظم<br>الدّر والعقيان |
| .143/7    | "وابتني حصن بكر لأول مضيق الوادي، وادي بجاية وأنزل به العساكر".   | / | / | حصن بكر<br>المشيّد على<br>مضيق وادي بجاية<br>العلامة الحدودية<br>الشرقية           | أبو تاشفين الأول سنة<br>721هـ/1321م             |                               |
| .144/7    | "رأى أنّ حصن بكر غير صالح لتجهيز الكتائب إليها لبعده، وارتاد للبناء عليها ما هو أقرب منه فاخط بمكان سوق الخميس بوادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب لها على بجاية... فتمت لأربعين يوماً وسموها تامزيردكت... وأخذ الرهن من سائر القبائل واستوفوا جبايتهم فنقلت وطأهم على بجاية". | / | / | حصن تيمزردكت<br>الأقرب من جميع<br>الحصون السابقة<br>إلى بجاية في<br>الجهات الشرقية | أبو تاشفين الأول سنة<br>726هـ/1325م             | بن خلدون،<br>العبر            |
| 335/7     | "أوعز إليه ببناء حصن <u>أقرب</u> إلى بجاية من تامزيردكت فبناه بالياقوتة من أعلى واد قبالة بجاية".   | / | / | حصن الياقوتة<br>أقرب الحصون<br>على الإطلاق إلى<br>بجاية في الجهات<br>الشرقية       | أبو تاشفين الأول<br>سنة 729هـ/1328م             |                               |



|                        |   |   |  |   |   |                                       |
|------------------------|---|---|--|---|---|---------------------------------------|
| 333/7                  | "وكانت حروبهم سجلا إلى أن كان بين جيوش زناتة والموحدين<br>الزحف المشهور بالرياش من نواحي مرماجة سنة تسع وعشرين<br>وسبعمائة، زحفت فيه جيوش زناتة [الزيانيين] إلى السلطان أبي يحيى<br>... فاقتل مصاف مولانا السلطان أبي يحيى ... واستولت زناتة على<br>تونس، ودخلها محمد بن أبي عمران وسموه بالسلطان ومقادته في يد<br>يحيى بن موسى [أبو تاشفين الأول] أمير زناتة". | / | /  | ما رواء تونس                                  | أبو تاشفين الأول سنة<br>729هـ/1328م   | ابن خلدون<br>العبر                    |
| -143<br>148            |   |   |  |   |   | التنسي، نظم<br>الدر والعقيان          |
| -242/1<br>243          |   |   |  |   |   | يحيى بن<br>خلدون، بغية<br>الزواد      |
| -335/7<br>336<br>492/6 | "ونفضوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد المجرمة بها الكتاب<br>لحصار بجاية ... لما كان السلطان أبو حمو من لدن اختطها قد أوعز<br>إلى العمال بسائر البلاد الشرقية من عمل البطحاء أن ينقلوا أعشار<br>الحبوب إليها".  | / | /  | حصن تيكلات<br>الذي يقع على<br>مرحلة من بجاية. | هجوم أبو الحسن المريني رفقة<br>أبي يحيى الحفصي لوضع حد<br>للتوسع الزياني العسكري على<br>عهد أبي تاشفين الأول سنة<br>732هـ/1331م | بن خلدون،<br>العبر                    |
| ص122                   | "والقطعة الثانية تعرف بالمغرب الأوسط وهي من شرقي وهران عن<br>تلمسان مسيرة يوم في شرقيها إلى آخر حدود مملكة بجاية من<br>الشرق".  | / | من شرقي<br>وهران عن<br>تلمسان<br>مسيرة يوم | آخر حدود مملكة<br>بجاية                       | معاصر لفترة أبي تاشفين<br>الأول توفي سنة<br>732هـ/1331م   | أبو الفدا<br>اسماعيل<br>تقويم البلدان |

الفصل الأول: واقع الحروب والمواجهات العسكرية المباشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

|               |  |      |        |       |  |                         |
|---------------|--|------|--------|-------|--|-------------------------|
| -146/7<br>147 | "انكمش بنو عبد الواد إلى ما وراء تخومهم".  | /    | /      | /     | حصار أبو الحسن المريني<br>لتلمسان 735-<br>737هـ/1334-1336م                                 | بن خلدون،<br>العبر      |
| .92/8<br>94/8 | ح/ش: " أقام على بجاية عشرين سنة... حتى كان من هزيمة صاحبها<br>ماكان."<br>ح/غ: "لاحت للخائن التلمساني فرصة... فخرج من بلد على حين<br>غفلة بالعزيمة والجد إلى حصن ماوريرت الذي هو بين بلاده وبلادنا<br>كالحد". | /    | توريرت | بجاية | رسالة أبو الحسن المريني إلى<br>سلطان مصر يتحدث فيها<br>عن الأخبار التي سبقت<br>732هـ/1331م | القلقشندي<br>صبح الأعشى |
| .214/2        | نازلة يهود توات من قصور صحراء المغرب الأوسط  | توات |        |       | نهاية القرن 9هـ/15م  | الونشريسي،<br>المعيار   |

التغيرات الحدودية المصاحبة لحالة الحرب في المغرب الأوسط الزياني من القرن 7هـ/13م حتى القرن 10هـ/16م

## المبحث الثاني: المواجهات العسكرية خلال العهد الزياني ... مقارنة إحصائية:

الإحصاء من حيث الدلالة اللغوية من الجذر حصى وهي صغار الحجارة، والحصى العدد الكثير، تشبيها بالحصى من الحجارة في الكثرة، وأحصى الشيء؛ أحاط به. وفي التنزيل: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾<sup>1</sup>، أمّا الإحصاء فهو العدّ والحفظ، وأحصيت الشيء بمعنى عدته<sup>2</sup>.

أدت التراكبات المعرفية إلى تطوّر الإحصاء من مجرد فكرة تعتمد على الحصر والعدّ إلى قيامه كعلم له قواعده ونظريّاته، وعلى الرّغم من صعوبة تقديم تعريف جامع له " فالإحصاء في معناه الضيق يستخدم للتعبير عن البيانات أو الأرقام المستخرجة من البيانات ... إلّا أنّه يمكن أن نعرّف علم الإحصاء على أساس أنّه الأسلوب الذي يختصّ بالطرق العلميّة لجمع وتنظيم وتلخيص وعرض وتحليل البيانات وكذلك الوصول إلى نتائج مقبولة وقرارات سليمة على ضوء هذا التحليل"<sup>3</sup>. والجدير بالذكر أنّ استعمال المقاربة الإحصائية في العلوم الإنسانيّة شهد ثورة كبرى في العقود الأخيرة<sup>4</sup> ولم تُستثن من ذلك الدراسات التاريخيّة والعسكريّة، فقد قام كل من الباحثين الأوربيين "دابس" Dabbs و"موريس" Morris سنة 1990م باستغلال البيانات الأرشيفية من السجالات العسكريّة لدراسة وتكميم وإحصاء ظاهرة العنف الجماعي<sup>5</sup> من حيث هي ظاهرة تتداخل مع الظاهرة الحربيّة وترتبط معها وثيق الارتباط<sup>6</sup> كونهما تجسيدا لظاهرتي عنف جماعي<sup>7</sup>.

إنّ تبنيّ المقاربة الإحصائية لدراسة الظاهرة الحربيّة خلال العهد الزياني، إنّما هو دعوة لتبنيّ الرؤية الشمولية الداعية للتّنسيق على تداخل العلوم الإنسانيّة وما يقتضيه هذا التّدخل من تلاقح بين العلوم من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخيّة أو الصّورة التي تقاربها، وكسر حاجز الانتقاء الاستدلالي الأحادي للحروب المعلميّة للدلالة على الواقع الحربيّ في المغرب الأوسط -في قلب إخباري بحث- خلال هذا العصر، وحصر انعكاساته على مختلف الأصعدة؛ من حيث مدى حيوية وازدراء الوضع السياسيّ الناتج عن حالة اللّامن، أو التّضخم والهدر الديموغرافي، أو الرخاء والانقباض الاقتصاديّ الناجم عنها...، فضلا عن الإفرازات المصاحبة لها للتأشير على سوسيولوجية الأزمة، قصد الوقوف على مقارنة أكثر رصانة من خلال حصر الحروب باعتبارها الأرضية المحرّكة

<sup>1</sup> سورة الجن، الآية 28.

<sup>2</sup> ابن منظور، لسان العرب، ص 904.

<sup>3</sup> فتحي عبد العزيز أبو راضي، الطرق الإحصائية في العلوم الاجتماعية، دار المعرفة الجامعيّة، الاسكندريّة، 1997، ص 15.

<sup>4</sup> حميد أجميلي، جوانب من التاريخ الديموغرافي بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط (ق6-8هـ/12-14م)، تق: ابراهيم

القادري بوتشيش، منشورات مركز تافيلالت للدراسات والتنمية والأبحاث التراثية، مطبعة انفو برانت، 2016، ص 25-26.

<sup>5</sup> David C. Howell, statistical methods of psychology, 7th edition, 2010, p,p 173-565.

<sup>6</sup> حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 39-40.

<sup>7</sup> Pierre Clastres, "De L'ethnocide", L'homme revue française d'anthropologie, vol 14 N3- 7 4, juillet-septembre 1974, p 101-110.

لكافة هذه المتغيرات<sup>1</sup> في ظلّ ندرة الدّراسات الإحصائية الهادفة إلى حصر ومسح وتفكيك المواجهات والصّدّامات العسكريّة خلال العهد الزياني<sup>2</sup>.

الأجدر أن نشير إلى الإشكال المعرفي الذي يروم سبيل الخوض في موضوع إحصاء الحروب خلال العهد الزياني على وجه التّحديد، ويتعلّق الأمر بإشكالية "أزمة الرقم" التي تتخبّط فيها مصادر الفترة المدروسة، إذ تكاد تخلو أغلب المصادر من أي مسند إحصائي يرتكز عليه الباحث<sup>3</sup>، وعليه سنحاول أن نستغلّ -في هذا المبحث- جميع العناصر والمؤشّرات التي تساعد على أخذ صورة -ولو كانت- أوليّة عن عدد الحروب والمواجهات العسكريّة خلال هذا العصر شريطة إخضاع المادّة المصدرية للنقد التاريخي.

### **المطلب الأوّل: نقد المصادر الأساسيّة:**

أفصحت القراءة النّاقدة للمصادر الأساسيّة الزيانية عن أهمّ العراقيل التي تواجه الباحث في عمليّة تكميم وحصر المواجهات العسكريّة، وأهمّها:

#### **1- الفجوات التاريخيّة وضياح المؤلّفات المتخصّصة:**

ترتكز دراسة تاريخ الحرب في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني على أربعة أركان أساسيّة تعتبر بمثابة دعائم رافدة للباحث في التاريخ العسكريّ الزياني؛ ممثلة في مؤلّف "بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" لأبي زكريا يحيى بن خلدون، وكتاب "العبر" لأخيه عبد الرّحمان وكتاب "نظم الدرّ والعقيان في شرف بني زيان" لمحمد بن عبد الله التنسي، وعلى صعيد آخر -مع نوع من التّحفظ- كتاب "زهر البستان في دولة بني زيان" لمؤلّف مجهول<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> يرجع الكثير من الباحثين صور الانتعاش الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لدول المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط إلى عوامل عامّة كالرحلة العلميّة والمكتبات والتجارة والزراعة، إلّا أنّ القراءة الفاحصة لتطوّر هذا الحراك لا تنفكّ تخبرنا عن مدى ارتباط الإنسان الذي يعتبر الفاعل الأول في هذه المتغيرات بحالي الأمن واللاّمن، ومدى الحماية العسكريّة التي توفرها الدول المتعاقبة على حكم مغارب العصر الوسيط. خميسي بولعراس، النخب العسكريّة بالمغرب الإسلامي قراءة في التنظير والاحتراف، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018، ص 19.

<sup>2</sup> في حدود اطلاعنا على الموضوع لم نقف على دراسة قدّمت بالعمق اللاّزم أرقام دقيقة ومسح شامل لعدد الحملات والمواجهات العسكريّة التي خاضها سلاطين بنو زيان على مدار أكثر من 3 قرون.

<sup>3</sup> يشير الباحث محمد حجّاج الطويل إلى ورود بعض الإحصائيات المشجعة في المصادر الوسيطية لكنّ بعض الدّارسين وخاصّة منهم الأجانب يحاولون طمس كلّ ما هو لامع في التاريخ العربي. محمد حجّاج الطويل، "المسألة الديموغرافية: نحو منهجية ديموغرافية محاولات إحصائية (العصر الوسيط أمودجا)"، مجلّة كنانيش، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة محمد الأول، إعداد مصطفى نشاط وآخرون، ع 01، 1999، ص 19. حميد تيناو، مرجع سابق، ص 309.

<sup>4</sup> يعزى هذا التّحفظ لسببين اثنين هما ضياح السفرين الأول والثالث من هذا المؤلّف اللذان يقيان في حكم المفقود ووصول السفر الثاني منه فقط إلينا حيث غطّي هذا الجزء الفترة الزمنيّة (759-764هـ) أي السنوات الخمس الأولى لحكم سابع

غير أنّ كتاب التنسي يعتبر أهم هذه الأركان باعتباره المصدر العربيّ الوحيد الذي حفظ لنا المواجهات العسكرية لفترة تزيد عن قرن من التاريخ الذي انتهت فيه أخبار السّفر الثّاني من كتاب زهر البستان سنة 764هـ/1362م، وأزيد من تسعين سنة من تاريخ توقف يحيى بن خلدون عن تدوين أخبارها في بغيّة الرّواد سنة 777هـ/1375م، وانتهاء أخبار كتاب العبر عن الدّولة الزّيانية حوالي 796هـ/1375م، إلى أن يختم التنسي أخبار المواجهات العسكريّة سنة 868هـ/1463م، وعدا ذلك لا يتوفّر للمؤرخ مصدر آخر شامل للواقع التاريخيّة والحربيّة سوى إشارات مقتضبة في كتب بعض المؤرخين كالمقرّي في "نفع الطيب" و"أزهار الرّياض"، والرّحالة عبد الباسط بن خليل "الرّوض الباسم في حوادث العمر والتّراجم" ومؤلفه أيضا "نيل الأمل في ذيل الدّول"<sup>1</sup>، فضلا عن الشّدرات الموجودة في بعض كتب التّراجم مثل كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج" لأحمد بابا التمبكتي و"البستان" لمحمد بن مريم وأنس الفقير لابن قنفذ<sup>2</sup>، وعليه فإن استقاء الأخبار المتعلّقة بعدد الحملات العسكريّة وفحواها بعد سنة 868هـ/1463م يضع الباحث أمام فجوة تاريخيّة تكاد تقارب القرن من الزّمن .

علاوة على ذلك فإنّ حالة الحرب طالت المنتج الفكري وساهمت في ضياع العديد من المؤلّفات<sup>3</sup> ذات الحمولة المعرفيّة الثقيلة -التي تخصّ موضوع الدّراسة- فبالإضافة إلى السّفر الثّاني الذي وصلنا من كتاب "زهر البستان في دولة بني زيّان" فإن السّفرين الأوّل والثالث الضّائعين يكتسيان طابعا عسكريا محضا وهو ما نتحقّسه في قول التنسي يصف هذين السّفرين الضّائعين بقوله: "... وأما حروبه [أي أبي حمو] ووقائعه في العرب، وزناته، وسوق عمال بني مريم إليه في السلاسل فأمر لا يحيط به هذا المجموع وقد تولى ذلك صاحب بغيّة

---

سلاطين بني زيّان أبو حمو موسى الثّاني، أما السّبب الثّاني الذي يجعلنا نشيد بأهميّة هذا المصنّف هو نقله للروايات الشفويّة التي تعكس مدى قربه من الحوادث التاريخيّة في العديد من المواضيع في كتابه. مجهول، زهر البستان في دولة بني زيّان، تق: محمد بن أحمد باغلي، دار الأصاله للنشر والتوزيع، ط2، 2012، ص 23-36-37-51-52-65-78-79-95-96-97-101-105-123-124...

<sup>1</sup> بالإضافة إلى كتاب الرّوض الباسم لعبد الباسط نجد مؤلفه نيل الأمل في ذيل الدّول قد حوى بين دفتيه أخبار عديدة تؤرّخ لعهد الدّولة الزّيانية إلى ما بعد 789هـ/1387م، وبالتالي فهذا المصدر يجاوز تاريخ انتهاء المصادر الأخرى التي دونت أخبار تلمسان خلال العهد الزّياني إذا ما استثنينا كتاب التنسي. عبد الباسط بن خليل الظّاهري، نيل الأمل في ذيل الدّول، تح: عمر عبد السلام، المكتبة العصرية، بيروت، 2002، 245/2.

<sup>2</sup> التنسي، مصدر سابق، مقدمة المحقق، ص 53-54.

<sup>3</sup> ممّا يؤكّد على أنّ الحرب كانت تساهم في حركة التّأليف لمثال الذي ساقه ابن مرزوق عن أحد أفراد أسرته وهو أبو عبد الله "الذي اشتغل بالقراءة، وغلب عليه علوم القرآن، وكان مصحفيا يكتب المصاحف التي كان الناس يتنافسون فيها على طريقة أهل الأندلس ... خطّا وضبطا، لا تبعد من خطّ الغطّوسيات ... ضاعت في دخلة تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة"، والمقصود بالدخلة هنا هو دخول أبي الحسن المريني على تلمسان لحصارها بين سنتي 735هـ-747هـ/1334-1346م. ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 148.

الرّواد وصاحب زهر البستان<sup>1</sup>، فضلا عن مؤلّفات أخرى ضاعت لا تقلّ أهميّة عن سابقاتها كشرح التلقين لإبراهيم بن يخلّف بن عبد السّلام المطماطي الذي أعدّه في عشرة أسفار لكنّه ضاع خلال حصار تلمسان<sup>2</sup>، وكتاب "راح الأرواح فيما قاله أبو حمّو وقيل فيه من الأمداح" لمؤلّفه محمد بن عبد الله التنسي<sup>3</sup>، وكتاب أبي زيان محمد بن أبي حمّو "الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأتارة"<sup>4</sup>... وغيرها من المؤلّفات التي أبادتها آلة الحرب.

## 2- ظاهرة النّقول بين المؤرّخين وأثرها على التّقديرات العدديّة:

إنّ الرّوايات التّاريخية تتعدّد في أمر واحد فتتوافق أو تتناقض، وحيث تتناقض يحسن بالمؤرّخ أن يؤكّد في البداية وقوع هذا التناقض، لأنّ ما يظهر من التناقض لأوّل وهلة قد يتلاشى لدى التّدقيق والتّحقيق<sup>5</sup>، كما أنّها قد تتوافق بسبب نقل المؤرّخين للأخبار التّاريخية من الأصول دون إخضاعها لأدنى تمحيص.

الملاحظ بعد تتبّع مسار المواجهات العسكريّة في مختلف المصادر المتعلّقة بنطاق الدّراسة حضور مواطن عديدة للتّناس التّاريخي وتناقض الرّوايات بسبب هذه النّقول السّطحيّة، وأهمّ هذه المواطن:

- نقل التنسي لأخبار المواجهات العسكريّة خلال عهد يغمراسن مع العرب وزناتة عن يحيى بن خلدون وتصريحه بذلك، حيث قال: "... وأما حروبه مع العرب وزناتة فأمر لا يكاد يصدر من أحد سواه. وما ذلك إلا لشرف همّته، فذكر صاحب بغية الرّواد أنّ له في العرب وحدهم اثنين وسبعين غزاة<sup>6</sup>، وكذلك له مع توجين ومغراوة<sup>7</sup>، غير أنّ هذه التّقديرات - حسبنا كما سنذكر لاحقا - تشوبها المبالغة والمغالاة.

- نقلت المصادر<sup>8</sup> أيضا خبر هزيمة أبي الحسن المريني على يد الأعراب بإفريقيّة والأميرين الزّيانيين أبو سعيد وأبو ثابت في حملته عليها لتوحيد المغرب تحت لواء الدولة المرينيّة سنة 749هـ/1348م، وغرق

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 178.

<sup>2</sup> ابن مريم التلمساني، مصدر سابق، ص 92.

<sup>3</sup> التنسي، مصدر سابق، نفس الصفحة.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 211.

<sup>5</sup> أسد رستم، مصطلح التاريخ، مركز تراث للبحوث والدراسات، مصر، 2015، ص 172.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، مصدر سابق، 228/1.

<sup>7</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 128.

<sup>8</sup> المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، مصدر سابق، 214-216/6. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق،

201/7-158-518. الزّركشي، تاريخ الدولتين الموحّديّة والحفصيّة، مصدر سابق، ص 89. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار

إفريقيّة وتونس، مطبعة الدّولة التّونسيّة، تونس، 1869م، ص 139. ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 186.



أسطوله المكوّن من ستمائة سفينة وغرق أربعمائة من العلماء والفقهاء، لكنّ تتبع هذه المعطيات الإحصائية أسفر عن العديد من التناقضات، أهمّها:

● غرق المصحف العثماني<sup>1</sup> الذي كان على متن إحدى هذه السفن حسب رواية الناصري<sup>2</sup> وتفنيد هذا الخبر عند كلّ من ابن مرزوق الخطيب<sup>3</sup>، وابن الحاج النميري الذي يؤكد على استمرار حضور المصحف العثماني في خزائن السلطان المريني أبو عنان (749هـ-759هـ/1349م-1358) إلى غاية يوم الخميس 20 جمادى الأولى سنة 758هـ/11 ماي 1357م<sup>4</sup>.

● تتضارب أيضا هذه الروايات في مكان وسبب غرق هذا الأسطول، فبينما ينفرد ابن خلدون بخبر غرقه في ساحل بجاية بسبب عواصف البحر<sup>5</sup>، يخالفه كل من الرّكشي والناصري حيث يؤكد كلّ منهما على منازلة الأسطول المريني للقوات البجائية في طريق العودة إلى المغرب وانتصارهم عليه ثم انتقاهم منها غربا<sup>6</sup>، بينما يقدم المقرئ خبرا -تجاوزيا- آخر، حيث يرى أنّ مكان غرق الأسطول كان بتدلس وينجلي ذلك في حديثه عن أحد ضحايا هذا الأسطول وهو الفقيه ابن الصباغ بقوله: "... ومات رحمه الله غريقا في أسطول أبي الحسن المريني على ساحل تدلس"<sup>7</sup>.

● التّصريح المباشر بحضور ظاهرة التّناسخ التاريخي من طرف المؤرّخين الذين نقلوا أخبار هذه الحادثة، حيث يصرّح الناصري بأنّ استقاء مادّته المتعلقة بخبر غرق الأسطول المريني كانت من كتاب نفع الطيب للمقرئ، أما الحوادث بعدها سنة 751هـ/1350م فقد نقلها عن ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما، وقد عبّر عن ذلك

<sup>1</sup> تجد الإشارة إلى أنّ العادات التي دأب عليها الجنود خلال مسيرهم إلى خوض الحروب البرية والبحرية عادة حمل المصاحف رغبة في الأجر. الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 114/2.

<sup>2</sup> أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، 115/2.

<sup>3</sup> ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن، تح: ماريا خيسوس بيغرا، تق: محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص 461، 462.

<sup>4</sup> ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1990، ص 223.

<sup>5</sup> عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 158/7، 518.

<sup>6</sup> الرّكشي، مصدر سابق، ص 89. الناصري، مصدر سابق، 170، 171/3.

<sup>7</sup> أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، 215/6.

بقوله: " وفي نوح الطيّب أنّ أساطيل أبي الحسن كانت نحو الستمائة فغرقت كلها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم"<sup>1</sup>، أما عن الأخبار التي تلت هذه الحادثة بأشهر قليلة فعبر عن نقله لها بقوله: "... هكذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما"<sup>2</sup>.

● سجّل الطابع الكرامي حضوره أيضا في حادثة غرق أسطول أبي الحسن، وقد تبّنى كلّ من ابن القنفذ والمقري<sup>3</sup> هذا التفسير-الولائي الكرامي- مع اختلاف في سرد مجريات كرامة الأولياء في التسبب في غرق السفن المرينية، ففي رواية ابن القنفذ أنّ الوليّ الشّيخ أبو هادي مصباح بن علي الصنهاجي الذي كان مقيما بقسنطينة فرغ إلى أبي الحسن للتحدّث إليه في شأن العدول عن الذهاب إلى إفريقيّة في حملته لتوحيد المغرب تحت راية دولة بني مرين سنة 748هـ/1347م، فتعنّت أبو الحسن بقوّه أمام هذا الولي ورفع صوته بذلك، وقال "هذا أحمق. مثلي يصدّ وطريقي كذا، وشأني كذا، ولي من القوّة كذا ... ورجع الشّيخ أبو هادي إلى قسنطينة وصرف أكثر أتباعه ولازم خلوته ولغظ كثير من الناس أنّه متوجّه إلى الله تعالى في السلطان المذكور ... وكان من عاقبة السلطان بإفريقيّة ما كان من الفساد"<sup>4</sup>، وفي رواية لا تختلف عن هذه الرواية يذكر المقريّ عن نفس الحادثة أنّ سبب غرق أسطول أبي الحسن هو إصابة سفنه بعين عائن وتحتسّس ذلك في قوله: "... فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين، وكانت كثيرة نحو الستمائة، فنظر إليها الرجل العائن، فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل ما يشاء".

تعتبر الرّسالة رقم: "99" في أرشيف التّاج الأرغوني من بين الوثائق القريبة جدّا زمنيا من حادثة غرق الأسطول المريني، وهي رسالة صلح من السلطان المريني أبو الحسن علي بن عثمان إلى ملك أرغون بيدرو الرابع (pedro IV) مؤرخة في 14/09/1350م، وقد جاء في آخرها تاريخ كتابتها في 29 رجب 751هـ،

<sup>1</sup> الناصري، المصدر السابق، 171/3.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 174.

<sup>3</sup> من عجيب المفارقات التي وقفنا عليها حول منهج التدوين التاريخي لدى المقري (الجد) الإشارة التي أوردها ابن مریم حول تهيّب المقري للتقل من المصادر التي سبقته دون إخضاعها للتّمحيص، حيث جاء في معرض كتابه "البستان" ما يلي: " قال المقري رحمه الله: ولقد استباح الناس التقل من المختصرات الغربية أربابها، ونسبوا ظواهر ما فيها إلى أمهاتها، وقد تبه عبد الحق في تعقيب التهذيب على ما يمنع ذلك". لكن التفسير الذي قدّمه المقري الحفيد حسبما سنرى حول حادثة غرق أسطول أبي الحسن المريني، والطابع الكرامي الذي أُحيطت به الحادثة يعاكس تماما ما ذهب إليه لسان حال جدّه في القول السابق. ابن مریم، البستان، مصدر سابق، ص 239.

<sup>4</sup> ابن القنفذ، أنس الفقير، مصدر سابق، ص 51.

ونصّ ذلك في الوثيقة: "... وهذا المستعان وعليه التكلان وحسبنا ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير والسلام. يراجع سلامك وكتب في يوم السبت التاسع والعشرين لشهر رجب الفرد المبارك من عام واحد وخمسين وسبعمائة"، أي أنّ هذه الرسالة كتبت بعد أشهر قليلة<sup>1</sup> من حادثة غرق الأسطول المريني سنة 1349م/750هـ، غير أنّ الملاحظ في هذه الرسالة ورود خبر غرق مجموعة من العلماء والمسلمين نتيجة عملية قرصنة لقرقورة -واحدة فقط- في البحر، إذ جاء فيها "... وإلى هذا فقد وصل كتابك [و] عرفت بوصول كتابنا إليك في شأن القرقورة التي أخذ فيها حُدّامنا ومن معهم من المسلمين، فطلبك فيه بما يجب عليك في دينك بالوفاء بالعهد الذي بيننا وبينك إلى انقضاء أجله، وأن عبد الرحمان بن محمد العروسي ومسعود الترجمان أوصلاه إليك وألفيا لك ما أُلقي إليهما من الكلام..."، وهذا النصّ قد يجلي العتمة عن التناقضات التي وقعت فيها المصادر التي أُرخت لغرق نحو 600 مائة سفينة وغرق 400 مائة فقيه، ويفسّر الهالة الكرامية التي أحيط بها هذا الخبر في رواية نفح الطيب عند المقرئ وأنس الفقيروند ابن القنفذ.



الرسالة رقم "99" في أرشيف التاج الأروغوني.

<sup>1</sup> وهذه المدة 5 أشهر كأقصى تقدير. ابن أبي دينار، المؤنس، مصدر سابق، ص 139.

فضلا عن عديد التناقضات في المصادر حول تواريخ إقامة بعض الحصارات وانتهائها ومدّة الحملات العسكرية والأطراف المشاركة فيها، وسنتطرّق إليها حسب مواضعها في هذه الدراسة.

### 3- أزمة الرّقم وتوظيف التّراكيب العامّة:

لا شكّ أنّ المصادر والزّوايات التي أرّخت للمغرب الأوسط الزياني أثناء سردها للوقائع الحربيّة لم تخلُ من محاولات لتقديم تقديرات إحصائيّة للفت انتباه القارئ، واستحضار الأبعاد القيميّة لبعض الحروب والحصارات المفصليّة، كعدد الجنود، وعدد الضّحايا، وعدد الأسلحة والأولية والطبول... وغيرها من العناصر والعتاد المتعلّق بالمواجهات العسكريّة.

كما أنّنا لا نشكّ أيضا بأنّ هذه الحوادث التاريخيّة تزداد يقينا وبعدا عن الوهم كلّما اقتربت بالأعداد والتّقديرات، غير أنّ محاولة تتبّع عدد المواجهات العسكريّة خلال العهد الزياني في مصادر الفترة المدروسة بمنأى عن تقديرات العدّة والعتاد، يضع الباحث أمام إشكاليّة توظيف المصطلحات والتّراكيب العامّة - غير المقيدة - ممّا يصعب عليه حصرها بدقّة، ومن أبرز هذه التّراكيب: "... واتّصلت بينهم [أي بين بني عبد الواد وبني مرين] بعد ذلك الحروب والفتنات سائر أيّامه"<sup>1</sup>، "فكانت بينهما وقائع حالت فيها بين الاتّصال مواقع"<sup>2</sup>، "فأخذ [عبد الله بن مسلم] وأعطى، ومهد ووطأ، وسدّد وصلّح، وأطلق وسرّح، وتوغّل في البلاد كيف أراد، وبلغ في الأعداء المراد"<sup>3</sup>، "فكانت بينه وبين أخيه السّلطان أحمد [العادل] حروب"<sup>4</sup>، "فكانت بينه [أي أبي عزّة زيدان بن زيّان] وبينهم [أي بني مطهر وبني راشد] حروب قتل في بعضها"<sup>5</sup>...

فضلا عن ذلك فإنّ التّزر اليسير من القرائن المصدريّة التي تعاطت مع الحوادث العسكريّة بنزعة إحصائيّة وقعت تحت طائلة المبالغة، ويكفي أن نستحضر قول يحيى بن خلدون المتعلّق بغزوات مؤسس الدّولة الزيانيّة يغمراسن بين سنتي 665هـ - 668هـ/1266-1269م، المقدر عددها باثنتين وسبعين غزوة في ظرف ثلاث سنوات<sup>6</sup>، دون إحتساب غزواته على قبائل توجين ومغراوة خلال هذه الفترة الوجيزة، إذ يقول: "وتخلّل هذه

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 112/7.

<sup>2</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 104.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 196.

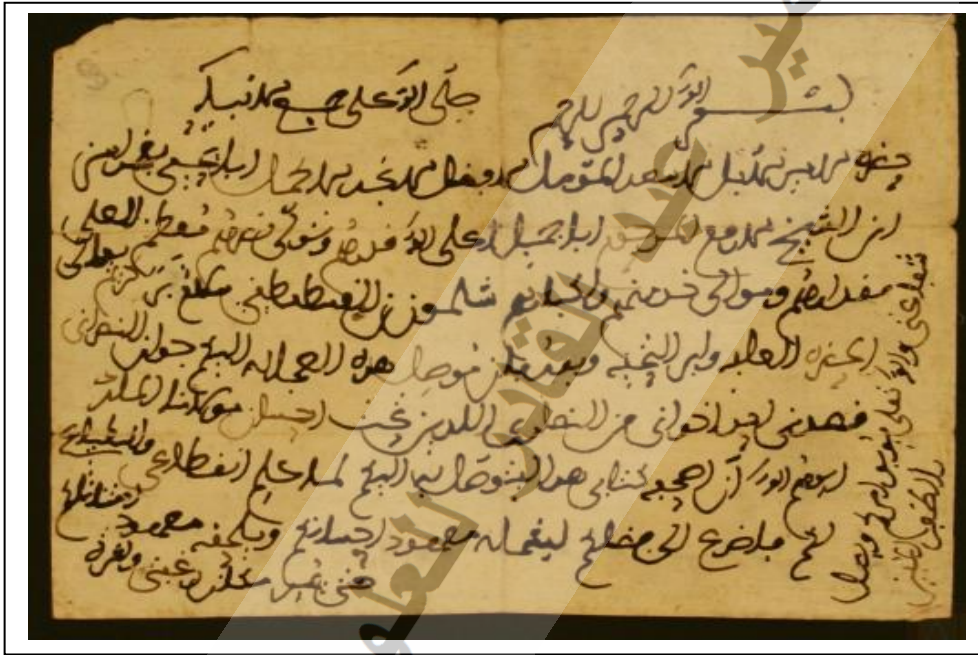
<sup>4</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 249.

<sup>5</sup> التنسي، المصدر السابق، ص 113.

<sup>6</sup> أي ما يقارب حملة عسكريّة كلّ 15 يوم على مدار ثلاث سنوات بشكل منتظم دون انقطاع، وحسبنا فإنّ ذلك تشوبه المبالغة.



السنين من غزوات أمير المسلمين أبي يحيى، قدّسه الله، العرب بصحرائها اثنان وسبعون غزاة، إلى أن استعبد أحرارهم، واستغرم عن يدٍ وهم صاغرون أموالهم، سوى غزواته على توجين ومغراوة<sup>1</sup>. وعلى الرغم من أننا نرجّح أنّ الرقم مبالغ فيه إلا أننا نقرّ بحيويّة النشاط الحربي خلال فترة حكمه، حيث تظهر إحدى الوثائق الدبلوماسية المؤرخة في 633-680هـ/1236-1282م بأرشف التاج الأروغوني التي أرسلها أبو يحيى يغمراسن إلى ملك أروغون ذلك ضمنياً، وقد جاء فيها " ... أودّ أن أصحابه كتابي هذا ليتوصّل به إليكم لما علم من انقطاعي"<sup>2</sup>، وهو مؤشّر هام يعكس مدى انشغال يغمراسن بالشأن الزياني الداخلي وتأجج الصّراعات العسكريّة في عصره وبالتالي تنشغاله عن علاقاته الدبلوماسية الخارجيّة.



الرّسالة رقم 167 في أرشف التاج الأروغوني.

المطلب الثّاني: تقديرات الحروب الزيانية في المصادر الأساسيّة<sup>3</sup>

إن تتبّع الكلمات الدّالة على الصّدام المباشر<sup>4</sup> بين الجيوش الزيانية وغيرها في المصادر تعتبر عمليّة صعبة تحتاج إلى الكثير من التركيز، نظراً للتنوع والثراء اللّغوي في المصطلحات الدّالة عليها، فقد استخدمت المصادر المصطلحات المباشرة التالّية: معركة، غزوة، حملة، غارة، صدام، مواجهة، قتال، حرب، أمّا التراكيب الدّالة عليها

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، مصدر سابق، 228/1.

<sup>2</sup> زيتوني بلال، رقمنة المراسلات السلطانيّة وأهمّيّتها في كتابة تاريخ المغرب في العصر الوسيط، دار نور للنشر، 2020، ص 98.

<sup>3</sup> هذه المصادر هي: العبر لعبد الرحمان بن خلدون، بغية الرّواد ليحيى بن خلدون، نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان للتّسي، وكتاب زهر البستان في دولة بني زيان لمؤلف مجهول.

<sup>4</sup> استثنينا من هذه الموجهات الحصارات العسكريّة وقد أفردنا لها مبحثاً خاصاً مستقلاً موسوماً بـ: كرونولوجيا الحصارات في العهد الزياني" في هذه الدّراسة لتفكيكها ومسحها لاحقاً على حدّى.

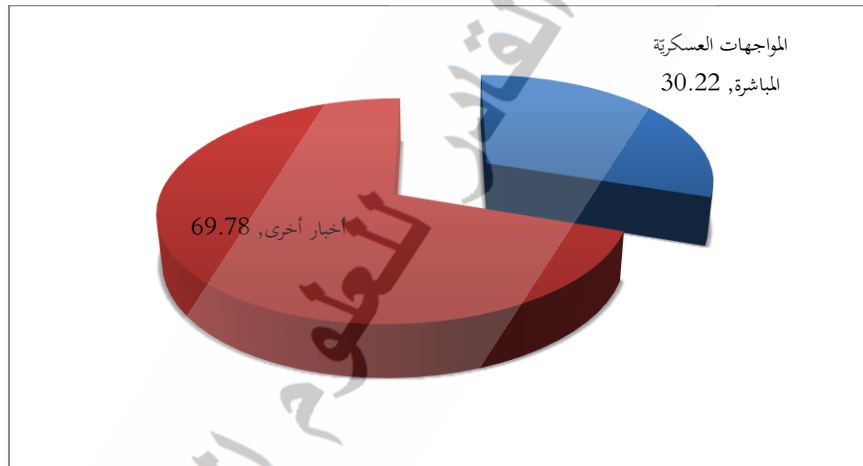
## الفصل الأول: واقع الحروب والمواجهات العسكرية المباشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

فهي: "التقى الجمعان، فكانت الدبرة على ...، ونازله ...، كانت له وقائع ... كانت بينهم حروب... وغيرها، وعليه فإن مسح هذا المواجهات العسكريّة سيتم بناء على هذه التراكيب الدالة على الحقل الدلالي للصّدّام المباشر بين الجيوش فضلا عن المواجهات الصريحة في المصادر، من خلال جمع هذه المصطلحات المباشرة والتراكيب الدالة عليها والأخبار المتعلقة بالصّدّامات العسكريّة، ثم استخراج التّسبة المئويّة من المصادر باحتساب نصّ المؤلّف دون مقدّمة المحقّق<sup>1</sup>، كالآتي:

### 1- المواجهات العسكريّة المباشرة للجيوش الزيانيّة من خلال كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من

بني عبد الواد"

| عدد المواجهات العسكريّة الواردة في كتاب بغية الرّواد | عدد صفحات الكتاب | النسبة المئويّة |
|--|------------------|-----------------|
| 136 مواجهة   | 450 صفحة         | 30.22 %         |



### 2- المواجهات العسكريّة المباشرة للجيوش الزيانيّة من خلال كتاب "نظم الدرّ والعقيان في بيان

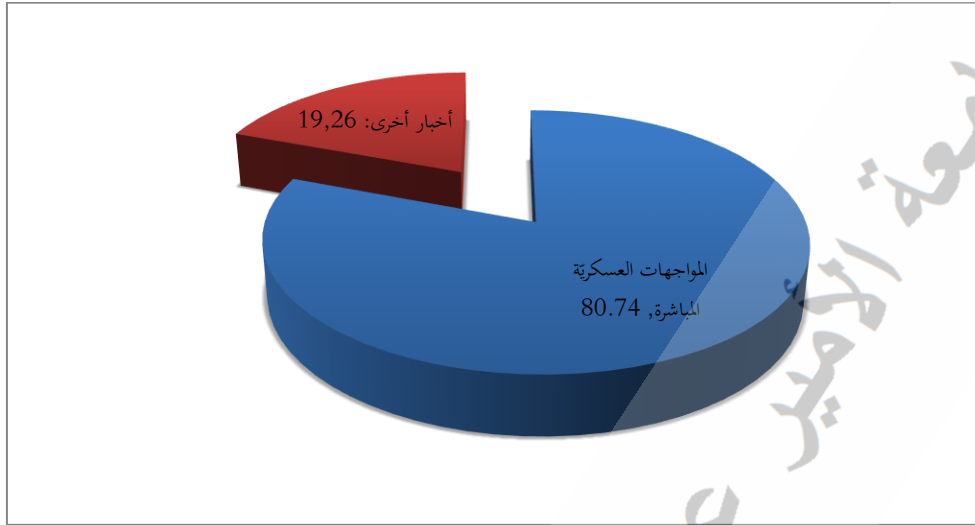
شرف بني زيّان":

| عدد المواجهات العسكريّة الواردة في كتاب نظم الدرّ والعقيان | عدد صفحات الكتاب | النسبة المئويّة |
|--|------------------|-----------------|
|--|------------------|-----------------|

<sup>1</sup> اعتمد فرناند بروديل في إنجاز أطروحته للدكتوراه على الدّراسات الكميّة وحاول تكميم معطيات دراسته التّاريخيّة ووضعها في بيانات إحصائيّة، وقد اعتمد الباحثون من بعده على المنهج الكميّ ونذكر على سبيل الحصر الباحث خميسي بولعراس الذي اعتمد على هذا المنهج لرصد نسبة حضور القوّة العسكريّة في بعض النّصوص الإخباريّة بالغرب الإسلامي خلال عصر الموحّدين. خميسي بولعراس، النخب العسكريّة بالغرب الإسلامي، قراءة في التنظير والاحتراف، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018، ص29.

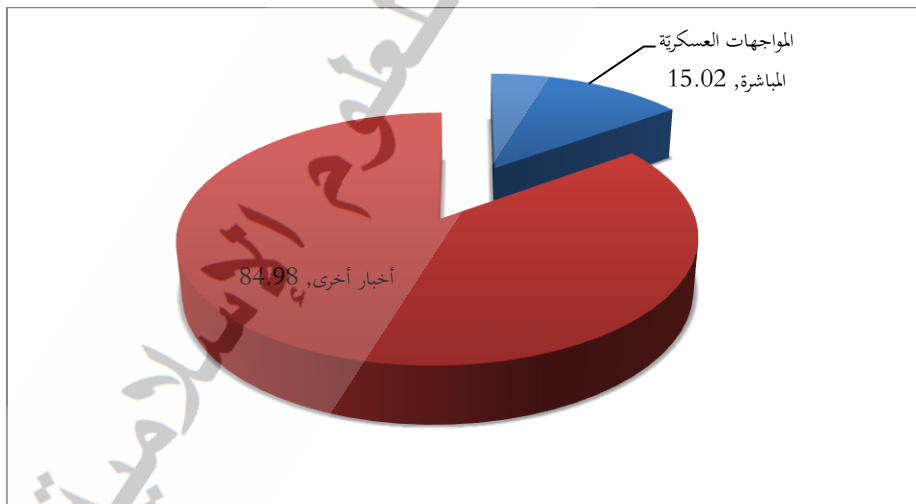


|            |     |         |
|------------|-----|---------|
| 130 مواجهة | 161 | % 80.74 |
|------------|-----|---------|



### 3- المواجهات العسكرية المباشرة للجيش الزياني من خلال الجزء السابع من كتاب "العبر"<sup>1</sup>.

| عدد المواجهات العسكرية الواردة في كتاب العبر | عدد صفحات الكتاب | النسبة المئوية |
|--|------------------|----------------|
| 111 مواجهة                                   | 739              | %15.02         |

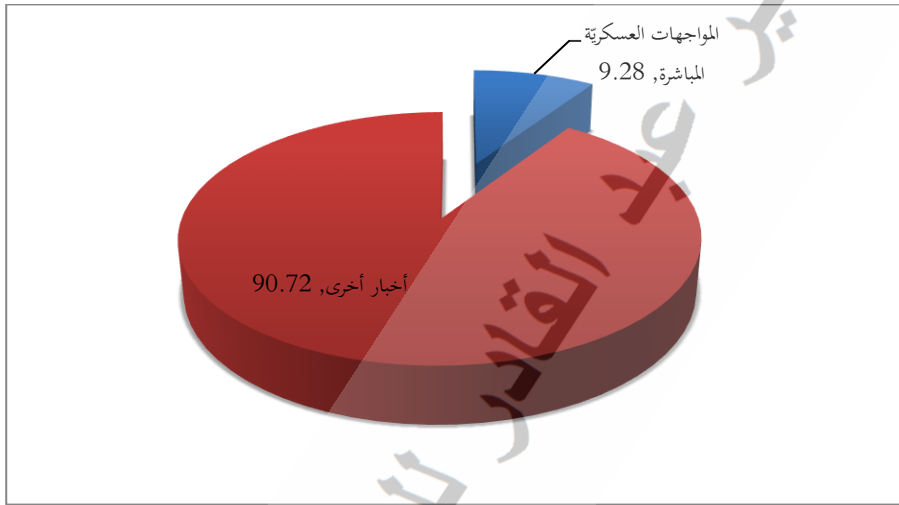


<sup>1</sup> ملاحظة: رغم ما تنضح به قريحة ابن خلدون في مصنفه العبر وتغطيته لمساحات واسعة تتعلق بمجريات الحرب خلال العهد الزياني إلا أن التقديرات في الدائرة النسبية توضح عكس ذلك، وذلك راجع لتكرار أخبار المواجهات العسكرية في سياقات موضوعاتية مختلفة، الأمر الذي جعلنا نركز في عملية المسح على الأخبار الواردة فيه بداية من فصل "الخبر عن تلمسان وما تأدى إلينا من أحوالها من الفتح إلى أن تأتلت بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم" إلى غاية قوله "وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد ... وبقي خبر الرهط الذين تحيزوا منهم إلى بني مرين منذ أول الدولة". ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 102/7-

4- المواجهات العسكرية المباشرة للجيش الزياني من خلال كتاب " زهر البستان في دولة بني

زيان":

| النسبة المئوية | عدد صفحات الكتاب | عدد المواجهات العسكرية الواردة في زهر البستان |
|----------------|------------------|---|
| 9.28%          | 237              | 22 مواجهة                                     |



## المبحث الثالث: كرونولوجيا الحصارات العسكرية خلال العهد الزياني من (627هـ-962هـ/1229-1554م):

إنّ لفظ "حصار" من حيث الدلالة اللغوية لفظ مرسل يوظف للتعبير على العديد من الحالات والضروب<sup>1</sup>، غير أنّ أهمّتها بالنسبة لدلالاته العسكريّة هو ما وضّحه ابن منظور بقوله: "الحصار هو الموضوع الذي يحصر فيه الإنسان ... ويقال قوم محصورون إذا حوصروا في حصن ... وحصره العدوّ يحصرونه إذا ضيقوا عليه وأحاطوا به وحاصروه محاصرة وحصاراً"<sup>2</sup>.

والحصار العسكري هو "إقامة نطاق من القوّات المسلّحة حول موقع محصّن كمدينة أو قلعة أو معسكر ومنع اتّصالاته مع الخارج، وحمل المحاصرين على الاستسلام بعد انتهاء ذخيرتهم أو المواد الغذائية لديهم أو المياه المخزونة"<sup>3</sup>، وقد أوضح الباحث البشير بوقاعدة وعدّد مظاهر حضور حرب الحصار ومدلولاتها في المصنّفات العسكريّة والأدبيّة في دراسته لخطة الحصار في المغرب خلال العصر الوسيط بشكل مستفيض فلا نطول بذكره<sup>4</sup>.

تطلّ حرب الحصار حسبما تقدّمه أحد الدّراسات حرباً "مسكوت عنها في التاريخ الإسلامي"<sup>5</sup>، وجدير بالذكر أنّ الحصارات العسكريّة تنقسم من حيث المدّة الزّمنيّة إلى قسمين؛ حصارات طويلة الأمد وأخرى قصيرة الأمد، ونظراً لعدم وجود معايير زمنيّة ثابتة للحكم على طول أمد الحصار أو قصره فإنّ بعض المصادر<sup>6</sup>

<sup>1</sup> من بين الضروب التي تأتي عليها معاني كلمة "حصار"؛ موضع حصر الإنسان، المحبّس، الإحاطة، الكساء، بوقاعدة بشير، خطة الحصار العسكري في بلاد المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والعاشر الهجريين (10-14م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي، إشراف جميلة بن موسى، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة-الجزائر، 2016-2017، ص 52-53.

<sup>2</sup> ابن منظور، لسان العرب، ص 896-897.

<sup>3</sup> سامي عوض، معجم المصطلحات العسكريّة، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2008، ص 198.

<sup>4</sup> البشير بوقاعدة، المرجع السابق، ص 52-70.

<sup>5</sup> هو الرأي الذي استقرّ عليه الدكتور خميسي بولعراس، وإذا ما استثنينا الجهود الأكاديميّة التي يقوم بها ذات الباحث والدكتور بوقاعدة بشير في الدّراسات الحربيّة في المغرب الإسلامي فإننا لا نقف على دراسات متخصصة صريحة تخصّ موضوع الحصار في بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط. خميسي بولعراس، التنظير الحربي في الاستراتيجية والتكتيك عند أبو بكر الطرطوشي (ت520هـ/1127م) من خلال كتابه سراج الملوك، مجلة دراسات وأبحاث، ع23، جوان 2016، [د.ص.].

<sup>6</sup> اتفقت المصادر على طول أمد هذا الحصار، واختلفت في مدّة إقامته على تلمسان فقد جاء عند ابن خلدون أنّ مدّته "ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله"، أما عند ابن قنفذ فمدّته "سبع سنين"، وعند ابن الأحمر "ثمانية أعوام". ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 128/7. ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقيّر، مصدر سابق، ص 70. ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانيّة، تح هاني سلامة، مكتبة الثقافة للنشر والتوزيع، 2001، مصر، ص 42.

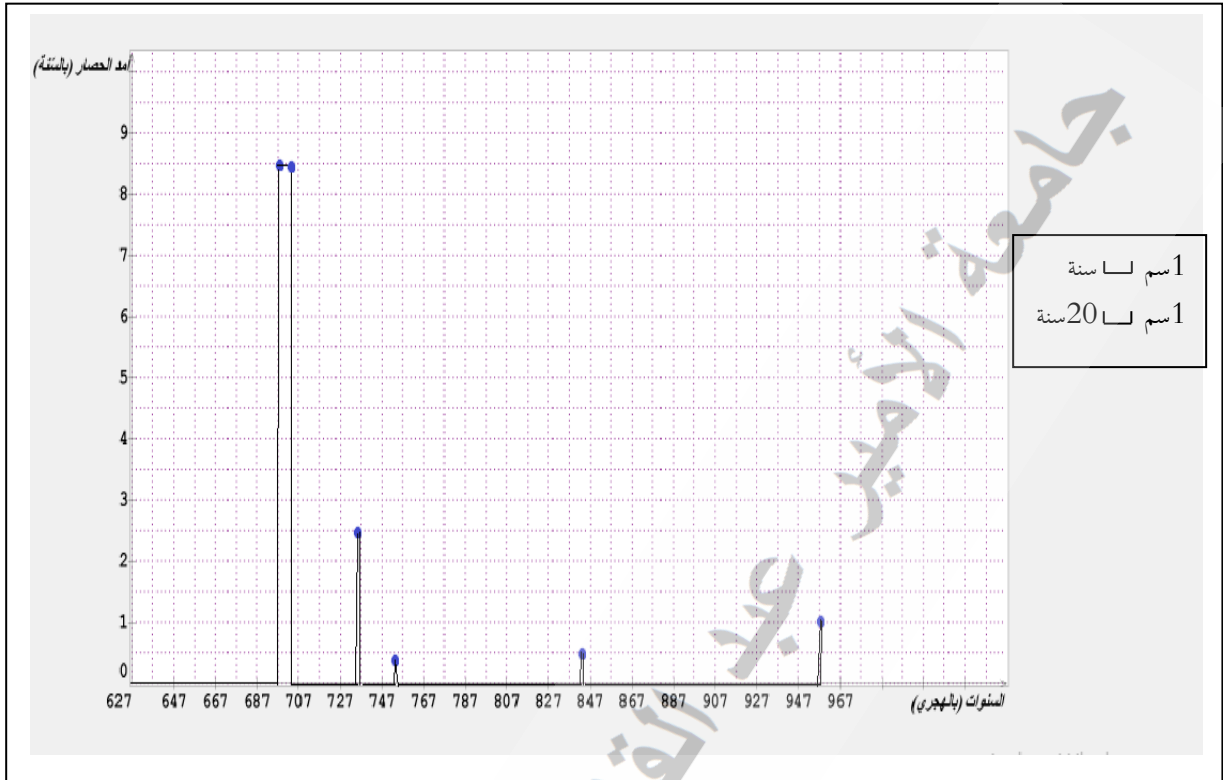
والدراسات<sup>1</sup> ذهبت إلى حصر الحصارات العسكريّة الطويلة الأمد خلال العهد الزياني في حصار تلمسان الطويل (698هـ-706هـ/1298-1306م) فقط، لكنّ الأخذ باستشهادات مؤرّخي الحروب الزيانيّة أو المصادر القريبة زمانياً من فترة الدراسة -مدار البحث- يضعنا أمام مفارقة تتعلّق بوضع محدّدات زمنيّة لتصنيف الحصارات العسكريّة الطويلة الأمد خلال العهد الزياني، ذلك أنّ يحيى بن خلدون مؤرّخ الدوّلة الزيانيّة يضع الحصار العسكريّ الذي يقارب الثلاثة أو الأربعة أشهر<sup>2</sup> في خانة الحصارات العسكريّة الطويلة الأمد، وهذا ما نتحصّسه في قوله عند نقله لأخبار حصار الأمير أبو ثابت لمغراوة: " وطلّ على أرباب المواشي من مغراوة أمد الحصار"<sup>3</sup>، وفي نسق مشائي يرى ابن عذاري أنّ أمد الحصار يطول عند بلوغه تسعة أشهر ويتّضح ذلك في قوله أثناء وصفه لحصار الموحدّين لمراكش سنة 541هـ/1146م: " فلما طال عليهم الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوم هلكوا جوعاً طول هذه المدة"<sup>4</sup>، بناء على هذه القرائن المعاصرة والقريبة زمنياً لفترة حكم الدوّلة الزيانيّة فإنّ الحصارات العسكريّة الطويلة الأمد هي الحصارات التي تتوسّط الفترة بين الأربعة والتسعة أشهر، وعليه فإنّ حصار تلمسان سنة 698هـ/1298م لم يشكّل الاستثناء الوحيد في تاريخ الحصارات الطويلة المدى خلال العهد الزياني، ولم يكن الحصار الطويل الوحيد في تاريخها بل عرفت حصارات أخرى يوضّحها المبيان التالي:

<sup>1</sup> بصديق عبد الكريم، البيوع والمعاملات التجاريّة في المغرب الأوسط وأثرها على المجتمع ما بين القرنين (6-9هـ/12-15م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط الإسلامي، إشراف فاطمة بلهوارى، كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2017-2018، ص 375.

<sup>2</sup> قمنا بتقديم هذه التقديرات التقريبيّة نظراً لعدم ضبط ابن خلدون لمُدّة هذا الحصار، حيث كان انطلاق أبي ثابت حسب حصار مغراوة في شهر ربيع الثاني دون ذكر اليوم، وكان انتهاءه بعد إخضاعها واللحاق بقائدها علي بن راشد بعد محاصرته لأيام قلائل في 16 عشر شعبان سنة 752هـ.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 262/1.

<sup>4</sup> ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدّين-، تح: إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 27.



مبيان للحصارات الزيانية طويلة الأمد

بناء على ما يقدمه الجدول، فإنّ حصار تلمسان الأعظم لم يكن الحصار الطويل الأمد الوحيد في تاريخ دولة بني زيّان، وهذا ما يستدعي الاسترسال عند هذه الحتمية التاريخية لتفكيك وتتبع مسار وأمد الحصارات العسكريّة خلال العهد الزياني.

المطلب الأول: الحصارات العسكرية قبيل تأسيس الدولة الزيانية إلى غاية الحصار الطويل (706هـ/1306م)

• حصار جابر بن يوسف لندرومة سنة (629هـ/1231م) :

يذهب يحيى بن خلدون إلى أنّ "مبتدأ الدولة العبد الواديّة ومطلع شمسها، وفاتحة فرقانها"<sup>1</sup> يرجع إلى سنة (627هـ/1229م)، تزامنا مع الدور الذي قام به جابر بن يوسف<sup>2</sup> في إرساء الدعامات الأولى لحكم دولة بني عبد الواد، وقيامه بالعديد من الحملات العسكرية التي استطاع من خلالها إخضاع بني راشد<sup>3</sup>، والسيطرة على بني عبد الواد كافة فبايعته كل حواضر القطر سوى ندرومة، ممّا أدّى به إلى محاصرتها والأخذ بمخنقتها، لكنّه قتل أثناء حصاره لها على إثر سهم وُجّه إليه من داخل أسوار ندرومة سنة (629هـ/1231م)<sup>4</sup>.

• حصار أبو زكريا الحفصي لتلمسان سنة (640هـ/1242م) والقطيعة الزيانية الموحدية:

بعد ستة سنوات من تأسيس دولة بني زيّان على يد يغمراسن بن زيّان وتوطيد أركان حكمه بها، تحرّك السلطان الحفصي أبو زكريا مغرباً للاستيلاء على التركة الموحدية وحاضرة الخلافة مراکش، فكانت تلمسان قبلته الأولى لتحقيق هذا الهدف، بعد أن أثبت يغمراسن ولاءه للموحدين نظرا لقرب الحاضرة مراکش منه وبعد تونس عنه، فكان هذا القرار الاستراتيجي ناجما عن اتقاء يغمراسن لأقرب الأخطار، كما أنّ هذا التقارب<sup>5</sup> الزياني الموحدية كان محرّكا لحفيظة وكيان أبي زكريا الحفصي بتونس لتفكيك هذا الحلف الزياني الموحدية، بالموازاة مع

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 220/1.

<sup>2</sup> هو "جابر بن محمد بن زجدان من بني عبد الواد مؤسس الدولة العبد الواديّة في تلمسان ... بايعته حواضر القطر إلا مدينة ندرومة فقصدتها وحاصرها، فرماه يوسف الغفاري التلمساني بسهم من سورها فقتله" وتوالى بعده على حكم تلمسان قبيل التأسيس الفعلي لدولة بني زيّان على يد يغمراسن بن زيّان ثلاثة أمراء هم : الحسن بن جابر بن يوسف الذي حكم 6 أشهر وانخلع لعمّه عثمان سنة 630هـ/1232م، وعثمان بن يوسف أخو جابر الذي تولّاها سنة 630هـ/1232م وثار عليه أهل تلمسان نظرا لسيرته الغير محمودة وأخرجوه منها سنة 631هـ، وآخرهم زيدان بن زيّان بن ثابت بن محمد بن أبو عزة، وليّها بعد خلع عثمان بن يوسف سنة 631هـ/1233م. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، 105/2. 62/3.

<sup>3</sup> بنو راشد : بطن من قبيلة زناتة ومن أبناء عمومة بني عبد الواد، وقد كانوا قاطنين بالصحراء ثم استوطنوا الجبال الموجودة شرقي تلمسان، ولم يزالوا أحلافا لبني عبد الواد ومن جملتهم، فكانت أخبارهم من أخبارهم . التنسي، مصدر سابق، ص 113. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 203/7.

<sup>4</sup> يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص 219-220.

<sup>5</sup> حول مظاهر التقارب الزياني الموحدية أنظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 226/1.



ذلك سعت بعض بطون زناتة وأحلافه من العرب كزغبة<sup>1</sup> ودتاب وسليم ورياح<sup>2</sup> المناوئة لحكم يغمراسن للسعي في تعجيل خروج أبي زكريا لحصار تلمسان، فبينما "هو في ذلك إذ وفد عليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض ولد منديل بن عبد الرحمان أمراء مغراوة صريحا على يغمراسن فسهلوا له أمره، وسؤلوا له الاستبداد على تلمسان وجمع كلمة زناتة"<sup>3</sup>، فانطلق في حملته في شوال 639هـ/1241م في جيش قوامه أربعة وستون ألفا<sup>4</sup> من الفرسان "فحاصرها حتى أخذها عنوة في شهر ربيع الأول من سنة أربعين"<sup>5</sup> ونظرا لشدة هذا الحصار "كان الهرب على صغر جرمه تجيئ في العشرون سهما وأزيد، فهال ذلك أهل البلد من الجند وغيرهم"<sup>6</sup> كما عاثوا "فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال"<sup>7</sup>، وعندما أدرك يغمراسن أن لا طاقة له لحمايتها، خرج بأهله وخاصته من باب العقبة<sup>8</sup> فارا إلى الصحراء، غير أن نوازع أبو زكريا كانت ترواده بعد أن دخل تلمسان وتحتة على عدم السيطرة المباشرة عليها، وتملي عليه أن يخلف خلفا بها ويرجع إلى حاضرتة بإفريقيّة، خاصة وأن أحدا لم يجرؤ على حكمها حيث "تبرأ أمراء زناتة ضعفا عن مقاومة يغمراسن علما بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته"<sup>9</sup>، فما كان إلا أن قام بإرجاعها ليغمراسن قائلا "ليس لها إلا

<sup>1</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 391/6

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 226/1.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 390/6.

<sup>4</sup> تتضارب المعطيات حول عدد الجيش فبينما يتفق الزركشي وابن خلدون على العدد المصرح به في المتن، يذهب ابن عذارى أن تعداد الجيش كان عشرة آلاف فقط. الزركشي، مصدر سابق، ص 29. ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تق: محمد الشادلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968، ص 109. ابن عذارى، المصدر السابق، ص 361.

<sup>5</sup> يتعذر علينا ضبط مدة الحصار بدقة نظرا للاضطراب في المادة المصدرية حول تواريخ هذه الحملة، فإذا اعتبرنا أن هذا التاريخ الوارد عن الزركشي هو تاريخ انتهاء الحصار، وأخذنا بمعطيات يحيى بن خلدون الذي يزودنا بتاريخ وصول جيش أبي زكريا لتلمسان في 29 محرم سنة 640هـ/1242م، فإن الحصار كان بين آخر يوم من شهر محرم وما يليه من شهر ربيع الأول، أي أنه دام قرابة شهر كأقل تقدير، غير أننا ألفينا عندي يحيى بن خلدون أن مدته كانت 4 أيام من يوم الأربعاء 29 محرم 640هـ/29 جوان 1242م إلى غاية يوم السبت 03 ربيع الأول 640هـ/31 أوت 1242م. وأن مدته عند ابن عذارى كانت 8 أيام، وإقرار بالفرق الشاسع بين هذه الأزمنة قمنا بترجيح الخبر الوارد عند ابن عذارى نظرا لتفريده بأخبار مفصلة عن هذا الحصار فضلا عن عدم سقوطه في المبالغة حيث ينفرد بأن عدد الجيش كان 10 آلاف فقط وليس 64 ألف وهو عدد مبالغ فيه بالنسبة لخوض حرب بين دول ناشئة. الزركشي، المصدر السابق، ص 29. يحيى بن خلدون، بغية الروا، مصدر سابق، 226-227. ابن عذارى، المصدر السابق، ص 361.

<sup>6</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 117.

<sup>7</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 391/6.

<sup>8</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة

<sup>9</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

صاحبها"<sup>1</sup>، مقابل عقد صلح بين الطرفين بوساطة أم يغمراسن "سوط النساء"، شريطة إحداث يغمراسن لقطيعة مع دولة الموحدّين وإعادة الدّعوة لأبي زكريا على منابر تلمسان، فضلا عن تقديم يغمراسن لجباية سنوية لأبي زكريا تقدر بمائة ألف دينار، وإعطاء بعض أمراء مغراوة وتوجين السيادة على أجزاء من المغرب الأوسط ليكونوا عيوناً له وجدارا صدا يحول بين يغمراسن وإفريقيّة<sup>2</sup>.

• ردود فعل الخليفة الموحدّي أبو الحسن سعيد على القطيعة الزيانيّة الموحدية وحصاره لتلمسان

سنة 646هـ/1284م:

أثارت التّبعية الزيانية للحفصيين على إثر الحصار السابق حفيظة الخليفة الموحدّي أبو الحسن سعيد (640-646هـ/1242-1248م) فقام بحشد صفوفه، وتوجه سنة 645هـ/1247م<sup>3</sup> إلى تلمسان لمعاينة يغمراسن، فتوجه يغمراسن مغرباً ناحية تميزدكت قبالة وجدة للتحصن "فاعتمد السعيد حصاره في الموضوع المذكور"<sup>4</sup> واستطاع يغمراسن الصمود أمام الجيوش الموحدية ثلاثة أيام، فلمّا كان اليوم الرابع<sup>5</sup> ركب السعيد "مهجراً على حين غفلة من الناس في قافلة ليتطوّف على المعتصم [أي يغمراسن] ويتقرّى مكانه، فبصرت به فارس من القوم يعرف بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان، كان أسفل الجبل للاحتراس وقرباً منه يغمراسن

<sup>1</sup> التنسي، المصدر السابق، ص 118.

<sup>2</sup> ابن خلدون، مصدر سابق، 6/392. 7/108. التنسي، مصدر سابق ص 118. ابن فضل الله العمري، مصدر سابق، 4/174.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 7/109.

<sup>4</sup> التنسي، المصدر السابق، ص 118.

<sup>5</sup> في العاشر من صفر من نفس السنة وعليه فإن الحصار كان من 06 صفر حتى 09 صفر /31 ماي -03 جوان من السنة المذكورة. بغية الرواد، مصدر سابق، 1/227.

وابن عمّه يعقوب بن جابر فانقضوا عليه من بعض الشعاب، وطعنه يوسف<sup>1</sup> فأكبه عن فرسه<sup>2</sup>. وتوفي السعيد منسلخ صفر 646هـ/1248م<sup>3</sup>، وبهذا فشل حصار أبو سعيد على يغمراسن وهدأت الأوضاع نسبيًا<sup>4</sup>.

● حصارات يعقوب بن عبد الحق ليغمراسن حتى سنة 680هـ/1281م:

بعد زوال رسم دولة الموحدين على إثر تحالف آخر خلفائها أبي دبّوس مع يغمراسن وهزيمتهم في معركة واد تلاغ الفاصلة سنة 666هـ/1267م<sup>5</sup> ضدّ يعقوب بن عبد الحق المريني، تمهدت الطريق للسلطان المريني لمعاينة يغمراسن في 15 رجب 670هـ/16 فيفري 1272م، فتوجّه لتلمسان و" حاصرها أياما وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث، وشنّ الغارات على البسائط، فاكتمسحها سببا ونسفها نسفا"<sup>6</sup>، وقد وجدت قبائل بني توجين وأميرهم عبد القوي الفرصة سانحة لمظاهرة السلطان المريني يعقوب، و" لأخذ ثأرهم من يغمراسن بن زيان، فقطعوا الثمار والجنّات وخرّبوا الرّباع، وأفسدوا الزّروع وحرّقوا القرى والضّيع، حتى لم يدعوا بتلك التّواحي قوت يوم حشى السّدرّة والدوم"<sup>7</sup>، وقام السلطان المريني على إثر ذلك بتسليح بني توجين وملاً حقائبهم من التّحف وجنب لهم مائة من الخيل المقربات الجياد بمراكبها وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالخلع الفاخرة والصلوات الوافرة واستكثر لهم من السلاح والفايزات والفساسيط<sup>8</sup>، ثم قفل راجعا وثنى العنان إلى رباط تازا في 01 ذي الحجّة 670هـ/29 جوان 1272م<sup>9</sup>، لكنّ السلطان المريني يعقوب لم يلبث طويلا إلى أن أجاب دعوة محمد بن عبد القوي التوجيني بعد أن استحمت القطيعة بينه وبين يغمراسن، واستمرت

<sup>1</sup> يسميه ابن خلدون بيوسف بن عبد المومن الشيطان، بينما ورد عند أخيه يحيى بن خلدون والتنسي باسم يوسف بن خزون. التنسي، مصدر سابق، ص 118، الهامش رقم 36. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 227/1.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة..

<sup>3</sup> ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 ص 265. ابن خلدون، المصدر السابق، 110/7. لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، ط2، 1973، 313/1. التنسي، المصدر السابق، ص 119.

<sup>4</sup> لم تسجّل المصادر حصارا آخر ليغمراسن إلى غاية سنة 655هـ/1257م أين ضرب حصاره على سجلماسة للأخذ بمخنق أبي يحيى بن عبد الحق لكنّ أمرها استغلق عنه فرجع إلى حضرته بتلمسان، واستطاع أن يظفر بها 662هـ/1263م وخرجت عن سلطته سنة 673هـ. يحيى بن خلدون، بغية التّوادم، مصدر سابق، 228/1.

<sup>5</sup> الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 25/3.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 245/7.

<sup>7</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 311. ابن خلدون، المصدر نفسه، نفس الصفحة.

<sup>8</sup> الناصري، المصدر السابق، 33/3.

<sup>9</sup> صرّح الناصري بأن قدوم أمير بني توجين في شوال من سنة 670هـ/1272م ويعقوب محاصر لتلمسان في هذه السنّة، وأنّ مغادرته لها كانت في هذا التاريخ، وعليه فإنّ مدّة هذه العمليّات التّخريبية قاربت الثلاثة أشهر. المصدر نفسه، نفس الصفحة.

منذ سنة 652هـ/1254م إلى غاية بلوغها ذروتها 670هـ/1272م فتوجّهوا إلى عاصمته تلمسان وأقاموا "على حصارها ورحلوا بعد الامتناع عليهم"<sup>1</sup>.

كما قام السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق بشنّ حصار آخر على سجلماسة بعد أن أثر أهلها يغمراسن على ملكها، فتمكّن له ذلك بعد أن قام أهل سجلماسة بقتل عاملها علي بن عمر سنة 662هـ/1263م وأنزل ابنه يحيى أميراً عليها إلى أن أزال السلطان المريني يعقوب حكم الموحدين في المغرب<sup>2</sup> "فوجّه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من طاعة يغمراسن وزحف إليها في العساكر والحشود من زناتة والبربر، ونصب عليها آلات الحصار إلى أن سقط جانب من سورها فاقتحموها منه عنوة في صفر ثلاث وسبعين وستمائة واستباحوها"<sup>3</sup>.

### 1- الحصارات العسكريّة على عهد عثمان بن يغمراسن حتى سنة 698هـ/1298م:

تولى السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1283-1303م)<sup>4</sup> حكم دولة بني زيّان وعمل بوصيّة أبيه الدّاعية إلى الاستنكاف عن مواجهة بني مرين، ودعاه إلى تولية وجهه شرقاً في عمليّاته العسكريّة التّوسعيّة، فقال له: "يا بنيّ إنّ بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربيّة وحضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا الوفود مددهم... فإياك واعتماد لقائهم، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم"<sup>5</sup>، فعقد لأوّل عهده الصّلح مع السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق غرباً، وأعلن البيعة لأبي إسحاق بتونس شرقاً، لكنّ أبا إسحاق لم يلبث أن خلع نفسه من الحكم نتيجة لثورة أبي عمارة المعروف بالدعي في 27 شوال 681هـ/28 جانفي 1283م، وتوجّه محتماً إلى صهره عثمان بن يغمراسن الذي كانت تربطه معه علاقة مصاهرة رفيقة ابنه أبي زكريا<sup>6</sup>، وبعد أن تمكّن أبو حفص عمر من إخمد ثورة الدّعي وقتله سنة 25 ربيع الثاني 683هـ/11 جوان 1284م<sup>7</sup>، طالب أبو زكريا الذي كان في حضرة عثمان بن يغمراسن الرجوع إلى ملك

<sup>1</sup> ابن خلدون، المصدر السّابق، 117/7.

<sup>2</sup> يقول ابن خلدون عن أثر واقعة تلاغ بين يعقوب بن عبد الحق والحلف الذي شكّله السلطان الزياني يغمراسن والخليفة الموحدي أبي دبوس "... ومحي [أي يعقوب بن عبد الحق] أثر بني عبد المومن منها [أي من المغرب]". ابن خلدون، المصدر السّابق، 115/7.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 114/7.

<sup>4</sup> هو أبو سعيد بن أبي يحيى يغمراسن بن زيان ثاني سلاطين دولة بني زيّان. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق 229/1.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المصدر السّابق، 123/7.

<sup>6</sup> الزركشي، مصدر سابق، ص 49، 46.

<sup>7</sup> ابن أبي دينار، المؤنس، مصدر سابق، ص 132.

بجاية، فرفض عثمان طلبه وأعلن بيعته لأبي حفص عمر الحفصي الذي تلقب بالمستنصر<sup>1</sup>، والظاهر أنّ هذا الرفض كان على خلفيّة بداية تنفيذ وصيّة أبيه السابقة للتوسّع شرقاً في بجاية، فرفضه لتسليم أبي زكريا هو بتعبير آخر مدعاة وذريعة للحرب لقيامه بمحاولات لملئ الفراغ ببجاية<sup>2</sup>، وعليه فإنّ الصراع تأجج من جديد "واستحمت القطيعة بينه [أي أبي زكريا] وبين عثمان، وكانت سببا لاستحكام الموالاة بين عثمان وبين الخليفة بتونس"<sup>3</sup>، الأمر الذي أدّى بأبي زكريا إلى الاستجاشة بالأعراب<sup>4</sup> من بني عامر وبني سباع<sup>5</sup>، وضمّ إليه بجاية وقسنطينة<sup>6</sup> والجزائر والزاب<sup>7</sup> سنة 1285/هـ 684م، "وقسم الدعوة الحفصية بدولتين"<sup>8</sup> محدثاً بذلك شرحاً وتصدياً في الدولة الحفصية، كما أنّه قام بشنّ حملات على تونس وقابس سنة 1286/هـ 685م ممّا أدّى بأبي حفص إلى الاستنجاد بعثمان بن يغمراسن لوضع حدّ لهذه الحملات.

على إثر الظروف السابقة وتسارع وتيرة الحوادث قام عثمان بن يغمراسن بالتهوؤ في شهر جمادى الأولى 686/هـ 1287م إلى بجاية فحاصرها "وقطع جناتها وأحرق قراها"<sup>9</sup> و"أناخ عليها بعساكره سبعا، ثم أفرج عنها منقلبا إلى المغرب الأوسط"<sup>10</sup> نظراً لامتناعها عليه، وقد شنّ حصاراً آخر خلال عودته منها في 15 رمضان 686/هـ 24 أكتوبر 1287م<sup>11</sup> على مازونة وانتزعها من أيدي مغراوة، ثم عزج على تنس<sup>12</sup> "فاكتسح

<sup>1</sup> القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، 129/5. روبر بارنشفيك، مرجع سابق، 134/1.

<sup>2</sup> نرجح هذا الطرح خاصة وإذا علمنا أنّ عثمان بن يغمراسن بدأ في شنّ حملات عسكرية خلال سنة 684/هـ 1285م واستطاع حصار ثابت بن مندبل بيرشك لمدة أربعين يوماً. ابن خلدون العبر، مصدر سابق، 133/7.

المصدر نفسه، 125/7.

<sup>4</sup> الباجي المسعودي، الخلاصة النقيّة في أمراء إفريقيّة، تح وتع: محمد زينهم، دار الأفاق العربيّة، القاهرة، 2013، ص 177.

<sup>5</sup> ابن خلدون المصدر السابق، ص 122.

<sup>6</sup> الزركشي، مصدر سابق، ص 148. ابن قنفذ، الفارسيّة، مصدر سابق، ص 148.

<sup>7</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، ص 122.

<sup>8</sup> المصدر نفسه، 461/6.

<sup>9</sup> يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 230/1. التنسي، مصدر سابق، ص 129.

<sup>10</sup> ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص 125.

<sup>11</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 230.

<sup>12</sup> تنس: بفتحتين والتخفيف، والسّتين مهملة... هي آخر إفريقيّة مما يلي المغرب بينها وبين وهران ثلاث مراحل وإلى مليانة في جهة الجنوب أربعة أيّام وإلى تيهرت خمسة مراحل وهي مدينة مسوّرة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى ينفرد بسكانها العمال لحصانتها، بما مسجد جامع وأسواق كثيرة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد 2، دار صادر، بيروت، 1977، ص 48. مجهول، حدود العالم، مصدر سابق، ص 134. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، مصدر سابق، ص 138.

حبوبها واحتكرها بمازونة استعداد لما يتوقع من حصار مغراوة إياها<sup>1</sup>، كما قام بالتوجه في نفس السنة إلى "تافر كينت فحاصرها وأخذ بمخنقتها"<sup>2</sup> واستطاع أخذها من أيدي بني توجين<sup>3</sup>.

ثمّ عمد عثمان سنة 689هـ/1290م إلى بلاد مغراوة بعد تحالفهم مع بني مرين في حركاتهم العسكريّة نحو تلمسان أخذاً بالتأّر، واستطاع أن يستولي على بؤرة تواجدهم ومستقرّهم بشلف وأنزل بها أبا حمو الأول، فأنحازت فلول مغرواه إلى ضواحي متيّجة مع قائدهم ثابت بن منديل، فتتبّعهم السلطان الزياني "وحاصروهم بمدينة برشك أربعين يوماً"<sup>4</sup>.

• الحصارات العسكريّة للسلطان المريني يوسف بن يعقوب على تلمسان حتّى سنة

698هـ/1299م:

يرجع السبب الأول في تحريك أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني لجيوشه نحو تلمسان إلى إيواء عثمان بن يغمراسن لابن السلطان المريني يعقوب أبو عامر عبد الله المستبد على أبيه بملك مراكش بتحريض من عاملها محمد بن عطو، فبعد أن اتّصل هذا الخبر بيوسف وهو بفاس أسرع إليه فاعترضته جيوش أبي عامر لكنّها لم تصمد فقفلت مفلولة، وفرّ أبو عامر وابن عطو للاحتماء بظاهر تلمسان سنة 688هـ/1289م فأواهم عثمان، وأبى أن يسلم السلطان المريني أبا يوسف ابنه بعد مطالبة هذا الأخير به، قائلاً له "والله لا أسلمه أبداً ولا أبيع حرمتي وأترك من استجار بي حتّى أموت"<sup>5</sup>، وقد أثار هذا الرّد حفيظة السلطان يوسف فقام على إثر ذلك بشن العديد من الحصارات رجع في كل من منها مفلولاً<sup>6</sup>، وانتهت بالحصار الطويل على تلمسان سنة 698هـ/1299م، كان أوّلها رمضان من سنة 689هـ/1290م<sup>7</sup> على عثمان "فحاصره وضيق عليه بالقتال، ونصب عليه المنجنيق، فأقام عليه ستة عشر يوماً وارتحل عنه راجعاً إلى المغرب فدخل رباط تازا في ثالث

<sup>1</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، ص 124. التنسي، المصدر السابق، نفس الصفحة.

<sup>2</sup> المصدر السابق، نفس الصفحة، يحيى ابن خلدون، المصدر السابق نفس الصفحة.

<sup>3</sup> تعتبر قبائل بني توجين من بين أهم القبائل المنافسة للدولة الزيانية وقد شكّلت بحكم المواجهات العسكريّة بينها وبين سلاطين بني زيان التيّ دامت لأكثر من ستين سنة مجالا حيويًا وفصلاً مهمًا من فصول التاريخ العسكري خلال العهد الزياني. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، 45/2. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 230/1.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، ص 124-125.

<sup>5</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 379.

<sup>6</sup> التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص 130.

<sup>7</sup> هذا ما صرّح به ابن أبي زرع، لكن الناصري يكتفي بالتأشير على الشهر والسنة دون ذكر اليوم، الناصري، مصدر سابق، 69/3. ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 379.



ذي القعدة<sup>1</sup>، وكان ثانيها حصار ندرومة سنة 695هـ/1295هـ<sup>2</sup>، حيث "حاصره وشّد في قتالها ورمها بالمنجنيق أربعين يوما فامتنت عليه فأفرج عنها ثاني عيد الفطر"<sup>3</sup>، وقد كانت محاولته الثالثة 696هـ/1296م، و" فيها غزا أمير المسلمين يوسف أيضا مدينة تلمسان فنزل عليها وحاصرها"<sup>4</sup>، وكان آخرها الحصار الطويل على تلمسان في شعبان 698هـ/1298م إذ أحاطت بها العساكر "من جميع جهاتها، وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجا من الأسوار محيطا بها وفتح فيه أبواب مداخل حربها، واختطّ لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سمّاها المنصورة"<sup>5</sup> تمهيدا لضرب أطول حصار في تاريخ تلمسان خلال العهد الزياني.

**2- الحصار الطويل لتلمسان 698هـ - 706هـ/1298-1306م:**

إنّ الوقوف على موضوع حصار تلمسان الطويل يتطلّب استرسالا فاحصا لاستجلاء أهم مسوّغات ودوافع هذا الحصار الذي دام لأكثر من 8 سنوات<sup>6</sup>، فهذه المدّة الطويلة لا يمكن أن تكون خلاصة أسباب تخضع لدوافع نفسية وشخصية<sup>7</sup>، أو امتدادا لطموحات تهدف إلى إقامة مشاريع سياسية توسعية، وإنما هي

<sup>1</sup> تتباين المعطيات حول مدّة الحصار في هذه الحملة فبينما يذهب ابن خلدون إلى أن الحصار لم يدم سوى يوم واحد يذهب ابن أبي زرع إلى أنّ مدّة الحصار كانت 15 عشر يوم، غير أنّنا لا يمكننا الترجيح نظرا لأنّ الرّجحان يكون بناء على تاريخ عودة السلطان إلى دياره بالمغرب الأقصى وهو الأمر الذي تضاربت فيه المصادر أيضا، حيث أدلى ابن أبي زرع تاريخ عودة السلطان المريني إلى رباط تازة هو 03 ذي القعدة 689هـ/7 نوفمبر 1290م بينما الناصري أن تاريخ عودته كان في أول أيام عيد الفطر وعليه فإنّ الفوارق الزمنية ضئيلة لترجيح رأي على آخر. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/126. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 379، الناصري، المصدر السابق، ص 3/69.

<sup>2</sup> هكذا عند ابن أبي زرع وعبد الرحمان بن خلدون، بينما يورد كل من الناصري ويحيى بن خلدون أن تاريخ حصار ندرومة كان سنة 695هـ/1295م. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 385. الناصري، المصدر السابق، ص 3/76. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 1/231.

<sup>3</sup> الناصري، المصدر السابق، ص 76.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 385.. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 1/231.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، ص 127.

<sup>6</sup> اختلفت المصادر بشأن مدّة هذا الحصار فابن القنفذ وابن الأحمر يريان أن مدّة الحصار كانت سبع سنوات فقط، ويخالفهما المقري الذي يرى أنّ مدّة كانت عشرة سنوات، أمّا ابن مرزوق والقلقشندي فيريان أنّها تسع سنوات، عدا ذلك فالمصادر الأخرى تتفق على أنّ مدّته كانت ثمان سنوات وبضعة أشهر. ابن القنفذ، أنس الفقير وعزّ الحقيير. ابن القنفذ، مصدر سابق، ص 70. المقري، ازهار الرياض بأخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السّقا وآخرون، مطبعة لجنة لأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940، 2/336. القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، 8/91. ابن الأحمر، روضة التّسرين، مصدر سابق، ص 50. ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 194.

<sup>7</sup> هذا ما نستشفه الرّسالة التي بعث بها السلطان المريني أبو سعيد 709-731هـ/1310-1331م إلى سيف الدين قلاوون بمصر، يخبره فيها بالدوافع الشخصية للسلطان المريني يوسف بن يعقوب لضرب الحصار الطويل على تلمسان. القلقشندي، صبح الأعشى، المصدر السابق، نفس الصفحة.

تراكمات للفرضيتين السابقين، ذلك أنّ تتبّع الأخبار الواردة في المصادر حول حصار تلمسان الطويل يفصح لنا عن مجموعة من الأسباب والدوافع ذات البعد الشخصي والسياسي، وفيما يلي قراءة لآراء أهم المؤرخين:

- ابن أبي زرع: يذهب ابن أبي زرع إلى أنّ سلسلة الحملات التي وجهها يوسف بن يعقوب إلى تلمسان، والتي كُتلت في الأخير بحصارها الطويل يرجع إلى إيواء عثمان بن يغمراسن لابنه أبو عامر المستبدّ بحكم أبيه بمساعدة عامل مراكش ابن عطو، ويؤسّس لذلك بقوله: "كان أصل حصار تلمسان وفناء بني عبد الواد أنّ ابن عطو لما فعل ما فعل وفرّ إلى عثمان بن يغمراسن ملكها كتب إليه أمير المسلمين يوسف أن يسلمه إليه، فامتنع من ذلك، فغزاه ... ولم تزل العداوة تتركب بينهما فغزاه ثانية"<sup>1</sup>.

- التنسي: ينسجم رأي التنسي تمام الانسجام مع ما ذهب إليه ابن أبي زرع، ولا مرأى من استحضر قوله كاملاً إذ يرى أنّ "سبب موجدته [أي يوسف بن يعقوب] على الأمير أبي سعيد أنّ أبا عامر بن أبي يعقوب نافق على أبيه مع وزيره ابن عطو، وقام بمراكش فلما توجه إليه أبوه فرّ مع ابن عطو وقدم تلمسان فأكرم السلطان أبو سعيد مثواهما، ثمّ أنّ أبا عامر عفا عنه أبوه، فرجع إليه فطلب أبو يعقوب أن يمكّن من أبي عطو فأبي عليه الملك أبو سعيد. وكان نزوله أياها عام ثمانية وتسعين وستمائة"<sup>2</sup>.

- يحيى بن خلدون: يخالف يحيى بن خلدون رأي سابقه، إذ يرى أنّ حصار تلمسان الطويل كان نتيجة اقتناص السلطان المريني لفرصة ضعف عثمان بن يغمراسن على إثر الحملات الأربع الموجهة لتلمسان التي سبقت حصارها الطويل هذا، واستغلال ظرف الاحتقان لدى قبائل بني توجين ومغراوة ضدّه، خاصة بعد خلع قائد زكريا المطغري لطاعته بندرومة، ومبايعته للسلطان المريني يوسف بن يعقوب، فكانت الفرصة سانحة "وطمع أبو يعقوب في انتهاز الفرصة فيها، فنهض يطوي المراحل إليها وطار خبره إلى السلطان أبي سعيد فرجع يصل التأويب بالإشادة على حضرة ملكه، بعد استئصاله قبيل توجين"<sup>3</sup>.

- عبد الرحمان بن خلدون: تقدّم القرائن في العبر طرحا تجاوزيا لأسباب الحصار وتزواج بين تراكمات الدوافع الشخصية ونوازع إقامة المشروع السياسي التوسّعي المريني، ذلك أنّ التوسّعات المرينية وتعاضم شأنها في الدّاخل والخارج - في الأندلس - كانت هاجسا مزدوجا يؤرّق كلا من الطرف الزياني في الدّاخل وبني الأحمر في الخارج، وترجع إرهابات ذلك إلى الخلاف بين بني الأحمر وبني مرين لعدم انصياع بني الأحمر للتخلي عن مالقة

<sup>1</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 386.

<sup>2</sup> التنسي، نظم الدرّ والعقيان، مصدر سابق، ص 131.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 231/1.

لصالح السلطان يعقوب بموجب اتفاق الطرفين على ذلك، فقرر الأمير محمد الفقيه ثاني ملوك بني الأحمر مراسلة السلطان الزياني يغمراسن في 678هـ/1279م لتحريضه على إثارة القلائل، فراسله "من وراء البحر في الأخذ بحجة يعقوب وشن الغارات على ثغوره [أي الثغور الغربية المتاخمة للدولة المرينية] ليكون ذلك شاغلا له عنهم"<sup>1</sup>، وبالمرافعة مع ذلك فإن ابن الأحمر أراد التقرب من ألفونسو عدو السلطان المريني عند مجازته الأول للجهاد في العدو، وكان ذلك بإرسال رأس دون نونيو المبتور عن جسده إليه بعد أن جعله في المسك والكافور "ليتحبب به إليه"<sup>2</sup> معلنا بذلك الولاء له سنة 674هـ/1294م، وذلك اتقاءً لنكته بالوعد ولتخوفه من تعاضم ردود السلطان المريني يعقوب<sup>3</sup>، وبالفعل فأمام تعاضم شأنه في فتوحه في الأندلس وتمكّنه من طريف وغاراته على شريش واشبيلية 691هـ/1291م أصبح يشكل تهديدا مباشرا لابن الأحمر<sup>4</sup> وملك قشتالة سانشو، فقرر الأخيرين عقد العديد من المفاوضات ضدّه لكبح جماحه "وأهم الطاغية أمره، وثقلت عليه وطأته والتمس الوليجة من دونه، وحذر ابن الأحمر غائلته، ورأى أنّ مغبة حاله [أي السلطان المريني] الاستيلاء على الأندلس، وغلبه على أمره، ففاوض الطاغية وخلصوا نجيا، وتحدثوا أنّ استمكانه من الإجازة إليهم إنّما هو لقرب مسافة بحر الرقاق"<sup>5</sup>، وعليه فإن تفكيك هذا الحلف كان من أولى أولويات السلطان المريني يوسف بعد توليه لحكم بني مرين عقب وفاة أبيه، فكان اشتغاله مركزا على حلّ هذا الحلف بدءا بإسقاط أقرب عدو له وهو عاصمة الزيانيين تلمسان التي كانت تشكل مصدر قلق له، وهذا ما تفسّره كثرة الحملات عليها في مواقيت زمنية متقاربة<sup>6</sup>، والتي انتهت بحصارها الطويل، والظاهر أن ابن خلدون قد لخص كلّ هذه الوقائع في قوله: "... وقام بالأمر من بعده في قومه ابنه يوسف كبير ولده على حين أتبعهم أنفسهم الجهاد. وآسفهم يغمراسن وابنه

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 120/7.

<sup>2</sup> ابن أبي زرع الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 319.

<sup>3</sup> الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 71/3.

<sup>4</sup> يوضح لنا ابن خلدون مدى تخوف ابن الأحمر وارتبابه الشديد من يعقوب بن عبد الحق بقوله: "ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدى له ما لم يكن يحتسب، وظنّ بأمير المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف ابن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس، وأكد عنده ذلك جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه، وانقيادهم لأمره، فشرّق بمكانه وحذر من غوائله، وتكدر الجو بينهما، وأجاز الإجازة الثانية فانقبض ابن الأحمر عن لقاءه". ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 226/7.

<sup>5</sup> يعتبر هذا الاتفاق جزءا من العديد من الاتفاقيات بين سانشو وابن الأحمر ضدّ السلطان المريني. للمزيد من التفصيل حول جملة الاتفاقيات التي شكّلها هذا الحلف انظر: المصدر السابق، 285/7.

<sup>6</sup> التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص 130.

بمألاة الطاغية وابن الأحمر فعقد يوسف بن يعقوب السلم مع الطاغية لحينه، ونزل لابن الأحمر عن ثغور الأندلس التي كانت لهم<sup>1</sup>، وفرغ لحرب بني عبد الواد<sup>2</sup>.

وعلى الرغم من أنّ تراكم هذه الأسباب كان لها مبرّرها الكافي لرفع درجة الاحتقان لدى السلطان المريني، إلا أنّها لم تشكل كلّ كافة الأسباب فإذا قمنا بتقييم الوضع داخليا على المستوى المغربي في السنوات الأخيرة قبل الحصار الطويل يتضح لنا مدى التجاوزات التي وقعت بين الطرفين المريني والزياني، وقد غدّت هذه الأسباب مستوى الاحتقان ليبلغ ذروته بين الطرفين، ففي 692هـ/1292م راسل عثمان بن يغمراسن ملك قشتالة في حركة دبلوماسية لتأليب علي السلطان المريني "وأوفد علي الطاغية ابن بريدي من صنائع دولته سنة اثنتين وتسعين وستمائة ووجه الطاغية مع الريك ريكسون رسول من كبار قومه"<sup>3</sup> وتكرّرت السفارة الزيانية القشتالية ثانية مع رسول عثمان بن يغمراسن "الحاج مسعود"<sup>4</sup>.

كما أن إيواء<sup>5</sup> عثمان بن يغمراسن لأطراف ناصبت العداء وطالبت الاستبداد بأجزاء من المغرب الأقصى بعد وفاة السلطان المريني يعقوب، كان محرّكا لوضع حدّ لتلمسان التي أصبحت ملاذا للمتمرّدين عليه، لما في ذلك من نقض لاتفاقيّة السلم التي استهلّها عثمان بن يغمراسن خلال بداية حكمه<sup>6</sup>، وأهمها إيواؤه لعامر بن يحيى بن الوزير الوطاسي الذي ثار على السلطة المركزيّة بفاس بحصن تازوطا<sup>7</sup> ومهاجمته إياه واستيلائه على ذخائره،

<sup>1</sup> كان ذلك سنة 692هـ. الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 75/3.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 126/7.

ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، 290<sup>3</sup>/7.

المصدر نفسه، نفس الصفحة<sup>4</sup>.

<sup>5</sup> تعدّد مظاهر إيواء كل من الطرف الزياني والمريني للقوى المعارضة للسلطتين المركزيّتين، فمن جهة الزيانيين فقد قاموا بإيواء المناهضين للسلّة المرينيّة كالوزير الوطاسي المذكور سنة 691هـ/1291م، وأبا عامر ومحمد بن عطو قبل ذلك سنة 688هـ/1289م، والوزير عبد الرحمان بن يعقوب وابن رحو وغونصالو قائد الرّوم بعد حصار تلمسان، أما من جهة المرينيين فقد من هذه الحيلة واستقبلوا جبهة المعارضة الزيانيّة في سنوات حكم أبي حمّو موسى الثاني (760هـ-791هـ/1358-1388م). ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 378، 379، 381، 382، 394. ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، 136/7، 146، 147، 167.

<sup>6</sup> بكاي هوارية، العلاقات الزيانيّة المرينية سياسيا وثقافيا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف بودواية مبخوت، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم التاريخ، تلمسان، 2007-2008، ص 198.

<sup>7</sup> كانت بلاد الرّيف لبني وطاس من لدن دخول بني مرين المغرب واقتسامهم لأعماله فكانت ضواحيها لنزهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم، وكان حصن تازوطا بها من أمنع المعامل بالمغرب وكان الملوك من أولاد عبد الحق يعتنون بشأنه، وينزلون من أوليائهم من يثقون به ليكون جدارا صدّا عليهم. وبعد وفاة السلطان المريني قام عمر الوطاسي بالوثوب على منصور ابن أخ السلطان المريني سنة 691هـ/1292م. ابن خلدون، المصدر السابق، 288/7.

مما أدى بيوسف بن يعقوب إلى القيام بحصاره، وقد استرجع هذا الحصن في آخر جمادى 692هـ/1293م بعد أن ولّى عامر فأرّا إلى حضرة عثمان بن يغمراسن تلمسان<sup>1</sup>.

بالإضافة إلى هذه الأسباب، فإنّ العلائق بين بني زيان وبني مرين على عهد عثمان بن يغمراسن أخذت منحى آخر تصاعدي، وتطوّرت لتبلغ منعرجا حاسما سنة 694هـ/1295م، بعد أن قام ثابت بن مندليل أمير مغراوة بالاستنجد بالسلطان المريني أبو يوسف يعقوب ليحيره من عثمان، فأرسل يعقوب سفيره شفيعا " فردّه عثمان أقبح ردّ وأساء في إجابته"<sup>2</sup>، ثم كتر السلطان يعقوب سفارته لنفس الغرض في نفس السنّة " فلم يزداهم [أي عثمان] إلا إصرارا، فاعتزم [السلطان المريني] على غزو بلادهم"<sup>3</sup>، وكان ذلك سببا مباشرا لشنّ أبي يوسف يعقوب للعديد من الحملات المتتالية، سنة 694هـ/1295م على تاوريرت و695هـ/1296م على وجدة وندرومة، و696هـ-697هـ/1297-1298م على تلمسان، واستطاع إخضاع كلّ من "ندرومة وهنين ووهران<sup>4</sup> وتاوانت<sup>5</sup> ومزگران ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة ووانشريس ومليانة والقصبات والمدية وجميع البلاد"<sup>6</sup>، وقد كلّلت هذه المحاولات بحصارها الطويل<sup>7</sup>.

**المطلب الثاني: الحصارات الزيانية من انتهاء الحصار الطويل 706هـ/1306م إلى غاية (791هـ/1388م)**

ترجع أسباب هذه الحملات المتكررة للزيانيين على الحفصيين إلى أيام حصار تلمسان الطويل، ذلك أن السلطان الزياني عثمان بعد اشتداد الخناق عليه وضيق نطاق الحصر على حضرة ملكه بعد سيطرة أي يعقوب يوسف على عاصمته، قام بالاستنجد بصره أبي زكريا المنفصل عن السلطة المركزية الحفصية، فهبّ هذا الأخير لنجدته، لكنّ جيوش السلطان المريني يوسف اعترضت قوّاته قبل وصولها لتلمسان " والتقوا بجبل الزّاب فكانت الدّبرة على عسكر الموحدّين واستلحموا هناك. وتسمّى هذه المعركة لهذا العهد بمرسى الرؤوس"<sup>8</sup>، وقد

<sup>1</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 290.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>4</sup> يذكر ابن خلدون أنّ طريقة إخضاع وهران كان عن طريق شنّ حصار عليها بعد انطلاق يوسف بن يعقوب مشرقا في رجب سنة 698هـ/1298م. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 292/7. الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 80/3

<sup>5</sup> المقصود بها "تاوريرت" وهي "مدينة قديمة بناها الأفاقة على تل مرتفع قرب نهر زاع... كانت تاوريرت مدينة متحصّرة... غير أنّه لما استولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة. فقد رغب المرينيون في أن تتبع تاوريرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضمّوها إلى مملكتهم". الحسن الوزان، مصدر سابق، 349/1.

<sup>6</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 386-387.

<sup>7</sup> للمزيد من التفصيل حول هذه الحملات وتواريخ انطلاقها انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 290/7-291.

<sup>8</sup> المصدر نفسه، 122/7



استغلّ صاحب كرسّي تونس أبي عصيدة هذا الظرف للتقرّب من السلطان المريني ضدّ غريمه أبي زكريا في ملك بجاية بعد أن "صار كرسّيّ منها بتونس وآخر ببجاية"<sup>1</sup>، حيث قام بإرسال مجموعة من الهدايا له، وهذا ما يمكن اعتباره تهديدا مباشرا لكيان كلّ عثمان بن يغمراسن وصهره اللذان وقعا بين فكي يوسف بن يعقوب غربا وأبي عصيدة شرقا، فلمّا "بلغ خبرهم إلى عثمان بن يغمراسن وراء جدرانها فتتكرّ لها وأسقط ذكر الخليفة [أبي عصيدة] من منابرهم، ومحاها من عمله"<sup>2</sup>.

بعد انجلاء الحصار الطويل على تلمسان واعتلاء أبو حمو موسى الأول سدّة حكم تلمسان سنة 706هـ/1306م، أخذ في تمهيد ملكه وبدأ بإخضاع كل من بني توجين ومغراوة " إذ كانوا خلعوا الدّعوة أيام الحصار"<sup>3</sup>، كما توافدت عليه الرّسل<sup>4</sup> تحثّه على مهاجمة الجهات الغربيّة للدّولة الحفصيّة بعدما تولى أبو البقاء خالد حكم بجاية على إثر وفاة صهر عثمان الأمير أبي زكريا الحفصي، فجمع له أبو حمو الأوّل الجموع سنة 713هـ/1313م، "وعقد لمسعود ابن عمّه أبي عامر برهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية، وعقد لمحمد ابن عمّه يوسف قائد مليانة على عسكر، ولمولاه مسامح على عسكر آخر، وسرّحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد. وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخم، وسرّح مع العرب من الزواودة وزغبة عن طريق الصحراء... ولحق مسعود بن برهوم محاصرا لبجاية وبني حصنا بأصفون لمقامه، وكان يسرّح الجيوش لقتالها فتجول في ساحتها ثم ترجع إلى الحصن"<sup>5</sup>. لكن هذه الحملة الرباعيّة كانت قد حملت بذور فنائها في كثرة أعدادها حيث افتقرت للانسجام اللّازم ووقع بين قادتها الأربع فتنة انتهت إلى تفرقتهم "وسمع القول القبيح فيه من الأطراف"<sup>6</sup>، وأسفرت هذه الفتنة بمحمد بن يوسف إلى شقّ الطاعة واخضاع كلّ من مليانة التي عزلها عنها أبو حمو بعد أن سعى قائده أبو موسى بن علي الغزّي لإفقاذه حظوته عند السّلطان الزياني،

<sup>1</sup> الناصري، المصدر السابق، 3/ 80.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة.

<sup>3</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 136.

<sup>4</sup> للمزيد من التفصيل حول الأطراف التي أغرت وألبت أبو حمو موسى الأوّل للهجوم على بجاية انظر: ابن خلدون، مصدر سابق، 7/ 137.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، 7/ 138.

<sup>6</sup> لقد كان سبب هذا التناقص هو نيل الخطوة عند أبي حمو وأول من أثارها موسى الغزّي أحد هؤلاء القادة إذا أوغر صدر أبو حمو الأوّل على القائد محمّد بن يوسف الذي عزله أبو حمو مباشرة عن مليانة بعدما كان عامله عليها على إثر هذا لتأليب من موسى، وتساعدت الفتنة بينهم لتنتهي إلى القول أعلاه. التنسي، مصدر سابق، ص 137-138. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 1/ 237، 236..



كما استطاع إخضاع كل من بني توجين ومغراوة، وهذا ما أدّى بأبي حمو إلى استدعاء مسعود بن برهوم الذي كان محاصراً لبجاية ليمدّه بالعاكر لإخضاع محمد بن يوسف، معلنا بذلك رفع الحصار على بجاية<sup>1</sup>.

#### • حصار أبو حمو الأول لراشد المغراوي المستبد بنواحي شلف:

جاء هذا الحصار تزامنا مع الحملة ذات القيادة الرباعية - المذكور سابقا - وكان راشد بن محمد بن ثابت بن منديل قد جاء من زاوية واحتلّ وطن شلف، فنهض إليه أبو حمو بعد عودة السلطان المريني أبو سعيد قافلا عن تلمسان إلى المغرب سنة 714هـ/1314م وفرغ بذلك لمواجهته، لكن راشد فرّ إلى بجاية "منحازا إلى فئة الموحّدين"<sup>2</sup> عندما علم بخبر قدوم أبي حمو إليه، بينما خيم شيعته من بني أبي سعيد<sup>3</sup> بواد تهل بضواحي شلف فهبّ أبو حمو "لحصارهم، وبني هنالك قصره المعروف به"<sup>4</sup>.

#### • الحصارات العسكريّة على عهد أبو تاشفين الأول حتى 732هـ/1331م :

لم تكد سنة 718هـ/1318م تنقضي حتّى توفيّ أبوحمو موسى الأول، فخلفه ابنه أبو تاشفين الأوّل، ليواصل بعده مساعي أجداده للتوسّع على حساب أراضي الدّولة الحفصيّة، خاصة وأنّ بني مرين قد اشتغلوا في هذه الفترة بحركات الاسترداد<sup>5</sup> Reconquista<sup>6</sup> في الأندلس، فتحرّك السلطان الزياني أبو تاشفين الأوّل "أول حركاته سنة تسع عشر [وسبعمائة] لاستئصال محمد بن يوسف -المذكور سابقا- الثائر على أبيه بالشرق"<sup>7</sup> مع أحلافه من زناتة وعرب سويد بجبل وانشريس، و"حاصرهم هناك إلى أن أخذهم عنوة، وقتل محمد بن يوسف"<sup>8</sup>، وكانت مدّة هذا الحصار ثمانية أيّام<sup>9</sup> ثم عرّج منها على بجاية فأناخ عليها أيّاما وحاصرها<sup>10</sup>،

<sup>1</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، ، 138/7.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 236.

<sup>3</sup> بني أبي سعيد هم فخذ من أفخاذ قبيلة مغراوة. التنسي، مصدر سابق، ص 136.

<sup>4</sup> تقع قرية عمّي موسى اليوم على بعد 25 كلم في الجنوب الشرقي لواد رهيو. المصدر السابق، ص 137، الهامش رقم: 139.

<sup>5</sup> شرع فيها الإسبان منذ نهاية القرن 5هـ/11م ففي سنة 709هـ/1309م احتلّ الأسبان جبل طارق فاستنجد سلطان غرناطة بالمرينيين الذين استرجعوه سنة 733هـ/1333م لكن السلطان المريني أبو الحسن هزم هزيمة كبرى سنة 740هـ/1340م أمام

ألفونسو XI فكانت هذه السنة بمثابة نهاية التدخلات المرينية ضد المسيحيين الإسبان. صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية، ص 74. عمر سعيدان، علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي، منشورات سعيدان، تونس، 2002، ص 14.

<sup>6</sup> Charles-Emmanuel Dufourc, L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles, presses universitaires de France 108, boulevard Saint-Germain, Paris, 1966, p15.

<sup>7</sup> يحيى، بن خلدون، مصدر سابق، ص 239-240.

<sup>8</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 143.

<sup>9</sup> ابن خلدون، العبر، 7/142.

<sup>10</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 143. ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة.

ثم غزاها ثانية سنة 720هـ/1320م، وثالثة سنة 721هـ/1321م وبلغ في هذه الأخيرة قسنطينة بقيادة "موسى بن علي الكردي فأنتهى إلى قسنطينة وحاصرها فامتعت عنه فأفرج عنها"<sup>1</sup>، وكان قد بنى خلال هذه السنة بمحاذاة بجاية حصن بكر وأنزل به العساكر، "وترك به القائد يحيى بن موسى الجمي بحصّة وافرة وعاد"<sup>2</sup>، ثم كرّر النهوض إلى بجاية في سنوات 722هـ/1322م، و723هـ/1323م<sup>3</sup>، و724هـ/1324م<sup>4</sup>. كما عرفت الجهة الشرقية حصارا آخر سنة 725هـ/1324م بعد أن وفد على أبي تاشفين "أشباخ سليم كافة، كحمزة بن عم بن أبي الليل ومحمد بن طالب بن مهلهل ومحمد بن مسكين الحكيمي، يستحثونه للحركة نحو إفريقية"<sup>5</sup>، فقام أبو تاشفين بإرسال قائده موسى بن علي الغزي إليها واستطاع أن يحاصر في هذه السنة قسنطينة لمدة 15 يوم<sup>6</sup>، واشتد فيها الحصار بأهل قسنطينة حتى "تعلق المحاصرون بالأسوار، وفرغ الحجر الذي يضرب به لأنه كان عدّتهم"<sup>7</sup>، ثم عاد إلى حضرة تلمسان عند باب مولاه بعد ذلك.

وقد كانت وطأة الحصار على بجاية سنة 726هـ/1325م<sup>8</sup> أشد، نظرا لبناء أبي تاشفين لحصن تيمزردكت، وحشده للعساكر التي بلغ عددها ثلاثة آلاف<sup>9</sup> جندي، بعدما رأى أنّ حصن بكر -السابق ذكره- لن يجدي للأخذ بمخنق بجاية، فتم بناؤها خلال أربعين يوما "وأوعز السلطان إلى جميع عمّاله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إليها حيث كانت، والأدم وسائر المرافق حتى الملح، وأخذ الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم، فثقلت وطأهم على بجاية واشتد حصارها وغلت أسوارها"<sup>10</sup>، وقد استطاع

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 143/7.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، بغية الزواد، مصدر سابق، 1/240.

<sup>3</sup> يشير يحيى بن خلدون إلى وقوع حصار آخر في الجهات الشرقية خلال هذه الحملة. المصدر نفسه، نفس الصفحة.

<sup>4</sup> للمزيد من الأخبار حول تفاصيل هذه الوقائع انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة.

<sup>5</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 241.

<sup>6</sup> يتفق كلّ من ابن خلدون وأخوه يحيى على أن مدة هذا الحصار كان 15 يوما. ابن خلدون، مصدر سابق، ص 144. يحيى بن خلدون، مصدر سابق، نفس الصفحة.

<sup>7</sup> ابن قنفذ، الفارسيّة، مصدر سابق، ص 162.

<sup>8</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 7/144.

<sup>9</sup> هذه التقديرات لعدد الجنود وردت عند ابن خلدون في العبر، لكن أخاه يحيى يذهب إلى أنّ عدد الجند بتيمزردكت كان ثلاثة آلاف ومائتين، ويتماشى التنسي مع العدد الذي قدّمه يحيى إذ يرى أنّ بآئه "أوطنها ثلاثة آلاف فارس وزيادة". ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 1/241. التنسي، مصدر سابق، ص 143.

<sup>10</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، نفس الصفحة.

أبو تاشفين خلال هذه المرحلة فرض أكبر ضغط عسكري على بجاية<sup>1</sup> وذلك ما نستشفه من رسالة السلطان المريني أبو سعيد (709-731هـ/1310-1331م)<sup>2</sup> الطالب لنصرة سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون (709-741هـ/1310-1341م) بعدما أضاق السلطان الزياني على بجاية نطاق الحصر، وبلغ مخنق أبا بكر بتونس<sup>3</sup>، مما أدى بهذا الأخير إلى عقد حلف مع أبي سعيد وعقد رابطة المصاهرة معه<sup>4</sup>.

ويمكن أن نستشف حجم الضغط العسكري الموجه من قبل أبي تاشفين الأول على بجاية من خلال نصّ المراسلة السابقة التي جاء فيها: " ... ولما سؤل الشيطان لهذا العاق [أي أبو تاشفين الأول] قتل والده ... أقام على بجاية عشرين سنة يشدد على بجاية الحصار، ويشنّ على أحواز تونس الغار ... فأدّى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى أعزه الله تعالى أن بعث إلينا وزيره في طلب النصرة وزيراً"<sup>5</sup>، وعليه فقد راسل أبو سعيد أبو تاشفين للكفّ عن حملاته شرقاً خاصة وأنه شيّد آخر حصون الزيانيين خلال هذه الفترة واسمه حصن "الياقوتة"<sup>6</sup> فقبول طلبه هذا بالرّفض، وكان ذلك مؤذناً بحصار تلمسان مرّة أخرى على يد أبي الحسن المريني.

#### 1- حصار أبو الحسن المريني لتلمسان 735-737هـ/1334-1336م:

بعد وفاة السلطان المريني أبو سعيد "خليفة بفاس ولده السلطان أبو الحسن، وبسجلماسة ولده الأمير أبو علي"<sup>7</sup> سنة 731هـ/1330م، وقام بإعادة المحاولة التي قام بها أبوه وأرسل " للسلطان أبي تاشفين رحمهم الله في شأن الكفّ عن بلاد الموحّدين، ووعده على ذلك بالمواعد الجميلة"<sup>8</sup> لكنّ أبا تاشفين "ردّ أرساله

<sup>1</sup> خاصة وأنّه طلب سفنا حربيّة أرغويّة سنة 727هـ/1327م وحصل على الموافقة في في جمادى الثانيّة 728هـ/1328م، والواضح أنّه اراد بهذه الاستراتيجية تدعيم حصاراته البريّة على بغارات أخرى بحريّة. صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص75.

<sup>2</sup> ننبّه إلى أنّ هذه الرسالة يشوبها بعض الغموض ونرجّح أنّها لأبي الحسن المريني (731-749هـ/1332-1348م) وليس كما ورد عند القلقشندي أنّها لأبي سعيد (710-731هـ/1310-1331م) نظراً لأنّ السلطان المريني كتبها من "منصورة تلمسان" ونحن نعلم أنّ منصورة تلمسان ظلّت محيّرة إلى غاية ترميم أبي الحسن المريني لها سنة 745هـ، فضلاً عن ذلك فإنّ الرسالة تتطرّق لذكر أخبار حصار تلمسان من طرف أبي الحسن سنة 735-737هـ الأمر الذي يقطع دابر الشكّ في تلاعب التّساخ ونسبها لغير مرسلها.

<sup>3</sup> تحرّكت قوات أبو تاشفين إلى تونس سنة 730هـ واستطاعت هزيمة السلطان الحفصي أبو يحيى في معركة وادي شارف، وسلّمها إلى أبي عمران ثم عاد إلى تلمسان معرجاً في طريقه على بجاية وقسنطينة فحاصرها، باسطاً بذلك ملكه على الضاحيتين الشرقيّة والغربيّة للدولة الحفصيّة. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 242/1. ابن مرزوق، المسند الصّحيح الحسن، مصدر سابق، ص120.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 146/7. العمري، مسالك الأبصار، مصدر سابق، 189/4.

<sup>5</sup> القلقشندي، صبح الأعشى، 8/ 91-92.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن خلدون، المصدر السابق، 145/7.

<sup>7</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص242-243.

<sup>8</sup> ابن مرزوق، المسند الصّحيح الحسن، مصدر سابق، ص120-121.

أسوأ ردّ قولاً وفعلاً<sup>1</sup> "وأسمع الرّسل بمجلسه هجر القول وأفرغ لهم الموالي في الشّتّم لمّسلهم بسمع من أبي تاشفين"<sup>2</sup>، فكان ذلك محرّكاً لجيوش أبي الحسن سنة 732هـ/1331م التي هبّت لحصار تاسالة، ودافعا له لتزويد السّلطان أبو يحيى الحفصي بالمدد لتحطيم حصن تمزيردكت<sup>3</sup> في هذه السّنة<sup>4</sup>.  
بعد تحطيم الحلف المريني الحفصي للحصن الزّياني، وبسط يد أبي الحسن المريني على سواحل وهران وندرومة وهنين<sup>5</sup> لمنع المدد الخارجي من دولة بني الأحمر<sup>6</sup>، تمهّدت له السّبيل للسيطرة على عاصمة بني زيّان تلمسان، لكنّ ثورة أخيه أبو عليّ -السّالف الذكر- بسجلماسة كبحت توجهه إليها إلى غاية 735هـ/1334م بعدما قضى على أخيه الثّائر سنة 734هـ/1333م<sup>7</sup>، وقام ببناء منصورته مرّة أخرى تمهيدا للحصار الطويل الثّاني على تلمسان سنة 735هـ/1334م وحاصرها إلى أن دخلها عنوة في 27 رمضان 737هـ/29 أفريل 1337م<sup>8</sup>، مجدّداً بذلك تجربة أبي يعقوب سنة 698هـ/1298م، وترتّع على عرش المغرب الأوسط من هنين إلى الجزائر<sup>9</sup> وكانت لتوحّد تحت لوائه المغارب لولا ثورة الأعراب بإفريقيّة سنة 749هـ/1348م<sup>10</sup>.

<sup>1</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 145. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 243.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/146.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة، التنسي، مصدر سابق، ص 145.

<sup>4</sup> تختلف المصادر في تاريخ تحطيم هذا الحصن فبينما يرى ابن خلدون أنّها هدمت في هذا التاريخ يذهب أخوه يحيى إلى أنه هدم سنة 733هـ ونرجّح أنّ التاريخ الأوّل هو الأنسب نظرا لأنّ القرائن في كلا المصدرين تؤرّخ لهذه الحملة على أنّها حملة مزدوجة متزامنة استهدفت كلا من تاسالة وبجاية في نفس الوقت؛ فعند عبد الرحمان ورد "وأطال المقام بما [أي بتسالة] وبعث المدد إلى بجاية" وعند أخيه يحيى "وفي سنة اثنتين وثلاثين، تحرّك أبو الحسن مشرّقا فنزل تاسلا وأطال بما اللبث. وراسل صهره السّلطان أبا يحيى الموحّد يقول شأنك وتامزجرت، فجمع المذكور إليها أهل إفريقيّة". ابن خلدون، المصدر السّابق، 7/146. يحيى بن خلدون، المصدر السّابق، 1/243.

<sup>5</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السّابق، نفس الصفحة.

<sup>6</sup> فيلاي عبد العزيز، مرجع سابق ص 46.

<sup>7</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 145، الهامش رقم: 214.

<sup>8</sup> ابن خلدون، المصدر السّابق، 7/148. الزركشي، مصدر سابق، ص 72. ابن مريم، البستان، ص 184-185. العمري، فيض العباب، مصدر سابق، ص 205، التنسي، المصدر نفسه. نفس الصّفحة، ابن القاضي الكناسي، جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ص 461.

<sup>9</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقيّة، مصدر سابق، ص 36.

<sup>10</sup> ابن قنفد، الفارسيّة، مصدر سابق، ص 171.

## 2- الحصارات العسكريّة في عهدي الأميرين أبو ثابت وأبو سعيد بعد ثورة الأعراب بتونس سنة 749هـ/1348م:

بعد أن شنّ أبو الحسن المريني حملته شرقا لبيسط سيطرته على كامل دول المغرب، وبعد استفحال ملكه في المغرب الأقصى وسيطرته على تلمسان بعد حصارها سنة 735هـ/1334م، لم يبق له سوى الضاحية الشرقية لورثة حكم دولة الوحدين، إلا أنّ ثورة الأعراب بالقيروان عليه سنة 749هـ/1348م أحبطت هذا المشروع السياسي، خاصة بعد انضمام الأميرين أبو ثابت وأبو سعيد من بني عبد الواد اللذان كانا "أولّ التازعين عنه إليهم"<sup>1</sup>، واستطاعوا بذلك أن يعيدا إحياء الدولة الزيانية "عشيّ يوم الأربعاء الثاني والعشرين لجمادى الأخرى سنة تسع وأربعين وسبعمائة"<sup>2</sup>، وتقاسم الأميرين حكم تلمسان فكانت "الخطبة والسكة للسلطان أبي سعيد، وكان أمر الحرب واستتباع الجيوش للأمير أبي ثابت"<sup>3</sup>، فباشرا حملتهما لإخضاع الأقاليم التي كانت قد خلعت الطاعة للزيانيين أيام حصار أبي الحسن لها، وتحلّل ذلك مجموعة من الحصارات، أولها حصار سعيد بن أجانا<sup>4</sup> سنة 749هـ/1348م الذي كان على وهران مقيما عليها طاعة أبي الحسن المريني "فنهض السلطان أبو ثابت بعد أن جمع قبائل زناتة والعرب ونزل على وهران وحاصرها أيّاما"<sup>5</sup>، ثم انخزل عنها بعد أن نكث بنو راشد وعودهم القاضية بالتعاون مع الأميرين بعد تدخّلهم عسكريا لمناجزة أبي ثابت وهو محاصر لوهران في هذه الحملة، مما أدّى به إلى إعادة حصار وهران في 09 جمادى 750هـ/26 جوان 1349م<sup>6</sup>، "فحاصرها أيّاما، ثمّ افتتحها عنوة وعفى عن علي بن أجانا"<sup>7</sup>، ثم أنّ أبا الحسن المريني عند عودته من القيروان بعد غرق أسطوله نزل بالجزائر سنة 751هـ/1350م شايعه أهل مليكش والثعالبة ونصر بن عمر صاحب وانشريس ومحمد بن عبد القوي أمير توجين، وألبوه للهجوم على أبي ثابت في هذه السنة "وبينما الأمير أبو ثابت ببلاد مغراوة محاصرا لهم في معاقلهم إذ بلغه الخبر بذلك في ربيع سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فعقد السلم

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، 154/7.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 257/1.

<sup>3</sup> وقد عبّر يحيى بن خلدون عن ذلك بقوله: "واستشعر كلّ منهما زيّ الملك... إلا أنّ السرير والمنبر والدينار للسلطان أبي سعيد، والجيوش والألوية والحروب للسلطان أبي ثابت". التنسي، المصدر السابق، ص 152. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 257.

<sup>4</sup> ورد عند يحيى بن خلدون باسم: عبّو بن سعيد بن أجانا. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 285.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 156/7.

<sup>6</sup> يرى عبد العزيز فيلاي أنّ تاريخ هذا الحصار كان سنة 751هـ غير أنّنا ألفينا في العبر تاريخ 750هـ وفي بغية الزواد التاريخ كاملا في 09 جمادى الأولى 750هـ. ابن خلدون، العبر، 157/7. يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص 259. عبد العزيز فيلاي، مرجع سابق، ص 49.

<sup>7</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 157/7.



معهم"<sup>1</sup>، وبعد هذا الحصار استتب الأمر له وقام بمعاودة حصار مغراوة<sup>2</sup> في ربيع الثاني سنة 752هـ/ماي 1351م، فانخزل عنها أهلها للتحصن بتنس واستطاع أبو ثابت التضييق على قائدهم علي بن راشد مما أدى به إلى استعجال المنية وذبح نفسه فدخلها عنوة في منتصف شعبان من سنته<sup>3</sup>.

أمام تسارع هذه الحوادث ونشاط الأميرين السابقين لإخضاع هذه القبائل، كان أبو عنان يعد العدة للتحرك نحو تلمسان، واتخذ في ذلك ذريعة ردّ شفاعته من طرف الأمير الزياني أبو سعيد الذي كان يشدد الحصار على مغراوة بعد أن طلبت مغراوة نصرته، وطلبت منه أيضا مراسلة الأمير الزياني للكفّ عن حصارها، "فحنق لردّ شفاعته، وشرع في التحرك إلى تلمسان"<sup>4</sup>، والتقى الجمعان في معركة حاسمة انتهت بفوز أبي عنان ومقتل أبي سعيد 10 جمادى الأولى 753هـ/24 جوان 1352م، بينما قرّر أبو ثابت الفرار شرقا مع أبو زيان محمد بن سعيد وأبو حمّو موسى الثاني ويحيى بن داود متنكرين، فقبض عليهم الأمير أبو زكريا يحيى الحفصي وقتلهم في بجاية بإيعاز من السلطان المريني<sup>5</sup> ما عدا أبو حمّو موسى الذي "نجى إلى تونس ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين، فأكرم نزله وأحلّه بمكان أعياص الملك من مجلس سلطانه"<sup>6</sup> في 06 شوال 753هـ/2 أكتوبر 1352م، وظلّ يتربص هناك بملك أجداده ليقوم سنة 760هـ/1358م بإعادة إحياء الدولة الزيانية للمرة الثالثة.

### 3- الحصارات العسكرية على عهد أبو حمّو موسى الثاني 760-791هـ/1358-1388م:

بعد خمس سنوات<sup>7</sup> من قتل أبو ثابت وأبو سعيد استطاع أبو عنان أن يكتشف أمر أبي حمّو موسى الفار من قبضته واللّاجئ لدى أبي إسحاق الحفصي، فطلب في أمره لكنّ أبا إسحاق عاجله بالرفض، فتحرك أبو عنان إلى تونس سنة 758هـ/1356 واستطاع دخولها، ففرّ أبو إسحاق الحفصي وأبو حمّو إلى بلاد الجريد سنة 759هـ<sup>8</sup>-1357م، وبدأ أبو حمّو بحشد قواه هناك لاسترجاع ملك "فاجتمع أمر الزواودة من رياح إلى

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 158. يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ، 259/1.

<sup>2</sup> يرجع التنسي سبب هذه الحملات المتكررة على بلاد مغراوة أنّ بعض من جنودهم قتلوا بعض عساكر أبي ثابت فقرّر أبو ثابت الإغارة عليهم، ولعلّه يقصد بذلك جنود ابن الكميّ العائدة من تونس فقد مرّت على مغراوة قاضية بذلك نجبها على أيديهم ممّا أثار حفيظة أبي ثابت للأخذ بالثأر. التنسي، مصدر سابق، ص 153. يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ، 161/1-162.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 160/7.

<sup>4</sup> التنسي، المصدر السابق، ص 153-154.

<sup>5</sup> يحيى بن خلدون، مصدر سابق، 265/1.

<sup>6</sup> ابن خلدون، المصدر نفسه، 163-162/7.

<sup>7</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 14.

<sup>8</sup> أبو حمّو موسى، واسطة السلوك، ، مصدر سابق، ص 16.



الحاجب أبي محمد بن تافراكين، ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى ... ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة و... بني عامر ... وارتحل معهم من الزواودة عثمان بن سباع ومن أحلافهم بنو سعيد دغار بن عيسى بن رحاب وقومه ونهضوا بمجموعهم يريدون تلمسان<sup>1</sup>، إلا أنّ خبر وفاة السلطان المريني أبي عنان بلغهم أثناء ذلك " فاستبشروا بنيل المراد فبايع المولى أبو حمو جميع من كان معه من عرب وغيرهم في خامس محرم مفتتح سنة ستين وسبعمائة... فتسامعت بهم أهل أوطان تلمسان فجاءوهم من كلّ حدب ينسلون"<sup>2</sup>، وكان ذلك محفزاً له لاستكمال حملاته لإحياء رسم دولة بني زيان من جديد، فكان مسير الجيش من جبل عياض ثم الأوراس ثم الزّاب وورجلان ثم توجهت بعد ذلك المحلات نحو الشمال الغربي بوادي زرقون للاستراحة والاستزادة والاحتفال بعيد الأضحى ثم بلغوا وادي ملّال جنوب تلمسان وقتلوا عثمان بن وانزار بن عريف، ولم يبق لهم إلا تلمسان<sup>3</sup>.

كانت أول حصرات أبو حمو لهذا العهد هو حصاره لتلمسان وأميرها محمد بن أبي عنان الذي ولّاه أبوه عليها، وقد استطاع أبو حمو وجنوده أن يأخذوا بمخنقتها لمدة ثلاثة أيّام واستطاعوا دخولها في اليوم الرابع في 1 ربيع الأول 760هـ/31 جانفي 1359م<sup>4</sup>.

والملاحظ أنّ التنسي قد أفرد كتاباً تضمّنت أخباره الحروب والحصرات على عهد أبو حمو موسى الثاني وكان قد سمّاه "راح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح"<sup>5</sup>، لكنّ هذا الكتاب يبقى في حكم المفقود ويعتبر من بين المصنّفات التي ضاعت ببلاد المغرب، وأشار التنسي إلى أنّ الإلمام بالحروب والحصرات على عهد أبي حمو في كتابه نظم الدر والعقيان " أمر لا يحيط به هذا المجموع وقد تولى ذلك صاحب بغية الرّواد وصاحب زهر البستان فلا نطول به"<sup>6</sup>، ونظراً لضياح السفرين الأول والثالث من كتاب زهر البستان فإنّ تتبّع كرونولوجيا

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 163/7. أبو حمو موسى، المصدر السابق، نفس الصفحة. التنسي، مصدر سابق، ص 158.

<sup>2</sup> التنسي، المصدر السابق، ص 159. وقد عبر صاحب كتاب زهر البستان عن ذلك بقوله " فكان وصول هذا الخبر من أعظم الفتوحات، وأسمى الذخائر الممنوحات. مجهول، زهر البستان، المصدر السابق، ص 24.

<sup>3</sup> لمزيد من التفصيل حول مسيرة الجند والمدن التي استطاع أبو حمو إخضاعها في حركته من الجريد إلى تلمسان انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 163. أبو حمو موسى، المصدر السابق، ص 17. التنسي، المصدر السابق، ص 158. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 20-26.

<sup>4</sup> ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، 216/3. التنسي، المصدر السابق، ص 159. ابن خلدون العبر، المصدر السابق، 164/7.

<sup>5</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 178.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

## الفصل الأول: واقع الحروب والمواجهات العسكرية المباشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

الحصارات في السفر الثاني قد غطّى الفترة الممتدة من 759 هـ حتى 764 هـ/1357-1362م فقط، وهو ما يوضحه الجدول التالي:

| تاريخ الحصار                                    | أطرافه  | الاستشهاد من كتاب زهر البستان  | الصفحة  |
|---|---|--|---------|
| 759 هـ/1358م                                    | السلطان الزياني أبو حمو الثاني ووزيره ابن مرغوث ضدّ المكتفي ولد ابن عنان الذي كان على تلمسان قبل أن يسترجع أبو حمو ملكه سنة 760 هـ/1359م. | " فتقدّم المولى أبو حمو لقتال الأسوار عاملا على الحصار ... فدخل عليه عنوة كما حكمت المقادير "  | ص 39.   |
| 759 هـ/1358م                                    | حصار أبو حمو للقبائل الشرقية الداعمة لبني مرين  | " فخرج بطوله وعلاماته وجيوشه الوافرة وساقاته قاصدا لحصار البلاد على بني مرين ولقطع دابر القبائل المفسدين "   | ص 69.   |
| غزوة ذي القعدة 759 هـ الموافق لـ 5 أكتوبر 1358م | حصار أبو حمو موسى للمديّة   | " وعندما شارفها، قاتلها، فوجد أهلها قد برزوا للقتال واعتدوا للحصار ... فحملوا على المقاتلين وشدوا عليهم في الحين ... فلما أصبح، بعثوا إلى المولى أبي يعقوب يطلبون منه أن ينعم عليهم بالأمان فأجابهم ... ففتحو له الأبواب " | ص 73-74 |
| بعد 1 رمضان 760 هـ الموافق لـ 27 جويلية 1359م   | حصارات عبد الله بن مسلم من بني زردال بإيعاز من أبي حمو موسى على البلاد الشرقية  | " ... ثم أخرج إليه محلة وافرة، وأزاده إلى قوّة أحشاده متكاثرة ... ثم ودّعه وارتحل مسافرا وعلى إحصار الأعداء وعاملا "   | ص 77.   |
| 760 هـ/1360م                                    | حصار أبو حمو موسى للجزائر بعد سيطرته على المديّة ومليانة  | " ... ثم أمر بغلق الباب وبنائه ... فصار أهل البلد يقاتلون من أعلى الأسوار ويرمون بالمنجنقات والأحجار ... والوزير عبد الله بن مسلم في كل يوم يرهقهم "   | ص 83.   |
| 761 هـ/1360م                                    | الحصار الثاني لأبي حمو موسى الثاني على الجزائر  | " ... فكان المولى أبي يعقوب في كلّ غدوة وعشيّة يزلزلهم زلزالا ويرمقهم رمقا ونكالا، ويذيقهم بالضرب "  | ص 95    |

الفصل الأول: واقع الحروب والمواجهات العسكرية المباشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

|        |  |   |   |
|--------|--|---|---|
| ص 109. | " ... فما لبث أن قاربها وضايقها وزلزلها، وكان قائدها عثمان بن أبي مخلاف أحد فرسان بني مرين التجباء، أقام عليها ثلاثة أيام، ودخلها عنوة بالحسام "                         | حصار تنس على يد أبي حمو بعد ركون ثورات منصور بن خلوف اليباني على الجهات الشرقية المليكشية والتعالبية. | 762هـ/136م  |
| ص 134. | " وأمر بالتضييق وعابنوا الهلاك ... فجعل أهل المحلة يطلعون الأسوار ويبادون بالانتهاج الدمار. وتصعبت الباب عن الافتتاح، واشتد الضجيج والصياح، فكان دخولها عند آذان العصر " | حصار وهران  | الثلاثاء 16 شوال 762هـ الموافق لـ 19 أوت 1361م                        |
| ص 195. | " .. فعمل المولى أبو حمو على حصار تدلس بزا وبجرا وأن يضيق جهاتها سهلا ووعرا ... "  | حصار أبو حمو لتدلس  | صفر 764هـ/1362م   |
| ص 235. | " ... وعندما نزل الوزير تحت الجبل، حاصرا له ... "  | حصار بجاية على يد الوزير عبد الله بن مسلم.  | بين 08 جمادى الآخر -01 شوال 764هـ الموافق لـ 25 مارس -14 جويلية 1363م |

بعد دخول السلطان الزياني أبو حمو موسى منتصرا على إثر حصاره لتلمسان ثلاثة أيام متتالية استطاع الدخول إليها في اليوم الرابع وأخرج منها ابن السلطان أبي عنان يوم الأربعاء 8 ربيع الأول 760هـ<sup>1</sup>، وقضى خلال فترة حكمه التي فاقت الثلاثين سنة في حروبه الضروس مع المناوئين لحكمه في الداخل وفي التصدي للقوى الشرقية الحفصية والغربية المرينية وقد تخلل ذلك -إضافة للحصارات السابقة عند صاحب زهر البستان- العديد من الحصارات.

وأولها حصاره لوهران التي كانت على طاعة المرينيين بعد 20 يوما من دخوله لتلمسان، فبعد مبايعة أهل تمزغران ومستغانم والبطحاء له، أنهض في 28 ربيع الأول 760هـ/27 فيفري 1359م " وزيره الحاج موسى

<sup>1</sup> أبو حمو موسى الثاني الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تح: محمود بوترة، دار الشيماء للنشر والتوزيع ودار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012، ص 18.

بن علي بن برغوث لحصار وهران، والأخذ بمخنق مرين فيها"<sup>1</sup>، واستطاع هزيمة حاميتهم التي كان يقودها عامر بن إبراهيم بن ماساي<sup>2</sup>.

ثم عرفت الفترة الممتدة من 15 شوال 760هـ/9 سبتمبر 1359م<sup>3</sup> إلى غاية آخر سنة 760هـ/1359م أربعة حصارات متتالية في ظرف 3 أشهر، استهلها وزير أبي حمّو عبد الله بن مسلم بحصار مليانة ثم المدية ثم الجزائر التي حاصرها مرّتين خلال هذه السنة<sup>4</sup>، غير أنّ نصر أبا حمو لم يدم طويلا نظرا لإقدام السلطان المريني أبو سالم (760-762هـ/1359-1361م) على الإغارة عليه بجيوشه الوافرة، فأدبر أبو حمو فارتا عن تلمسان في خروجه الثاني<sup>5</sup>، ولم يستطع العودة إليها إلا بعد أربعين يوما، فكان أول ما قام به عند عودته في 08 رمضان 761هـ/23 جوان 1360م إنحاض قائده "أبا موسى عمران بن موسى بن فارس لحصار وهران"<sup>6</sup> التي خلعت الطاعة خلال خروج أبي حمو في هذه الفترة، كما أنّ وهران شهدت حصارا آخر لا يقل أهمية عن الحصار السابق لها سنة 762هـ/1360م، ففي أواخر شهر ربيع الأول من هذه السنة عقد السلطان المريني أبو سالم والزياني أبو حمو الصلح، لكنّ الطرفان اختلفا على أحد شروط هذه الهدنة المتعلّق بتبعية وهران، فسعى أبو حمو مسعى الحيلة واتّصل بمحمد بن إسماعيل بن نصر بغرناطة ليكون له سندا لصرف الأمير أبي علي ابن السلطان أبي سعيد بن يوسف بن عبد الحق عنه، وعندما أخذ الموافقة منه، حرّك أبو حمو جيوشه لحصار وهران " فلم يبال في اهتباها بما يكون، ورحل نحوها في الخامس من شوال فنازلها ثلاثا ودخلتها عنوة سيفه في يوم الاثنين ثالث عشر شوال" من سنة 762هـ/1360م<sup>7</sup>.

عرفت سنوات 763هـ و764هـ/1361-1362م حركات تمردية قادها خالد بن عامر الذي بايع أبو زيّان ابن السلطان أبي سعيد في حربه ضدّ أبي حمو موسى، بسبب عزله من طرف أبي حمو عن رئاسة قبيلة بني

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، بغية الزواد، مصدر سابق، 47/2.

<sup>2</sup> هكذا ورد عند يحيى بن خلدون لكنه ورد عند الناصري باسم "مسعود بن عبد الرحمان بن ماساي". المصدر نفسه، نفس الصفحة. الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 05/4.

<sup>3</sup> هذا التاريخ هو تاريخ قدوم عبد الله بن مسلم الزردالي مستجيرا بأبي حمو وفارا من درعة، وقد عينه أبو حمو وزيرا له نظرا لدرجة القرابة بين بني زردال وبني عبد الواد، وقد عبّر يحيى عن ذلك بقوله " إذ عبد الواد وزردال فيما يقال إخوان في زناة"، كما أنه شكّل حجز الزاوية في الحملات الزيانية على هذا العهد. يحيى بن خلدون، المصدر السابق. ص 56.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 56.

<sup>5</sup> خرج أبو حمو موسى الثاني على إثر الحملات المتكررة عليه أربع مرّات. كانت الأولى سنة 760هـ غادر على إثرها مدّة 25 يوما، والثانية هي التي ذكرناها، والثالثة هي الأطول زمينا بين سنتي 772-774هـ/1370-1372م في عهد عبد العزيز المريني الذي احتل تلمسان أكثر من سنتين، والرابعة بين سنتي 784-786هـ/1382-1384م حيث فرّ لاجئا إلى الصحراء للاحتماء بما. فيلالي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 56.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 74/2.

<sup>7</sup> يحيى بن خلدون، المصدر نفسه، ص 87.

عامر وتعيين أخيه شعيبا عليها سنة 763هـ/1361م، مما أدى بالسلطان الزياني إلى المعاجلة لاحتواء هذه الأزمة وذلك باستدعاء قائده عبد الله بن مسلم، وإيعاز الأمر له بتوقيف حملاته على الجهة الشرقية، والرجوع إلى تلمسان كما أرسل جيشا ثانيا بقيادة عمران بن موسى لمواجهتها، فانتهت المعركة بانتصار الجيش الزياني، وفرار خالد بن عامر إلى بلاد الدواودة، أما أبو زيّان فقد فرّ إلى وطن حمزة وشيخها أبي الليل بن موسى اليزيدي بعد أن ضاقت به السبل نظرا للسفارة التي وفدت إليه من قبل السلطان الحفصي أبو عبد الله في صفر 764هـ/1362م -وقد كان يحيى بن خلدون أحد أطرافها-، وسفارة أمير بجاية أبو اسحاق الدّاعية إلى الالتزام بالقبض على أبي زيّان وتسليمه لأبي حمّو، ليشكّل أبو زيّان حلّفا آخر مع أبي الليل اليزيدي الضّامن على السلطان الزياني بسبب حملاته المتكررة على بني يزيد، وبياشرا حملاتهم على المدّية، الأمر الذي جعل أبا حمّو يشن حصارا عسكريا على أبي الليل بقيادة وزيره عبد الله بن مسلم، فكان انطلاق الجيش يوم الجمعة الثالث عشر شهر رجب 764هـ/أفريل 1363م " إلى أن حلّ بفحص حمزة المذكور في إبان حصاد التّرع... وتذمّم أبو الليل المذكور وصاحبه بمعقل جرجرة... فأخذ بمخنقهم، واجتاح النّاس ما ألفوه بحمزة من التّرع وقائمة الحصيد، وانتهبوا ما أدركوه من الأمتعة والضروع... فبادر أبو الليل بن موسى بالخدمة ملتزما صرف أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد رحمه الله عمّه إلى الشرق... فانصرف أبو زيّان إلى تونس"<sup>1</sup>.

عرفت الجهات الشرقية خلال هذه الفترة أيضا بعض الاضطرابات بعد استيلاء الأمير أبو عبد الله محمد بن يحيى الحفصي على بجاية سنة 765هـ/1363م، حيث قام الأخير في ظل الاضطرابات المستجدة على السلطان أبي حمّو، بالزحف على تدلس وطرّد بني عبد الواد منها وتعيين عامل من قبله عليها<sup>2</sup>، وبالموازاة مع ذلك قام بحركات توسعية على حساب ابن عمّه أبي العباس أمير قسنطينة سنة 766هـ/1364م فشغلته حروبه هذه عن تدلس، فكانت تلك فرصة سانحة لأبي حمّو ملئى هذا الفراغ بتدلس و"بعث الجنود لاسترجاعها مرؤوسة بالوزير عمران بن موسى، فغلغل إليها وحصرها ليالي فاستغلق أمرها"<sup>3</sup>، ممّا أدى بالأمير الحفصي أبي عبد الله إلى عقد السّلم معه وتسليم تدلس له للتفرغ لحروبه مع ابن عمّه أبي العباس "فتسلّمها أبي حمّو وأنزل بها حاميته . وعقد معه السّلم وأصهر إليه في ابنته فأجابها، وزفّها إليه فتلقاها قبلة زاوية بأخر عملهم من حدود بجاية"<sup>4</sup>، لكنّ وطأة الحرب اشتدّت بين أبي العباس وأبي عبد الله صهر أبي حمّو، وانتهت بينهما الوقائع بقتل أبي عبد الله، فتحرّك أبو حمّو بجيش قوامه 3 آلاف فارس طلبا للثأر من مقتل صهره، فقام بحصار بجاية في 01 ذي

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 127-128.

<sup>2</sup> كان ذلك على إثر الهزيمة التي تلقاها أبو حمّو في البطحاء في 25 ذي الحجة 765هـ على يد أبي زيّان وقد كان هذا العامل محرّكا لاستغلال أبو عبد الله الحفصي لهذه الهزيمة لضم تدلس وإجلاء بني عبد الواد عنها. عبد الحميد حاجيات، أبو حمّو موسى الثاني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984، ص114.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 2/146.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/171.

الحجة 767هـ/9 أوت 1366م إلى غاية يوم منى وقد وفد إليه أعيان بسكرة خلال حصاره هذا بالبيعة له<sup>1</sup>، لكنّ هذا الحصار لم يأت أكله فقد انهزم السلطان الزياني وقفل راجعا إلى الجزائر<sup>2</sup>.

والملاحظ أنّ العمليّات الحربيّة والحصر العسكريّة عرفت حركيّة سنة 768هـ/1366م، فعلى أثر انهزام أبي حمو السّابق في بجاية، قام أبو زيّان بحملات عسكريّة على المدية وما والاها بتحريض من حصين والعرب وبعض "مرضى القلوب من مشيخة بني عبد الواد بالإجلاب على السلطان أبي حمو ووعدوه على أنفسهم الجنوح معه"<sup>3</sup>، فقام أبو حمو بتجهيز العدة<sup>4</sup> للقائه، واستطاع حصار مخالفه بتطيري واستقرّ قائده موسى بن فارس بها لكنّ عدد هذه الجيوش الكثيرة كانت سببا في وقوع الفتنة<sup>5</sup> بينهم مما أدى إلى فشل حصاره على المدية، وعليه فقد قام أبو حمو في الأشهر القليلة اللاحقة من سنة 769هـ/1367م إلى معاودة الحصار للتأثر من مخالفه في الحصار السّابق فتوجّه إلى تطيري "وأخذ بمخنق الجبل"<sup>6</sup>.

استمرّت الحروب سنة 771هـ/1369م بين الزيانيين والمرينيين على خلفيّة عقد الصلح المشروط بطرد عرب المعقل من طرف السلطان المريني<sup>7</sup>، الأمر الذي قابله أبو حمو بالسلب، فجمع "العرب المذكورين على بيعة محمد بن محمد بن عبد الله بن أنجوع بن عبد الحق، وكساه شارة الملك وأرسل جميعهم لحصار سجلماسة"<sup>8</sup> مستغلا انشغال السلطان المريني بحصار عامر بن محمد الهنتاني الثائر بمراكش، ثم عزم بعد ذلك على حصار الجزائر فتحرك إليها "وأخذ بمخنق الجزائر ليلة أو اثنتين"<sup>9</sup> ثم تركها في 18 ربيع الثاني 771هـ/19 نوفمبر 1369م، وتفرد للحرب مع التعلّابة بمتيحة وبرشك وشرشال وتنس إلى أن حلّ بوادي شلف فطالبهم

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 171.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص 173.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 171-172.

<sup>4</sup> حرّك أبو موسى في هذا الحصار وزيره موسى بن علي بن برغوث وعمران بن موسى بن فارس وأحلافهم من بني توجين وبني راشد والقائد عطية بن موسى وبعث ولده أبو تاشفين الثاني في حملة موازية ضد سويد والديالم والعطاف لمنع وصول مساعداتهم لأبي زيّان الثائر بالمدية. ابن خلدون العبر، 7/174. يحيى بن خلدون، المصدر السابق 2/179.

<sup>5</sup> يذهب يحيى بن خلدون إلى أنّ الخيانة كانت من طرف القائد عثمان بن مسلم الرّزدالي الذي أرسله أبو حمو موسى الثاني لدعم الحملة الموازية التي كان على رأسها ابنه أبو تاشفين، وعبر عن ذلك بقوله "... وأرسل إليه معه الطبل والبند ونقاوة من جيش الحضرة العلّية غافلا أيده الله عمّا أبطنه المذكور من التّفاق، فلم يكن إلّا أن انفصل عن الباب الكريم، فاستهوى الذين معه إلى الضلال ودلّاهم أجمعين بغروره، ومن البطحاء نكب بهم عن سواء السبيل" وخيانة قبائل بني توجين لقائده موسى بن علي بن برغوث الذي كان في نفس الحملة على مليانة. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 2/185-186.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 2/195.

<sup>7</sup> جاء هذا القرار من السلطان المريني لتخوفه من استقواء أبي حمو بعرب المعقل. ابن خلدون، العبر 7/435.

<sup>8</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 2/224.

<sup>9</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.



بتقديم المغارم المترتبة عليهم في السنين السالفة<sup>1</sup>، ليجدد بعد فراغه من ذلك في 13 جمادى الثاني 771هـ/12 جانفي 1370م حملته المزدوجة " لمثانة حصار الجزائر براً وبحراً، فتم ذلك"<sup>2</sup>.

عرفت الفترة الممتدة من 772هـ إلى 774هـ/1370-1372م أطول فترة قضاها أبو حمو خارج دار ملكه بسبب الصراعات التي خاضها مع بني مرين على عهد السلطان عبد العزيز (768-774هـ/1366-1361م) وقد أصاب السلطان الزياني الشريد والطريد خلال هذه الفترة بعد احتلال تلمسان والهيمنة<sup>3</sup> على المغرب الأوسط لأكثر من سنتين<sup>4</sup>، وقد عمل السلطان المريني خلال هذه الفترة على أخذ الأراضي التي أقطعها أبو حمو للعرب بغية استمالتهم، وعاث فيها الفساد، فضاق بذلك العرب وبدأت جموعهم تأتلف لأبي حمو في نبعته، فعقد السلطان المريني لوزيره " أبي بكر بن غازي على حرب الثوار والخوارج... ثم زحف إلى حصين فأحجرهم بمقلهم بتيطري... فأحاط بهم من كل جانب وطوهم الحصار وعاودهم الحرب"<sup>5</sup> سنة 773هـ/1371م، وما إن استتب لأبي حمو الملك بدخول حضرته في 774هـ/1372م حتى وجه عسكره إلى علي بن هارون المغراوي وأحلافه الثائرين المحاصرين لتنس في أواخر هذه السنة " فأجفلوا خشيتهم عن تنس بعد إضاقتهم حصرها"<sup>6</sup> فنتبع فلوهم واستطاع قتل رحمون أخ الثائر علي بن هارون، ثم عادت الحروب لتجتمع أبا تاشفين الثاني مع أبي زيان ابن أبي سعيد من جديد، بعد قيام الأول سنة 775هـ/1373م بالسّير مع قبيلة سويد لإخماد ثورات المخالف خالد بن عامر وقومه من بني عامر، حيث استغل علي المغراوي هذا الخروج لمعاودة تمرده والتضييق على شلف، وعلى إثر هذه الوقائع عاد أبو زيان من صحراء وارجلا في صفر من نفس السنة "فعادوا إلى ضلالهم القديم معه، وتوجهوا به لحصار بني مرين بالجزائر"<sup>7</sup>، واجتمعت كلمة كل من خالد بن

<sup>1</sup> كانت المغارم وتراكمها على مدار السنون أحد الأسباب الرئيسية المحركة لشلل المدن وحصارها، وتوضّح الوثيقة رقم 78 بأرشفيف التاج الأرغوني أنه في عهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحقّ (685-706هـ/1286-1306م) لجأت الدولة المرينية بسبب تماطل حاكم سبة العزفي أبو طالب عبد الله عن دفع الضرائب الموجهة لصالح الدولة المرينية، إلى طلب إقامة حلف عسكري أرغوني مريني لشن حصار مزدوج؛ بري وبحري على سبتة وقد جاء في الوثيقة: " نعرّفكم بأن الخناق صاحب سبتة ترتب لنا عنده مائة ألف دينار في هذه السنين السالفة وهي الواجبة عليه المعتادة، فلمّا طلبت منه صار يعاملنا بالتسويق، ويتعدّر بأعدار لا تقبل منه تناسب حمقه ومذهبه السخيف، فبعثنا من محلاتنا وجيوشنا وقبائل بلادنا المجاورة لسبتة ومن يحاصرها في البرّ أشدّ الحصار... ورأينا أن تأمروا جملة أجفانكم تنزل عليها في البحر... والمائة ألف التي عليهم لكم فيها إن دخلت بالسيف خمسون ألف دينار ولنا خمسون ألف دينار. (انظر الوثيقة رقم 78 في الملحق رقم 07 ص 279).

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 224-225.

<sup>3</sup> يورد ابن خلدون وقوع حصار على شلف خلال هذه السنة. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص 438.

<sup>4</sup> عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص 56.

<sup>5</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 439/7.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 262-262/2.

<sup>7</sup> المصدر نفسه، 265/2.

عامر وأبي زيّان وحلفائهم من حصين والتّعالبة والعطّاف والدّيلم على الإغارة على أبي تاشفين الثّاني وهو محاصر لمغراوة في رجب 775هـ/1373م، فاستطاع تحقيق النّصر عليهم، ثمّ لحق به أبو حمو واجتمعوا بظاهر تيمزوغت لحصار فلول مغراوة بها، والظاهر أنّ أبو حمو شدّد عليها الحصار لدرجة أنّه "أمر... بتشديد البناء هناك لسكناه واستعدّ لمطاولتهم الحصار بالأقوات التّامية تجلب إلى معسكره المنصور من كلّ قطر"<sup>1</sup>.

ظلّ أبو حمو بين سنوات 776هـ و777هـ/1374-1375م تجمعه الحروب مع بني عامر الدّين أراودو أن يسترجعوا الأراضي والامتيازات التي حضوا بها بعد إجلائها لصالح قبيلة سويد، وجمعه بهم خلال هذه السنوات مواجهتين<sup>2</sup> إلى أن قطع دابره في 3 ذي الحجة 777هـ/24 أبريل 1376م، ليتفرّغ بعد ذلك لحربه مع سالم بن إبراهيم المتولّي أمور الجزائر آنذاك بعد "أن أقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الأعمال واستضافة جبايتها لنفسه"<sup>3</sup>، وقام على إثر ذلك بالاتصال بخالد بن عامر والأمير أبي زيّان وأعلنوا البيعة له ثمّ توجهوا لحصار مليانة غير أنّها امتنعت عنهم، فنهض إليهم أبو حمو مع أوليائه من العرب مستغلا فصل الشّتاء وورحيل العرب في مشاتهم، فتحصن هؤلاء و"امتنعوا بجبال حصين"<sup>4</sup>، واستطاع أبو حمو حصارهم إلى أن انقادوا لطاعته على شريطة أن يفارقوا ابن عمه أبي زيّان، ويصرفوه عن البلاد أواخر رمضان 778هـ/1 فيفري 1377م<sup>5</sup>.

بعد أن استقرّت الأوضاع نسبيا انطلقت شرارة الفتنة في البيت الزياني الحاكم بعد أن قام أبو حمو بتقسيم الملك على أبنائه، وأفضى به رجحانه إلى ابنه المنتصر الذي عيّنه على مليانة إلى تأجّج نار الفتنة وحبك السعيات<sup>6</sup> بينه وبين ابنه أبي تاشفين، وغضب الأخير من تعيين المنتصر على مليانة وأخيه أبا زيّان على المدية ويوسف بن الزاوية على تدلس الذين اعتبرهم منافسين لورثة حكم الدولة الزيانية من دونه<sup>7</sup>، فأشار إلى قتل أبيه وسارع في الخروج في آخر سنة 788هـ/1387م "في طلب المنتصر وإخوته ومرّ بمليانة فملكها، ثمّ تقدّم إلى جبل تيطري وأقام في حصارهم به، وهم ممتنعون به"<sup>8</sup>، واستطاع أبو حمو الهروب وحشد القوى من جديد مع

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 270.

<sup>2</sup> كانت الأولى في 4 ربيع الأول 777هـ ضدّ حلفه المشكل من أبو بكر بن عريف وعبد الله بن سقير من بني عامر وعامر بن عثمان الذي عزله أبو حمو عن إمارة وانشريس وحليفهم ابي زيان. عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 134-136.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، 184/7.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة.

<sup>5</sup> عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 136.

<sup>6</sup> كان موسى بن يخلف هو مخبر أبو تاشفين الثّاني في القصر الزياني، حيث كان على اطلاع دائم بما يخطط له أبوه أبو حمو لكسر شوكته بعدما علم ببيّته في رغبته بالاستبداد بالحكم، وهذا ما نستشفه في قول ابن خلدون " ... فسدّ بها إلى أبي تاشفين على عادته" وقد وصفه في موضع لاحق بـ "شيطان الفتنة والشر". ابن خلدون، العبر، 191/7-195.

<sup>7</sup> عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 139.

<sup>8</sup> ابن خلدون العبر، مصدر سابق، 192/7.

حلفائه من عرب المعقل وإجلاء أبي تاشفين وحلفائه من سويد إلى الصّحراء، فدخل تلمسان في رجب 790هـ/1388م<sup>1</sup>، وقام أبو تاشفين على إثر ذلك بالتحالف مع السلطان أبي العباس صاحب فاس وكرّوا على تلمسان وانتهى ذلك بالاستيلاء عليها وقتل سلطانها أبو حمو الثاني، فنارت نائرة أبو زيان ابن السلطان أبو حمو الذي كان قد عيّنه من قبل على الجزائر، وانطلق مع شيعته من بني عامر طلباً للانتقام من أبي تاشفين ردّاً على قتل أبيه، واستطاع أن يشقّ حصارين على تلمسان سنة 792هـ/1389م، كان الأول في رجب حيث "فحاصروها أيّاماً... وعاود حصار تلمسان في شوال"<sup>2</sup>، لكنّها فشلت وتلافى أبو تاشفين الوضع بسبب وصول المدد المريني<sup>3</sup>، وانتهى الأمر بإجفال أبي زيان إلى الصحراء.

**المطلب الثالث: الحصارات العسكري خلال عهد الضّعف إلى سقوط دولة بني زيان 791هـ-962هـ/1388-1554م:**

يذهب ابن خلدون إلى القول أنّ دولة بني عبد الواد انقرضت بعد وفاة أبي تاشفين الثاني سنة 795هـ/1392م رغم توالي العديد من الحكام من بعده على تلمسان، وهذا ما نتحسّسه في قوله: "وانقرضت دولة بني عبد الواد من المغرب الأوسط، والله غالب على أمره"<sup>4</sup>، والظاهر أنّ مدلول قول ابن خلدون هذا يتمّ عن ضعف دولة بني عبد الواد خلال هذه الفترة خاصة وأنّ حكّامها أصبحوا يسعون لنيل الخطوة والولاء لدى سلاطين بني مرين والحفصيين وصاروا يعيّنون بإيعاز منهم، فبعد وفاة أبي تاشفين الثاني -المستعين في حكمه بدعم بني مرين- عين أحمد بن العزّ القائم بشؤونه مكانه صبيّاً<sup>5</sup> من أبنائه، فقام ابن الزايبة أخ ابن تاشفين الذي كان والياً على الجزائر بقتل الصبيّ وأبيه، وكان ذلك مدعاة لتدخل السلطان أبي العباس صاحب المغرب عسكرياً، فقام بالتوجه إلى تازى وأرسل منها ابنه أبا فارس ووزيره صالح بن أبي حمو لمهاجمة ثغور المغرب الأوسط، فاعتصم "يوسف بن الزايبة بحصن تاجمومت وأقام الوزير صالح يحاصره، وانقرضت دولة بني عبد الواد"<sup>6</sup>.

في نفس السنّة وتزامناً مع الحصار السابق، كان أبو زيان يقبع رفقة جنوده وراء أسوار تلمسان مدعوماً بالجند المريني، بعد وفادة نبأ وفاة أبي تاشفين الثاني عليه وخبر خروج ابن الزايبة مطالباً بعرشه على تلمسان، وانتهى إليه الأمر بحكمها سنة 795هـ/1392م بمساعدة بني مرين له، وأدى ذلك إلى قيام ابن الزايبة بعدّة

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 194/7.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 481-196/7.

<sup>3</sup> فيلاي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 66.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 482/7.

<sup>5</sup> لم يذكر ابن خلدون اسم هذا الصبيّ، كما أنه أغفل فترة حكم أبي ثابت يوسف بن أبي تاشفين التي دامت مدتها أربعين يوماً. التنسي، مصدر سابق، ص 206. الهامش رقم 551.

<sup>6</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة.

هجمات على تلمسان ومحاصرة بني مرين بها إلى أن تمكنوا منه واستطاعوا قتله سنة 797هـ/1394م<sup>1</sup>، لتشهد الحاضرة الزيانية بعدها استقرارا ملحوظا بعد استتباب الأمن في المغرب الأوسط إلى غاية سنة 801هـ/1398م، وقد كان طول استقرار أبي زيان وفترة الهدوء تلك تغلق السلطان المريني، فسعى للتخلص منه وذلك بالاستعانة بأحد إخوة أبي زيان وهو أبو محمد عبد الله بن أبي حمو موسى الثاني، فأمدّه بالجند والمال والطلب والبند وسيّره لمحاصرة أخيه بتلمسان، فاستطاع إحكام الحصار عليها وطرده أبي زيان منها إلى أن اغتيل وهو يبحث عن حليف له ليعينه على الوثوب على أخيه محمد، ولا ضير من استحضار قول التنسي كاملا حول جهود أبي زيان خلال بحثه على الحلفاء لاشتداد وطأة أخيه عنه، إذ يقول: "... ففرّ من حضرة ملكه وانخلع عن خلافته، وتوجّه إلى جهة الشرق، يلتمس معينا أو منجدا، ويطلب ناصرا أو مؤيدا، والدّهر يمينه بالأمل المكذوب، ويعده مواعد عرقوب، وهو يتقلّب في العرب والبربر من فئة إلى فئة، ودام ذلك إلى سنة خمس بعد ثمانمائة، فاغتاله مسعود الوعزاني، بعد أن أظهر له الخدمة"<sup>2</sup>.

وقد عادت السّعايات والدّسائس بين ورثة الحكم من بين زيان على عهد السعيد بن أبي حمو الذي تولى الحكم أواخر محرم سنة 814هـ/ماي 1411م قرابة 5 أشهر، إذ حيكّت له مؤامرة بسعي من أخيه عبد الواحد وسلطان فاس أبو سعيد عثمان الثاني بن أحمد بن أبي سالم (800-823هـ/1397-1420م)، فشرّق الأخير لأخيه طلبا لحربه، واستطاع محاصرته " فتولّت إدخاله للبلد ليلا جماعة الرّحوية وأقام على الأسوار مشاعل النيران علامة، إذ كان إلتمها للذين أمرهم في المحلّة بالإقامة. فلما أخبروا بذلك أصحاب السعيد انزلوا عنه وبقي كالوحيد، ففرّ مشرقا بدموعه شرقا، يقلّب كفيه على ما أنفق فيها"<sup>3</sup> ليتولى عبد الواحد حكمها إلى غاية 827هـ/1423م.

عادت الحملات العسكريّة الحفصية على تلمسان سنة 827هـ/1423م على عهد أبو فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1433م) الذي عرفت فترة حكمه استتبابا ملحوظا للأمن وامتدّ ملكه على هذا العهد ليشمل الدولة الزيانية<sup>4</sup>، واستطاع حصار السلطان الزياني أبي مالك عبد الواحد وابنه بعد أن سمع أنّ سيرته

<sup>1</sup> فيلاي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 67-68.

<sup>2</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 228.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 235.

<sup>4</sup> روبر بارنشفيك، مرجع سابق، ص 1/257.

غير محمودة حسب تعبير الزركشي<sup>1</sup>، فتوجه إليه بجيوشه في هذه السنة وعندما "علم أبوه أنّ لا طاقة له على المقابلة خرج من تلمسان فارا بنفسه إلى الجبال"<sup>2</sup>.

تولى ابن الحمراء حكم تلمسان من 827هـ/1423 إلى غاية 831هـ/1427م مقيما للدعوة لأبي فارس الحفصي على منابر، لكنّه "قطع اسم المولى السلطان من الكتب والخطبة"<sup>3</sup> بعد إحاطته بالمكيدة التي تحاك ضده مع السلطان الحفصي وأبو مالك المخلوع، فبعد تنحية أبو مالك من تلمسان سنة 827هـ/1423م لجأ هذا الأخير فارا إلى فاس لطلب المساعدة العسكرية لاسترجاع عرشه، غير أنّ مسعاه هذا لم يكلل بالتجّاح نظرا لعجز سلطان فاس على مساعدته، فغيّر وجهته لعقد حلف مع أبي فارس الحفصي للمطالبة بتنحية ابن الحمراء وتعيينه خلفا له مع ضمان الولاء له، فحين علم هذا الأخير بالمراسلات التي تجري بينهما، تتبع ابن عبد الواحد الذي كان واسطة بين أبيه والسلطان الحفصي وقتله<sup>4</sup>، وتحرك جيش أبو فارس وحليفه عبد الواحد على إثر ذلك طلبا للانتقام واستطاعوا محاصرة تلمسان و"ضيق بأهلها وحلف إن لم يفتحوا لي الباب بالغد لآمرن بالتهب فيها ثلاثة أيام، فلما جاء الغد لم يفتحوا الباب له الباب فضيق بأهلها تضيقا عظيما ورماهم بالأنفاط وهدم المسافات حتى صارت الحجارة تتصل إلى سوق منشار الجلد، وكذلك السهام..."<sup>5</sup>، لكن ابن الحمراء استطاع ردّهم وكفّهم عن تلمسان فرجعوا مشرّقين<sup>6</sup>، وأعاد الحلف<sup>7</sup> الكرة على تلمسان في شهر رجب سنة 831هـ/1427م "فحصرت تلمسان حصارا قويا"<sup>8</sup> واستطاع أبو مالك عبد الواحد إجلاء ابن الحمراء عن تلمسان واستعادة ملكه بعد شن هذا الحصار.

<sup>1</sup> التجاوزات التي قام بها عبد الواحد ولم ترض الطرف الحفصي خلال هذه الفترة هو تحالفه مع سلطان فاس لإثارة القلاقل والتوسّع شرقا على حساب دولة أبي فارس وهذا ما نلمسه في الحوار الذي درى بينها، وحفظه التنسي في كتابه. وقد جاء فيه على لسان السلطان المريني لعبد الواحد: "أنا في حسب يغمراسن بن زيان. فأجابه المولى عبد الواحد بأن قال: وصلت". التنسي مصدر سابق، ص 241.

<sup>2</sup> الزركشي، مصدر سابق، ص 125.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 127.

<sup>4</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 243.

<sup>5</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 79.

<sup>6</sup> روبر بارنشفيك، مرجع سابق، 1/257. التنسي، المصدر السابق، ص 244.

<sup>7</sup> تختلف المصادر حول الأطراف الموجهة لحصار تلمسان الثاني بعد فشل الأول، إذ يرى الزركشي أنّ الأطراف المحاصرة كانت الأعراب المتحالفة مع عبد الواحد وهذا ما تتحسّسه في قوله "فسار السلطان أبو محمد عبد الواحد إلى الجبال واستسرخ بأعراهما وأتى بهم إلى تلمسان فملكها". بينما يرى التنسي أنّ الأطراف المحاصرة لها هم الحلف السابق المكون من السلطان الحفصي أبو فارس وأبو مالك عبد الواحد الزركشي، مصدر سابق، ص 128. التنسي، مصدر سابق، ص 245.

<sup>8</sup> التنسي، المصدر السابق، ص 245.



ظلّ ابن الحمراء يجوب ثغور المغرب الأوسط بين جبال برشك وتنس للبحث عن حلفاء واستطاع أن يعدّ العدة لأبي مالك عبد الواحد ويحاصر تلمسان " فدخلها ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وقتل عبد الواحد صبيح تلك الليلة"<sup>1</sup>، فلما أحاط السلطان الحفصي أبو فارس بما أقدم عليه ابن الحمراء توجه إليه رفقة أحد قواته الأعلاج، مما أدى به إلى الفرار والخروج من تلمسان بعد أربعة وثمانين يوماً من حكمه، فتبعه أبو فارس إلى بني يزناسن وحاصره هناك مدة مما أجبره على الاستسلام، قام أبو فارس على إثر انتصاره هذا بتعيين أبي العباس أحمد العاقل خلفاً له بتلمسان<sup>2</sup>.

بعد وفاة السلطان أبو فارس في طريقه إلى تلمسان للهجوم على السلطان الزياني العاقل الذي استغل فرصة الحملة الأروغونية الموجهة لاحتلال جزيرة جربة لقطع الدعوة الحفصية على منابره " والمطالبة بالاستقلال كعادة أسلافه"<sup>3</sup> والتربع على عرش تلمسان إلى غاية 866هـ/1461م، عرف البيت الزياني في عهده العديد من الصراعات للسباق نحو السلطة، وكانت أبرز الحصارات لهذا العهد؛ حملة أبو عبد الله محمد المستعين بالله الزياني على الجزائر سنة 842هـ/1438م " فحاصرها مدة طويلة<sup>4</sup> حتى ضاق الأمر بمن فيها ففرّ مقاتلوها، وأذعن من بقي فيها، وأسلموا البلد، فدخلها أولاً ولده ... المتوكل ضحوة في تاسع عشر رجب"<sup>5</sup>، وثاني هذه الحصارات حصار أبو عبد الله محمد المتوكل لأبي العباس أحمد العاقل سنة 866هـ/1461م الذي "توجه إلى تلمسان فأقام عليها يومين ودخلها في الثالث، وهو يوم الاثنين أول جمادى الأولى [سنة 866هـ] ... ففرّ الأمير أحمد إلى العباد"<sup>6</sup>، وعفى عن أبي العباس وأراد أن يصرفه إلى الأندلس، إلا أنّ الأخير أعدّ له العدة " وجمع عليه العرب والبربر، وجاء إلى تلمسان فحاصرها أربعة عشر يوماً"<sup>7</sup>، فانتصر المتوكل عليه وقتله في 13 ذي الحجة 867هـ/29 أوت 1463م وعلى الرغم من قتل أبي العباس إلا أنّ أحلافه وفي مقدمتهم الأمير

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 245.

<sup>2</sup> تختلف رواية كل من التنسي والزركشي، إذا يرى الأول أن الحصار ضرب من طرف أبي فارس على بني يزناسن ملجئ ابن الحمراء الفار منه مما اضطر ابن الحمراء تسليم نفسه تحت ضغط الحصار، بينما يرى الثاني أنّ ابن الحمراء لم يسلم نفسه وإنما فرّ إلى بني يزناسن وظلّ الحصار قائماً على تلمسان إلى أن استسلم أهلها. التنسي، مصدر سابق، ص 246. الهامش رقم 666.

الزركشي، مصدر سابق، ص 129.

<sup>3</sup> الزركشي، مصدر سابق، ص 129-131.

<sup>4</sup> انطلقت الجيوش في أواخر سنة 841هـ/1437م واستطاع المستعين دخولها في 19 رجب 842هـ.

<sup>5</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 251.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 254.

<sup>7</sup> المصدر نفسه، ص 257.



محمد بن عبد الرحمان بن أبي عنان<sup>1</sup> لم يدخروا جهدا في شنّ حصار ثالث حيث "أقاموا أياما محاصرين لتلمسان ودخل بعض المتلصّصين منهم البلد ليلا، فقام عليهم أهل البلد فقتلوا بعضهم وفرّ الباقيون"<sup>2</sup>.

استمرّ المتوكل في حكم تلمسان وبدأ بشقّ الطّاعة عن السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان، ممّا أدى بأبي عمرو للهجوم عليه وإظهار أبو زيّان عبد الواحد بن أبي حمّو المتحالف مع عرب سويد وبني عامر في ساحات المعارك ضدّه تمهيدا لشرعنة نقل السّلطة إليه بعد الفراغ من المتوكل، واستطاع أبو عمرو التّهوض إلى تلمسان بنفسه وحاصر تلمسان بعض الحصارات القصيرة الأمد، مما أدى باستسلام أبي عبد الله وإعطاءه ابنته زوجة - ورهينة- دون مراسيم الخطبة للأمير أبي زكريا بن مسعود حفيد السلطان الحفصي 872هـ/1468م<sup>3</sup>.

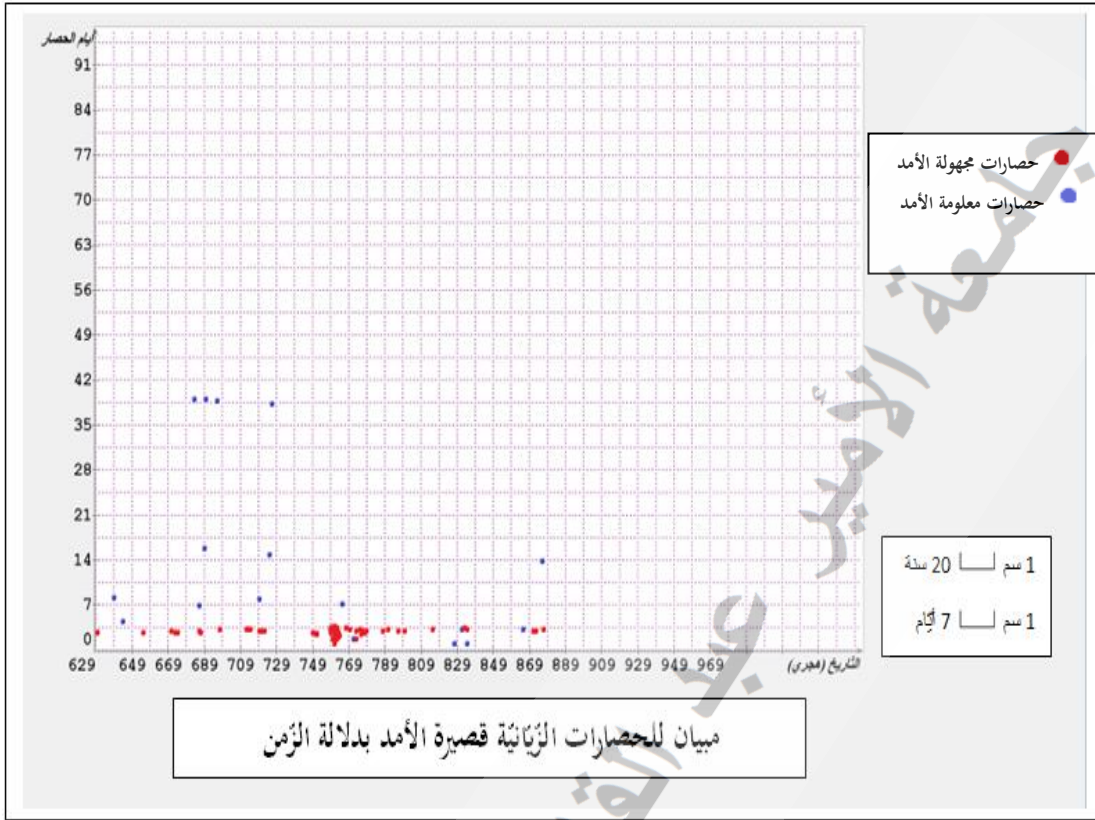
ظلت الأوضاع في اضطراب مستمرّ والصراع على أوجه بين أفراد البيت الزياني، وزاد الأمر تفاقمًا عند سقوط دار الإسلام بالأندلس بسقوط دولة بني الأحمر في شوال 897هـ/1492م فأصبحت تلمسان قاطبة للفازيين من القوى الإسبانية من العدو بالأندلس، وكان ذلك ذريعة للتدخل الإسباني للسيطرة على موانئ المغرب الأوسط، الأمر الذي جعل دولة بني عبد الواد كانت تلفظ آخر أنفاسها، فاستنجدت بعروج الذي كان قبالة شاطئ تنس، وفي خضم تسارع هذه الأحداث ظهرت قوّة ثلاثة محليّة هي الدّولة السعدية لاستغلال حالة اللّامن في المغرب الأوسط قادها الشريف المهدي، واستطاع هذا القائد رفقة ابنه الشريف محمد الخوراني حصار تلمسان سنة 957هـ/1550م حصارا طويلا الأمد شارف 9 أشهر، وهو آخر حصار لها قبل أن يلحق صالح رايس تلمسان بالجزائر بعد فشل الحسن بن محمد بن عبد الله الثاني آخر قادة بني زيّان في تسيير شؤون بلاده سنة 962هـ/1554م<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> لم يتوصّل محقق كتاب تاريخ تلمسان للتنسي إلى معرفة هذا الشخص، إلّا أننا نرجّح أنّ انتمائه يرجع للدولة المرينية خاصة وأن بنو عبد الواد كانوا خلال هذه الفترة على الولاء الحفصي، ومن المنطقي أن يقوم حلف زياني مريني لإثارة القلاقل في الجانب الشرقي من المغرب لكبح جماح الدولة الحفصية.

<sup>2</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 257.

<sup>3</sup> روبرار برنشفيك، مرجع سابق، ص 291. فيلاي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 73.

<sup>4</sup> فيلاي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 76-79. عبد الحميد حاجيات، خطر التصاري وانتهيار الدولة الزيانية، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984. ص 457.



يبيّن المبيان السابق العديد من التّقاط يمكن تلخيصها فيما يلي:

- كثرة الحصارات العسكريّة القصيرة الأمد في المغرب الأوسط الزياني على مدار قيام دولة بني عبد الواد بمعدل يصل إلى قرابة 6 حصارات قصيرة كل عام، دون احتساب المواجهات العسكريّة المباشرة والحصارات العسكريّة الطويلة الأمد.
- عرفت فترة أبو حمّو موسى الثاني قبل إحياء دولة بني زيّان نشاطا مكثّفا للحصارات العسكريّة قصيرة الأمد وصلت إلى 8 حصارات في عام واحد<sup>1</sup>.
- إغفال المصادر لضبط تواريخ العديد من الحصارات القصيرة المدى، الأمر الذي جعلنا نؤشّر عليها في المبيان دون وضع محدّدات زمنية لبدايتها ونهايتها.
- أغلب الحصارات القصيرة كانت بين 3 و5 أيّام، غير أنّ بعضها جاوز هذه المدّة ليتراوح بين مدّة أسبوع إلى أزيد من 5 أسابيع على الأقل في 12 حصارا ضُرب في المغرب الأوسط في الفترة الممتدّة بين 633هـ-962هـ/1235-1554م.

<sup>1</sup> أنظر مبيان الحصر العسكريّة في الملحق رقم 09 ص 281.

## المبحث الرابع: الاستراتيجيات والتكتيكات الحربية الزيانية:

### المطلب الأول: ثنائية الحرب والموسيقى في المنظومة العسكرية الزيانية:

تعدّ الموسيقى والآلات المصوّنة من بين الأدوات التي اعتمدت عليها المنظومة الحربية الزيانية اعتمادا لا يقلّ أهمية عن استخدام الأسلحة الخفيفة والثقيلة، نظرا لكونها نمطا من أنماط التواصل بين أفراد الجيش داخل أرض المعركة في ظلّ محدودية الاتصال خلال المعركة، وعلم الموسيقى بضم الميم وكسر السين المهمة هو لفظ يوناني معناه تأليف الألحان، موضوعه التّغم ويندرج علم الموسيقى تحت علم الحساب إذ يكون البحث في التّغم عن النسب العددية العارضة للعدد على سبيل اللزوم وهي عارض خاص لموضوع علم الحساب<sup>1</sup>.

على الرّغم من أنّ علم التّعمية الذي يهتم بفكّ شفرات الحرب الصوتية والكتابية<sup>2</sup> ينتسب إلى العرب ولادة ونشأة وتطورا، إلاّ أنّه يظلّ موضوعا مسكوتا عنه في حقل الدّراسات التاريخية، والمقصود بعلم التّعمية "تحويل نص واضح إلى آخر غير مفهوم باستعمال طريقة محددة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص"<sup>3</sup>، وقد عرف اليونانيون قبلهم استخدام الأصوات لإفراغ نفوس جيش العدو<sup>4</sup> وليس للأغراض العسكرية التكتيكية الحربية، كما استخدمه المسلمون في عصر النبوة كمنط من أنماط التواصل من خلال بذل الأصوات شحنا للنفوس أو ترتيبا للمصاف، كما اتخذ المسلمون العديد من الشعارات والتهافتات لتحقيق عدّة أهداف كالتعارف فيما بينهم أثناء الالتحام بالعدو أو في الظلام، أو لإثارة انفعالات الشجاعة والحماسة في نفوسهم، ومن أمثلة هذه التهافتات: "أحد، أحد" في غزوة بدر و"أمت، أمت" في غزوة أحد و"يا خيل الله اركبي" بالإضافة إلى "الله أكبر" الذي كان شعار كلّ مسلم في الحرب<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> ابن أمير حاج محمد شمس الدين، التقرير والتحجير، المطبعة الأميرية، مصر، 1899، ص 37.

<sup>2</sup> يقوم نظام التعمية على فكّ الشفرات الكتابية والصوتية خلال حالة الحرب، وقد استطاع ابن منكلي صاحب "كتاب الحيل في الحروب" أن يوضّح لنا جوانب لتفكيك هذه الشفرات الصوتية، فالقرعة الواحدة والنفخة الواحدة تستعمل للتعليق على الدواب، والقرعتين بعد القرعتين والنفختين بعد النفختين تستخدم للإسراج، الثلاثة بعد الثلاثة تستخدم للإلجام والركوب، أمّا قرع الطبل في الموضع الذي يكون فيه قائد الجيش فيستخدم ليهتّز من كان في ذلك الركن من الخيول لتجريك أفئدة الجيش، ويقرّع الطبل في جميع أركان الجيش ما عدا ركن قائد الجيش للتعبير عن استعداد الجيش لما يخرج من أمر القائد إليهم للالتحام في المعركة، وتأخر النفخ في المزامر إشارة إلى عدم تقدم الجيش للعدو، وعلى العكس من ذلك فإنّ تقدم النفخ في المزامر يتعبّر بمثابة إيعاز إلى تقدم الجيش للعدو. ابن منكلي، الحيل في الحروب، مصدر سابق، ص 334-337-338.

<sup>3</sup> مير علم يحيى ومحمد الطيان، علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، مطبوعان مجمع اللغة العربية، 1987، ص 02.

<sup>4</sup> إخوان الصفا، مصدر سابق، ص 195.

<sup>5</sup> فهمي النجار، الحرب التفسّية، أضواء إسلامية، دار الفضيلة، السعودية، 2005، ص 354.

استطاع إخوان الصفا في مرحلة مبكرة رصد المتلازمة بين الموسيقى والحرب في رسالتهم "في أن صناعة الموسيقى للحكماء"، حينما عرضوا الاستخدامات المختلفة للآلات المصوّتة والألحان في قولهم "... فكان هذا أحد أسباب استخراج الحكماء صناعة الموسيقى واستعمالها ... وكانوا أيضا قد استخرجوا لنا آخر يُقال له المشجع كانت تستعمله قادة الجيوش في الحروب والهيحاء، يُكسب النفس شجاعة وإقداما"<sup>1</sup>، وقد توافق ابن خلدون -معاصر دولة بني عبد الواد- مع اخوان الصفا في بسطه للاستخدامات العسكرية للموسيقى في الحرب فهو يرى " أنّ النّفس عند سماع النّغم والأصوات يدركها الفرح والطّرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستهل بها الصعب ويستमित في ذلك الوجه ... لأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية"<sup>2</sup>، والملاحظ أيضا أن نظريات رواد المدرسة العسكرية الإسلامية كابن منكلي<sup>3</sup> وابن رضوان<sup>4</sup> لم تختلف عن الآراء السابقة لإخوان الصفا وابن خلدون في عرض الاستخدامات التكتيكية للموسيقى في ميدان المعركة.

### 1- أنواع الآلات الموسيقية المستخدمة في المنظومة الحربية الزيانية:

عرفت حروب العصر الوسيط استخدام نوعين من الآلات المصوّتة في منظومة الحرب، اعتمدت الأولى على التّصويت باستخدام الطّبول للقرع، واختصت الثانية بالتصويت بالنّفخ، تصنع الطبول " من نحاس على شكل جفان كبار عريضة من أعلى، ضيّقة من أسفل مع جلد ممدود على أعلاها، يحمل كل طبل حصان رحل، ويعادل بثقل موازن لأنه ثقيل جدا، وخيول الطبالين أجود الخيول وأكثرها سرعة"<sup>5</sup>، والملاحظ أنّ سلاطين بني زيان أولوا أهمية بالغة لأخذ الطبول في حالة الفوز بالمعارك ضمن مغامتهم لارتباط ذلك بكسر نفسية العدو " إذ يعتبر فقدان طبل من هذه الطبول عارا كبيرا"<sup>6</sup>، وعليه فإنّ المصادر حفظت لنا بعض المواجهات العسكرية الزيانية التي أخذت فيها طبول العدو بعد الانتصار عليه لهذا الغرض، وأهمها معركة أبي حمّو موسى

<sup>1</sup> إخوان الصفا، مصدر سابق، ص 187.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 319.

<sup>3</sup> يرى ابن منكلي أنّ استخدام الموسيقى في الحرب " من قبل الأسماع: أشد تحريكا لأفئدة الرجال، وأشدّ هزّ لطبائعهم، وتحريضا لهم، وأربط لجأشهم، وأكسر لقلوب أعدائهم، وأفت في أعضائهم، وأدخل للذعر والوجل عليهم". الحيل في الحروب، مصدر سابق، ص 336.

<sup>4</sup> بيّن ابن رضوان دور الموسيقى في قلب موازين المعركة واعتبرها عاملا معياريا في تحقيق النصر، وذلك ما نلمسه في قوله: "عدّ جندك عند الحرب بالصلاة والكسوات ... و[أ]كثر من الآلات والأصوات المفزعة، فإنها قوة للنفس، وإقامة للهمم، وفرع لمن تلقاه". الشّهب الّامعة، ابن رضوان، الشّهب الّامعة في السياسة النّافعة، دار الثقافة، المغرب، 1984، ص 393.

<sup>5</sup> الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 288.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

الثاني ضدّ الحامية المرينية بوادي الصفيصيف في 25 صفر 760هـ/26 جانفي 1359م، حيث ولّت الحامية المرينية منهزمة " وأخذ ما كان بعسكرهم من طبل وأعلام"<sup>1</sup>، ومعركته أيضا ضدّ الحلف الذي شكّله عبد الله بن سقير العامري وأبو زيّان غريم السلطان أبي حمو في مستهلّ سنة 777هـ/1375م، إذ واجههم أبو حمو و"أوسعهم قتلا وأسرا، وسلب طبل أبي زيّان وأعلامه، وأفلتوا بغيظهم"<sup>2</sup>، الأمر الذي قد يفسّر توظيف "الطبل" في أشعار أبي حمو موسى المحفوظة في مختلف المتون كرمز للنصر وكدلالة على كسر العدو، ومثّل ذلك ما حفظه مؤلّف يحيى بن خلدون ممّا نُظِم في أخبار وأشعار سنة 773هـ/1371م عند نزول السلطان الزياني بتيكوارين قبالة واحات توات، إذ جاء فيها :

وزنّاتة من خلفنا وأماننا ... من كلّ ليث في الحروب ممجد

وطبولنا زارت كأسد في الوغى...وبنودنا خفقت بنصر منجّد<sup>3</sup>.

يشرف على حمل الطبول في الحرب فرقة خاصة تسمى "فرقة الطبالين" وقد عرفوا في العهد الزياني باسم "الطبلخانة"<sup>4</sup> ولهم رئيس يتقدمهم يدعى "المزوار" يشرف عليهم وينظمهم خلال السير في الحرب<sup>5</sup>، يلعب

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 24/2.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص305.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 250/2.

<sup>4</sup> أنظر التعليق رقم: 01 لكتاب بغية الرّواد، تح بوزيان الدّراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، 2007، ص550.

<sup>5</sup> ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص227.



المزوار في معادلة الحرب النفسية دور المغذي لنفسية الجند<sup>1</sup> والسّلطان على حدّ سواء<sup>2</sup>، أمّا المزوار خلال العهد الزياني فكانت مهمّته أن "يرأس الجيوش ويقودها أحيانا ضدّ العدوّ فتحضع له مثلما تخضع للملك"<sup>3</sup>.

أمّا الأبواق والآلات النَّفخية فإنّ استخدامها اقتصر على الحفلات السّلطانية والاستعراضات العسكريّة على عكس الآلات الإيقاعيّة، ففي شهر رجب 776هـ/ ديسمبر 1374م استعملت آلة الكريج والطلبخانات والآلات النَّفخية للاحتفال بجذق المولى أبو زيّان محمد لسورة البقرة "ونودي في أرباب الغناء والعزف والطلبخانات والكريج"<sup>4</sup>، والملاحظ أنّ عدم شيوع استخدام الآلات النَّفخية راجع إلى حجر العقل الفقهي خلال العهد الزياني على هذه الآلات النَّفخية وحظر استخدامها غالبا، حسبما أفقّ به أغلب الفقهاء وفي مقدّماتهم العقباني<sup>5</sup> والشّريف التّلمساني<sup>6</sup>.

وعلى العكس من ذلك فقد عرفت الآلات النَّفخية المعروفة بـ "الغيطات" انتشارا واسعا في أوساط الغزّ والفتات النصرانيّة المشاركة في الحرب وكذلك أمم الإفرنجية بالأندلس، فقد كان "أكثر شأنهم اتّخاذ الألوية القليلة ذاهبة في الجوّ صعدا ومعها قرع الأوتار من الطنابير ونفخ الغيطات"<sup>7</sup>، كما أنّ الأبواق المصنوعة من النحاس

<sup>1</sup> لم يكن المزوار وحده من يقوم بهذه العملية فاهتمام السلاطين والملوك باستقرار نفسية الجند وحفظ توازنهم السيكولوجي جعلهم يقومون بتنصيب مزوار يؤدي هذه المهمة في الحرب وقد حظي بمكانة رفيعة بين وجهائه وحاشيته، أما في حالات الاستقرار فكان الملك أو السلطان يقوم بتنصيب القصّاصين والخطباء ليذكروا الجند بحروبهم ووقائعهم الماضية، وغزواتهم السالفة ومواقع الشجعان ومصارع الفرسان، وما وعد الله للشهداء والمجاهدين من الثواب، ممّا يؤلّف لهم لديهم ويقوّي العزائم، ويشدّ نفوس أهل الحرب. الحسن العباسي، مصدر سابق، ص 330.

<sup>2</sup> يسوق لنا ابن القنفذ في كتابه الفارسيّة مثالا مهمّا عن دور المزوار في رفع معنويّات السّلطان، حيث يقول: "وكان السّلطان رحمه الله إذا قلق من أمر سكّنه المزوار القائد نبيل بقوله: اصبر لا بدّ أن يرجع إليك هذا الأمر، وأضمر تدبيرك ذلك إلى وقته". ابن القنفذ، الفارسيّة، مصدر سابق، ص 180.

<sup>3</sup> الوزان، مصدر سابق، 2/22.

<sup>4</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 288.

<sup>5</sup> "... أمّا العود والبوق فلا اختلاف في أنّه لا يجوز استعمالها في عرس ولا غيره فيفسخ فيهما ... ولم يختلف في إجازة الدّف وهو الغربال في العرس". محمد بن قاسم العقباني، تحفة الناظر وغنية الذّاكر في حفظ الشّعائر وتغيير المناكر، تح: علي الشّنوني، مجلة Bulletin d'études orientales، Tom XIX، Institut Française de Damas، 1967، ص 99.

<sup>6</sup> جاء في مجموع فتاوى الشّريف التّلمساني "أنّ شهادة من يستمع إلى آلة اللّهُو ساقطة". مجموع فتاوى الشّريف التّلمساني، مصدر سابق، و 103ظ.

<sup>7</sup> ابن خلدون، المقدّمة، ص 321.



## الفصل الأول: واقع الحروب والمواجهات العسكرية المباشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

الأجوف ذات الصّوت التّخين المدوّي<sup>1</sup> سجلت حضورها في العديد من الوقائع الحربية بين دول المغرب والأندلس خلال فترة الحكم التي عاصرت الدولة الزيانية<sup>2</sup> إذا ما نظرنا بعين المقارنة.

### 2- الاستخدامات التكتيكية للطبول في معارك وحروب بني زيّان:

استخدمت الجيوش الزيانية في حروبهم خلال العهد الزياني الطبول في مواقيت مختلفة من زمن المعركة حيث استخدمت كمؤشّر للشروع في الالتحام بين الجند أثناء المعركة، أو للانسحاب التكتيكي أثناء المعركة والاستطرد، أو لضبط المصاف قبيل الشروع في المعركة بين الجيش والعدوّ، وغيرها من الاستخدامات التي سنوضّحها في الجدول الآتي:

| الإحالة                            | الاستشهاد   | الاستخدام التكتيكي للطبل             | السنة       | أطراف المعركة  |
|------------------------------------|---|--------------------------------------|-------------|--|
| مجهول، زهر البستان، ص 82.          | "فضربت حينئذ الطبول وترجّلت الفرسان وثرّكت الخيول، وشدّوا على أهل البلد شدّة عظيمة"   | ترجّل الفرسان ونزولهم من الخيول      | 761هـ/1359م | حصار أبي يعقوب والد أبي حمو موسى الثاني لأهل الجزائر               |
| يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 231/2. | "وتكالبوا في طلبه، فقرعت طبوله وانعطف نحوهم، فولوا الأدبار"   | التّحول من حالة الفرّ إلى حالة الكرّ | 772هـ/1370م | استطرد أبو حمو إلى الصّحراء وملاحقة السّلطان المريني عبد العزيز له |
| يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 268/2. | "قرعت طبوله، وترتبت مصاف جيوشه، ثمّ أخذ الناس بالثبات لصدمة العدو الأولى، وألا يعدو أحد مركزه، ودفع المقاتلة بين يديه، فلم يكن إلا" | ضبط مصاف الجند أثناء المعركة         | 775هـ/1374م | معركة أبو تاشفين الثاني ضدّ أبي زيّان                              |

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 535.

<sup>2</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 316-324.

|  |  |                          |             |   |
|--|--|--------------------------|-------------|---|
|  | كطرفة العين أو أقرب،<br>حتى ولّوا الأدبار<br>منهزمين   |                          |             |   |
| ابن أبي زرع،<br>الأنيس المطرب،<br>ص 337. | "فأقبل أمير المسلمين في<br>نحو ألف فارس وابنه<br>... وكلّ واحد منهما<br>بطبوله ... فرأى<br>يغمراسن ما لا يقدر<br>عليه" | إظهار التفوق<br>العددي   | 680هـ/1281م | يعقوب بن عبد<br>الحق المريني<br>والسلطان الزياني<br>يغمراسن |
| مجهول، زهر<br>البستان،<br>ص 225.         | "ثمّ أمر [أبو حمّو<br>موسى] أن يخرج<br>بالطبول والعلامات وأن<br>تركب لها الجيوش<br>والسّاقاة"                          | امتطاء الخيل<br>للتّنقل. | 764هـ/1363م | استعراضات<br>عسكريّة زيانيّة<br>استخدم فيها<br>الطّبيل.     |

### المطلب الثاني: جوانب من الحرب النفسية خلال العهد الزياني:

#### 1- موقع المرأة من معادلة الحرب النفسية خلال العهد الزياني:

لم تكن المرأة بمنأى عن الحوادث السياسية والتطورات العسكرية خلال العهد الزياني، فبالإضافة إلى مشاركتها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية، شاركت المرأة في الحياة السياسية والعسكرية وأثبتت حضورها في هذا المجال، ومن أبرزهنّ "سوط النساء"<sup>1</sup> أم يغمراسن التي لعبت دور الوسيط في مفاوضات ابنها يغمراسن مع أبو زكريا الحفصي سنة 640هـ/1242م، وكان أبو زكريا قد استقبلها كطرف في هذه المفاوضات و"أكرم موصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها ومنقلبها"<sup>2</sup>، كما سجلت المرأة حضورها أيضا في مجال التّجسس، ومنهنّ الجارية الرومية التي أهدها أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1283-1304م) للسلطان

<sup>1</sup> روبر بارنشفيك، مرجع سابق، 60/1.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 108. الزركشي، مصدر سابق، ص 29.

المريني يوسف بن يعقوب المريني وكان السلطان الزياني " قد أجرى لها رزقا يبعثه لها في كل حين على أن تعرفه بالأخبار"<sup>1</sup> التي تحاك في البلاط المريني ضدّ السلطان الزياني.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن دور المرأة في الحياة العسكرية خلال العهد الزياني لم يقتصر على المشاركة السياسية والاستخباراتية فقط، بل تعدى إلى حضورها كعنصر في فاعل في التعبئة النفسية<sup>2</sup> للجنود خلال المعارك، حيث كنّ يتنقلن مع الجيوش الزيانية لرفع معنويات الجنود<sup>3</sup>، كما تمّ إشراكها في السفر<sup>4</sup> مع الجنود لتجاوزها جس فراق الزوجة خلال حالة الحرب<sup>5</sup>، الأمر الذي يؤكدّه الإخباريون في الأخبار التي ساقوها عن مشاركة المرأة لهذا الغرض في معركة وادي تلاغ بين يغمراسن ويعقوب بن عبد الحق المريني إذ "عبأ كل منهما كتابه ورتب مصافه وبرز النساء في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض"<sup>6</sup>، و "اصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش في الهودج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه عليهنّ الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال"<sup>7</sup>، كما استمرّين في لعب هذا الدور خلال حروب الزيانيين في مرحلة لاحقة من عمر الدولة، فقد شاركت المرأة سنة 767هـ/1365م بصوتها وأشعارها الزناتية عند ترتيب المحلات الزيانية وضرب المصاف

<sup>1</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 285.

<sup>2</sup> يبيّن النصّ النوازي تأثير الزوجة على نفسية الجندي المشارك في الحرب وشغور تفكيره بما إذ ورد في فتاوى الشريف التلمساني سؤال عن "رجل أمر رجلا أن يطلق عليه امرأته وهو حاضر أو خرج حاجا أو غازيا فقال له: إن رأيت من زوجتي ما تكرهه فطلقها". مجموع فتاوى الشريف التلمساني، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 232، و103.

<sup>3</sup> سئل قاسم العقباني عن الخروج بالمرأة والمصحف للحرب، فأجاب: "إذا كان هذا المتوجّه بامرأته سافر بامرأته مع جيش تؤمن السلامة معه غالبا فله ذلك، فقد كانت النساء زمنه صلّى الله عليه وسلم يخرجن للغزو". المازوني، الدرر المكنونة، 388/1. الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 114/2.

<sup>4</sup> سجّلت المرأة حضورها خلال التنقلات الجيش الزياني كعنصر مرافق له رغم الخطاب الفقهي الذي حرص على عدم إشراكها في ذلك خوفا من العواقب المترتبة عنه، وهو ما نلمسه في قول الونشريسي: "لا يجوز السفر بالنساء إلى أرض الحرب، ويجوز للرجال، مع أنّ الأسر لا يؤمن على كلّ واحد منهما، لأنّ مفسدة أسر النساء أعظم من مفسدة الرجال، لأنّ أسر النساء فيه لاستخدام والوطء، وأسر الرجال ليس فيه إلاّ الاستخدام". الونشريسي، عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، تح: حمزة أبو فارس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص 209.

<sup>5</sup> سجل النصّ النوازي هذه الحالة وبيّن أن فراق الزوجة بدار الحرب قد يدفع الجندي إلى الزواج بعيدا عن أسرته. الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 483/4. المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 203/2.

<sup>6</sup> الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 26/3، 25.

<sup>7</sup> ابن أبي زرع، الذخيرة السنينة، مصدر سابق، ص 115.

لرفع معنويات الجنود<sup>1</sup>، وهي الشهادة التي قدّمها يحيى بن خلدون في معرض حديثه عن توجه الجيش الزياني للثأر من أبي العباس أحمد الذي اغتال صهر أبو حمو موسى الثاني ببجاية، فاجتمعت له في أول شوال من هذه السنة " الخلات كافة بالبسيط الأفيج من ظاهر الحضرة فجلس لعرض جيوشه المظفرة، في خباء مطلّ من أعلى هضبة... برزت منه قنينة يسي جمالها وصقال ملبسها الناظرين، فأمسكت بشجارة تغني بأشعار زناتية مما يهيج أريحيات الهمم، ويبعث حمايات النفوس"<sup>2</sup>.

وعلى صعيد آخر حول مكانة المرأة في دعم استراتيجيات الحرب النفسية خلال العهد الزياني، يمكن تفسير تنقلات المرأة الزيانية مع الجيش خلال الحرب بناءً على خلفية استراتيجية حربية محضّة، خاصة إذا علمنا أنّ أسلوب حشد القوى وإظهار الكثرة العددية عن طريق مصاحبة النساء والجواري للجيش كان أسلوباً شائعاً لتحطيم نفسية العدو في المواجهات العسكرية - المتكافئة والغير متكافئة-، ويكون ذلك من خلال إيهام العدو بالتفوق العددي، وقد صدق صاحب كتاب سراج الملوك حين نظّر لاستعراض الكثرة العددية خلال خوض المعركة بقوله: "اعلم أنّ القدماء قالوا: الكثرة للرعب، والقلة للنصر"<sup>3</sup>، وفي هذا الصدد يرصد لنا ابن أبي زرع ظاهرة حشد النساء في الحرب قبيل وقوع معركة وادي ايسلي بين يغمراسن وجيوش يعقوب المريني بقوله: "... وأمر جميع قبائل بني مرين أن يخرجوا بجميع عيالاتهم ونجباتهم في زيتهم وأن يظهروا قوتهم ليغيظوا بذلك أعدائهم"<sup>4</sup>، وقد أتت هذه الاستراتيجية مقصدها وساهمت في كسر معنويات السلطان الزياني، فحينما " رأى مالا طاقة له به، ولا سبيل له بلقائه، فرّ منهزماً... وكان على يغمراسن بيوم عسير"<sup>5</sup>.

## 2- الوظيفة السيكلوجية للإشاعة ودورها في حروب بني زيان:

إنّ الإشاعة فنّ في الحرب يحتمل العدو على سلوك مسلك معيّن ما كان ليتّخذ لولا هذا النشاط، وتقسم الإشاعة إلى العديد من الأقسام أهمها؛ الإشاعة الاستراتيجية التي تبتّ في أوساط جند العدو خلال حالة الحرب، وتدار هذه الدعاية دون أن يكون لها تأثير مباشر عليه، لأنّ الغرض منها هو إجهاد العدو بتغيّرات نفسية (سيكلوجية) تجرّ العدو على الاستسلام<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> حول غناء النساء في الحرب لإثارة الحماسة يقول الونشريسي في فتوى "أقوال العلماء في الغناء وآلاته" وفي المعلم الغنا بآلة ممنوع، وبغير آلة كرهه مالك والشافعي، ومنعه أبو حنيفة، قال: وغنا الجاريتين... إنّما كان في الحرب والشجاعة والتفاخر والظهور". الونشريسي، المصدر السابق، 74/11.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، تح: بوزيان الدراجي، مصدر سابق، 357/2، 356.

<sup>3</sup> الطرشطوشي، سراج الملوك، مصدر سابق، ص 698.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 129، 147.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 131.

<sup>6</sup> فهمي التّجار، الحرب النفسية أضواء إسلامية، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، السعودية، 2005، ص 162..

اختلفت الآليات والطرق لبثّ الإشاعة في معسكر العدو، ومن أشهرها أن يكتب القائد للعدوّ " على السّهام أخبارا مزوّرة ويرمي بها في جيوشهم"<sup>1</sup>، غير أنّ الزيانيين آثروا الطريقة المباشرة لنشر الإشاعة عن طريق وسائل بشرية دون اللّجوء إلى السّهام، ومثال ذلك الحيلة التي حيكت للسّلطان أبي الحسن المريني عند قيامه بحركته لتوحيد بلاد المغرب تحت راية الدّولة المرينية، بعد أن استخلف ولده أبا عنان على تلمسان وجّهز قوّة كاسحة لشنّ حملة برّية وبحريّة على تونس، ونظرا لقوّة هذه الحملة العسكريّة فإنّ أهلها أذعنوا له واستسلموا دون مقاومة، غير أنّ ثورة الأعراب بالقيروان وانضمام الأميرين الزيانيين أبو ثابت وأبو سعيد إليها ضدّه كبحا جماحه، فانهزم السّلطان أبو الحسن وأُشيع في هذه المعركة خبر مقتله، فأثّر هذا الخبر على معنويّات الجند المريني وجعل أبو عنان يغادر تلمسان إلى مدينة فاس وأعلن نفسه وليّاً للعهد سنة 749هـ/1348م<sup>2</sup>، " ولما تبين لولده أبي عنان أنّ والده بالحياة خاف من عقوبته على مبايعته فبعث صاحب بجاية إليها وأصحاب قسنطينة ليُعظّم الأمر على أبيه وليكونوا حائلين بينه وبين بلاده"<sup>3</sup>. على خلفيّة هذه الإشاعة وانسحاب أبي عنان من السّاحة وجد الأميران أبو ثابت وأبو سعيد الفرصة سانحة لتنظيم صفوفهما، وللهجوم على عامل بني مرين عثمان بن جرّار العبد الوادي لإحياء دولة بني زيّان من جديد.

ومن بين الحيل الأخرى التي تنمّ عن دهاء سلاطين بني زيّان في مجال حرب الدّعاية ونشر الإشاعة خلال حالة الحرب، الحيلة التي قام بها أبو حمّو موسى الثّاني لتشتيت شمل السّلطان المريني أبو سالم والوزير موسى بن إبراهيم الرّينباني -الذي اشتهر بدعائه-، حين أراد أبو سالم أن يستوزره، حيث قام أبو حمّو بتدليس كتب وتزويرها عمدا على لسان الأمير عبد الحليم<sup>4</sup> مفادها " أنّ موسى بن إبراهيم المذكور ممّن دان بطاعته وانخرط في سلك جماعته، وإنّه تحدّث في أبي سالم والاحتيال عليه"<sup>5</sup> وأرسلها أبو حمّو الثّاني مع خاصّته ليوهم بلاطه بأنّ هذه الكتب مرسلّة من عند الأمير عبد الحليم، بعد أن أحضر رسل أبي سالم المريني وأخفاهم في حضرته داخل قصره " حتّى سمعوا نصّ الكتب المزوّرة فعادت قلوبهم بهذا السّبب متغيّرة"<sup>6</sup>، فعادت الرّسل إلى السّلطان المريني تحمل هذه الأخبار المزوّرة فكانت الدّبرة على موسى بن إبراهيم، حيث قام السّلطان المريني أبو سالم بسجنه والتّكليل به فتشتّت بذلك شملهم وأحكمت الفرقة بينهم، واستفاد السّلطان الزياني من خدمات السّبّيع بن موسى بن إبراهيم الذي انخرط في طاعة أبي حمّو كردّ فعل يحمل دلالات الانتقام بعد أن أخذ والده على يد السّلطان

<sup>1</sup> الطرطوشي، المصدر السابق، ص 681.

<sup>2</sup> عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ص 48.

<sup>3</sup> ابن قنفذ، الفارسيّة في مبادئ الدولة الحفصيّة، ص 172.

<sup>4</sup> هو عبد الحليم بن السّلطان أبي علي بن السّلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحقّ. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 168/7.

<sup>5</sup> أبو حمّو موسى الزياني، واسطة السّلوك في سياسة الملوك، مصدر سابق، ص 174.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

المريني<sup>1</sup>، وقد حفظ لنا كل من يحيى بن خلدون وأبي حمو موسى الثاني القصيدة التي نظمها السبع لإعلان ولائه وجواب أبي حمو له بنظم آخر توضّحه الأبيات التالية:

تَقُولُ بِإِشْفَاقٍ أَنْتَسَى هَوَى الدَّمَى وَتَنْشُرُ دَرًا مِنْ دُمُوعِ سَوَاجِمِ.  
إِلَيْكَ فَإِنَّا لَا يُرَدُّ اعْتِرَازُنَا مَقَالَةَ بَاكِ أَوْ مَلَامَةَ لَائِمِ.  
وَهَذَا جَوَابٌ عَنْ نِظَامِكَ إِنَّنَا بَعَثْنَا بِهِ كَاللُّؤْلُؤِ الْمِتَنَاظِمِ<sup>2</sup>.

لقد طالت استراتيجية نشر الكتب المزوّدة والتلفيق -بالإضافة إلى الوزير السابق- عبد الرحمان بن خلدون وأضحت هذه المكيدة سبباً للإطاحة بالمقربين من البلاط، حيث تمّ استهدافه خلال استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط في 10 محرم 772هـ/4 أوت 1370م، لكنّه نجى بعد التّثبت من هذه الأخبار المغلوطة، وصفة ذلك على لسان ابن خلدون أنّه: " لما أجفل [أبو حمو موسى] عن تلمسان ودّعته وانصرفت إلى هنين للإجازة إلى الأندلس. ووشى بعض المفسدين إلى السلطان بأنّي احتملت مالا للأندلس، فبعث جريدة من معسكره للقبض عليّ، ووافوني بوادي الزيتون قبل مدخلي إلى تلمسان فأحضرني وسألني، وتبين كذب الواشي"<sup>3</sup>.

### المطلب الثالث: أساليب المواجهة العسكريّة المباشرة

#### 1- مركزيّة عنصر الماء في الاستراتيجيات الحربيّة خلال العهد الزياني:

يتعبّر عنصر الماء من العناصر الفاعلة في بلورة الواقعة الحربيّة، نظراً لكونه مادّة استراتيجية تتوقف عليها نتائج الحروب والمعارك -في الكثير من المواقف الحربيّة- ومقوماً طبيعياً تستند إليه الجيوش في حسمها<sup>4</sup>، والملاحظ أنّ المدوّنة التاريخيّة الوسيطية دعت إلى تجاوز النّظرة الاختزالية لتفسير الظّاهرة الحربيّة بمنأى عن عنصر الماء، ذلك أنّها حفظت لنا في متونها بعض المعارك الحاسمة شارك فيها الجيش الزياني بأسماء الأتّهار والأودية التي كانت مسرحاً

<sup>1</sup> يؤسّر على ذلك أبو حمو في مصنّفه واسطة السلوك بقوله: "وما زال السّبع يكتب إلينا رغبة في خدمتنا ويتعرّف على أنّه متمسك بجبل ذمّتنا، وأنّه راغب في الدّخول في طاعتنا والانخراط في سلك جماعتنا، وقد قدّم لنا قصيدة قبل أن يقدم علينا فتملّق فيها لدينا". المصدر نفسه، ص 175.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 88/2-90. أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مصدر سابق، ص 175-178.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 436/7-437.

<sup>4</sup> نظر العديد من المؤرخين للماء واستخداماته العسكريّة في الحرب، حيث نجده حاضراً في تنظير محمد بن حسن المرادي والهريثي وأبو بكر الطرطوشي وأبو بكر الخوارزمي وابن رضوان وابن الأزرق وابن قتيبة الدينوري والحسن العباسي والمأورد، مما يدل على عدم إهمال النخب العسكريّة لهذا العامل وضلوعهم فيه. انظر خميسي بولعراس، النخب العسكريّة بالغرب الإسلامي قراءة في التنظير والاحتراف، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018، ص 59.



ومعتركا لها كمعركة "وادي تلاغ"<sup>1</sup> ومعركة "وادي ايسلي" و"وادي ملوية"<sup>2</sup> ... وغيرها، كما عبّرت عن ثنائية الماء والحرب في نظمها حسبما توضّحه الأبيات الآتية :

لَا تُبْقِيَنَّ النَّهْرَ حَلْفَكَ عِنْدَمَا تَلْقَى الْعَدُوَّ فَأَمْرُهُ مُتَوَقَّعٌ.  
وَاجْعَلْ مُنَاجَزَةَ الْعَدُوِّ عَشِيَّةً وَوَرَاءَ الصَّدْفِ الَّذِي هُوَ أَمْنَعٌ.<sup>3</sup>

إنّ اعتماد عنصر الماء في المنظومة الحربيّة الزيانيّة سواء من السلاطين الزيانيين، أو من طرف سلاطين بني مرين الذين تربّعوا على عرش دولة بني زيّان وأولوا عناية لا تقلّ أهميّة عن عناية سلاطين بني زيّان أنفسهم به<sup>4</sup>، تعتبر جهودا تحمل دلالات وعي هؤلاء القادة بأهميّة الماء واستخداماته المتنوّعة خاصة خلال حالة الحرب، لذلك شدّد أبو حمو موسى الثاني على عنصر الماء ووضعه في القاعدة الرابعة من السياسة وأوصى وريث عرشه بأن حزم الملك وسياسته ويقظته ورياسته أن يعتدّ لنفسه بأربعة أمور في مقدّماتها المعقل؛ "وصفة المعقل أن يكون حصنا حصينا ... قد اشتمل على الماء والاختران"<sup>5</sup>، والملاحظ أنّ تجارب أبي حمو الحربيّة هي من أكسبته هذا الوعي بأهميّة الماء في الحرب، حيث عانى من نقص الماء أثناء خروجه للصحراء سنة 762هـ/1360م مع جيشه ومحلته بعد هجوم بني مرين على عاصمته، فقد سار في هذه الواقعة "أربعة أيام بلياليها في تنائف ومجاهل لا يهتدي بها القطا لمسقط نوء، ولا يسمع بها سوى عزيف الجنّ، لم يرد بها قومة ماء ... وبلغ ثمن الشربة الواحدة إلى ربع دينار"<sup>6</sup>.

كما اكتسب الزيانيون أيضا الخبرة اللازمة بمجالات استخدام الماء في الخطط الحربيّة من المواجهات العسكريّة التي شاركوا فيها، وترجع أول تجربة لهم في ذلك إلى أوّل حرب نظاميّة جمعت بين الجيوش الزيانيّة والمرينيّة سنة 647هـ/1249م<sup>7</sup>، عندما حاصر الأمير أبو يحيى بن عبد الحق المريني فاس وقطع عنها الماء والغذاء<sup>8</sup>، فطلب أهل فاس التّجدة من الخليفة الموحدّي المرتضى لكنّه عجز عن تقديم يد العون لهم "فاتصلت المخاطبة بين الخليفة المرتضى ويغمراسن بن زيّان في الأخذ بمجزّة أبي يحيى بن عبد الحق بفاس، فأجاب

<sup>1</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 305.

<sup>2</sup> ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص 129.

<sup>3</sup> لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1977، 413/4.

<sup>4</sup> تجدر الإشارة إلى أنّ الاهتمام بعنصر الماء في عاصمة الدّولة الزيانيّة لم يقتصر على سلاطين بني زيّان فقط، فالسلطان المريني أبو الحسن أولى بالغ اهتمامه بشقّ قنوات المياه في تلمسان وتنمية مصادر السّقاية. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، مصدر سابق، ص 403-404، 417-418.

<sup>5</sup> أبو حمو موسى، مصدر سابق، ص 154.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص ص 131-132.

<sup>7</sup> ابن الأحمر، مصدر سابق، ص 35.

<sup>8</sup> بكاي هوارية، مرجع سابق، ص 191.

يغمراسن داعيه<sup>1</sup>، وعليه فإنّ مشاركة يغمراسن في مجريات هذه المعركة التي اعتمد على عنصر الماء ساهمت في تشكيل صورة ميدانيّة عن مجريات ونمطيّة المعارك خلال عصره.

الملاحظ أيضا أنّ مصادر المياه كانت من بين الأولويّات التي تولي الجيوش اهتماما بالغاً بها وتعمل على التّحكم فيها<sup>2</sup>، أو التّكايه بها بتدميرها وتخريبها في حالة الحرب للتّضيق على العدوّ لمضاعفة فرص استسلامه<sup>3</sup>، وهو ما نلمسه في حروب الاستنزاف التي تستهدف الموارد الزراعيّة والمائيّة على حدّ سواء، كحملات قبائل بني توجين الذين "نسفوا الآبار وخرّبوا الربوع"<sup>4</sup> خلال حروبهم مع يغمراسن سنة 670هـ/1271م، أو كمنادج حرب الحصار التي تعتمد في مجرياتها على عنصر الماء في المغرب الأقصى<sup>5</sup>.

أمّا على مستوى استخدام الماء كاستراتيجيّة دفاعيّة خلال الحرب فيرى البكري بأن الماء ضروري كأداة لتدعيم الخندق الذي يكون فاصلاً بين المتحاربين<sup>6</sup> وهذا ما نلمسه في قوله: "... وإن كانت بينهم وبين من

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 112/7.

<sup>2</sup> يضرب لنا ابن عذاري مثلاً عن احتكام الجيوش لعامل حضور الماء وندرته خلال مسيرة الجند بجيش السلطان الحفصي أبو زكريا الذي اضطرّ في حركته لحصار يغمراسن سنة 640هـ/1242م إلى تقسيم مسيرة جيوشه إلى تلمسان فكانت المحلّات "مقسّمة كلّ أمير بمحلّته وجماعته وجملته يرحلون قوما بعد قوم ويوما بعد يوم لأجل قلة الماء في تلك الجهات". ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 361.

<sup>3</sup> نّهت المصادر العسكريّة الإسلاميّة إلى التّشديد على مراقبة عورات الحصن خلال الحرب خاصة مصادر المياه الدّاخلية إليه باعتبارها من بين الحلقات الأضعف التي تستهدف في حرب الحصار، وأهم ما جاء في هذا السيّاق من قدّمه صاحب مختصر سياسة الحروب بقوله: "كن على معرفة مواضع عورات الحصن، والعمل فيما يحتاج إليه فيه مع تحصين عسكريّ ... اعرف المواضع الصّعبة والدّليّة، والمنيعه والممكنة في العمل، واعرف مواضع المعابر، والمخاوض والقناطر والجسور ... اعرف مواضع التّطريق والتّسريب والتّقوب والتّعليق". الهرثمي، مختصر سياية الحروب، مصدر سابق، ص 58.

<sup>4</sup> الذخيرة السنية، ص 132.

<sup>5</sup> يضرب لنا مرمول كربخال مثلاً لاستعمال المياه كمادة استراتيجيّة في الحروب ناحية المغرب الأقصى من خلال وصفه للحروب التي جمعت أهل جبل مطغرة وملوك أهل فاس، واستخدام أسلوب التّضيق بتحويل مجرى المياه عن العدو لتعويض النقص العددي للجنود المغيرة وتلافي النّقائص البدنية والمهاريّة للجيش المغير بقوله: "يكادون يكونون دائماً في حرب مع ملوك فاس، فيقطعون الماء فوراً عن تازي بتحويل مجرى التّهر، ويحدثون أضراراً جسيمة في السّهل، لأنّ عددهم يفوق خمسة عشر ألف مسلّح، ومهارتهم كبيرة في القتال بالجبال". مرمول كربخال، إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1988-1989، 287/2.

<sup>6</sup> لم يكن الماء السبيل الوحيد لغمر الخنادق الخنادق فيلج جانب تمرير جداول المياه عبر الخنادق لمنع اختراق العدو وإعاقة كانت الخنادق تغطى بالأخشاب وأوراق الأشجار فيما يشبه الكمين حتى لا ينتبه العدو لوجوده. انظر: البشير بوقاعدة، مرجع سابق، ص 208.

يجاورهم حرب أرسلوا ماء النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشرىوا منه وامتنعوا من عدوهم به<sup>1</sup>، ويتم وضع الماء في الخندق لتدعيم الجبهة الدفاعية وفقا لشروط يحددها صاحب كتاب حيل الحروب بقول: "فإن كان في الخندق الماء الجاري وكان الخندق واسعا عظيما يحتمل جري السفن ففي ذلك أن يكسر الماء فيه أن يعقد عليه الجسر"<sup>2</sup>، كما أن الصيرفي تغنى به في أشعاره حين مدح تاشفين بن علي وأوصاه باتخاذ الماء كاستراتيجية للدفاع وهو ما يلخصه هذا البيت:

وَالوَادَ لَا تَعْبُرُ وَأَنْزِلَ عِنْدَهُ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ<sup>3</sup>.

يعتبر الماء من بين الأسباب الرئيسية لاختفاء رسم الدولة الزيانية وزوال نفوذها لصالح المرينيين لمدة طويلة من الزمن بعد سقوطها في يد أبي الحسن المريني سنة 735هـ/1334م، حيث اتبع الأخير في حصاره لعاصمتها استراتيجية التضييق عن طريق قطع شبكات المياه<sup>4</sup>، وعلى الرغم من الاحتياطات التي أولاها سلاطين بني زيان والتكتم المحاط بمصادر الماء وشبكات المياه<sup>5</sup> للحد الذي جعلهم يقومون بإعطاء "الأمر بعدم الكشف عن هذه القنوات خوفا من تحويلها إذا ما حوصرت المدينة"<sup>6</sup>، إلا أن أبا الحسن أحضر معه مختصين في رصد شبكات المياه في حصار تلمسان<sup>7</sup>، واستطاع قطع الماء عنها وإخضاعها ليدخلها في 28 رمضان 737هـ/30 أبريل 1337م، ولا مراء من استحضار قول العمري كاملا في هذه الحادثة إذ جاء في مسالكة: "... وأخذ عليها المسالك من كل جهة، ولم يدع طريقا لداخل إليها ولا لخارج منها، وسلطانها أبو تاشفين وجميع أهلها في ضيق الخناق معهم ... وكانوا مع هذا التشديد في غاية الامتناع لحصانة بلدهم وكثرة ما بها من الماء والأقوات، وكان في المدينة عين ماء لا يقوم بكفائتها، وكان يجري إليها الماء من عين خارجة عن البلد لم يعرف بها أحد أخفيت بكثرة البناء المحكم ولم يظهر لها علم، إلى أن خرج أحد من يعرفها من البنائين

<sup>1</sup> البكري، مصدر سابق، ص 72.

<sup>2</sup> ابن منكلي، مصدر سابق، ص 410.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 2/ 63.

<sup>4</sup> انظر الملحق رقم 15، ص 283.

<sup>5</sup> ابراهيم حركات، الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ع الثالث والرابع (عدد مزدوج)، 1978 المغرب، ص 133.

<sup>6</sup> مرمول كبرخال، مرجع سابق، 2/ 299.

<sup>7</sup> لم تكن هذه المرة الأولى التي يحضر المرينيون فيها خبراء مختصين في مناورة أهل المدن والتضييق عليها خلال حصرهم، إذ استعانوا خلال حصار تلمسان الطويل (698هـ-706هـ/1298-1306م) بالخبراء في مهاجمة الحصون وقد أرسلهم ملك بني الأحمر محمد الثالث (المخلوع) سنة 702هـ/1302م للسلطان المريني يوسف بن يعقوب وهو محاصر لتلمسان لتقديم الدعم التكتيكي لجيوشه المحاصرة. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/ 301.

المختصين بسلاطنتها الكاشف عنها حين بنائها فأظهرها للسلطان أبي الحسن وكشف عنها فقطعها عنهم وأبعدها منهم وصرفها إلى جهة أخرى<sup>1</sup>.

لم تمض سوى بضع سنوات من الحصار المذكور إلى أن استفاد الزيانيون من ظروفه ونمطية حرب الحصار التي تعتمد على حصر الموارد المائية، حيث استخدمت الجيوش الزيانية نفس التكتيك الحربي الذي استخدمه أبو الحسن المريني في حصاره لتلمسان، لحصار مغراوة على عهد الأميرين أبي ثابت وأبي سعيد بالجبل المطل على تنس فاتح سنة 752هـ/1351م<sup>2</sup>، فبعد أن تمهد لهما السبيل بإخضاع كل من مليانة والمدية وبرشك وشرشال والجزائر، "رجع [أبو ثابت] إلى مغراوة فحاصروهم بمقلهم الأول بعد أن انصرفت العرب إلى مشاتها فاشتد الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش، فانحطت دفعة واحدة من الجبل تطلب المورد، فأصابهم الدهش"<sup>3</sup>، واستطاع الأمير أبو ثابت أن يأخذ بمخنقهم، مما أدى بقائدهم على بن راشد إلى الفرار إلى تنس، فأحاط به أبو ثابت أيّما ثم دخلها عليه عنوة مما أدى به إلى استعجال المنيّة فذبح نفسه<sup>4</sup>.

والجدير بالذكر أنّ توظيف الماء في الاستراتيجيات الحربية واستغلاله في تسريع عملية إخضاع العدو والتعجيل باستسلامه لم يقتصر على الحروب البرية فقط، فقد استغلّ الإسبان خلال حصارهم للمرسى الكبير بقيادة دون ريمون دي كوردو افتقار المدينة إلى الماء وفراغ خزائنها مما اضطرّ أهلها إلى مغادرتها في 1 ربيع الأول 907هـ/14 سبتمبر 1501م، وخلال ذلك تقدّم أحد الفارين الذين تركهم البرتغاليون قبل الغزو الإسباني لقائد الحملة وأخبره "أنّ القائد حامي المرسى الكبير قد قتل بإحدى طلقات المدفع الأولى للهجوم، وأنّه لم يعد هناك ماء في البلدة وأنّ أهلها لا يستطيعون توفيره من خارج البلدة"<sup>5</sup>، فتوجّهوا إليها بعدما تركها أهلها لقمة صائغة في أيدي القائد الإسباني<sup>6</sup>.

1 ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002، ص 205/4.

2 تقابل غزته شهر فيفري 1351م.

3 ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 160/7.

4 المصدر نفسه، نفس الصفحة.

5 revue africaine, le numéro 52 de la revue, 1865, P341. Adrien. Berbrugger, Mers-el-kebir,<sup>5</sup>

## 2- الخندق<sup>1</sup>:

الخندق هو الوادي أو الحفير. وخندق حوله أي حفر خندقاً<sup>2</sup>، ويعتبر من بين أهم الأساليب الحربية الدفاعية والهجومية التي تتبناها الجيوش في المعارك والحروب<sup>3</sup>، ويكون ذلك بحفر خنادق حول المناطق التي أُحْكِمَ حصارها لتعليق حركة المحصورين وقطع آليات اتصالها بالمناطق المحيطة بها في حالة الهجوم<sup>4</sup>، أو أن تحفر الخنادق حول المدن كأسلوب دفاعي حتى تمنع تقدّم مشاة وفرسان العدو في المواجهات العسكرية المباشرة القصيرة الأمد. يظهر البعد الاستراتيجي للخندق عند ابن خلدون كأداة دفاعية تهدف إلى إقامة حاجز يحول دون زحف العدو في المعارك البرية في قوله: " وكان مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذرا من معرفة البيات والهجوم على المعسكر بالليل، لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف"<sup>5</sup>، وهو بذلك يؤثّر على أن الخندق باعتباره أداة دفاعية يقدم عاملاً محفزاً لنفسية الجند لما يوفره من تقليص لحظوظ المباغتة والالتحام الخاطف المباشر، كما أضاف السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني معايير أخرى لضمان فعالية الخندق عند ضرب الحصارات العسكرية واستخدامه كأداة تطويق للعدو في وصاياه لأبي تاشفين الأول، إذا قال له: " ثم تأخذ في البناء والتصويق عليه بكلّ وجه ترى أنّك تصل به إليه... ثم تدور بمعلقه الحفائر والمخادع التي تليق بالمحاصر... فبالضرورة تأخذه عنوة وتغلب عليه سطوة، ويُسلم لك المعقل بالاضطرار لشدة ما يلقي أهله من الحصار"<sup>6</sup>، وعليه فإنّ الخندق حسبه يجب أن يكون مخفوفاً بالحيل والمخاطر، وأشهر هذه الحيل حسب المصنّفات العسكرية هو إخفاء الخندق كأن يغطّى بالأوراق أو أن يستعمل كحائل بين المحاصر والمحصور وذلك بغمره بالماء<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> كلمة خندق هي كلمة فارسيّة معناها الحفير وأول من استعملها في العربيّة هو سلمان الفارسي الذي أشار عليه النبي صلى الله عليه وسلم بأن يحفر حول المدينة خندقاً يحميها من شرّ من يحاصرها سنة 5هـ/626م، وكان هذا الخندق يمتدّ من تل سلع ويمتدّ إلى الشمال الشرقي وجزء منه يمتدّ إلى الجنوب. أزهار هادي الفاضل ويزان ميسر الحامد، الجيش وتنظيماته في عصري الرسالة وصدر الإسلام، دار ألفا للوثائق، الجزائر، 2021، ص 100.

<sup>2</sup> ابن منظور، لسان العرب، مادة خندق، ص 1273.

<sup>3</sup> للتفصيل حول استخدامات الخنادق عند المسلمين في الوضعيات الهجومية والدفاعية انظر: أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987، 167/5.

<sup>4</sup> بوقاعدة بشير، مرجع سابق، ص 235.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 60-61.

<sup>6</sup> أبو حمو موسى، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 188.

<sup>7</sup> حول ما يجعل في الخندق لخندق العدو، أنظر: مبحث مركزية الماء في الظاهرة الحربية من هذه الدراسة.

ونظرا لأهمية استراتيجية الخنادق في الحرب فإن الشعراء وظّفوه في نظمهم للقصائد، إذ نجد شاعر لمتونة والأندلس أبو بكر الصيرفي (467-557هـ/1047-1161م) يوصي تاشفين بن علي ويذكره بأمر الحرب واتخاذ الخنادق بقوله:

يَا تَاشْفِينَ أَقِمِ لِحَيْشِكَ عَدْرَهُ بِاللَّيْلِ وَالْقَدْرِ الَّذِي لَا يَدْفَعُ  
خُنْدِيقَ عَلَيْنِكَ إِذَا ضَرَبْتَ مِحْلَةً سَبَبَانَ تَتَّبِعُ ظَافِرًا أَوْ تُتَّبَعُ<sup>1</sup>

يرى الباحث دهينة عطا الله أن استخدام الخنادق في المغرب الأوسط كأداة دفاعية يعود للقرن 6هـ/12م، ويذكر أنّ الجهة الجنوبية والشرقية أين تقل المنخفضات تم حفر أحد الخنادق التي يدعمها جدار مبني من الطين والرمل الكلس المدكوك بين لوحين من الخشب بحيث تشكل هذه المواد المخلوطة رهوصا عالية<sup>2</sup>، كما عرفت في الجهة الشمالية الغربية خندقا آخر يعرف بخندق "عين كسور" يقع بالقرب من باب القرمادين<sup>3</sup>، والمستفاد من نص ابن خلدون أنّ هذا الخندق الأول بالقرب من متشكاة الذي يلتف بالمدينة من الجهة الجنوبية والشرقية كان يمتد إلى غاية موقع باب الجياد، وهذا ما نستشقه من قوله أثناء تعرّضه لأخبار الشيخ أبي يوسف الصنهاجي إذ يقول "قبره ما بين الأسوار بالمرج خارج باب الجياد قرب الحفير".

استمر توظيف القوى المتصارعة في المغرب الأوسط لهذه الاستراتيجية في مراحل مختلفة من عمر الدولة الزيانية، وأهمّها مرحلة الحصار وما بعد الحصار الطويل الذي ضربه بني مرين على تلمسان سنة (698هـ-706هـ/1298-1306م)، حيث تميزت هذه الفترة بتعميق الخنادق من الطرفين، فمن جهة المرينيين نجد أن يوسف بن يعقوب عند بنائه للمدينة الحصن "المنصورة" في حصاره الطويل لتلمسان "أدار الأسوار سياجا على عمرائها كله، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى"<sup>4</sup>، وعلى شاكلته عمد أبو الحسن المريني في حصاره لتلمسان سنة 735هـ/1334م إلى تعميق مهوى الخنادق عند شروعه في الحصار، لردّ محاولات أبي تاشفين الأوّل رفقة جيوشه لفض هذا الحصار، حيث "ولّوا الأدبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتمافتوا على ردمه، فكان الهالك يومئذ بالزّدم أكثر من الهالك بالقتل"<sup>5</sup>.

من جهتهم اهتمّ سلاطين بني زيّان بحفر الخنادق، فمن جملة المآثر التي خصّ بها يحيى بن خلدون السلطان الزياني أبا حمّو موسى الأول اهتمامه بتدعيم الجبهة الدفاعية بحفر الخنادق وتعميقها، وينجلي ذلك في وصفه لفترة حكمه بقوله: "سدّد الأهوار وشيد الأسوار وأقعر الخنادق وملاّ المطامير والصناديق"<sup>6</sup>، كما أن أبا حمّو

<sup>1</sup> ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، 2/ 62.

<sup>2</sup> دهينة عطا الله، الحصار الطويل، من كتاب الجزائر في التاريخ، مرجع سابق، ص 370.

<sup>3</sup> عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، مرجع سابق، 1/ 114.

<sup>4</sup> عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/ 292.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، 7/ 148.

<sup>6</sup> يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، 1/ 235.



الثاني قام في حركته سنة 769هـ/1367م لمحاربة مخالفيه في المغرب الأوسط بترميم أسوار مليانة "وتعميق خندقها"<sup>1</sup>.

وجدير بالذكر أنّ استراتيجية الدفاع والتحصين من خلال إقامة الخنادق كانت تخضع للبيئة التضاريسية الحاضنة للمدن، فقد استنكف القادة العسكريون في بعض مدن المغرب الأوسط عن حفر الخنادق بما نظرا لشدة انحدارها كوهران التي "لا تحيط الخنادق بأسوارها من جميع الجهات لأنها واقعة على منحدر"<sup>2</sup>.

3- الكمين:

هو أسلوب هجومي يعتمد على التّرصّد والمباغتة ومن ثم شن هجوم منسق على العدو<sup>3</sup>، عن طريق إشارة يتعارف عليها أفراد الجيش كقرع الطبول<sup>4</sup>، وهو ما يمكن اعتباره مؤشرا على الشروع في تنفيذ الكمين<sup>5</sup>، ويرى صاحب تحفة الأنفس أنّ " من أعظم المكائد في الحرب الكمين، ولا يحصى كثرة كم من عسكر استبيحت بيضته وفلّ غوبه بالكمين. وذلك أنّ الفارس لا يزال على جهة من الدّفاع وحمى الذمار حتّى يلتفت فلا يرى وراءه بندا منشورا ولا يسمع ضرب الطبل، فحينئذ همته خلاص نفسه"<sup>6</sup>.

ركّز العديد من المنظرين لاستراتيجيات الحرب في العصر الوسيط على أهمية الكمين، فعلى غرار أبي بكر الطرطوشي الذي أشاد بفاعليته<sup>7</sup>، تعدّى الصّيري ذلك إلى مواجهة الكمين بالكمين المضاد كما دعا إلى الاحتياط واليقظة والقدرة على التنبؤ مما قد يحدثه الكمناء من هجومات تقلب موازين المعركة<sup>8</sup>.

كما عرف العهد الزياني بعض المنظرين لحروب الحيل والخداع التي تدخل في إطار استراتيجية الكمين، فابن خلدون المنظر لها في المقدمة - والمعاصر لدولة بني عبد الواد- يذهب إلى القول: " لا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعدد، وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق ... ومن أمور خفية، وهي إما حيل البشر وخدعهم في الإرجاف والتشانيع ... وفي الكمون في الغياض ومطمئن

<sup>1</sup> يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، 193/2.

<sup>2</sup> مارمول كربخال، إفريقيا، مرجع سابق، ص 329.

<sup>3</sup> خميسي، بولعراس، فن الحرب عند المرابطين والموحدين، مرجع سابق، ص 88.

<sup>4</sup> يعتبر قرع الطبل بمثابة إشارة في الشروع لتفعيل الكمين من طرف الكمناء وقد حدث في العهد الزياني ذلك إذ قرعت الطبول في معركة المولى أبي يعقوب على إثر ثورة أهل الجزائر سنة 760هـ. انظر: مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 82.

<sup>5</sup> شهاب الدين أحمد النوري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، منشورات محمد علي بيضو، دار الكتب العلمية، لبنان، 163/24.

<sup>6</sup> ابن هذيل، تحفة الأنفس، مصدر سابق، ص 238.

<sup>7</sup> الطرطوشي، سراج الملوك، مصدر سابق، ص 707.

<sup>8</sup> خميسي بولعراس، النخب العسكرية بالمغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص 84.

الأرض<sup>1</sup>، وهي إشارة لأحد طرق نصب الكمين التي تعتمد على التّردّد في الأماكن التي تكون الرؤية فيها ضحلة، أو تلك التي تعتمد على التّردّد عن طريق التّواري في الأرض، كما أرخ لاستخدام الكمين خلال حالة الحرب في عبه في العديد من المواضع<sup>2</sup>، علاوة على ذلك فإنّ تجربة أبي حمو الذي حضر حروب الدّولة الزيانية مشاركا ونظّر لها كاتباً في مؤلّفه واسطة السلوك أكسبته حسناً نظرياً لأهمية نصب الكمائن والتّردّد<sup>3</sup> في الحروب والمواجهات التي تكون فيها القوى غير متكافئة، إذ يقول في وصيته لابن تاشفين الثاني "اعلم يا بني إذا كان العدو أقوى منك فيجب عليك أن تدفعه بأنواع المحاولات ... ولا يجب أن تدافعه بنفسك، لأنه ليس من دها بك إلا من كيسك"<sup>4</sup> كما شدّد على الخداع كعنصر بديل للصّدام العسكريّ المباشر بقوله: "... وتأخذ بضروب من المخادعات لا بالأعطار ولا بالمصانعات، فرب حيلة أنفع من قبيلة"<sup>5</sup>.

وبعيداً عن استحضار التّنظيرات وأخذاً بمجريات حروب الكمائن في الدّولة الزيانية، فإنّنا نرصد العديد من الأمثلة على ذلك، ومنها الهجومات التي شتّها يغمراسن على محلات أبي زكريا الحفصي بعد هجوم هذا الأخير على تلمسان سنة 640هـ/1241م، إذ نصب محلات أبي زكريا الكمائن في الليل "وسرّح يغمراسن الغارات في نواحي العسكر فاخطفتوا الناس"<sup>6</sup> ومن بينهم عناصر من الجيش الحفصي.

كما أن يغمراسن شهد نصب كمين آخر أكثر إحكاماً لسابقه، للخليفة الموحد السعيد علي بن المأمون بعد أن غدا السعيد مشرقاً بجيوشه إلى بني مرين وتلمسان سنة 645هـ/1247م، حيث أوفد يغمراسن وزيره عبدون ليؤدي الطاعة للسعيد الموحد بينما توارى هو عن الأنظار متحصناً يحصن تمزيذكت قبالة وجدة، وألّفى لوزيره بأن يستعذر للسعيد عن قدومه، غير أنّ يغمراسن كان يتردّد به مع كمنائه فعندما ركب السعيد "مهاجراً على حين غفلة من الناس ... بصر به فارس من القوم يعرف بيوسف بن عبد المومن الشيطان، كان أسفل الجبل للاحتراس وقريباً منه يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر فانقضوا عليه من بعض الشعاب، وطعنه يوسف فأكبه عن فرسه"<sup>7</sup>. وهذه الشّواهد تؤكّد على استخدام الزيانيين للكمين، كما أنّها توثق شهادة

<sup>1</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 63/2-64.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 140/2، 509، 325/3، 507، 621، 407/4، 370/5، 347/7.

<sup>3</sup> يعتبر التّردّد خطوة أساسية يقوم عليها الكمين ويتطلب من الكمناء الصبر والجلد كما يتطلب منهم الإحاطة الدقيقة بالمسالك تجنّباً لأي خلل متوقّع قد يقلب موازين المعركة. أبو حمو موسى، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 184.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 171-172.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 172.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 108/7.

<sup>7</sup> المصدر نفسه، ص 110.

ابن أبي زرع حول اعتماد يغمراسن لاستراتيجية الكمين إذ يقول عنه: "إن يغمراسن رحمه الله كان من الفرسان لا تؤمن غوائله، ولا تنسى في الحروب مكائده"<sup>1</sup>.

ومما يبدو فإن حنكة السلطان أبو حمّو موسى الثاني في استخدام الكمين ظهرت في العديد من المواقف الحربية، حيث استخدم هذه الاستراتيجية عند هجومه على تلمسان لاسترجاع ملك أجداده وإحياء دولة بني زيّان سنة 760هـ/1358م لدعم صفوف الجيوش المتوجهة لقتال المرينيين بالجانب الغربي من مدينة تلمسان، بعد أن دلّه نظراؤه على عورات البلد ومخادعه<sup>2</sup>. كما أظهر رفقة قواده الجلد في مقاتلة القوى المناوئة له عند مقاتلتهم للجيوش الزيانية باستراتيجية الترصّد ونصب الكمين، ففي حصاره للجزائر رفقة وزيره عبد الله بن مسلم أواخر سنة 760هـ/1358م " كان المقاتلون يخرجون من المخادع ويقاتلون في المواقع والوزير عبد الله بن مسلم في كلّ يوم يرهقهم وبالقتال يروّعهم ويقلقهم. يشدّ عليهم ليلا ونهارا، ويكرّ عليهم عشيا وإبكارا إلى أن داخل الناس الفشل، وذعنوا إلى الكسل لما طال العمل، وكادوا أن يسلموا البلاد"<sup>3</sup>.

#### 4- استراتيجية الكرّ والفرّ:

الكرّ لغة بمعنى الرجوع، وكرّ؛ رجع على العدو<sup>4</sup>، والفرّ والفرار: الرّوغان والهرب<sup>5</sup>، وأسلوب الكرّ والفرّ هو أسلوب مواجهة حربية يتمّ بهجوم المقاتلين واشتباكهم مع العدو ثمّ الفرار بنوع من المراوغة مع تكرار هذه العملية لعدّة مرات<sup>6</sup> قصد إرهاق العدو وتشتيت صفوفه. يعتمد أهل الكرّ والفرّ على أسلوب محدد يعتمد على عامل التناوب بين الهجوم والدفاع ذلك أنّ مذاهب الجند في تطبيقها خلال الحرب يقوم على " ضرب المصاف وراء عساكرهم من الجمادات والحيوانات العجم، فيتخذونها ملجأ للخيلة في كرّهم وفرّهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب"<sup>7</sup>، إلّا أنّ ابن خلدون يصرّح بعدم فاعليتهما في الحرب إلّا بعد إحكام الجبهة الدفاعية عند الانقلاب من حالة الكرّ إلى حالة الفرّ لتقوم هذه الجبهة مقام الحاجز الدفاعي، وتشكّل نقطة ارتكاز لتنفيذ هجوم منسق يعتمد على استراتيجية الرّحف، وهذا ما نتحسّسه في قوله: " وأما قتال الكرّ والفرّ، فليس فيه من الشّدة والأمن من

<sup>1</sup> ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص 132.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 24/2.

<sup>3</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 83.

<sup>4</sup> ابن منظور، لسان العرب، ص 3851.

<sup>5</sup> نفس المصدر، ص 3375.

<sup>6</sup> بوزيان الدرارجي، نظم الحكم في الدولة الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 264. خالد بلعربي، الدولة

الزيانية في عهد يغمراسن، دار الأملعية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 215.

<sup>7</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 58/2.

الهزيمة ما في قتال الزحف، إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا يلجؤون إليه في الكرّ والفرّ، ويقوم لهم مقام قتال الزحف"<sup>1</sup>.

اشتهر هذا الأسلوب عند العرب لافتراءهم بالبدواة والترحال، وقد أشاد ابن خلدون -المعاصر للعهد الزياني- بهذا النوع من القتال كما نقل لنا شهادة في غاية الأهمية عن الوضع الذي آلت إليه المواجهات العسكرية بين أمم عصره بعد هجرانهم لاستراتيجية الكرّ والفرّ في الحرب، وقد أرجع سبب هزائم الجيوش لعكوفهم عنها، وفي هذا الصدد يقول: "وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك [أي تقاتل باستراتيجية الكرّ والفرّ] في حروبها وتراه أوثق من الجولة وآمن من الغرة والهزيمة. وهو أمر مشاهد. وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظّهر الحامل للأثقال والفساسيط يجعلونها ساقية من خلفهم ... فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم، مستشعرة للفرار في المواقف"<sup>2</sup>.

تقدّم شهادة ابن خلدون تفسيراً موضوعياً لندرة النصوص التي غطّت وقائع الحرب التي فُعِلت فيها استراتيجية الكرّ والفرّ في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، لكن ذلك لم يكن مدعاةً لإقصائها، إذ تستحضر بعض النصوص في شذراتها مكنون طبيعة الحرب القائمة على استراتيجية الكرّ والفرّ، كما توضّح مدى اعتماد سلاطين بني زيان عليها وإقامة أماكن مخصصة للتدرب عليها، ومن هذه المؤشرات ما يلي:

- البيت الشعري الذي يصف فيه أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي ملعب الخيل بتلمسان، استعراض الفرسان في موكب العروس ابنة المولى أبي تاشفين بعد عودتها من المغرب<sup>3</sup> لتدريبات الكرّ والفرّ في ذلك الاستعراض، وقد جاء فيه:

وَمَلْعَبِ الْخَيْلِ<sup>4</sup> الْفَيْسِيحِ بِجَالِهِ تَرَهُ جُفُونُكَ فِي الْعِتَاقِ الْخَيْلِ  
فِيحَلْبَةُ الْأَفْرَاسِ كُلَّ عَشِيَّةٍ لَعِبٌ بِدَاكَ الْمَلْعَبِ الْمِسْتَهْلِ  
هَذَا يَكْرٍ وَذَا يَفْرُ وَيَنْثِنِي عَطْفًا عَلَى الثَّانِي عِنَانَ الْأَوَّلِ  
عُقْبَانُ خَيْلٍ فَوْقَهَا فُرْسَانُهَا كَالْأَسَدِ تَنْقُضُ انْقِضَاضَ الْأَجْدَلِ  
فُرْسَانُ عَبْدِ الْوَادِ آسَادُ الْوَعَى أَهْلُ النَّدَى وَالشَّرْفِ الْعَلِ<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 57.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 59.

<sup>3</sup> مجهول زهر البستان، مصدر سابق، ص 225.

<sup>4</sup> الملعب أو ملعب الخيل: يقع بالجهة الجنوبية ما بين برج كيس خارج باب الجياد، مروراً أمام قلعة ابن الجاهل إلى مقربة من مصلى المدينة، وهو مكان الفرجة للعامّة والخاصة على ألعاب الفروسية. سيدي أحمد نقادي، خطة العمران لمدينة تلمسان ودلالاتها الاجتماعية، مرجع سابق، ص 185.

<sup>5</sup> مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، المصدر السابق، ص 230-231.

وقد عرف المرينيون أيضا هذه المراكز لتدريب الجند، حيث يجلس السلطان ويقوم الجند باستعراض قدراتهم العسكرية أمامه بأن يتطاردوا أمامه ويتطاعنوا ويتدربون على المبارزة "وتمثلُ الحرب أمامه لديه، وتقام صفوفها على سبيل التمرين حتى كأنها يوم الحرب حقيقة"<sup>1</sup>، بالإضافة إلى استعراض قدرات الجند للزّمي في حضرته "فلا تلقى منهم شريفا ولا مشروفا ولا كبيرا ولا صغيرا إلا وله بصر بالرمي وتقدم فيه"<sup>2</sup>، ومن الطبيعي أن تكون هذه التّميّية في التّدرّيات والاستعراضات أحد أوجه الحرب التي جمعت الطرف الزياني والمريني في العديد من المعارك خاصة وأن القرنين 7 و8هـ/13 و14 كانا قرني الحروب بين الدولتين<sup>3</sup>.

- احتكم السلطان أبو حمو موسى الثاني إلى القتال بنظام الكرّ والفرّ عند مواجهة عدو يفوقه في القوة إذ يرى أن هذا الأسلوب يساهم في تشتيت العدو واضطرابه، وقد ألحّ على تلقين ابنه هذه الاستراتيجية بقوله: "... فإذا صمّم العدو لك قاصدا، ورحل إليك مواجها جاهدا فترحل مرحلة من أمامه تحل بها عقدة اعتزامه فلا يزال كذلك ترصده في كل المسالك... يا بني فإن لم يرحل العدو عن معقلك الذي نزله، ولم يرد إلا نكايتك حين قدمت له فينبغي لك أن تتحرر من حيلك وحماتك وأهل نصرتك وكفاتك وتغير على أطراف محلته"<sup>4</sup>.

- يمكن أيضا تفسير الأخبار الواردة في بعض المتون حول تنقل سلاطين بني زيان أثناء الحرب بمحلاتهم<sup>5</sup> قبالة منطقة الحرب، على أنه مؤشّر لتطبيق استراتيجية الكرّ والفرّ، باعتبار أنّ المحلة مركز دفاع يفرّ إليه الجيش خلال إغارة العدو عليه، وقد سبق ذكر خروج أبي حمو للصحراء مع محلته وجيوشه في موضع سابق<sup>6</sup>، كما أنّ كاتبه يؤكّد على ذلك بقوله: "... وبعد خروجه بثلاثة أيام أخرج أبو حمو محلته وعزم على الخروج في إثره

<sup>1</sup> القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، 205/5

<sup>2</sup> أبو عبد الله السبتي، اختصار الأخبار عما كان بسبته من سني الآثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط2، 1983، ص47.

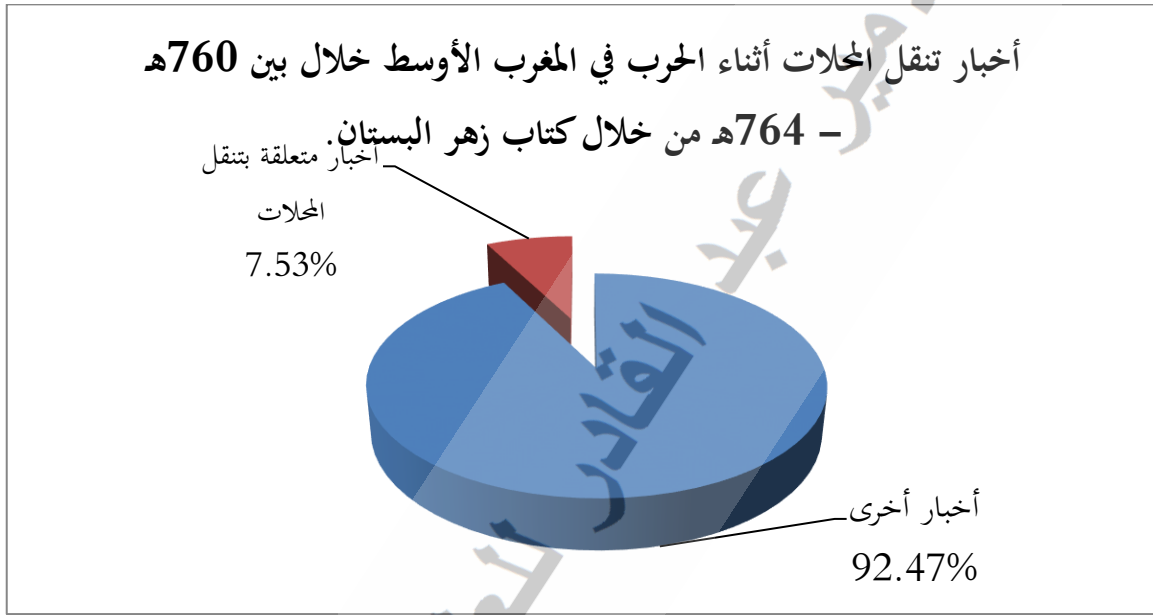
<sup>3</sup> محمد القبلي، مراجعات حول الثقافة والمجتمع بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987، ص82-83. عبد الله شريط ومحمد الميلي، الجزائر في مرنة التاريخ، طبع ونشر مكتبة البعث، قسنطينة، 1965، ص100.

<sup>4</sup> أبو حمو الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص184.

<sup>5</sup> المحلّة: هي نظام ترحيل شبه كلي فيتّضح للرائي خلال رؤيته لمحلّة أنّه نظام ترحيل جماعي للنساء والأطفال والجند، وعليه فقد كان يسير الجند في العهد الزياني ويتنقلون كمدينة متحرّكة أو عاصمة متنقّلة، وهذه الظاهرة التي سجّلت حضورها في دولة بني عبد الواد استمرت في المغرب الأوسط حتى عهد الأمير عبد القادر فسمّيت بالزّماله، هذه الأخيرة التي تشكّل امتدادا لما يعرف بالمحلّة في العهد الزياني، وهي عاصمة متنقّلة بما حوت وحملت. عبد العزيز لعرج، المنصورة الزيانية بتلمسان. عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة المرينيّة بتلمسان، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، ط2، 2011، ص235.

<sup>6</sup> أنظر: الفصل الأول، استراتيجية الاستطراد.

غاية الاعتزام، وخرج إلى تيزي<sup>1</sup> وسكنها قام بها شهرا وتحول للرملية، فبنى برجاً عظيماً لسكنائه حاضراً بادياً مقيماً مسافراً<sup>2</sup>، فضلاً عن ورود العديد من الأخبار على تنقل المحلات في معارك بني زيان وإردافها بعبارات مثل: "ثم دفعوا بجملتهم دفعة واحدة، فهزموهم هزيمة شنيعة غامرة"<sup>3</sup> مما يوحي بطابع الهجوم بنظام الكرّ، وفيما يلي مسح لتنقلات المحلات الحربيّة في المغرب الأوسط الزياني بين سنتي 760-764هـ/1358-1362 من كتاب زهر البستان الذي سجلنا من خلاله ثلاثين تنقلاً<sup>4</sup>:



يمكن أن نستنتج من خلال المسح السابق أنّ قتال الكرّ والفرّ وإن غيَّبه ابن خلدون على المستوى الميداني في ساحات الحرب خلال عصره، إلا أن المحلات سجّلت حضورها كقوّة متنقّلة مع الجيش الزياني بين سنوات 760-764هـ/1358-1364م بصفة ملحوظة، مع بعض المؤشرات الدالة على تحلل القتال بنظام المحلّات لاستخدام أسلوب الكرّ والفرّ، وهذا ما يدعو إلى التساؤل عن جدوى هذه تنقلات المحلّات الزيانيّة خلال الحروب والمعارك؟

إن ضروب الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في تحليل نمط قتال الجيش الزياني، وهو حسبما يبيده ابن خلدون نمط اعتمد على نظام المحلّة كعامل مساعد لحروب الكرّ والفرّ حيث تنطلق الجيوش منها لشنّ هجمات

<sup>1</sup> في النسخة التي حققها بوزيان الدراجي وردت باسم "تيزي"، ص 361.

<sup>2</sup> مجهول، زهر البستان، ص 228.

<sup>3</sup> المصدر نفسه.

<sup>4</sup> مجهول، زهر البستان، تح بوزيان الدراجي، ص 35-61-80-82-111-149-150-156-309-106-116-

118-199-313-335-16-361-124-137-141-202-203-212-219-307-356-122-

357.



خاطفة ثم ترجع إليها، والملاحظ أنّ اعتماد نظام المحلّة بالقرب من مكان وقوع المعركة أدى إلى إضعاف الجبهة الدفاعية باعتبارها عاملاً معطّلاً لتحركات السريعة عند الانتقال بين حالي الكرّ والفرّ ومدعاة للهزيمة عند فرار الجيوش وملاحقة العدو لها، وهذا ما نلمسه في قوله " وقد أغفلته [أي قتال الكرّ والفرّ] الدّول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظّهر الحامل للأثقال والفساسيط يجعلونها ساقية من خلفهم ... فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم".

لقد أدّت هذه الثّغرة عند ضرب المحلات والقتال باستراتيجية الكرّ والفرّ إلى الاستعانة بجند من جنسيّات أخرى تعودوا على الثبات والقتال بنظام الصّف ليروموا خطّ الدّفاع أينما ضربت المحلّة؛ وأيّ عجز محتمل يطرأ على الجيش الزياني عند قتالهم بأسلوب الكرّ والفرّ يرومه أهل الزحف عند ملاحقة العدو والجيش في حالة الإجفال، وغير ذلك من التكتيكات الحربيّة بحسب ما تتطلبه طبيعة المعركة وردود فعل العدو أثناء المواجهة، فقد جاء عند ابن خلدون: "... فاحتاج ملوك المغرب جندا من هذه الأمة المعوذة على الثبات في الزحف، وهم الإفرنج، ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها. هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكر. وإنما استحقوا ذلك للضرورة التي أريناها من خوف الإجفال عن مصاف السلطان والفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف"<sup>1</sup>.

#### 5- الزحف والقتال باستراتيجية الصّف<sup>2</sup>:

هذا النوع من القتال اختصّ به الأعاجم<sup>3</sup>، " ترتّب فيه الصّفوف وتسوّى كما تسوّى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدما"<sup>4</sup> كتلة واحدة، وقد أنزل الله في محكم تنزيله سورة الصّف وأمر المسلمين في قتالهم بالثبات إذ قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرصُوفٌ"<sup>5</sup>، وعليه فقد شدّد العلماء والمنظّرون عند جهاد المسلمين لغيرهم بأن يقاتلوا بهذا النّظام، ومنهم أبو يحيى زكريا

<sup>1</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 60/2.

<sup>2</sup> يكون القتال بنظام الصّف بترتيب المقاتلين بصفوف متساوية متعاقبة والصّف الأول هم المسلمون المزودون بالرّماح الطويلة، يتمركز خلفهم الرّجالون ثمّ النبّالون، ففي معركة القادسيّة مثلاً كان عدد الصّفوف ثلاثة حيث كتب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن وقاص أن يقاتل بنظام الصّف هذا، وتختلف أشكال هذه الصّفوف بين الصّف المستوي الذي يكون فيه الجناحان والقلب في خطّ مستقيم، والصّف الهلالي الذي يكون خارج الجناحين داخل الصّدر وهو أضعف للجناحين وأوثق للقلب، والصّف المعطوف الدّاخِل الجناحين الخارج القلب وهو أضعف للقلب وأقوى للجناحين. الهرثمي، مختصر سيسة الحروب، مصدر سبق، ص ص 34، 35.

<sup>3</sup> ومنهم الفرنج واختيروا لهذا الضرب من ضروب الحرب لتعودهم على الثبات في المعارك والحروب. المصدر نفسه، 60/2.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 56/2.

<sup>5</sup> سورة الصّف، الآية 4.

التلمساني الذي يقول: "وللجهاد فرائض يجب الوفاء بها وهي الطاعة للإمام وترك الفلول والوفاء بالإيمان والثبات عند الرّحف وأن لا يفترّ واحد من اثنين"<sup>1</sup>.

يتفق ابن خلدون مع أبي حمو في كون استراتيجية الصّف تؤمنُ عامل الإرهاب التّفسي للعدوّ، إذ يرى الأول أنّ القتال بتكتيك الصّف " أثبت عن المصاع وأصدق في القتال وأرهب للعدوّ"<sup>2</sup>، بينما يركّز الثاني على عامل التّرهيب في الحرب عن طريق اتخاذ استراتيجية الرّحف في الحرب بقوله: " يا بني وإذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالجملة ولتأخذ في أمرك بالتأني والمهلة فإنّه لا بدّ لكلّ دفعة من رجعة، ولكلّ كره من رفعة، ليكن انتهاضك إلى عدوك زحفاً، فإنك ترهبه خوفاً ورجفاً"<sup>3</sup>، وقد وصفت أحد المصنّفات العسكريّة استراتيجية القتال بنظام الصّف بأنّها أحسن استراتيجية يمكن للجيش القتال بها وأرجى تدبير يفعله الجيش في مقاتلة عدوّه<sup>4</sup>. تعددت المواجهات المباشرة التي خاضت فيها الجيوش الزيانية حروبها بنظام الصّف، فقد كان " لا يعدو الفارس منهم الفارس، ولا يسبق السنان السنان، كأنما وضعوا على متن خط مستقيم"<sup>5</sup>، ولا يكاد مصدر يغفل ذلك، وهذا ما يوضحه المدرّج التكراري لتعداد الحروب المباشرة التي وُظّفت في كلّ من كتاب العبر<sup>6</sup> وزهر البستان<sup>7</sup> ونظم الدر والعقيان<sup>8</sup> وبغية الرواد<sup>9</sup> والذخيرة السنية<sup>10</sup> والأنيس المطرب<sup>11</sup>:

<sup>1</sup> أبو زكريا يحيى التلمساني، اللّامع في الفقه، التّاسخ: عمر بن محمد عمر الحسني، تاريخ التّسخ 894هـ، مخطوط الأزهر الشّريف، رقم: 314856، مصر، و16و.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، 2/ 56

<sup>3</sup> أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مصدر سابق، ص 215.

<sup>4</sup> الطرطوشي، سراج الملوك، مصدر سابق، ص 698.

<sup>5</sup> يحيى بن خلدون، بغية الزّواد مصدر سابق، 2/ 25.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، 6/ 435، 458، 550. 7/ 138، 161، 203، 204، 309، 331، 362، 372، 439.

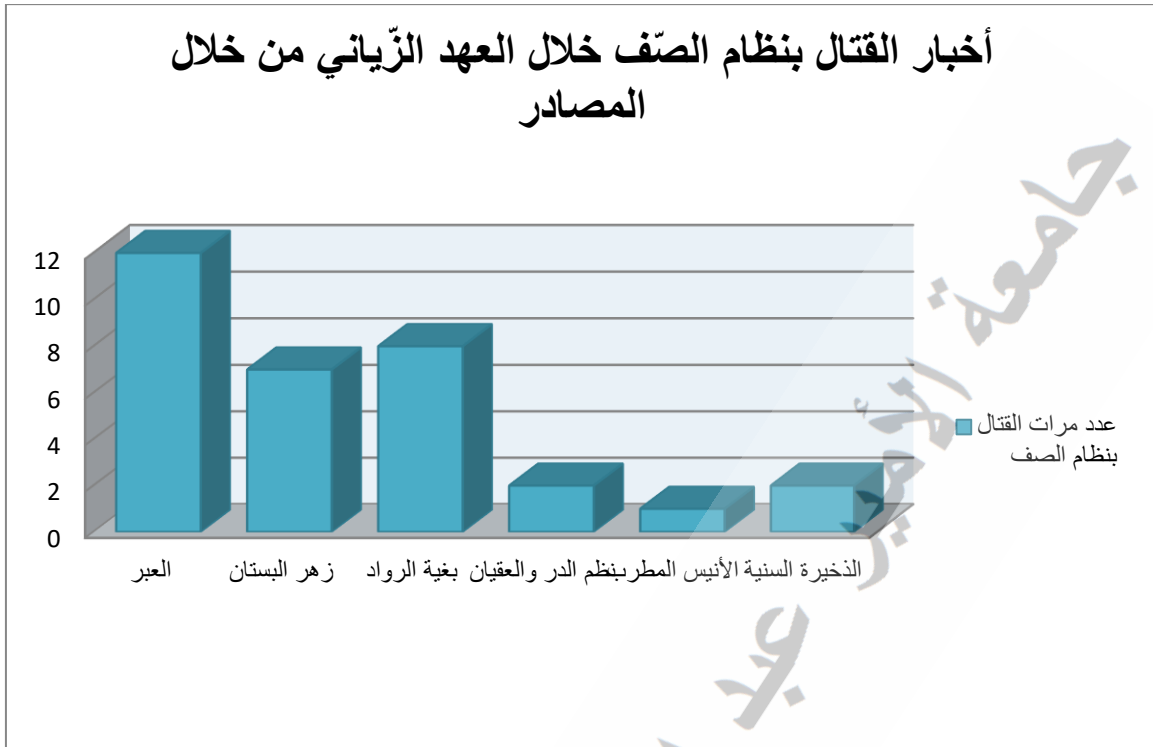
<sup>7</sup> مجهول، زهر البستان، تح: بوزيان الدراجي، ص 38، 82-83، 98، 100، 105، 106، 137.

<sup>8</sup> التنسي، تاريخ ملوك بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، ص 113-119.

<sup>9</sup> يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، تح: عبد الحميد حاجيات، 1/ 264. المصدر نفسه، تح: بوزيان الدراجي، 2/ 73، 74، 88، 320، 389، 357، 382.

<sup>10</sup> ابن ابي زرع، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص 115، 139

<sup>11</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق ص 305.



نلاحظ من خلال المدوّج السّابق أنّ المصادر سجلت حضور المواجهات المباشرة بنظام تشكيل الصّفوف والرّحف بشكل لافت مقارنة مع الاستراتيجيّات الأخرى، وعلى الرّغم من أنّ بعض هذه الأقلام كانت تخضع لولاء البلاط والغرض من تأليفها لمصنّفاتهم هو إحياء مناقب السّلطان وشمائله في الإطار التّراتبي الأوّل عند تأليفهم لمصنّفاتهم، إلّا أنّ ترشيحها عضد لنا العديد من الأخبار الدّالة على استخدام هذه الاستراتيجية في مواجهات الزيانيين العسكريّة، وعليه فإنّ التّقديرات المقدّمة في هذا المدوّج لا تعكس بدقّة عدد مشاركات الجيش الزياني في الحروب وقتاله بنظام الصّف، وقد يكون العدد أكبر بكثير ممّا تقدّمه هذه المتون نظرا لطغيان التّزعة الانتقائيّة في سرد أخبار السّلطان وما تخلّته بعض المواقف التي تتقاطع مع هذا المبحث التّكتيكي.

#### 6- الاستطراد:

الاستطراد هو استراتيجية حربيّة تعتمد على استظهار الهزيمة أمام العدوّ والانسحاب، ثمّ الانقلاب بشكل منسّق وفجائي عليه، وهذا ما نلمسه في تعريف ابن منظور لمادة "طرد" إذ يعرفه بقوله: " والفارس يستطرد ليحمل عليه قرنه ثم يكر عليه، وذلك أنه يتحيز في استطرده إلى فئته وهو ينتهز الفرصة لمطاردته"<sup>1</sup>، بناءً على ذلك فإن أساليب المواجهة تختلف حسب إيقاع الحرب بين حالتي الثبات والاستطراد وهو ما أشار إليه صاحب كتاب مختصر سياسة الحروب حيث عبر عن هذه التلازمية بقوله: " إن استطرد العدو لكم وأرهجوا، فلا تحملوا عليهم حتى يسكن الرج ويثبتوا لكم .... وإن ثبت لكم العدو بعد استطرادهم، فليتقدم صاحب

<sup>1</sup> ابن منظور، لسان العرب، مادة "طرد"، ص 2652.

اللواء وتحمل الخيل المنتخبة، وشدوا في وجوههم من كل ناحية"<sup>1</sup>، وحسب المصنّفات العسكرية فإنّ الاستطرد من باب السياسة في الحرب ذلك أنّ "الفرار في وقته ظفر، وأنّ القتال في غير مكانه عناء"<sup>2</sup>.

تعتبر استراتيجية الاستطرد من بين أهم الاستراتيجيات التي أثبتت فاعليتها في العهد الزياني، ولا نبالغ إذا ما رجّحنا القول أنّها كانت الفيصل في سقوط دولة بحجم دولة الموحدين -على غرار التفسيرات العامة لمخرجات معركة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م- وموت آخر خلفائها أبي دبوس على يد المرينيين، فبعد معركة وادي تلاغ الذي عقد فيها أبو دبوس حلفا مع يغمراسن سنة 666هـ/1267م وانهمز فيها هذا الحلف، اشتدّ ساعد يعقوب بن عبد الحق وكثّر هجماته على أبي دبوس، فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة وألبوا أبي دبوس لمواجهة بني مرين وعاتبوه على عكوفه عن مجابتهم، فتحرك بجيشه نحو السلطان يعقوب فلما سمع يعقوب بخروجه "كّر نحو المغرب راجعا حيلة منه أن يتبعه فيبعده عن مراكش فيتمكن من قتاله، فسمع أبو دبوس برجوعه فطمع فيه وظنّ أنّ رجوعه إنما هو خوف منه فاتّبعه وكان إذا ارتحل أمير المسلمين يعقوب من موضع نزل هو فيه، فلم يزل لأثره إلى أن نزل بجيشه وادي غفو، فكر أمير المسلمين يعقوب راجعا في وجهه"<sup>3</sup> وأسفر ذلك عن هزيمة جيش الموحدين يوم الأحد 12 محرم 668هـ/11 سبتمبر 1269م ومقتل أبي دبوس الذي طيف برأسه في فاس، فكان ذلك مؤذنا بزوال دولة الموحدين.

من جهتهم الزيانيون لم يكونوا بمنأى عن هذه الاستراتيجية والمتبع لتاريخهم يدرك جليًا حضورها على المستويين التنظيري والتطبيقي، حيث أنّ السلطان الزياني أبا حمو الثاني غطّى في كتابه هذه المناحي بدقة متناهية، فعلى مستوى الشقّ التنظيري يرجع أبو حمو استراتيجية الاستطرد خلال المعركة إلى سببين رئيسيين هما؛ الدخول في معركة غير متكافئة بحيث يكون جيش العدو أقوى من جيش الخصم<sup>4</sup>، أمّا السبب الآخر فيرجع إلى تفادي إطباق العدو للحصار وإحكامه على الخصم، فعند قدوم العدو بجيشه الوافرة فإنه يترك بلاده خاوية فيقوم الخصم بتحسين معقله أشدّ تحصين ليضيق بذلك جهد العدو ويشغله لأطول فترة ممكنة في فتحه لهذا المعقل، وبالموازاة مع ذلك يترك الخصم بلاده خالية عنوة ويتوجّه خفية إلى أرض العدو المعزولة والمشغول أهلها بفتح معقل العدو فيقوم بتخريبها، ويوضّح أبو حمو أثر هذه الحيلة لابنه على العدو بقوله: "... فإنه إذا سمع العدو أنك قد أوقعت في بلاده الشتات وسلبت عليه الغارات مرضت نفسه لذلك، وأيقن أنّه واقع في المهالك وساءت ظنون أتباعه من القبائل ... فيصرون عليه لا إليه ومتأخرين عنه وإن كانوا بين يديه فيرجع العدو ناكصا

<sup>1</sup> الهرثمي صاحب المأمون، مختصر سياسة الحروب، تح: عبد الرؤوف عوز مراجعة محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر، [د.ت] ص45.

<sup>2</sup> المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مصدر سابق، ص 63.

<sup>3</sup> ابن أبي زرع، الذخيرة السنينة، مصدر سابق، ص 117.

<sup>4</sup> أبو حمو موسى، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص178.

على أعقابها، خاسرا في مجيئه وذهابه"<sup>1</sup>، وكنماذج انتقائية استدلالية على تطبيق هذه التنظيرات التي تخصّ استراتيجيّة الاستطرد في الحروب الزيانية، يمكن استحضار المواقف الحربية التالية:

بعد أن استولى السلطان المريني أبو سالم إبراهيم بن علي (760-762هـ/1358-1360م) على ملك فاس والمغرب قام بصرف وزير الدولة المرينية الحسن بن عمر الفودودي وعقد له على ملك مراكش سنة 760هـ/1358م خوفاً منه لأي انقلاب ضده، أو تحسبا لعقده لحلف مع أبو حمو الثاني مما قد يكلفه مكانته، خاصة بعدما ثبت أنّ الحسن بن عمر الفودودي اغتال السلطان أبا عنان وقتله خنقا قبل ذلك<sup>2</sup>، مما أدى بالحسن إلى الخروج من مراكش إلى تادلة وحشد جموعه من عرب جشم وإعلانه العصيان والخروج عن السّلطة المركزية المرينية<sup>3</sup>.

في خضم هذه التوترات وجّه بنو مرين جيشا مكون من ستّة آلاف فارس نحو تلمسان فقترّر السلطان أبو حمو الثاني استظهارا للضعف وخرج إلى الصّحراء، وقد جاء على لسان أبي حمو "وقدّمنا الخيرة في الدّخول إلى الصّحراء ورأينا [أنّها] من أحسن الآراء... وتركنا لهم تلمسان خاوية لنمكر بهم"<sup>4</sup>، فلما وصل خبر خروج أبي حمو للصّحراء دخل بنو مرين تلمسان "واستبشروا بالاستيلاء، ولم يعلموا بأن ذلك خدعة... ولم يعلموا أنهم تورطوا في المهالك وسلكوا في مبادرتهم أشر المسالك"<sup>5</sup>، إذ قام أبو حمو بالاستعانة بعرب المعقل للتضييق على الجهات الوجدية مما أدى ببني مرين إلى إرسال ألفي فارس للقائهم لكنهم هزموا، وقد أسفرت هذه الهزيمة على عقد المرينيين لعهد "متين [أن] لا مفتنة إلى يوم الدين، وأن يسرحوا من بأيديهم من بني عبد الواد"<sup>6</sup>.

كما قام أبو حمو بنفس الاستراتيجية بعد استنجد أهل الجزائر بالسلطان المريني أبو سالم إبراهيم سنة 761هـ/1359م وإيفاد رسائل للاستجارة به على إثر التضييق الذي تعرّضوا له من طرف الزيانيين، فقام

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص181.

<sup>2</sup> ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ص 510.

<sup>3</sup> أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، 32/4. خير الدين الزركلي، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، 208/2. ابن سماك العمالي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: عبد القادر بوباوية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ص275، الهامش رقم 4.

<sup>4</sup> ابو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، ص 179.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 180.

السلطان المريني بنقض مهادنته<sup>1</sup> -السابق ذكرها- وحرك جيشه في حملة لاستهداف تلمسان، فرجع أبو حمو الثاني بين الخروج لملاقاته أو الاستطرد بنواحي الصحراء إذا كانوا أكثر منهم عدّة<sup>2</sup>، لكن عيون أبي حمو قامت برصد فراغ كبير في فاس بعدما سار أبو سالم العدة والعتاد للسيطرة على عاصمة بني زيان تلمسان، فقرر أبو حمو التمويه بإبراز انسحابه، وفي هذا الصدد يقول أبو حمو: " وخرجنا إلى الصحراء تمويها على بني مرين ونحن في الحقيقة إلى بلادهم قاصدين"<sup>3</sup>، بعدما قال للحاضرين حسب رواية صاحب زهر البستان: " على الصحراء، فإنكم ستجدون إن شاء الله جميل الآراء... وأظهر أنه بالصحراء، وموه للسمع بهذه الأمور"<sup>4</sup>، وعليه فقد سار الجيشان بشكل عكسي فهذا " قاصد للبلاد الشرقية وهذا زاحف للبلاد الغربية، وهذا قاصد للقصر، وهذا قاصد للتخريب والتنكيد، فكان أبو سالم لا يقرب من تلمسان مرحلة إلا زاد المولى أبو حمو للمغرب منهلة"<sup>5</sup> فنزل بنو زيان في تخريب عمرانها، وكان لنزول هذا الخبر على أبي سالم وجيشه أثر بالغ في اضطراب جيشه وتفرقه، وعلى إثر ذلك قام السلطان المريني بعقد المصالحة والمحاسنة والموالاتة والمهادنة<sup>6</sup>، وقد عبّر صاحب زهر البستان عن هذه المكيدة بقوله: " هذه والله من مكائد الملوك المستحسنة"<sup>7</sup>.

قام أبو حمو بتفعيل نفس الاستراتيجية سنة 771هـ/1369م لكنه فشل، واضطره ذلك إلى الفرار إلى الصحراء تاركا تلمسان في يد السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز (768-774هـ/1366-1372م) لأطول مدة في فترة حكمه منذ إعادة إحيائها على يده سنة 760هـ/1358م، حيث بقيت تحت حكم هذا السلطان المريني مدة سنتين (772-774هـ/1371-1373م)<sup>8</sup>، وصفا ذلك أن السلطان الزياني بقي يتصد حركة أبي فارس، ثم نزل في 10 ذي القعدة من سنة 771هـ/05 جوان 1370م بالبطحاء وأمر "قبيله الأعز بالاستعداد

<sup>1</sup> هذا ما ورد على لسان أبي حمو في كتابه واسطة السلوك ومؤلف كتاب زهر البستان، لكن يحيى بن خلدون يرى أن سبب بطلان معاهدة السلم يعود إلى خلاف بين السلطان الزياني أبي حمو والسلطان المريني أبو سالم حول مفاداة الأسرى ويعبر عن ذلك بقوله: " ففتحلت عرى السلم وقامت على قدمها سوق الحرب، وجلبت إليها سماسرة الفتن بضائع الزور". ونرجح الأخذ بالسببين لأن الظاهر من قول يحيى بن خلدون "وجلبت إليها سماسرة الفتن بضائع الزور" المقصود به تدخل أهل الجزائر واستنجاحهم بأبي سالم ضد السلطان الزياني. يحيى بن خلدون، بغية الزواد، 63/2. أبو حمو موسى، واسطة السلوك، ص 181. مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 96.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، بغية الزواد، 71/2.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 182.

<sup>4</sup> مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، مصدر سابق، ص 97-98.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة..

<sup>6</sup> أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص 183.

<sup>7</sup> مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، ص 101.

<sup>8</sup> ابن خلدون، العبر، 448/7.



للصحراء على عادته في أمثال ذلك"<sup>1</sup> واتفقت كلمتهم على اجتماع أبي حمو بعربه برأس العين وإقامة ولده الأمير أبي تاشفين الثاني بألف فارس في تلمسان، " فإن قصدها العدو أخذ أمير المسلمين عنها بحجزه، وإن قصد إلى الخليفة نصره الله وقومه أصحروا أمامه، فإذا رجع قفوه، وإن أعيا في أثرهم انعطفوا عليه"<sup>2</sup>، لكن هذا الاستطرد لم يكمل بالتجّاح نظرا للخيانة التي تعرّض لها أبو حمو بانضمام بعض أحلافه إلى جيش أبي فارس عبد العزيز، وقد كان ذلك مؤذنا بسقوط العاصمة تلمسان في يده مرّة أخرى<sup>3</sup>.

#### 7- استراتيجيّة التناوب خلال المعركة:

أدت ضروب المواجهات العسكريّة في الحرب واختلاف إيقاعها إلى استجادة أنماط حربيّة تنسجم مع نوع هذه المواجهات وخصوصيّتها، فعلى مستوى نوعيّة الحروب ذات الإيقاع البطيء التي تعتمد على عامل التضييق والحصر، نجد أنّ النّخب العسكريّة قد راهنت على عنصر المناوبة أثناء الحصار كبديل لاستنزاف طاقة العدو وكعامل للاستدراك وتلافي التعب البدنيّ والتفسي للجنود، وقد ضرب لنا صاحب كتاب التعابي الحربيّة مثلا لذلك في قوله: " ينبغي للمقاتلة إذا حاصروا قلعة أن لا يظهروا قوّة ولا معرفة بالقتال عند ابتداء الحصار ... ففي أوّل يوم يحاصر ألف منهم، وفي اليوم الثاني ألف غير الأول، هكذا بالتّوبة لتستريح أبدانهم"<sup>4</sup>، ونجد لهذا التنظير وقعا في حركة السلطان الحفصيّ أبي زكريا في حركته لحصار يغمراسن بتلمسان سنة 640هـ/1242م، فبعد أنّ حشد صفوفه التي قاربت العشرة آلاف بين فرسان ورجال قسم محلاته " كلّ أمير بمحلّته وجماعته وجملته يرحلون قوما بعد قوم ويوما بعد يوم ... وتمادى المشي هكذا إلى أن وصل إلى تلمسان بعساكر كالتّوفان، فلما وصل إليها ونزل بمحلّته عليها أمر لكل من يرمي بالنّبال، أن يذيق أهلها بالرّمي أشدّ وبال"<sup>5</sup>.

لم تنأ الجيوش الزيانيّة أيضا عن خوض المعارك وشنّ الحصارات بمعزل عن استراتيجيّة التناوب، إذ أنّ المتتبّع لحروبهم يدرك مدى التزامهم بهذا التقليد الحربي، ولعلّ كثرة الحصون التي شيّدت في مختلف فترات الدولة كحصن "تيمزيردكت" و"بكر" و"أصفون" و"الياقوتة" كان الهدف منه تزويد الجيوش الزيانيّة بمراكز الاستزادة والاستراحة والتناوب خلال المواجهات العسكريّة ذات الإيقاع البطيء كالحصار، ومصدقا لذلك فإنّ الحملة الرباعيّة الموجهة من طرف أبي حمو الأول (707-718هـ/1307/1318م) إلى الجهات الشّرقيّة كلّلت ببناء موسى بن برهوم

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 225/2

<sup>2</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

<sup>3</sup> عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 126-127.

<sup>4</sup> محمد بن منكلي، الأدلة الرّسمية في التعابي الحربيّة، تح: اللّواء الركن محمود شيت خطاب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1988، ص 217.

<sup>5</sup> ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 361.

لحصن أصفون بالقرب من بجاية، ويوضّح لنا ابن خلدون الغرض الذي بنيت من أجله بقوله: "... وبني حصنا بأصفون لمقامه. وكان يسرّح الجيوش لقتالها فتجول في ساحتها. ثم تراجع إلى الحصن. ولم يزل كذلك حتى بلغه خروج محمّد بن يوسف"<sup>1</sup>.

في مرحلة لاحقة تحلّل الحصار الذي ضربه أبو حمو موسى الثاني على وهران في شوال 762هـ/أوت 1361م عمليات المناوبة العسكرية، حيث أوعز إلى جنوده خلال هذا الحصار "بالانفصال ليستريح الناس من الكلال، ويقابلها بأشدّ من هذا القتال"<sup>2</sup>، كما شنّ حصارا آخر على مغراوة في 1 شوال 775هـ/1373م رفقة ولده أبو تاشفين الثاني وعمل الطرفان إحداث التناغم اللازم لإخضاعها من خلال التناوب على حصارها وشنّ الحملات الخاطفة، فبينما شدّد أبو حمو على مطاولتهم بالحصار عمل ولده أبو تاشفين على مزامنة ذلك بالهجمات السريعة فكان "يراوحهم بالقتال ويغاديه"<sup>3</sup>.

والملاحظ أنّ حصانة تلمسان كانت سببا مباشرا لتفعيل استراتيجية التناوب من طرف الجيوش في الحملات العسكرية الموجهة إليها في العديد من الفترات، فبعد امتناع تلمسان عن الحملات الأربع التي شنّها يوسف بن يعقوب المريني عليها سنوات (689هـ/1290م) (695هـ/1296م) (696هـ/1297م) (697هـ/1298م)، قام بإنشاء مدينة المنصورة لتكون -بالإضافة إلى الأدوار الاقتصادية والعسكرية- مركزا للمناوبة في الحملات العسكرية المرينية خلال حصار تلمسان الطويل 698هـ/1299م<sup>4</sup> "فكانوا يخرجون إليها في كلّ يوم مناوبة إلى أن دخل فصل الشتاء"<sup>5</sup>. ونكاد نلمس نفس الأسباب لإعادة إحياء المنصورة في حصار أبي الحسن المريني لتلمسان سنة 735هـ/1334م إذ كانت مركز انطلاق "كتائبه إلى القاصية من كلّ جهة، فتغلب على الصّواحي وافتتح الأمصار جميعا، وألح عليها بالقتال يغاديهما ويراوحها"<sup>6</sup>.

استنادا إلى ذلك فإنّ الجيوش الزيانية كانت على مهارة عالية في أسلوب القتال بالتناوب نظرا لاشتراكها في هذا النوع من القتال في الحروب والحصارات التي تعرّضت لها أو ضربها، ونظرا لأهميته فإنّ أبا حمو أدرج هذا الأسلوب ليجعله تنظيرا عسكريا تضمّنه كتابه "واسطة السلوك"، ويبيّن من خلال اتباع هذا الأسلوب لابنه ميزة التّحول من طرف منهزم محاصر من طرف العدو إلى طرف مُحاصِر يضيق الخناق على العدو، وفي هذا الصّدّد يقول أبو حمو موسى الثاني: "يا بني إن لم يرحل العدو عن معقلك الذي مزله، ولم يرد إلّا نكايتك حين قدمت له فينبغي لك أن تتحرّر من حيلك ... وتغير على أطراف محلّته ... فيكره مقامه ويجنح إلى رحلته،

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 138/7.

<sup>2</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 134.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 268/2.

<sup>4</sup> السلاوي الناصري، مصدر سابق، 80/3.

<sup>5</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 387.

<sup>6</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 340-147/7.

فلا يزال ذلك دأبك مساءً وصباحاً تضيق عليه المسالك قتلاً وكفاحاً ... حتى يصير محصوراً بعد أن كان حاصراً، ومقهوراً بعد أن كان قاهراً ... فتشتت عليه الأجناد وتختلف عليه آراء القواد"<sup>1</sup>.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

<sup>1</sup> أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 184-185.

# الفصل الثاني:

أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال  
العهد الزباني

المبحث الأول: أثر الحرب على النشاط الفلاحي والزراعي... رصد لمظاهر وجغرافية الخراب

المطلب الأول: مسببات ومظاهر حرق الأراضي الزراعية المصاحب لحالة الحرب

تمثل الأراضي الزراعية في المغرب الأوسط الزياني أحد الحلقات المهمة في التاريخ العسكري، نظرا لارتباطها بالحرب كونها مسرحا ومعتزكا وميدانا تخاض وتدار فيه الحروب، وبالتالي فإنّ مآل هذه الأراضي يؤول إلى الخراب في غالب الأحيان نظرا لكونها هدفا مباشرا للعدو، وبذلك فإنّها تتأثر تأثرا مباشرا بلواحق الحرب ومجرياتهما من استخدام للأنفاط الحارقة وآلات الحرب الثقيلة وغيرها من مختلف الأسلحة الثقيلة والخفيفة، فضلا عن كونها محطة لاستزادة الجيوش التي تخوض المعارك في المناطق التي تُدار رحاها في مختلف المناطق، فتتركها الجيوش أثرا بعد عين بعد الانتفاع بها، وعلى صعيد آخر فإنّ هذا المقوم قد يكون محرّضا للحرب ذلك أن الحرب في أحد صورها هي مشروع اقتصادي يهدف إلى الاستيلاء على ثروات العدو الطبيعيّة أو تخريبها في حالة الانتكاس والهزيمة لإضعافه وكسر مقوماته، بما يتوافق وكسب رهان الحرب اعتمادا على الاستراتيجيات العسكرية الرامية إلى تدمير وسائل المقاومة لدى العدو، بما في ذلك قطع المؤن وتعطيل سبل الادّخار وتحقيق الأمن الغذائي وعدم التمكن له للانتفاع بأي شيء يمكن أن يكون ذا قوة له<sup>1</sup>.

إنّ التفكيك السابق للعلائق بين الحرب وقطاعات الإنتاج وفي مقدمتها الأراضي الزراعية قد يجلي العتمة عن مظاهر الخراب وصور التحريق التي طالت هذا القطاع خلال العهد الزياني، كما أنّه يقدم للمتلقّي تفسيراً شافيا للحمولة الكبيرة التي حُمّلت بها أغلب مصادر الفترة المدروسة - إن لم نقل كلّها - عن مظاهر هذا الخراب وصور واقع الحرب المحموم الذي كان يستهدف أراضي المغرب الأوسط الزياني الزراعية، ذلك أنّ ديمومة الحرب في المغرب الأوسط الزياني وارتباط رهان كسب المعارك بمدى تدمير وسائل المقاومة لدى العدو -ارتباطا طرديا- جعل من تخريب الأراضي الزراعية وإحراقها<sup>2</sup> السمة البارزة لحروب هذا العصر.

غير أنّ هذه العوامل لم تكن الباعث الوحيد لتدمير أراضي المغرب الأوسط الزياني الزراعية، لأنّ الوقوف على مظاهر تحريقها وتخريبها قد يجاوز بنا تقديم الأسباب الميدانية لإفرازات الحرب المباشرة على هذه الأراضي إلى الأسباب الكامنة التي يمكن استحضارها اعتمادا على المرجعيات النفسانية والتاريخية التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

<sup>1</sup> زيتوني بلال، الأراضي الزراعية والحرب بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني سياسة إحراق الأراضي الزراعية وتخريبها نموذجا، مجلّة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ع 60، أكتوبر 2021، ص ص 889-906.

<sup>2</sup> إحراق الأراضي الزراعية: طريقة في الحرب تحاول من خلالها الأطراف المتحاربة إعاقة حركة القوة المعادية وإضعافها عن طريق تدمير وسائل التموين وطرق المواصلات لديهم، وكل شيء يمكن أن يعتبر ذا قوة للعدو، ويمكن أن تستخدم هذه الاستراتيجية إما من قبل قوة متفهمرة لعرقلة تقدم الجيوش الغازية بصفحتها وسيلة دفاعية، أو من قبل الجيش أثناء المعركة. انظر: يحيى نهبان، معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص 173.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

### 1- تحريق الأراضي الزراعية ودورها في تأمين عامل الإرهاب النفسي للعدوّ ومضاعفة فرص استسلامه:

تعدّدت التراكيب الدالة على تصوير واقع خراب الأراضي الزراعية المرافقة لحالة الحرب في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني في مصادر الفترة المدروسة، كما تنوّعت معها أحكام الباحثين وتوصيفاتهم للفترة الزبانية لدرجة تجزم بأن تاريخ الدولة الزبانية كان تاريخ حرب تخلّته فترات سلم وليس العكس<sup>1</sup>، فعلى المستوى الأول نجد شبه إجماع بين المصادر على استخدام التراكيب الدالة على التكاية بهذه الأراضي مثل: "ومر بفاساسيطه فأضرمها نارا"<sup>2</sup>، "وشن الغارات على البسائط فاكسحها سببا ونسفها نسفا"<sup>3</sup>، "قطعوا التّمار والجنات خربوا الرّباع وافسدوا الزّروع"<sup>4</sup>، "دوّخ قاصيتها... وخطم زرعها"<sup>5</sup>، "وبقي يرتحل في أحوازاها ويأكل زروعها... ويخرب قراها"<sup>6</sup>، "قطعوا التّمار، ونسفوا الآبار، وخربوا الربوع، وأفسدوا الزروع"<sup>7</sup>، "انتسف ضياعها وجناتها"<sup>8</sup>...

أما على مستويات تطبيق سياسة تحريق الأراضي الزراعية وتدمير مقومات النشاط الفلاحي في ميدان المعركة من طرف القادة العسكريين خلال الحرب، فإنّه يكاد يكون بنفس ثقل حمولة توصيفات الخراب الإحراق السّابق ذكرها، بدءاً بأبي يوسف يعقوب الذي "نحّض إلى تلمسان فحاصرها أيما وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث، وشن الغارات على البسائط"<sup>9</sup> سنة 670هـ/1271م، ليردّف بعدها حصار تلمسان الطويل بمجاعة كبيرة نالت أهلها فكان "يشدد عليهم الحصر ويقول لأواصله عليهم حتى أقتلهم جوعاً"<sup>10</sup>، مروراً بأبي حمّو الذي خرّب أراضي تيطري "وأطلق أيدي النهب فيها" سنة 771هـ/1369م<sup>11</sup>، ومجريات حروب أبي سالم إبراهيم وحملاته على المغرب الأوسط بعد استنجد أهل الجزائر به فكان "فكان قائد البلد يكتب إليه بضعف بني عبد الواد... ويقولون له أنهم أفسدوا البلاد وحرقوا العباد"<sup>12</sup>، الأمر الذي قابله أبو حمّو موسى الثاني بنفس أعمال التخريب فتأجّجت نار الفتنة

<sup>1</sup> محمد نصري، الحرب والإنسان بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني: الأسر نموذجاً، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد الرابع، العدد الثامن، 2018، ص 97.

<sup>2</sup> ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، مصدر سابق 244/7.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 245.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 311.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، ص 123.

<sup>6</sup> ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 379.

<sup>7</sup> علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنينة، مصدر سابق، ص 132.

<sup>8</sup> إسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ص 49.

<sup>9</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 245/7.

<sup>10</sup> ابن الأحمر، المصدر السابق، ص 50.

<sup>11</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 217/2.

<sup>12</sup> مجهول، زهر الستان، مصدر سابق، ص 140.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزباني

واشتعلت نار الخراب في المغربين الأوسط والأقصى " فهذا طالب للبلاد الشرقية، وهذا زاحف للبلاد الغربية، وهذا قاصد للتمهيد، وهذا قاصد للتخريب والتشكيك فكان أبو سالم لا يقرب من تلمسان مرحلة إلا زاد المولى أبو حمو للمغرب مرحلة"<sup>1</sup>.

لا يساورنا الشك في أنّ إرفاق حالة الحرب بعمليات التحريق للأراضي الزراعية لم تكن ظاهرة وليدة لعصر دولة بني عبد الواد، وإنما هي نموذج تقليد لتجارب وتراكمات حربية سابقة، ترمي في مجملها إلى فرض أكبر قدر من الضغط والتضييق<sup>2</sup> المباشر على العدو اعتمادا على تدمير وسائل المقاومة - الطبيعية - لديه<sup>3</sup>، أملا في مضاعفة فرص استسلامه، بما يتماشى واستراتيجيات الحرب النفسية المؤسّسة والمبنية على عامل التجويع، الأمر الذي لم يغفله ابن خلدون وعبر عنه بقوله: " ... وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطو، فتكسر حينئذ من صورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة"<sup>4</sup>، وقعد له جوزيه ديكاسترو أيضا - بصورة تقارب استراتيجيات الحرب في العصر الحديث - بقوله: " ليس هناك كارثة أخرى تحطم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع"<sup>5</sup>، غير أنّ قريحة روبر برنشفيك شخصت - بدقّة - سنّة التكامل بين مضاعفة فرص استسلام العدو وارتباطها بمدى تخريب الجيش لمقومات العدو حين ربط بين ثنائية التجويع والاستسلام خلال حالة الحرب بقوله: " ... يحاول المدافعون عنها في أول الأمر توجيه المعارك خارج الأسوار، وعندما يضطرون إلى الاحتماء بأسوار المدينة سرعان ما يكونون مجبورين في أغلب الأحيان على الاستسلام للعدو. وتكون حرب الحصار متبوعة بأعمال تخريب فضيحة: مثل قطع الأشجار وإتلاف المحاصيل الزراعية... وذلك لا فقط بسبب إضمار الشرّ، بل للتأثير في الصحاحيا الذين يشاهدون أعمال التخريب المذكورة من بعيد وحثهم على الاستسلام في أقرب وقت"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> مجهول، زهر الستان، مصدر سابق ص 143

<sup>2</sup> لم يقتصر استخدام الأراضي الزراعية أو احراقها كورقة ضغط لمضاعفة فرص استسلام العدو خلال حروب العهد الزباني، فقد استخدمها أبو حمو موسى الثاني كورقة ضغط على وبيترو الرابع ملك وكوسيلة ضغط لشراء السلم عند تذبذب العلاقات السياسية بين الطرفين حسبما توضّحه الرسالة رقم 111 بأرشفيف التاج الأرغوني، وقد جاء فيها على منطوق لسان أبي حمو: " أما بعد فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم هداية تبلغ نيل الأمل والآمال وكرامة تصحبكم في كل حال من حضرتنا العلية بتلمسان المحروسة ... فإننا لم نزل نمنح من وصل من جهاتكم وانخرط في سلك طاعتكم من التجار المترددون وغيرهم من ذوي الحاجات أجمعين ونوسعهم إحسانا وإنعاما ... ولم نضيق عليهم قط في جميع ما أرادوا أن يُوسقوه لبلادهم ويحملوه في صدرهم وإيرادهم من زرع وغيره" أنظر الوثيقة رقم 111 في الملحق رقم 03 ص 275.

<sup>3</sup> سمير ذياب سبيتان، الجغرافيا العسكرية، الجندارية للنشر والتوزيع، الأردن، 2012، ص 27.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 202/1

<sup>5</sup> جوزيه دي كاسترو، جغرافية الجوع، تر: زكي الرشيد، مراجعة محمود موسى، دار الهلال، {د.ت.}، ص 59.

<sup>6</sup> روبر برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، مرجع سابق، 93/2.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

### 2- التنظير الحربي باعث لتعطيل النشاط الفلاحي في المغرب الأوسط الزياني - مؤلف واسطة السلوك

لابن حمو موسى الزياني أمودجا-:

رَكَزَت مصنفات المدرسة العسكرية في أغلب فصولها على التنظير لكسب رهان الحرب، وبيّنت مختلف الوسائط وعرضت أهمّ التكتيكات والاستراتيجيات الحربية الرامية إلى انتهاج أسلوب التضيق على الأراضي الزراعية كعامل مرافق للتصر على العدو، وعلى سبيل العرض نجد أنّ الطرطوشي ركّز على انتهاج أسلوب قطع المير والمدد عن العدو لمضاعفة فرص استسلام العدو حينما ضرب مثلاً بحصار ملك الروم لصقلية فقال: " إذا أردتم مدينة صقلية خذوا ما حولها من الحصون والمدن الصغار، والضياع والقرى، حتى إذا ضعفت اخذتموها"<sup>1</sup>، بينما ركّز الحسن العباسي على تحريق الأراضي الزراعية وقطع الأشجار للأحواز والبوادي المحيطة بالمدينة المحاصرة كشرط أساسي لإخضاع المدينة المحاصرة، ونلمس ذلك في قوله: "...وينبغي أن يقصد المواضع المستضعفة فيشدد في قتالها، وإذا رأى قطع الشجر وإحراق الدور فليفعل ذلك"<sup>2</sup>، وإن تعدّد ذلك فعلى الجيش أن يقوم بإرسال تهديدات تتوعّد الطرف المحاصر "بسبي الذراري وقتلهم وإحراق الديار وقطع الأشجار"<sup>3</sup>، ولا تعوزنا القرائن الدالة على التنظير العسكري الداعي إلى تحريب الأراضي الزراعية كمعيار للتصر وشرط من شروط تحقيق الغلبة.

يعتبر مؤلف واسطة السلوك لأبي حمو موسى الثاني من أهمّ الكتب التي طرحت أساليب الحكم الناجح وضمن ديمومته، وعلى الرغم من الطابع السياسي لمؤلفه إلا أنه حوى الكثير من النصائح والتنظيرات العسكرية التي تصبّ في خانة المنظومة العسكرية وبدائل نجاحها، وتظهر ثقافة الرجل الموسوعي في شؤون الحرب وتديورها في اطلاعه كتابات سابقه من أصحاب المدرسة العسكرية المؤلفات التي تحدثت عن أخلاق الملوك والسلطين وأدبهم<sup>4</sup>، ومنها كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" لأبي حامد الغزالي ت 505هـ-1111م، وكتاب الطرطوشي (ت 520-1121) -السالف الذكر- "سراج الملوك"، وكتاب "المنهج المسلوب في سياسة الملوك" لعبد الرحمان الشيرزي (ت 589-1194)، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع لابن ظفر الصقلي ت 570هـ/1174م، وتظهر بصمة هؤلاء جليّة في كتاب أبي حمو موسى الثاني "واسطة السلوك في سياسة الملوك" إذ جاء عنوانه على نفس سياق عناوين الكتب السابقة، وهو الرأي الذي استقر عليه محقق كتاب واسطة السلوك<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، سراج الملوك، تح: محمد فتحي أبو بكر، تق: شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، مصر، 1994، 701/1.

<sup>2</sup>

<sup>3</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

<sup>4</sup> الحسن بن عبد الله العباسي، اثار الأول في ترتيب الدول، تح: عبد الرحمان بن عميرة، دار الجليل، بيروت، 198، ص 364.

خميسي بولعراس، النخب العسكرية بالمغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص 86.

<sup>5</sup> أبو حمو موسى الثاني الزياني، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 36-39.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

بناءً على ما تمّ بسطه فإنّ إمكانية استفادة أبي حمّو الثاني من التّنظيرات العسكريّة الرّامية إلى تدمير أراضي العدوّ الزراعيّة الواردة في كتب سابقه من منظريّ المدرسة العسكريّة الإسلاميّة واردة بشكل كبير، وقد تثبت الشّواهد التي وقفنا عليها أثناء إخضاع مادة هذه الكتب للتمحيص ذلك حسبما يوضّحه الجدول الآتي:

| الإحالة  | تنظيرات أصحاب المدرسة العسكريّة   | الإحالة                    | تنظير أبو حمّو موسى في كتابه واسطة السلوك   |
|--|---|----------------------------|---|
| الحسن العباسي، آثار الأول، ص364.   | "كل موضع يمكن قطع الماء والميرة عنه فهو مأخوذ لا محالة".  | واسطة السلوك، ص181.        | "قالت الحكماء ضرب لازم أن كل محسور مقهور وحاله سائر لتبور، فينبغي لك حينئذ أن تحصن معقلك الذي أعدته لحصرك".   |
| الحسن العباسي، مصدر سابق، ص357.  | عقد الحسن العباسي فصلا في الكسر والهزيمة وما يفعله الهازم والمهزوم وشدّد على تخريب الأراضي الزراعيّة، وإصلاحها بعد أن تحمد نار الحرب. | واسطة السلوك، ص11-112-171. | عقد أبو حمّو فصلا في أقسام أعداء الملك وما يفعله الجيش سواء كان هازما أو مهزوما ونظّر في خضم ذلك إلى تخريب الأراضي الزراعيّة وإصلاحها بعد أن تضع الحرب أوزارها.   |
| محمد بن منكلي الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص386-388. | ركّز ابن منكلي على الحملات الموسميّة الدّاعية إلى تخريب أراضي العدوّ خاصّة في مواسم الجني والحصاد لمضاعفة فرص استسلامه.               | واسطة السلوك، ص188.        | ركّز أبو حمّو على الحملات الموسميّة وذلك بتحديد انطلاق الحملات العسكريّة على الأقلّ مرتين في السنّة زمن الشّتاء والصّيْف وحين تستوي الخيرات في أرض العدوّ فيرحل الجيش إلى بلاده "فيأكل زرعهم في أوّل حصاده". وذلك لمضاعفة فرص استسلامه. |

### 3- الإرث العسكري في حروب المغرب الأوسط نموذج تقليد وإعادة إنتاج لقالب اقتداء المغلوب بالغالب:

يلاحظ الباحث والمتتبع لمسار الحروب وفق الإطار التّراتبي الكرونولوجي في تاريخ الحرب في المغرب الأوسط خلال العصور التي سبقت العهد الزياني، نماذج مقارنة لمجريات حروب الاستنزاف التي تطال الإنتاج الفلاحي

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

بالتخريب والتحريق<sup>1</sup>، وبعين المقارنة مع حروب العهد الزياني -الموضحة في سابقا- نجد أنّ وقعها خلال هذا العصر لم يختلف عن حروب العصور السابقة فقد كانت أعمال الاستنكاء الموجهة لتخريب مقوم الفلاحة العامل المشترك بين حروب العصرين، الأمر الذي يخلص بنا إلى الوقوف على حالة التّواصل بين العصرين في أغلب مظاهر النشاط الحربي وتطبيق مختلف الاستراتيجيات العسكرية الناجحة السابقة، وإعادة إنتاج هذه التّماذج الحربية الناجحة السابقة، وقد وضّح ابن خلدون ذلك في بسطه لنموذج اقتداء الغالب بالمغلوب حينما عرض أثر جملة التّراكمات الحربية الناجحة، وبيّن دورها في التأسيس لإعادة إنتاج نماذج للتقليد حينما عقد فصلا في مقدمته " في أن المغلوب مولع أبدا بالاقْتداء بالغالب في شعاره وزيه، ونخلته وسائر أحواله"، إذ يرى أنّ: "... هذا راجع للأول، فلذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله ... حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه علامة الاستيلاء"<sup>2</sup>.

### المطلب الثاني: جغرافية تخريب الأراضي الزراعية خلال العهد الزياني:

تعدّدت الدّراسات التّاريخية وتنوّعت أدوات البحث في علم التّاريخ بتنوّع المناهج وتطوّرها، ليتبع ذلك -طرديا- توسّع وتخصّص البحث في حقول التّاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري والحضاري، الأمر الذي شمل فصول التّاريخ العسكري، فقد عمدت التّخصّصات الحديثة في التاريخ إلى محاولة رصد التّفاعلات المختلفة بين الحرب والمجال الجغرافي، ويندرج هذا النوع من التّخصّصات ضمن ما يسمى بـ "الجغرافيا العسكرية"<sup>3</sup>، وقد انبثقت الجغرافيا العسكرية من التّداخل بين الجغرافيا والعلوم العسكرية وهي في أحد تجلياتها نوع من الجغرافيا التطبيقية التي توظّف المعرفة بهذا الاختصاص... ومن جهة أخرى يمكن مقارنة هذا الاختصاص من منظور تاريخي أيضا<sup>4</sup>.  
وفيما يلي عرض لأهمّ مدن المغرب الأوسط التي تعرّضت أراضيها إلى عمليّات تخريب وتخريب كحالة مرافقة للحرب:

<sup>1</sup> للتّفصل في هذه التّماذج وتتبعها في المغرب الأوسط منذ العهد الرّسمي إلى غاية عصر الموحّدين انظر: بلال زيتوني، مرجع سابق، ص ص 889-906.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 242/1، 243.

<sup>3</sup> فرنسيس جالجانو، ايوجين بالكا، الجغرافيا العسكرية الحديثة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي، 2014، ص 9. انظر: سمير ذياب سبيتان، مرجع سابق، ص 27.

<sup>4</sup> فرنسيس جالجانو، مرجع سابق، ص 23.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

| الإحالة   | الاستشهاد  | قائدة الحملة/<br>الجيش                                 | تاريخ<br>الحملة/المعركة      | منطقة تحريق<br>الأراضي وتخريبها |
|---|--|--|------------------------------|---------------------------------|
| ابن عذارى المراكشي، البان<br>المغرب، قسم الموحدين،<br>ص 252.        | "عيث السباع الضاريات ... وأرسلت العرب في تلك النواحي جموعها وأخذوا ينتهكون<br>عمرانها وينتهبون زروعها، ودامت على قطر تلمسان مضرتهم وبلغت المخنق نكايتهم".  | جيش بني غانية  | 605هـ/1208م                  | تلمسان                          |
| ابن خلدون، العبر،<br>99/7.  | وردّد الغزو والغارات على بسائط إفريقية والمغرب الأوسط فاكنتسحها وعات فيها وكبس<br>الأمصار فاقتمها بالغاة وإفساد المسابله وانتساف الزرع، وحطم النعم إلى أن خربت".   | يحي بن غانية   | 630هـ/1232م                  | تلمسان                          |
| التّاصري، الاستقصا،<br>32/3.  | "ونجا يغمراسن في فله حاميا لهم ومدافعا عنهم من خلفهم، ومر في هزيمته بفساسيطه<br>فأضرمها نارا تفاديا من حصرة استيلاء العدو عليها".  | يغمراسن بن<br>زيّان                                    | 670هـ/1271م<br>(معركة إيسلي) | تلمسان                          |
| التّاصري، الاستقصا،<br>33/3.<br>ابن أبي زرع، الأنيس<br>المطرب، 337. | "وعظمت نكاية بي توجين فيها بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار وإفساد<br>الزرع وتحريق القرى والضياع"... فاشتد الحصار على يغمراسن وضيق قبائل توجين<br>بتلمسان لأخذ ثأرهم من أميرها فقطعوا الثمار، ونسفوا الآبار وخرّبوا الربوع، وأفسدوا<br>الزرع". | بنو توجين وأبو<br>يوسف يعقوب<br>بن عبد الحق<br>المريبي | 670هـ/1271م                  | تلمسان                          |
| ابن خلدون، العبر،<br>284/7.   | "سار في نواحيها ينسف الأثار ويخرب العمران ويحطم الزرع. ثم نزل بذراع الصابون<br>بساحتها. ثم انتقل منه إلى تامة وحاصرها أربعين يوما، وقطع أشجارها، وأباد<br>خضراءها".  | أبو يوسف<br>يعقوب بن عبد<br>الحق المريبي               | 687هـ/1288م                  | تلمسان وضواحيها                 |
| ابن أبي زرع، الأنيس<br>المطرب، ص 399.                               | في سنة أربع عشرة وسبعمائة خرج أمير المسلمين أبو سعيد عثمان من مدينة فاس إلى<br>غزو تلمسان ... وسار هو بمحلته خلفها في بلاد يغمراسن يأكلون زروعها وينتهبون<br>أموالها ... وترك بلاده ورعيته للدمار".  | أبو سعيد<br>عثمان بن                                   | 714هـ/1314م                  | تلمسان                          |

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

|  |   |                               |  |                                 |
|--|---|-------------------------------|--|---------------------------------|
|  |   | يعقوب بن عبد<br>الحق المريني  |  |                                 |
| ابن خلدون، العبر،<br>336-335/7.        | " خربوا عمرانها وانتهبوا ما كان فيها من الأقوات، وكان بجرا لا يدرك ساحله... فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاء له. وأضرعوا مختطها بالأرض فنسفوها نسفا وذروها قاعا صاففا". | أبو الحسن<br>المريني          | -735<br>737هـ/1334-<br>1336م                                   | تلمسان                          |
| الوزان، وصف إفريقيا،<br>28/2.          | " لا يرى اليوم من البطحاء سوى أسس جدران. ويجري قرب موقعها القديم نهر صغير قليل الأهمية كانت على ضفافه بساتين وحقول في غاية الخصب  | حروب ومعارك<br>مختلفة         | /  | البطحاء                         |
| ابن خلدون، العبر،<br>175/7             | " ونزل السلطان بجموعه لعود بلاد الديلمة من الحرث، فانتسفها والتهمها وحطم زروعها وانتهب مداثرها".  | أبو زيان محمد                 | 770هـ/1368م  | تيطري                           |
| بجاية بن خلدون، بغية<br>الرواد، 217/2. | " فنزل نصره الله ببقود وسط بلادهم، وأطلق أيدي النهب فيها فلا تسأل عما استولت عليه من زرع ومتاع وضرع".   | أبو زيان محمد                 | 771هـ/1369م  | تيطري                           |
| ابن خلدون، العبر،<br>211/7.            | " حاصرهم بجبل وانشريس وعاث في أوطانهم ونقل زروعها إلى مازونة".  | عثمان بن<br>يغمراسن           | 686هـ/1287م  | وانشريس                         |
| مجهول، زهر البستان،<br>ص70             | " وأخذ في الفساد والخراب ولم يزل يقاتل القبائل ويجرب المداشر والمناهل، لا يراقب الله في دم مسلم، ولا يفرق بين محسن ولا مجرم".   | يحيى بن علي<br>قائد بني توجين | 759هـ/1357م  | مناطق مختلف من<br>المغرب الأوسط |
| ابن خلدون، العبر،<br>123/7.            | " تغلب أولا على ضواحي بني توجين ومغراوة... ثم إلى متيجة فانتهب نعمها وخطم زرعها".   | عثمان بن<br>يغمراسن           | السنوات الأولى<br>لاعتلائه سدة<br>الحكم بعد سنة<br>681هـ/1282م | متيجة                           |



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

|   |   |  |             |                 |
|---|---|--|-------------|-----------------|
| يحيى بن خلدون، بغية الرواد 127/2.               | "إلى أن حل بفحص حمزة المذكور في إبان حصاد الزرع... فأخذ بمخنتقهم، واجتاح الناس ما ألفوه بوطن حمزة من الزرع والقائمة حصيد، وانتهبوا ما أدركوه من الأمتعة والضرع".  | عبد الله بن مسلم قائد أبو حمّو موسى الثاني | 764هـ/1362م | حمزة            |
| يحيى بن خلدون، التنسي، نظم الدرر، ص 129. 230/1. | "نزل بجاية فقطع جناحها، وأحرق قراها وقفل".  | عثمان بن يغمراسن                           | 686هـ/1287م | بجاية           |
| يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 241/1.              | "أفسد بقطرها الزرع والضرع".   | موسى بن عليّ الغزّي قائد أبو تاشفين الأوّل | 727هـ/1326م | قسنطينة         |
| مجهول، زهر البستان، ص 77.                       | "فشن الغارات على أهل الأودية وأكلها، وحرق المداشر وسهولها، حتى كادت تبلغ سجلماسة غاراته، وتحرق البلد شرارته، ثم أكل ما وجد من حقل وقطع جميع تلك السبل، وأبدى عداوته علانية، وصاح بالخراب صيحة كلية، فلا يكاد يمرّ بمدشر إلا حرقه، ولا يحقل إلا أكله وفرقه، إلى أن وصل بلاد تلمسان". | عبد الله بن مسلم قائد أبي حمّو موسى        | 760هـ/1358م | سجلماسة- تلمسان |
| مجهول، زهر البستان، ص 132.                      | "أغار عليها من طولع الفجر إلى وقت الظّهر " فأظهر عليها أعدادا وكثائب، وظهر الفساسييط والمضارب ".  | أبو حمّو موسى                              | 762هـ/1360م | وهران           |

جدول جغرافية تحريق وتخريب الأراضي الزراعيّة خلال حالة الحرب في العهد الزياني.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

### المطلب الثالث: ثنائية الاقطاع والولاء وأثرها على الهجرة القسرية للفلاحين:

من المساءلات التي يقف عليها الباحث في تاريخ المغرب الأوسط الزياني مسألة صمود الدولة الزيانية لفترة تزيد عن ثلاثة قرون رغم توسّطها لمغرب العصر الوسيط ووقوعها بين قوتين وجهت إليها العديد من الهجومات -مناوبة وتحالفات- هما الدولة الحفصية شرقا ودولة بني مرين غربا، هذا الموقع الذي جعل أحد الباحثين يذهب إلى القول أن موقع الدولة الزيانية "جنى عليها"<sup>1</sup>، والعوامل التي كانت وراء إحياء هذه الدولة في العديد من المرات بعد الانقطاع المباشر والكلي بعد سنوات من سقوطها في أيدي الدولة المرينية.

انتهج سلاطين بني زيّان للاستفادة من خدمات بعض الوافدين إلى سياسة الاقطاع لضمان استقرار وولاء وخدمات هذه الجماعات<sup>2</sup>، ففي مجال سلك التقود استفاد سلاطين بني زيّان من خدمات أسرة بني الملاح في هذا المجال عن طريق إقطاعهم للأراضي حيث "نزل أولهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى وزادوا إليها الفلاحة وتحلّوا بخدمة عثمان بن يغمراسن وابنه، وكان لهم في دولة أي حمّو مزيد حظوة وعناية"<sup>3</sup>، ويبدو أنّها السياسة نفسها التي انتهجها والده يغمراسن بن زيّان من قبل للاستفادة من خدمات الأندلسيين في خبراتهم المتنوعة وهذا ما يوضّح الظهير السلطاني الصادر عن يغمراسن، وبموجب هذا الظهير فإنّ الأندلسيين قد حظوا بامتيازات إقطاعية واسعة، ونلمس ذلك في نصّه الصادر عن كاتب يغمراسن أبي بكر محمد بن خطاب إذ جاء فيه: "هذا ظهير عناية مديد، وكرامة رحيبة المجال... أمر به فلان أيده الله أمره وأيدّ عصره لجميع أهل الأندلس المستوطنين بحضرة تلمسان حرسها الله به من رعيه الجميل أكنافا، وبوأهم من اهتمامه الكريم جنّات ألفافا... واطّلع على أغراضهم السديدة في اختيارهم حضرته السعيدة للسكنى على سائر البلاد، فلحظ لهم هذه التّية واعتبرها، وأظهر عليهم مزايا ما لهم من هذه المناحي الحميدة وآثارها وأذن أيده الله لهم ولمن شاء من أهل تلمسان"<sup>4</sup>.

تعدّى استغلال سلاطين بني زيّان لسياسة الإقطاع إلى استخدامها كاستراتيجية موزاية للحرب، وذلك لكسب ولاء حلفاء من بعض القبائل للاستعانة بهم في الجانب الحربي، قصد سدّ ثغرة موقع الدولة الزيانية الذي توسّط الحفصيين شرقا والمرينيين غربا والقبائل المناوئة للسلطة محليًا، فقد شكّلت هذه الثغرة حلقة ضعف في تاريخ الدولة العسكري، وأمام هذا

<sup>1</sup> ابن القنفذ، الفارسية، مصدر سابق، ص 37.

<sup>2</sup> من بين الصيغ التي كان يستفيد منها الأعيان من امتيازات الأراضي هو إصدار ظهير من طرف السلطان نفسه وتسمّى بأراض الظهير، وأنواع أخرى أقلّ انتفاعا مثل إقطاع التملك أو إقطاع الانتفاع التي ينتهي الانتفاع بها بعد موت صاحبها، الأمر الذي جعل كتب التوازل تغرق بفتاوى هذه الأراضي نظرا للتجاوزات التي كانت تقع فيها من بيع وكراء وتوريث وجهل بصاحب هذه الأرض... إلخ. المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 115/3، 39/4.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 141/7.

<sup>4</sup> أحمد عزّوي، مرجع سابق، 118/2.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

الظرف وجدت السلطة الزيانية نفسها أمام عرض هذه الامتيازات لبعض القبائل خاصة وأنّ النوازل الفقهيّة قد أشارت إلى تسلط الأعراب على عدّة مجالات بالمغرب الأوسط بمجرد ضعف الدولة، الأمر الذي يكون مؤذنا بتمرد هذه القبائل التي يصعب احتواؤها مثل قبائل بني عامر، وهذا ما يثبته قول محمد العقباي "عن هؤلاء العربان المتغلبين على البلاد لضعف السلطة، أحيانا يكونون خدّاما للسلطان وتارة يكونوا مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلادنا مثل بني عامر وسعيد"<sup>1</sup>، وربما يكون السبب ذاته وراء جزم بعض الدراسات بأنّ سلاطين الدولة الزيانية كانوا يشكّلون تحالفات مع بعض القبائل العربيّة لإثارة أعمال القمع والإغارة على مناطق نفوذ الدولة الزيانية في المغرب الأوسط كخطة استراتيجية لإحكام السيطرة على أجزاء من المغرب الأوسط<sup>2</sup>، وعلى الرّغم من وجهة الطّرحين -حسبما تقتضيه الحرب من استعمال لكلّ حيلة- فإنّنا نرجّح الطّرح الأوّل استنادا إلى توافق الطّرح الأوّل إلى حدّ بعيد مع التنظير الخلدوني الذي يقضي بأنّ "عظم الدولة واتّساع نطاقها وطول أمدّها على نسبة القائمين به في القلّة والكثرة"، ويضيف ابن خلدون مستشهدا: "أنّ عدد بني عبد الواد كانوا ألفا، إلا أنّ الدولة بالرفع وكثرة التابع كثرت من أعدادهم"<sup>3</sup>، وقد يفسّر هذا الطّرح إعادة إحياء الدولة الزيانية بعد سقوطها وزوال رسمها في العديد من المرات، باعتبار أنّ هذه القبائل والاقطاعات الممنوحة لهم شكّلت نقطة ارتكاز تستند إليها الدولة الزيانية في حركتها لإحياء الدولة، الأمر الذي لا يختلف بشأنه المتخصّصون في دراسة تاريخ دولة بني زيّان<sup>4</sup>، خاصة مع نموذج إحياء الدولة في عهد السلطان أبي حمّو الثاني على مدار حلقات عديدة بعد خروجه منها ثمّ الاستعانة بهذه القبائل لاعتلاء سدّة الحكم.

إنّ المتتبع لتاريخ الدولة الزيانية يجد أنّ سلاطين بني زيّان منذ تأسيس الدولة الزيانية قد حالفوا القبائل العربيّة خاصّة قبائل بنو هلال وفروعها كزغبة والمعقل وحميان وبنو عامر، وحاولوا استمالتهم بطرق عديدة كبذل الأموال فيهم لكسب ولائهم<sup>5</sup>، وقد ازدادت هذه القبائل حظوة عند هؤلاء السلاطين وأقنعوهم هذه الأراضي شأنهم شأن الجنود الذين حظوا بهذا

<sup>1</sup> المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 183/4.

<sup>2</sup> Canard, or, les relations entre les mérinides et les mamelouks, A.I.E.O, 1939, p46. نقلا عن حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 272.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 275/1-276.

<sup>4</sup> سكيّنة عميور، الزراعة والبستنة بأرياف المغرب الأوسط من القرن 5-10هـ/11-16م، أطروحة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، إشراف عابد يوسف، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2020-2021م، ص 168.

<sup>5</sup> للمزيد من التفصيل حول بذل سلاطين بني زيّان للأموال لكسب ولاء القبائل العربيّة انظر: يحيى بن خلدون 107/2، 299. ابن خلدون، العبر، 196/7. ابن الخطيب، الإحاطة، مصدر سابق، 444/1. أبو حمّو موسى، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مصدر سابق، ص 18.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

الامتياز<sup>1</sup>، كقائد أبي حمّو موسى الثاني عبد الله بن مسلم الذي "فوّض إليه تدبير ملكه، فاستقام أمره وجمع القلوب على طاعته وجاء بالمعقل من مواطنهم الغربية، فأقبلوا عليه وعكفوا على خدمته. وأقطعهم مواطن تلمسان وآخى بينهم وبين زغبة، فعلا كعبه واستفحل أمره"<sup>2</sup>، وكذلك قبيلة الثعالبة التي أقطعها أبو حمّو موسى الثاني بعض أراضي المغرب الأوسط لشيخهم سالم بن إبراهيم "فعاقد أبو حمّو وانتقض عليها مرارا"<sup>3</sup>، وقبيلة بني مالك وبطونها الثلاث (سويد، العطاف والديلم) "فكانوا أحلافا لبني يادين قبل الدولة. وكان لهم اختصاص ببني عبد الواد، وكانت لهم لهذا العهد أتاوات على بلد سيرة والبطحاء وهوارة... فكانت رياستهم لعهدهم في يغمراسن"<sup>4</sup>، وفي عهد أبي حمّو موسى الثاني "تملكت زغبة سائر البلاد بالإقطاع من السلطان طوعا وكرها رعيًا لخدمته، وترغيبا فيها وعدة وتمكينًا لقوته حتى أفرجت لهم زناتة كثيرها ولجؤوا إلى سيف البحر"<sup>5</sup>، فانتقلت الأراضي بذلك من إقطاع استغلال إلى إقطاع تملك<sup>6</sup>، ويؤكد ذلك قول ابن خلدون: "وانبسطت أيدي العرب على الصّاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار وألقاب الجباية ومختصّ الملك، وانتفضت الأرض من أطرفها ووسطها، ومازالوا يغالون الدولة حتى غلبوا على الصّاحية، وقاسموهم في جباية الأمصار بالإقطاع ريفا وصحراء وتولا وجريدا"<sup>7</sup>.

يظهر البعد الاستراتيجي في كسب سلاطين بني زيّان لولاء هذه القبائل للانتفاع بها في الحروب والمعارك أو لتمكين قوّتهم<sup>8</sup> -على حدّ تعبير ابن خلدون- واضحا، وقد وُفق الباحث عبد العزيز فيلاي ومختار حساني حينما وصفا غرض هذا التحالف بـ "الدّرع الواقى للدولة"<sup>9</sup>، وكان الاستدلال على حركة توطين هذه القبائل في الشمال أنّ "التاريخ أكّد لنا أنّ

<sup>1</sup> سئل أحمد القتاب عما بيد الجند من الأرضين، فكان جوابه: "الأرض التي لا مالك لها وأعطاه السلطان جنديًا فإن أعطاه على القيام بأهل الكفر وحفظ بيضة المسلمين جاز له أخذ ذلك... أو لإعانتته على جباية الظلم". ونستشف من ذلك أنّ الغرض من بعض المقاصد الفقهيّة لإقطاع الأراضي للجند كان هدفه الدّفاع عن المسلمين. المازوني، الدرر، مصدر سابق، 39/4.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، العبر، 166/7.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 85/6.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 61/6.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، 64/6.

<sup>6</sup> عبد العزيز فيلاي، مرجع سابق، 137/1.

<sup>7</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 103/7.

<sup>8</sup> تجدر الإشارة إلى أنّ بذل الأموال واستمالة الأطراف وكسب ولائهم لم تقتصر على القبائل فقط، بل أنّ السلاطين كانوا يستميلون بعضهم البعض للبقاء في سدة الحكم واتقاء شرّ الحروب، فمثلا كان المستنصر الحفصي يبعث إلى ابن الأحمر بالهدايا الضخمة ويبدل فيه الأموال الكثيرة ليشغل عنه أخاه أبا إسحاق لكي لا يغالبه في ملكه. ابن القنفذ، الفارسية، مصدر سابق، ص 118.

<sup>9</sup> مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية -الأحوال الاجتماعية-، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009، 67/3. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، نفس الصّفحة.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

العرب ... معاشهم كان في الإبل وأتمّ أكثر ضعنا وأبعد في القفر وهي لا تعتمد على التلّول ونباتها وشجرها، بل قوام حياتها مراعي شجر في القفر ... ومعنى ذلك أنّ هؤلاء البدو لم تكن لهم حاجة في السّاحليّة ولا مدنها، إلا أنّ حركة الأحداث السياسيّة لهذه الدّولة أو تلك من دول المغرب الإسلامي ومنها الدّولة الزيانيّة التي كانت ترى في فروسيّة القبائل العربيّة درعها الواقى ...<sup>1</sup>، وهذه المطارحة أكّد عليها الوزان بقوله: "وتكون الإبل ثروة الأعراب وأرزاقهم ... إذ يستطيعون بها الإقامة في الصّحاري التي لا يقدر ملك أو أمير أن يذهب إليها لجفافها"<sup>2</sup>، وهذا مؤشّر واضح لتدخل سلاطين بني زيّان في توطين هذه القبائل في المغرب الأوسط ومنحها الإقطاعات على خلفيّة الأوضاع السياسيّة والعسكريّة بغضّ النظر عن حجم ونوع الانتفاع.

الملاحظ أنّ توطين هؤلاء القبائل ذوي الطبيعة الصّعبة - "فقد كانت العرب أوّلاً وآخراً لا تنقاد لقائد، ولا تلبين في يد قاهر، ذهاباً بنفوسها وطاعة لأنفتها"<sup>3</sup> - كانت سبباً في بسط هذه القبائل لأيديها على أراضي المغرب الأوسط، حتّى أنّ نفوذها شكّل تهديداً حتّى للسلطنة نفسها في مراحل الضّعف<sup>4</sup>، وهو ما يؤكّده ابن خلدون بقوله: "والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد على ما شرحناه مراراً من تغلب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار وتقلّص ظلّ الدّولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم، وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال، وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار، والقنوع بالتغريب بينهم وإغراء بعضهم ببعض والله وليّ الأمور"<sup>5</sup>، لذلك فقد اتّبع سلاطين بنو زيّان لتأمين هذه الإقطاعات في بعض الأحيان إلى أخذ الرّهائن من هذه القبائل وإنزالهم بقصبة تلمسان قسراً لضمان ولائهم، وهو حال أبي حمّو موسى الأوّل الذي "استبلغ في أخذ الرهن ... ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه بني عبد الواد... وكان يبالغ في ذلك حتى يأخذ الرهن المتعدّدة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرّهط. وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور والمشيمة والسوقة فملاً تلك القصبة من أبنائهم وإخوانهم"<sup>6</sup>.

يظهر جليّاً مما تمّ عرضه أنّ سياسة سلاطين بني زيّان التي سعت إلى التوأمة بين الإقطاع والولاء لكسب حلفاء في الحرب كانت على المدى الطّويل تشكّل خطراً على تقلّص الأراضي الزراعيّة وطاقة الإنتاج لصالح الإقطاع القبلي العربيّ،

<sup>1</sup> مختار حساني، مرجع سابق، ص 67.

<sup>2</sup> الوزان، مصدر سابق، 259/2.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 157.

<sup>4</sup> ابن الدّباغ القيرواني، الأسرار الجليّة في المناقب الدّهمانية، تح: عبد الكريم الشّليبي، contrast edition، تونس، 2015، ص 12.

<sup>5</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 186/7.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، 139/7.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

فضلا على علو كعب هذه القبائل واستغلال نفوذهم في أوقات ضعف الدولة لبسط أيديهم على أملاك المجتمع المغرب-أوسطي وأراضيه، علاوة على ذلك فإنّ حالة الخوف الدائم جزاء أعمال الغضب التي طالت الفلاحين من قبلهم كانت تلزمهم عن العكوف عن ممارسة هذا النشاط أو تقلل من مردوده خاصة إذا علمنا أنّه "إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطو، فتكسر حينئذ من صورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاثر في النفوس المضطهدة"<sup>1</sup>، ويرصد لنا الونشريسي واقعا مماثلا في نازلة تعكس حالات الخوف الجماعي للفلاحين وأعمال عيث القبائل العربيّة التي "ابتلي بها المسلمون من هؤلاء العرب الذين اقتطعوا أراضيهم ورباعهم ومنازلهم واقتسموها بالسيف وحالو بينهم وبينها، فيخرج الناس إلى الحرث والحصاد وجمع الزيتون مستوفرين مستعجلين إلى الرجوع إلى مدائنهم، يخاف كل واحد منهم إن تأخر عن أصحابه على نفسه وماله، يتركون في الحرث أرضهم ويحرثون غيرها بحكم وقسم العرب، ويتكون كثيرا من زيتونهم عند جمعه لبعدهم عنه وعدم تمكّنهم من الأسباب فيه والمخاصمة عليه... ولو وجدوا العافية لجمعوها على مهل بعد طيبه"<sup>2</sup>.

أزّحت حركة الزحف الهلالي ونزول العرب إلى بلاد المغرب في منتصف القرن الخامس هجري بأثرها على الأوضاع الاقتصادية، حيث يرى البعض أنّ "المفسدة ببلاد إفريقيّة فاشية منتشرة من هؤلاء الأعراب الذين ليست لهم في الإسلام إلا مجرّد القول والاسم والله حسيب من كان سبب في دخولهم إلى إفريقيّة"<sup>3</sup>، وقد عقد ابن خلدون فصلا "في أنّ العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب" لأنّ طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأنّ رزقهم في ظلال رماحهم وليس لهم في أخذ أموال الناس حدّ ينتهون إليه<sup>4</sup>، ونظرا لهذه الطّباع التي لازمتهم فإنّ المجتمع دلّل عليهم بجملة الأوصاف التي عكست المردود السّلبّي لهم على مستوى مختلف الأصعدة، فقد وصفوا بـ "الأوباش اللّثام" و "المفسدين" و "ذؤبان الأعراب" و "ذعار اللّصوص" و "أباق العبيد" و "أخابث أهل الحراية" و "وصعاليك سليم" و "المعتدين" و "شرار هلال"<sup>5</sup>. ومع أنّ بعض الدّراسات تنفي حجم الممارسات التخريبية الهلاليّة استنادا إلى التّشكيك في منهجية مؤرّخي ذلك العصر كابن خلدون وغيره وقربهم للبلاط وبعدهم زمانيا عن دخول الهلاليين للمغرب<sup>6</sup>، واستنادا -أيضا- لتطويع ممارسات

<sup>1</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 202/1.

<sup>2</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 374/1.

<sup>3</sup> ابن السّماع، الأدلة البينة، مصدر سابق، ص 135.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، 247/1.

<sup>5</sup> ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحديّة، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربيّة، ج10، الزّباط، 1941، ص 33، 109، 110، 111، 187، 194، 202.

<sup>6</sup> نحن نعتبر أنّ هذه الحجج واهية ولا تنفك تعبّر عن تبنيّ توجه حدثي في التّاريخ استنادا إلى مواضيع لا تحدم هذه التّوجهات، فإن كان ابن خلدون ممّن يسقط في فخ نقل الأخبار دون أدنى تمحيص، فكيف يتنكّر لنفسه -وهو الذي أبدى تشدّده المنهجي في فصله الأول من



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

العرب الهلالية إلى سياقات موضوعاتية في التاريخ تخدم اتجاهات فكرية حديثة "كالخوف والتمتلات والدّهنيات... وغيرها"<sup>1</sup>، إلا أنّ المصادر أكّدت على إضرار هؤلاء على مردود الأراضي الزراعية وسعة الإنتاج الفلاحي. إنّ اندفاع هؤلاء من أجل بسط نفوذهم على الأراضي الزراعية باعتبارهم بدوا يحتاجون إلى مراع ومحدودية مساحة هذه المسارح تلزم من الوافد طرد التنازل، الأمر الذي اضطرّ الأهالي القاطنين بالسهول إلى التراجع أمامهم في المغرب الأوسط وخسارة أراضيهم الزراعية<sup>2</sup>، والملاحظ أنّ هذه الأعمال استمرت إلى غاية العهد الزياني، وقد يفسر إغراق النصوص الفقهية بأخبار استيلاء العرب على الأراضي المحلية حجم تراجع الأراضي الزراعية والأنشطة المتعلقة بها ببلاد المغرب الأوسط الزياني، وهو ما يوضّحه الجدول الآتي:

| الإحالة                 | الاستشهاد   | الفقيه              |
|-------------------------|---|---------------------|
| الدرر المكنونة<br>21/4. | سئل "عن الأرض معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما وحديثا ينتفعون بها بالحراثة وغيرها ويؤدون خراجها للإمام الخليفة، ثم إن الإمام ملكها لرجل من شيوخ العرب لما رأى فيهم من المصلحة تمليكها مطلقا والأرض المذكورة شملت على محروث ومعطول ومن المعطول ما هو بين فوائده الحراثة والبعض للمواشي للرعي". | أبو الفضل العقباني  |
| الدرر المكنونة<br>25/4. | سئل شيخنا أبو القاسم العقباني عن رجل مات وعليه دين وترك أرضا من بلاد السلطان التي أخذها العرب ... بيده ظهير من قبل السلطان بتلك البلاد".  | أبو القاسم العقباني |
| الدرر المكنونة<br>41/4. | سئل "عن رجل كان يحرث زوجا من أرض الخراج ويعطي جبايتها لعامل السلطان ... ثم أنّ السلطان أنعم هذه الأرض على بعض أمراء العرب".   | محمد بن مرزوق       |

المقدمة- حين أعاب على جملة من المؤرخين نقلهم لأخبار لم تعلم أصولها دون تحييص كالمسعودي وممن حذى حذوه. بالإضافة إلى شهادة العبدري التي سجّلت في نهاية القرن السابع عن أهل القيروان حيث يقول في وصفه لأهلها "والأحياء من أهلها حفاة الطباع ما لهم في رقة الحضارة باع ولا معنى من معاني الانسانية انطباع" وتفيد هذه الإشارة تواصل الأزمة التي تردت فيها القيروان منذ دخول الهلاليين. فضلا عن إبطال فريضة مقدّسة كالحج بسبب أعمال القطع والغصب في عهد السلطان أبي عنان وهو ما توضّحه نازلة في المعيار للونشريسي تكسي طابعا واقعيا لذكرها اسم السلطان وحوادث مقيدة زمانيا حدثت قبل عام من الاستفتاء في هذه النازلة، بالإضافة إلى قرائن أخرى يضيق المقام عن ذكرها. ابن خلدون، المقدمة، 5/1-31. العبدري، الرحلة المغربية، ص 101. الونشريسي، المعيار، 1/441.

<sup>1</sup> محمد العادل اللطيف، مرجع سابق، ص 345-346.

<sup>2</sup> نوال بلمداني، نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/10-11م)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، إشراف فاطمة بلهوار، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2013-2014، ص 123.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

|  |   |                      |
|--|---|----------------------|
| الدرر المكنونة<br>103/4.                     | سئل عن "رجل كان من جبابرة العرب وأهل المخالفة ... تقدّمت منه غصوبات وأخذ أموال الناس بالنّهب وغيره".  | العقباني             |
| الدرر 174/4.                                 | سئل عن رجل جاء لتفقد جنة لأجل سكنى "فوجدهم رحلوا عنها ووجد أمة وحدها فسألها لمن هي فقال لفلان وفلان أحد أشياخ العرب المستغرقين الذمم".  | محمد بن مرزوق        |
| الدرر المكنونة<br>183/4                      | سئل عن "هؤلاء الأعراب المتغلبين على البلاد لضعف السّلطة أحيانا يكونون خدّاما للسلطان وتارة يكونون مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلادنا مثل بني عامر وسعيد، يعمد أحدهم إلى تولية قاضي بالأمر فيقضي هل تصحّ توليته وتنقذ أحكامه". أي أنّ الملكيات كانت تزول لمجرد أمر قاضي عيّن بمباركة من هذه القبائل خلال فترات وهن السّلطة. | محمد العقباني        |
| الدرر المكنونة<br>337/3.                     | " سألت ... على قضية وذلك أنّ قريتنا هي للعرب ... ثمّ إنّ عدوّهم ربما قصدوا ولانا منهم على مالنا وحرمتنا وسور قريتنا أكثره منهمد ... فأجابني ... رأيت في ابن الحاجب في الاشتراك في الزّرع والجيران أن يتفق بعضهم على من يجرس زرعهم وبذلك أفتى ابن عتاب".   | المازوني             |
| الدرر المكنونة<br>183/3.                     | سئل محمد بن قاسم المشدالي "عن أهل قرية استولى عليهم بعض الأعراب يطالبونهم بوظائف شتى كغرائم الجنات وجباية الحرث ويوظفون على الرجل حرث مضمن مثلا كل سنة ويعينون له الأرض ويغرم عليها ويمنعونه من البيع".   | المازوني             |
| نوازل ابن مرزوق<br>(مخطوط)<br>و28.           | "سئل اللّخمي عن رض يغير العرب عليها فأمر السلطان بصونها ... بالزّرب واختلّ بعضه ... قلت وعن مثل هذا السّؤال سألت صاحبنا القاضي المغيلي شيخنا العقباني عن سور مازونة حين تهدّم أكثره، فأجاب: رأيت لابن الحاجب الاشتراك في الزّرع ... يتفق بعضهم على الاستيجار على من يجمي زرعهم".  | العقباني             |
| الدرر المكنونة<br>97/3<br>الونشريسي<br>93/5. | سئل "عمن عليه دين ... لكن عنده الشّعير أكثر ما يشتريه العرب في كثرة غاراتهم وفسادهم معلوم".   | الفيقيه علي بن عثمان |

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

|   |  |                                 |
|---|--|---------------------------------|
| تحفة الناظر<br>170.                           | " قلت وما يفعلونه [اليهود] في الأسفار ... والتعمم بعمائم العرب ... وربما يجعلون لذلك زعمهم أنهم يخافون على أنفسهم وأموالهم إن ظهر عليهم زيهم الذين يعرفون به".   | العقباني                        |
| الدرر المكنونة<br>86/4.                       | سئل "عن أهل قرية جاءها أعراب خيلا ينجعوها وقتلهم من بيها يوما وكان أهل القرية وهو الجلل فرّ بنفسه وبعياله ... فاشتد الخوف وفرّ من القرية ليلا نحو ثلاثين رجلا ... فقام هذا الكبير [أي كبير القرية] وصالح عن قريته لما خاف من فسادها ...".  | ابن مرزوق                       |
| فتاوى الشريف التلمساني،<br>(مخطوط) و94.       | "سئل عن قوم تسلط عليهم أمير جائر في رمضان إن تمكّن منهم قتل وربط ويفسد في زرعهم".  | محمد بن أبي القاسم الشريف       |
| الدرر المكنونة<br>368-367/4<br>المعيار 436/2. | سئل "الإمام أبو عبد الله بن عرفة رحمه الله عن قضية قتال الديلم وسعيد ورياح وسويد وبني عامر أمراء المغرب الأوسط سنة ست وتسعين وسبعمائة ... وهي جماعة في مغربنا من العرب ... ليس لهم إلا شن الغارات وقطع الطرقات على المساكين ... وانتهاب أموالهم بغير حقّ ويأخذون حرم الإسلام أبكارا وثيبا فهرا وغلبة. هذا دأب سلفهم وخلفهم مع أنّ أحكام السلطان أو نائبه لا تناولهم ... بل إنّما يداريهم بالأعطية والإنعام ببعض بلاد رعيته ...". | أبو العباس الضريير إلى ابن عرفة |

يتّضح لنا من خلال استقراء الجدول أنّ تدخّل السلطة لمنح امتيازات للقبائل العربيّة مكّنت لهم في المغرب الأوسط تمكيننا أثر سلبي على الإنتاج الفلاحي، حيث تعدّى انتفاع هذه القبائل بالإضافة إلى أراضي الظّهير والإقطاع الممنوحة لهم إلى الاستيلاء وفرض مغارم عليها، ومطالبة الرعيّة قسرا بوظائف شتى كتغريم الجنّات والحراث سواء حرثت الأرض أو لم تحرث، فضلا عن ذلك فقد كان لهذه التجاوزات الأثر لبالغ في ترك الفلاحين لأصولهم الثابتة نتيجة أعمال الغصب وحالة الخوف الدائم التي حملتهم على تركها والتنقل حيث مناطق الأمن "فضاق نطاق الدولة لهذه العصور، فضاقت الجباية وصارت العرب يزرعون الأراضي في بلادهم ... ولا يحتسبون بمغارمها فضيق الدّخل [للدولة] يمنعهم العطاء من أجل ذلك، فتنفسد طاعتهم وتنطلق بالعبث والنهب أيديهم"<sup>1</sup>، ومن الطبيعي أن تكون لهذه القرائن الدّالة على تداخل الوظائف

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 577/6.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

بين الاقتصاد والسياسة<sup>1</sup> دور بالغ في عرقلة النشاط الفلاحي، وتعطيل الفلاحين عن ممارسة نشاطهم جرّاء أعمال الغصب والعدوان ذلك أنّ "أنّ العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أنّ غايتها ومصيرها انتهاكها من أيديهم وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب"<sup>2</sup>.

لم تقتصر تبعات الحرب على المساس بالأراضي الزراعيّة فقط دون التأثير على الفئات<sup>3</sup> الفاعلة في هذا القطاع، وعلى حدّ تعبير العمري فإنّهم "اختاروا الفرار وتركوا الأوطان والديار"<sup>4</sup>، أمّا يحيى بن خلدون فقد عبّر عن ذلك في خضم تقييده لحمالات أبو تاشفين الأول في أول عمل عسكري له لمحاصرة المخالفين له في ربوة توكال بجبل وانشريس وإجفالهم عنه هرباً سنة 719هـ/1319م بقوله: "... ثمّ فرّ بها أربابها فناجزهم القتال فأخذهم عنوة واستأصل نفوسهم وأموالهم"<sup>5</sup>؛ ومن الطّبيعي أن تنجرّ عن أعمال التخريب السابق ذكرها مظاهر هجرة جماعيّة للفلاحين وأرباب الأراضي الزراعيّة التي كانت أراضيهم محطّ استزادة للجيوش المارة بها بالعلوفة<sup>6</sup>، خاصة عند ضرب الحصار على المدن، ذلك أنّ الجيش المحاصر "يتشبّث بالعيش من جبال أحوازها"<sup>7</sup>، أو يتركها عرضة للبور إذا طال أمد الحرب<sup>8</sup>، وقد يتمّ إقطاع بعض الأراضي الزراعيّة التي يُجهل أصحابها لهؤلاء الجنود حسب ما أفتى به أحمد القباب وأجاز به -رغم إقرار العلماء بإكراهه- لما في ذلك من

<sup>1</sup> يؤكّد ابن خلدون على أنّ المنافسة الشريفة وليس تدخّل الدولة بمنح امتيازات لفئة خاصة هي التي تؤدّي إلى حسن سير الأنشطة الاقتصاديّة، "وهو غلط عظيم، وإدخال الضّرر على الرعايا من وجوه متعدّدة فأوّلها مضايقة الفلاحين والتّجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فإنّ الرعايا متكافون في اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غمّ ونكد". ابن خلدون، المقدّمة، مصدر سابق، 71/2-72.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 80/2.

<sup>3</sup> تجدر الإشارة إلى أنّ حالة الحرب والتّتابع الطّرد للهجرة القسرية لم يقتصر على فئة واحد أو جنس معيّن فحسب النساء كنّ يلجأن إلى الفرار من المناطق التي تكون عرضة للأزمات الطّبيعيّة والبشرية، وإخلاء مناطق سكناهم وتحمل تبعات هذا الإجماع فقد كانت المرأة ترحل من موطنها لوطن آخر بغير ولي فتقع بين يدي أشياخ الموضع المستجد فيتمّ تزويجها كرها. المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 145/2.

<sup>4</sup> ابن الحاج النميري، فيض العباب، مصدر سابق، ص 337.

<sup>5</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 239/1.

<sup>6</sup> كانت عمليّة توفير المدد والميرة من بين أهم الأولويّات التي تساهم في حسم المعركة، ويضرب لنا ابن خلدون مثلاً لذلك عند تطرّقه للمراسلة التي وقعت بين ابن الأحمر والملك النّصراني "شأنجة" لوضع حدّ لجوزات السلطان المريني وفتوحاته بالأندلس وقد كان فحوى هذه المراسلة توفير الميرة للجيوش لضمان هزيمة السلطان المريني. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 285/7.

<sup>7</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 234.

<sup>8</sup> قام عثمان بن يغمراسن سنة 686هـ بالهجوم على وانشريس في خضم حروبه التي جمعتها بيني توجين وقام بنقل حبوبها إلى مازونة تحسباً لطول أمد الحرب بينه وبين قبائل مغراوة. ابن خلدون، العبر، لمصدر السابق، 211/7.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

"حفظ بيضة المسلمين وقتال أهل الفساد والبغي"<sup>1</sup>، فيتعطل بذلك دورها الإنتاجي وتصبح محطّ استهلاك، وقد كان - لزوما- " قبض الناس أيديهم عن الفلح بسبب في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدّول من العدوان ... أو من الفتن الواقعة في انتفاض الرعايا وكثرة الخوارج لهم الدّولة"<sup>2</sup>، كما كان عليهم التسليم بترك أراضيهم في يد الطّرف المنتصر<sup>3</sup>، حتّى أضحى الحديث عن " خرج من دار الحرب وترك ماله وأهله وولده"<sup>4</sup>، وعن "السكن في أرض انجلي عنها أهلها"<sup>5</sup> بسبب القلاقل والحروب.

لقد حفظت لنا النصوص الإخبارية العديد من المعارك التي وجد فيها أرباب الأراضي أنفسهم عرضة للاغتراب، كحال معارك عثمان بن يغمراسن مع مغراوة، حيث "استولى على أمصارهم وضواحيهم وأخرجهم عنها وأخرجهم إلى الجبال"<sup>6</sup> سنة 693هـ/1241م، وأبيه يغمراسن -قبله- الذي ألجأه الأمير أبي بكر المريني للفرار من تازة وترك جميع أصوله الثابتة وأمواله بها، وسبب ذلك أنّ يغمراسن أراد استغلال الحرب التي خاضها أهل فاس بقيادة مشيختها تأييدا لتولية المرتضى الموحدّي، ورفض الأمير أبي بكر المريني لهذا القرار ممّا جعل نار الفتنة تدب بين الطّرفين الأخير، وعلى إثر هذه الفتنة طمع يغمراسن "في رباط تازة وخرج من تلمسان نحوها... فارتحل الأمير أبو بكر ... إلى لقاء يغمراسن، فلمّا علم يغمراسن بقدوم أبي بكر كّر راجعا فتبعه أبو بكر حتّى صار إلى أحواز وجددة، فكانت بينهما هناك حروب عظيمة هزم فيها يغمراسن ... وترك أمواله وأقبيته فاحتوى الأمير وبنو مرين على ذلك كلّ ... وهي أول حرب كانت بين أولاد عبد الحق وأولاد زيّان بن عبد الوادي"<sup>7</sup>، أو المعركة التي جمعت السلطان أبو حمو موسى الثاني ضدّ أبي اللّيل المتحالف مع محمد ابن السلطان أبي سعيد عم السلطان المذكور، فقد فرّ عنها أهلها وعجلوا عن مقارعة العدوّ وتحصّنوا بجبل جرجرة سنة 764هـ/1362م، غير أنّ رغبة أبي حمو لمطاولتهم الحصار جعل أب اللّيل يبادر "بالخدمة ملتزما صرف أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد... وأعطى الوزير [عبد الله بن مسلم] ولده رهنا بذلك فانصرف أبو زيّان إلى تونس، وأراح البلاد والعباد من فتنته"<sup>8</sup>، فضلا عن هجوم أبي زيّان محمد بن عثمان الذي أرسله صاحب المغرب عمر بن عبد

<sup>1</sup> المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 39/4.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المقدمة، 110-109/2.

<sup>3</sup> أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدّار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1981، ص 14-13.

<sup>4</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 109/10.

<sup>5</sup> المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 127/4.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر. مصدر سابق، 90/7.

<sup>7</sup> ابن أبي زرع، الدّخيرة السنّية، مصدر سابق، ص 75-76.

<sup>8</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 128/2.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

الله لمناجزة أبي السلطان الزياني أبي حمو سنة 765هـ/1363م فلما انتهى السلطان الزياني إلى البطحاء وعسكر به "ناجزته جموع السلطان أبي زيان الحرب وأطلت راياته على المعسكر فداخلهم الرعب وانفضتوا، وأعجلهم الأمر عن أبنيتهم وأزوادهم، فتركوها وانتفضوا وتسلب أبو حمو يبغي التجارة إلى تلمسان"<sup>1</sup>، وفي حادثة أخرى نذكر هجوم الوزيرين موسى بن علي بن برغوث وعمران بن موسى اللذان أرسلهما السلطان الزياني أبو حمو سنة 768هـ/1366م للهجوم على أبي زيان المتحالف مع حصين بعد سيطرته على المدينة، فاضطرهم ذلك إلى ترك أصولهم الثابتة "وارتجّ دونهم الأمر فتركوا الأبنية، وراحوا بواحدة دون حرب معضلة ولا قوم كاثرة"<sup>2</sup>، ولا تعوزنا القرائن حول أعمال الهجرة التي طالت مختلف فئات المغرب الأوسط جرّاء الحرب خلال العهد الزياني أو العهد الذي سبقه<sup>3</sup>، وعليه فقد حقّ قول أحدهم أنّ الحرب "تستأصل من الجماعة ... عددا معينا من الرجال عن طريق الإبعاد والتدمير في آن واحد"<sup>4</sup>.

إنّ عمليّة تقصّي أخبار هجرة الفلاحين على خلفيّة الحروب التي كان المغرب الأوسط إطارا حاضنا لها لم تنفك تزوّدنا بقرائن تدل على الواقع المرير الذي كان يعاني منه الفلاح خلال العهد الزياني، فتوربرت مثلا التي كان معتركا للعديد من الحروب الزيانية والمرينية رأى "سكّانها القليلون أنّهم بعد أن هدمت تلك الحروب أصبحوا تحت رحمة هؤلاء الأعراب، فغلبهم اليأس وعزموا على الهجرة وترك المدينة ... وبقيت توربرت خالية موحشة"<sup>5</sup>، أو شرشال التي "هجرت أثناء الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس، وبقيت خالية من السّكان زهاء ثلاثمائة سنة حتى سقطت غرناطة في أيدي المسيحيين"<sup>6</sup>، والملاحظ أنّ هؤلاء الفلاحين كانوا يرجعون إلى أراضيهم وممتلكاتهم بعد أن تضع الحرب أوزارها فمازونة -على سبيل الحصر- "كثيرا ما تعرّضت للتّخريب من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثّوار تارة أخرى ... حتى أصبحت اليوم قليلة السّكان، وهم إما نساجون أو فلاحون"<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 170/7.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 179/2.

<sup>3</sup> يذكر لنا ابن عذاري مثلا مشابها عن ترك جيوش الموحدين لأراضيهم على عهد الخليفة الرشيد، فبعد إشاعة خبر خروجه عمد الناس إلى تخفيف أثقالهم والتخلّص منها. ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 321.

<sup>4</sup> جاستون بول، مرجع سابق، ص 70-71.

<sup>5</sup> الوزان، وصف إفريقيا، 350/1.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، 34/2.

<sup>7</sup> المصدر نفسه، 36/2.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

لم يكن الصّدام العسكري المباشر النمط الوحيد للدّلالة على غياب عامل الاستقرار، فقد تحلّل حالة الحرب الدّورية التي كانت تترك الأراضي والمعسكرات في المغرب الأوسط الزياني "خاوية على عروشها"<sup>1</sup> أعمال قطع وغصب، ومّا يبدو أنّ هذه الأعمال كانت تستهدف البوادي التي كانت مصدر جلّ الثروات الفلاحية، فكان هؤلاء القطّاع " ليس لهم إلاّ الغارات، وقطع الطّرفات على المساكين، وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حقّ ويأخذون حرم الإسلام أبكارا وثيبا قهرا وغلبة"<sup>2</sup>، وعليه فقد واجه الفلاح المغرب-أوسطي حتمية التنازل عن جزء من ممتلكاته أو الهجرة قسرا هروبا من واقع اللّلاستقرار، وهذا ما توضّحه نازلة سئل فيها العقباني عن أهل قرية جاءها الأعراب خيلا ورجالا بنجوعها فقالتهم من بها، وكان جلّ أهلها قد فرّوا بما خفّ من متاعهم تاركين أراضيهم وأصولهم الثابتة عرضة لأعمال القطع والإغارة<sup>3</sup>، ويؤكد الوزان في مرحلة متأخرة - أنّ الفلاحين في الجبال والأرياف البعيدين عن السّلطة المركزيّة كانوا عادة المتضررّ الأول من الحرب، وهذا ما نستشقه من وصفه لفلاحي جبل أغبال بوهران الذين " كانوا في عيشة راضية يوم كانت المدينة بأيدي المسلمين، لكن عندما احتلّها نصارى أصيب الجليليون بفقر مدقع، ولحقهم أذى كبير من هؤلاء المحتلين"<sup>4</sup>، ويقدم لنا ابن خلدون -شاهد عصره- عن آثار هذه الحروب والفتن التي انعكست على العمران بالانتقاص قولا في غاية الأهمية عن تأثيرات الانهيار الديمغرافي وهجران الفئات المنتجة بقوله: " وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب التي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة ... وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها. وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخرّبت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدّول والقبائل، وتبدل الساكن ... وكأثما نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض"<sup>5</sup>.

المبحث الثاني: أثر الحرب على مقومات النشاط الصناعي والحرفي:

المطلب الأول: المقوم البشري

<sup>1</sup> هذا توصيف يحيى بن خلدون في هجوم أبو حمو موسى الثاني على قرية تاوريرت في خط التماس بين الدولتين الزيانية والمرينية سنة 761هـ. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 74/2.

<sup>2</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 153/6.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 115/2.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 44/2.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 46/2.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

لا جدال في أنّ كلّ حرب - مهما كانت أسبابها- تسبّب في جميع أحوالها توقّفًا لفترة طويلة أو قصيرة في النّمو السّكاني، أو ما يسمّيه جاستون بول بـ "فترة الاسترخاء الديمّغرافي"، وحسبه فإنّه "ليس هناك صراع مسلّح لا ينجّم عنه تدمير بشري، وعلى هذا الوجه فإنّ النتيجة المباشرة لأي حرب هي التي تحدث في التراكيب الديمّغرافية"<sup>1</sup>. لم يكّد يخل أيّ مسند من أسانيد الفترة المدروسة من قرائن تشير إلى تبعات الحرب وأثارها على البنى الديمّغرافية، من تصوير لمظاهر القتل الجماعي واستنزاف للأرواح وهدر للنسيج الديمّغرافي، إذ تعتبر هذه المظاهر السّمة البارزة لحالة الحرب، والمطلّع على المصادر يجد أنّها - وإن اختلفت في تصوير مظاهر الحرب- قد اتّفقت على حجم الضّرر اللّذي مسّ البنى الديمّغرافية خاصّة للمغرب الأوسط، ففي الهجوم الحفصي على تلمسان سنة 640هـ/1241م أقام أبو زكريا "القتل والنّهب فيها يوما وليلة"<sup>2</sup> وعن ذات الحصار يؤكّد التنسي: " وأمر رماته بالرّمي دفعة واحدة، فكان الهزّ على صغر حجمه تجيئ فيه العشرون سهما وأزيد، فهال ذلك أهل البلد من الجند وغيره"<sup>3</sup>، ويبدو أنّ وطأة الهدر للنّفوس كانت أشدّ في الحصار الطّويل والجماعة المنجّرة عليه، إذ نجد شهادات تؤكّد ذلك مثل: "وأضعف أهل تلمسان حتّى شارفوا على الهلاك"<sup>4</sup>، "وكانت مدّة هذا الحصار ... بلغ فيها عدد موتي أهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة ألف وعشرين ألفاً"<sup>5</sup>، "وهلك الجند حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك"<sup>6</sup>، حتى أنّ جون برغس (Jean Joseph Bargès) رأى أنّ "السّكان كانوا في قبضة أفضع الجماعات وانخفض عددهم إلى حوالي مائتي نسمة وألف مقاتل"<sup>7</sup>، وبالمقارنة مع حصار أبي الحسن لها سنة 735-737هـ/1334/1336م فإنّ حجم المعاناة وأعداد الضّحايا لم يختلف كثيرا عن الحصار السّابق فقد سجّل ابن مرزوق شهادته حول ذلك بقوله: " حضرت معه [أي أبي الحسن] يوم دخل تلمسان عنوة و... ظهر من أهل تلمسان من المشاقة والممانعة ما أتى على إتلاف كثير من الأنفس ... فكّم خرّبت فيها من ذمم وكّم هلكت فيها من أمم، وكّم انجلى من أهلها أعلام"<sup>8</sup> ونظرا لشدّة هذا الحصار ووطأته على أهل تلمسان فإنّ "الهالك يومئذ بالرّدم أكثر من الهالك بالقتل"<sup>9</sup>، فأصبحت دولة بني عبد الواد على إثر ذلك "أثرا بعد عين وخبرا من بعد

<sup>1</sup> جاستون بول، الحرب والمجتمع تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعيّة والثّقافية والنفسية، تر: عباس الشريبي، دار النهضة، بيروت، 1983، ص 70-71.

<sup>2</sup> ابن أبي زرع، الذخيرة السّنية، مصدر سابق، ص 61.

<sup>3</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 117.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 387.

<sup>5</sup> يحيى بن خلدون، بغية الزّواد، مصدر سابق، 234/1.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 128/7.

<sup>7</sup> Jean Joseph Bargès, Tlemcen ancienne capitale du royaume de nom, imprimerie orientale de Marius Nicolas, paris, 1859, p193.

<sup>8</sup> ابن مرزوق، المسند الصحيح، مصدر سابق، ص 202-203.

<sup>9</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 148/7.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

استخبار"<sup>1</sup>، ويؤكد أبو الحسن المريني -أيضا- على حجم التزييف الديموغرافي الناتج عن هذا الحصار في الرسالة التي بعث بها إلى سلطان مصر محمد الناصر بن قلاوون، الأمر الذي نقف فيه على توافق جلي مع الوصف السابق الذي قدمه ابن مرزوق، فقد جاء في رسالته له: "وقتل منهم الزحام، من أساره الهدم والحسام ... وأعلننا بالنداء أن كل من جاءنا هاربا، ووصل إلينا تابئا، منحناه العفو، ومحونا عليه الهفو"<sup>2</sup>، وقد أكد الزركشي -في طرح توافقي- "أن عدد القتلى الذين قتلوا أيام حصار تلمسان هذا من الفريقين ثمانون ألفا"<sup>3</sup>.

الجدير بالذكر أن شريحة الصناع والحرفيين كانت من بين الفئات المستهدفة التي طالتها أعمال القتل ومظاهر التهجير، فقد كان المنتصر يقاتلها للاستفادة من خبراتها كإعادة تعمير بلاده واستغلالها في مجالات التعمير والتشييد، مثلما سبق لأبي تاشفين وأن استغل الأسرى المسيحيين ورفض تسليمهم لخايي الثاني بحجة أن ما عمر بلاده إلا هؤلاء النصارى من أهل صناعة البناء، كما أن اقتيادهم كأسرى حرب والانتقام منهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة، ثم إخلاء سبيلهم لممارسة حرفهم في بلاد المنتصر كان يساهم في تثبيت حركة الانتاج الصناعي والحرفي المحلي للطرف المنهزم لصالح المنتصر، وهو ما نجد له أثرا في قول ابن الأحمر عند وصفه لسيطرة أبي عنان على تلمسان سنة 753هـ/1352م وقتله لأبي ثابت الزياني، وفي هذا الصدد يقول ابن الأحمر: "وبعث أبو عنان بقومه من بني عبد الوادي في السلاسل كالأسارى فأدخلوا فاس على تلك الحالة، وسجنوا ثم أطلقوا بعد ذلك، وصاروا ينقلون الرمل على الحمير يتناعون ويتعيشون به، وأكثر نسائهم يتعيشن بغسل الثياب بدور الحضر بفاس"<sup>4</sup>.

من الطبيعي أن تمس مظاهر التفتيل الجماعي مختلف شرائح مجتمع المغرب الأوسط وفتاته المنتجة، أو أن تكون سببا لركود نشاط هذه الفئات الفاعلة وأهمها فئة الصناع، وقد أجمعت العديد من الدراسات<sup>5</sup> على أن حالة الحرب تعتبر من بين أهم الأسباب لتعطيل الإنتاج الصناعي -إذا ما استثنينا الصناعات الحربية-، بسبب عوائد هذه الفتن والأزمات على شريحة الصناع من هدر للنفوس وضرائب تثقل كاهلهم<sup>6</sup>، علاوة على ذلك فإن تأثير حالة اللاأمن التي ترافق الحرب عادة ما تكون لها مضاعفات سلبية على النشاط الاقتصادي بسبب خوف الصناع والحرفيين من استثمار أموالهم في وسط غير مستقر

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، مصدر سابق، 244/1.

<sup>2</sup> القلشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، 95/8.

<sup>3</sup> لزرکشي، تاريخ الدولتين، مصدر سابق، ص 73.

<sup>4</sup> ابن الأحمر، روضة السنين، مصدر سابق، ص 54.

<sup>5</sup> ابراهيم القادري بوتشيش، تراث الغرب الإسلامي، وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2002، ص 96. طاهر بونابي، الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ع: 04، 2013، ص 193. خالد بلعربي، آثار المجاعات والأوبئة على تراجع الحرف والصناعات بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ع: 04، 2013، ص 115.

<sup>6</sup> سئل الشيخان أبو زيد وموسى ابني الإمام عن نازلة تتعلق بتغريم الصناع والحرفيين من طرف "سلطان ظالم وعامله أو شيخ على قبيلة يفرض فريضة على بلده أو بعض رعيته من أهل قرية أو بادية أهل الصنعة أو الحزائين من غرامة نقود أو زرع". المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 128/4.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

وآمن، ومن بين هذه الترسبات التي تتركها الحرب في ذهنية الفئات المنتجة كالصناع والحرفيين، الأخبار التي قيدها ابن الزياني عن أبي محمد عبد الواحد بن تومرت الهسكوري الأسود (ت591هـ/1194م) الذي رفض التسهيلات المعروضة عليه لالتحاذ دكان بسبب تعرض حوانيت التجار للسرقة، ويتجلى ذلك في قوله: "حالي هذه أحسن ... إذا اتخذت دكانا وحانت وقت الصلاة ومررت إلى المسجد يوسوس إليّ الشيطان ويقول لي: لعلك سُرق لك شيء"<sup>1</sup> ونحن لا نستبعد أن تستمر مثل هذه الترسبات إلى القرون اللاحقة التي شهدت حروبا حامية الوطيس خلال العهد الزياني.

فضلا عن ذلك فإنّ الحرب آلة لخراب مختلف وجوه العمران بما في ذلك وحدات الإنتاج الصناعي التي يؤول مآلها للتدمير، خاصة إذا ما سجّلنا حضور الأسلحة الثقيلة في الحروب الموجهة لتلمسان، ومن بين الوقائع الدالة على ذلك حصار تلمسان من طرف السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز (767-774هـ/1365/1378م) الذي "ضيق بأهلها تضيقا عظيما ورماهم بالأنفاط ورمى المسافات حتى صارت الحجارة إلى سوق منشار الجلد"<sup>2</sup>، علاوة عن ذلك فإنّ منطوق نصّ ابن مرزوق يؤشّر على خراب هذه الوحدات، حيث جاء في نصّه عن ورشات ابن النجار وتربيعاته بدرج شاعر التي اختصت بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع ما يلي: "ولقد رأيته بهذه المدّة خرابا فسبحان مفني الخلاق"<sup>3</sup>، كما أنّ النصّ المناقبي سجّل تدخل الحرب في تثبيط حركة الحرف والصناعات وغلق الدكاكين ووحدات الإنتاج الصناعي والحرفي إلى غاية نهاية القرن 9هـ/15م، ونلمس ذلك في وصف السنوسي المتوفي سنة 895هـ/1489م لمظهر من مظاهر الاغتراب التي كانت ديدنا للأولياء والصوفية في المغرب الأوسط، فقد كان هذا الولي كثيرا "ما يخرج إلى الخلوات والمواقع التي كانت عامرة ثم حُرّبت وبقيت آثارها وخصوصا المنصورة، ويعجبه الخروج إليها كثيرا، فتجده ... إذا خرج إليها يكثر من النظر في تلك الحيطان، ويعتبر في تلك الآثار والبنيان، وما فيه من عظيم الإتقان، ويسوق الحديث ... ويقول: أين سكان هذه المدينة وكيف كانوا فيها ينعمون ويأكلون ويشربون وينكحون ويتصرفون"<sup>4</sup>، ويردّف إلى هذا التزييف الديموغرافي ويستطرد بأخبار تراجع الحرف والصناعات بقوله عن تلك الحوانيت الخالية: "أين الذين كانوا يتجرون ويبيعون ويشترون بالأمس، كانوا هنا يتصرفون كما نحن اليوم"<sup>5</sup>.

إنّ الواقع العسكري بتمظهراته وتأثيراته على الواقع الصناعي والحرفي لم يؤشّر على ظاهرة الهدر الديموغرافي لفئة الصناع فقط، بل كان له الفضل أيضا في التّعيد للنشاط الحرفي والصناعي، فقد رسمت الدولة الزيانية على عهد السلطان أبو تاشفين الأول في عصرها الذهبي -أين مارست أكبر ضغط عسكري على مدار عمر قيام دولتها خاصة في شرقها- صورا لإعادة تأهيل المجال الصناعي والحرفي استنادا إلى فئات أخرى فاعلة في هذا النشاط، إذ عرف المغرب الأوسط وفود فئات

<sup>1</sup> ابن الزياني، التشوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1997، ص 359.

<sup>2</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 103.

<sup>3</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 189.

<sup>4</sup> عبد الله محمد بن عمر الملاي، المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، تح: غلال بوريق، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 326.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

حرفيّة من الأندلس، ويرى ابن خلدون أنّ أبا تاشفين الأوّل ساهم في إخراج المغرب الأوسط من حالة البداوة إلى الحضارة مستعينا بالتجربة الأندلسيّة الوافدة من طرف سلطان بني الأحمر أبو الوليد سلطان غرناطة (713-725هـ/1313-1325م) في فن صناعة البناء، ذلك أنّه "استدعى لها الصّناع والفعلّة من الأندلس لحضارتها وبدواة دولتهم يومئذ بتلمسان فبعث إليهما السّلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله"<sup>1</sup>، وقد أكّد المقرّي على براعتهم في ذلك بقوله: "ولمّا نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنّة الأخيرة المبيرة تفرّقوا ببلاد المغرب... فاستنبتوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحي الطّاحنة بالماء... وأمّا أهل الصّنائع فإنّهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعا لهم، ومتصرّفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدّة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم"<sup>2</sup>.

في نسق توافقي آخر على أثر الحرب في تأهيل الفئات الفاعلة في النشاط الصّناعي والحرفي، يمكن أن نلاحظ أنّ الحروب كانت فضاءً لإعمار تلمسان بفئة الصّناع المسيحيين وتلافي تبعات الحروب عليها بالانتقاص خاصة في مرحلة فتوة الدّولة الزيانيّة عسكريا بين سنوات (719-729هـ/1319-1329م)<sup>3</sup>، فقد رفض أبو تاشفين الأوّل تسليم خايي الثاني ملك أرغون الأسارى النّصارى بالدّولة الزيانيّة باعتبارهم صنّاع متفنّنين يتولّون شؤون إعمار الدّولة ولا غنى عن الاستفادة من خدماتهم في مختلف الصّنائع، وهذا ما تؤكّده الوثيقة رقم 91 بأرشفيف التّاج الأرغوني بين أبو تاشفين الأوّل وخايي الثاني، المؤرخة في 24 ربيع الثاني 723هـ الموافق لـ: 1323/2/2م، فقد جاء فيها -في صيغة تقريرية إعلامية- على لسان السّلطة الرّسميّة الزيانية: "... وأمّا ما أشرتم إليه من تسريح جميع من عندنا من الأسارى فذلك ما لا يمكن أن يكون كما لا يمكن لنا أن نطلب منكم تسريح من عندكم من أسارى المسلمين لأنكم تعلمون أنّ ما عمّر بلادنا إلاّ الأسارى وأكثرهم صنّاع متفنّنون في أنواع جميع الصّنائع، ولو طلبتم ما يستغنى عن الحال في تسريح خمسة أو ستّة لأسعفنا مطلبكم وقضينا إربكم، وأمّا تسريح الجميع فصعب الآن. ذلك يخلي المواضع ويعطل ما يحتاج إليه من أنواع الصّنائع"<sup>4</sup>.

المطلب الثاني: ملامح الاحتراف السّلامي في المغرب الأوسط الزياني والحرب... قراءة في علاقة التأثير

والتأثير

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق 190/7.

<sup>2</sup> المقرّي، نفع الطيب، مصدر سابق، 152/3.

<sup>3</sup> انظر مضمون رسالة أبو سعيد المريني إلى سلطان مصر الناصر بن محمد قلاوون بعد استنجد أبو يحيى أبو بكر الحفصي به لفك هذا الضغط العسكري. الفلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، 91/8-92.

<sup>4</sup> أنظر الملحق رقم 08 ص 280.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

تزايد الاهتمام بظاهرة توريث الحرف في حقول الدراسات التاريخية الحديثة؛ ومن ذلك ما أشار إليه الباحث الطاهر بونابي -استنادا إلى دراسته للنص المناقبي- حيث أكد أنّ أغلب البيوتات التلمسانية خلال العهد الزياني تتوارث حرفة الفلاحة<sup>1</sup>، وفي نسق مشائي مع ما ذهب هذا الباحث أكد الباحث خالد بلعربي على أنّ الحرفة كانت تقليدا راسخا لدى العديد من العائلات التلمسانية في العهد الزياني تتوارثه من جيل إلى آخر<sup>2</sup>، وتعدّي تقصّي هذه الظاهرة في الدراسات الحديثة مجال المغرب الأوسط حيث أكد الباحث إبراهيم جدلة على أنّ هذا التقليد الحرفي سجّل حضوره في المجتمع الحفصي، واستطاعت العديد من العائلات الحفصية بفضل المحافظة عليه السيطرة على بعض الحرف ومداولتها داخل أسرهم لعدة أجيال<sup>3</sup>، وساقّت دراسة الباحثة عائشة غطاس-رحمها الله- عن الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر من (1700م/1830م) المال الذي آلت إليه ظاهرة توريث الحرف خلال هذه الفترة وعبرت عن ذلك بأن وراثة الصنعة في الأسرة الواحدة كانت تمتد لجيلين على الأقل<sup>4</sup>. تأسيسا على ذلك ينبري التساؤل عن مظاهر هذا التقليد الأسري الحرفي في العهد الزياني وحيثياته، ومدى تأثير النشاط الحرفي عليه.

لعبت طبقة الأولياء والصلحاء والأولياء على خلفيّة المنطلقات والمرجعيات الأخلاقيّة الداعية إلى الكسب الحلال والابتدال في ذلك عن طريق الاحتراف دورا مهما في توجيه المجتمع التلمساني نحو مزاولة الحرف، وقد سعت هذه الشريحة إلى الحفاظ على التقليد بين الأسر خاصة بتلمسان عن طرق الوصايا الشفويّة بأن يلتزم الولد و"يتشاغل بالصناعة بتحريض والده وقرابته"<sup>5</sup>، وهذا ما يمكن تحسسه من عديد القرائن التي حوتها هذه المتون وأهمها؛ خطاب الغوث عبد الرحمان الواسطي لابن مرزوق الخطيب حول التزامه بحرفة أجداه المراقبة فقد ذكر الخطيب في فصل وداعه لوالده أبو العباس (ت741هـ/1340م) حينما قرّر العودة من رحلة الحج إلى تلمسان سنة (736هـ/1335م) جملة من التوصيات عني بها ابن مرزوق وأهل تلمسان، وأهمّها: " يا بنيّ أوصيك بتقوى الله وبالحمول، وإياك والدنيا واشتغل بنفسك، وتسبب بالحرثة والتجارة ولا تترك طلب العلم والتمسك به، وعليك بالاعتقاد في أحوالك، وقد عرفت طريق من سلف لك..."<sup>6</sup>، كما لعبت الكرامة الصوفية في النص المناقبي الدور البالغ في التأشير لظاهرة توريث الحرف، فقد كان الناس يقتفون أثر الولي ويستشيرونه في نوع الحرفة التي يمارسونها<sup>7</sup> ويلتمسون منه الدعاء للتيسير لهم في ذلك فيبادر الولي إلى الأمر بالمحافظة على الموروث الحرفي الأسري، وعليه فقد قدم ابن مرزوق الخطيب جده أبا عبد الله محمد كنموذج لدور الولي في

<sup>1</sup> الطاهر بونابي: الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مرجع سابق، ص191.

<sup>2</sup> خالد بلعربي: مرجع سابق، ص87.

<sup>3</sup> إبراهيم جدلة: المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي، منشورات وحدة البحث الجنوب غربي، جامعة قفصة، مطبعة قطيف، 2010م، 87/1.

<sup>4</sup> -عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700م-1830م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، ج1، إشراف مولاي بالحيمسي، كلية العلوم الإنسانية قسم التاريخ، جماعة الجزائر، 2000-2001م، ص157.

<sup>5</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص235.

<sup>6</sup> -المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص252.

<sup>7</sup> -الطاهر بونابي: الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مرجع سابق، ص204.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

استمرار حرفة الجلابة التي اشتهرت بها عائلة أبي حسين الجلاب التي اتخذت من حرفتها لقبها العائلي ودلّ على ذلك بقوله: " كان قد ذهب ماله الذي ورثه عن أبيه، ولم يبق له شيء ". وكان والده يتجر بجلب الغنم من جهة قوم الصالحين، ويبيعها، فيشتري منه أهل الورع. فشكا الولد للشيخ بحاله، فأعطاه شيئاً وقال له: " اتبع سبيل أبيك، يفتح الله عليك. فما مر حول إلا وهو من المشهورين باتساع الحال"<sup>1</sup>.

الملاحظ أن التوصيات التي قدمها الأولياء لم تشمل الحفاظ على الموروث الحرفي للأباء والأجداد فقط، فقد دعت أيضاً إلى مداولته بتلمسان دون غيرها من الحواضر وممارسة نفس النشاط الحرفي التي تمارسه الأسرة الواحدة، وذلك ما نستشقه من قول محمد الثاني جدّ ابن مرزوق لابن القطان الذي كان يتاجر بأحمال البزّ بين سبتة وفاس وبجاية بعد نمو رأس المال لديه: " إلزم موضع وتسبب في وطنك بين أهلك"<sup>2</sup>.

ومن جهة أخرى فإنّ النصّ المناقبي لم يكتف بالكشف عن دور الوصايا الشفوية في استمرار الاحتراف السلافي، فقد بيّن أثر مظاهر الصّلاح لبعض كبار الأسر التلمسانية في وراثة بعض الحرف لدى هذه الأسر ومداولتها بينها لعدة أجيال، ذلك أن ابن مرزوق الخطيب أعزى الزّواج الكبير التي عرفته أسرة أبو زيد عبد الرحمان بن النجار الذي " كان يحترف بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع، الذي كانت تلمسان تختص به، واختص هو بذلك فكانت له تربيعات بموضعه من درب شاكر، وكان أكثر هذا الدرب له ولعماله وخدامه"<sup>3</sup> إلى الدّعاء الذي رفعه جدّهم عبد الله، ذلك أنّه: " دعا لهم جدّهم عبد الله، وكان صالحاً ودعا لذريته باليسار والستر، فهم جماعة تجار ميسورين فمنهم اليوم بتلمسان، ومنهم بمكناسة، ومنهم خلف بفاس"<sup>4</sup>، وقد استطاع أفراد هذه العائلة أن يساهموا في ازدهار هذه الحرفة لتنافس المنتج الحفصي على عهد السلطان أبو حفص بن أبي زكريا (ت 694هـ/1294م)، وأن يتبوأ كبير هذه العائلة أبو زيد أرقى المناصب في الصناعات الحرفية بوصفه أمين طائفة الحاكة ومعامل الصوف بتلمسان<sup>5</sup>.

ركّز هذا المتن بالإضافة إلى إبراز دور الولي في الحفاظ على الموروث الحرفي والترشيد له، على رصد مواطن حضوره لدى العديد من العائلات، أهمها:

| الأسرة     | أفراد الأسرة         | الحرفة                    | الاحالة   | المصدر                   |
|------------|----------------------|---------------------------|---|--------------------------|
| ابن الجلاب | الجد أبو حسين الجلاب | جلب الغنم من جهة الصالحين | " يتجر بجلب الغنم من جهة قوم الصالحين ويبيعها فيشتري منه أهل الورع" | المناقب المرزوقية، ص 162 |

<sup>1</sup> - المناقب المرزوقية: مصدر سابق، ص 162.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، ص 188.189.

<sup>4</sup> - المصدر نفسه، ص 191.

<sup>5</sup> - المصدر نفسه، ص 189.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

|                            |  |   |  |                      |
|----------------------------|--|---|--|----------------------|
| المناقب المرزوقية،<br>ص162 | "اتبع سبيل أبيك... فما مر حول إلا وهو<br>من المشهورين باتساع الحل"   | جلب الغنم   | الأب أبو علي حسين<br>بن الجلاب                             |                      |
| المناقب المرزوقية،<br>ص275 | "انقضت بيتهم والله أعلم بعد أن كان لهم<br>عقب يحترفون بصناعة الخرط"  | صناعة الخرط   | أحفاد أبو حسين   |                      |
| المناقب المرزوقية،<br>ص184 | "كان كاتب لبعض الأمراء"  | الكتابة   | أبو العيش الخزرجي  | أبو العيش<br>الخزرجي |
| المناقب المرزوقية،<br>ص185 | "وله نفوذ بعلم الوثائق ولم تزل هذه البيت<br>معمورة بمن يوصف بهذا الوصف"  | ذو علم بالوثائق   | ولده أبو زيد عبد<br>الرحمان                                |                      |
| المناقب المرزوقية،<br>ص162 | "وكان يحترف بإقامة عمل الحاكة من<br>الصوف الرفيع، التي كانت تلمسان تختص<br>به... كانت له تربيعات بموضعه من درب<br>شاكرا" | المشرف على معامل<br>حياكة الصوف الرفيع.<br>وأمين طائفة الحاكة<br>بتلمسان. | أبو زيد عبد الرحمان<br>بن النجار.                          | بنو النجار           |
| المناقب المرزوقية،<br>ص189 | "له داخل الدرب، دربا يختص به فيه دوره<br>ودور بينه والدور التي عين لأبنائه"  | نفس الممارسة الحرفية  | بنو أبو زيد عبد<br>الرحمان بن النجار                       |                      |
| يحيى بن<br>خلدون/1.235.    | "وهم من بيت سراوة من أهل قرطبة،<br>احترافهم السكاكة وأولو أمانة فيها ودين".  | سك العملة   | لم تذكر أسماءهم غير<br>أهم اشتغلوا بحرفتهم<br>مدّة 85 سنة. | أسرة بني<br>الملاح   |

فضلا عن ذلك فإن كتاب المناقب المرزوقية، قد حفظ لنا نمط الاحتراف السلافي في العائلة المرزوقية واستمرار تداوله، من جدّهم مرزوق العجيسي (أواخر ق5هـ/11م) الذي كان منشغلا بالبادية بفلاحته وحرثته وابتنى دارا بتلمسان بالموضع المسمّى بمرسى الطلبة... وكان بدويا مقبلا على شأنه<sup>1</sup>، وعبد السلام أبو يخلف المطماطي (ت680هـ/1281م) الذي كانت حرفته في البادية، يتعيّش بالحرثة واكتساب الماشية<sup>2</sup>، وولده إبراهيم بن عبد السلام الذي سار على نهج أبيه في الاحتراف "فانتقل إلى البادية، وانقطع عن الناس مدّة"<sup>3</sup>، وكذا أبو عبد الله محمد

<sup>1</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 147.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 273.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 273..

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

الملقب بمحمد الثاني الذي "اجتاز بجنانه الذي ورثه عن أبيه بالرّبض من داخل تلمسان"<sup>1</sup>، وأبو العباس أحمد بن مرزوق "الذي كان زرعه من فدّانه الذي ورثه عن أبيه"<sup>2</sup>.

اقتربت حيوية النشاط الحربي ومداولته بين الأجيال في المغرب الأوسط الزياني بعامل الأمن والاستقرار السياسي، باعتباره عاملا ملائما لقيام هذا النوع من الأنشطة، وعلى الرغم من أنّ هذا الشرط قد توفّر في بعض سنوات الفترة المدروسة إلا أنّ حالة الحرب التي كانت السّمة البارزة لهذا العصر قد أضرتّ بنشاط الاحتراف السلالي ومختلف الأنشطة الأخرى<sup>3</sup>، ولعلّ ذلك من بين الأسباب التي جعلت ابن رضوان يذهب للقول أنّ "شرّ الدّول دولة لا أمن فيها عمر الدّول سعد ملوكها، إذا أتت دولة نسخت وإذ ولّت دولة ولّت أمة"<sup>4</sup>.

وقد كان لتبعات الحروب والفتن والمجاعات فضلا عن الكوارث الطبيعيّة والواقع الموبوء الأثر البالغ على التراجع الديمغرافي لسكان المغرب الأوسط الزياني، ومن الطبيعي أن يمسّ هذا التراجع الديموغرافي بدوره شريحة الحرفيين وطال عقب الأسر الحرفيّة المنتجة آنذاك، وبالتالي فقد ساهمت في اندثار الموروث الحرفي لعقب هؤلاء الأسر المنتجة، وقد أشار إلى ذلك ابن مرزوق عن حفيد جده الحاج يوسف بن يحيى بقوله: "وكان من خيار الصلحاء وكان له أولاد انقرضوا وأولادهم، والله أعلم في هذا الوباء... ثم دهم تلمسان بعده، وفي زمانه اتصل من الفتنة ما اتصل إلى الآن"<sup>5</sup>، كما نقل لنا ابن مرزوق حجم الضّرر الذي مسّ الأسر التجاريّة وأصحاب رؤوس الأموال مثل أسرة أبو عبد الله المدخس وإخوته، وبني اللّجام وغيرهم من أرباب الأموال الطائلة حتّى أنّ جدّه أبو عبد الله "لم يسلم له إلا سلك له كان بيده، وبطنية كانت على وسطه، فنعوذ بالله من الفتن، ومن الخن، ومن تقلبات الزمان"<sup>6</sup>، وعن خراب موضع درب شاعر الذي اختصت به معامل حياكة الصوف لأسرة بني النجار بقوله: "ولقد رأيت به هذه المدة خرابا فسيحان مفني الخلاق"<sup>7</sup>، فضلا عن الموضع المعروف بمسجد إيلان الذي كان يخرج منه كلّ يوم حمل للبضائع من الصّوف الذي تضرّر هو الآخر من هذه الكوارث البشرية والطبيعيّة حسب ابن مرزوق الخطيب الذي قال عنه: "... فانظر هل تجد اليوم في ذلك الموضع، أو ما يجاورهم عمارا"<sup>8</sup>.

وإذا كانت الحروب والكوارث الطبيعيّة خلال العهد الزياني قد ساهمت في تثبيط حركة انتقال الحرف وحيويّتها فإنّها لم تكن السبب الوحيد في ذلك، ذلك أنّ المجتمع خلال العهد الزياني كان قد صنّف الحرف وفقا لإطار تراتبيّ يخضع لنوع الحرفة، حيث أنّ بعضها يعتبر شريفا والبعض الآخر يعتبر وضيعا، وهذا التقسيم هو عبارة عن تمايز اجتماعي ناتج عن

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 155.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 222.

<sup>3</sup> حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 249.

<sup>4</sup> ابن رضوان، مصدر سابق، ص 431.

<sup>5</sup> ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 187.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 173.

<sup>7</sup> المصدر نفسه، ص 189.

<sup>8</sup> المصدر نفسه، ص 190.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

الاختلاف بين حرف لها مردود طيب وأخرى يعيش أصحابها في خصاصة، كما أنّ بعض التّصوص أكّدت أيضا على التأثير السلبي للمجتمع على توارث بعض الحرف أو اكتساب أفراد العائلة لقباً حرفياً عن الآباء والأجداد كالحداثة التي صنّفت في خانة الحرف الدّميمة، فقد جاء عند المازوني: " وفتشوا في كتب القوم تجدوا ما لبعض العبدان والخواصين والحدادين والحجامين والحزارين والحاكّة، ومن لا يؤبه به من سواسية الناس ومن تحتقره في النظر لرتبة أطماره"<sup>1</sup>، والجدير بالذّكر أنّ هناك من رأى أنه يجب إقامة الحدّ على من نادى شخصا بقوله -احتقارا-: " يا ابن الحجام أو يا ابن الخياط أو يا ابن الحدا"<sup>2</sup>، كما أكّد ابن مرزوق على وجود هذه الظّاهرة السّلبية في التّسيج المجتمعي التّلمساني، ويظهر ذلك في النّص الذي سجّله في كتابه عمّا وقع مع القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن علي اللّجام الذي اكتسب لقبه من حرفة والده، بقوله: "... حدّثني غير واحد أن السلطان يغمّس راحته في مجلسه فقال كبير من كبراء حضرته يحقره: ليس هو ابن أناظ؟ وهذه اللفظة عند زناتة عبارة عن الحدا"<sup>3</sup>، فسبق هذا الرّجل للقاضي ابن اللّجام بعد مدة ليقيم عليه حدّ السّكر، فقال له: " ترى ابن أناظ أقام عليك الحد"<sup>4</sup>.

تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ المجتمع التّلمساني كان يؤطّر عمليّة مداولة الحرف وفقا للعرف المجتمعي آنذاك دون أيّة تجاوزات من شأنها أن تكسر الطابو؛ كالكسب أو توريث الحرف التي تستدعي مخالطة النساء لما يخشى من الوقوع في الفساد<sup>5</sup>، ذلك أنّ العديد من الحرف كانت تتمّ عن طريق قصد المنازل<sup>6</sup>، وكذا منع الأبناء من اكتساب الحرف التي تكون مدعاة لمخالطة النساء لما فيها من اكتساب للتّخنث، فقد جاء في نوازل ابن مرزوق: "...وكذلك إن وقع إكثار من جلوس النساء للصّناع وطول مقام من المرأة لغير فائدة أو في أوقات يخاف فيها التطرق إلى الفساد مثل أوقات القائلة وغفلة الناس، أو يكون المكان خاليا أو خلوة في منزل الصّانع ولا يكون مع زوجته ولا من يتعرض لفساد بحضرته فممنوع، يجب على من ولاه الله أمر المسلمين من الحكام المنع من ذلك ولغيره وقد استحّب بعض العلماء أن لا يعلم الإنسان ولده صنعة تكون فيها مخالطة النساء لما يخشى من توقع الفساد ولأنّ ذلك يكسب الرّجال التّخنث ...".

<sup>1</sup> أبو عمران موسى بن عيسى المازوني، مناقب صلحاء الشلف، تح: عبد القادر بوباية، الرّشاد للطباعة والنّشر، الجزائر، 2017، ص71.

<sup>2</sup> إبراهيم جدلة، المجتمع الحضري بإفريقية خلال العهد الحفصي، منشورات وحدة البحث الجنوب الغربي جامعة قفصة مطبعة قطيف، قفصة، 2010، ص223.

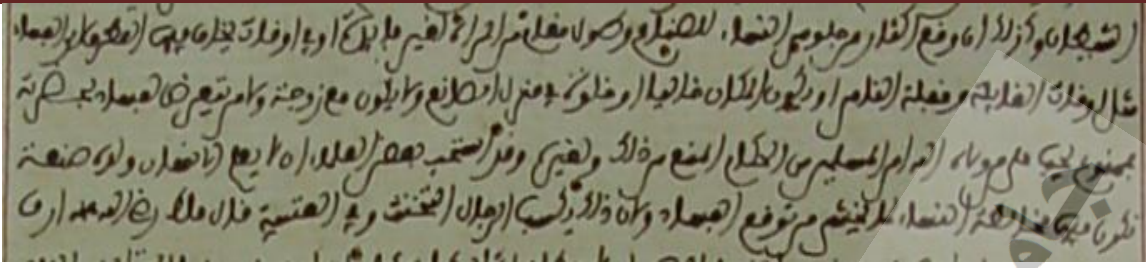
<sup>3</sup> ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 111.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>5</sup> محمد بن أحمد بن قاسم العقباني، تحفة الناظر مصدر سابق، ص 78.

<sup>6</sup> أشار شارل ديفورك Charles Dufourcq إلى بيع اليهود للمسلمين الذين يقصدون الدّور لبيع سلعهم فتخرج إليهم النّساء مباشرة ذلك، وحسبه فإنّ عمليّة البيع كانت تتمّ وسط تحفّظ وحذر شديدين. Charles –Emmanuel Dufourcq, la vie quotidienne dans l'Europe médiévale sois domination arabe, hachette littérature et sciences humaines, 1978, p185.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني



مقتطف من مخطوط نوازل ابن مرزوق يتعلّق بمحظر المجتمع للحرف التي تكسب الرجل صفة التّخنّث<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث: الحرب وإفقار موارد الإنتاج الحرفي والصّناعي البدوي (الثروة الحيوانية)

ارتبطت الإنتاج الصّناعي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني -بشكل كبير- بالصّناعات الصّوروية بالمعاش التي كان يزاولها المجتمع الزياني قاصرا على الفلاحة، داخل المدينة وخارجها، وحياسة الصّوف وما يتبعه من نسج الغزل وتحويله بالخيطة إلى ثياب وأكسية، ودباغة للجلد وخرزه بأطراف المدينة وما يرتبط به من صناعات جلديّة متمثّلة في صناعة التّعال والسروج وغيرها، وكلّها صنائع فرضها وضع البداوة وتواتر الأزمات من حروب وأوبئة، وقد وقّع الدكتور طاهر بونابي حينما وظّف مقارنة مالك بني نبيّ وعالم ما بعد المؤخّدين كمدخل وظيفي للاستدلال على البداوة والصّناعات في المغرب الأوسط الزياني<sup>2</sup>.

إنّ الاسترسال عند هذا النوع من الصّناعات -التي شكّلت حجر الأساس لصناعات هذا العصر- يسوق الباحث إلى الخلاص باشتراكها كلّها في مقومّ الفلاحة -وقد سبق التطرّق إلى حجم الضّرر التي ألحقته الحرب بهذا القطاع في موضع سابق من هذه الدّراسة- وما ارتبط بها من نشاط رعوي وتربية للحيوانات واستغلال لمستخلصاتها وفي مقدّماتها الجلود والأصواف حيث تعتبر المادّة الخام لكلّ هذه الصّناعات، وذلك ما أكّدت عليه مختلف التّصووص؛ فعن الصّناعات التّسيجيّة يشيد ابن خلدون بتلمسان قائلا: " غالب تكسبهم الفلاحة وحوك الصّوف، يتغايون في عمل أثوابه الرّفاق فتلقى الكساء عندهم من ثماني أواق، والأحرام من خمس، بذلك عرفوا في القديم والحديث"<sup>3</sup>، وقد أشار الحموي إلى هذه الشّهرة بقوله: "تتخذ النّساء بها من الصّوف أنواعا من الكنايبش لا توجد في غيرها"<sup>4</sup>، فضلا عن شهادة الزّهري الذي أشاد بعاصمة الدّولة الزيانية في هذه الصّناعة بقوله: "وهي دار مملكة يعمل فيها من الصّوف كلّ شيء بديع من المحرّرات والأبدان وأحاريم الصّوف والسّفاسير والحنابل"<sup>5</sup>، والأمر ذاته نلمسه في الصّناعات الجلدية وغيرها من الصّناعات التي تعتمد في مجملها على مقومّ الفلاحة.

وقد يغنينا التّساؤل عن موارد هذه الصّناعات وأثر الحرب عليها عن حجم الممارسات الحرفيّة والصّناعيّة خلال العهد الزياني، خاصة إذا علمنا أنّ الصّناعة قد وجدت خلال هذه الفترة لتغطية المتطلبات المعاشية، وعليه يمكن -ببساطة-

<sup>1</sup> مجهول: نوازل ابن مرزوق، تاريخ النسخ 12هـ، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 1342، و 6.

<sup>2</sup> طاهر بونابي، الحرف والحرفيون، مرجع سابق، ص 189-190.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 1/130.

<sup>4</sup> الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، 2/44.

<sup>5</sup> أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزّهري، كتاب الجغرافية، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدّينية، بورسعيد-مصر، [د.ت.]، ص 113.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

فهم العلاقة بين تعرّض النشاط الصناعي والحربي للانتكاس كلّما أصيب القطاع الفلاحي والرّعي بالتهور والانحيار<sup>1</sup>. فإلى أيّ ساهمت الحرب في تقويض موارد الإنتاج الصناعي؟

تسجّل بعض النصوص بكلّ حسرة تراجع بعض الحرف في سياق زمني كان المغرب الأوسط الزياني فيه في ظروف أنهكتها الحرب، فابن مرزوق الذي انتهى من كتابة كتابه "المناقب المرزوقية" سنة 1361/763م يقارن بين دروب صناعة حوك الصّوف قبل هذه السنّة وما آل إليه وضعها بقوله: "ولقد رأيت به هذه المدّة خرابا ... وكان مقصودا من البلد ترده التجارة من كلّ بلاد، وملوك إفريقية والمغرب إنّما يلبسون حينئذ ما كان يعمل بتلمسان من عمل الصّوف فإنّها اختصّت بذلك"<sup>2</sup>، أو عن موضع إيلان الذي كانت تخرج منه أحمال الصّوف حيث صرّح ابن مرزوق أنّه موضع من المواضع التي هُجرت وهذا ما نتحسّسه في قوله: " وهذا موضع من آحاد المواضع، فانظر هل تجد اليوم في ذلك الموضوع، أو ما يجاورهم عمارا"<sup>3</sup>، ومن الطّبيعي أن تترك هذه المواضع أطلاقا بسبب الحروب التي أتت على أهم مورد لها وهي؛ ثروات المغرب الأوسط الحيوانية التي طالتها أعمال السّلب والنّهب والغنم بعد كلّ معركة، ممّا جعل الحرب أحد أهم الأسباب الرئيسيّة في ندرة مستخلصات الثروة الحيوانية الموجهة للصناعات البدوية في الدّولة الزيانية، بغضّ النظر عن المؤثرات الطبيعيّة ونقص الماء والكأ الذي ينجّر عنه نقصان أعداد هذه الرّؤوس وإصابتها غالبا بأمراض مختلفة.

إنّ تتبّع كرونولوجيا استنزاف الثروة الحيوانية خلال العهد الزياني من شأنه أن يصوّر للباحث أحد حلقات التّواصل التاريخي بين الماضي والحاضر، ونخصّ بالذكر "الحروب الاقتصادية" المبنية على استنزاف المواد الأولية الرّامية إلى إفقار الإنتاج المحليّ في عصرنا، كما ييسط العديد من القرائن لهذا النوع من الحروب، ففي معركة وادي تلاغ بعد هزيمة الزيانيين على يد السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني عشية الاثنين 12 جمادى الثاني 666هـ/28 فيفري 1268م " تفرّقت جيوش عبد الوادي ... وانتهب بنو مرين جميع ما كان في عسكرهم من الخيل"<sup>4</sup>، كذلك حملة محمد بن علي بن غانية في صفر 681هـ/1282م في المغرب الأوسط في صفر 681هـ/1282م، فقد "عاث علي بن محمد ابن غانية في الأموال وفرّقها في ذؤبان العرب ومن انصاف إليهم ورحل إلى الجزائر ... مليانة ... وانتهى إلى مازونة فافتتحها"<sup>5</sup>، وبعدها إلى زاوية الشيخ أبي يعقوب بشلف " فأغار جيش ابن غثنية على زاويته، وكانت كثيرة العمارة لانضمام النّاس إليه لانتشار الفساد في ذلك وسلبوا الأموال والأثاث وانتهبوا المواشي"<sup>6</sup>، كما يذكر الوزان كذلك أن أهل تلمسان عند طردهم لبني مرين في حصارهم الطّويل لها 698-706هـ/1298-1306م غنموا عددا وافرا من الماشية، وفي هذا الصّدّد يقول ليون الإفريقي: " ... فخرجوا مع الملك من المدينة وحرزوا على انتصار لم يكن في الحسبان ... وغنموا أقواتا وكمية وافرة

<sup>1</sup> حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 249.

<sup>2</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 189.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 189.

<sup>4</sup> ابن الأحمر، روضة النسرين، مصدر سابق، ص 48-49.

<sup>5</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 6/254.

<sup>6</sup> المازوني، مناقب صلحاء الشلف، مصدر سابق، ص 196.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

من الماشية اضطرّ العدو إلى تركها. وهكذا تحوّلت مجاعة الأمس إلى رخاء اليوم<sup>1</sup> ولعل الوزن باستخدامه للتركيب "تحوّلت مجاعة الأمس إلى رخاء اليوم"<sup>2</sup> ينم عن إدراكه بمعادلة وفرة المواد الأولية وبلوغ حالة الرّخاء، إذ تعتبر الثروة الحيوانية المحرّك لجميع الأنشطة الصناعيّة والتجارية.

سار أبو تاشفين الأوّل على نفس النهج فقد كان أوّل عمل له بعد اعتلائه سدّة الحكم المهجوم على المخالفين لأبيه وفي مقدّمتهم محمد بن يوسف بن يحيى يغماسن سنة 1319هـ/719م " في ربوة توكال من جبل وانشريس فأخذ السلطان أبو تاشفين بمخبتهم ثمانية أيّام إلى أن جاءت مواشي القوم وأشرفت على الهلاك"<sup>3</sup>، كما استمرّت هذه الممارسة على عهدي الأميرين أبو سعيد وأبو ثابت بعد موقعة أنكاد ضدّ السلطان المريني أبو عنان، حيث قام السلطان المريني بتتبع فلول أبي ثابت " فانكشفوا واتبعوا آثارهم واستحملوهم، واستباحوا معسكرهم واستاقوا أموالهم ودوابهم"<sup>4</sup>، وقد وظّف الأميران استراتيجية استهداف الثروة الحيوانية للتّسريع من عمليّة استسلام العدوّ خلال الحصارات العسكريّة، ومثال ذلك حصار أبو ثابت لمغراوة فاتح سنة 1351هـ/752م الذي "حاصرهم حصارهم بمقلهم الأوّل بعد أن انصرفت العرب إلى مشاتها، فاشتدّ الحصار على مغراوة وأصاب مواشيم العطش، فانحطّت دفعة واحدة من الجبل تطلب المورد فأصابهم الدّهب"<sup>5</sup>، أما في عهد السلطان الزيّاني أبو حمو موسى الثاني فإنّ جيوش وزيره عبد الله بن مسلم خلال حصاره لأبي زيان ابن عم أبي حمو الثاني وحليفه أبي اللّيل بن موسى بن أبي الفضل الزيدي المتحصنين بجبل جرجرة في منتصف شهر شعبان 1363هـ/764م غنمت الكثير من الماشية "وانتهبوا ما أدركوه من الأمتعة والضّروع"<sup>6</sup>، وهي نفس الممارسة التي قام بها سنة 1375هـ/777م على إثر هجومه على سويد وبني يعقوب "فما رحم ضراعتهم ولا رجع عن حربهم ... وخلقوا [أي جيوش أبي حمو] التّجع بأسره بما فيه من الكراع والضّرع والدّخائر"<sup>7</sup>.

ونظرا لشيوع ظاهرة غصب المواشي المرافقة لحالة اللّامن<sup>8</sup> ومضاعفاتها على كلّ الأنشطة بما فيها النشاط الحربي، وجد الفقهاء أنفسهم أمام وجوب إصدار فتاوى تحظر هذه الممارسات وكلّ ما ارتبط بها من أعمال، وقد أشّرت على ذلك التّازلة التي سئل فيها عبد الرّحمان الوغليسي عن الدّواب المغصوبة فكان جوابه: "أنّ الدّابة المغصوبة حكمها كحم الغبن

<sup>1</sup> الوزن، وصف إفريقيا، مصدر سابق، 18/2.

<sup>2</sup> تجدر الإشارة في هذا الموضوع إلى أنّ النّص الأصلي بلغته الأم ومدلولة قد يختلف مع ما ورد في نصّ الوزان باللغة العربيّة، نظرا لأنّ هذا النّسخة العربيّة هي الصّورة النهائيّة للنّص المترجم عن الإيطاليّة ثمّ الفرنسيّة وكثرة ترجمة نصّ الوزان في العديد من المرات قد يحرف بعض مواضع الكلم عن مدلولاتها المراد بها النّص الأصلي، وقد سبق التّعقيب على ذلك في موضع سابق من هذه الدّراسة.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 239/1.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 382/7.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، 160/7.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السّابق، 127/2.

<sup>7</sup> المصدر نفسه، ص 307.

<sup>8</sup> شكّلت أعمال اللّصوصيّة خطرا آخر موزاي للحرب على مراد الإنتاج الحربي البدوي وخاصة أصواف المواشي فقد سئل عند الشّريف التلمساني عن "من اشرى صوفا على ظهور الغنم ولم يجرّها حتى سرقت". فتاوى الشريف التلمساني، مصدر سابق، و104ظ.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

المغصوبة لا يجالّ لأحد شراؤها ولا استخدامها إلا بإذن من غصبت منه وبعد أن يتخلّص الغاصب من تبعاتها يدفع قيمتها"<sup>1</sup>.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

<sup>1</sup> المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مصدر سابق، 4/121.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

### المبحث الثالث: أثر الحرب على النشاط التجاري

#### المطلب الأول: التجارة الداخلية

#### 1- اللّامن التجاري الداخلي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني:

يرجع الكثير من الباحثين صور الانتعاش التجاري لدول المغرب الإسلامي إلى عوامل عامّة تتعلق بحجم الممارسات الاقتصادية من مبادلات، صادرات، واردات، ضرائب ... إلخ، لكنّ القراءة المتأنّية لتطوّر هذا الحراك يخلص بالباحث إلى استدراك أسباب ديناميّة هذا النشاط وحركيته الكامنة في العوامل العسكرية التي تُشكّل بدورها أسس هذا النشاط، حيث أنّ مختلف هذه الأنشطة لم تكن لتعرف حيويّتها إلاّ في وسط آمن، والعكس، وعليه فإنّ ارتفاعها وانخفاضها مقرون بمدى توفير الدولة بوسائلها العسكرية ومراصدها الأمنية لحالة الأمن، ومن الطبيعي أن يحتكم النشاط التجاري بصفة مباشرة للمتغيّرات السياسيّة وميزان القوى العسكريّة ويرتبط به كلّ الارتباط لضمان السير الطبيعي لمختلف هذه الأنشطة التجارية، وقد نتحسّن البناء ذاته في قول الحريري: "وأما بضائع التجارات، فعرضة للمخاطرات وطعمة للغارات"<sup>1</sup>، أو أن ترتبط - التجارة - بصفة غير مباشرة بلواحقها كالفلاحة والصناعة، ومن ثمة فإنّ التجارة تتعرّض للكساد كلّما أُنهك النشاط الفلاحي والصناعي نظرا لاعتمادها عليهما<sup>2</sup>، وهي التلازميّة نفسها التي بسطها ابن خلدون في المقدمة إذ يرى " أنّ معنى التجارة محاولة على الكسب بتنمية رأس المال في شراء السلعة بالرخص وبيعها بالغلاء ما كانت السلعة من رقيق، أو زرع، أو حيوان، أو سلاح، أو قماش"<sup>3</sup>.

إنّ تتبّع شهادات النصوص الجغرافية يبيّن بجلاء أثر هذه الظرفيّة الممتّلة في عدم الاستقرار السياسي وكثرة الفتن والانفلات الأمني المرافق لحالة الحرب على تفشي ظاهرة اللصوصيّة من طرف الأعراب الذين كانوا يترصّون بالطرق التجاريّة الداخلية ودواخل الصّحراء خاصّة في فترة الضّعف<sup>4</sup>، وتجدر الإشارة إلى وجوب التفريق بين ظرفيّة السرقة داخل المدن وديمومة الحراية في المسالك التي تعبرها القوافل<sup>5</sup>، فالرحالة العبدري الذي انطلق في رحلته في 25 ذي القعدة 688هـ/10 ديسمبر 1289م نوه إلى انعدام الأمن وندد بأعمال اللصوصيّة في المفازة الواقعة في الطريق الرّابط بين تلمسان وفاس كونه لا يخلو من قطع الطرق فيقول: "ولمّا انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان وجدنا طريقها منقطعاً مخوفاً، لا تسلكه الجموع الوافرة إلاّ على حال حذر واستعداد، وتلك المفاز مع قربها من أضرّ بقاع الأرض على المسافر، لأنّ الجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدّهم إذاية، لا يسلم منهم صالح ولا طالح، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلاّ مستعدّ يتفادون

<sup>1</sup> أبي محمد القسم بن علي الحريري، كتاب المقامات، اعتنى بطبعه كبير الدين أحمد، مطبعة أردو كائيد، [د.م]، 1882، ص 237.

<sup>2</sup> حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 261.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 2/269.

<sup>4</sup> مصطفى بن دريس، الرّوابط الاقتصادية للمغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا (ق7-10هـ)، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018، ص 101.

<sup>5</sup> سعيد بن حمادة، نظام الشرطة بالغرب الإسلامي، سلسلة شرفات، ع92، منشورات الزمن، المغرب، 2017، ص 69.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

من شوه<sup>1</sup>، ونظرا لحجم هذه الممارسات فإنّ السلطان أبي الحسن المريني قام بإعمار هذا الطريق وتمهيد الطريق للمسافرين عن طريق إقطاع بعض الأراضي الواقعة فيه لأناس ينصبون فيه مواضعهم للسكنى " يلزمون فيها بيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الآدم على اختلافها والمرافق التي يضطرون إليها، هم وبهائمهم ويجرسونهم ويحوطنون أمتعتهم، فإن ضاع شيء بينهم تضمّنوه، فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله في ذهابه وإقباله"<sup>2</sup>، كما نوه أيضا إلى أنّ كلّ الطريق الذي تقطعه القوافل التجاريّة من فاس-مرورا بالمغرب الأوسط- إلى الاسكندريّة غير مأمون، وذلك " أنّ المسافر عندما يخرج من مدينة فاس، لا يزال إلى الاسكندريّة، في خوض ظلماء وخبط عشواء، لا يأمن على ماله ولا على نفسه ... تتعاطاه الأيادي الغاشمة وتتهاداه الأكف الظالمّة، لا منجد له ولا معين ولا ملجأ له يعتصم به"<sup>3</sup>

وقد أشار الرحالة المصري عبد الباسط أيضا إلى دور أعمال اللصوصيّة-التي استمرت على عهده خلال القرن 9هـ/15م في التأثير سلبا على الأمن التجاري في الطرق التجارية الداخليّة في قوله: "ورد الخبر إلينا بوهران بأنّ جمعا من التجار كانوا توجّهوا من تلمسان وغيرها إلى فاس وباعوا ما حملوا معهم للتجار فيه، ولما جرت الفتنة حصروا على الرجوع عائدين إلى أوطانهم ... فاحتالوا على العرب وقطّاع الطرق بأن ... أذابوا الغراء الذي معهم وجعلوا يلطّخون مواضع أبدانهم على رقابهم ووجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى نصف الساق ثمّ يذرون ذلك ممّا معهم من الطّحال المدقوق المجفّف ويمشون بإسكانهم يهيمون بأنهم مجاذيم من أهل البلاء... ولم يزالوا على ذلك حتّى وصلوا إلى بلادهم"<sup>4</sup>، وهي نفس الشّهادة التي يقدّمها معاصره الشيخ محمد بن يوسف السنوسي الذي قصد الشيخ إبراهيم التازي حسبما جرت العادة بزيارته في الموسم النبوي، حيث يؤكّد على انتشار ظاهرة اللصوصيّة في الطريق المؤدّي منها إلى تلمسان، وفي هذا الصّدّد يقول الملاي على منطوق لسان السنوسي: "... أردنا السّفر لتلمسان، واستأذنه في ذلك بعض أصحابه اغتاما لما ظهر في تلك الأيام من الصّحو، فلم يأذن لهم، وكثّروا عليه الطّلاب فلم يجبهم إليه فأقمنا منتظرين منه الإذن مفكرين في حال الطريق لأنّها كانت مخوفة، فبينما نحن في يوم ثقل فيه السّحاب ... وإذا بالشيخ قد بعث لجماعة الفقراء أن اعزموا على السّفر ... وأصبحنا مسافرين ... وإذا الجماعة من فرسان العرب المعروفين بقطع الطريق، فما تعرّضوا لنا، ولا التفتوا إلينا"<sup>5</sup>، وعلى الرّغم من الطّابع الكرامي الذي طغى على هذه الرواية إلا أنّها لامست واقع السّفر المحفوف بالمخاطر خلال القرن 9هـ/15م.

الملاحظ -أيضا- من قول الرحالة المغربي ابن بطوطة أنّ أعمال اللصوصيّة كانت تتوقّف في شهر رمضان عن الإغارة على القوافل التجاريّة في الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة وتوات في الطريق الفرعي الذي يصل بينها وبين مدينة تكدة

<sup>1</sup> العبدري، الرحلة، مصدر سابق ص 25.

<sup>2</sup> ابن مرزوق، المسند الصّحيح الحسن، مصدر سابق، ص 429.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 33.

<sup>4</sup> Robert Brunschvig, deux récits de voyage inédits en afrique du nord au XV<sup>eme</sup> siècle, Abdalbasit b.Halil et adorn, la rose éditeurs, paris, 1936, p 58-59.

<sup>5</sup> الملاي، مصدر سابق، ص 85-56.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

بعد أصبحت نقطة التقاء للقوافل بفضل مراعيها وحقولها وواحاتها<sup>1</sup>، إذ يقول في هذا الصدد: "ووصلنا بلاد هكّار، وهم طائفة من البربر ملتّمون، لا خير عندهم، ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتّى غرموا له أثوابا وسواها، وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان، وهم لا يغيرون فيه، ولا يعترضون القوافل، وإذا وجد سراقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له، وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر"<sup>2</sup>، كما أشار إلى التخوف الذي كان يبديه التجار في الطريق بين بونة وتونس بقوله: "ثم تركنا بها [أي ببونة] ما كان في صحبتنا من التجار ... فكنت أشدّ نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط من السرج بسبب الضعف ولا يمكنني النزول من الخوف إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس"<sup>3</sup>.

يشير المقرّي أيضا إلى المهجّرين إلى فاس خلال عمليّات التنصير التي طالت أهل قرطبة من طرف المسيحيين الذين استولوا على الحكم أواخر القرن التاسع وطيلة القرن العاشر 15-16م، قد التجّوا إلى وهران وتلمسان واستوطنوا بتلمسان خلال القرن العاشر، لكنّ المؤلم في هذه المأساة -زيادة على ما عانوه من نكاية من طرف النصارى- هو أنّ هؤلاء المهاجرين الأندلسيين كانوا في طريقهم من وهران إلى تلمسان يعانون من تسلّط قطاع الطريق من الأعراب الذين نهبوا أموالهم ولم يخلص منهم إلّا القليل، وفي هذا الصدد يقول المقرّي: " فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخرى بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها"<sup>4</sup>.

أكد الوزان -في مرحلة متأخرة- على شيوع هذه الظاهرة وتداعياتها السلبية على النشاط التجاري، فعن تلمسان مثلا يقول: "لم تفتأ هذه المملكة تتضرّر من تعسّفات الأعراب القاطنين بالجزء المجاور للصحراء ... وقلّما توجد في البلاد سبل آمنة، ومع ذلك فالسّلع تروّج بكثرة في مملكة تلمسان... لأنّها تشكّل مرحلة في الطريق المؤدّية إلى بلاد السودان"<sup>5</sup>، كذلك صحراء أنكاد بين تلمسان وفاس التي كانت "مأوى لعصابة لصوص من الأعراب على استعداد دائم للفتك بالمارين من هناك، حيث الطريق المؤدّية من فاس إلى تلمسان. وقلّما ينجو التجار من شرّهم، لاسيّما في فصل الشتاء، لأنّ الأعراب المستأجرين للحفاظ على الأمن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها آنذاك ... ويبقى منهم

<sup>1</sup> لطيفة بشّاري، التجارة الخارجية لبني زيان، ص 48.

<sup>2</sup> ابن بطّوطة، مصدر سابق، ص 699.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 6.

<sup>4</sup> المقرّي، نفح الطيب، مصدر سابق، 528/4.

<sup>5</sup> كانت أحد أوجه الصّراع بين الزيانيين والمرينيين تعزى لأسباب اقتصادية، وقد يفسّر ذلك أماكن وقوع المعارك بين الزيانيين وبني مرين فقبيل سقوط دولة الموخّدين كانت تتم الصّدّامات العسكريّة في المناطق الغربيّة والجنوبيّة من تلمسان على الحدود بين الدّولتين بنواحي وجدة وتازا وجنوبا لنحو سجلماسة، والعامل المشترك بينها هو أهميّة هذه المناطق ووقوعها على خريطة الطّرق التجاريّة، لذلك كان يسعى كلّ طرف إثبات سيادته على هذه المنطقة، ومّا يعزّز هذا الطّرح أن أحد أسباب بناء المنصورة المرينية فيما بعد وجد لذات الغرض الاقتصادي والعسكري لإلغاء دور تلمسان التجاري في المغرب الأوسط. الوزان، مصدر سابق، 9/2. عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 57.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزباني

الغير المستأجرين وحدهم ليعيشوا من اللّصوصية<sup>1</sup>، كما أنّ هذا القفر من أنكد بالإضافة إلى المخاطر التي تشكّلها أعمال اللّصوصية فيه فإنّها تعتبر منطقة حرب حيوية ذلك أنّها كانت مستقرّ أبا حمّو موسى الثاني وجيوشه النظامية عند استطراده لسنوات بعد ترك عاصمته خاوية في أيدي بني مرين<sup>2</sup>، الأمر الذي يجعلها من أخطر المناطق التي يمكن للتجار سلوكها.

فضلا عن ذلك تجدر الإشارة إلى أنّ المناطق التي كانت تبعد عن السّلطة المركزيّة كانت هي الأخرى عرضة لنشاط اللّصوص الذين أثروا على مردود النشاط التجاري، كحال المدينة التي "كان سكّانها أثرياء لأنهم يتجرون مع نوميديا ... إلا أنّ الأعراب يثقلون كاهلهم بالإتاوات، ولا يستطيع ملك تلمسان أن يدافع عنهم ولا أن يسيطر عليهم لبعدهم عن هذه المدينة"<sup>3</sup>.

لم تغفل التّصوص النوازلية شيوع هذه الظاهرة المرافقة لحالة عدم الاستقرار السياسي نتيجة الحروب، وكانت من بين أهمّ المواضيع طرحا على الفقهاء، فقد جاء عند المازوني نازلة تؤكّد إضرار أعمال اللّصوصية بالنشاط التجاري، ويقول في هذا الصّد: "سئل بعض فقهاء بلدنا عن شهادة اللّيف من الرّجال والأحرار والعبيد والنساء على القطّاع المحاربين والغائبين والسّالين يقطعون الطّريق على القوافل ويهجمون على من يلقونه بعيدا عن العمارة"<sup>4</sup>، كما سئل الفقيه العقباني عن نازلتين، الأولى: "عن رجل كان من جبابة العرب وأهل المخالفة ... تقدّمت منه غصوبات وأخذ أموال النّاس بالنّهب"<sup>5</sup>، والثانية: "عن رجلين سلّط الله عليهما بعض الأعراب حبسهما وقال لا أفلتكما حتى تعطيني دينارا لكل واحد"<sup>6</sup>، ونظرا لتعاظم نشاط هذه الجماعات أجاز الفقيه أبو العباس أحمد المعروف بالمريض سنة 796هـ/1393م قتال قبائل الديلم وسعيد ورياح وبني عامر بالمغرب الأوسط وأذن بجهادهم؛ أخذا بقول الإمام مالك، كما أنّه عرض فتوى إجازة "قتال المغيرين وقطّاع الطّرق من عرب المغرب الأوسط" على الفقيه ابن عرفة لمقاتلة هؤلاء وجهادهم والإشارة إلى ثواب جهادهم<sup>7</sup>، نظرا لأعمال القطع واعتراض القوافل التي كانوا يشنونها بين الفينة والأخرى<sup>8</sup>، وقد أفتى بعض الفقهاء ثواب قتل أهل الحرابة عند العجز عن قطع مضرّتهم إلا بغير القتل "إذا كان قد علّم من حالة الرّجل المذكور ما ذكر من الحرابة وكان منقطعاً لها قاطعا للطّريق مخيفا للسبيل مؤذيا للنّاس ... وهو أعظم أجرا ممّن قتل بأرض الرّوم كافرا"<sup>9</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 11/2.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق 401/7.

<sup>3</sup> الوزان، المصدر السابق، 41/2.

<sup>4</sup> المازوني، الدرر، 211/4.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 103.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، 50/3.

<sup>7</sup> المصدر نفسه، 382/1-385.

<sup>8</sup> المصدر نفسه، 87/4.

<sup>9</sup> المصدر نفسه، 276/1.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

تعكس لنا شهادة ابن قنفذ سنة 776هـ/1374م بعد عودته من المغرب الأقصى خلال هذه السنة مظاهر انعدام الأمن في الطريق الرابط بين تلمسان وقسنطينة، حيث قال: " فأقمت بتلمسان نحو شهر أنتظر تيسر سلوك الطريق فالتجأت إلى قبر الشيخ أبي مدين ودعوت الله عنده فوقع ما أملته وارتحلت بعد أيام سيرة فرأيت في الطريق من الخير ما كان يتعجب منه شاهده، وكان أمر الطريق في الخوف والجوع، بحيث أن كل من تقدم عليه يتعجب من وصولنا سالمين، ثم عند ارتحالنا من عنده يتأسف علينا حتى أن منهم من يسمعنا ضرب الأكف خلفنا تحسراً علينا حتى انتهى سفرنا"<sup>1</sup>.

والملاحظ أيضاً أن المتنقل بين المناطق الداخلية خلال الفترة المعاصرة للدولة الزيانية رغم قصرها كان يسارع إلى التحرك دون نقل أغراضه معه لكي لا تنقله أو تبطل من حركته، وهذا الافتراض يمكن طرحه على خلفية الحوادث التي كانت في إفريقية خلال القرن السابع، ويؤكد الوصف الوارد في رواية أبي زيد عبد الرحمن المأموني حيث يقول: "قصدت إلى زيارة الشيخ [ابن الدباغ الدهماني] ومعني شيء من القمح، فأخبرت وأنا في الطريق أن العرب تستقطع على الناس، فتركت مامعي في قرية وسرت إلى الشيخ"<sup>2</sup>، وفي ذلك إشارة إلى انعدام الأمن هذا الطريق، أكثر منه بيان لمسؤولية المخاطرة بحمل البضائع للمتاجرة بها وما يتحمله التجار من خوف ومسؤولية ازاء حملهم لبضائعهم قصد المتاجرة بها.

إنّ الأخذ بهذه القرائن من شأنه يلخص قضايا الوضع التجاري في المغرب عموماً والمغرب الأوسط خصوصاً زمن الحروب، ويجلي العتامة عن واقع اللااستقرار الذي شكّل أحد فصول التاريخ الاقتصادي لهذا العصر، وقد انتبه ابن خلدون لهذه العلاقة وعقد فصلاً "في أن الظلم مؤذن بخراب العمران" وأشار إلى العلاقة التي تربط بين غياب الأمن وانتقاص التجارة ومن ثمّة العمران، فبينما يؤكد على أن "العمران ووفوره ونفاق أسواقه إنّما بالأعمال، وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين جائين" إلا أنه موازاة مع ذلك يذهب إلى القول -في صيغة تقريرية-: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرون حينئذ أن غايتها ومصيرها انتهاجها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، فإذا قعد الناس عن المعاش، وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران"<sup>3</sup>.

كما أن هذه الشواهد قد تحملنا على الأخذ بالأسباب العسكرية التي أقرها المقري كأحد العوامل المساهمة في الانتكاس التجاري، فقد أعزى المقري فقدان أرباب الأموال لتجاراتهم النافقة بتلمسان لهذا العصر في خضم حديثه عن شركة أسرة أجداده التي كانت تتجار بتلمسان وسجلماسة وإيولانين إلى هذا العامل، فبعد أن خرجت أموالهم عن الحد وكادت تفوت العد والحصر -على حدّ تعبيره-، آلت هذه الشركة إلى الانحلال والزوال بسبب توالي الفتن البشرية والطبيعية<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الناصري، الاستقصا، 83/4.

<sup>2</sup> ابن الدباغ القيرواني، القيرواني، الأسرار الجلية في المناقب الدهمانية، تح: عبد لكريم الشبلي، كونتراست للنشر، تونس، 2015، ص 88.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المقدمة، 80/2.

<sup>4</sup> لقد حملت هذه الأسباب تجار القوافل تحمل مصاريف تأمين الرحلة من خفارة واكتراء لأدلاء ليكونوا لهم عيوناً بالصّحراء وقد وصلت تكاليف الدليل الذي يرافق القافلة التجارية حسب ابن خلدون إلى مائة مثقال من الذهب. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 675.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

ويسجّل لنا المقري فصول انحلال هذه الشّركة بقوله: "... وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السّلاطين، فلم يزل حاهم في نقصان إلى هذا الزّمن، فهذا أنا ذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عشياً"<sup>1</sup>.

2- الطّرق التّجاريّة الدّاخلية ومناطق عبور الجيش:

تعدّد أنماط الاستدلال لبيان أثر الحرب وتأثيراتها على الأنشطة التّجاريّة نظراً لارتباط هذه الأخيرة بكلّ مظاهر العمران ولاختصاص الأولى غالباً بتثبيط كل الأنشطة المتعلّقة بهذا المظهر<sup>2</sup>، غير أنّ نمطا من بين هذه الأنماط يعد مسلكا شائكا للدّلالة على العلاقة التي تربط بين هذين المتغيّرين نظرا لعدم وجود قرائن نعتمدها لرسم خريطة عسكريّة تبين خطّ سير الجيوش الزيانيّة خلال الحرب، ويتعلّق الأمر بالتأثير المباشر للجيوش الزيانيّة على الطّرق التّجارية، أو بعبارة أخرى التّساؤل عن الطّرق التي كان يسلكها الجيش الزياني أثناء حروبه العديدة مع الجارتين الحفصيّة والمرينيّة ومدى تقاطعها مع الطّرق التّجاريّة السّالكة<sup>3</sup>، وبالتالي التّساؤل عن اشتغال الطّرق التّجاريّة بالأغراض العسكريّة بدل الغرض التّجاري الذي وجدت له، وهذا الطّرح قد قدّم له روبر بارنشفيك بانتقاء استدلالٍ يعود لفترة متأخّرة (ق10هـ/16م) كما أكّد على محدوديّة هذا الطّرح وصعوبة تعميمه على تاريخ ما بعد الموحّدين<sup>4</sup>.

تذهب بعض الدّراسات إلى الحكم بأنّ تنقل الجيش خلال الحرب كان يتمّ عبر الطّرق التّجاريّة مما يعني توقّف العمليّة التّجاريّة إلى حين فراغ الجيش من نشاطه الحربي<sup>5</sup>، وهو الرّأي الذي استقرّ عليه الباحثين إذ يرى أنّ "أغلب المسالك التّجاريّة خلال العصر الوسيط كانت الحروب والتّحرّكات العسكريّة من وراء خلقها، ورسم ملامحها، بينما لم يزد التّجار عن استغلالها أثناء فترات الهدوء والسّلم، وبهذا وحده نستطيع أن نفهم لماذا تتوقّف الحركة التّجاريّة البعيدة

<sup>1</sup> المقري، نفع الطّيب، مصدر سابق 206/5.

<sup>2</sup> عقد ابن خلدون فصلا في مقدّمته وسمه بـ "في معنى التّجارة ومذاهبها وأصنافها" وأشار في هذا الفصل إلى شموليّة النشاط التجاري وارتباطه بكل الأنشطة الفلاحيّة والصّناعيّة وأنشطة المعاملات الماليّة، وهي مظاهر دالّة على العمران، غير أنّ هذه المظاهر وفضاءات حيويّتها تتعرض للانتكاسة كلّما اقتربت بالحروب. ابن خلدون، المقدّمة، مصدر سابق 269/2.

<sup>3</sup> يقول الإدريسي عن الطّرق الدّاخلية لتلمسان: "والطّريق من تلمسان إلى مدينة تنس سبع مراحل ... والطّريق من تلمسان إلى مدينة وهران السّاحليّة وهما مرحلتان كبيرتان وقيل بل هي ثلاث مراحل ... والطّريق من مدينة تلمسان إلى مدينة المسيلة ... ومن تلمسان إلى مدينة تاهرت أربع مراحل". ويضيف ابن سعيد المغربي: "... إلى أرشغون فرضة تلمسان وحيث ينصب التّهر الذي ينصب فيه نهر يسر الكبير سبعون ميلا، ومنه إلى فرضة منين اثنا عشر ميلا. وهي آخر فرض هذا الجزء من العدوية ... وتقع تلمسان حيث الطول أربع عشرة درجة وأربعون دقيقة والعرض ثلاثة وثلاثون ميلا". الإدريسي، مصدر سابق، ص 82-84. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1955.

<sup>4</sup> روبر بارنشفيك، 248/2.

<sup>5</sup> حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 265.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

المدى خلال فترة الحروب والتمردات<sup>1</sup>، وقد جاء في إحدى الدراسات أنّ المغرب الأوسط كان "مسرحاً للحروب وتأسيس الدول ومنطقة عبور للمعارك"<sup>2</sup>.

إنّ أهمّ مفارقة تحول بين استغلال الجيوش الزيانية للطرق التجارية خلال المسير إلى الحرب هو عائق الاستزادة الذي تولى له الجيوش الزيانية بالغ اهتمامها، واحتياج الجيوش لمخاطبات استراحة ومصادر تزود وفيرة بالماء والكلأ في الحروب البعيدة<sup>3</sup>، فضلا عن احتياج الجيش أثناء خوضه للمعارك إلى ضفاف الأودية والأنهار لتوظيفها في الجوانب التكتيكية الحربية كحاجز دفاعي أمام العدو في بعض الأحيان وفق ما تقتضيه الاستراتيجيات الحربية، وقد سبق الإشارة إلى هذا الموضوع في موضع سابق من هذه الدراسة في عنصر "مركزية عنصر الماء في الظاهرة الحربية"، فمن الطبيعي أن يتفادى الجيش - غالبا- الطريق الوعرة الخالية من هذه المقومات إلّا في حالات نادرة على عكس التجار<sup>4</sup>، ويتفادى -من منظور آخر- التجار<sup>5</sup> طريقا يسلكه جيش يمكن أن يهدد أحماهم ويكون عرضة لسلبها منهم، وتفيد إحدى القرائن عند المقرّي أنّ احتياج القوافل التجارية القاصدة للصحراء للآبار أكبر من احتياجها للأودية والأنهار، فضلا عن حذرهما الشديد من مقابلة الجيوش<sup>6</sup>، وبذلك فإنّ الطرح الذي يرى بأنّ الطرق التجارية أوجدتها طرق مسيرة الجيش في الحرب طرح حمّل أكثر من مضمونه.

غير أنّ هذه المطارحة تبقى نسبية نظرا لما توفّره عملية الاستقراء في بعض الشذرات المصدرية، حيث تؤكّد بعض الشواهد على مرور الجيوش الزيانية ببعض المدن والمفاوز والمحاور الرئيسية التي كانت تشكل أحد نقاط مرور التجار، ومن هذه الشواهد:

<sup>1</sup> المرجع نفسه، نفس الصفحة.

<sup>2</sup> خالد عبد الحميد، العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب الأوسط من الفتح إلى نهاية الموحدية دراسة تاريخية نقدية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، إشراف مختار حساني، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2007-2008، ص 15.

<sup>3</sup> للمزيد من التفصيل حول القرائن الدالة تقوّت الجيش من أرض العدو خلال العهد الزياني وضرورة تزويد الجيش بالميرة خلال الحرب انظر: زهر البستان، مصدر سابق ص 234. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق 285/7. المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق 113/4.

<sup>4</sup> من بين هذه الحالات: حالة الانسحاب التكتيكي أو الانسحاب القسري، أو الاستطرد، وقد سجلنا في بغية الرواد خبر إجمال أبو حمّو موسى الثاني وجيوشه إلى الصحراء وتتبعه لمصادر المياه في طريقه إليها بعد وفود جيوش أبي عنان إلى تلمسان في 02 جمادى الأولى 760هـ، حيث "... خيم بعيون يسر... ماء مرسبط، ثمّ من الغد بعيون النشاب...". يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق 47/2-48.

<sup>5</sup> لم يهتمّ التجار كثيرا بالمسير بمحاذاة الأودية والأنهار لتأمين حاجياتهم من الماء بل اهتمّوا بتتبع أماكن الآبار. خيرة بلعربي، المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي (ق 5-10هـ)، مذكرة تخرّج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف مبخوت بودواية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، قسم التاريخ، 2009-2010، ص 145. عمر بلوط، فنادق مدينة تلمسان الزيانية، مؤسسة الضحى للنشر والتوزيع، 2011، ص 70.

<sup>6</sup> يقول المقرّي عن الشركة التجارية التي اشتهرت بها أسرته: "ثمّ اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بجفر الآبار وتأمين التجار، وأخذوا طلا للرحيل، وراية تقدّم عند المسير". المقرّي، نفع الطيب، مصدر سابق 205/5.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

- يؤكّد الوِزّان على أنّ قفر أنكاد بين تلمسان وفاس طريق غير آمن نظرا للأعراب الموجودين بها لفرض الأمن بين الدولة الزيانية والمرينية، كما يؤكّد على أنّها منطقة لعبور التجار في سائر فصول السنة ماعدا الشتاء ونلمس ذلك في قوله: "وقلما ينجو التجار من شرهم، لا سيّما في فصل الشتاء، لأنّ الأعراب المستأجرين للحفاظ على الأمن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها آنذاك"<sup>1</sup>، والمتتبع لتاريخ هذه المنطقة الحدودية في الجهات الغربية للدولة الزيانية يدرك أهمية موقعها الجيوسياسي كونها ساحة لخوض المعارك بين الدولتين منذ عهد يغمراسن مؤسس دولة بني عبد الواد 633هـ/1236م إلى غاية نهاية حكم أبي حمّو موسى الثاني سنة 791هـ/1388م<sup>2</sup>، فضلا عن أنّها كانت الموقع الذي انعقدت فيه الحرب بين أبي عنان وأبي ثابت بعد أن قام أبو ثابت بالتشاور مع مشيخة بني عبد الواد حول موقع المعركة "فأجمعوا على لقاء ملك المغرب بأنجاد"<sup>3</sup>، وأسفرت هذه المعركة عن سقوط دولة بني عبد الواد مرّة أخرى في يد بني مرين سنة 753هـ/1352م. زيادة على ذلك فإنّ هذه المنطقة باعتبارها منطقة تماس بين الدولة المرينية والدولة الزيانية كانت عرضة للحروب نظرا للتقلبات السياسية بين الدولتين فقد كان الملجأ لأبي حمّو موسى الثاني في إصحاره عند تقدّم الجيوش المرينية حيث فرّ من تلمسان أربعة مرّات خلال فترة حكمه<sup>4</sup>، وننوّه في نفس الوقت أنّها كانت كذلك أحد الطّرق التجاريّة الفرعيّة الرابطة بين تلمسان ووجدة في طريق التجارة بين تلمسان وسجلماسة<sup>5</sup>، حيث يسير منها التجار إلى أنكاد ويصل إلى تازة عبر تاوريرت وجرسيف إلى فاس، ثمّ يتجهون جنوبا إلى صفرو وتادلا وأغمات وريكة ودرعة ثمّ يقطعون الأطلس الكبير ويسيرون شرقا حتّى يصل إلى سجلماسة عبر حوض وادي درعة<sup>6</sup>.

- بالحديث عن سجلماسة كمحطّة رئيسيّة للتجارة الصحراوية وتاوريرت كمنطقة عبور نحو سجلماسة<sup>7</sup>، فإنّ هذين المنطقتين لم تسلما من الحروب الزيانية المرينية أيضا، فتاوريرت بعد أن استولى بنو مرين على مملكة المغرب أصبحت موضع نزاع وميدان حروب عديدة، حتّى أنّها حسب شهادة الوِزّان "استبدلت رؤساءها عشر مرّات في ظرف خمسين سنة، تارة

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 11/2.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق 7/161-164-208-244-381-413.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 1/263. ابن خلدون، المصدر السابق، 7/381.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 7/381.

<sup>5</sup> عمر بلوط، فنادق مدينة تلمسان الزيانية، مؤسسة الضحى، الجزائر، 2011، ص 55.

<sup>6</sup> لطيفة بشّاري، مرجع سابق، ص 46.

<sup>7</sup> المرجع نفسه، نفس الصّفحة.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

تخضع لملك فاس، وتارة لملك تلمسان<sup>1</sup> إلى أن دمّرت سنة 780هـ/1378م، ولا غرو أنّ خمسين سنة من النزاع في المنطقة كانت سببا مقنعا لتواجد الجيوش بصفة شبه دائمة في هذه المنطقة وتراجع هذا الطريق تجاريا لصالح العمل العسكري.

أما سجللماسة فقد لعبت دورا تجاريا بالغ الأهمية، لوقوعها على الخط التجاري الرابط بين دول المغرب وجنوب الصحراء وهو ما جعل منها معتركا للصراع الزياني المريني، لأنّ المسيطر عليها وعلى تلمسان التي كانت مقصد تجار الآفاق<sup>2</sup> من شأنه أن يسيطر على التجارة في المنطقة<sup>3</sup>، وعليه فقد عمل السلطان الزياني يغمراسن على إحكام قبضته عليها وتم له ذلك في 662هـ/1362م فبعث "إليها عاملا من بني عبد الواد، وملكها يغمراسن ولم تنزل بيده إلى أن دخلها أمير المسلمين [يعقوب بن عبد الحق] في سنة ثلاث وسبعين وستمئة"<sup>4</sup>، وتواصلت الحروب بين الدولتين على هذا الموقع الإستراتيجي، وكان من تبعاتها أن تعرضت أحواز سجلماسة والطريق المفضي منها إلى تلمسان لأعمال تحريق وتخريب شديدة علي يد شيخ بني زردال عبد الله بن مسلم الذي عقد حلفا مع أبي حمو موسى الثاني الزياني، ويصور لنا صاحب زهر البستان حجم الضرر بقوله: " فشن الغارات على أهل الأودية وأكلها، وحرقت المداشر وسهولها، حتى كادت تبلغ سجلماسة غاراته، وتحرق البلد شراراته، ثم أكل ما وجد من حقل وقطع جميع تلك السبل، وأبدى عداوته علانية، وصاح بالخراب صيحة كلية، فلا يكاد يمرّ بمدشر إلا حرّقه، ولا بحقل إلا أكله وفرّقه، إلى أن وصل بلاد تلمسان"<sup>5</sup>، كما يقدم الإدريسي شهادته حول أثر الحروب على تراجع دور سجلماسة التجاري قبل هذا العصر فيقول: "وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد للوارد والصادر ... يتجهّز منها إلى سائر بلاد المغرب وغيرها وبناءاتها حسنة، غير أنّ المخالفين في زماننا هذا أتوا على أكثرها هدمًا وحرقا"<sup>6</sup>.

- لم يغفل كل من يحيى بن خلدون وصاحب كتاب زهر البستان خط سير أبو حمو موسى الثاني وجيشه القادم شرقا من كنف الدولة الحفصية في حركته لإعادة إحياء الدولة الزيانية سنة 760هـ/1358م<sup>7</sup>، وكانت طريقه لإعادة إحياء دولته انطلاقا من تونس مرورا بقفصة وتوزر ونفطة ثم تبسة ومسكيانة ثم الجريد وميلة<sup>8</sup> ثم إلى غينة بين جبال عياض وجبال الأوراس ثم الزاب ثم غير وجهته جنوبا نحو وادي ريغ وورجلان ثم اتجه ناحية الشمال الغربي نحو وادي زرقون ثم وادي ملال

<sup>1</sup> الوزان، مصدر سابق، 349/1.

<sup>2</sup> البكري، مصدر سابق، ص 77.

<sup>3</sup> لطيفة بشاري، إسهامات التلمسانيين في المجالين الاقتصادي والديني بالسودان الغربي، ضمن كتاب تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والميراث الغني، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، ص 67.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، مصدر سابق، ص 101.

<sup>5</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 116.

<sup>6</sup> الإدريسي، مصدر سابق، 225-226.

<sup>7</sup> مجهول المصدر السابق، 14-49. يحيى بن خلدون، بغية الزواد، مصدر سابق، 19-26.

<sup>8</sup> مجهول، المصدر السابق، ص 14-17.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

جنوب تلمسان<sup>1</sup>، ويجدر الإشارة إلى أنّ هذه التّحركات تمّت على مدار قرابة عامين من 01 رجب 758هـ/20 يونيو 1357م إلى غاية 01 ربيع الأول سنة 760هـ/31 جانفي 1359م، وهي مدّة كافية لتعطيل حركة التّجارة نظرا لطول مدّة تحرك جيوش أبي حمّو التي كانت في ازدياد على مدار هذه المدّة، كما يجب أن ننوّه إلى أنّ بعض المناطق التي مرّ بها جيش أبي حمّو موسى الثاني هي مناطق داخلية سالكة لبعض التّجار، وطرق رابطة بين تلمسان ومدن المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، تمتدّ هذه الطّرق عبر الهضاب وتمرّ بالجريد ثم الأوراس وتتجه شمالا إلى الحضنة ثم قسنطينة وبجاية ومليانة، وتمرّ بحوض الشّلف إلى تلمسان ومنها إلى تازة وبعدها فاس ومكناس ثم مراكش، وهناك طريق آخر يخرج من تلمسان فيحاذي سفوح الأطلس الصّحراوي الشماليّة حتى المسيلة ومنها إلى نقاوس ثم بغاية إلى تبسة وتدخل القوافل منه إلى وسط وجنوب تونس<sup>2</sup>.

إنّ هذه الشّدرات على الرّغم من كونها تشكّل محطّات ثانوية في التّاريخ العسكري خلال العهد الزياني، ولا تعبّر كلّ التّعبير -بحكم قطعي- عن ديمومة التّدخل العسكري المباشر في تشبيط حركة التّجارة الداخليّة، كونها تشكّل أحداثا مرحلية من شأنها أن تعرقل السير السلس لحركة التّجارة مرحليّا، إلّا أنّها تعدّ قرائن مهمّة دالة على الجانب الخفيّ من الحرب بغضّ النظر عن مدى هذا التأثير وحجم الممارسات المتعلّقة بها على التّجارة الداخليّة.

### المطلب الثاني: التّجارة الخارجيّة

شغلت الدّولة الزيانية مكانة قياديّة في التّجارة الخارجيّة بالمنطقة لما تتمتع به من مكانة جغرافيّة، فعاصمة الدّولة تلمسان تعتبر النّقطة التي تلتقي فيها طرق التّجارة الرئيسيّة التي تربط المغربين الأدنى والأقصى، والتي تربط بين البحر الأبيض المتوسط والصّحراء من جهة أخرى، وفيما يخصّ وصلها للمغربين فإنّها تقع على الطّرق الرئيسيّة التي تربط الشّرق بالغرب وهي طريق السّاحل والطّريق الداخلي، فضلا عن الطّريق البحري فقد ضمنت لها موانئها الاتّصال المباشر بين الشّواطئ الزيانيّة وشواطئ إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، فكانت تلمسان بذلك مستودعا للبضائع المتدفّقة من إسبانيا والبلدان المسيحيّة الأخرى<sup>3</sup>، وهذا الوضع ضاعف هو الآخر من اهتمام النّصارى بالمغرب الأوسط الزياني بعد أن كانت اهتماماتهم في السّابق موجّهة نحو المغرب الأدنى والأقصى<sup>4</sup>.

تجدر الإشارة إلى دور التّجارة الخارجيّة في قيام الدّول، وأنّ هذا القانون يكاد يكون قاعدة أقرب منها إلى الاستثناء، فأغلب الدّول المغربيّة -بعد سقوط دولة الموحّدين- تأسّست لأسباب من أهمّها احتكار التّجارة الخارجيّة بشكل أو بآخر بواسطة التّحكم في الطّرق التّجاريّة البريّة والبحريّة نظرا لموقعها الجغرافي الذي جعلها ممرا حيويا لا مفرّ منه بالنّسبة للمبادلات التّجاريّة الدوليّة طيلة القرون الوسطى، ومن الطّبيعي أن تساهم هذه الخصائص في إذكاء الصّراع العسكري بين هذه الدّول

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السّابق، 54/2.

<sup>2</sup> لطيفة بشّاري، مرجع سابق، ص 44.

<sup>3</sup> دهبينة عطا الله، الحياة الاقتصاديّة والاجتماعية لدولة بني زيّان، -ضمن كتاب الجزائر في التّاريخ-، مرجع سابق، ص 482.

<sup>4</sup> عمر سعيدان، مرجع سابق، ص 25-26.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

فيما بينها-تحت مسمى الانتصار للزعرة القبليّة- أو مع الدّول الخارجيّة<sup>1</sup>، ويوضّح لنا ابن خلدون الصّراع المسيحي الإسلامي على امتلاك سواحل شمال إفريقيا منذ قيام دولة المسلمين بقوله: "وكان المسلمون لعهد الدّولة الإسلاميّة قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه... وانحازت أمم التصرانيّة بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجية والصقلية وجزائر الرومانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدّة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا... وتراجع قوّة المسلمين فيه إلى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن... ثمّ تراجعت عن ذلك قوّة المسلمين في الأساطيل لضعف الدّولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدويّة بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسيّة ورجع التصاري فيه إلى دينهم المعروف"، وقد كان لهذه الصّراعات الأثر البالغ في تعطيل وعرقلة حركة المبادلات التجاريّة وتذبذب استقرارها لعدّة أسباب، نذكر منها:

### 1- نشاط القرصنة المتوسطيّة والفكاكة وأثرها في تعطيل التجارة الخارجيّة البحريّة:

كانت سواحل البحر الأبيض المتوسّط مسرحا أيضا للحروب وعرضة لعمليات القرصنة والفكاكة التي طالت السفن المغاربيّة<sup>2</sup>، وقد كان لهذه الممارسات مضاعفات سلبية على نشاط التجارة البحريّة لاقتراها بالسّطو على السفن التجاريّة وإلقاء القبض على التّجار أنفسهم، ليجدوا أنفسهم بضاعة تشتري وتباع<sup>3</sup>، ولعلّ تراجع نشاط الأسطول الإسلامي خلال هذه الفترة يعود إلى عوامل ترتبط بنقص المواد الأولية كالأخشاب لصناعة السفن، وعوامل أخرى عسكريّة ترجع إلى تدهور الأسطول الإسلامي في موقعة العقاب 609هـ/1212م إذ لم يلبث التّفوق البحري أن انتقل إلى القوى البحريّة الإيطاليّة والقطانيّة والقشتاليّة بعد خسارة المسلمين لأسطولهم في هذه المعركة<sup>4</sup>، وقد كان لهذه الخسارة الأثر في تقلص نشاط السفن الحربي والتّجاري فيما بعد مما عرّض التّبادل التجاري البحري لدول المغرب مع غيره إلى الكساد.

وفي ظلّ عدم امتلاك دولة بني زيّان لأسطول بحري قويّ يجاري به الأسطول الأوروبي، وجد بنو زيّان أنفسهم عرضة لأعمال القرصنة المتكرّرة على سواحل المغرب الأوسط، التي كانت تهدّد تجارتهم البحريّة وتعطلّها بشكل مستمرّ، وهذا ما تسفر عنه كثرة الشكايات المتكرّرة في الرسائل الزيانيّة، وأهمّها:

- الوثيقة رقم 88 مؤرخة في 01 صفر 723هـ/09 فيفري 1323م من هلال بن عبد الله من تلمسان إلى جاقمة ملك أرغون: هي وثيقة مفوضات بشأن تبادل الأسرى، تخلّلتها معطيات تبين ضعف تلمسان في هذه المرحلة على الصّعيد الخارجي لاشتغال أبو تاشفين الأوّل بحملاته على الجهات الحفصية داخليا، وقد ألجأه ذلك إلى تقديم ضعف العدد من الأسرى المطلوب من طرف ملك أرغون، فضلا عن عرض سلف مبلغ من الذهب للملك الأروغوني مقابل ضمانات، تفاديا

<sup>1</sup> محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، المغرب، 1987، ص 59.

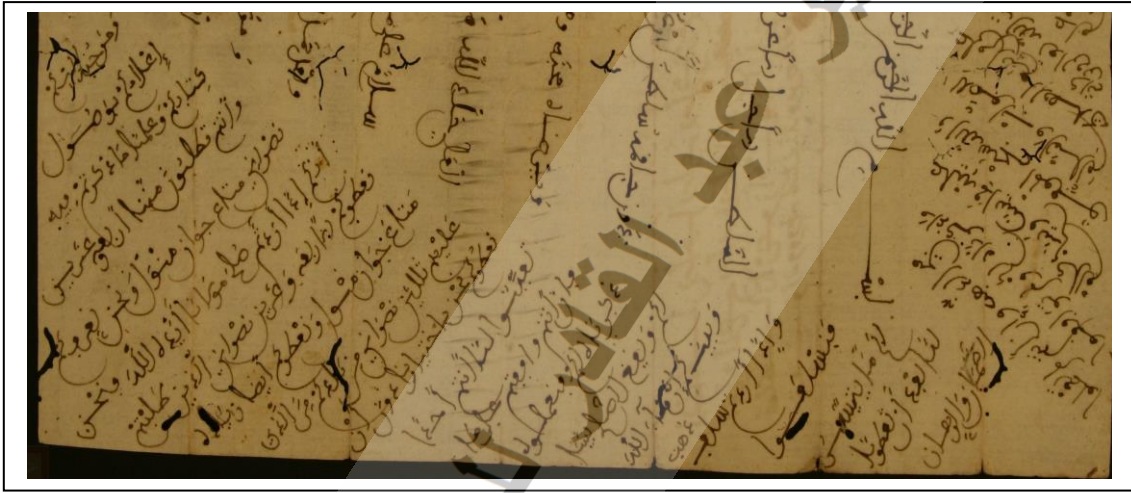
<sup>2</sup> Charles-Emmanuel Dufourcq, op.cit, p157.

<sup>3</sup> حورية سكاكو، مرجع سابق، ص 344-348.

<sup>4</sup> عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلاميّة في المغرب والأندلس، دار النهضة العربيّة، لبنان، 1969، ص 8.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزباني

للشروط التي أقرها ملك أرغون والقاضية بدفع نصف العشر من مداخيل تلمسان الجمركية أو تحمّل تبعات القرصنة البحرية من طرف أجفان التصاري، وقد جاء فيها: " إذا أردتم صلح مولانا أيده الله فنحن نعطيكم الأربعة والعشرين نصرانيا الذين طلبتم متاع جوان منوال ونعطيكم زيادة عليهم ثلاثين نصرانيا باختيارنا دون أن تعينوا لنا أنتم أحدا ... وإذا أردتم سلف ذهب فنسلف لكم ما تيسر لنا بعد أن تعطونا الضمان والرّهان". وقد حمّل تهديد ملك أرغون باعتراف الاجفان والسفن التجارية عن طريق القرصنة، إلى نحو السلطان الزباني منحى الكيل بمكيالين عن طريق الترغيب والترهيب، فأخذ الوجه الأول سياسة اللين عن طريق عرض سلف من الذهب للترغيب، وأخذ الوجه الثاني رفض تقديم الأسرى إذا ما لم تتم المفاوضات بالشأن الذي يريده سلطان تلمسان<sup>1</sup>.



### مقتطف من الرسالة 88 في أرشيف التاج الأرخوني.

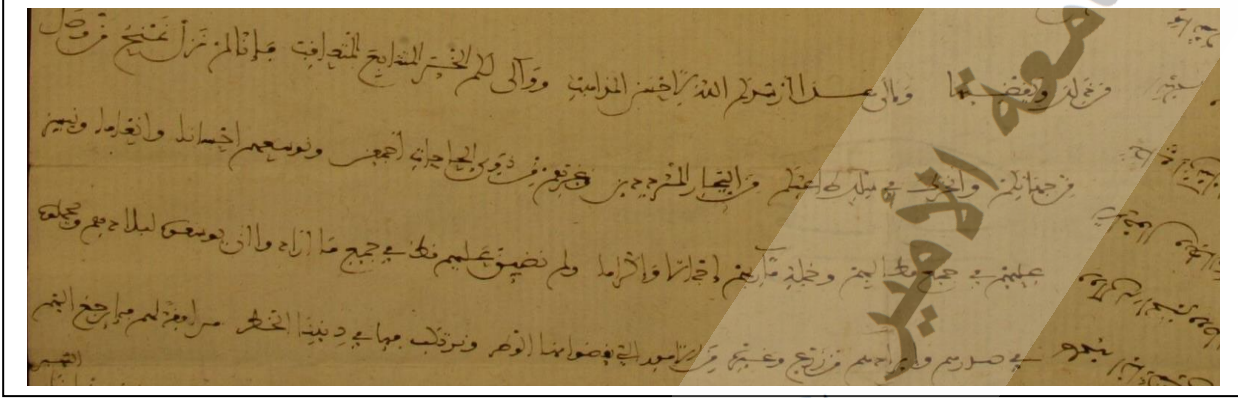
- الوثيقة رقم 111 المؤرخة في 04 ربيع الثاني سنة 761هـ/ 23 فيفري 1360 المرسله من طربي أبو حمو الثاني إلى ملك أرغون بيترو الرابع، تبين تعرض جفن كان محملا بالزرع بمرسى هنين كان موجها للأندلس من طرف السفن القطلانية ثم تغيير وجهته بعد سيطرة القراصنة عليه إلى مملكة أرغون، ونظرا لأن هذه الممارسات كان تؤثر على النشاط التجاري كان على السلطان أبو حمو موسى تقديم بعض التنازلات كالسماح للقطلانيين بأخذ الزرع الذي كان محرما للتجار به بين المسلمين والمسيحيين<sup>2</sup> لضمان مصالح دولة بني زيان في ممارسة هذا النشاط وضمان حرية المبادلات التجارية، وقد جاء فيها: "...فإننا لم نزل نمنح من وصل من جهاتكم وانخرط في سلك طاعتهم من التجار المترددين وغيرهم من ذوي الحاجات أجمعين ونوسعهم إحسانا وإنعاما ونيسر عليهم في جميع مطالبهم وجملة مآربهم إجمالا وإكراما، ولم نصيق عليهم قط في جميع ما أرادوا أن يوسقوه لبلادهم ويحملوه في صدرهم وإيرادهم من زرع وغيره ... ونرتكب فيها في

<sup>1</sup> عمر سعيدان، مرجع سابق، ص 35-41.

<sup>2</sup> دهبنة عطا الله، مرجع سابق، ص 482.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

ديننا الخطر مرافقة لهم"، وقد أبدى السلطان أبو حمو موافقته حول تقديم الإتاوات الجمركية السنوية لملك أرغون مجبرا أمام تزايد خطر القرصنة في الخارج وتعاضم الاضطرابات في الداخل أمام حروبه مع المرينيين في هذه الفترة ومحاولات الاستقلال بمليانة والجزائر<sup>1</sup>.



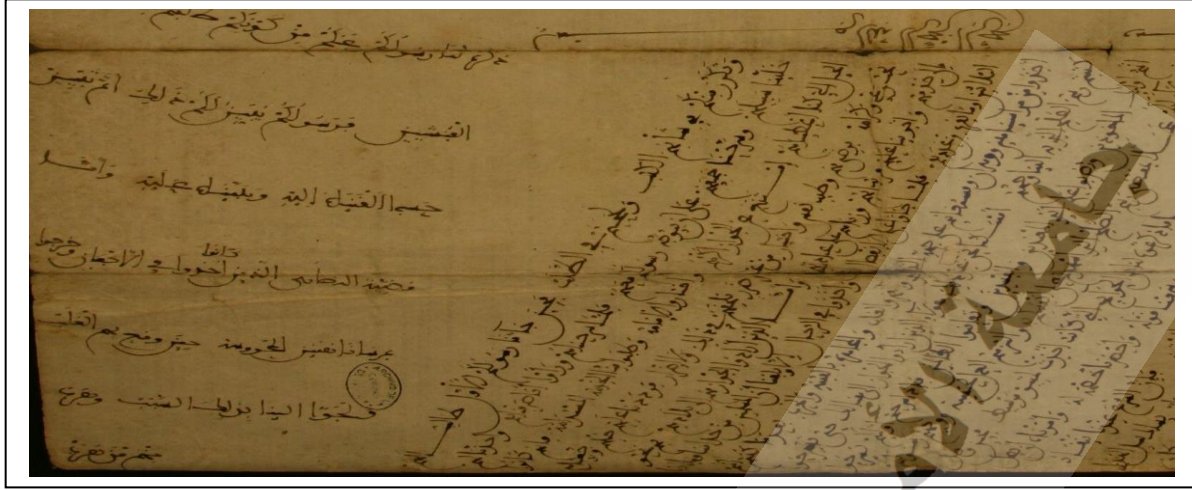
### مقتطف من الرسالة: رقم 111 في أرشيف التاج الأرعوني.

- الرسالة رقم 113 المؤرخة في 23 صفر 764هـ/11 ديسمبر 1362م تتضمن أخبار عملية قرصنة على مرسى هنين ووهران وتلمسان، وتزامن ذلك مع إطلاق أبي حمو لثلاثين أسيرا نصرانيا، لكن بعد هذه العمليات على هذه المراسي عدل السلطان على إطلاق سراحهم لأنّ النصراني بادروا أولا إلى الهجوم على المراسي المذكورة، فاعتقلهم أبو حمو وطلب من بدرو الرابع عملية مبادلة هؤلاء الأسرى بأسرى مسلمين، وقد جاء فيها "... وأما قضية النصراني الذين كانوا أخذوا في الأجناف وخرجوا بمرسانا هنين المحروسة حين وقع بهم الغلب ... فهم نحو الثلاثين أو ما يقرب من عددهم، فلما جاءوا على الانفصال وأخذوا في الرّحال إلّا وبلغنا أنّ المسلمين من خدامنا وبلادنا أخذوا من مراسينا هنين ووهران ومستغانم على جهة التّعدي والقهر والغلب والمجاهرة بالفتنة والحرب، بعدما كنتم أنتم كُتبتُم رسم الصّالح<sup>2</sup> الذي به إلينا وُجّهتُم، أمسكنا نحن عن ذلك هؤلاء الذين أرادوا الجواز إلى هناك حتّى تسرحوا أنتم أولئك المأخوذين وتضربوا على أيدي المعتدين والمفسدين وتعاقبوا الظّالمين فإذا سرحتم أولئكم نسرح نحن هؤلاء لكم".

<sup>1</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 82. عمر سعيدان، مرجع سابق، ص 64.

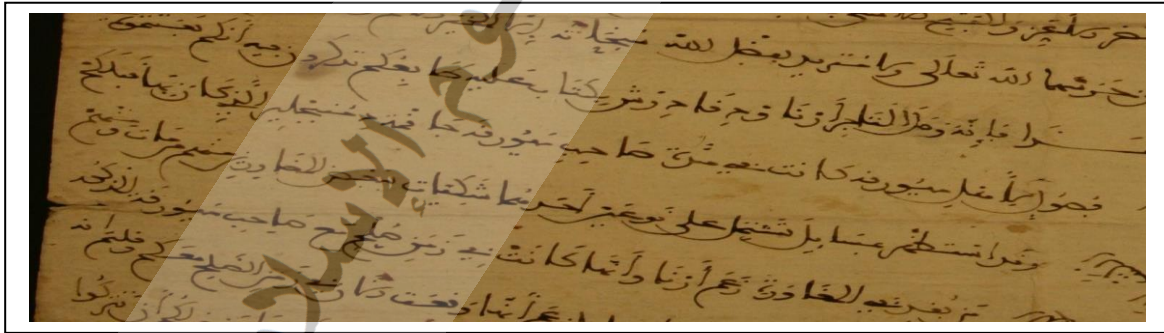
<sup>2</sup> تتعدّد المواقف التاريخية التي حُرقت فيها بنود الصّالح بين الطّرف الزياني والأرعوني وقد أدّى التّكرار المستمر لظاهرة نقض المهادنات إلى طرح ظاهرة نقض المهادنات على الفقهاء للفتوى فيها، ومنها التّازلة التي استفتي فيها أبو موسى ابن الإمام عن "العهد المنبرمة بين الملوك وحكم نقضها". الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 343/6.





مقتطف من الرسالة: 113 في أرشيف التاج الأروغوني.

ويفهم من هذه الرسالة أنّ أعمال القرصنة لم تكن تتوقف عند عقد معاهدات الصلح بين الطّرف الزياني والمسيحي وإنّما كانت هناك تجاوزات وأعمال غضب وتعدّي للسفن في مياه البحر حتّى زمن الهدنة، وهذا ما تؤكّده رسالة أخرى موجودة بأرشيف التاج الأروغوني الموضوعة تحت رقم : 95 موجّهة إلى بترو الرابع مؤرّخة في 24 ذي الحجة 746هـ/17 أبريل 1346م، وافدة من ظاهر منصور تلمسان حينما كانت الدولة الزيانية تحت السيطرة المرينية، وقد جاء فيها "... وإلى هذا فقد وصل التاجر أرناود قادش... وقد استظهر بمسائل تشتمل على نوعين أحدهما شكايات ببعض المغيرين منهم من مات ومنهم من فقد في المغاورة زعم أرناود أنّها كانت في زمن صلح... ومنها مسائل زعم أنّها وقعت الآن في زمن الصلح معكم". ولنا أن نتخيّل بعد ذلك حجم تأثيرها على التجارة البحرية الزيانية في ظلّ استمراريتها وعدم توقّفها في حالي السّلم والحرب.

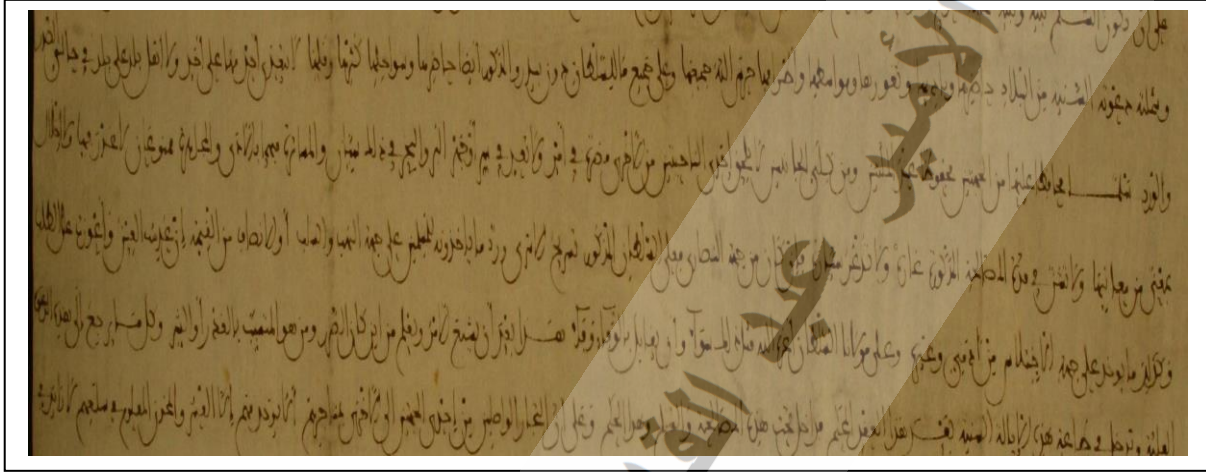


مقتطف من الرسالة رقم 95 بأرشيف التاج الأروغوني.

- الرسالة رقم 114 المرسلّة من طرف أبو حمو موسى إلى بترو الرابع والمؤرّخة في 29 صفر 764/18 ديسمبر 1362م، التي يبدو من خلالها أنّ التجار الوافدين أو القاصدين لضفتي المتوسط كانت تفرض عليهم إبتوات جمركية تعسفية تتجاوز ما هو متفق عليه بين الطّرفين في المعاهدات المبرمة بينهم، ومن شأن هذا التصرّف أن يثير سخط التجار ويقلّل من حجم المبادلات التجارية، بناء على ذلك فقد طلب أبو حمو موسى أثناء إبرامه للصلح مع بترو الرابع

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

في هذه الرسالة ضبط قيمتها بالعرض وحظر أعمال القرصنة<sup>1</sup> بأن " لا يتعدى أحدهما على أحد ولا أهل بلد على بلد في حالي الصدر والورد سلما محافظا عليها من الجهتين محفوظا عند الملتين ومن كلا الجانبين... وكل ما يرجع إلى هذه الدعوة العلية ويدخل في طاعة هذه الإيالة السنّية بعد هذا العقد المحكم فداخل تحت هذه المصالحه والسلم وهذا الحكم، وعلى أنّ التجار الواصلين من إحدى الجهتين إلى الأخرى بمتاجرهم ألا يؤخذ منهم إلا العشر والمخزن المعلوم في سلعهم لا زائد في ذلك عليهم".



### مقتطف من الرسالة 114 في أرشيف التاج الأرغوني.

إنّ الوقوف على نشاط القرصنة البحرية المتكررة من طرف الدول الأوروبية، وكذا الأخبار وكثرة الشكايات التي حوتها الرسائل السابقة حول التجاوزات المتعلقة بعمليات القرصنة زمن المهادنة، يخلص بالباحث إلى استقراء السبب الكامن وراء هذه الممارسات، إذ أنّ هدفها لم يكن يرمي إلى السيطرة المباشرة عليها، وإنما كان هدفه فرض أكبر قدر من الضغط على سواحل شمال إفريقيا عموما وسواحل المغرب الأوسط خصوصا عن طريق استعمال القرصنة كورقة ضغط على الدولة الزيانية<sup>2</sup>، وذلك لتقديم تنازلات تخصّ التجارة البحرية، وفي المقابل تقديم امتيازات تحت طائلة الإكراه لدول الغرب المسيحي، وبالرجوع إلى واردات الدولة الزيانية من عائدات الجمارك التي حققتها خزينة الدولة الزيانية والمقدّرة بـ: 10%<sup>3</sup> نجد أنّ ما

<sup>1</sup> تجدر الإشارة إلى عدم احترام هذه المهادنة من طرف التّصاري فيحي بن خلدون يورد خبر وقوع عمليّة قرصنة بعد أربع سنوات من توقيع هذه المعاهدة، وذلك بتاريخ 8 ربيع الآخر 768هـ حيث "أخذ التّصاري مركبا قادما على مرسى هنين المحروسة بمهدية ملك الأندلس إلى أمير المسلمين أيّده الله، وفيه صاحب أشغال الخليفة أعلى الله مقامه، محمد ابن قضيب الرّصاص، ثمّ عرضوا أسراه للفداء، فافتدي مولانا أمير المسلمين [أبو حمو الثاني] أيّده الله جميعهم... بالمال العديد نقدا". يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 185/2.

<sup>2</sup> أنظر مضمون الوثيقة رقم 114 في الملحق رقم 05 ص 277.

<sup>3</sup> انظر الوثيقة رقم 137 في الملحق رقم 06 ص 278.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

كانت تأخذ الدولة الزيانية مما تحصله من التجار النصارى حسب إحدى الدراسات "مبالغ ضئيلة بالنسبة لما يجنيه النصارى من أرباح"<sup>1</sup>.

لقد كان الابتزاز العسكري عن طريق القرصنة أسلوبا نمطيًا اتبعه الغرب المسيحي لرعاية مصالحه التجارية على حساب سواحل وتجارة الضفة الإفريقية وإكراه هذه الدول على تقديم ضرائب سنوية، وقد تكشف لنا إحدى الرسائل الشخصية المؤرخة في محرم 677هـ/1268م<sup>2</sup> المرسله من طرف أبي بكر محمد بن خطاب يغمراسن (ت636هـ/1238م)<sup>3</sup> إلى بعض أصحابه بمرسية بعد سقوط منتيشة في يد الأرغونيين، أنّ مرسية كانت مجبرة تحت طائلة الابتزاز العسكري، نظرا لإجبارها على تقديم ضريبة لصالح ملاك أرغون بيدرو الثالث -على شاكلة الضغوطات التي مارستها نفس القوى على المغرب الأوسط الزياني والمذكورة سابقا-، وهذا ما يوضحه قوله " ... إلى أن انقضى أمدها المضروب وأجلها المكتوب، فشرع أصحابها بعزيمة في تجديد الهدنة ثانية، فأسعف فيها على ما قبل إلى مدة قريبة على أن يؤدي للطاغية الأرغوني على ما يرضيه من ضريبة"<sup>4</sup>.

أما بالنسبة إلى الطرف الزياني -وبالإضافة إلى الضرائب المقدمة من طرفهم إلى الدول المسيحية في قطاع التجارة- فإنّ ضغط عمليات القرصنة لجأها أمام صعوبة تحديد الأطراف المسؤولة<sup>5</sup> عن أعمال القمع في البحر لإثبات التعدي على سفنها التجارية إلى اكتراء السفن التجارية المسيحية، لأنّ ذلك يؤمّن لها سلامة سلعهم والبضائع المحملة على سفنهم ويقهّم

<sup>1</sup> ياسمينه مرسى إبراهيم الشرقاوي، حياة الحرب والجهاد في عصر الدولة الحفصية (626-981هـ/1228-1574م)، رسالة في التاريخ الإسلامي مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف محمد رضوان البارودي وصبحي إدريس، قسم التاريخ، جامعة كفر الشيخ، مصر، 2018-2019، ص55.

<sup>2</sup> تجدر الإشارة إلى أنّ استقاء الأخبار من الرسائل الشخصية أو ما يسميها المؤرخون "الوثيقة الإنسانية" يزود الباحث بأخبار لا يمكن للرسائل الرسمية أن تشملها لأنّ الأخبار في الثانية تكون إعلامية تقريرية الغرض منها الإعلام، أما الأولى فرغم ما يكتنفها من مزالق لحضور ذاتية المؤرخ وميولاته الإيديولوجية إلا أنّ حسن استقراءها قد يحتمل المؤرخ على أن يعرف عن المؤلف أكثر مما كان في نية المؤلف إطلاعه عليه، وقد أوضح لويس جوتشلك ذلك في كتابه كيف نفهم التاريخ بقوله: "إنّ الوثائق في الوقت نفسه إنسانية وشخصية، لأنّها من صنع مخلوقات بشرية، تلقي ضوءا على مؤلفيها كما تلقيه على الموضوعات التي كان المؤلفون يرغبون في عرضها... وهنا أيضا تكون لأهمية الوثيقة علاقة بمهدف المؤرخ أو نيته أكبر من علاقتها بمهدف المؤلف أو نيته وأحيانا يكون بمقدور المؤرخ أن يعرف عن المؤلف أكثر مما كان في نية المؤلف إطلاعه عليه". لويس جوتشلك، كيف نفهم التاريخ، تر: عائدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة، دار الكتاب العربي، 1966، ص75-76. عبد الحميد جيدة، صناعة الكتابة عند العرب، دار العلوم العربية، بيروت، 1998، ص117.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق 226/1. التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق ص127. ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص247.

<sup>4</sup> أحمد عزّاوي، الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8 هـ دراسة وتحليل لرسائله، مطبعة الرباط نيت، المغرب، 2006، 105/2.

<sup>5</sup> فضلا عن صعوبة تحديد الأطراف المتسببة في أعمال القرصنة في البحر فإنّ عمليات بيع السفن لم تكن تضبط بدقة من حيث اسم البائع والمشتري. خديجة بورملة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط من القرن السادس إلى التاسع الهجري، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، إشراف عبد القادر بوبايا، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران 1، 2017-2018، ص61.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

خطر القرصنة، وقد كانت عمليات الاكتراء هذه تتم في بعض الأحيان من قبل التجار وحتى السلاطين<sup>1</sup> والأطراف النافذة في الحكم أو ما يسميها أحد الباحثين بـ: "موظفو الدولة أو البيروقراطية المحتملة"<sup>2</sup>، ومما يؤكّد ذلك امتلاك هلال القطلاني لثلاثة أرباع من أسهم سفينة ميورقية سنة 732هـ/1331م<sup>3</sup>، والجدير بالذكر في هذا المقام أن تخضع عملية إشراك السلاطين والشخصيات المحيطة به في العمليات التجارية إلى المساءلة الاقتصادية وفقا للفكر الاقتصادي المعاصر لحكم الدولة الزيانية، فهل أثر إشراك السلاطين والبطانة الحاكمة في المبادلات التجارية على خلفية ضغط القرصنة البحرية المسيحية القسرية سلبا على اقتصاد الدولة الزيانية ونشاطها التجاري؟.

تفرّد ابن خلدون عن من عاصره من المؤرخين وكثير ممن جاء بعده باستعانه بالمفاهيم العديدة المنتمية إلى حقول أخرى خارج حقل التاريخ، ممّا أتاح له استقراء حوادث التاريخ التي شهدها عصره من زوايا مختلفة، إذ أنّ التاريخ حسبه "محتاج إلى ماخذ متعدّدة، ومعارف متنوّعة، وحسن نظر وثبّيت، يفضيان بصاحبها إلى الحق وينكبان به عن المزلّات والمغالط"<sup>4</sup>، كما أنّ الفكر الاقتصادي الخلدوني قد تطرّق من جانبه للتّظيري لواقع إشراك السّطان<sup>5</sup> وبطانته من ذوي التّفوذ ورجالات الدولة في التّسويق وتعاطي التجارة مباشرة أو عبر وكلاء مع الاستفادة في سائر الأحوال من موقعهم داخل منظومة الحكم<sup>6</sup>، وما يلعبه من دور سلبي على اقتصاد الدّول، وقد خلص ابن خلدون إلى الدّور السلبي لظاهرة إشراك السّلطة في العمليات التجارية وإمكانية أن يكون ذلك مدعاة لخراب العمران ومظهرها من مظاهر التّكوص الاقتصادي لما في ذلك من أثر سلبي على عوائد الدولة، فكان ذلك سببا لتأليفه فصلا في المقدمة سمّاه "في أنّ التجارة من السّطان مضرة بالرّعايا ومفسدة للجباية"، وفي هذا الصّد يقول ابن خلدون: "أعلم أنّ السّطان لا ينمي ماله ولا يدّر موجوده إلّا الجباية... وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فإمّا هو مضرة عاجلة للرّعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتعلّبين في البلدان أنّهم يتعرّضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على أهل بلدهم ويفرضون لذلك من الثّمن ما يشاؤون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرّعايا بما يفرضون من الثّمن وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى فساد الرّعية واختلال أحوالهم، وربّما يحمل السّطان على ذلك من يداخله من هذه الأصناف أعني التجار... ويضرب معهم بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا ولا سيّما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فإنّها أجدر بنموّ الأموال وأسرع في تثميره ولا يفهم ما يدخل على السّطان من الضّرر بنقص جبايته فينبغي للسّطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرة

<sup>1</sup> عمر سعيدان، مرجع سابق، ص 46.

<sup>2</sup> عبد المجيد مزبان، مرجع سابق، ص 367.

<sup>3</sup> دهبينة عطا الله، مرجع سابق، ص 481.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 1/13.

<sup>5</sup> انظر الوثيقة رقم 137 في أرشيف التاج الأروغوني المتعلّقة بتحالف السّطان الزياني أبو تاشفين مع ملك أرغون ألفونسو الرابع على كراء سفن حربية للهجوم بجاية وأخبار أخرى تتعلّق بكراء سفن تجارية تعدّر علينا تحديدها نظرا للتلف الواقع في الوثيقة. انظر مضمون الرسالة في الملحق رقم 06 ص 278.

<sup>6</sup> محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعلات، مرجع سابق، ص 77.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزباني

بجبايته وسلطانه"<sup>1</sup>، وتنظير ابن خلدون هذا قد نجد له وقعا في سهم هلال القطلائي الذي امتلك ثلاثة أرباع سفينة ميورقية وحمله طموحه التجاري المتزايد على مراسلة ملك أرغون جاقمة الثاني لربط علاقات ودية خاصة معه بما يتوافق مع طغيان الذاتية وما توفّره من عوائد مصلحية شخصية<sup>2</sup>، وقد التزم له حسبما توضّحه الرسالة رقم 90 في أرشيف التاج الأرغوني بخدمته، كما أعلمه في هذه الرسالة أنّ الأمور تسير على حسب إرادته، وأنّه مجتهد في تلبية رغباته وإقناع السلطان بذلك، وهذا ما نلمسه في قوله " إني لكم كما تحبون مجتهد فيما يتجه لكم عندي من الحوائج على سبب ما تريدون"، كما أكدّ له أنّ جاقمة اللقيط ابن ملك أرغون يعلم بذلك وسيتولّى إطلاعها مشافهة فور وصوله على ما يقوم به من خدمات لصالح مملكة أرغون، ويتّضح ذلك في قوله: " وقد ألفتنا في ذلك لولدكم الأنجد جاقمه وللأمين الحاج أبي يعقوب بن الحوراء ممّا يلقيانه إليكم ويقرّانه لديكم إن شاء الله"<sup>3</sup>.

إنّ هذا الالتحام المصلحي بين طبقات التجار والسلطة لا يأتي عفوا بل إنّ خطة التقارب مدبّرة من هؤلاء التجار الذين يريدون تنمية ثروتهم، ويبدأ اكتساب الجاه بأنواع من التملق لأهل الحكم الأدنى فالأدنى، حتّى يقع الاتّصال بالمقرّبين من البطانة والحاشية وأهل العصبية، وفي هذه المرحلة يصبح التاجر ذا جاه وكلمة مسموعة ومصالح مقضية بسبب هذه الاتّصالات<sup>4</sup>—وهو نفس خط سيرة هلال القطلائي منذ أن أحضره أبو حمو لرعاية ابنه السلطان أبو تاشفين حتى سيرورته لشغور خطة الحجابة واشترائه في التجارة—، وهنا يقع الضّرر الاقتصادي نظرا للامتيازات التي يحظى بها المقرّبون على حساب نفقات الخزينة، ويمكن أن نتحصّن ذلك في قول ابن خلدون: "إنّ الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأمواهم في دفع المضار وجلب المنافع . وكأنّ ما يتقرّبون به من عمل أو مال عوض ممّا يحصلون عليه بسبب الجاه من كثير الأغراض في صالح أو طالح، وتصير تلك الأعمال في كسبه وقيمها أموال وثروة له"<sup>5</sup> وحين تصبح تلك الأموال في كسبه "يضرب معهم بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا ولا سيّما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فإنّها أجدر بنموّ الأموال وأسرع في تثميره، ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضّرر بنقص جبايته فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعائتهم المضرة بجبايته وسلطانه"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق 72/2.

<sup>2</sup> أقرّ الدكتور عمر سعيدان أنّ سبب تداخل هذه العلاقات بين الحميمية تارة والعدائية تارة أخرى بين المسلمين والتّصارى هو طغيان الذاتية وما توفّره من منافع ومصالح شخصية. عمر سعيدان، مرجع سابق، ص 87.

<sup>3</sup> انظر الملحق رقم

<sup>4</sup> عبد المجيد مزيان، مرجع سابق، ص 364.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 261/2.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، 72.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

### 2- التدخل العسكري المباشر على موانئ المغرب الأوسط وأثره على التجارة الخارجية:

كانت أعمال القرصنة ومقاصدها الرامية إلى التضييق على التجارة الخارجية للمغرب الأوسط الزياني السابق ذكرها تمهيدا لمشروع الاستيلاء على الموانئ بالمغرب الأوسط الزياني، وبذلك تحقيق السيطرة على تجارة الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، وعليه فإنّ التدخل العسكري على هذه الموانئ لا يشكل تهديدا للتجارة الخارجية البحرية وإنما يعدّ بمثابة إنهاء للدور التجاري الذي تلعبه هذه الدول على الصعيد التجاري المغربي، ومن أهم هذه الموانئ:

- ميناء وهران:

سبق وأن أشرنا إلى الدور التجاري الذي لعبه ميناء وهران في المبادلات التجارية الخارجية في الجهة الغربية للمغرب الأوسط الزياني، وهي نفس الشهادة التي أقرها الرحالة والجغرافيون الذين تطرقوا في كتبهم إلى وصف مرسى وهران والمرسى الكبير، فابن حوقل يشيد بجيويتها في القرن الرابع للهجرة بقوله "ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كلّ ريح، وما أظنّ له مثلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى ... إليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال"<sup>1</sup>، ويضيف الإدريسي "ووهران على مقربة من ضفة البحر ... وبها أسواق مقدرة وصناعات كثيرة وتجار نافقة وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بحر الأندلس وسعة البحر بينهما مجريان ولها على ميلين منها المرسى الكبير، وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية وهذا المرسى يستر من الريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر"<sup>2</sup>، وقد أشار الوزان في مرحلة متأخرة إلى ميناء وهران والمرسى الكبير وما يوفّرانه من عوائد للتجارة الخارجية الزيانية مع التجارة المسيحية بقوله: "ولهذه المملكة [أي تلمسان] ميناءان مشهوران: ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير، وكان يختلف إليهما كثيرا عدد وافر من تجار جنوة والبندقية حيث يتعاطون تجارة نافقة عن طريق المقايضة"<sup>3</sup>.

جعل هذا النشاط التجاري الملحوظ مدينة وهران محلّ استقطاب للقوى الأوروبية، وبما أنّها جغرافيا قريبة إلى السواحل الإسبانية سعت هذه الأخيرة للسيطرة عليها خاصة وأنّ البرتغاليين بادروا إلى الهجوم عليها في 609هـ/ 1501م، وبسيطرة إسبانيا على أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الإيبيرية بما فيها السواحل الجنوبية للأندلس رأت أحقيتها بالسيطرة على مينائي المرسى الكبير ووهران.

باشر الملك الإسباني فرديناند حملته العسكرية نحو المرسى الكبير وأوكل قيادتها إلى دون ريمون دي كوردو بتمويل الكاردينال خيمينيس وغادر الأسطول ميناء مالقة في 12 ذو الحجة 609هـ/ 29 أوت 1505م متخذين ذريعة أسر قراصنة من المرسى الكبير لبعض البحارة البرتغاليين وقيام هؤلاء القراصنة من المرسى الكبير بسلب ونهب جزيرة santa

<sup>1</sup> ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 79.

<sup>2</sup> الإدريسي، مصدر سابق، ص 252.

<sup>3</sup> الوزان، مصدر سابق، 09/2.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

polo ودخلوا المرسى الكبير بعدها وقد انخزل عنها أهلها لنقص الماء عن أهلها بعد مقارعة العدو من التاريخ السابق ذكره إلى غاية 11 سبتمبر من نفس السنة، ليدخلوا المرسى الكبير ويقوموا باحتلال وهران<sup>1</sup>.

وللاستدلال بوضوح أكثر على الدور الذي لعبه الاحتلال الإيبيري لمعظم الثغور المغرب-أوسطية وانعكاساته السلبية على الأوضاع الاقتصادية والتجارية يكفي أن نقارن الشهادات الجغرافية السابق ذكرها لنشاط ميناء وهران والمرسى الكبير وشهادات الوزان الذي عايش النتائج الخطيرة لهذا الاحتلال وشهادات مرمول كرنخال الذي عاين الأوضاع في ظل الاحتلال ثم ما طرأ عليها من تغييرات<sup>2</sup>، فالوزان ذكر أنهما كانا مقصد "عدد وافر من تجار جنوة والبندقية حيث يتعاون تجارة نافقة ... غير أن هذين المينائين سقطا في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو فكان ذلك خسارة عظيمة لمملكة تلمسان"<sup>3</sup>، كما أن كرنخال قد بين الأسباب الاقتصادية الخفية لغزو ميناء وهران والهدف الرئيسي للحملة الموجهة إليها الداعية إلى شل الحركة التجارية للمغرب الأوسط والاستعاضة بشغور المسيحيين لهذا الغرض، ويتضح ذلك في قوله: "وكان هذا الرخاء الذي عرفته وكذا جودة الميناء المجاور من العوامل التي أغرت بعض السكان بتجهيز غزوات بحرية ... وهذا ما استدعى القيام بعملية المرسى الكبير ثم عملية غزو وهران"<sup>4</sup>، وزيادة على المشاهد المأساوية التي تعرض إليها المؤرخين من فرار أهل المدينة وتركها خالية وغيرها من القرائن التي تتم عن مضاعفات جد خطيرة تتعلق بتراجع النشاط التجاري للمغرب الأوسط جراء هذا الاحتلال وسوء الوضع المعيشي ونقص المؤن والأقوات<sup>5</sup>، فإن مردود المدينة الاقتصادي تراجع "إذ تحولت أراض شاسعة من الفلاحة إلى تربية المواشي وانتقل الناس من سكنى القرى إلى اللجوء إلى الخيم والاستقرار بالجبال خوفا من غدر الفرق العسكرية الإسبانية"<sup>6</sup>، ونظرا لتقلص النشاط الزراعي جراء هذه النزوح للجبال وأمام عجز الجنود الإسبانيين عن الاستزادة بالزراع فإنهم كانوا يتزودون بالزراع من المناطق المحيطة بها عن طريق نقلها على ظهور الحمير<sup>7</sup>، وأمام

<sup>1</sup> صبرينة الواعر، الغزو الإسباني للمدن والموانئ الجزائرية وهران والمرسى الكبير أمودجا 1505-1792م، -ضمن أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحرابا-، منشورات محجر البناء الحضاري للمغرب الأوسط إلى نهاية العهد العثماني، جامعة الجزائر، 2009، ص 632-634.

<sup>2</sup> محمد أستيتو، معوقات الاقتصاد المغربي في العصر الوطاسي من خلال كتب الرحلات والجغرافيا (أنودج كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع 06، جامعة الأمير عبد القادر، أكتوبر 2005، ص 98-99.

<sup>3</sup> الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، 09/2.

<sup>4</sup> مرمول كرنخال، إفريقيا، مرجع سابق، 329/2-330.

<sup>5</sup> أندري، برنيان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطنبولي رابع ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 124. صبرينة الواعر، مرجع سابق، ص 638.

<sup>6</sup> محمد بن أحمد أبي راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تح: محمد غالم، المركز الوطني للبحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية البرنامج الوطني للبحث: السكان والمجتمع، منشورات CRASC، [د.ت.]، [دم.]، 44/1.

<sup>7</sup> يزودنا ابن مريم أثناء تطرفه لترجمة الولي السعيد البجائي أصلا التلمساني دارا المتوفي سنة 950هـ بخبر تزود الإسبان بالمير من المناطق المحيطة بتلمسان وهران عن طريق حملها على الحمير في قالب كرامي لهذا الولي التي كان سببا في قتل كل الحمير عدا واحدا منها، وفي هذا الصدد يقول ابن مريم: "من أكابر الأولياء له مكاشفات، خرج علينا ببدر حين أخذت النصارى تلمسان دمرهم الله ... وجرت هناك حكاية أن المغطسين جاؤوا بالحمير يحملون عليها الزرع قافلة للنصارى بوهران، فخرج من الدوائر جميع التحل واجتمع على الحمير فقتلها كلها، ولم يسلم

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

تعاضم خطر إسبانيا وجد حاكم تلمسان محمد السابع (934-937هـ/1528-1531م) نفسه على تقديم بعض التنازلات فيما يخص الجانب التجاري في المعاهدة، ويتضح ذلك في الرسالة التي وجهها إلى الكونت دي الكويت ممثل الإمبراطور شارلكان بوهران، وأهم ما جاء فيها في هذا الباب:

- البند الأول: أتعهد بأن أدفع أربعة آلاف دو بلا سنويا وفي نفس الآجال التي تعهد بها والدي من قبل، على شريطة أن تكون مداخيل تلمسان لي كما كانت لوالدي.

- البند التاسع: أعطي أوامري لكي تمر كل تجارة تلمسان بمدينة وهران، دون غيرها من المراسي إلا إذا سمح الإمبراطور بذلك.

- البند العاشر: يسمح لي جلالة الإمبراطور بأن أضع في وهران عددا من المتصرفين لكي يتولوا قبض المكوس الرجعة لي من هذه التجارة يستثنى من ذلك ما يرد لتموين مدينة وهران.

- البند الثاني عشر: لا يمكن إجبار أحد رعايا مملكتي عربا أو يهودا على اعتناق الدين المسيحي ... وأن يباشروا أعمالهم التجارية مع كل ممالك ورعايا جلالة الإمبراطور<sup>1</sup>.

### ● مرسى هنين:

بعد سقوط المرسى الكبير وميناء وهران في يد الإسبان تراجع دورهما التجاري ووقع الانفتاح على مرسى ميناء هنين الذي تولّى الريادة التجارية بعد هذا الاحتلال<sup>2</sup> "إذ كانت سفن البندقية تنحدر إليها كل سنة عند ذهابها إلى تلمسان خاصة منذ أن احتل الكاردينال خيمينيس وهران والمرسى الكبير"<sup>3</sup>، لكن لم يلبث ذلك طويلا إلى أن قام القائد دون أوليفر بسان Don Olivar Basson بتخريب هنين بأمر من الإمبراطور شارلكان فتمكّن من احتلال المدينة وقصبتها في 22 محرم 939هـ/24 أوت 1532م<sup>4</sup>، ويصف لنا الوزان المال الذي وصلت إليه هين وسيطرة الإسبان على تجارتها بقوله "ولما حتلّ المسيحيون وهران لم يعد البنادقة يقصدونها لكونها مليئة بالجنود الإسبان، فطلب منهم أهل تلمسان أن يأتوا إلى هنين... ولما مررت من هناك تألمت جدا للحالة البائسة التي صارت إليها المدينة"<sup>5</sup>، ويضيف كرنجال أنّ

واحد من الحمير إلا حمير المسلمين". كما ورد عند الونشريسي "سئل بعض فقهاء تلمسان بما نصّه: سيدي جوابكم عمّا عمّت به البلوى في بلدنا وعظم أجله الخطب واتسعت به المقالات، وذلك أنّ الخليفة أصلحه الله صالح هؤلاء التّصاري الذين أخذوا سواحلنا إلى أجل ... ويغيرون على أطراف بلدهم فيقتلون ويضيّقون بهم". ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 127. الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 206/2-207.

<sup>1</sup> أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، [دس]، ص 258-261.

<sup>2</sup> Charles Emmanuelle dufourq, revue d'histoire et de civilisation du Maghreb, n13, 1969, p30.

<sup>3</sup> كرنجال، مصدر سابق، 296/2.

<sup>4</sup> عبد القادر فكايير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/105-1792م)، دار هومة، الجزائر، 2012، ص 139.

<sup>5</sup> الحسن الوزان، وصف إفريقيا، 16/2.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

تخريب هنين كان لأسباب اقتصادية بحتة حيث يصرّح: "... كانت [هنين] تصبح في حالة حسنة جدًا لولا أن طمع السّكان تسبّب في تلفها، لأنهم لم يكتفوا بتجارهم، بل أووا القراصنة وخرجوا معهم لشنّ الغارات على شواطئ إسبانيا، فاضطرّ شارل الخامس إلى أن يبعث إليها دم الفاري بسّان قائد أسطوله، الذي أخذها وأقام بها حامية بعد أن نهبها، لكن الإمبراطور أمر بتدميرها لتلافي التفقات، وذهب إليها قائد الأسطول نفسه لتعطيم الأسوار والبروج وحرق الدّيار وتخريبها، فلم يعد ترميمها منذئذ<sup>1</sup>.

● ميناء مستغانم:

نظرا لقرب مستغانم من وهران التي وقعت تحت الاحتلال الإسباني وقعت هي الأخرى تحت اهتمام الإسبان وذلك للموقع الاستراتيجي الذي كانت تشغله، ويشيد كرنجال بموقعها قائلا: "لها مرسى جيّد... وقد تفتنّ لهذه الحقيقة كونت ألكاوديت فحاول فتحها ثلاث مرّات"<sup>2</sup>، ونظرا للتهديدات الموجهة إليها من قبلهم وجد أعيان المدينة وشيوخها مجبرين على توقيع معاهدة استسلام مع حاكم وهران الإسباني في 27 أوت 917هـ/ 26 ماي 1511م، قدّم فيها أهلها العديد من التنازلات كأن "يلتزم المرابطون وشيوخ مستغانم ومزرغان وكذلك جميع السّكان من المغاربة واليهود بالتبعية إلى ملك وملكة قشتالة بإخلاص، وأن يؤدّوا الصّرائب التي كانت تدفع لتلمسان برا وبحرا أوّل كل شهر جوان من كلّ سنة لعاملهم في وهران دون غشّ أو تأخر... وأن لا يسمحوا بشحن أو تفريغ أيّ سفينة بمرسى مستغانم إلا بإذن الملك والملكة"<sup>3</sup>، وقد أشارت إحدى الدّراسات إلى أنّ الهدف من هذه الشّروط كان القضاء على الدّور التجاري الذي كان ينعم به هذا الميناء في السّابق<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> مارمول كرنجال، مصدر سابق، 296/2-297.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 2/350.

<sup>3</sup> A. Jourdan, Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1594), Bibliothèque nationale de France, département Philosophie, histoire, sciences de l'homme, 8-OI-213,1875, pp 17-18.

<sup>4</sup> عبد القادر فكّاير، مرجع سابق، ص 140.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

### المبحث الرابع: مظاهر أخرى للانتكاس الاقتصادي المرافق لحالة الحرب

#### المطلب الأول: أسعار المواد الغذائية والأقوات ... قراءة مقارنة بين حالي الرخاء والضائقة الحربية

تصنّف التغيّرات الدورية التي تصيب الاقتصاد من هبوط أو ارتفاع للأسعار ضمن ما يسمّى بـ: "الزمن الدوري" أو "زمن الظرفية"<sup>1</sup>، وتتحكّم في هذه التغيّرات في الأسعار عدّة عوامل ترجع إلى أهميّة البضاعة من حيث التّسعير والجهد المبذول والوقت المستغرق من أجل إنتاجها، فضلاً عن خضوعها لقانون العرض والطلب والمكوس المفروضة عليها<sup>2</sup>، وتعتبر الظرفية التاريخية وخصوصيّاتها المتعلقة بحالي الأمن والحرب أحد هذه العوامل<sup>3</sup>، ذلك أنّ حالة الحرب تكون سبباً في ندرة مختلف المواد ومدعاة لاحتكارها ممّا ينعكس على أثمانها بالارتفاع، وحسب ابن خلدون "تفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شكّ. فترخص أسعارها في الغالب إلّا ما يصيبها بعض السنين من الآفات السماوية ... ولولا احتكار الناس لها لما يتوقّع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن و عوض لكثرتها بكثرة العمران"<sup>4</sup> وهو بذلك يشير إلى العامل البشري الذي يكون سبباً في ندرتها، ويقدم استثناءً لضلوع الآفات السماوية من جوائح وأوبئة وطواعين وغيرها في بعض الأحيان على نفسي الاحتكار.

عبّرت العديد من المصادر عن متلازمة الحرب وارتفاع الأسعار خلال العهد الزياني، كما سعت في توصيفاتها إلى التوأمة بين هذين المتغيّرين والإشارة إلى العلاقة التلازمية التي تربطهما، فأشار التنسي إلى ذلك خلال نقله لأخبار حصار تلمسان الطويل بقوله: "... وكان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار"<sup>5</sup>، كما ذهب ابن خلدون إلى التأكيد على الظفرة التي ترافق حالة الحرب من ارتفاع للأسعار وتجاوزها للتسعير المتعامل به في العوائد وحالة الرخاء، مستشهداً بالحصار السابق، وفي هذا الصدد يقول عبد الرحمان: "... وغلت أسعار الأقوات الحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد"<sup>6</sup>، فضلاً عن ذلك فإنّ ابن الشّماع أشار إلى عامل الندرة في الأقوات وارتباطها بارتفاع الأسعار خلال حالة الحرب، واستدلّ بذلك على ثورة الأعراب بإفريقية ضدّ أبي الحسن التي مهّدت لإعادة إحياء الدولة الزيانية سنة 749هـ/1348م بقوله "... وانتفضت إفريقية على السلطان أبي الحسن، واشتدّ القلق في الطّعام فبلغ قفيز القمح ثمانية دنانير كبيرة"<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> خالد طحطح، الكتابة التاريخية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2012، ص 98.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 213. ابن الأزرق بدائع السلك في طبائع الملك، تح: علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2008، 283/2-285.

<sup>3</sup> عبد الكريم يوسف جودت، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع هجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، [د.ت]، ص 453.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 211-212.

<sup>5</sup> التنسي، نظم الدر، مصدر سابق، ص 132.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 128/7.

<sup>7</sup> محمد بن أحمد بن الشّماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: محمد الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984، ص 98.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

وبخصوص النصوص المناقبيّة والتّراجميّة فإنّ هذا التّوع من المصادر قد أعرض عن التّطرّق لظاهرة ارتفاع الأسعار، ما عدا المتعلّق منها باستحضار الطابع الكرامي للولي، في قالب انتقائي لقدراته على التّدخل زمن الحرب لتلافي الوضع، وإحداثه بهذه الكرامات والمكاشفات لنوع من الموازنة في الأسعار والأخذ به كمسبّب لانجلاء الأزمة، فقد أورد كلّ من ابن قنفذ والتمبكتي نصّاً عند تعرّضهما لأخبار الولي عبد الرّحمان بن أبي زيد الهزميري يبرز دوره في فكّ حصار تلمسان الطويل بسبب ارتفاع أسعارها، إذ كان هذا السّبب محرّكاً لانتقاله من أغمات إلى تلمسان، ونصّ ذلك عند كلّ منهما: " وسبب حركته من أغمات قضاء حاجة يطول شرحها من السّلطان أبي يعقوب المريني وهو في حصاره العظيم، لتلمسان بعد سبع سنين. هذا ظاهر أمره وفي الباطن يريد أن يصرفه عن ذلك الحصار ويكفيه عمّا انتهى إليه المحصورون من الشّدّة لأنّه بلغ ثمن الدّجاجة عشرة دنانير ... وكان للفأر ثمن معتبر لا أذكره الآن. فلم يقبل منه فرجع إلى فاس ونزل بجامع الصّابرين، وهو موضع مبارك يأوي إليه أهل الفضل والصّلاح. فبعد أيّام قتل السّلطان أبو يعقوب"<sup>1</sup>. يتّضح من هذا النّص - وإن تمّ عقلنته في الروايتين- أنّ الحضور الولائي زمن الحروب خلال العهد الزياني سجّل حضوره كقوّة -رمزيّة- مرافقة للسلطة السياسيّة في معادلة ارتفاع الأسعار زمن المسغبة والجوع<sup>2</sup>.

في طرح توافقي فإنّ نصّ ابن مريم لم يخالف سابقه عند ترجمته للولي يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز، إذ أوضح دوره في توفير الأقوات بتلمسان بعد ارتفاع أسعارها دون أن يتطرّق لنوع الضّائقة التي تعرّض لها أهل تلمسان سواء كانت بشريّة أو طبيعيّة، ونصّ ذلك في البستان: " ومن كراماته ما حدّثني به خديمه قال لي: ... في زمن الغلاء لم يبق الزّرع إلّا عنده، وذكر المتقدّمون أنّه وقع غلاء كبير في تلمسان حتّى تعطلت منه المساجد وانغلقت، وبعث السّلطان لأهل البلد، وطلبهم في الزّرع للشّراء فلم يجده عند أحد، فقال سيّدي يحيى: أنا أعطيك جميع ما يخصّك من الزّرع. وهذا كلّ من برّكته رضي الله عنه ونفعنا به"<sup>3</sup>، إضافة إلى ذلك قدّم لنا التّمبكتي ترجمته لمحمد بن أحمد بن عبد الله الشريف التلمساني وتطرّق إلى دوره في تلافي أزمة ارتفاع الأسعار بمحلّة أبي عنان أثناء حصاره لقسنطينة سنة 754هـ/1353م<sup>4</sup>، وقد جاء فيها: "... كانت له كرامات كثيرة منها: أنّه اشتدّ الغلاء بقسنطينة في محلّة أبي عنان حتّى بلغ الفول ثمانية بدرهم وعظم الحال فكانت تصله الكتب وفي عنوانها تدفع لسّيدي أبي عبد الله فإذا فتحها وجدها بيضاء فيها ذهب لا يعرف من أين هي فيستعين بها على شأنه حتى خلصه الله"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> ابن قنفذ، انس الفقير، مصدر سابق، ص 70. التّمبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 242. الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 85/3.

<sup>2</sup> من بين أكثر أحد الصّور بشاعة عن تبعات الجوع التي يلحقها بالعامّة زمن المسغبة، نازلة استفتي عنها العقباني، عن التّسبب في الاضطرابات التّفسيّة والحالات المرضيّة العقليّة والجنون نتيجة حالة الجوع. المازوني الدّرر المكنونة، مصدر سابق، 13/2.

<sup>3</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 319.

<sup>4</sup> يؤكّد ابن قنفذ في الفارسيّة حالة العوز الشّديد وارتفاع الأسعار بقوله: " وكانت قسنطينة في حصار بني مريم، وفي ضيق وفي غلاء شديد من سنة أربع وخمسين وسبعمئة". ابن قنفذ، الفارسيّة، مصدر سابق، ص 180.

<sup>5</sup> محمد بن يوسف الثغري التلمساني، مناقب أبي عبد الله محمد بن أحمد الشّريف التلمساني، تح: قندوز ماحي، سلسلة أعلام وتاريخ حاضرة تلمسان (1)، الجزائر، ص 245. التّمبكتي، مصدر سابق، ص 440.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

بالموازاة مع ذلك فإنّ التّصوص النوازليّة لم تغفل عن ظاهرة ارتفاع الأسعار وأشادت باقتنائها بالطرفيّة التاريخيّة الممثلة في الحروب وأعمال الغصب والكوارث الطّبيعيّة<sup>1</sup> التي شهدتها معظم مدن المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، ممّا جعل أهاليها في حالة ترقّب دائم لسلوك مسلك الادّخار تحسّبا لنفاذ الأقوات وارتفاع أسعارها خلال حالة الحرب، وقد كانت هذه الطّرفيّة فضاءً مناسباً لتفشي ظاهرة الاحتكار، ممّا أوجب على السّلاطين الزيانيين<sup>2</sup> والمحتسبين والقضاة التّدخل بإصدار قرارات لإخراج المؤن وقت الشّدائد للبيع قصد الموازنة بين الأسعار، ومن ذلك التّازلة التي استفتى فيها المازوني الفقيه التّونسي البرزلي، وقد جاء فيها "... هل يجبرون مدّخروا الزّرع والأدام والفواكه على بيعها في أوقات الشّدائد كحال هذه السنّة ... فإن قلتهم جبرهم على إخراجهم من السّوق وبيعه للنّاس هل يبيعونه بسعر الوقت أو بسعر الادّخار"<sup>3</sup>.

يتبيّن للمطلّع على التّصوص المتعلّقة بارتفاع الأسعار زمن الصّائقة الحربيّة بعين المفاضلة أنّ المادّة المصدرية تتباين من حيث وجود مصادر اهتمّت بتسجيل الأخبار المتعلّقة بهذه الحيثيات عرضاً، ووجود أخرى اهتمت بالمقارنة بينها خلال حالتي الرّخاء والحرب، لذلك كان أفيد للموضوع عرض هذه التّصوص، وأهمّها:

- نص يحيى بن خلدون: قام يحيى بن خلدون بإجراء مقابلة بين ثمن الأسعار في حالة الحرب وحالة الرّخاء فعبر عن ذلك بقوله أثناء عرضه لأخبار حصار تلمسان الطّويل: " فكانت مدّة هذا الحصار الأكبر والخطب الشّديد ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيّام، بلغ فيها... ثمن صاع قمحهم إلى دينارين وربع دينار، وصاع شعيرهم إلى نصف ذلك، ومع هذا فهم صبر وبقضاء الله رضا"<sup>4</sup>، كما تطرّق إلى أسعار هذه المواد مباشرة بعد انقضائه "ففي ساعة واحدة بيع عندهم القمح ثمانية صيعان بثمان دينار والشّعير ستّة عشر صاعاً بثمان الدّينار"<sup>5</sup>.

- نص التنسي: انتقى التنسي حصار تلمسان الطّويل - كسابقه - للدّلالة على غلاء الأسعار بقوله: "... وكان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار ... بلغ فيها الرّطل من الملح دينارين، وكذلك من الزّيت والسّمّن والعسل واللّحم، وذكر بعضهم أنّ الدّجاجة بلغت ثمانية دنانير ذهباً"<sup>6</sup>، كما بسط أسعار القمح وأشار إلى انخفاضها

<sup>1</sup> أبو زكريا يحيى المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح: مختار حسّاني، مراجعة مالك كرشوش، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، 108/3-109.

<sup>2</sup> أوصى أبو حمو الثّاني ابنه أبا تاشفين بإخراج الزّرع زمن الشّدائد والحروب في جملة وصاياه التي حفظها لنا في كتابه واسطة السّلوك، وهذا ما نلمسه في قوله: "... وإن كان زمان فتنة تائرة في البلاد ومشاجرة ... وإن كان زمن قحط ومجاعة وأزل، فترقّب بهم في المخازن والمجايي، وتحسن لضعفائهم المحتاجين وتحايي وتؤثرهم ممّا ادّخرته لشدائدهم في الرّخاء من فوائد، فتعمّر أسواقهم بما اخترنته من الطّعام، ممّا يقوم بهم أود التّاس في ذلك العام". أبو حمو موسى، واسطة السّلوك، مصدر سابق، ص 153.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 241.

<sup>4</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 234/1.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

<sup>6</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 132.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

في اليوم الموالي لاغتيال يوسف بن يعقوب المريني وانجلاء الحصار في السابع من ذي القعدة 706هـ " فيقال أنّ صاع القمح بيع فيها أول النهار بدينارين وربع، وبيع في آخر النهار ثمانية أصع قمح بثمن دينار"<sup>1</sup>.

- نص حسن الوزان: في طرح مشائي قام الوزان بعرض أسعار الأقوات ومقابلتها بين الحالتين وعبر عن هذا التحوّل التّاجم عن الانتقال من حالة اللّامن إلى حالة الأمن بقوله: " وهكذا تحوّلت مجاعة الأمس إلى رخاء اليوم"<sup>2</sup>، وحسبه " دام الحصار سبع سنوات واستفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيل روجيو من القمح ثلاثين مثقالاً، وسكورسو من الملح ثلاثة مثاقيل، ورطل اللّحم ربع مثقال ... إلّا أنّ لحسن الحظّ قُتل يوسف المريني ... حتّى إنّ كيل السكورسو من القمح الذي كان يساوي صباحاً ثلاثة مثاقيل انخفض زوالاً إلى بيوتشين"<sup>3</sup>.

- نص ابن بطّوطة: يشكّل نص -الجغرافي- ابن بطّوطة استثناءً لتفرّده بأسعار بعض الأقوات ببلاد المغرب الأوسط خلال حالة الرّخاء ومقارنتها بأسعار الموادّ الغذائيّة بمصر قبيل شعبان سنة 750هـ/1349م، أي في سياق زماني كان المغرب الأوسط فيه تابعاً لدولة بني مرين، وقد زار ابن بطّوطة بعض مدن المغرب الأوسط قبيل هذا التاريخ كتانس ومازونة ومستغانم وتلمسان والعبّاد وندرومة ثمّ توجه بعدها مباشرة إلى المغرب الأقصى<sup>4</sup>.

تجدر الإشارة في هذا السّياق إلى تّبعية المغرب الأوسط السياسيّة للدولة المرينيّة على إثر سيطرة أبي الحسن المريني عليها من سنة 737هـ/1336م إلى غاية 749هـ/1348م وخروجها عن طاعة بني زيّان للمرّة الثانيّة، على إثر هذه الطّرفيّة يمكن الأخذ بالأسعار التي كان معمولاً بها في الدولة المرينيّة والتي قيدها ابن بطّوطة في كتابه، وإسقاطها على الأسعار ببلاد المغرب الأوسط نظراً للتّبعية السياسيّة المذكورة وآثارها على مختلف الأصعدة بما فيها إحداث القطيعة مع سكة الطّرف المنهزم، وهذا ما يدخل في إطار مظاهر الاستقلال الاقتصادي التي ترافق المنتصر في الحرب، خاصة إذا تعلّق الأمر بدولة بحجم دولة بني مرين الطّامحة إلى توحيد كامل بلاد المغرب تحت رايتها، حيث تتوافر لدينا قرائن في المصادر التّوازليّة المغاربيّة والأندلسيّة تؤكّد اختفاء السّكة المحليّة لصالح العملة الوافدة خلال حالة الحرب وانتصار الطّرف الوافد<sup>5</sup>.



<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 134-135.

<sup>2</sup> الوزان، مصدر سابق، 18/2.

<sup>3</sup> بيوتشين: عملة إيطاليّة قيمتها نحو سبعة سنتيمات من الذهب. المصدر السابق، ص 19.

<sup>4</sup> ابن بطّوطة، رحلة ابن بطّوطة، مصدر سابق، ص 657.

<sup>5</sup> للمزيد من التّفصيل أنظر: مبحث غشّ العملة من هذه الدّراسة.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

دينار مضاعف ضرب بتلمسان لأبي الحسن المريني بين سنتي 737هـ-749هـ/1336-1348م<sup>1</sup>.

بالإضافة إلى المآخذ السابقة فإنّ النصوص الجغرافية -زيادة على نصّ ابن بطوطة والوزان السابق ذكرهما- تعتبر من أهمّ النصوص الممكن تبنيها للدلالة على واقع المغرب الأوسط الاقتصادي خاصة خلال فترات الاستقرار السياسي، إذ يضمن هذا العامل حرّية تنقل الجغرافيين وتقييد ملاحظاتهم في مختلف الجوانب الاقتصادية خلال تنقّلاتهم بين مدن وحواسر المغرب الأوسط، بما في ذلك التعقيبات المتعلقة بأسعار مختلف المواد خلال حالة الرّخاء والأمن. بناءً على ما تمّ عرضه فإنّ هذه القرائن تسمح لنا بإجراء مقارنة لأسعار المواد الغذائية والأقوات وغيرها من ضروريات المعاش بين حالي الرّخاء والحرب في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني وهذا ما يوضّحه الجدول التالي:

<sup>1</sup> نقلا عن Hazard, Harry, numismatic history of latemedival north africa

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

| المصدر               | السعر زمن الرّخاء  | المصدر                      | المكان/الزّمان                                | السعر زمن الحرب                                      | نوع المادة | جنس المادّة      |
|----------------------|--|-----------------------------|---|--|------------|------------------|
| بغية الرّواد، 234/1. | سعره بعد انجلاء الحصار 8 صيعان<br>بثمان دينار .  | بغية الرّواد 234/1          | الحصار الطويل<br>-698<br>-1298/هـ706<br>م1306 | دينارين وربع دينار للصّاع<br>الواحد                  | القمح      | الأغذية الأساسية |
| مسالك الأبصار 140/4. | درهم من العين لكلّ قفيز  | العبر 128/7.                | الحصار الطويل                                 | ثمان البرشالة إثنا عشر رطلا<br>ونصف مثقالين من الذهب |            |                  |
| الوزّان 19/2.        | ثمان سكورزو بثلاثة مثاقيل صبيحة<br>فض حصار تلمسان الطويل و14<br>سنتيم ذهبي إيطالي زوالا. | الأدلة البينة ص98.          | ثورة أعراب إفريقيّة<br>هـ749                  | ثمانية دنانير كبيرة للقفيز الواحد                    |            |                  |
|                      |  | الوزان 18/2.                | الحصار الطويل                                 | كيل روجيو بـ 30 مثقالا                               |            |                  |
| بغية الرواد 234/1.   | 16 عشر صاع بثمان الدينار   | بغية الرواد 234/1           | الحصار الطويل                                 | صاع بدينار ونصف ربع دينار                            | الشعير     |                  |
| مسالك الأبصار 140/4  | كل قفيز بأقل من خمسين درهما.   | الأدلة البينة ص98.          | ثورة أعراب إفريقيّة                           | قفيز مقابل 4 دنانير                                  |            |                  |
| الدرر المكونة 387/3. | القبضة مقابل درهم (نازلة سئل فيها<br>محمد بن مرزوق)                                      | العبر 128/7                 | الحصار الطويل                                 | الأوقية مقابل 20 درهما                               | الفول      | الخضر            |
|                      |  | نيل الابتهاج ص440           | حصار قسنطينة<br>هـ754                         | 8 مقابل درهم   |            |                  |
|                      |  | العبر 128/7.                | الحصار الطويل                                 | الأصل الواحد منه بـ 20 درهما                         | الحس       |                  |
|                      |  | العبر 128/7. الاستقصا 86/3. | الحصار الطويل                                 | الأصل الواحد منه بـ 15 درهما.                        | اللفت      |                  |
|                      |  | العبر 128/7. الاستقصا 86/3. | الحصار الطويل                                 | الأصل الواحد منه بثلاثة أثمان<br>المتقال             | الكرنب     |                  |
|                      |  | العبر 128/7. الاستقصا 86/3. | الحصار الطويل                                 | ثلاثة أثمان الدّينار                                 | الخيار     |                  |



الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

|                                 |   | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. | الحصار الطويل      | الواحدة بأربعين درهما   | القثاء أو الفقوس          |                          |
|---------------------------------|---|-----------------------------|--------------------|-------------------------|---------------------------|--------------------------|
| طعام شاذ يتناول تحت طائلة العوز | العبر 128/7. الوزن 18/2. الاستقفا 85/3. | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. | حصار تلمسان الطويل | رطل مقابل ثمن مثقال     | الجيفة من لحم البغال      | الأطعمة الشاذة زمن الحرب |
|                                 | العبر 128/7. الوزن 18/2. الاستقفا 85/3. | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. |                    | رطل مقابل ثمن مثقال     | الجيفة من لحم الحمير      |                          |
|                                 | العبر 128/7. الوزن 18/2. الاستقفا 85/3. | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. |                    | رطل مقابل 10 دراهم      | الجيفة من لحم الخيل       |                          |
|                                 | العبر 128/7. الوزن 18/2. الاستقفا 85/3. | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. |                    | رطل مقابل 30 درهما      | الجلد البقري ميتة أو مذكى |                          |
|                                 | العبر 128/7. الوزن 18/2. الاستقفا 85/3. | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. |                    | مثقال ونصف للشخص الواحد | الهرّ الداجن              |                          |
|                                 | العبر 128/7. الوزن 18/2. الاستقفا 85/3. | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. |                    | مثقال ونصف للشخص الواحد | الكلب                     |                          |
|                                 | العبر 128/7. الوزن 18/2. الاستقفا 85/3. | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. |                    | 10 دراهم للشخص الواحد   | الفأر                     |                          |
|                                 | العبر 128/7. الوزن 18/2. الاستقفا 85/3. | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. | الحصار الطويل      | 10 دراهم للشخص الواحد   | الحية                     |                          |
| مسالك الأبصار 142/4.            | الدّجاجة الجيّدة بدرهمين جديدين         | العبر 128/7. الاستقفا 86/3. | حصار تلمسان        | دجاجة مقابل 30 درهما    | الدّجاج                   | اللّحوم و                |
|                                 |   | نظم الدر ص 132.             |                    | دجاجة بـ 8 دنانير ذهباً |                           |                          |
|                                 |   | نيل الابتهاج 242.           |                    | دجاجة بـ 10 دنانير      |                           |                          |

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

| مشتقاتها        |                            |                             | الطويل                             |  |
|-----------------|----------------------------|-----------------------------|------------------------------------|--|
| البقر           | الشخص من البقر 60 مثقالا   | العبر 128/7. الاستقصا 86/3. | بقرة مقابل 6 دنانير                | نوازل ابن مرزوق و3.                                    |
| الضآن           | الشخص منها ب 7 مثاقيل ونصف | العبر 128/7. الاستقصا 86/3. | كلّ رطل إفريقي بدرهم عتيق          | مسالك الأبصار 142/4..                                  |
| اللحم           | رطل اللحم بربع مثقال       | الوزان 18/2.                | إذا غلا سعره يباع 18 أوقية بدرهمين | رحلة ابن بطوطة ص 658.                                  |
| الشحم           | أوقية مقابل 20 درهما       | نظم الدر ص 132.             | /                                  | /  |
| الفواكه         |                            |                             | حصار تلمسان<br>الطويل              |  |
| التين           | حبة بدرهمين                | العبر 128/7. الاستقصا 86/3. | 10 مقابل درهم                      | نزهة المشتاق ص 325.                                    |
| الإيجاص         | حبة بدرهمين                | العبر 128/7. الاستقصا 86/3. | 10 أواق بدرهم نقرة                 | رحلة ابن بطوطة ص 658.                                  |
| البطيخ          | 30 درهما                   | العبر 128/7. الاستقصا 86/3. | /                                  | /  |
| مواد أخرى       |                            |                             | حصار تلمسان<br>الطويل              |  |
|                 | بدينارين                   | نظم الدر ص 132.             |                                    |  |
| الملح           | الأوقية ب 20 درهما         | العبر 128/7.                |                                    |  |
| الزيت           | بدينارين                   | نظم الدر ص 132.             | بياع مقابل الطعام وزنا بوزن.       | نوازل ابن مرزوق و11.                                   |
|                 | أوقية ب 12 درهما           | الاستقصا 86/3.              |                                    |  |
| السمن           | رطل بدينارين               | نظم الدر ص 132.             | رخيصة بالثمن اليسير .              | نزهة المشتاق ص 325.                                    |
|                 | 12 درهما                   | العبر 128/7.                |                                    |  |
| العسل           | رطل بدينارين               | نظم الدر ص 132.             |                                    |  |
| الحطب (للإيقاد) | 10 دراهم                   | العبر 128/7.                | حزمة مقابل درهم واحد               | التشوف إلى رجال التصوف ص 123. مناقب صلحاء الشلف ص 307. |
|                 |                            | العبر 128/7.                | /                                  | /  |
| البيض           | بيضة مقابل 6 دراهم         | العبر 128/7.                | /                                  | /  |
| العصافير        | العصفور ب 6 دراهم          | العبر 128/7.                | /                                  | /  |

### المطلب الثاني: الاحتكار ظاهرة مرافقة للحرب

نتج عن الغلاء فقدان المواد الأساسية للغذاء وأصبح العوام بالإضافة إلى خطر الحرب مهتدين بالمجاعة، ولعلّ أوضح مثال على ذلك تلك المجاعة التي تلت حصار تلمسان الطويل (698هـ-706هـ/1298-1306م) إذ "نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الأمم واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفئران، حتى أنّهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس"<sup>1</sup> و"أكل بعضهم بعضا، وكانوا يفرطون ويجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه ويأكلونه"<sup>2</sup>، ومن عجيب ما يقف عليه المتتبع لهذه الأخبار أنّ السلطان نفسه كان عرضة للخصاصة في الأكل والقوت فقد كان غذاؤه "عبارة عن مزيج من لحم الحصان وحبوب شعير كاملة وورق ليمون وأشجار أخرى ليزداد حجمه"<sup>3</sup>، خاصة وأنّ السلطان المريني كان "ينزل شديد العقاب والسطوة بمن يديرها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلّل بالأقوات إليها"<sup>4</sup>، وفي نصّ ابن مريم ما يؤكد ذلك، حيث جاء في حديثه عن كرامات الولي يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز على منطوق لسان مخدوم هذا الولي ما نصّه: "... عندنا هري في دار الشيخ لا يخلوا من الزرع أبدا، والشيخ رضي الله عنه صاحب زرع، في زمن الغلاء لم يبق الزرع إلا عنده، وذكر المتقدمون أنّه وقع غلاء كبير في تلمسان حتى تعطلت منه المساجد وانغلقت، وبعث السلطان لأهل البلد، وطلبهم في الزرع للشراء فلم يجده عند أحد، فقال له سيدي يحيى: أنا أعطيك جميع ما يخصك من الزرع"<sup>5</sup>، كما أنّ ابن قنفذ أشار إلى استغلال التجار لحصار تلمسان بإدخالها للمحصورين بأغلى الأثمان لتحقيق الأرباح الطائلة<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> التّاصري، الاستقصا، مصدر سابق، 3/85. ابن خلدون، العبر، 7/128.

<sup>2</sup> ابن الأحرر، روضة التّسرين، مصدر سابق، ص 69.

<sup>3</sup> الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، 2/18.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/292.

<sup>5</sup> ابن مريم، مصدر سابق، ص 319.

<sup>6</sup> ابن قنفذ، انس الفقير، مصدر سابق، ص 70.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزباني

لقد ساعد هذا الوضع على تفشي ظاهري الادّخار والاحتكار، فقد كانت الأولى مرتبطة بسلوك مسلك تأمين الغذاء لوقت الحاجة والضرورة<sup>1</sup>، وأما الثانية فقد اعتمدها التجار تحيّنًا لأوقات الشدّة والأزمات الطبيعيّة والبشريّة لتحقيق الرّبح السّريع في أوقات قياسيّة بعد مضاعفة سعر المنتج<sup>2</sup>.

بغضّ النظر عن شيوع ظاهرة الاحتكار حتّى في حالة الاستقرار السّياسي<sup>3</sup> إذ يؤكّد ابن الأحرر على لسان وزير أبو تاشفين الأوّل أن أبا تاشفين "كان قد حجر على سائر الحضر بيع جميع الأقوات ولا يبتاعها إلا هو"<sup>4</sup>، وقد وصف السّلطان أبو حمو الثّاني بأنّه كان بخيلا مسكينا لا يرى في وقته أبجل منه<sup>5</sup>، فقد كان المقصد من قولي ابن الأحرر هذين هو تشدّد السلاطين الزبانيين في ادخار الأقوات بتلمسان وحظر خروجها منها، لعلمهم بالاضطرابات العسكريّة ولواحق الحروب الشبه دائمة وضرورة حرصهما على فور الأقوات بصفة شبه دائمة داخل الأهراء لكي لا تكون-تحت طائلة الحصر- سببا في الاستسلام للعدوّ، ومّا يؤكّد هذا الطّرح هو اهتمام السّلطان الزباني أبو زيّان في السّاعات الأولى لانجلاء الحصار الطّويل على تلمسان بنسبة القمح الموجودة في أهراء تلمسان، حيث جاء في رواية محمد بن إبراهيم الأبلي ما يلي: "... جلس السلطان أبو زيّان صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره، واستدعى ابن حجاج خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنّما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتماهما"<sup>6</sup>.

وقد ساق لنا ابن مرزوق الأسباب الدّاعية لاحتكار بعض المواد عند تطرّقه لحادثة صادفته في تلمسان عن محتكر لجأ إليه للوساطة بينه وبين السّلطان أبي الحسن لكي يساعده في تغطية خسارته التّاجمة عن الممارسات المتعلّقة بالاحتكار، فقال له - على سبيل العرض: "كان عندي زرع كثير معولا على ادّخاره إلى سنة يرتفع فيها السّعر

<sup>1</sup> العقباني، مصدر سابق، ص 127.

<sup>2</sup> عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعيّة وأثرها في سلوك وذهنيّات الإنسان في المغرب والأندلس، دار الطليعة، بيروت، 2008، ص 108.

<sup>3</sup> يلخصّ ابن خلدون التّجارة في أنّها عملية تنمية رأس المال بشراء الرّخيص وبعيه بالغلاء، ويكون ذلك على وجهين يكون الأوّل باختزان السلعة حتّى يرتفع ثمنها فتوجّه للبيع، والثّانية باستغلال عامل التّدرّج لبعض السلع التي تكون مفقودة فينقلها التاجر "إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده التي اشتراها فيه، فيعظم ربحه". ولا يعدو هذا الطّرح أن يكون شكلا من أشكال الاحتكار. ابن خلدون، المقدّمة، مصدر سابق، 269/2.

<sup>4</sup> ابن الأحرر، مصدر سابق، ص 73. لكننا نشكك في قول ابن الأحرر هذا لأننا سنعدّد فيما بعد الشّواهد الدّالة على تدخّل السلطنة في محاربة ظاهرة الاحتكار.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 77.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 129/7.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

فيوفي ثمنه بالمال وزيادة، فلما افتقدته، وكان نحو من كذا وكذا، وقدّرتّه بكذا وكذا، ممّا يبلغ هذا العدد، وجدت أولادي تصرّفوا فيه، وليس في ذمّي ما يفي بربعه، ولكنيّ إنّما جئت لأنّ يدفع لي السلطان ثلاثة أحمال ذهباً، أذهب بها إلى فندق الشّماعين... وأدفع لكلّ ذي حقّ حقّه<sup>1</sup>، ولعلّ أصدق مثال على احتكار الأقوات زمن الحروب في المغرب الأوسط هو أثمان هذه المواد - وقد سبق ذكرها- فقد كانت تتجاوز المعقول نظراً لندرتها، وصعوبة الحصول عليها، وأمام هذا الوضع عوّل الكثير من التّجار على استغلالها زمن المسغبة.

إنّ هذا الاضطراب وإنّ أشّر على المجاعات والاضطرابات المجتمعيّة التي كانت تضرب عامة تلمسان خلال الحروب فإنّه قد أشّر-ضمنياً- كذلك عن تعطلّ الأسواق بسبب عامل الندرة وطول أمد الحرب الذي يفضي إلى الانهيار الديموغرافي، وبالتالي إحداث اضطرابات أخرى تنعكس على الاقتصاد والمعاملات التجاريّة والماليّة سلباً، لأنّ معادلة العمران البشري عامل مهمّ في تحقيق الرّخاء الاقتصادي، فأبو حمّو موسى الثّاني يؤكّد أنّه "لا عيش إلاّ بمال ولا مال إلاّ من جباية ولا جباية إلاّ بعمارة"<sup>2</sup>، وأمام هذا الوضع وجد الفقهاء والسلطة على حد سواء أنفسهم أمام مواجهة ظاهرة الاحتكار التي من شأنها أن تخلّ بالنظام العام للنشاط التجاري والمبيعات في المغرب الأوسط، كما يمكنها أن تعمّق وتساهم في طول عمر الأزمة البشريّة النّاجمة عن الحروب والحصار بعد انتهائها، فكثّف الفقهاء جهودهم لوضع حدّ لهذه الظّاهرة من باب حفظ الأحكام الشرعيّة، أمّا تدخل السلّطة فقد كان على خلفيّة نقص الجباية بسبب تعطلّ الأسواق نظراً لاحتكار السلع وبذلك "تكسد الأسواق ويبطل معاش الرّعايا لأنّ عامته من البيع والشّراء وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم ونقص جباية السلطان، أو تفسد لأنّ معظمها من أواسط الدّولة وما بعدها إنّما هو من المككوس على المبيعات"<sup>3</sup>، وقد تطابق تنظير ابن خلدون هذا كلّ التّطابق مع وصيّة أبي حمّو موسى الثّاني لابنه إذ يرى أنّ تعطلّ هذه الأنشطة وهلاك الفئات الفاعلة فيها مؤذن بانعدام الجباية، فقال: "فلا يحمّلنك حب المال على المسامحة في جور العمّال، فإنّه إذا هلك الرّعايا عدمت الجباية"<sup>4</sup> وإذا عدمت الجباية نقص احتياطي الدّولة من الأموال وفي ذلك مدعاة للانتكاس الاقتصادي.

لقد حفظت لنا مختلف المتون تدخّل السلّطة -عن طريق صاحب السّوق- والفقهاء-عن طريق الفقهاء- للحدّ من ظاهرة الاحتكار إذ كلّفوا المحتسب بأن يأمر النّاس إذا اشتدّ الغلاء بإخراج سلّعتهم وطعامهم المخزون لبيعه

<sup>1</sup> ابن مرزوق، المسند الصحيح، مصدر سابق، ص 232-233.

<sup>2</sup> أبو حمّو موسى الزّياني، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 196.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 1/357.

<sup>4</sup> أبو حمّو موسى، المصدر السابق، ص 63.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

حتى يتسنى للناس مواجهة الأزمة<sup>1</sup>، وأبرزها ما فصل فيه العقباني في تحفته في باب "الاحتكار لزمن مسغبة أو مخمصة" وفي ذلك أربعة أقوال:

- إخراج الطعام قسرا للأسواق إذا ثبت وجوده تحت طائلة الحاجة واقتران ذلك بكارثة طبيعية أو بشرية وليس ذلك في كل زمان، حسب قول مالك.

- إخرجه قسرا لما في ذلك من حفاظ على المصلحة العامة مع مراعاة عدم خسارة البائع للثمن الذي اشترى به السلعة في حالة الرخاء. حسب قول ابن رشد.

- عدم الامتثال لهذه الأحكام يعرض البائع إلى إرجاع رأس المال له، وأخذ الربح منه للصدقة على الفقراء تأديبا لهم فإن عادوا إلى ممارسة الاحتكار كان الضرب والطواف بهم والسجن. حسب ما جاء عند أبي القاسم في أحكام السوق.

- منع شراء المواد الغذائية المخولة للتخزين أو العولة لمدة سنة، ومنع شراء الطحانين والحناطين للقمح والشعير في السر من عند دار البائع، لتفادي بيعه بالغلاء في المنازل بالسر ولتمكين مختلف الفئات سواء كانوا فقراء أو أغنياء من بلوغ ثمنه، فضلا عن تفادي تعطيل عمل الأسواق. حسب أبو القاسم ومالك.

كما أن الفقهاء تدخلوا للحد من البيوع للأعراب الذين احترقوا اللصوصية وأي شيء يمكن أن يقوي من شوكتهم<sup>2</sup> بما في ذلك بيع القمح والشعير سواء كان ذلك في حالة الرخاء أو حالة الحرب أملا في تحقيق الأمن الغذائي ورغبة في توفير سبل الأمن، نظرا لاستغلال هذه المواد كعلوفة لحيولهم فتقوى بذلك شوكتهم على المسلمين<sup>3</sup>، وتكون هذه الأقوات أيضا سببا لنقص هذه المواد وقت الحاجة، مما يؤثر على النشاط الاقتصادي وتعطل الأسواق، كما نهي ابن القنفذ عن بيع الأسلحة لقطاع الطرق وشدّد في شروط التوبة عن ذلك، فحسبه "من باع سيفا لقاطع الطريق، فإنه يفسخ البيع والكرهه شديدة، فإن فات فقد اختلف في الصدقة بثمنه"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> مختار حساني، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى، الجزائر، 2011، 30/4-31.

<sup>2</sup> لم يكن القمح والشعير المادتين الوحيدتين اللتين أفتى الفقهاء تعطيل التجارة فيهما خاصة مع اللصوص وغير المسلمين، ومن بين الفتاوى التي أجاز بعض الفقهاء الأخذ بها خلال الحرب، ماورد عند الونشريسي عن عدم بيع آلة الحرب، وفي هذا الصدد يقول الونشريسي: "وسئل بعضهم عن بيع آلة الحرب وعدة الفرس وما يستعان به على حرب المسلمين..."، فكان الجواب أن "الحرب وعدة الفرس وكل ما يستعان به على حرب المسلمين فلا يجوز أن يبيعه سقطي ولا صبقالي ولا حدادي ولا تاجر، ولا تجوز التجارة في شيء من ذلك ولا يبيعه من أحد المسلمين" الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 67/6 . 190/6-191.

<sup>3</sup> مزدور سمية، مرجع سابق، ص 104.

<sup>4</sup> ابن القنفذ، أنس الفقير، مصدر سابق، ص 113.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزباني

ومهما يكن فإنّ هذه التّدخلات التي كان مقصدها حفظ النظام الاقتصادي من الانتكاس من خلال مواجهة الاحتكار والمحتكرين، فإنّه لا يمكنها إلا أن تكون حلولاً ظرفية استجابتها السّلطة تماشياً مع الكوارث البشريّة لأنّ هذه الحلول كانت تستهدف بشكل آخر الفئات الفاعلة في النشاط الاقتصادي وأصحاب رؤوس الأموال والتّجار ممّا يؤدّي بهم إلى خسارة رؤوس أموالهم، الأمر الذي يؤثّر على مختلف الأنشطة الأخرى كنشاط السّوق وأهل الدّكاكين في المآكل والفواكه وأهل الصّنائع، ولا ضير أن نستحضر قول ابن خلدون كاملاً حول تدخّل السّلطة في فرض قيود على النشاط الاقتصادي ومحاربتهم للاحتكار، وإضرار هذه القيود بمختلف الأنشطة الاقتصاديّة الأخرى، حيث قال: " وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدّولة التسلّط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثمّ فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع وربّما تفرض عليهم تلك الأثمان على التواحي والتّعجيل فيتعلّلون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدّثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان، وتعود خسارة ما بين الصّفقتين على رؤوس أموالهم. وقد يعمّ ذلك أصناف التّجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السّوق وأهل الدّكاكين في المآكل والفواكه وأهل الصّنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطّبقات وتتوالى على الساعات وتجحف برؤوس الأموال ولا يجدون عنها وليجة إلاّ القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الأسواق... وتنقص جباية السّلطان"<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث: مظاهر غش وفساد العملة

تعدّ العملة من بين أهمّ المعايير الدّالة على النشاط أو الركود الاقتصادي لأيّ دولة، كما تعبّر "المادة التي صنعت منها النقود عن مدى غنى أو فقر الدّولة المعنيّة"<sup>2</sup>، وقد توتّر الكوارث الطّبيعيّة والبشريّة والسياسيّة<sup>3</sup> بشكل ملحوظ على انقطاع العملة، فأما الكوارث الطّبيعيّة فقد أشار إليها الغبريني بقوله: "أما الدرهم القديم الذي أشار

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 357/1-358.

<sup>2</sup> محمد عبد الكريم الوافي، منهج البحث في التّاريخ والتّدوين التّاريخي عند العرب، منشورات جامعة فان يونس بنغازي، ط3، 2008، ص70.

<sup>3</sup> كان عبد الملك بن مروان كتب في صدر كتابه إلى الروم: "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" وذكر النبيّ مع التاريخ، فنكر ذلك ملك الروم وقال: اتركوه وإلاّ ذكرنا نبيكم في دنائنا بما تكروهونه فعظم ذلك عليه واستشار الناس فأشار عليه خالد بن يزيد بضرب السكّة وترك دنائهم ففعل. ابن خلدون، المقدّمة، مصدر سابق، 41/2-42.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

إليه لب ن جماعة فهو غير موجود عندنا وكان موجودا قبل زمن الوباء<sup>1</sup>، وقد أشادت إحدى الدراسات بالعمل البشري وأشارت إلى أنّ عامل الاستقرار السياسي عامل مهم في ازدهار العملة، إذ ترى أنّ "العملة تعدّ دليلا موثقا ينم عن المستوى الحضاري العام للمنطقة التي تضرب فيها ومن ناحية أخرى تمثل سيادة الدولة وشرعيتها، وعليه فإنّ العملة لا تستطيع أن تزدهر في بلد من البلدان إلا في ظروف اقتصادية مستقرة"<sup>2</sup>، ومن الطبيعي أن غياب السلطة واشتغالها بأمر الحرب تارة أو انقطاعها تاريخيا تارة أخرى عن الحكم -بحسب الظرف السياسي- يكون سببا في تعطيل دور السكّ التي يتراجع دورها تزامنا مع هذا الظرف<sup>3</sup>، وذلك لانقطاع الموارد وتوقف عملية سكّ العملة، أو لولاء التابع للمتبوع، وإعلان التبعية السياسية بإلغاء السكّة المحليّة لصالح سكّة المنتصر، وهذا ما أشار إليه الرحالة عبد الباسط المصري أثناء تطرّقه لحملة العاهل الحفصي أبو عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1488م) بسبب قطع السلطان أحمد العاقل الزياني الدّعوة للحفصيين، وفي هذا الصّد يقول الرحالة المصري: "ولما قرب عثمان من تلمسان أشار إلى صاحبها بأن يبعث إليه ويصالحه ويحببه إلى ما كان سأله من طاعته والقيام بدعوته وضرب الدرهم والدينار بسكّته... وأجابه في الذي جاء بسببه"<sup>4</sup>.

أشار ابن مرزوق أيضا إلى ظاهرة انقطاع السكّة في إحدى نوازله استفته فيها السائل: "أيجوز لأحد أن يتخذ حلّيّا جيّدا ممّا مثله يعتدّ به ويسوغه دنانير أو دراهم... لأنّ سكّة السلطان غير قائمة الآن أم هذا ممنوع"<sup>5</sup>، الأمر الذي يضع السلطة أمام هاجس تزايد الإنفاق وتراجع الإيرادات<sup>6</sup>، كما تعدّدت مظاهر وأسباب انقطاع السكّة في نوازل المعيار بسبب العامل البشري<sup>7</sup>، ونظرا لحجم الضّرر الذي كان يرافق انقطاع السكّة فقد كانت الدولة تباشر تلافي هذا الضّرر بعد الخروج من الأزمة مباشرة للحرص على الاستقلال الاقتصادي للدولة، ولعلّ الأمر ذاته واستشعار الخطر بعد انقطاعها من طرف السلطة الزيانية خلال الحصار الطويل هو السبب ذاته

<sup>1</sup> المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 108/3-109.

<sup>2</sup> نصيرة عزرودي، الغش في العملة في بلاد المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل المتأخّرة، مجلّة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع09، 2014، ص 317.

<sup>3</sup> محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب في العصر الوسيط علائق وتفاعل، مرجع سابق، ص 79.

<sup>4</sup> عبد الباسط، مصدر سابق، ص 17-18.

<sup>5</sup> مجهول، نوازل ابن مرزوق، مصدر سابق، و15.

<sup>6</sup> أحمد طاهري، ظاهرة التضخم التقدي في العهد مساهمة في علاقة التّقد بالأسعار، مجلّة المواقف والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع04، ديسمبر 2020، ص 133.

<sup>7</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 32/5 . 105/6 . 127/11.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

الذي حمل السلطنة الزيانية على وضع شعار "ما أقرب فرج الله"<sup>1</sup> على السكة مباشرة بعد رفع الحصار المريني على تلمسان.

كما أنّ استغلال الفراغ السياسي الذي تتركه السلطنة نظراً لاشتغالها بأمر الحرب وغوائلها يفتح الباب على ظاهرة غشّ النقود واستغلال الصناعات المعدنية من طرف الصناع من العامة التي تؤمّن مصادر الذهب وتكرّس هذه المقومات لغشّ العملة والاحتفاظ بفارق العملة كهامش ربح، ومما يؤكد ذلك أوزان الديتار الزياني الذي سجّل أعلى قيمة له بوزن 4.66 غ في فترة حكم السلطان أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م) وهي الفترة التي عرف فيها المغرب الأوسط بتنامي قواه العسكرية لدرجة أنّ دهبنة عطا الله يصف أبو حمو الأول بالمؤسس الفعلي للدولة الزيانية ويصف عصره بالعصر الذهبي<sup>2</sup>، أما أدنى قيمة له فقد سجّلت في فترة ضعف الدولة الزيانية في عهد السلطان أبي عبد الله محمد الثالث (827-831هـ/1423-1427م) حيث بلغ وزنه 1.05 غ<sup>3</sup>، وهذه المطارحة من شأنها أن تسدل الستار عن معادلة الحرب وتدهور النشاط الاقتصادي التاجم عن التغيّرات التي تطرأ على العملة.

إنّ حالة الحرب التي ميّزت العصر الوسيط المتأخر خاصة في المغرب الأوسط وكانت أهمّ سمة له، جعلت من المغرب الأوسط -الذي كان عرضة لهجمات الحفصيين في الشرق والمرينيين غرباً- في حالة عدم استقرار شبه كلي على مدار ثلاثة قرون من الزمن، وعرضة للانقطاع السياسي عن الحكم في بعض الأحيان<sup>4</sup>، فقد "استمرّ الملك في بني زيّان ثلاثمائة سنة، غير أنّهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس -أي بني مرين- الذين احتلّوا مملكة تلمسان نحو عشر مرّات حسبما جاء في التاريخ"<sup>5</sup>، ممّا يضع الباحث أمام ظاهرة عسكرية شبه دائمة ترتكز على تنامي أعداد الجيوش يوماً بعد يوم لمواكبة هذا الوضع، وقد تفتّن ابن خلدون للدور السلبي الذي يعلبه الجيش على الجوانب الاقتصادية وأبان عن العلاقة التلازمية التي تربط المتغيّرين، فكلمّا تضخّم الجيش تضخّمت متطلّباته وارتفعت معه

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 129/7. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مصدر سابق، 204/4. الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 86/3.

<sup>2</sup> دهبنة عطا الله، العصر الذهبي للزيانيين، مرجع سابق، ص 382-348.

<sup>3</sup> بوزيان الدراجي، مرجع سابق، ص 233.

<sup>4</sup> عبد المجيد مزبان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، طبعة خاصة بتظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 127.

<sup>5</sup> يصرّح الوزان بهذا الرقم، بينما عدّد ابن مرزوق انقطاع الدولة الزيانية بـ: 18 مرّة استناداً إلى رواية شفوية مباشرة من الإمام القاضي المؤرّخ أبو إسحاق بن أبي يحيى الذي قال له: "حين دخلت تلمسان هذه الدخلة، هي ثامنة عشر دخلة دخلتها ملوك [بني مرين] عنوة". الوزان، مصدر سابق، 8/2. ابن مرزوق، المسند الصّحيح الحسن، مصدر سابق، ص 203.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

بشكل موازي وتيرة الجبايات، ويزداد الأمر استفحالاً في أواخر الدولة -عندما تكثر الحروب- فيكون له انعكاس سلبي على النشاط الاقتصادي، فتكسد الأسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران وعليه فإنّ الجيش يمثل مصدر قوة للدولة في بداياتها لكن سرعان ما يصبح عالة عليها في أواخر الدولة<sup>1</sup>.

الملاحظ أيضاً أنّ النجّ عن هذه القطيعة السياسية بين الفينة والأخرى اختفاء السكّة المحليّة للمنهزم كدلالة على مظهر بسط سيطرة المنتصر -كما سبق ذكره-، وقد حفظت لنا المتون النوازليّة الضّرر الاقتصادي والاجتماعي التّاجم عن تأثير الحروب على العملة، فالونشريسي يُعرب عن قلق العامة في نازلة عن "من عنده سكّة وشاع في الأوساط خبر منع رواجها" ونصّها: "سئل بعض الشيوخ عن مسألة وهي إذا استشعر الناس قطع السكّة وحصل منها شيء عند أحد من الناس هل يجوز له أن يسرع في إخراجها قبل قطعها أم لا؟"<sup>2</sup>، أما ابن الحاج فقد طرح نوازله مشكلة ذات أبعاد خطيرة، تتجلى في انقراض سكّة ابن جهور وظهور سكّة ابن عبّاد في إشبيلية مع استمرار التّعامل بالسكّة المقطوعة حتّى أنّ بعض الفقهاء أفتوا لصاحب دين بالتّعامل بالسكّة القديمة، وجاء السؤال في هذه النّازلة عن "معالجة الدّيون إذا انقطعت السكّة القديمة وحلّت محلّها سكّة جديدة"، وقد جاء فيها: "أخبرني بعض إخواننا من ابن جابر فقيه إشبيلية قال: نزلت هذه المسألة بقربطة أيّام نظري فيها للأحكام ومحمّد بن عتاب حي، ومن معه من الفقهاء فانقطعت سكّة ابن جهور بدخول ابن عبّاد سكّة أخرى، فأفتى الفقهاء أنّه ليس لصاحب الدّين إلاّ السكّة القديمة، وأفتى بن عتاب بأن يرجع ذلك إلى قيمة السكّة المقطوعة من الدّهب"<sup>3</sup>.

إنّ الاضطرابات في العملة وانقطاعها ومظاهر الغشّ فيها التي كانت تلازم حالة الانفلات الأمني أو الانقطاع السياسي بسبب الحروب، شكّلت بمختلف تجلّياتها مصدر قلق كبير للدولة الزيانية نظراً للآثار الاقتصادية السلبية المنجّرة عنها، فداعي اختلاف عيار ووزن الدينار الزياني وانقطاعه هي دواعي اقتصادية وسياسية كمقدار دخل الدولة وما تجبیه مقابل ما تنفقه على جيشها ومنشآتها في حالات السّلم والحرب، وقيمة الدّهب الوارد إليها، وقد تكون لهذه الاضطرابات في العملة مضاعفات سلبية على خزينة الدولة الزيانية<sup>4</sup> وقد ساق لنا الونشريسي مضاعفات

<sup>1</sup> الحسين بولقطيب، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، جذور للنشر، الرباط، 2004، ص 116.

<sup>2</sup> الونشريسي، مصدر سابق، 75/6.

<sup>3</sup> محمد بن أحمد بن الحاج التجي القرطي، نوازل ابن الحاج، تح: أحمد شعيب اليوسفي، مطبعة تطوان، المغرب، 2018، 65/2.

<sup>4</sup> رفيق خليفي، حرفيو السك النقدي في المغرب الأوسط الزياني، أسرة ابن الملاح أنموذجاً، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ع04، جوان 2013، ص 94-95.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

هذه الظاهرة حيث جاء في أحد نوازله بأن "قطع الدنانير والدراهم ... أتمها من الفساد في الأرض"<sup>1</sup>، وعليه فقد أولى بنو زيّان بالغ اهتمامهم للحدّ منها، فبينما قال البعض بحضرها بأن "لا يجري في البلد إلا سكة وحدها فإن اختلاف السكة داعية إلى فساد التقد، والزيادة في الصّرف، واختلاف الأحوال وخروجها عن عادتها"<sup>2</sup>، رأى البعض بجواز التعامل بالسكة المحدثّة الأقلّ جودة ف"إن كان الجزء المشوب بالفصّة من التّحاس معلوما قدره لا يزداد فيه، واشتهر ذلك عند الخاصّة والعامة من أهل دار السكة وغيرهم من المتعاملين، جاز طبعها على ذلك، وجاز التعامل بها، لأننا أمنا من التّدليس بها"<sup>3</sup>.

وجدت السّلطة الزيّانيّة نفسها أمام ضرورة تقييد العملات الجديدة وضبطها نظرا لشيوع استخدامها مع إتاحة التعامل بالعملات القديمة، وذلك حفاظا على رؤوس الأموال، لأنّ مصادرة هذه الأموال المغشوشة قد يشكّل كارثة حقيقية لرؤوس الأموال، فإما أن يقبلوا بالسكة الجديدة التي أشيع التعامل بها ويقوموا بضبطها، وإما أن تذهب رؤوس أموال التّجار والعامة سدى فتكون بذلك سببا في اضطراب اقتصادي جديد<sup>4</sup>، وفي هذا الصّدّد يقول العقباني(ت854هـ/1450م)<sup>5</sup>: "... أقول إنّ فساد سكة المسلمين وغشّ دراهمهم قد عمّ وقوعه بهذه البلاد المغربيّة بأسرها، ولم يقطع لمادة ذلك حسم، حتّى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم... فإنّا لله وإنا إليه راجعون". وقد نكف على حجم هذا الضرر الاقتصادي من خلال قول العقباني السّابق فانتشار التّقود المغشوشة يطرح مشكل تراجع التّوع على حساب الكم<sup>6</sup> وبذلك فإنّ الأسواق تغرق بهذه العملة المغشوشة ويصعب على الرّعيّة والسّلطة إيقافها لأنّها أصبحت عرفا جديدا وعادة لا بدّ منها في المعاملات الماليّة، وهذا ما يدفع أصحاب رؤوس الأموال إلى التّخلّص منها خوفا من السّقوط الحرّ لقيمتها وقد أكّد على ذلك قول من مجموعة من التّجار لأبي عبد الله محمد المقرّي: "عن حكم من باع متاعا بعد تسويقه بدنانير فضيّة من دراهم السكة الجارية حينئذ وأصلها

<sup>1</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 414/2.

<sup>2</sup> E.lévi-provencal, la vie urbain et les corps de métiers a Séville au début du XII , p57.] s.d[siècle : le traité D'ibn abdoun, journal asiatique,

<sup>3</sup> الونشريسي، المصدر السابق، 129/6.

<sup>4</sup> صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص 279.

<sup>5</sup> يجب الإشارة إلى أنّ هذه القرائن التي قدّمها العقباني تعود للقرن 9هـ/15م أي في مرحلة ضعف الدّولة الزيّانيّة، وهو مؤشّر قويّ على ارتباط مرحلة الضّعف العسكري بمظاهر فساد العملة وتدليسها. موسى لقبال، الحسبة المذهبيّة في بلاد المغرب العربي نشأتها وتطوّرها، الشّركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص55.

<sup>6</sup> إنّ تخفيض العملة الجيدة يزيد من سرعة تداول العملة الرديئة، ممّا يجعل الرعيّة تحتفظ بالجيد وتطرح الرديء الذي تزيد سرعة تداوله بين الناس، وبذلك يقلّ التعامل بالجيدة. محمد طاهري، مرجع سابق، 157.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

في الضرب سبعون درهما في الأوقية لكن دخلها اختلاط... حتى صار الدرهم في الوزن نصف درهم ... فصار ذلك عادة ربما يعتقد لزومها بمكان استمرارها فكانوا لذلك يتعاطونها في المبيعات على كثرة حتى صار من عنده شيء منها يريد الخروج عنها في أي غرض حضر من غير مبالاة بغلاء ولا رخص لتوقع قطعها<sup>1</sup>.

فضلا عن ذلك فإن محاربة هذه الظاهرة عن طريق معاقبة المدلسين بقطع أيديهم حسب قول ابن عرفة<sup>2</sup> كان يعرض اليد العاملة المؤهلة - القليلة - في هذا المجال إلى الزوال، وبالتالي فإن درء هذه المفسدة عن طريق اتباع هذا الإجراء قد يعرض الدولة الزيانية إلى كارثة اقتصادية أخرى تتمثل في خسارة اليد العاملة المؤهلة لسك العملة، وهذا ما نستشفه من قول العقباني الذي يرى أن "من يفعل الدلسة في النقود فإنهم يقطعون أيديهم وقد كان القطع من خلاف أحق باتباع نص الشارع، لكنهم قد يرون قصر المفسدة في هذا بخصوصيته على عمل اليد فإذا قطعت ارتفعت المفسدة بزوال آلتها"<sup>3</sup>، والمقصود بذلك زوال الأيدي العاملة عليها، وعليه فإن العقاب بقطع أيدي السكاكين والعاملين على دور الضرب الذين يثبت عليهم جرم الغش والتدليس لم يكن حكما قطعيا وإنما "كان يُنظر فيه بحسب قوة ما يترتب عليه من عموم المفسدة وضعفها"<sup>4</sup>.

تجدر الإشارة إلى أن الحرب وتداعياتها على مختلف الأصعدة تكون سببا في إحداث هجرات داخلية وخارجية لعناصر مختلفة هروبا من واقع اللأمن، ومن هذه الهجرات الخارجية هجرة اليهود إلى المغرب الأوسط الزياني بسبب اضطهاد مسيحي اسبانيا لهم، وقد كان ذلك على فترات مختلفة، فطائفة منهم قد هاجرت سنة 794هـ/1391م بسبب اضطهاد القشتاليين والقطلونيين لهم، وتضاعف عددهم خلال سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م<sup>5</sup>، ومما لا ريب فيه أن السلطة هي من كانت تشرف على عملية ضرب السكة<sup>6</sup>، لكن بعضا من هؤلاء اليهود المهاجرين كانوا يقومون بضرب السكة بصفة خاصة بعيدا عن دار السك<sup>7</sup>، حيث أكد دهبينة عطا الله أن تاجرا يهوديا كان

<sup>1</sup> الونشريسي، مصدر سابق، 5/189-190.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 2/414.

<sup>3</sup> العقباني، مصدر سابق، ص 105.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 104.

<sup>5</sup> عبد العزيز فيلاي، مرجع سابق، ص 193.

<sup>6</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 2/41-42.

<sup>7</sup> عمر بلوط، مرجع سابق، ص 59.



## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

يصنع بمرسية نقودا ذهبية تشبه النقود الإسلامية لبيعها بعد ذلك في تلمسان نقودا مزورة<sup>1</sup>، وقد استغل اليهود ذلك عند ضعف الدولة وظروف عدم الاستقرار السياسي، كما استمر تدليسهم للسكة إلى حدّ توأطهم مع صاحب الفضة بدار السك، إذ أفصحت بعض الفتاوى عن الغش الذي كانت تتعرض له العملة في عهد المازوني في سؤال موجه إلى الإمام محمد بن مرزوق " عن رجل ابتاع نليجا بألف دينار، دراهم عشرية على الحلول، إلا أنّ دراهم البلد كثر فيها الفساد... ولا تترك على وزنها المصطلح عليه في دار السكة، وتبقى ما تخرج من دار السكة نقص حتى لا تكاد تجد في البلد إلا درهما مقصوص، وربما اتفق صاحب الفضة ويهود دار السكة على ضربها ناقصة لقلّة الضبط وغلبة الفساد، وصار هذا المقصوص هو الجاري بين الناس، ولا يتوقفون فيه أصلا وعليه تقع عليهم بيعاتهم، فتجد هذا المقصوص"<sup>2</sup>، وبالتالي فإنّ موازنة إصدار العملة من طرف السلطة المركزية باعتبارها "وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتمّ الخالص من البهرج بين الناس في النقود عند المعاملات، ويثقون في سلامتها من الغشّ بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة"<sup>3</sup>، وإصدارها من طرف جهات غير رسمية قد يعرض الرعية إلى وجوب التعامل مع نوعين من العملة أحدهما مضبوط عيارا ووزنا وآخر يخضع لتقديرات نسبية<sup>4</sup>، ولذلك وضّح ابن خلدون ضرورة أن تكون السلطة هي الجهة الوحيدة التي تختصّ بعملية الإصدار النقدي والمحافظة على العملات من الغشّ والتقليد وتحديد مقاديرها ويقصد ابن خلدون من ذلك أن يكون حجم النقود بالمقدر المطلوب بحيث تتجنّب حالات التضخم والانكماش وعدم إحداث أي تغيير في الأسعار، ممّا يعني وجود قدر كبير من التوازن بين الكميات المعروضة والمطلوب من النقود<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> خالد بلعربي، الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة كان التاريخية، ع06، ديسمبر 2009، ص 32-

Dahina Attallah, opcit, p245..38

<sup>2</sup> نور الدين غرداوي، جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية بالمغرب الإسلامي في القرنين الثامن والتاسع هجريين من خلال الدرر المكنونة في نوازل مازونة للمازوني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف عبد العزيز لعرج، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2005-2006، ص 140.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 41/2.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 42-43.

<sup>5</sup> شوربجي عبد المولى، الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون والأسعار والنقود، طباعة ونشر إدارة الثقافة والتشريع، المملكة العربية السعودية، 1989، ص 61.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

زيادة على ذلك نجد أنّ اليهود الوافدين إلى تلمسان سعوا إلى استغلال ضعف الدولة الزيانية للتواطؤ أيضا مع محصلي الجزية المفروضة عليهم شرعا بتلمسان حسب شهادة العقباني الذي يقول: "ومثله عندنا في مغربنا مواطأة العمال لبعض يهود الكبوس على اعتزازهم بوضع الجزية"<sup>1</sup>.

أمّام هذا الوضع أمر الفقهاء-عن طريق الاجتهاد في الأحكام- بتتبّع مصادر الغش في العملة وتوّعدوا أصحابها القائمين عليها بالغش والطّبع في الأماكن الخاصّة حتّى تطيب أموالهم، "فإذا ظهرت دراهم مبهرجة فليشهد فيها ويبحث عن أصلها، فإن ظهر محدثها مفردا أو متعدّدا فليشهد في عقوبته ويطوف به في الأسواق ممّا يكون نكالا لغيره وردعا لهم ممّ يرى من عظيم مانزل به ويجبسه بعد على قدر ما يرى ويأمر من يتعاهد ذلك بالتفقد حتى تطيب دراهمهم ودنانيرهم ونقودهم"<sup>2</sup>، كما وصلت عقوبة المدلسين في النقود حدّ الخلود في السّجن حتّى يموت به صاحبها تماشيا مع ما جاء به الشّيخ الإمام ابن عرفة الذي "يشدّد أقوى التّشديد فيمن يتهم بضرها، وأفتى فيمن يتهم بذلك أن يخلد في السّجن حتّى يموت، وكذا وقع فيه بقي في السّجن حتّى مات فيه فخرجت منه جنازة بعد أن تكلم فيه الشّيخ أبو الحسن البطرني بالشفاعة فأبى ابن عرفة أن يعطي فيه يدًا وقال هذا أشدّ من قطع الدنانير والدراهم التي ورد فيها النّص عن ابن المسيّب أنّها من الفساد في الأرض"<sup>3</sup>.

تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ الصّراعات الداخليّة بين أفراد الأسرة الزيانية الحاكمة قد أثّرت هي الأخرى سلبا على السّكة، فقد طال النزاع بينهم الأيادي المؤهّلة للضرب في دار السّك ونخصّ بالذكر التجربة الحرفيّة الأندلسيّة في هذا الميدان والمثلة في أسرة بني الملاح القرطبيّة، فقد احترفت بحرفة سكّ التّقود على عهد السلطان أبو حمو موسى الأول (707هـ/718هـ-1307-1318م) نظرا للأمانة التي عرفوا بها، حيث يقول يحيى بن خلدون فيهم: "وهم من بيت سراوة من أهل قرطبة، احترافهم السّكاكة وأولو أمانة فيها ودين"<sup>4</sup>، وقد "نزل أولهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى [سك العملة] وزادوا إليها الفلاحة"<sup>5</sup>.

كان السلطان أبو حمو قد سخر بطانة من الأعلّاج لخدمة ابنه ووليّ عرشه أبو تاشفين الأول والاشتغال بتربيته فكان "منهم هلال المعروف بالقطلاي ومسامح المسمّى بالصّغير، وفرج بن عبد الله وظافر ومهدي

<sup>1</sup> العقباني، مصدر سابق، ص 157.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 104.

<sup>3</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 414/2.

<sup>4</sup> يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 235/1.

<sup>5</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 141/7.

## الفصل الثاني: أثر الحرب على النشاط الاقتصادي خلال العهد الزياني

وعلي بن تاكرت وفرج الملقب شقورة<sup>1</sup>، وقد آثر السلطان أبو حمو الأول ابن عمّه أبا سرحان مسعود بن أبي عامر بن زيان عن ابنه السلطان أبي تاشفين وفضّله عليه في السرّ والجهر "فكثيرا ما كان يعيرُهُ به، ويوتّخه في الملأ بسببه، وربما أسمعته هجر القول غير مبال بعاقبته"<sup>2</sup>، فكان صدر أبو تاشفين يجيش غضبا لذلك، وهمته تتوقّد حنقا لأجله، ممّا أدّى بأبي تاشفين إلى استغلال البطانة التي وضعه أبوه في كنفها لقتل بطانة أبيه ف"أشاروا بقتل مسعود المذكور، واعتقال أبيه، وموالاته بعد الاستيلاء على الملك ... فعزموا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين لجمادى الأولى سنة ثمانية عشر وسبعمائة وقصدوا السلطان بداره ومعه مسعود المذكور، وبنو الملاح، وغيرهم من بطانته، فدخلوا عليهم والسلاح مهرة، فأول ما بدأ الأعلّاج بقتل السلطان رحمه الله خيفة منه إن بقي، واستأصلوا الباقين"<sup>3</sup>، وقد طووا بذلك صفحة ذهبية من صفحات سك العملة خلال العهد الزياني بتصفية أسرة بني الملاح المحترفين بهذا المجال، فعلى الرغم من أنّ هذه الأسرة التي اشتغلت لمدة تقارب 85 سنة كوزراء وحرفيين في السك استطاعت أن توثّر وتراكم خبراتها في دار سك العملة على مدار هذه المدّة وهو ما توضّحه جودة العملة في العهد الذي تلى مقتل أبو حمو الأول، إلا أنّ مظاهر الغشّ قد طالتّها بعد ذلك، ذلك أنّ اليهود كادوا أن يغرقوا الأسواق بالعملات الزائفة والمغشوشة حتّى أصبحوا يعرفون بيهود دار السكة<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 140.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 237/1.

<sup>3</sup> التنسي، نظم الدرّ والعقيان، مصدر سابق، ص 138-139.

<sup>4</sup> رفيق خليفي، مرجع سابق، ص 107.

## الفصل الثالث:

أثر الحروب على البنى العمرانيّة في المغرب الأوسط  
خلال العهد الزيّاني

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

### المبحث الأول: مؤججات الخراب العمراني المرافق لحالة الحرب في المغرب الأوسط الزباني

لم يقتصر الصراع بين دول المغرب الثلاث على التأثير على الوضع الاقتصادي فقط وإنما تعداه إلى تحطيم مختلف مظاهر الحياة، فقد كان من الطبيعي أن تنحني حركة العمران في ظلّ الاضطراب السياسي وحركة الحروب المستمرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني من طرف "مجتمع يتنفس الحرب"<sup>1</sup>، لدرجة أنّ أحد الدراسات وصفت الدول في هذه الفترة بأنّها كانت "جهازا عسكريا متحرّكا باستمرار"<sup>2</sup>، وإن كانت الآثار المادية كثيرا ما يعترها التغيير والتبديل الناتجين عن تقادم الزمن، فإنّ الإنسان كذلك يفعل من خلال نشاطه العسكري الذي يطال مختلف هذه الشواهد.

تشير مختلف المصادر والبحوث التاريخية إلى التتابع الطردي بين ازدهار حركة العمران وحالتي السلم والحرب، فابن خلدون -شاهد عصره والمطلع على دعائم قيام الدول وعوامل انتقاض عمرانها انطلاقا من الخبرة التي راكمها من خلال تجربته- يرى بأنّ الظلم مؤذن بخراب العمران وأنّ "العدوان على الناس في أموالهم وحرمتهم ودمائهم وأبشارهم وأعراضهم فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة، وتنتقض الدولة سريعا لما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتفاض، ومن أجل ذلك حظر الشرع ذلك كله... سدا لأبواب المفاسد المفضية إلى انتفاض العمران"<sup>3</sup>، ويجانب هذا الطرح ما ذهب إليه غاستون بوتول (Gaston Paul) في مفهومه للدور الوظيفي الذي تقدّمه الحرب، حيث يقول: "إذا أردنا أن تؤدي الحرب وظيفة... لا يمكن أن تكون هذه الوظيفة غير التخريب نفسه"<sup>4</sup>.

على غرار ذلك فإنّ أحد الدراسات أشارت إلى عوامل الانتكاس العمراني المرافق لحالة الحرب، غير أنّها لم ترجع خراب العمران إلى الدور الوظيفي الذي تلعبه الحرب فقط، وإنما -أيضا- إلى الوقت الذي كان يشغل الدول الثلاث عن ممارسة أي نشاط يتعلّق بالتشييد -إذا ما استثنينا تشييد العمائر العسكرية التي تستدعيها حالة الحرب- وتفرغ قادة الدول لخوض المعارك والحروب على مدار القرون الثلاثة المتأخّرة، إذ ترى أنّ "السبب الأوضح لفكّ لغز التناقض بين الازدهار والحركة العمرانية، يكمن في أنّ كثرة الحروب والمعارك لم تترك فرصة للقائمين على مقاليد

<sup>1</sup> الحسن بولقطيب، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، دراسة تاريخية، جذور للنشر، المغرب، 2004، ص 120.

<sup>2</sup> محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، مرجع سابق، ص 79.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 85/2.

<sup>4</sup> غاستون بوتول، هذه هي الحرب، تر: مروان القنواقي، منشورات عويدات، لبنان، 1981، ص 68.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

الأمر السياسي لمزاولة أنشطة عمرانية. ذلك أنّ عملية البناء تتطلب الاستقرار والأمن لفترات طويلة نسبياً، والحال أنّ سلاطين المغرب خلال هذه المرحلة ظلّوا ملتصقين بظهور جيادهم، إذ لا يكاد المرء يصادف سنة مرّة دون أحداث<sup>1</sup>.

الجدير بالذكر هنا أن تتساءل عن طرائق وأساليب هذا الخراب والعلل المتحكّمة فيه، فهل كان خراب العمران خلال الحرب في العهد الزباني لا يعدو أن يكون صورة نمطيّة للحروب وتأثيراتها العامة على العمران، أم أنّ هناك أسباب أخرى خفيّة ساهمت في تغذية الحرب لثني حركة العمران في المغرب الأوسط خلال هذا العصر؟

### المطلب الأول: خراب العمران في المغرب الأوسط الزباني بين هاجس تحقيق الانتصار والنزعات النفسانية للقادة العسكريين:

#### 1- استحضار لمكونات الشخصية العسكرية:

من الخصائص التي يتميز بها علم التاريخ عن بقية العلوم " أن جميع العلوم لا تعمل إلا في نوع واحد من الظواهر، بينما نجد أنّ التاريخ يدرس في آن واحد نوعين من الوقائع المختلفة كلّ الاختلاف؛ وقائع مادية تعرف بالحواس (أصول مادية وأفعال الإنسان)، ووقائع من طبيعة نفسانية (عواطف، أفكار، دوافع لا يدركها إلا الشعور)، ولا سبيل إلى الإضراب عنها لأنها توحى للناس بسلوكهم وتقتاد أفعالهم الحقيقية"<sup>2</sup>، وعليه فقد ذهب لويس جوتشلك في استقرائه للوثائق الشخصية استناداً إلى الخلفيات النفسانية للقول: " أحياناً يكون بمقدور المؤرّخ أن يعرف عن المؤلّف أكثر ممّا كان في نيّة المؤلّف إخباره به"<sup>3</sup>.

إنّ إخضاع ظاهرة خراب العمران في المغرب الأوسط الزباني إلى التحليل وفقاً للمناهج المعاصرة أو ما يعرف اليوم بعلم النفس والاجتماع العسكريين، ومحاولة إحداث مقاربات تهدف إلى التنقيب داخل دائرة النفس وإفرازاتها خلال حالة الحرب، انطلاقاً من استنطاق نصوص مختلف المصادر الوسيطية لا تنفك تزوّدنا بالدور البالغ الذي تلعبه هذه الأخيرة في التحكم في حركة العمران، سواء كان أصحابها مشاركين في الحروب أو ناقلين لأخبار هذه الحروب، كما أنّها تعدو مأخذاً مهماً مفسراً لحركة تدهور العمران على خلفيّة النزعات النفسانية للقادة أو الجند المشاركين في الحروب

<sup>1</sup> الحسن بولقطيب، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، مرجع سابق، ص 121.

<sup>2</sup> وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ - اتجاهات مدارس مناهج-، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط2، 2013، ص394.

<sup>3</sup> لويس جوتشلك، كيف نفهم التاريخ، تر: عائدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت-نيويورك، 1966، ص ص 75،76.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

الزيانية وردود أفعال أعمال العدوان الجمعي في الحرب على البنى العمرانية، فعلى غرار مختلف صور تجنّب معرّة الهزيمة التي صورتها لنا المتون من طلب النساء الزيانيات للقتل بسيوف الجند الزياني أو الانتحار عقبةً وتجنّباً لمعرة السبي في حالة الانهزام وخسارة المعركة<sup>1</sup>، وكذلك الانتحار بتناول السموم<sup>2</sup> من طرف السلاطين الزيانيين تجنّباً لمعايشة وتدوّق مرارة الهزيمة<sup>3</sup>، وغيرها من الدلالات التفسيرية المعتمدة الرافضة للخسارة وعقدة الإخفاق والقصور في الحرب، فإنّ خراب عمران العدو كان من بين الدلالات المهمة التي ترافق المنتصر عند الفوز بالمعركة أو الحرب، والسمة الدالة على الانتصار والمظهر المفضي إلى الغلبة وكسب رهان الحرب، ويأتي ذلك على خلفية حرص القادة العسكريين الشديدين على إبراز مظاهر الانتصار لفرض نوع من الضغط العسكري الرمزي على الخصم، الأمر الذي جعل محو البنى العمرانية للعدو مطية لتحقيق هذا الغرض<sup>4</sup>.

على الرغم من تكتم المصادر عن دور السلاطين والقادة العسكريين عن الدور الذي لعبه هؤلاء في تثبيط حركة العمران، والنشاط التخريبي الذي شكّلوا فيه حجر الأساس - إذا ما استثنينا ما تطرقت إليه عرضاً في خضم أعمال الهدم والتخريب والتحريق المصاحب لمجريات المعارك-، إلا أنّ استنطاق بعض الأبيات الشعرية التي نظمها هؤلاء القادة يعطينا صورة شافية على أنّ خراب عمران العدو كان من الصور التي يجب على المنتصر تقييدها تمجيحاً لانتصاراته، وذلك بتخريب وهدم مقومات العدو المعمارية كمعيار مادي وشاهد ميداني دال الانتصار<sup>5</sup>، فإن كان

<sup>1</sup> نقل ابن خلدون هذه الرواية عن شيخه محمد بن إبراهيم الأبلي عن إحدى نساء القصر الزياني التي وفدت على الزياني أبو زيّان وهو بالقصر فقالت له: "تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيّان حرمكم ما لنا وللبقاء، وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لاقحامكم، ولم يبق إلا فواق بكيفة لمصارعكم. فأريحونا من معرة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم وقربوا إلى مهالكنا فالحياة في الدّل عذاب والوجود بعدكم عدم". ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 129/7.

<sup>2</sup> للمزيد من التفاصيل حول انتحار أو قتل السلاطين والحكام في الغرب الإسلامي عن طريق التسميم أنظر: حميد الحداد، السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، الناية للدراسات والنشر والتوزيع ودار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، 2011، ص 254-263.

<sup>3</sup> نقل ابن خلدون عن شيخه الأبلي أيضاً طريقة موت السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن ويوسف بن يعقوب المريني محاصره له، فقال: "قال: هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس، وكان قد أعدّ لشربه لبنا، فلما أذ منه الديماس وشرب، دعا بالقدح فشرّب اللبن ونام فلم يكن بأوشك أن فاضت نفسه، وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم تفادياً من معرة غلب عدوهم إيّاه". المصدر نفسه، 127/7.

<sup>4</sup> حميد تيتاوا، الدولة والعنف بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط من إكراه الأجساد إلى احتواء الأذهان، ص 235.

<sup>5</sup> يزودنا ابن أبي زرع ببحر سقوط دولة الموحدية على يد يعقوب بن عبد الحق وكشاهد على انتصاره قام يعقوب بن عبد الحق بمحو كلّ رسم أو أثر لها، وفي هذا الصدد يقول: "وفتح حضرة مراكش دار ملك المرتضى وقرار سلطانه، وقطع مملكة بني عبد المؤمن

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

ابن خلدون قد أبرز مظاهر سيادة الدولة واستقلالها السياسي وعددها في ما سمّاه "شارات الملك" فإنّ تخريب منشآت العدو كان أيضا من بين مظاهر السيادة الخفية التي كانت تتبّعها الدول في العصر الوسيط لإثبات هيمنتها وبسط سيادتها، ومن أبرز هذه القرائن ما خطّه قلم أبو حمّو موسى الثاني بعد دخوله في أوّل يوم لتلمسان عنوة واستعادته لملك أجداده بعد أن وقعت في أيدي المرينيين للمرّة الثالثة من سنة 754هـ/1353م حتى 760هـ/1358م، إذ تبين هذه الأبيات أنّ أبا حمّو كان عازما على تحميم كلّ ما شيّده بنو مرين من تحصينات ومعاقل ومعاصم وتخريبها على مدار هذه المدّة التي قضاها المغرب الأوسط تحت حكم السلطان أبي عنان، وقد جاء في هذه القصيدة من نظم أبي حمّو:

دَخَلْتُ تِلْمَسَانَ الَّتِي كُنْتُ أَرْجِي... كَمَا ذُكِرَتْ فِي الْجَفْرِ أَهْلُ الْمَلَاخِمِ  
فَخَلَصْتُ مِنْ غُصَابِهَا دَارَ مُلْكِنَا... وَطَهَّرْتُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَجَارِمِ  
وَلَمْ يَنْهَهُمْ مَا شَيَّدُوا مِنْ مَعَاقِلٍ... وَلَمْ يُجِدِهِمْ مَا حَصَّنُوا مِنْ مَعَاصِمِ  
وَإِنِّي لَمَفْنِيهِمْ وَمُفْنِي جُمُوعِهِمْ... وَهَادِمُ مَا شَيَّدُوهُ مِنْ مَعَاصِمِ<sup>1</sup>.

وفي تفكيك آخر لنصوص المباهاة في تخريب البنى العمرانية من خلال نظم نظمته أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي التي يعتبر أحد معاصر فرقة حكم أبي حمّو الثاني -على حدّ تعبير صاحب زهر البستان- عند هجوم أبو حمّو موسى الثاني على وهران في 16 شوال 762هـ/ 19 أوت 1361م، وإقامته للتّهب فيها من عصر السّادس عشر من شوال من السنّة المذكورة إلى ظهر يوم غد، فإنّ بن يوسف القيسي قد تغنّى بخراب العمران المصاحب لحصار وهران، ووثّق ذلك كصورة تدلّ على انتصار أبي حمّو وكشاهد على عمله العسكريّ التّاجح، وأهم ما جاء في هذه الأبيات:

سَلَّ عَنَّهُ وَهْرَانَ هَلْ أَجْرَى نَحْضُنُهَا... مِنْهُ وَهَلْ أَعْنَتْ الْأَسْوَارُ وَالْجَدْرُ  
كَأَلَّا لَقَدْ حَلَّهَا إِذْ حَلَّ سَاحَتَهَا... مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهَا مِنْ عُنُوقِ الْغَدْرِ  
هَذَا ابْنُ جَانَا [قائد وهران] جَنَى بِمَا جَنَى صَبْرًا... وَعَادَ بِالْعَفْوِ مُشْهِدًا ذَلِكَ الصَّبْرَ<sup>2</sup>.

ومحا آثارهم ولم يبق منها رسما على ضخامتها بعد أن كان لها بالمغرب مئة سنة واثنتان وخمسون سنة". ابن ابي زرع، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص 90.

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 30/2.

<sup>2</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 137.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

وللاستزادة أكثر حول ذهنية القادة العسكريين واستهدافهم لمختلف البنى العمرانية كهدف غائي مرافق لهدف المعركة نفسه ألا وهو الانتصار، يوضح لنا صاحب كتاب زهر البستان أنّ مخطّط أبو حمو لاستعادة ملكه سنة 760هـ/1358م، لم يكن يرمي إلى استهداف تلمسان وفكّها من أيدي بني مرين، بل كان الهدف من حشده لمختلف العناصر والجند هو الذّهاب للظفر بتلمسان أولاً ثمّ الذّهاب بجنده نحو البلاد السّجلماسية، ثم بعد ذلك إلى المغرب الأقصى لتخريب العمائر والحصون المرينية والتّكاية بها، لكنّ موت السّلطان المريني أبو عنان جعله يعدل عن قراره، "فكان وصول الخبر بموته في سابع شهر المحرم فاتح السنتين، وفيه كان مبدأ الفتح المبين ... وقد كان عازماً على أن يجوس خلال بلاده ويقاتله بحشده وأمراده، وأن يضرم عليه البلاد نارا ويرجفها غارة وشناراً، وأن يحشد عليه كافة زناتة والأعراب ويخرّب بلاده أيّ خراب، إلّا أنّه سبحانه كفاه أمر القتال"<sup>1</sup>.

### 2- النزعات الانتقامية مدعاة للتخريب:

عادة ما يقترن خراب العمران في الحرب بالانتقام، خاصة إذا علمنا أنّ الرغبات الجمعية في الحرب يبحث من خلالها الأفراد أو الجند بدون موارد عن تفعيل رغبات الانتقام<sup>2</sup>، وبحكم قانون المحاكاة والتقليد يصبح العنف قضية الجماعة لأنّه حسب أحد الدّراسات "ظاهرة معدية" تنفّس في أوساط الجند، ممّا يفتح المجال أمام التقتيل الجماعي واستهداف البنى العمرانية<sup>3</sup>، ولا يساورنا الشك حيال ذلك خاصة إذا علمنا أنّ أحد أسباب الحرب التي أعزى إليها ابن خلدون العدوان بين الأمم إلى الانتقام، وقد جاء قوله حول ذلك في صيغة تقريرية: "أعلم أنّ الحروب وأنواع المقاتلة لم تنزل واقعة في الخليفة منذ برأها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض... وسبب هذا الانتقام في الأكثر إمّا غيرة ومنافسة، وإمّا عدوان، وإمّا غضباً لله ولدينه، وإمّا غضباً للملك وسعي في تمهيدته"<sup>4</sup>.

إنّ الإسقاطات المتعلقة بهذا الطرح على واقع الحروب الزبانية يكاد يتوافق كلّ التوافق مع ما أشار إليه ابن خلدون، كما أنّه يفسّر حالة الانكماش العمراني على خلفيّة النزعات الانتقامية للقادة العسكريين والجند وما تقتاده هذه النزعات من خراب للعمران، ففي حصار أبو حمو موسى الثاني لوهراّن في 16 شوال 762هـ/ 19 أوت

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 24.

<sup>2</sup> الحسن بولقطيب، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، مرجع سابق، ص 127.

<sup>3</sup> عدالة الملك، القتل في المغرب عبر التاريخ، مجلة وجهة نظر، العدد 44-45، المغرب، 2010، ص 3.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 55/2.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

1361م بيّن صاحب كتاب زهر البستان أثر نوازع الانتقام على خراب تحصيناتها الدفاعية، فيقول: "فلم يبرد غليله إلا بهدم سور قصبتها وأسر حماتها ونكبتها"<sup>1</sup>.

كما يلاحظ أنّ الانتقام كان من بين محرّكات الحرب ووقودا للمعارك الزيانية ضدّ بني توجين، وقد طال هذا الصّراع المحتدم بدوره مختلف البنى العمرانية، ذلك أنّ السلطان الزياني يغمراسن كرّر غاراته على قاعدة ملكهم وانشرس بعد معركة إيسلي الأولى سنة 647هـ/1249م و650هـ/1252م وسنة 670هـ/1271م، وكذلك ابنه عثمان بن يغمراسن سنة 686هـ/1287م وسنة 687هـ/1288م ونقله لخبوهم وزروعهم إلى مازونة<sup>2</sup>، لكن بعد عودة الصّراع الزياني والمريني إلى أوجّه قام بنو توجين وفائدهم محمد بن عبد القوي بالتّوضع في صفوف الجيوش المرينية وإعلان الولاء لهم انتقاما "لما نال منهم يغمراسن من طبع القهر وذللّ الغلب والتّحييف"<sup>3</sup>، "فقطعوا الثّمار ونسفوا الآبار وخرّبوا الرّبوع وأفسدوا الرّزوع"<sup>4</sup>، وحري بالذّكر أنّ قائد بني توجين عبد القوي لم يشف غليله بهذه الأعمال التّخريبية، فقام بالمرور "في طريقه بالبطحاء، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها"<sup>5</sup> أثناء هجومه على يغمراسن مع بني مرين في معركة إيسلي الثانية سنة 670هـ/1271م. الملاحظ أيضا أنّ حشد السلطان المريني لهذه القوى وقيامه بهذه العمليّات التّخريبية رفقة قبائل بني توجين لم يخل من نوازع الانتقام، وكان نتيجة لضغائن تعود إلى فترة تحالف يغمراسن مع أبي دبّوس آخر الخلفاء الوحدّين، وهذا ما نتوسّمه في كلام بن خلدون الذي علّل نتائج هذا الخراب العمراني وأرجع مبادئه إلى الرّغبة في الانتقام، حيث يقول: "... لما غلب السلطان أبو يوسف على بني عبد المؤمن وفتح مراكش واستولى على ملكهم سنة ثمان وستين وستمائة ... تحرّك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد، وما أسفوا به من تخذيل عزائمهم ومجادلتهم عن قصده، ورأى أنّ وقعة تلاغ لم تشف صدره ولا أطفأت نار موجدته فأجمع أمره على غزوهم"<sup>6</sup> رفقة بني توجين، وعليه فإنّ السلطان المريني لم يتوان في شنّ هذه الغارات "بتخريب الرّباع، وانتساف الجّتان، وقطع الثّمار، وإفساد الرّزوع، وتخریق القرى والضّياع، لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك وأكثر"<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 135.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 117-116-124/7.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 245/7.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص311. الذّخيرة السنّية، مصدر سابق، ص132.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 295-209/7.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، 243/7.

<sup>7</sup> الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 33/3.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

تظهر بصمة الانتقام والتأثر على خراب عمران المغرب الأوسط خلال العهد الزباني واضحة -أيضا- في حرب أبو حمّو موسى الثاني ضدّ السلطان المريني أبو العباس سنة 786هـ/1384م، وسبب ذلك أنّ عبد الرحمان بن يفلوسن كان يعاني من حصار السلطان المريني أبو العباس بمراكش، فاستصرخ بأبي حمّو لنجده فلبّي الأخير طلبه، وتوجّه لشنّ غارات خاطفة على ضواحي مكناسة وتازا لنصرة أبي يفلوسن وإرغام أبي العباس على الاستسلام وفكّ هذا الحصار على مراكش، وقد صاحب أبو حمّو خلال حملته هذه بعمليات تخریبية فهدم قصر تازروت، ومسجدها قرب تازا، وخرّب قصر مرادة الذي كان قد بناه ونزمار بن عريف من بني سويد بناحية بطوية، فلاحق أبو العباس ووزنمار بن عريف فلول جيوش أبي حمّو التي تراجعت إلى تلمسان بعد ان استمكن له الأمر، وذلك طلبا للانتقام ممّا فعله أبو حمّو وجنوده من أعمال تخریبية على قصورهم، إلى أن وصلوا إلى القصور التي كان أبو تاشفين الأول قد استدعى لها الحدّاق من أهل صناعة البناء من الأندلس في تلمسان، "فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاما بزعمه من أبي حمّو، وأخذوا بالتأثر منه فيما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازي وتخریب قصره هو بمرادة، فأتى عليها الخراب أسرع من ملح البصر"<sup>1</sup>.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ أن إيواء بعض الشخصيات المناوئة لأحد الطرفين -المريني أو الزباني- ممّن كان يناصب العداء لأحدهما كان مغذيا للحملات العسكرية التي يكون الهدف منها الانتقام، ومثل ذلك ما وقع بعد موت السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق واعتلاء ابنه يوسف سدة الحكم ابنه يوسف، وحدث أن خرج عليه ابنه ووزيره محمد ابن عطّو، ولجؤوا فارين إلى حضرة السلطان الزباني عثمان بن يغمراسن، فطالب يوسف عثمان بن يغمراسن بتسليم الوزير وابنه له في صفر سنة 687هـ/1385م فأبى عثمان ذلك "وتحرّكت حفيظة السلطان واعتزم على غزوهم ... وسار حتّى نزل تلمسان فأنجز عنها عثمان وقومه بها، ولاذوا منه بجدرانها، فسار في نواحيها ينسف الآثار ويخرّب العمران"<sup>2</sup>.

### المطلب الثاني: الخراب مصدر اعتياش لبعض الفئات

إنّ حالة الحرب التي كانت واقعا شبه دائم في المغرب الأوسط الزباني أفضت ببعض ساكنته إلى جعل الحرب مصدرا للاعتياش والارتزاق، ولا يساورنا الشكّ ولا المغالاة حول إقرار هذا الطرح إذا علمنا أنّ مؤرّخا كابن أبي زرع

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 191/7.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 284/7.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

يذهب إلى وصف المرينيين بقوله "لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيول والغارة"<sup>1</sup>، وابن خلدون الذي وصف العرب بأنهم "جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دفعهم عن متاعه آذنه بالحرب"<sup>2</sup>، وقد شكّلت هذه العناصر طرفاً مهماً في معادلة الحرب في العهد الزياني. وبذلك فإن الحاجة لا تستدعي إلى بذل جهد كبير لإثبات عمق الأثر الذي مسّ البنى العمرانية جرّاء الحروب والاضطرابات السياسية والحروب التي مني بها المغرب الأوسط إذا علمنا أنّها كانت مصدر هاماً للكسب والمعاش، وكونها محمّلاً للمجاميع التوازلية على أفراد أبواب في متون مصنّفاتهم تختصّ بذكر بيع المضغوط الذي تلجئه الضرورة زمن الحرب إلى بيع كلّ شيء لديه، فقد كان من الطبيعي أن يوجّه الكلّ إمكانياته لخدمته على حساب هذه البنى فتتضرّر تبعاً لذلك العمارة نظراً لطغيان الهاجس الحربي وبالتالي تتقلّص سبل ازدهارها<sup>3</sup>، ومع أنّ الدراسات التي تناسلت لبيان أثر الأزمة في خلق فضاء للاعتياش قد وصفت الحرب كوسط والارتزاق في العصر الوسيط، وعدّدت مظاهر الاعتياش من الأزمة<sup>4</sup>، وقامت كذلك بدراسة عوائد الحرب وأثرها في تغطية معاش فئات محدّدة كالجند وإثراء بيت المال<sup>5</sup>، إلّا أنّنا لم نجد دراسة شافية تناولت بالبحث أثر خراب البنى العمرانية وتنمية هذا النشاط لدى المجتمع وترقيته إلى مصاف الصناعة الداعية إلى الارتزاق.

مما وقفنا عليه من عوائد الحرب وحالات الخراب وما تتركه هذه العوائد من أثر بالغ في المجتمع ما ساقه المازوني، فقد كانت تترك هذه الجماعات المتضرّرة محالّاتها وتطلب الفرار إلى مواضع توقّر لها الاستقرار تاركة أصولها الثابتة - كما ذكرنا سابقاً - كما تحاول جاهدة لتلافي الأزمة وذلك ببيع أي شيء يكون ذا قيمة<sup>6</sup>، "حتى أنّ الرّجل تصيبه السنة الشديدة وعنده من ربه ما يبيع ولا يقدر ببيع [هـ] ... وإ[ن] باع شيئاً منعوا المشتري من الشراء

<sup>1</sup> ابن أبي زرع، الأئيس المطرب، مصدر سابق، ص 282. الحسن بولقطيب، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، مرجع سابق، ص 111.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المقدمة، 55/2.

<sup>3</sup> حميد تيناو، الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص 511.

<sup>4</sup> عبد العزيز وردو، الحرب قناة للتواصل الحضاري بين ضفتي المتوسط خلال العصر الوسيط، دورية كان التاريخية، العدد الثامن، يونيو، 2010، ص 60-62.

<sup>5</sup> الحسن بولقطيب، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، ص 111-112.

<sup>6</sup> تتحدّث المجاميع التوازلية عن "بيع المملوكة زمن المسغبة" لكنّها لم تتطرّق إلى ثمن بيعها في هذا الطّرف، ولم تذكر نوع المسغبة، وسواء كانت طبيعية بفعل الكوارث الطبيعية أو بشرية بفعل الحروب والفتن فإنّ الأزمة وحالة الضيق كانت تلجئ العامة على بيع أي شيء يجانبها عواقب هذه الأزمات.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

ويستغلّونه هم لأنفسهم إن غاب البائع، [و] إن رحل الرجل وترك داره أخذوا الكراء ممن يسكنها وربما يكرهها على يديه... هذه حالهم مع أهل القرية يموت الرجل جوعاً ولا يجد من يشتري داره<sup>1</sup>.

فكان أصحاب هؤلاء الأموال من العرب يادرون إلى شراء هذه المواضع والحربات بأثمان زهيدة، مستغلّين الواقع الذي تفرضه الحرب ثم ينموها ويتصرفون فيها فيما بعد في مصالحهم المختلفة، والواضح أنّ شراء الدور زمن المسغبة بأبخس الأثمان لم يكن مقصوداً على العرب فقط، فقد طرحت نازلة عند العقباني عن امرأة ادّعت زمن المسغبة أنّ دار زوجها صدّاقٌ لها من زوجها فصيّرتها إلى ابنها، " قال أنّ أمي كانت باعته من قبل بلوغي بيسير وكانت تنفق ثمنها عليّ وعلى نفسها كما كنت أنا أنفق عليها وعلى نفسي مما يفِيء الله على من خدمني... فقال: نعم أنا بعته منها في عام المسغبة"<sup>2</sup>، ثمّ قامت البيّنة بوجود ثبت يستوفي أخذ المرأة صدّاقها على وجه آخر على عكس ما ذكر.

ويظهر جلياً بعد إحكام الفوارق بين ثمن الدور زمن المسغبة وبين حالة الرّخاء حجم التراجع الكبير لأثامها زمن الضّائقة، فقد ضبط المازوني في إحدى نوازل هذه المفارقة في سؤال موجه إلى فقيه المغرب الأوسط العقباني، حول امرأة باعت منزلها "زمن المسغبة... ودفع لها [المشتري] ثلاثة دنانير فقال لها هذا الذي وجب لك والدار تساوي حينئذ الستين ديناراً"<sup>3</sup>.

يرصد لنا أيضاً صاحب مصنّف الدرر أيضاً أحد طرق الاعتياش من الحرب وأعمال اللّصويّة التي تكون خارج الوحدات العمرانية في مسألة سئل فيها فقهاء بلاده فيقول: "سئل بعض فقهاء بلادنا عن شهادة اللّيف من الرّجال والأحرار والعبيد والنساء على القطّاع والمحاربين والغائبين والسّالبيين، يقطعون الطّريق على القوافل ويهجمون على من يلقونه بعيداً عن العمارة وشبه هذا ممّا يقع بالخلوات حيث لا يوجد غالباً عدل تؤخذ فيهم شهادة"<sup>4</sup>، وقد اختُلف في شهادة هؤلاء، ورّجح العديد من الفقهاء في أجوبتهم على هذه النّازلة مسألة الشّهادة إلّا للعدل، ذلك أنّ مثل هذه القضايا تطرح مسألة الضّمان، مع احتماليّة أن تكون شهادة هؤلاء كاذبة فيضمّن من ادّعوا عليه أعمال الغصب أو الإغارة على السلع والمال والعمارة فيما لم يقع فيه غصب أو سلب من طرف القطّاع، فيستفيدون من هذا الامتياز جرّاء شهادتهم الكاذبة التي لّقوها استناداً إلى حالة اللّأمن، ولا بدّ أن حيلة

<sup>1</sup> المازوني، الدرر، 60/3.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 327/3.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 90/3.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 211/4.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

استغلال قضية الضمان والكذب للاستفادة منه كانت فكرة رائجة في تلمسان خلال هذا العصر، فابن رحال المعداني (ت1140هـ/1728م) يقطع دابر الشك فيما ذهبنا إليه من مزاعم حول التحليل للاعتياش من الأزمة حين نقل لنا شهادة مهمة عن الزناسني، وقد جاء في شهادة هذا الأخير وعلى منطوق لسانه: "...كنت زمن ولايتي بمدينة تلمسان كثيرا من أحكم بتضمين الراعي المشترك عندما يظهر لي مخايل كذب الرعاة وتعديهم وتفريطهم، وذلك غالب أحوالهم، وأرى أن الحكم بعد تضمينهم يؤدي إلى تلف كثير من أموال الناس"<sup>1</sup>، وكذلك ما أكدته نوازل الشريف التلمساني في أحد المسائل "عن قوم يغيرون على رجل فكسروا بابها والشهود ينظرون إليهم، إلا أنهم ما ثبتوا على كل ما وقع منها ... قال: يحلف المغار عليه ها هنا، وقال ابن الماجشون لا أرى أن يعطي بقوله إلا بالبينه أن ذلك له، أو على أنه ملكه، أو شئ يعرف له"<sup>2</sup>.

### المطلب الثالث: الاستراتيجيات العسكرية في خدمة الخراب

#### 1- التدبير الحربي باعث للتخريب خلال حالة الحرب

سبق وأن فصلنا في الاستراتيجيات العسكرية المتبعة في الحرب من طرف الجيش الزباني، كما تمت الإشارة إلى الخراب الذي تجرّه هذه الخطط الحربية في المعارك والحروب على مختلف الأوضاع الاقتصادية، ومع أن جزءا من هذه الاستراتيجيات والخطط الحربية كان موجّها لإدارة الحرب والتحكم في مجريات المعارك، إلا أن الجانب الآخر منها كان موجّها لتعطيم مختلف البنى العمرانية ليس للتأثير في العدو وكسر عزائمه أو لتقييد أعمال التخريب كشاهد ميداني على الانتصار في المعركة<sup>3</sup>، بل لأنّ الخراب عينه كان وسيلة لتقويض العدو، وعلى الرغم من أن ابن خلدون الخبير بأحوال العمران لم يخف الطابع العسكري في هندسة وتخطيط مختلف مدن عصره، وأبرز الدور البالغ الذي تلعبه هذه التحصينات في قيامها مقام العدة والعصبية<sup>4</sup> ذلك أنّ "نكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة

<sup>1</sup> أبو علي الحسن بن رحال المعداني، كشف القناع عن تضمين الصنّاع، تح: محمد أبو الأجنان، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص108.

<sup>2</sup> الشريف التلمساني، مجموع فتاوى الشريف التلمساني، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 232، و101ظ.

<sup>3</sup> كان الجيش يحزّب العمران في طريق ذهابه وإيابه لملاحقة العدو ولم يكن تخريبه وتحريقه للزروع المثل الوحيد على كسر مقومات جيش العدو، بل استهدافه لمختلف الوحدات العمرانية أيضا، ومن ذلك ما فعلته جيوش السلطان المريني عبد العزيز بعد ملاحقتها لأبو حمّو الفار إلى الصّحراء سنة 772هـ حيث "سلكت على قصور بني عامر بالصّحراء قبلة جبل راشد ... فاتمبوا وخربوها وعاثوا فيها وانكفؤوا راجعين إلى تلمسان". ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 177/7.

<sup>4</sup> حميد تيتاوا، الحرب والمجتمع، مرجع سابق، 512.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

إلى عدد، ولا عظيم شوكة... وثبات هؤلاء بالجدران، فلا يضطرون إلى كبير عصابة ولا عدد، مما يفت من عضد الأمة التي تروم الاستيلاء"<sup>1</sup>، وكذلك وصايا أبو حمّو موسى التي توافقت مع هذا الطرح، حيث شدّد على ابنه اتّخاذ مجموعة من الشّروط تخطيط حصنه ومعقله "وصفة المعقل أن يكون حصنا حصينا لا يرام، وركنا منيعا لا يضام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تفرع، وعقيلة لا تفرع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب... وليكن حصنك ذلك أحسن من جميع الحصون وأحصن وأمنع"<sup>2</sup>، إلّا أنّ هذه الاستحكامات العسكرية الدفاعية كانت تقابل من طرف أصحابها بالتخريب لنفس الغرض ألا وهو ودفع هجوم العدو، إلّا أنّنا الصّورة الأمنية كانت تحمّل هؤلاء القادة والمنظرين على الإيعاز والتّنظير لتخريب عمائرهم بأيديهم لأغراض استراتيجية وتكتيكية هدفها تحقيق الانتصار على العدو.

تستوقفنا بعض الشّواهد الدّالة على تخريب القادة والسّلاطين لخصومهم طلبا لدفع مضار العدو خلال العهد الزياني، ومثل ذلك ما قام به السّultan المريني المكتفي من تخريب لأسوار تلمسان، فبعد وفاة السّultan أبي عنان 759هـ-1357م في خضم حركة أبو حمّو الثّاني لإحياء دولتي بني زيّان سنة 760هـ-1358م، خلفه ابنه المكتفي في حكم تلمسان، وعند وفود خير تقدّم أبو حمّو موسى لتلمسان لاسترجاع ملكه سارع السّultan المريني إلى "هدم سور تلمسان، وجعلها مباحة بعد الاستمعان مخافة أن يتملّكها بنو عبد الواد فيظفرون بالبلاد إذ هي دار سلطانهم وقاعدة جميع أوطانهم، وأنّه زعم إذا ذهب تحصينها لا يأمن في نفسه قطينها... وأنّه إذا ظهر منهم قائم في البلاد منهم اقتفى أثره"<sup>3</sup>، ويبدو أنّ هذا التّخطيط العسكري وتحطيم المواطن المحصّنة وتخريبها من طرف أصحابها كانت عرفا عسكريا سائدا خلال هذا العصر، لأنّ إبقاءها على حالها يمكن أن يشكّل تهديدا للمدينة، وكمثال على ذلك نجد العزفي صاحب سبة قبل هذا العصر بعث "أجفانه إلى هدم مدينة أصيلة وتخريبها وهدم قصبتها لأنّها كانت قد خلت من الناس، فخاف عليها بسبب خلائها أن يملكها العدو فيؤذي المسلمين"<sup>4</sup>.

لم تخل كذلك مختلف المصنّفات وآراء القادة العسكريين من التّنظير للنزول بأرض العدو وتخريب حصونه دفعا لمضرتّه، وخدمة للاستراتيجيات العسكريّة الفعّالة وعملا بما يقتضيه الهجوم العسكريّ التّاجح، فهذا أبو حمّو موسى

<sup>1</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 175/2.

<sup>2</sup> أبو حمّو موسى الزياني، واسطة لسّلوك، مصدر سابق، ص 154.

<sup>3</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 34.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع، الدّخيرة السّنية، مصدر سابق، ص 101. الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 402.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

الثاني يضرب لابنه وخليفته أبو تاشفين مثلاً لتخريب الحصون والقلاع المرينية على عهد أبو سالم المريني، وأن ذلك من باب السياسة والتدبير الحربي الناجح، إذ قال له: "... ولما توغل أبو سالم في البلاد وظن أنه بلغ غاية المراد واستقر بدار تلمسان وأنه تأمل له فيها الملك السلطان قصدنا بلاده فألفينها خالية من الحماة وطعمة للغارات، فأتيننا على حصونها نخرّب ونهدم ونحرق ونسلب، إلى أن ملأنا الأحقاب بالأسلاب... وهدمنا القلاع والحصون... فعندما سمع أبو سالم بأخبارنا وما دهم بلادهم من حماتنا وأنصارنا طاش الله فرقا وصارت دعوته قلقا... وكاد جيشه أن يكون عليه... وهذا من باب السياسة، ونكتة من الرياسة، ونبذة من الحزم أهدت إلى علم<sup>1</sup>، وفي موقف مشائي آخر لتخريب عمران العدو كخطة عسكرية ناجحة لها فاعليتها في تشتيت صفوفه، أسدى أبو حمو نفس النصيحة لوريث عرشه حيث قال له: "فإذا قصدت بنفسك إليه... فترحل إلى بلاد فتأكل زرعهم في أول حصاده، وثماره في إبان جناحها، وترلّزها في ميع أبحاثها حتى يضيق عليه كلّ التضييق، وتخرج الرعية عن طاعته بالتشتيت والتفريق لعدم دفاعه عنهم... ولخراب بلاده، وقلة جيشه وإعداده، فيضعف بعجزه عن الخروج إلى المعطشات"<sup>2</sup>.

ومع أن التنظير الاستراتيجي والحربي السابق لخراب عمران العدو خلال الحرب كان موجها لتلافي الهزيمة من طرف العدو قوي، فإن نفس الخطاب قد حملته صفحات مؤلفه عند مواجهة عدو ضعيف، فخبرة أبي حمو العسكرية كونه منظرًا للحرب ومشاركاً فيها خلال العهد الزباني قد حملته على بسط مخططاته العسكرية وتحليل أسباب الهزيمة والانتصار في حالات عدّة، فمما أشار إليه حول خراب عمران العدو خدمةً للتكتيك الحربي الفعال والناجح هو استهداف مناطق التماس بين جيشه وجيش العدو وتدمير حصونه "الأقرب فالأقرب"<sup>3</sup>، وعليه فإن التخطيط كان موجهاً للسيطرة على مناطق التماس بين الأطراف المتصارعة فإن لم يتحقق ذلك تطلب الأمر تخريبها لزوماً لكفّ العدو عن استغلالها لصالح منظومته الحربية وعملياته العسكرية الميدانية، وبذلك فإن مصنف أبا حمو لم يدع لنا مجالاً للمواربة لتفسير الخراب العمراني الذي لحق بالحصون الزبانية خاصة تيمزيردكت في الجهات الشرقية، والتحالف الحفصي المريني المعد لهذا الغرض خصوصاً، كما أنه يفسر الحالة الكارثية التي لحقت بعمران تاويرت التي كانت منطقة تماس بين المغربين الأوسط الزباني والأقصى المريني في الجهات الغربية، كما أنّها كانت وجهة مفضلة من ناحية

<sup>1</sup> أبو حمو موسى الزباني، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 182-183.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 188.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

الغرب لإيواء الأطراف المتمردة الفارة من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى<sup>1</sup>، لذلك فإنّ تخريبها بين الفينة والأخرى كان أمراً ضروريا لاستتباب الأمن في هذه الجهات<sup>2</sup>، وفي هذا الصدد يصف لنا الوزان مآل تويرت وحجم الخراب الذي لحق بها جراء الحروب المستمرة بين الطرفين الزيّاني والمربني على امتلاكها بقوله: "كانت تويرت مدينة متحصّرة تحوي على نحو ثلاثة آلاف كانون ... غير أنّه لما استولى بنو مرين على مملكة المغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة. فقد رغب المرينيون في أن تتبع تويرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضمّوها إلى مملكتهم ... إلى أن دمرت أخيراً وهجرت في الحرب الأخيرة التي شنها أحمد حادي عشر ملوك بني مرين بفاس ... وبقيت تويرت خالية موحشة كما نراها اليوم"<sup>3</sup>.

### 2- الأسلحة الثقيلة آلة للخراب:

يضرّب لنا المرادي في تحليله لأساليب الحروب والمعارك مثلاً عن استخدام كلّ ما هو متاح للنكاية بالعدو فيقول: "إنّ العدو مثل الخراج الذي يبدأ في علاجه بالتّطبيب والتّحليل والتّسكين، فإن لم ينجح بذلك، رجع فيه إلى الكيّ، وهو آخر العلاج"<sup>4</sup>، وعلى هذا الأساس قامت الحروب في المغرب الأوسط الزيّاني فقد كانت الحرب أولها الكلام وآخرها الحمام<sup>5</sup>، حيث اتّخذ السلاطين والقادة العسكريون العديد من الأوجه لخوض هذا الصّراع، فقد كان يتّسم حيناً بطابع التّواصل وإرسال السّفراء وإبرام المعاهدات<sup>6</sup>، كما أنّه كان يتجاوز ذلك ليؤوّل الوضع إلى التّدخل العسكري المباشر بين هذه الأطراف، وقد اتّخذ هذا التّدخل العسكري وجهين؛ إمّا قتال مباشر على أرض المعركة، أو حصار يضرّب على المواضع المحصّنة فتدكّ هذه التّحصينات بواسطة الأسلحة الثقيلة ويدخل بذلك الجيش أرض العدو عنوة ويظفر بها، ذلك أنّ معايير النّصر مرهونة بعدة الجيش وغاية مراميه ومدى تخريبها لمواضع تحصّن العدو.

<sup>1</sup> ابن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 85/2. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 385. حميد تياو، الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص 233.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السّابق، 74/2. العبر، ابن خلدون، العبر، 291/7.

<sup>3</sup> الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص 349-350.

<sup>4</sup> المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مصدر سابق، ص 61.

<sup>5</sup> الطرطوشي، سراج الملوك، مصدر سابق، ص 689.

<sup>6</sup> أبو حمو موسى الزيّاني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مصدر سابق، ص 190.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

لم تحف مختلف المصادر العسكرية دور الأسلحة الثقيلة في كسب رهان الحرب في المواجهات التي تكون متبوعة بحرب الحصار، فصاحب كتاب الحيل في الحروب يرجع أحد أهم الأسباب لفتح المدائن إلى استخدام الأسلحة الثقيلة لتحطيم وهدم حصون العدو، فالمدن حسبه "إنما تؤتى ويكون افتتاحها من أسباب، فمنها من قبل المحاصرة، ومنها ما يكون افتتاحها عنوة بالمكابرة ... فأما المكابرة والمكاثرة فمن أسباب، منها: من قبل الهدم ... فأما الهدم لها، فمن أعلاها، كإقامتها على عمد الخشب فتتعلق، ثم حرقها من بعد بالنار، ليخسف بناؤها، أو يحمل على الماء سورها حتى يهدمها، أو هدمها بالجانيق والعرادات"<sup>1</sup>، وكذلك صاحب مختصر سياسة الحروب الذي عدّ مظاهر فتح المدن المحاصرة وأعزى أحد الأسباب المهمة لدخولها إلى تخريب المواضع المحصنة فيها باستخدام الأسلحة الثقيلة، حيث جاء في مجموعة تدايره الحربية: "ليرم العدو بقدر غاية مراميه وقدر نكايتها ... وليعرف منتهى سلاح عدوه وقدر نكايته، ليكون عمله على حسب ذلك. يستعمل من الآلات ما فيه الإفساد والإبطال لآلات عدوه، لا يرمي من السلاح ولا يعمل إلا بما يثق أنه ينكأ به عدوه"<sup>2</sup>، وفي تنظير مشائي يؤكد الهروي على أنّ استخدام الأسلحة الثقيلة في الحصار العسكري يجنب الجيش عناء القتال "ولا يتعب بعد ذلك على حصن ينزل عليه أو ثغر يقصده بل ربّما كاتبه أهله وراسله أصحابه وطلبوا تسليمه إليه خوفا منه وطمعا في ملكه وخشية من سلطانه"<sup>3</sup>، ونظرا لأهمية هذه الأسلحة الثقيلة فإنّ أصحاب المدرسة العسكرية قد أجمعوا على استخدامها لتخريب مختلف الوحدات العمرانية الدفاعية للعدو تحقيقا للتصر في المعركة، بل أنّها أصبحت مجالا للتأليف ومدار بحث لبعض المنظرين للحرب كابن أرنبغا الزردكاش الذي ألف كتاب "الأنيق في المناجنيق"<sup>4</sup>.

بدوره شهد الصّراع العسكري المحموم في المغرب الأوسط الزباني استخدام هذه الآلات الحربية الثقيلة، ولنا أن نتخيّل حجم الخراب الذي كان يخلفه سلاح ضخم كقوس الزّيار<sup>5</sup> من خلال وصف عبد الرّحمان بن خلدون له بقوله: "القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة قوس الزّيار ازدلف إليه الصّناع والمهندسون بعملها،

<sup>1</sup> ابن منكلي، الحل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، مصدر سابق، ص 378-379.

<sup>2</sup> الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، مصدر سابق، ص 61.

<sup>3</sup> الهروي، التذكرة الهروية في الحيل الحربية، مصدر سابق، ص 23-24.

<sup>4</sup> ابن أرنبغا الزردكاش، الأنيق في المناجنيق، تحقيق إحسان هندي، منشورات جامعة حلب ومعهد المخطوطات العربية، مكتبة ابن كثير، الكويت، 1985.

<sup>5</sup> استخدم هذا السلاح في الحصار الموجه من كرف يوسف بن يعقوب المريني على تلمسان سنة 697هـ إلا أنّ مناعة تلمسان وحصنتها استطاعت أن تصمد أمامه لدة 40 يوم متتالية. عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص 36.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

وكانت توفّر على أحد عشر بغلا<sup>1</sup>، وهو قوس آلي يقوم برمي أسهم هائلة الحجم متوسط طولها بين 60 إلى 180 سنتيمتر، ووزنه بين كيلوغرامين إلى 3 كيلوغرامات، وهذا الجهاز عبارة عن قائمة طولانية تركيب عليها عارضة خشبية هائلة على شكل قوس وله مسنّات كبيرة، وفي أسفلها تنوء معدني على شكل قفل يشبك به الوتر، ويمكن بهذه الطريقة شدّ وتر القوس إلى الخلف حسب الطلب ووفق مدى الرمي الذي يراد السهم الوصول إليه<sup>2</sup>، وكذلك المنجنيقات<sup>3</sup> التي تعدّ سلاحاً ثقيلاً لا يقلّ أهميّة عن سابقه، يستخدم هذا السلاح لقذف العدو المتحصّن بالحجارة، والسهم، وقوارير النفط ونحو ذلك من المقذوفات، فبرميات حجارته المتتالية تهدم الحصون والأبراج والأسوار وتخرب، كما تحدث الفجوات والتّغرات في أسوار العدو المتحصّن<sup>4</sup>، ونظراً لحجم الخراب الذي خلفه المنجنيق في حصار تلمسان الطويل فإنّ يحيى بن خلدون تفادى ذكره لكي لا يحتمل كتابه جزءاً كبيراً من وصف هذا الخراب وإهمال أخبار وتاريخ الدولة الزيانية فاكتمى بوصفه كالآتي: "وأمرّ هذا الحصار في إضاقتة بأهل البلد وغلاء أسعارهم، وموتان الناس بالجوع والأسلحة والمنجنيقات به، أشهر من أن نطيل الكتاب الآن بشرحه"<sup>5</sup>، وقد رافقت هذه الأسلحة وغيرها من الأسلحة كالأقواس ونيران النفط والعرادات<sup>6</sup> أغلب العمليّات العسكريّة الموجهة لغرض الحصار خلال العهد الزياتي.

إنّ تتبّع الاستخدام المتكرّر لهذه الأسلحة الثقيلة في الحصارات العسكريّة خلال العهد الزياتي على مدار ثلاثة قرون (7-10هـ/13-16م) أنبأ عن واقع عمراي متدهور نظراً لمصاحبة هذه الأسلحة ومرافقتها للجيش خاصة المرينيّة بشكل يكاد يكون شبه دائم، فقد استخدم المرينيين المنجنيق والعرادات لتخريب أسوار سجلماسة، وعلى الرّغم من معاناة نقل هذه الآلات الضخمة إلاّ أنّها كانت حاضرة في أغلب المعارك وأثبتت فاعليّتها في حرب السلطان المريني يعقوب ضد يغمراسن بن زيّان وعرب المنبات في رجب 672هـ/1274م بعد أن سيطروا على

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، 291/7. الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 408.

<sup>2</sup> ابن ارنغا الزردكاش، المصدر السابق، ص 125.

<sup>3</sup> اختلف في تحديد أصل استعمال المنجنيق في الحرب، فالبعض يرجع كلمة "منجنيق" أو "منجنيق" إلى الفارسية وقد دخلت العربية تحريفاً لعبارة "من جه نيك" وقيل أنّها تعني "أنا ما أجودني" أو بكلمة "منجك" ومعناها الارتفاع من فوق، وبذلك فإنّ أصلها فارسي، لكن بعض الاكتشافات الأركيولوجيّة الحديثة تدلّ على أنّ عرب العراق عرفوا منذ ما قبل الإسلام استخدامه. ابن المصدر نفسه، ص 17.

<sup>4</sup> بوقاعدة البشير، أسلحة الحصار في بلاد المغرب، مرجع سابق، ص 70-71.

<sup>5</sup> ابن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 231/1-232.

<sup>6</sup> سالم أبو القاسم محمد غومة، دراسة للجيش والأسطول والمنشآت في الدولة المرينيّة، مرجع سابق ص 113.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

سجلماسة - التي كانت معتركا بين بني عبد الواد وبني مرين - وآثروا يغمراسن على ضبط خراجها، فكان يغمراسن يبعث كل سنة أحد أبنائها لتحصيل خراجها، واستطاع السلطان يعقوب بهذه الأسلحة الآلات الثقيلة هدم تحصينات سجلماسة وأسوارها "فهتك المنجنيق من سور لها برجاً ومسافة فاهدّ البرج والمسافة فدخلها عنوة بالسيف وافتكها من يد السلطان الزياني يغمراسن<sup>1</sup>.

كما استخدم يوسف بن يعقوب المنجنيق في أولى حملاته على تلمسان سنة 689هـ/1290م وحاصرها مدة 16 يوماً، بعدما رفض عثمان بن يغمراسن تسليم الوزير ابن عطّو الفار إلى حضرة السلطان الزياني فسار يوسف إليه في هذه السنة "وبقي يرتحل في أحوازها يأكل زروعها ويسبي ويغنم أموالها ويحرب ... فلما رأى عجزه [أي عثمان بن يغمراسن] عن ملاقاته قصد إلى حصاره، فنزل عليه ... وضيق عليه بالقتال، ونصب عليه المنجنيق، فأقام عليه ستة عشر يوماً"<sup>2</sup>.

ولم تمض بعدها ستة سنوات حتى خرج يوسف بن يعقوب سنة 695هـ/1295م إلى ندرومة ودك أسوارها بالمنجنيق، وسبب ذلك أنّ السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن رفض شفاعة رسول السلطان المريني يوسف بن يعقوب للكفّ عن الغارات التي كان يوجهها لمغراوة وأميرهم يوسف بن ثابت، فردّه عثمان أفبح ردّ وأساء في إجابته وكان ذلك مؤذناً بخروج السلطان المريني رفقة جيشه "من فاس سنة خمسة وتسعين وستمائة غازيا تلمسان، ومرّ بوجدة، فهدم أسوارها ... وانتهى إلى ندرومة ونازلها أربعين يوماً ورمّاها بالمنجنيق"<sup>3</sup>.

الجدير بالذكر أنّ المرحلة التي تلت حصار تلمسان الطويل تعتبر مرحلة فتوة عرفت فيها الدولة الزيانية ازدهار عسكرياً منقطع النظير في عهدي السلطانين أبو حمو الأول وأبو تاشفين الأول، ولم تشهد خلال هذه الفترة بين سنوات 706هـ-732هـ/1306-1331م تدخلات عسكرية كثيرة استعملت فيها الأسلحة الثقيلة، غير أنّ هذه الأسلحة عادت للظهور مجدداً في حملة أبي الحسن على الجهات الشرقية وحصاره لتلمسان بين سنوات 732هـ/1331م وسنة 735هـ/1334م، فبعد أن هدم أبو الحسن حصون أبي تاشفين الأول - بكر وأصفون وتيميزدكت والياقوته - المعدة لحصار بجاية قام بإطباق حصاره على تلمسان "حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم"<sup>4</sup> "ورتب المجانيق إلى رجمها ودكها، فنالت من ذلك فوق الغاية، واشتدت الحرب وضاق نطاق

<sup>1</sup> بن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 312. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 114/7.

<sup>2</sup> المصدر السابق، ص 379. ابن خلدون، العبر، 126/7.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 290/7.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 147/7.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

الحصار"<sup>1</sup>، حتى أنّ أبا تاشفين بدوره قام بنصب منجنيق "ليرمي به على المنجنيق الذي نصبه أبو الحسن"<sup>2</sup>، ولم يزل الحصار مطبقاً على تلمسان والخراب والفوضى تعمّ بها إلى أن تدخل أهل الشورى أبا زيد عبد الرحمان وأبا موسى عيسى أبا الإمام وتوسّطاً لدى السلطان المريني لكفّ العدوان "فأناّب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك، فسكن الاضطراب وأقصر العيث"<sup>3</sup>، وأصبحت تلمسان بعد ذلك تحت طاعة بني مرين من سنة 737هـ/1336م إلى غاية 749هـ/1338م<sup>4</sup>، والملاحظ من قول ابن خلدون أنّ المنجنيق كان يستخدم بشكل دوري لضرب الأسوار في هذا الحصار، فكانت المتضرر الأكبر جزاءً مقدوفاته، ذلك أنّ "أبا الحسن كان يباكرهم في الاسحار فيطوف من وراء أسواره التي ضربها عليهم شوطاً يرتّب المقاتلة ويثقف الأطراف ويسدّ الفروج ويصلح الخلل"<sup>5</sup>.

مما لا شكّ فيه أنّ الفترة الطويلة التي قضاها المغرب الأوسط تحت حكم بني مرين بعد حصار أبي الحسن المريني من سنة 735هـ/1334م إلى غاية 749هـ/1338م، فضلاً عن سقوطه في أيدي بني مرين مرّة أخرى بين سنوات 753هـ/1352م إلى غاية 760هـ/1359م قد جنّب المغرب الأوسط الاشتباكات العسكرية المباشرة لبعض الزمن، وبالتالي فإنّ خراب البنى العمرانية قد قلّ خلال هذه الفترة واستُجيدت خلالها العمائر المرينية، إلّا أنّها جدّدت حضورها مع عودة أبي حمو موسى الثاني سنة 760هـ/1359م، فقد استخدم المنجنيق في حصار أبيه أبو يعقوب ووزيره عبد الله بن مسلم للجزائر وقائدها ابن ودرار الذي آوى أحد الأطراف المناوئة للسلطة الزيانية واسمه يحيى بن علي، هذا الأخير كان قد فرّ من أبي يعقوب ولجأ متحصّناً لدى أهل الجزائر، فوثب عليه أبو يعقوب وعبد الله بن مسلم وأغلقت أبواب الجزائر عند حصارها لها و"صار أهل البلد يقاتلون من أعلى الأسوار، ويرمون بالمنجنيقات والأحجار... والوزير عبد الله بن مسلم في كلّ يوم يرهقهم وبالقتال يروعههم ويقلقهم"<sup>6</sup>.

والملاحظ أنّ استخدام هذه الأسلحة لم يكن يلق بكلّ ثقله على التّحصينات العسكرية للعدوّ في حالة الحرب، وإنّما كان يستهدف بعض الوحدات العمرانية الأخرى الخارجة عن نطاق أرض المعركة كالأسواق، وهذا ما نجد له وقعا في حملة أبو فارس عبد العزيز المنتصر بن أبي الحسن المريني (767-774هـ/1365-1372م) على تلمسان،

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 340/7. العمري، مسالك الأبصار، مصدر سابق، 205/4.

<sup>2</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 229.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 148/7.

<sup>4</sup> ابن الأحمر، روضة التّسرين، مصدر سابق، ص 52.

<sup>5</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 340-147/7. وليم وجورج مارسلي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، تر: مراد بلعيد وآخرون، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 277.

<sup>6</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 83.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

فقد شدّد عليها التّضييق وهدّد أهلها إذا لم يفتحوا له أبواب المدينة بدك أسوارها، وأمام تمادي الزيانيين بعدم فتحهم لأبوابها اشتاط السلطان المريني غضبا وقام بنصب المنجنيق عليهم لرميهم بها، "فلما جاء الغد لم يفتحوا له الباب فضيّق بأهلها تضييقا عظيما ورماهم بالأنفاط وهدم المسافات حتّى صارت الحجارة إلى سوق منشار الجلد"<sup>1</sup>. ونظرا لما اكتسبته هذه الآلات الحربيّة من أهميّة بالغة في المعرّكات وفي تحويل نتيجة المعركة<sup>2</sup>، فإنّ التّسامح مع الرّماة القائمين عليها كان أمر محظورا وأيّ خلل يمكن أن يتسبّب فيه رامي المنجنيق قد يكلفه حياته، كما أنّ الضّرر الذي كان يلحقه رماة المنجنيق بالعدوّ كان يجعل منهم الوجهة الأولى للانتقام بعد أن تحمّد نيران المعركة، ومثل ذلك ما قام به أبو حمو موسى في حصاره لوهران سنة 762هـ/1361م، فبعد أن استطاع أن يضيق بها لجأ أهل وهران إلى الاستسلام، فقام أبو حمو بعقاب رماهم ممّن كان يستخدم آلات الرّمي "فأمر بقتل أربعة من الخدّام تقدّمت لهم جناية، وقطع أيدي ثلاثة على النّفط والرّمية فإنّه كثير ما أضّرّ الناس النّفط والرّماة"<sup>3</sup>، بالإضافة إلى وضع الأشخاص على المنجنيق وتجهيزهم للقذف، كما هو الحال لرسول يحيى بن العطار في حصار أبي الحسن المريني لتلمسان، ذلك أنّ رئيس المنجنيق طلب في أمر أبي تاشفين يستأذنه في أن يختبر رمي المنجنيق "فألّفى رسول يحيى بن العطار قد جاء إلى السلطان يعتذر له، بأن لا يجد ما يعطي، وكان يطلب بالمال ... فقال السلطان: والله لأرمينه في المنجنيق. امض يا هذا [أي رئيس المنجنيق] فاختبر به الرّمي ... قال له: يا مولاي إنّه إذا رمي يحيى أيّرمي داخل البلد؟ فقال له [أبو تاشفين]: ارمه حيث صار. فرمى به، فتحدّث الناس بهذه الميئة الشّنعاء شرقا وغربا"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 103.

<sup>2</sup> كان رماة المنجنيق سببا للخسارة في بعض الأحيان، فبحكم موقعهم المرتفع الذي يجعل مدى الرّؤية مفتوحا لديهم خلال المعركة قد يجعل المتحصّنين يأتمرون بأمرهم للخروج في حالة إجحاف العدو، وقد وقع هذا الخطأ التكتيكي في حاصر أبو حمو موسى الثّاني للجزائر سنة 761هـ، حيث استطاع أبو حمو التّراجع وأظهر الهزيمة فأمر أحد الرّماة أهل الجزائر المحاصرين بالنّزول لأنّ الجيش قد فرّ، فكانت الدّيرة عليهم واستطاع أبو حمو دخول الجزائر بعد أن دهاهم بهذه الحيلة. مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 83.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 135.

<sup>4</sup> يرجع ابن مرزوق سبب رمي يحيى بن العطار هذا إلى طلبه من السلطان الزياني تحريب ضريح أبي مدين شعيب لأنّ التجار كانوا يتحتلون على دفع المغارم المفروضة عليهم عند الدّخول بسلعهم لبيعها في تلمسان بالدّخول من الباب الذي كان فيه ضريح الولي أبا مدين، فكان أن ظهرت على إثر تجاوزه لحرمة ضريحه هذه الكرامة بأن يموت ميئة يُحدّث بها في مشارق الأرض ومغاربها. ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 229.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

المبحث الثاني: حظيرة المنشآت الحربية والمدنية الزيانية في مواجهة الخراب

المطلب الأول: حظيرة المنشآت الحربية

1- الأسوار

تكاد المصادر الجغرافية تجمع على حصانة تلمسان الطبيعية وتشيد بمناعة أسوارها، فالبكري يذكر أنّها "مدينة مسورة في سفح جبل"<sup>1</sup>، ويصفها العبدري سنة 688هـ/1289م بقوله: "وتلمسان مدينة كبيرة ... مقسومة باثنتين بينهما سور ... وسورها من أوثق الأسوار وأصحها"<sup>2</sup>، ويضيف يعقوبي: "ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالغرب التي يقال لها تلمسان وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر حجارة وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة"<sup>3</sup>، ويضيف الإدريسي: "وتلمسان مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثيقة وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور"<sup>4</sup>، كما أشاد كل من الحموي والبغدادي بحصانتها وقدّما نفس الوصف للسور الفاصل بين المدينة القديمة والمستحدثة: "تلمسان: بكسرتين، وسكون الميم، وسين مهملة، وبعضهم يقول تنمسان ... وهما مدينتان متجاورتان مسورتان، بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة"<sup>5</sup>. إلا أنّه لم يبق من السور اليوم سوى بعض القطع المتناثرة منه مثل الجدر القائم حاليا غرب الولية أو القطعة المكوّنة حاليا لسور المقبرة المسيحية في الجنوب الشرقي<sup>6</sup>، أما السور المشيد بالحجارة الرّقاء فقد كان من عمل السّلطات الفرنسيّة سنة ابتداء من 1268هـ/1852م<sup>7</sup>.

ومع أنّ هذه التّوصيفات التي تعكس مدى الحصانة الطّبيعيّة لعاصمة المغرب الأوسط، فلا شك أنّ التّحصينات الحربيّة المشيدة من قلاع وحصون وأبراج وأسوار تعدّ من أبرز الآثار التي خلّفتها الحروب في المغرب الأوسط الزياني، نظرا لكونها -أولا- مرتبطة بحاجة أساسية من حاجات المجتمع زمن الحرب والسّلم، وهي درء الخطر وضمان العيش

<sup>1</sup> البكري، المسالك والممالك، مصدر سباق، ص76.

<sup>2</sup> العبدري، رحلة العبدري، مصدر سابق، ص48-49.

<sup>3</sup> يعقوبي، البلدان، مصدر سابق، ص196.

<sup>4</sup> الادريسي نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص248.

<sup>5</sup> الحموي، مصدر سابق، ص44. البغدادي، مرآة الاطلاع، مصدر سابق، ص272/1.

<sup>6</sup> سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص26.

<sup>7</sup> William et Georges Marcias, Les monuments arabes de Telmcen, Ouvrage publie sous les auspices du gouvernement general de l'Algerie, Ancienne librairie thorn et fils, paris, 1907, p319-320.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

في أمن واستقرار، ذلك أنّ المدن لا تعيش في أمان إلا إذا ضمنت جيشا في حصون تعززها أسوار منيعة تحميها من غارات المغيرين واعتداءات المعتدين<sup>1</sup>، ولكون الحرب أيضا محرّكا لهذه الاستحكامات الحربية "فكثير من المنشآت العمرانية التي كتب لها أن تشيّد خلال هذه الفترة كانت العوامل العسكرية وراءها"<sup>2</sup>، ولسنا في هذا المقام بصدد بسط إنجازات السلاطين وجهودهم في تشييد هذه العمائر الحربية بقدر ما يهّمنا عرض أعمال التخريب التي تعرّضت لها باعتبارها الخطّ الدفاعي الأول الذي يروم حصانة المدينة في وجه العدوّ المحاصر لها والمغير عليها، وبأقي ذلك وفقا لما تقتضيه أساليب الهجوم والحصار التي جمعت بين القادة العسكريين الزيانيين وخصومهم شرقا وغربا في المواجهات العسكرية خلال هذا العصر، فقد أوجبت طريقة القتال بين هذه الأطراف إلى الاستهلال باستهداف هذه الوحدات الدفاعية كخطوة أولى قبل الالتحام المباشر<sup>3</sup>، ولا تساورنا أدنى الشكوك حول البدء بتخريب الأسوار كخطوة أولية في المعركة إذا علمنا أنّ الأهمية العسكرية التي تكتسبها هذه الأسوار جعلت مختلف المصادر ترجع سبب امتناع المدن عن العدو إلى حصانة هذه الأسوار، ومن ذلك ما أعزاه العمري لها فبسببها "لم يهجم بخاطر أنّها تؤخذ"<sup>4</sup>، فضلا عن ذلك فإنّ بعض المصادر وصفت هذه الأسوار والقلاع عند حصار تلمسان بأنّها الملائكة الحارسة المحيطة بالمدينة التي "لا يستطيع الطيّف أن يخلص إليها"<sup>5</sup> لشدة امتناعها، وعليه فإنّ سبل فتح المدن تستدعي أولا التمكن

<sup>1</sup> مرفت عثمان، التّحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشّام، دار العالم العربي، القاهرة، 2010 ص 133.

<sup>2</sup> الحسن بولقطيب، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، مرجع سابق، ص 121.

<sup>3</sup> كانت لأسوار والقلاع والحصون والخنادق المحيطة بالمدينة أول عائق يقف جدار صدّ في وجه العدوّ، وإذا ألقينا نظرة عن أساليب القتال أثناء المعارك في العهد الزياني نجد أنّ التّحصينات السابق ذكرها كانت أول ما يدمّر من طرف العدوّ، وفي هذا الصّدّد يرصد ابن مرزوق لنا مشاهداته العيانية للالتحام بين الجيوش المرينية والزيانية في عهد أبو الحسن الثّاني عندما قام بحصار تلمسان واسولى فيه على الملعب خارج تلمسان حول استهداف هذه الوحدات كخطوة أولية بقوله: "وحضرت معه في اليوم الذي أخذ فيه الملعب خارج تلمسان، واختلط الناس بالناس، وتمكّنوا من بعض سور تلمسان ... والناس في قتال المسايقة وقد أحيط بكثير من أسوارها ... وقال: إنّما جزاء هؤلاء الحرق". ابن مرزوق، المسند الصحيح، مصدر سابق، ص 184.

وقد نجد تفسيراً شافياً عن هذه المطارحة في ما أورده المصادر بشكل متكرّر عن ترميم هذه الوحدات الدفاعية مع انتهاء كلّ حرب، والمبادرة إلى إدارة الأسوار وتعميق مهوى الحفير تزامنا مع ضرب أغلب الحصر خلال هذا العصر. لدرجة أنّ بعض المصادر وصفت هذه الأسوار والقلاع عند حصار تلمسان بأنّها الملائكة الحارسة المحيطة بالمدينة التي لا يستطيع الطيّف الخلاص إليها لشدة امتناعها.

عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة المرينية، مرجع سابق، ص 236-237. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 292/7.

<sup>4</sup> العمري، مصدر، مصدر سابق، 206/4.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 292/7. الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 79/3.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

للجيوش من أسباب اقتحام الأسوار بالإمكانات المتاحة سواء بتخريبها - وهذا الشائع - أو بتجاوزها باستخدام عدّة الجيش كسلام الحصار.

تسجّل التّصوص الإخباريّة بداية تخريب أسوار العاصمة الزيانية قبل أن يتمّ بلوغ عقدين من التأسيس الفعلي للدولة الزيانية في المغرب الأوسط، تزامنا مع حصار أبي زكريا الحفصي ليغمراسن سنة 640هـ/1242م واستعماله للأسلحة الثّقيلة وخاصة النّبل في حصاره لتلمسان، ومرّد ذلك إلى الاتّصالات المتكرّرة بين السّلطان الزياني يغمراسن والخليفة الموحدّي الرّشيد التي أقلقّت الطّرف الحفصي، فكان ذلك محرّكا لحصار تلمسان من طرف أبي زكريا في هذه السنّة ممّا أدّى بأهلها إلى التّحصن وراء الأسوار بعد التّضييق الخانق الذي مارسه السّلطان الحفصي عليهم أثناء هذا الحصار، فقد "نصحتهم ناشبة السّلطان [الحفصي] بالنّبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران، وعجزوا عن حماية الأسوار"<sup>1</sup>، كما أنّ يغمراسن قام سنة 655هـ/1257م "بابتناء الأسوار الشاهقة بباب كشوطة" وزاد من تحصينات العاصمة الزيانيّة، ويرجع ذلك للحروب الدّاخليّة التي جمعه مع قبيلة بني توجين ومغراوة والقبائل العربيّة حيث بلغت أوجّها في عصره، وقد قدّرت بعض المصادر غزواته على العرب فقط بـ 72 غزوة<sup>2</sup> خلال نصف فترة حكمه.

الملاحظ - في مرحلة لاحقة - أنّ حجم الخراب الذي ألحقته الحملات المتتالية على العاصمة الزيانية منذ سنة 689هـ/1290م والحصار المريني الطّويل الذي كُلت به هذه الحملات كان كبيرا خاصة على أسوار العاصمة الزيانيّة<sup>3</sup>، نظرا لاجتماع مجموعة من العوامل التي سارعت من وتيرة الخراب، فتوالي الحملات المرينيّة من طرف يوسف بن يعقوب وطول أمد هذا الحصار وأسلوب القتال الذي اعتمد على المناوبة فضلا عن استعمال الأسلحة الثّقيلة كقوس الزّيّار والمنجنيق كلّها أسباب مكّنت لخراب أسوار العاصمة الزيانيّة ومدن المغرب الأوسط، وقد تفسّر ذلك أعمال ترميم هذه الأسوار مباشرة بعد الحصار الطّويل من طرف سلاطين بني زيّان، فبعد أن رفع بنو مرين الحصار عنها سنة 706هـ/1306م، قام السّلطان الزياني أبي زيّان "برمّ المتلّم في أبنية رياض قصوره، وإحياء ما انقعر

<sup>1</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 108/7.

<sup>2</sup> التنسي، نظم الدرّ والعقيان، مصدر سابق، ص 128. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 1/228. وليام وجورج مارسّي، مرجع سابق، ص 35.

<sup>3</sup> يصف ابن خلدون هجوم السّلطان المريني يوسف بن يعقوب وتخريبه لأسور تلمسان خلال هذه الحملة بقوله: "دلف إلى تلمسان سنة تسع وثمانين وستّمائة ولاذ منه عثمان بالأسوار فنازلها صباحا، وقطع شجرها ونصب عليها المجانيق والآلات". فضلا عن الحملة التي شتها نفس السّلطان سنة 695هـ على ندرومة ووجدة "فهدم أسوارها ... وانتهى إلى ندرومة ونازلها أربعين يوما ورمها بالمنجنيق". ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 126/7-290.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

من غروسها<sup>1</sup>، " وثقف أطراف ملكه، ومسح أعطاف دولته، فنظر في إصلاح قصور ورياضه، ورمّم م تنلّم من بلده"<sup>2</sup> إلا أنّ التنسي ينفي هذه المزاعم استنادا إلى نصّ صاحب "درر الغرر"<sup>3</sup> الذي عايش هذا الحصار، حيث نقل في كتابه أنّ السلطان أبا زيّان توفّي أثناء الحصار، وبالتالي فإنّ هذا النصّ أقعد لأن تكون هذه التّحصينات وترميم أسوار تلمسان وبناء السّتائر<sup>4</sup> بعد الحصار منسوبة لأبي حمو الأول<sup>5</sup>، وقد تدارك يحيى بن خلدون مزاعمه لاحقا بنسب هذه الأعمال التّحصينية لأبي حمو -بعد أن نسبها لأبي زيّان سابقا-، في وصفه لأبي حمو الدّي "سدّد الأهوار، وشيّد الأسوار، وأقعر الخنادق"<sup>6</sup>، ومهما يكن فإنّ خراب الأسوار من خلال هذه التّوصيفات واضح بجلاء بغضّ النظر عمّن نسبت إليه أعمال التّرميم<sup>7</sup> التي تلت مرحلة انتهاء الحصار، ومن جهته قام أبو حمو موسى الأول بالانتقام بسبب ما عاناه من تضيق خلال هذا الحصار بسبب المدينة المربّية "المنصورة" المشيّدَة أثناء الحصار الطّويل من طرف بني مرين، فقام بتخريب أسوارها مباشرة بعد رفع الحصار ورحيل السلطان المريني عامر بن عبد الله بن يوسف إلى فاس<sup>8</sup>.

على الرّغم ممّا امتاز به عهد أبي حمو الأوّل من فتوّ عسكريّة عقب الحصار الطّويل، إلا أنّ ذلك لم يمنع السلطان المريني أبا سعيد عثمان بن يعقوب من تعبئة الجيوش المربّية للجهات التلمسانية لدكّ أسوارها سنة

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 234/1.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، ص 130.

<sup>3</sup> يبقى هذا الكتاب في حكم المفقود كبقية المآخذ الأخرى التي استند إليها التنسي في تأليف كتابه.

<sup>4</sup> السّتائر: هي حائط قصير دون سور يسمّى أيضا بالفصيل يشيّد لعدم سور المدينة، ونجد التّيجاني يصف سور طرابلس بقوله: "يحيط بهذا لسور الآن فصيل آخر أقلّ منه على العادة في ذلك يسمّونه السّتارة". التّيجاني، رحلة التّيجاني، مصدر سابق، ص 240.

ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص 89.

<sup>5</sup> التنسي، المصدر السابق، ص 135.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 235.

<sup>7</sup> لقد قمنا بتبني الطّرح القاضي بترميم أبو حمو لأسور تلمسان ونفيها نسبها لأبي زيّان لاعتبارين اثنين؛ الأوّل: هي القرينة التي يقدّمها التّاصري عن تكتيك القتال أثناء الحصار المريني لتلمسان الذي يوحى بالضّغط والقتال اليومي وقرب الجيشين إلى بعضهما البعض أثناء القتال بما يتوافق وعدم ترك أي وقت أو فراغ لأعمال ترميم زبانية تزامنا مع فترة الحصار، وفي هذا الصّدّد يقول التّاصري: "ونصب المجانيق وآلات من وراء خندقه وجلعت رماته تنضح رماة العدو بالنّبل ويشغلونهم بأنفسهم حتّى شيّد برجاً آخر يقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم"، ونفس التّكثيت نجده عند ابن خلدون في وصفه لحصار تلمسان الطّويل. التّاصري، الاستقصا،

124/3. ابن خلدون، العبر، 126-125/7، 517.

<sup>8</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 390. Charles barbet, La Perle du

Maghreb(Tlemcen),Edition de l'imprimerie algerienne, alger,p58.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

714هـ/1314م، بعد أن تحالف أبو حمو الأول مع عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو بن يعقوب الوطاسي، وسهّل لهما طريق الذهاب إلى الأندلس، "فدخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبئة فاكتمح نواحيها واصطلم نعمتها... ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصّن أبو حمو بالأسوار وغلب عليه أبو سعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها ونسفها نسفا"<sup>1</sup>.

وقد حمل الاحتدام العسكري بين الزيانيين شرقا والدولة الحفصية من سنة 718هـ/1318م إلى غاية 732هـ/1331م السلطان الزياني أبا تاشفين الأول إلى القيام بإنشاء العديد من الحصون وتسويرها، بما تتطلبه خصوصية هذه الفترة التي شهدت نشاطا عسكريا مكثفا في الجهات الحفصية، لكن تخطيط حصن تيمزردكت بعد ذلك كان مؤذنا بتوقف النشاط العسكري الزياني وبالتالي توقف النشاط التخريبي للأسوار في هذه الجهات مؤقتا، خاصة وأن السلطان المريني أبو الحسن قد مكّن حصارها من سنة 735هـ/1334م إلى غاية 737هـ/1336م وسيطر عليها من هذه السنة إلى غاية 749هـ/1348م، وخرب أسوارها بعد أن "أح عليها بالقتال يغاديا ويرواحها، ونصب عليها المجانيق"<sup>2</sup>، كما أمر بتخريب أسوار وجدة "فأضرعوها بالأرض"<sup>3</sup>، ويصوّر لنا أبو الحسن المريني حجم خراب الأسوار الزيانية ونكايته بها في رسالته التي بعث بها إلى سلطان مصر محمد بن قلاوون بقوله: "... وجعلنا نقدفهم من حجارة المجانيق، بأمثل الثيق، ومن كيران النفط الموقدة، بأمثل الشهب المرصدة... وحرارة المجانيق تشدخ هامتهم... إلى أن اشتدت أزمتهم فل يجدوا لها من فارج... وهدمت أبراجهم الشوايق، وردمت حفائهم والخنادق... فتبادروا عند ذلك يتساقطون من الأسوار، تساقط جنيات التمار... واعتمد الناس في بقية يومهم السور تتوسع أنقابه، وتحترق أبوابه"<sup>4</sup> "حتى غدت جدرانهم مهدومة"<sup>5</sup>، وبدوره قام أبو تاشفين الأول باللّود عن حمى مدينته المحاصرة، واستهدف أثناء مقاومته للحصار أسوار مدينة المنصورة فخرّبها، لكنّه انهزم بعد عامين من ضرب الحصار عليه<sup>6</sup>، فأسفرت هذه العمليات إلى الانقطاع الزياني السياسي المرحلي وتحقيق فترة استرخاء حربي، إلى غاية إحيائها مدة أربع سنوات على يد الأميرين أبي ثابت وأبي سعيد من سنة

<sup>1</sup> التّاصري، الاستقصا، مصدر سابق، 3/105.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/147.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 7/339.

<sup>4</sup> القلقشندي، صبح الأعشى، 8/94-95.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 95.

<sup>6</sup> وليام وجورج مارسلي، مرجع سابق، ص ص 462-463.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

749هـ-753هـ/1348-1352م، ثم شهدت انقطاعاً آخر من سنة 753هـ/1352م إلى سنة 760هـ/1359م، لتشهد استقراراً نسبياً في فترة حكم السلطان أبي حمّو موسى الثاني من سنة 760هـ/1359م إلى غاية 791هـ/1388م، وبالتالي فقد قلّ النشاط التخريبي للأسوار موازاة مع فترة الانقطاع السياسي الزياني لصالح أعمال ترميم الأسوار<sup>1</sup>، نظراً لأنّ الحرب قد وضعت أوزارها نسبياً بتملّك بني مرين لعاصمة المغرب الأوسط وانشغالهم بترميم المدينة المرينية المنصورة وفرض سيطرتهم على مدن المغرب الأوسط، لتعود هذه الظاهرة التدميرية للظهور مجدداً مع عودة أبي حمّو موسى الثاني وظهوره على مسرح الأحداث العسكرية لإحياء الدولة الزيانية سنة 760هـ/1359م، ذلك أنّ السلطان المريني أبو عنان لما علم بقدمه للمطالبة بملكه وتحسباً لأي هجوم محتمل من طرف العاهل الزياني قام بتحطيم التحصينات الدفاعية لتلمسان لكي لا يستفيد منها أبو حمّو موسى الثاني في حربه معه، "فلذلك هدم سور تلمسان، وجعلها مباحة بعد الاستمعان مخافة أن يتملكها بنو عبد الواد فيظفرون بالبلاد"<sup>2</sup>.

إذا ما تبّعنا فترة حكم السلطان الزياني أبو حمّو موسى الثاني وما ميّز عصره من حروب وفتن خاصة مع الطرف المريني، وقبائل المغرب الأوسط التي كانت في ولائها له بين مدّ وجز خاصة بعد فرار أبي حمّو إلى الصحراء لفترات طويلة، فإننا نلاحظ بجلاء انعكاسات هذه الفتن على الوحدات العمرانية الحربية الدفاعية لمدينة المغرب الأوسط خاصة الأسوار، ومن جملة ذلك ما قام به أبو حمّو عندما علم بقدم أبي العباس المريني لغزو تلمسان بسبب استنجد أهل الجزائر به في غرة جمادى الثانية عام 761هـ/20 أبريل 1360م، فقام السلطان الزياني بالتصويه لخروجه إلى الصحراء وترك تلمسان خاوية وهو في الحقيقية قاصد إلى الجهات المرينية لهدم عمرانها بعد أن علم أنّ أبا سالم قد حشد كلّ صفوفه لغزو تلمسان وترك عاصمته خالية من الأجناد، وما إن أتته العيون بخبر وصول أبي العباس إلى تلمسان حتّى شرع أبو حمّو في ارتكاب أعمال تخريب واسعة في كلّ من تاوريرت وأوطاط وأجرسيف وأرجو فهدم أسوارها جميعها وافتضحها عن بكرتها<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تثبت التقيشة التي عثر عليها في السارية الموجودة بالمنصورة أنّ تاريخ ترميم المنصورة كان سنة 745هـ وقد جاء فيها: "الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذه الدار السعيدة دار الفتح عبد الله علي أمير المسلمين ابن مولانا أمير المسلمين أبي سعيد يعقوب بن عبد الحق فكمّلت سنة خمس وأربعين وسبعماية عرفنا الله خيرها". حمو بن روستان، مصدر سابق، ص 67.

<sup>2</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 34. يحيى بن خلدون، مصدر سابق، 2/25.

<sup>3</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 96-99.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

وحرى بالذكر أنّ فرار أبو حمّو المتكرّر إلى الصّحراء كان يفقده غالبا الكثير من الحلفاء، لذلك فإنّه كان يشنّ حملات خاطفة عند رجوعه من إصحاره لمعاقبة لمخالفيه من القبائل الذين شقّوا عصا الطّاعة بعد عمليّات الاستطرد التي كان يقوم بها في الصّحراء لعضد قواه وحشد صفوفه، وقد أردف هذه الحملات بتخريب لأسوار هذه المدن التي خرجت عن طاعته، ومثل ذلك ما قام به السّلطان الزياتي بعد أن ألجأه السّلطان المريني أبو سالم (760-762هـ/1359-1361م) إلى الفرار إلى الصّحراء وترك عاصمته لمُدّة أربعين يوما<sup>1</sup>، فبعد أن استمكن الأمر للسّلطان المريني بسيطرته على الجزائر ووهران، قرّر أبو حمّو بعد عودته إلى عاصمته المهجوم على الحامية المرينية بوهران فحاصرها أيّاما ثمّ دخلها عنوة في 13 شوال 762هـ/1360م، "ولم يبرد غليله إلاّ بهدم سور قصبتها"<sup>2</sup> "فهدم أمير المسلمين أسوارها، وقفل إلى دار ملكه، فدخلها يوم الإثنين تاسع عشر شوال"<sup>3</sup> من السنّة المذكورة. ويصف لنا أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي خراب سور وهران في نظمه :

سَلَّ عَنْهُ وَهْرَانَ هَلْ أَجْزَى تَحْصُنُهَا... مِنْهُ وَهَلْ أَعْنَتِ الْأَسْوَارُ وَالْجُدُرُ

كَلَّا لَقَدْ حَلَّهَا إِذْ حَلَّ سَاحَتَهَا... مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهَا مِنْ عُنُوةِ الْعُدْرِ<sup>4</sup>.

عرفت أيضا الجهات الغربية من المغرب الأوسط اضطرابات كثيرة تواصل فيها الصّراع العسكري بين الدّولة الزياتية والمرينية في منطقة التماس "توريرت"، وتعود مبادئ هذا الصّراع إلى عهد يغمراسن وابن عثمان<sup>5</sup> إلى غاية أواخر ربيع الثاني من سنة 766هـ/1364م، الأمر الذي يعكس طول الفترة التي تزيد عن قرن من الزّمن، ويكون لنا صورة مبدئية عن حجم أوزارها الملقاة على عاتق أسوار المدينة التي تقاسمها الطّرفان مناصفة، ذلك أنّ أبا حمّو موسى الثاني قام في التاريخ المذكور بالتّوجه إلى القسم التّابع من توريرت إلى السّلطة المرينية، وأغار على عامل بني مرين عليها "فثلم الأسوار، وخرّب العمران، وهدم العقار"<sup>6</sup>، أمّا الجهات الشرقية فإنّ الأسوار الدّفاعية قد تضرّرت على خلفيّة الصّراع الزياتي بقيادة أبي حمّو الثاني وابن عمّه ابي زيّان وحلفائه، هذا الأخير الذي انحازت إليه قبيلة زغبة التي كانت تقطن بناحية تيطري وبايعته "على الموت الأحمر"<sup>7</sup>، نظرا للضّرائب المحققة التي كان يفرضها أبو

<sup>1</sup> ابن الأحمر، روضة التّسرين، مصدر سابق، ص 56.

<sup>2</sup> مجهول، المصدر السّابق، ص 135.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 87/2.

<sup>4</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 137.

<sup>5</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 385.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السّابق، ص 149.

<sup>7</sup> ابن خلدون، العبر، 174/7.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

حمو عليهم، فاستطاع أبو زيّان بفضل هذا الائتلاف السيطرة على المدينة ومليانة، ونظرا للمعارك الكثيرة التي جمعت بين الطرفين في هذه الجهات فإنّ عمائر هذه المدن وأسوارها تأثرت وخرّبت، خاصة مليانة التي كانت محور صراع بين الطرفين ومركزا لإيواء المخالفين، وهذا ما تفسّره أعمال الترميم التي قام بها أبو حمّو لأسوار مليانة، فما إن باغت معسكر أبي زيّان بالبطحاء وهزمه في 6 ذي القعدة 768هـ/04 جويلية 1367م حتّى وجّه نظره إلى التّحصن بمليانة، وذلك لفرض ضغط أكبر على أبي زيّان وفلوله الفارة إلى الجهات المختلفة، "فرمّ أسوار مليانة، و[قام ب]إعماق خندقها، وشحنها بالرجال والفرسان"<sup>1</sup> وكان ذلك في مستهلّ عام 769هـ/1367م.

ويبدو أنّ تخريب الأسوار قد تواصل على الجبهة الخارجيّة بين الطرفين المريني والزيّاني سنة 786هـ/1384م، بسبب المدد الذي قدّمه أبو حمّو موسى الثاني لعبد الرحمان بن يفلوسن الذي كان يعاني الشّريد والطّريد بسبب الحصار الذي ضربه عليه السّلطان المريني أبو العباس المريني في مراكش سنة 785هـ/1483م، والغارات الموازية التي شنّها أبو حمّو على أبي العباس لتشتيته عن حصار بن أبي يفلوسن وما رافق هذه الغارات من تخريب للقصور المرينيّة على يد أبي حمّو، فكان ذلك محرّكا لحفيظة أبي العباس الذي قرّر التّوجه صوب تلمسان رفقة جيوشه "فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاما بزعمه من أبي حمّو، وأخذا بالثأر منه فيما أعتدّه من تخريب قصر الملك بتازي، وتخريب قصره هو بمراة، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر"<sup>2</sup>، وتركها "يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا من أسوارها وأزالوا حصنها"<sup>3</sup>.

كان للصّراع الداخلي في البيت الزيّاني على الملك دوره أيضا في ثني حركة العمران، ومن الطّبيعي أن تسفر حالة الفتن الداخليّة عن التّدخل العسكري، فقد كان الصّراع بين المتوكّل الزيّاني وأحمد بن الناصر بن أبي حمّو مدعاة لتخريب الدّور المتّصلة بسور المدينة لغرض توسعة سورها، وهو العمل الذي قام به السّلطان أحمد بن أبي حمّو في حربه مع المتوكّل سنة 850هـ/1446م من تهديم للدور<sup>4</sup>، حيث عمد إلى توسعة سور المشور واضطرّه ذلك إلى

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص193.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 190/7-191.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 193/7. وليام مارسي وجورج مارسيه، المعالم الأثرية العربيّة لمدينة تلمسان، تر: مرد بلعيد وآخرون، دار الأصاله للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص42.

<sup>4</sup> تذهب أحد الدّراسات إلى أنّ هذه الدّور كانت تابعة لليهود، لكن هذا لا يمنع من أن يتحصّل السلطان أي فرصة ممكنة لخدمة أغراض ملكه حتّى وان استدعى الأمر تخريب دور اليهود، والملاحظ أنّ السّبب نفسه هو ما ألجأ الونشريسي إلى الرحيل من تلمسان إلى فاس حسب رواية ابن مریم بعدما قام السلطان الزيّاني بالإيعاز لانتهاج داره. للمزيد من التفاصيل يراجع: محمد نقادي، الخطّة العمرانية لمدينة تلمسان، مرجع سابق، ص200-203. ابن مریم، البستان، مصدر سابق، ص80.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

اغتصاب الدّور المتّصلة به، إلّا أنّه لم يلبث طويلا إلى أن أطاح به محمّد المتوكّل الزياني، ويعقب التنسي عن سبب الإطاحة بأحمد بقوله: "وما ذاك والله أعلم إلّا لما وقع بسببه من اغتصاب كثير من الدّور المتّصلة به"<sup>1</sup>.

وعلى الرّغم من هدوء الأوضاع نسبيا في عهد السّلطان الزياني المتوكّل بعد هذا الصّراع، إلّا أنّ نقض هذا الأخير للصّح الذي كان منعقدا بينه وبين السّلطان الحفصي أبو عمرو عثمان، وتمادي السّلطان الزياني برفضه قبول عرض الصّح مجدّدا، وعدم جنوحه إلى تقديم أسباب حقيقيّة لهذا النّقض، كان محرّكا لحشد أبي عمرو لجيوشه نحو تلمسان في شوال 870هـ/1465م، فوصلت جيوشه إليها في ربيع الثّاني 881هـ/1476م<sup>2</sup>، "فقاتلها أشدّ قتال وتحصّنوا بالأسوار والمرايع والسّهام، ثمّ قاتلهم أشدّ قتال، ثمّ أمر بهدم الأسوار"<sup>3</sup>.

### • خراب الأسوار في الأرياف والقرى:

لم تكن أرياف وقرى المغرب الأوسط خلال العهد الزياني بمنأى عن حالة الفوضى التي شهدتها المدن خلال هذا العصر، بل أنّ وقع وتأثير صور العدوان عليها كان كبيرا، نظرا لأنّ المجال البدوي كان بعيدا عن أعين السّلطة المركزيّة وبذلك فقد شكّل فضاء حرّا للارتزاق وامتتهان اللّصوصيّة في ظلّ غياب السّلطة السياسيّة المطلقة في المناطق الرّيفيّة، ونظرا لحجم الفساد المنجرّ عن أعمال الغصب واللّصوصيّة والعدوان فإنّ العقاباني قد أفتى بعدم قبول شهادة أهل القرى في الأمور المتعلّقة بالعدوان والغصب واقتصر ذلك على العدول منهم فقط<sup>4</sup> بعد أن سئل "عن موضع تعدّرت فيه العدالة سيّما في البادية لكثرة الفساد"<sup>5</sup>.

وأمام هذا الوضع وأعمال العدوان المتكرّر، ونظرا للأوضاع السياسيّة المتردّية، ألجأت الصّورة أهل قرى المغرب الأوسط إلى التّحصن بإقامة الأسوار والزّرب للاحتماء من هجمات الغزاة "واستتجار حارس زرعهم وجنّاتهم"<sup>6</sup> بعد أن أصبحت جنّاتهم وأراضيهم لقمة صائغة ومحالّا للاقتيات من طرف العدو، ونظرا لتكاليف إنشاء هذه الأسوار

<sup>1</sup> التنسي، نزم الدّر والعقيان، مصدر سابق، ص 253.

<sup>2</sup> عبد الباسط الملطي، الرّوض الباسم في حوادث العمر والتّراجم، مصدر سابق، ص 46-48.

<sup>3</sup> الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، مصدر سابق، ص 157. روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، 291/1.

<sup>4</sup> تعضد هذه النّازلة المتعلّقة بعدم قبول الشّهادة إلّا من العدول في أرياف المغرب الأوسط خلال أعمال العدوان والغصب التّوازل السّابقة التي عدّناها في مبحث الحرب مدعاة للارتزاق.

<sup>5</sup> هناء شقّطي، الخطاب الفقهي والرّيف في المغرب الأوسط من خلال الدّر المكونة في نوازل مازونة، مذكّرة لنيل درجة الماجستير، إشراف علاوة عمارة، قسم التّاريخ، جامعة قسنينة 2، 2012-2013، ص 66.

<sup>6</sup> ابن مرزوق، نوازل ابن مرزوق، و 28.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

في القرى لتوفير الأمن فيها فإنّ بعض الفقهاء قد جنّبوا السّلطة مسؤوليّة ترميمها، وألقوا بها على العامة بما فيها الأراميل والأيتام وجميع من ينتفع بهذا السور<sup>1</sup>، فكانت تفرض عليها غرامات يخصّص جزء منها لإصلاح سور البلد، وتظهر نازلة استفتى فيها المازوني أبا الفضل العقباني مسؤوليّة العامة في القرى في إصلاح ما تهدّم من أسوارها، جاء فيها على منطوق لسانه: "سألت شيخنا وسيّدنا أبو الفضل العقباني ... على قضية وذلك أنّ قريتنا هي للعرب ولا يفتالون من يصلحها ... وحرّمنا وصور [كذا] قريتنا أكثره منهدم فإن أردت أن أجعل فريضة على أهل البلد لصلح ما تهدّم ويكون ذلك سببا... فأجابني بما نصّه: ولدي الأحب الأعز حفظك الله وكان لك وزكي قولك وعملك"<sup>2</sup>، وعزّز ذلك محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1503م) بقوله: "ومن الظلم ... إن وقع بالناس مصيبة تفتقر لمال ولا لشيء في بيت المال، ولا يمكن دفع ضررها إلّا من أموالهم، وجبت الإعانة عليهم بحسب أحوالهم من غير أن يستمرّ ذلك عليهم، وذلك كسقوط حصن بمكان خوف ... ورأس كلّ بليّة احتجاج السلطان عن الرعيّة"<sup>3</sup>.

لا ريب في أنّ دعم السّلطة المركزيّة للمدن وتكليف العمّال بجباية الضرائب في المناطق البعيدة عنها، جعل من أهل القرى يعانون من حالة العوز عند تحطّم الأسوار التي تحميهم من الغزاة، فبالإضافة إلى فرض ضرائب موجّهة لترميمها وإعادة إصلاحها، ألجأت الضّروة الأمنيّة السّاكنة في القرى والأرياف على غرار المدن<sup>4</sup> إلى اتّخاذ حائط السور كحائط للمنزل في نفس الوقت، فكان هذا السور يلعب دور مشتركا بين الاستغلال والانتفاع من طرف صاحب المنزل وبين توفير المصلحة العامة باعتباره سورا يحمي السّاكنة من هجوم الأعداء، والجدير بالذكر أن الخلاف كان يقع عند تحطّم هذه الأسوار ذلك أنّ صاحب المنزل كان يحتمل مسؤوليّة ترميم السور للمسؤول عن الحصن

<sup>1</sup> الواجب لفت النّظر إليه في هذه النّقطة هو شرط الانتفاع من السور، وهذا ما جعل النازلة هنا تشرك العامة في بناء السور وذلك لأنّ المقصد هنا هو حفظ الصالح العام، خاصّة إذا علمنا أنّ المنازل كانت تلاصق هذه الجدران، كما أنّ هذه الأسوار كانت تؤمّن محاصيل جنّات هؤلاء العامة، على غرار البرزلي الذي يضيف شرط وضع حبس لترميم سور المدينة ومشاركة الرعيّة في أعباء تقويمه. المازوني، الدرر، 278/3. الونشريسي، المعيار، 351/5.

<sup>2</sup> ابن مرزوق الحفيد، نوازل ابن مرزوق، و27ظ. المازوني، المصدر نفسه، 282/3.

<sup>3</sup> محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تح: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1994، ص 52.

<sup>4</sup> تشير بعض التّصوص إلى أنّ عدد المنازل التي كانت بداخل المشور ما بين 80 و100 منزل بعضها ملاصق لجدار السور حين قام السلطان أحمد بن أبي حمّو بتجديد سور تلمسان سنة 850هـ/1446م. صبرينة نعيمة دحماني، مرجع سابق، ص77.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

وكان المسؤول عنه وعن حفظ الأمن يخالفه على ذلك، فتقرّر أن يكون بناؤه "على مال الحبس إن كان للصور حبس" أو "على جماعة البلد على قدر ملكهم فيها إذا كان موضعاً يخاف منهم على البلدان"<sup>1</sup>. مع أنّ واجب حفظ الأمن في القرى بدفع مغارم ترميم السور كان مسؤوليّة ملقاة على العامة، إلا أنّ نوازل ابن مرزوق نقلت لنا فتاوى المتأخرين حول سقوط وجوب الكره على إصلاح أسوار مازونة المتهدّمة، مستحضرةً جواب فتوى العقباني الذي أرجع التّخيير والإكراه في رمّ المتشلمّ من الأسوار بحسب حالة الأمن في القرى والأرياف، فكلمّا كان الوضع محتدماً تتبّعهُ -طردياً- إلزاميّة التحصين باتّخاذ الأسوار والزّرب والعكس، ويظهر ذلك في جواب العقباني الذي قال: "...أكثر ما رأيت في كلام المتأخرين المنع من الأخذ في هذا جبراً، ورأيت لابن الحاج في الإشراف في الزّرع أو الجيران يتفق بعضهم على الاستيجار على من يحمي زرعهم وأبي بعضهم يجبر الأبيّ، قال ولذلك أفتى بن عتاب في الدّرب يتفق الجيران على إصلاحه ويأبى بعضهم من ذلك يجبر من أبي، وهذا المذهب عندي أولى إن كان العداء مع كورة البلد يتحقّق أو يظنّ أنّ التّجاة مع الإصلاح، وإما إن رأى أنّ يد الظالم لم تمتدّ على كلّ حال فلا وجه لجبر أحد"<sup>2</sup>.

### 2- الأبواب

يعتبر الأمن الدّاخلي -سواء- في دولة بني زيّان أو في غيرها من المدن الإسلاميّة هدفاً أساسياً، لذلك فقد اهتمّ سلاطينها بتوفيره عن طريق تحصين عاصمتهم، ورفع أسوارها، ونصب أبراجها، وإحكام أبوابها، وإعماق حفيرها ... إلخ، وتلعب الأبواب في معادلة حفظ الأمن الدّاخلي دوراً مهمّاً بالإضافة إلى الدّور الاقتصادي المنوط بها<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 277/3-278.

<sup>2</sup> مجهول، نوازل ابن مرزوق، مصدر سابق، و28.

<sup>3</sup> يسجّل ابن مرزوق نصّاً مهمّاً عن دفع المغارم عند أبواب مداخل تلمسان حين تطرّقه لمكاشفات الولي أبو العباس أحمد، وفي هذا الصّدّد يقول ابن مرزوق الخطيب: "سمعت النّاس يتحدّثون عنه، فقالوا: أحوال اليوم غريبة، وهي أنّ رجلاً كان له متاع خارج البلد، وشيء من الفلفل يحمّله على بغلته، لأنّ يدخل به البلد، وكان عليه مغرم ثقيل، فلقي الشّيخ أبا العباس وهو داخل البلد فحلف عليه التّاجر أن يركب بورائه ... رجاء أن لا يتعرّض له في الباب فيسلّم المغارم، فلمّا دخل، قال له البواب: سيّدي أحمد ما هذا الذي تحتك، فقال: ... المتاع والفلفل في معرض التّهكم. قال له: ادخل سيّدي". ابن مرزوق، المناقب المرزوقيّة، مصدر سابق، ص 180.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

نظرا لما تقدّمه من علاقات اجتماعية وتجارية<sup>1</sup> بين سكّان المدينة وسكان المناطق الأخرى الوافدين إليها عبر نفاذهم من هذه الأبواب، وفي هذا الصّدد يقول القزويني "ثمّ إنّ الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك ... واتّخذوا للمدن سورا حصينا مانعا، وللسور أبوابا عدّة حتى لا يتزاحم النّاس بالدخول والخروج، بل يدخل ويخرج من أقرب باب إليه"<sup>2</sup>.

بالموازاة مع ذلك فإنّ أبواب العاصمة الزيانية لعبت أدوار عسكرية بالإضافة إلى دورها التجاري حيث أنّ الجيوش الغازية للعاصمة الزيانية كانت تدخل معسكر العدو من خلال هذه الأبواب رغم طولها المحدود، ويؤدنا ابن خلدون في هذا السياق بخبر دخول أبي الحسن المريني بعد حصاره لتلمسان في 27 رمضان من سنة 737هـ/29 أبريل 1337م وما خلّفه الدخول الجماعي لجيوشه ونفاذهم إلى حصن تلمسان عن طريق أبوابها، وما خلّفه هذا التزاحم والتدافع من قتلى فيقول: "غصت سلك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر، وكضت أبوابها بالزّحام، حتى لقد كبّ النّاس على أذقائهم وتواقعوا فوطئوا بالحوافر وتراكت أشلاؤهم بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السّقف ومسلك الباب"<sup>3</sup>، وقد كانت الجيوش تدخل معسكر العدو من الأبواب باعتبارها الحلقة الأضعف في معادلة العمارة العسكرية الدفاعية الزيانية<sup>4</sup>.

والأبواب مفرد باب وهو المدخل في سور المدينة، أو واجهة المسجد<sup>5</sup>، أو جدار البيت ... ويكون بمصرع واحد أو اثنين أو أكثر، وقد برع المسلمون في صناعتها، توجد غالب في الأسوار الخارجية للمدينة أو المباني، والأبواب

<sup>1</sup> كانت تؤدّي الصّربية التقليدية المفروضة على المنتجات الريفية غير الموجهة إلى الفنادق والقيسارية سواء كانت فلاحية أو صناعية على مستوى هذه الأبواب، فقد أشار السن الوزان بأنّ أبواب تلمسان مان يقيم بهام "مكّاسون". حسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق 20/2.

<sup>2</sup> القزويني، مصدر سابق، ص 8.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 148/7.

<sup>4</sup> صبرينة نعيمة دهماني، الآثار العسكرية الإسلامية بمدينة تلمسان، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 2020، ص 54.

<sup>5</sup> كانت طبيعة بناء الدّور والمساجد تتطلّب وجود فتحات كالأبواب والنوافذ، وكان عدد الأبواب في المساجد يتفاوت تبعا لكبير حجم المسجد ولوظيفته، فإذا كان المسجد في حيّ ذا كثافة سكانية يجب أن يفني المسجد لعدد المصلّين وكذا أبوابه تبعا له، وقد كانت لأبواب المساجد حرمة باعتبار وجودها في مكان العبادة فهي تكتسي حرمة من مكان وجودها، على عكس أبواب الحصون والمعسكرات التي كانت الحلقة الأهمّ التي يجب تخريبها وفضّها لدخول أرض العدو. بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، دار كنوز للإنتاج والتّشّير والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 21.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

غالبا ما تكون مصنوعة من الحديد أو الخشب، بها غرف للأمن ومراقبة الداخل والوافد<sup>1</sup>، وقد كانت تدعم هذه الأبواب التي تتخلل سور المدينة بمهوى للحفير (خندق) لتغطية الضعف الذي كان يشوب هذه الوحدة الدفاعية<sup>2</sup>، وما يقطع دابر الشك في ذلك القرائن التي يقدمها يحيى بن خلدون عن تطرّقه لأخبار الوليّ أبو عبد الله الحلوي نزيل تلمسان، فقد سجّل لنا رواية شفوية عن الوليّ الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف ابن دهاق الأوسي المعروف بابن المرأة الذي التقى بالحلوي في تلمسان، وقد جاء في هذه القرينة على منطوق لسان أبي إسحاق: "أتيت من مُرسية زائرا عمّة لي بتلمسان .. فرأيت الشيخ [أي الحلوي] يبيع من طبق عود في يده حلواء للصبيان ... فلما جاء الفطر ابتعت سميدا وعسلا وقلت لعمتي اصنعي لي مشهدةً يفطرها عندي رجل من الصالحين ... فأكلنا منها شيئا، وعند فراغنا قالي لي: بماذا تحترف، قلت بالقراءة. قال أتريد أن تقرأ؟ قلت نعم. قال: ايتني غدا إن شاء الله بالمسجد الذي بخندق عين الكسور من المنية بخارج باب القرمادين<sup>3</sup>، ونقرأ ماتريد<sup>4</sup>، وهو ما يؤكّد على دعم باب القرمادين بخندق متقدّم يحول دون وصول العدو إليه.

وبالإضافة إلى الخنادق الداعمة للستور المحيط بالمدينة والأبواب، فإنّها كانت تدعم أيضا بالستائر أو الفصيل وهي جدران قصيرة تشيّد قبالة الستور والأبواب كخطّ دفاعي آخر<sup>5</sup>، والملاحظ أيضا أنّ دفن الأولياء كان يتمّ على مقربة من هذه الأبواب، حيث يوضع قبر كلّ وليٍّ من الأولياء قبالة هذه الأبواب، ويبدو أنّ هذا التقليد له علاقة بحالة الحرب وتوفير الأمن، لأنّ المعتقد الذي كان سائدا في الدولة الزيانية جعل من السلطة والمجتمع يعتقدون ببركة

<sup>1</sup> محمد عياش، الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان، بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، إشراف صالح بن قربة، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص 29.

<sup>2</sup> بالإضافة إلى تدعيم الأبواب بالخنادق والفصيل والستائر نظرا لكونها الحلقة الأضعف في سلسلة العمارات العسكرية الدفاعية، فإنّ التوجس منها خلال الحصار وخوف سلاطين بني زيّان من اقتحامها كان يحملهم على وضع حراس يراقبون هذه الأبواب ويتطوفون عليها على مدار اليوم. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 151/7.

<sup>3</sup> باب القرمادين porte des tuileries: يقع الباب بمنطقة الفخارين، غير بعيد عن مركز البريد بالمدينة، في الجهة الشمالية الغربية لمدينة تلمسان، غير بعيد عن المقبرة اليهودية، يحده من الجهة الشمالية الطريق الرابط بين وسط المدينة وقياسة والتفق الحديث، ويحده من الجهة الشرقية أحياء سكنية، أما الجهة الجنوبية فطريق السكة الحديدية والمجمّعات السكنية، معلم مصنّف اقترح للتصنيف سنة 1900م، لتمّ تصنيفه بتاريخ 20 ديسمبر 1967م حسب المعلومات الواردة في الجريدة الرسمية رقم 07 في 03 جانفي 1968، عرف العديد من الترميمات كان آخرها سنة 2012. صبرينة نعيمة دحماني، المرجع السابق، ص 54-58.

<sup>4</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 165/1-166.

<sup>5</sup> ابن أبي زرع، الذخيرة السنينة، مصدر سابق، ص 89. التيجاني، رحلة التيجاني، مصدر سابق، ص 240. التنسي، مصدر سابق، ص 135.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

الولي وخوارقه وكراماته وقدرته على ردّ الحملات العسكرية، فكانوا يدفنون هؤلاء الأولياء قبالة أبواب تلمسان بناءً على هذا الاعتقاد، ومن الحوادث التي تؤكّد ذلك، ما ساقه ابن مريم عن أحد الحملات الحفصية الموجهة لتلمسان، فبعد أن وصل السلطان الحفصي "قال لوزرائه : من أين ندخل البلد؟ فقالوا: من أين تريد. قال لهم: كم من باب للبلد؟. فعّدوها له، فقال: باب الجياد<sup>1</sup> من عليه من الأولياء؟ قالوا: سيدي أبو مدين. وباب العقبة<sup>2</sup> من عليه؟ قالو سيدي أحمد الدواودي. وباب العقبة من عليه؟ قالوا: سيدي الحلوي. وباب القرمادين من عليه؟ قالو ما عليه أحد. قال لهم: من ذلك الباب ندخل"<sup>3</sup>، ومن الأبواب التي دفن فيها حفيد أبو بكر ابن مرزوق وجدّه وأبوه "تحت باب زيري عن يمين المار بتلمسان القدمى، حيث قبر أبيه وجدّه"<sup>4</sup>، فضلا عن العديد من الأولياء الذين دفنوا بالقرب من هذه الأبواب<sup>5</sup>.

وعلى ذكر أبواب تلمسان وتعدادها فإنّ مقارنة عدد أبواب تلمسان في عصر القوة على عهد أبو تاشفين الأول حسبما ذكره معاصره أبو الفداء إسماعيل، وبين سابقه يضعنا أمام توصيفات وتقديرات نسبية، فأبو الفداء يقرّ أنّها كانت كثيرة وعدده ب: 13 بابا<sup>6</sup>، غير أنّ مقارنتها قبل عصر أبي الفداء خلال عهد البكري في القرن 5هـ/11م لا يوافق هذا التقدير، فالبكري يذكر أنّ لها 5 أبواب فقط<sup>7</sup>، وقد بلغت بعض المصادر في ذكر الأبواب وهذا ما نجده عند يحيى بن خلدون الذي ذكر 17 بابا، فبالإضافة إلى الأبواب التي ذكرها البكري في القرن 5هـ/11م يضيف يحيى باب إيلان وباب عمران وباب البنود وباب كشوطة وباب علي وباب التوتية وباب الجياد وباب القرمادين وباب سيدي الحلوي باب إيلان وباب<sup>8</sup>، بالإضافة إلى أبواب أخرى فتحتها السلطات الفرنسية في السور الجديد كباب وهران وباب الجنوب وباب فاس وباب أبي مدين وباب الشمال، وقد ورد حسب إحدى الدراسات<sup>9</sup> أنّ

<sup>1</sup> يقع هذا الباب في الجهة الجنوبية من مدينة تلمسان. فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياتي، مرجع سابق، 113/1.

<sup>2</sup> كان باب العقبة يستقبل قوافل وهران والمنطقة الشمالية الشرقية ومع بداية الاتلال الفرنسي اضمحلت أهمية هذا الباب لصالح باب الجياد الذي أصبح ملتقى لطينين: الطريق الوطني رقم 02 R.N الرابط بين تلمسان ووههران، والطريق الوطني رقم 07 R.N ايعيل ايزان- المغرب الأقصى مرورا بمديني سيدي بلعباس وتلمسان. سيدي أحمد نقادي، مرجع سابق، ص 25.

<sup>3</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، 158.

<sup>4</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 148.

<sup>5</sup> الملاي، المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، مصدر سابق، ص 49.

<sup>6</sup> عماد الدين إسماعيل المعروف بأبي الفداء تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، مطبعة مدينة باريس السلطانية، 1830، ص 137.

<sup>7</sup> البكري، المسالك والممالك، مصدر سابق، ص 77-78.

<sup>8</sup> يحيى بن خلدون، صفحات متفرقة من كتب بغية الرواد.

<sup>9</sup> سيدي احمد نقادي، خطّة العمران لمدينة تلمسان ودلالاتها الاجتماعية، مرجع سابق، ص 19..



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

عددها 33 بابا، ولا يعقل أن يتوزع هذا العدد من الأبواب على سور طوله 4 كيلومترات بمعدل باب في كل 120 متر، وقد أرجعت هذه الدراسات وقوع المصادر في هذا الخلط إلى التوسع التدريجي للتسيج العمراني داخل المدينة، حيث تعيّرت بعض الأبواب من أماكنها الأصلية فبقي الاسم عالقا في الذاكرة الجماعية بالمكان وإن لم يبق الباب نفسه به، فمثلا نجد أنّ بغمراسن قد شيد باب كشوط وبنفس المنطقة شيد أبو تاشفين الأول بابا آخر على إثر بناء السور الغربي لحماية الصهريج الكبير، سماه باب أبي جمعة، وفي العهد العثماني كانت تعلق عليه رؤوس المتمردين فسمي باب الخليعة وذلك لتأرجح هذه الرؤوس بالباب، وفي نفس الموضوع أنشأت السلطات الفرنسية بابا آخر أطلق عليه اسم باب فاس، وفي الحقيقة تعتبر كل هذه الأبواب عن منفذ واحد موجود بالسور الغربي. وهي الملاحظة نفسها لباب سيدي الحلوي الذي لا يستبعد أن يكون في الوقت نفسه هو باب علي وباب زيزي، وباب الرواح الذي لا يستبعد أن يكون باب أبي قرّة، وباب كشوط الذي حوّل اسمه إلى باب فاس<sup>1</sup>، وما يؤكّد هذا الطرح ما كتبه القدّيس برجس الذي زار تلمسان سنة 1839م الذي عمد إلى تأليف كتابه المعنون بـ "تاريخ بني زيّان" وأعقبه سنة 1887م بكتاب "تكملة تاريخ بني زيّان" حول وجود خمسة أبواب فقط لتلمسان خلال زيارته لها<sup>2</sup>، غير أن الباحث عبد العزيز فيلاي وضع تفسيراً آخر نراه أقرب للصواب ذلك أنّ رجح أن تكون بعض الأبواب ثانوية مخفية -بالإضافة إلى الأبواب الرئيسية-، على شكل أنفاق صغيرة أو فتحات في الأسوار يستعملها الجند ورجال الدولة في الوقت المناسب، ويضرب لنا مثلا على ذلك بالباب الذي يقع في الشمال وهو باب الرواح حيث يوجد ممرّ مغطّى بالأقواس يصل تاكرارت بأكادير، وباب زيزي، وباب أبي قرّة الداخليتين<sup>3</sup>، وهذا التخمين أصوب إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ الفترة الزيانية كانت من أحلك فترات المغرب الأوسط حربا، فضلا عن براعة الزيانيين في ترسيم بعض القواعد السرية كقنوات المياه السرية الداخلة<sup>4</sup> إليها، وإقامة الأبواب والممرّات السرية<sup>5</sup> وذلك لما تقتضيه طبيعة الحرب من مراوغة وخداع وتخفي.

<sup>1</sup> عززي بوخالفة، شواهد الإحسان على مآثر المحروسة تلمسان، الجزائر، 2011، ص 28.

<sup>2</sup> فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، مرجع سابق، 113/1. وليام وجورج مارسيه، مرجع سابق، ص 15-16. صبرينة نعيمة صالح، المرجع السابق، نفس الصفحة.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 113-114.

<sup>4</sup> العمري، مسالك الأبصار، مصدر سابق، 104/4.

<sup>5</sup> كانت المدرسة التاشفينية أو المدرسة الجديدة التي قام بتشييدها أبو تاشفين الأول تتصل بالمشور بواسطة نفق تحت الأرض مازال قائما لحدّ الآن يبدأ عند مستوى الزاوية الشمالية الشرقية من سور المشور وينتهي عند قاعة الاحتفالات من خلف دار البلدية أو الدائرة حاليا. سيدي أحمد نقادي، مرجع سابق، ص 40

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

لقد كان مآل بعض هذه الأبواب خلال الحرب يؤول إلى التّهشيم والتّخریب باعتبارها المنفذ المؤدّي إلى معسكر العدو، وقد رسمت لنا المصادر في العديد من الوقائع الحربيّة صورا كثيرة لتزاحم الجيوش المغيرة على تلمسان، فابن خلدون - كما سبق وذكرنا - يَصوّر لنا حجم عدد الهالكين لقاء تزاحم جيش أبي الحسن المريني على أبواب تلمسان بعد تحطيمها دخولها عنوة، لدرجة أنّهم وُطّؤوا "بالخوافر وتراكت أشلاؤهم بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السّقف ومسلك الباب"<sup>1</sup>، ممّا يدلّ على خراب هذه الأبواب عند لحظة دخول الجنود المرينيين لتلمسان، وهو الخبر الذي يؤكّده أبو الحسن المريني في الرّسالة التي بعث بها إلى سلطان مصر محمد الناصر بن قلاوون حيث يصف لحظة دخوله أبواب تلمسان بقوله: "وسابقوا إلى الأبواب فكان مجيئهم من أقوى الأسباب، وقتل منهم الرّحام، من أسارة الهدم والحسام... واعتمد الناس في بقيّة يومهم السّور تتوسّع أنقابه وتخرق أبوابه، إلى أن جنّهم اللّيل"<sup>2</sup>، وفي نصّ مشابه نجد أنّ السّلطان أبو حمّو الزياني عند دخوله لتلمسان سنة 760هـ/1359م لاسترداد ملكه من يد بني مرين ربّ مصاف جنده، "وسار صدرهم الهويّنا لقاء باب كشوطة، لا يعدو الفارس منهم الفارس ولا يسبق السّنان السّنان، كأثما وضعوا على خطّ مستقيم، وغلق بنو مرين الأبواب... فزحف إلى باب العقبة بجنوده، ولم تسو عساكر أمير المسلمين بصعيد الملعب حتّى فتح أهل أجادير لموسى بن عليّ عليّ باهم، فدخله على مرين بجنوده، واحترب الفريقان، وتجاولوا الطّعنات"<sup>3</sup>، فضلا عن ذلك فإنّ صمود بني عبد الواد في وجه حملة أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن (774-767هـ/1365-1372م) على تلمسان، وإصرارهم على عدم الاستسلام وفتح أبوابها له، جعل أبا فارس يستشيط غضبا ويهدّد بتحطيم أبوابها، "وحلف إن لم يفتحوا لي الباب بالغد لأمرنّ بالنّهب فيها ثلاثة أيّام، فلما جاء الغد لم يفتحوا له الباب فضيّق بأهلها تضيقا عظيما ورماهم بالأنفاط وهد المسافات حتّى صارت الحجارة إلى سوق منشار الجلد"<sup>4</sup>. بالإضافة إلى استخدام المنجنيق في حصار الوزير عبد الله بن مسلم وأبي يعقوب والد أبي حمّو موسى الثاني للجزائر وقائدها ابن ودرار الذي آوى يحيى بن عليّ هذا الفار من أبي يعقوب سنة 760هـ/1359م، ونظرا لتمادي أهل الجزائر أمام ابن مسلم الحصار

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 148/7.

<sup>2</sup> القلشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، 95/8-96.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 26/2.

<sup>4</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 103.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

وإغلاقهم لأبواب الجزائر قام عبد الله بن مسلم برميهم و"صار أهل البلد يقاتلون من أعلى الأسوار، ويرمون بالمنجنيقات والأحجار... والوزير عبد الله بن مسلم في كل يوم يرهقهم وبالقتال يروعهم ويقلقهم"<sup>1</sup>. من بين الأبواب التي تعرّضت أيضا للتخريب باب كشوط بتلمسان الذي دخل منه السلطان أبو زكريا تلمسان فقد "حاصرها حتى أخذها عنوة في شهر ربيع الأول من سنة أربعين من باب كشوط على صاحبها يغمراسن بن زيان بن عبد الوادى فلما رأى يغمراسن ما أحاط بالبلد قصد باب القصبة لابس سلاحه في خاصته فاعترضته عساكر الموحدّين... وافتتحت جيوش الموحدّين تلمسان من كلّ حدب وعاثوا فيها"<sup>2</sup>، وربما المقصود من الشّطر الأخير من قول الزركشي أنّ باب كشوط لم يكن الباب الوحيد الذي خرّبه أبو زكريا، فابن أبي زرع يمدّنا بقرينة أخرى تفيد تخريب باب إيلان في حملة أبي زكريا على تلمسان سنة 640هـ/1340م، وفي هذا الصّدّد يقول ابن أبي زرع: "وكان في عسكر الأمير يحميا بن أبي حفص المذكور أربعة وعشرون ألفا من الرّمات فدخلها عليه عنوة على باب إيلان يوم نزوله عليها وذلك في شهر صفر من السنّة المذكورة [أي السنة الموفية أربعين وستمائة] وفرّ يغمراسن ومن معه"<sup>3</sup>، وكذلك باب القرمادين الذي يرجع تشييده إلى القرن 5هـ/11م على يد المرابطين، فقد خضع لتعديلات وترميمات على يد عبد المؤمن بن علي في الفترة الموحدية بعدما توجّهت أنظاره إلى المغرب الأوسط أين قام بتجديد بعض الأبنية، وكان باب القرمادين من جملة ما قام عبد المؤمن بترميمه، ليعرف خراب آخر خلال الفترة الزيانية أثناء هجمات الحفصيين من تونس والمرينيين من الغرب الأقصى، وكذا هجمات الإسبان ومن بعدهم الأتراك والاستعمار الفرنسي، وأغلب الظن أنّ باب القرمادين يقترن بموقع باب سيدي البرادعي الذي انحار سنة 1362هـ/1943م إثر مرور دثابة عليه<sup>4</sup>، ومن الأبواب التي اندثرت نذكر أيضا باب العقبة الذي يقع في الجهة الشرقيّة من مدينة تلمسان، وهو الباب القديم الذي ظلّ قائما منذ تأسيس مدينة أغادير (الاسم القديم لتلمسان)، بني ببعض بقايا الحجارة الرومانية، وقد انحارت بقايا باب العقبة واندثرت في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 83.

<sup>2</sup> الزركشي، تاريخ الدولتين، مصدر سابق، ص 29.

<sup>3</sup> ابن أبي زرع، الدّخيرة السنية، مصدر سابق، ص 61.

<sup>4</sup> صبرينة نعيمة دحماني، مرجع سابق، ص 59.

<sup>5</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 174. فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، مرجع سابق، 112/1.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

### 3- الحصون

يكتسي مفهوم الحصن دلالة شمولية حيث أنّ الحصن يشمل "كلّ موضع حصين لا يوصل إلى ما في جوفه، والجمع حصون، وحصن حصين من الحصانة"<sup>1</sup>. ويعرّفها صاحب مختصر سياسة الحروب بأنّ "الحصون ليست هي القلاع الشامخة المبني عليها أسوار فقط: هي القلاع والمطامير، والجبال والغياض، والمدن والخنادق والرّمال والوحوال والآجام والبحار، كلّ هذه وما أشبهها حصون ومعاقل"<sup>2</sup>، وبذلك فإنّ مفهوم الحصن يشمل كلّ موضع محصّن معدّ لمواجهة عدوّ ما، وتعزى المفاضلة السابقة التي قدّمها صاحب مختصر سياسة الحروب بن الحصون والقلاع إلى أنّ الحصن يلي القلعة<sup>3</sup> من حيث الاتساع والأهميّة في حظيرة المنشآت العسكرية الدفاعية، لأنّ القلعة تعدّ هي الأخرى حصن كبير أمّا المدينة فهي أوسع منهما<sup>4</sup>.

في مقارنة أخرى حول مفهوم الحصن -وفقا للفترة موضوع الدّرس- يمكن استحضار الإرشادات التي قدّمها أبو حمّو في وصاياه لابنه حول اتّخاذ الحصون، فأبو حمّو بالإضافة إلى الإشادة بضرورة حصانة المعقل عند اتّخاذه يجعل من اشتماله على ضروريات الحياة شرطا أساسيا، فالحصون الزبانية بالإضافة إلى لعب أدوارها العسكرية كانت نزلا ومحلا للجيش والعامة، ومرفقا للتّحصن خلال فترات الحرب اعتمادا على ما بداخل الحصن من أقوات و مياه وغيرها من ضرورات المعاش، وفي هذا الصّدّد يعرف أبو حمّو الحصن بقول: "أن يكون حصنا حصينا لا يرام... قد اشتمل على الماء والاختزان والعدد والمكان، جعل فيه ذخائرك وأموالك وأثاثك وأمتعتك وأثقالك... تسكن فيه أجود أجنادك وحمايك وقوادك، تشحنه بالرجال والرّماة المرتجلة، والرّعاء من الرجال... وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون به الانتفاع مثل التين والزيتون وما قارب هذه الأنواع"<sup>5</sup>.

في مسعى لتسليط الضّوء على تخريب الحصون خلال حالة الحرب، يتراءى لنا أنّ المصنّفات العسكرية أولت أهميّة بالغة للتّكايه بحصون العدو عند محاصرته وتخريبها واستعمال كلّ الآلات والتدابير الحربية لبلوغ هذا المقصد الذي يرمي إلى النّصر، فالهروي يشيد بتسريع عمليّة الاستلام وتسليم المدينة خلال الحرب بعد هدم حصنها، ذلك أنّ الجيش بعد أخذه "الحصن منيع وثغر حصين وهتكه إيّاه بشدّة وطأته وإخراق ناموسه بعظيم سطوته وفتحته عنوة أو صلحا يؤدّي إلى اضطرب البلاد من الخشية وعظيم السّطوة وشدّة البأس... ورّمّا كاتبه أهله وراسله أصحابه وطلبوا تسليمه إليه خوفا منه وطمعا في ملكه وخشية من سلطانه"<sup>6</sup>، بينما عقد ابن منكلي بابا في

<sup>1</sup> ابن منظور، لسان العرب، ص 902.

<sup>2</sup> الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، مصدر سابق، ص 56.

<sup>3</sup> يعرف ابن منظور القلعة بأنّها الحصن الممتنع في الجبل وجمعها قلاع. ابن منظور، المصدر السابق، ص 3723.

<sup>4</sup> بوقاعدة البشير، أسلحة الحصار في بلاد المغرب، مرجع سابق، ص 259.

<sup>5</sup> أبو حمّو موسى، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 154.

<sup>6</sup> الهروي، مصدر سابق، ص 23-24.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

"رمي الحصون" وعدد في حيله أسباب وطرق تخريب حصن العدو عند المقاتلة من مكان يكون أسفل الحصن أو في مكان يعلوه<sup>1</sup>، فضلا عن ذلك فإن الهرمي قد دعا إلى استعمال كل وسيلة وتوظيف كل تدبير لتخريبها حيث أنّ الجيش "يحتاج في كل شئ من ذلك إلى ضرب من الآلات والأدوات الحربية والتدبير والمخاربة"<sup>2</sup>.

أما عن مستويات تطبيق هذه التدابير خلال الفترة الزيانية فإنّ أبا حمّو الثاني شدّد على تخريب الحصون كتدبير حربي ناجح للفوز بالمعركة وكباب من أبواب السياسة الناجحة للنكاية بالعدو، فضرب لابنه العبرة من تفعيلها خلال الحرب واستحضر له في وصاياه حادثة تخريب حصون أبي سالم المريني بقوله: "ولما توغلّ أبو سالم في البلاد وظنّ أنّه بلغ غاية المراد واستقرّ بدار تلمسان وأنّه تأتّل له فيها الملك السّلطان قصدنا بلاده فألفينها خالية من الحماة وطعمة للغارات، فأتينا على حصونها نخرب ونهدم ونحرق ونسلب، إلى أن ملأنا الأحقاب بالأسلاب... وهدمنا القلاع والحصون... فعندما سمع أبو سالم بأخبارنا وما دهم بلادهم من حماتنا وأنصارنا طاش الله فرقا وصارت دعتة قلقا... وكاد جيشه أن يكون عليه... وهذا من باب السياسة"<sup>3</sup>. والمقصود بهذا النموذج الانتقائي؛ أعمال التخريب التي قام بها أبو حمّو عام 761هـ/1360م بعد أن هبّ أبو سالم لنجدة أهل الجزائر الذين كانوا حلفاء له واستنجدوا به نظرا للحصار الذي شنّه عليهم عبد الله بن مسلم وزير أبي حمّو المتبّع لعامل بني مرين يحيى بن علي الفار عند أهل الجزائر وقائدها ابن ودرار، فعندما هبّ السّلطان المريني لنجدة أهل الجزائر قرّر أبو حمّو الخروج للصّحراء وموّه للأخبار التي تروّج لهروبه وهو في الحقيقة قاصد للجهات المرينية التي حشدت قواها وجاءت لتلمسان وتركوا المدينة خاوية من الجند، فوصل أبو سالم ووجد عاصمة المغرب الأوسط خاوية "وأما خبر أبو حمّو.... أمر بالرحيل إلى البلاد الغربية وخراب حصونها وزلزالها... فأول حصن نزله تاوريرت... فأمر بهدمه وخرابه.... ثم ارتحل إلى حصن أوطاط فأخذه عنوة... ثم ارتحل إلى أجريسيف فعنّف على أهله أعظم تعنيف... ثمّ تمادى إلى أرجو أمنع هذه القلاع وأشدّ بأسا في الكفاح والقراع فعندما نزل عليهم نالوه وحين أراد قتالهم قاتلوه... وهم من سفح الحصن يرمون الصخور ويتمسكون بمضايق الوعور... فانهمزوا داخلين بحصنهم... ثمّ تمادى على الحصون ينهب ويخرب ويهرب وينكب إلى أن تمادى على ما ذكر واحدا بعد واحد"<sup>4</sup>. ويصوّر أهل فاس وتازي حجم الخراب الذي ألحقه أبو حمّو بحصون المغرب الأقصى خلال استطراده هذا سنة 761هـ/1360م في رسالتهم التي أوفدها للسّلطان المريني أبو سالم الذي كان في غفلة عمّا يحدث في بلاده، فقد "بعث أهل تازي وفاس لمولاهم أبي سالم يعرفانهم بما فعلت بنو عبد الواد من العظيم، وبما خرّبت من الحصون وبما أذاقت الناس

<sup>1</sup> ابن منكلي، مصدر سابق، ص 103.

<sup>2</sup> الهرمي، المصدر السابق، نفس الصّفحة.

<sup>3</sup> أبو حمّو موسى، مصدر سابق، ص 82-83.

<sup>4</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 99-100.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

من الهون، وأنه [أي أبو حمو] على أميال قليلة، ولا لنا على دفاعهم من قدرة ولا حيلة. والتأدر لنصر هذه البلاد قبل أن تحرّبا بنو عبد الواد<sup>1</sup>.

وبالمقابل فإنّ العديد من الحصون الزيانية تضررت جراء حالة الحرب الدائمة التي عرفها المغرب الأوسط خلال القرون الثلاثة الأخيرة من العصر الوسيط، واستعمال ترسانة الأسلحة الثقيلة في مسعى لدكّ هذه الحصون وتقويض سلطة بني زيان العسكرية المجالية<sup>2</sup> والعسكرية، وعليه فإنّ وقع الحرب على الحصون الزيانية والمرينية جزاء حالة الحرب كان كبيرا وهو ما سنوضحه آتيا.

عبد القادر للعلوم الإسلامية

<sup>1</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة.

<sup>2</sup> تطرقتنا في الفصل الأول إلى أنّ الحصون الزيانية كانت نقاط عسكرية تعكس الامتداد المجالي لحدود الدولة الزيانية وقد كانت هذا المجال يؤول إلى التقلّص عند تحريب هذه الحصون وإجفال الجيوش الزيانية عنها بعد سيطرة العدو عليها. انظر: الفصل الأول من هذه الدراسة.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

### أ- الحصون الزياتية:

#### ● تلمسان العاصمة الحصن:

أول حصون الدولة الزياتية هي عاصمتها تلمسان<sup>1</sup>، وقد وردت تلمسان باسم "حصن تلمسان" في إحدى المراسلات بين أبي تاشفين الأول وسلطان مصر محمد قلاوون سنة 725هـ/1325م، وقد جاء في مستهل هذه الرسالة: "إنّا كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرجحها، وأثبتها عزّا وأوضحها من حصن تلمسان حرسها الله"<sup>2</sup>، وأخذنا بالمفهوم الذي قدّمه أبو حمّو موسى الثاني للحصن، فإنّ الأوصاف الجغرافية لتلمسان من خلال المصادر الثانوية الجغرافية تتوافق والشروط التي قدّمها السلطان الزياتي حول اتخاذ الحصن، وذلك بأن يكون حصننا حصينا بالإضافة إلى اشتماله على الماء والاختزان وجعله محلاً لنزول الجند والحماة والدخائر والأموال والأثقال وموضعا للسكن والغرس، وبالتالي يمكن اعتبار مدينة تلمسان "حصننا"، وهذا ما قد يفسّره المسح التالي الذي أجريناه على المصادر الجغرافية حول وصف تلمسان:

| المؤثر   | الاستشهاد   | الإحالة                        |
|--|---|--------------------------------|
| الحصانة الطبيعية و التحصين العسكري   | "وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز، ولها خمسة أبواب".   | البكري، المسالك والممالك، ص76. |
| الحصانة الطبيعية وتوافر المقوم البشري  | "ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالغرب التي يقال لها تلمسان وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر حجارة وبها خلق عظيم".  | اليعقوبي، البلدان 196.         |
| الحصانة الطبيعية واشتغال الحصن على الماء والاختزان بما يتوافق وطبيعة الإجراء الاحترازي العسكري | "ومنها إلى تلمسان مرحلة لطيفة وتلمسان مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثاقه وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور ولها نهر يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين وعلى هذا الجبل حصن بناه المصمودي قبل أخذه تلمسان ولم تزل المصامدة قاطنين به إلى أن فتحوا تلمسان". | زهة المشتاق 248                |
| التحصين العسكري واعتباره محلاً لنزول الجند.  | "بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان، بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطّها المثلثون ملوك المغرب، واسمها تافرزت، فيها   | معجم البلدان 44                |

<sup>1</sup> بوزيان الدراجي، مرجع سابق، ص 260.

<sup>2</sup> القلقشندي، مصدر سابق، 8/86.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

|  |  |   |
|--|--|---|
|  | يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، واسم القديمة أفادير".   |   |
| البغدادي، مرصد<br>الاطلاع على أسماء<br>الأمكنة<br>والبقاع: 272/1 | "مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، اختطها الملتزمون".  | الحصانة الطبيعية<br>والتحصين العسكري                                    |
| العمري 206/4   | "ونعود إلى ذكر تلمسان، فنقول: إنها منحرفة إلى الجنوب الشرقي من فاس، ولها ثلاثة أسوار ومن جهة القصبة ستة أسوار بعضها داخل بعض، ولم يهجمس بخاطر أنها تؤخذ ولكن يسر الله لهذا السلطان أبي الحسن المريني صعبها وذلك له إباءها حتى ملك ناصيتها، وبلغ دانيتها وقاصيتها".   | الحصانة الطبيعية<br>والتحصين العسكري                                    |
| الروض المعطار<br>135/1   | "ولها سور متقن الوثيقة، وهي مدينتان في واحدة، ولها نهر يأتيها من جبلها المسمى الصخرتين ونهر شرقي المدينة وعليه أرحاء كثيرة، ومزارعها كثيرة وفواكهها جمّة ولحومها شحمة".  | الحصانة الطبيعية<br>واشتماله على الماء<br>والاختزان والغرس<br>والأقوات. |
| العمري، مسالك<br>الأبصار 205/4.                                  | "وكانوا مع هذا التشديد في غاية الامتناع لحصانة بلدهم وكثرة ما بها من الماء والأقوات، وكان في المدينة عين ماء لا يقوم بكفائتها، وكان يجري إليها الماء من عين خارجة عن البلد لم يعرف بها أحد أخفيت بكثرة البناء المحكم ولم يظهر لها علم، إلى أن خرج أحد من يعرفها من البنائين المختصين بسطانها الكاشف عنها حين بنائها" | اشتماله على مصادر<br>تخزين الماء السريّة.                               |
| العبدري، رحلة<br>العبدري، ص 48-<br>49.                           | "وتلمسان مدينة كبيرة ... مقسومة باثنتين بينهما سور ... وسورها من أوثق الأسوار وأصحها   | الحصانة الطبيعية<br>والتحصين العسكري                                    |

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

عرفت عاصمة الدولة الزيانية تلمسان على مدار قيام دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط سلسلة من الحملات العسكرية التي أتت على حصن عاصمتها بالخراب، ومن القرائن الدالة على خراب حصن تلمسان هو عمليات التخريب المباشر التي كانت تطالها خلال الحرب، وعمليات الترميم التي كان يباشر بها سلاطين بني زيان بعد كل حملة -حفصية أو مرينية- موجّهة إليها، وذلك مؤشّر هام على حدوث أعمال تخريب بعد هذه الحملات. وعلى الرغم من صمود العاصمة تلمسان وحصنها في الكثير من الأحيان كصمودها في وجه جيوش يوسف بن يعقوب المريني بعد شتة لسلسلة من الحصارات منذ سنة 689هـ/1290م و695هـ/1295م و696هـ/1396م و697هـ/1297م<sup>1</sup> إلى غاية تتويج هذه الحصارات بحصار تلمسان العظيم الذي دام لأكثر من 8 سنوات 698-706هـ/1298-1306م، فضلا عن صمودها لمدة عامين في وجه جيوش أبي الحسن المريني الحاصرة لها بين سنتي 735هـ- 737هـ/1334-1336م<sup>2</sup>، إلا أنّ مناعة حصن العاصمة لم يكن يصمد في أحيان أخرى فكان تخريبه خلال الحرب مؤذنا بزوال دولة بني عبد الواد وبانقطاع سياسي مرحلي لدولتهم. في نسق مشائي مع تخريب تلمسان "المدينة الحصن" يمكن الوقوف على العديد من المواقف التي تعرّضت فيها تلمسان إلى هجومات -حفصية ومرينية- دكّت حصانتها، استهلالات بأبي زكريا الحفصي الذي قام بمحاصرة يغمراسن سنة 640هـ/1242م و"أمر رماته بالرمي دفعة واحدة، فكان المرّ على صغر حجمه تجيبي فيه العشرون سهما وأزيد، فهال ذلك أهل البلد"<sup>3</sup>، مرورا بمخلفات الحصار الطويل 698هـ-706هـ/1298-1306م على البنى العمرانية العسكرية ممّا دعى السلطان الزياني أبو زيان 703-706هـ/1303-1306م إلى ترميم حصن تلمسان حيث "أمر السلطان أبو زيان حينه برمّ المثلم من أبنية رياض قصوره وإحياء ما انقعر من غروسها مطاردة للأمل وطمانينة إلى الدنيا"<sup>4</sup>، كما "زادها تحصيلا من الأقوات وتحصينا من الأسوار والآلات، وبني به البناءات العجيبة الشكل... وغرس فيها بساتين"<sup>5</sup>، وقد نستشفّ من وصف يحيى بن خلدون -عرضا- حجم جهود هذا السلطان في ترميم حصن تلمسان بعد خرابه خلال هذا الحصار، فبقدمه -حسب وصف يحيى- "ذهب البرح،

<sup>1</sup> يرجع ابن خلدون سبب تراجع يوسف بن يعقوب في كلّ حملة من هذه الحملات إلى حصانة حصن تلمسان ومناعته فيقول: "ثمّ أحسنّ بامتناعها فأفرج عنها وانكفأ راجعا". ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 126/7.

<sup>2</sup> الملاحظ أنّ الحملات العسكرية على تلمسان بعد هذا التاريخ لم تشهد نشاطا مكثفا إلى غاية وصول أبي حمو موسى الثاني إلى الحكم، والجدير بالذكر أنّ ما ميّز أبا حمو عن سابقيه من السلاطين هو توجّهه إلى الصحراء رفقة جيوشه في غالب أحواله عند إغارة الجيوش المرينية عليه فيترك تلمسان خاوية، وهذا إجراء تكتيكي تعزى أحد أهدافه إلى تلافي تخريب حصن تلمسان من طرف الجيوش المرينية التي كانت تدخلها في عهد سابقه عنوة ممّا يعود بالخراب عليها، وعليه فإنّ سلاطين بني مرين على عهده كانوا يجزّبون حصن تلمسان ويتركونه عورة لكي لا يستفيد منه أبو حمو بعد رجوعه من قفره. ابن خلدون، العبر، 193/7.

<sup>3</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 117، الزركشي، مصدر سابق، ص 28، ابن أبي زرع، الدّخيرة السنينة، مصدر سابق، ص 61.

<sup>4</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 234/1.

<sup>5</sup> العمري، مسالك الأبصار، مصدر سابق، 204/4.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

واندمل القرح، وشيّد بعده تهدام الصّح<sup>1</sup>، فضلا عن أبي حمّو موسى الأوّل 706-718هـ/1306-1318م الذي واصل ترميمه لتلمسان وملئ مطامير حصنها في مسعى لتلافي مخلفات الحصار الطّويل على أسوار تلمسان بعد انجلائه سنة 706هـ/1306م، "فسدّد الأهوار، وشيّد الأسوار، وأقعر الخنادق، ومألاً المطامير والصّناديق"<sup>2</sup>، وقد كانت وطأة الخراب أشدّ في حصار تلمسان على عهد أبي تاشفين الأوّل 718-737هـ/1318-1336م أمام صموده قرابة عامين في وجه أبي الحسن المريني المحاصر له، خاصة وأنّ السّلطان المريني أبو الحسن قد مكّن لحصارها من سنة 735هـ/1334م إلى غاية 737هـ/1336م وخرّب أسوارها بعد "ألحّ عليها بالقتال يغادياها ويراوحها، ونصب عليها الجانيق"<sup>3</sup>، بالإضافة إلى أعمال التّخريب المريني لتلمسان بين سنوات 760-791هـ/1359-1389م<sup>4</sup>، كما كان الصّراع بين المتوكّل الزياني وأحمد بن النّاصر بن أبي حمّو مدعاة لتخريب الدّور المتّصلة بسور المدينة لغرض توسعة سورها سنة 850هـ/1446م، حيث عمد إلى توسعة سور تلمسان واضطرّه ذلك إلى اغتصاب الدّور المتّصلة بالمدينة، إلّا أنّه لم يلبث طويلا إلى أن أطاح به محمّد المتوكّل الزياني، وقد قام أبو ثابت المتوكّل الزياني 866-877هـ/1461-1472م بعده بأعمال ترميم وتشييده لبعض الأبراج ترقبا للحصار الحفصي من طرف صاحبها عثمان، حيث ابتدأ في شعبان من سنة 870هـ/1465م "صاحب تلمسان في بناء برج عظيم على أحد أبواب تلمسان وأخذ يجتهد في تحصينها، وتفقد أسوارها للأراجيف بتجريدة صاحب تونس إليه"<sup>5</sup>، لكنّ صاحب تونس استطاع محاصرتها لأيّام وخرّب بعض الأجزاء من حصنها، ثم آل الأمر إلى الصّالح بعد أن مات في الحصار جماعة من الطّائفتين وانتهى الحصار بمصاهرة سياسية وقعت بين صاحب تلمسان وتونس<sup>6</sup>.

### • حصن تيمزردكت :

تحضرنا في هذا المقام بعض التّصوص التي نأبى تجاوزها حول هذا الحصن، وأوّل هذه التّقاط تسمية هذا الحصن؛ فبينما تسمّيه بعض المصادر الثّانوية باسم حصن تمزيردكت فإنّه يرد في مصادر أخرى باسم تامزرجت<sup>7</sup> أو

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 232/1.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 235.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 147/7.

<sup>4</sup> لتفصيل أكثر حول عمليّات التّخريب أنظر مبحث الأسوار في هذا الفصل.

<sup>5</sup> عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل في ذيل الدّول، مصدر سابق، 237/6.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 267.

<sup>7</sup> يحيى بن خلدون، مصدر سابق، 241/1.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

تامززدكت<sup>1</sup> أو تامجزرت<sup>2</sup>، وتعني هذه الكلمة "المصفاة"<sup>3</sup>، وقد فصّلت نصوص المصادر الثانوية في وجود حصنين تابعين لبني زيّان يردان بهذا الاسم، أحدهما في الجهة الغربية كان قائما على عهد يغمراسن قبالة وجدة، كان يلتجئ إليه يغمراسن للاحتماء خلال الحملات العسكرية، حيث احتسى به عندما زحف إليه الخليفة الموحد السعيد للانتقام من بني عبد الواد، ولكنّه قتل قبالة هذا الحصن وانتهت جيوشه ومعسكره سنة 646هـ/1248م<sup>4</sup>، والآخر في الجهة الشرقية شيده أبو تاشفين الأول قبالة بجاية على أنقاض المدينة الرومانية توبوسوكتو (tubusuctu)<sup>5</sup> سنة 726هـ/1326م، وتمّ لأربعين يوما وذلك في خضم حركاته العسكرية المكثفة التي شنتها في الجهات الشرقية "وسمّوها تاميزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبلة وجدة"<sup>6</sup>، والرّاجح أنّ تسميته بهذا الاسم كان تيمّنا بالانتصار الذي حقّقه بنو زيّان على الخليفة السعيد الموحد<sup>7</sup> وأملا في تحقيق أبي تاشفين لانتصارات مماثلة في الجهات الشرقية ببجاية من خلال بنائه لهذا الحصن، على غرار تشييده لحصون أخرى سنطرّق إليها في هذا المبحث.

إنّ استحضار النّصوص للدور العسكري الذي لعبه الحصن الغربي في حرب السّلطان يغمراسن ضدّ الخليفة الموحد السعيد وتغطيتها لهذا الخبر، وشحّها في الشقّ الآخر حول تقديم معلومات تتعلّق بخراب هذا الحصن يضعنا أمام صورة معتمة لتقديم تحليل تاريخي يقف على ظروف هذا التّخريب، ومع ذلك فإنّ الدراسات الأركيولوجية قد قامت مقام استحضار هذه النّصوص، ذلك أنّ Voinot رجّح أنّ تكون الآثار التي عثر عليها على بعد 25 كلم جنوب وجدة هي آثار حصن تيمزردكت الغربي<sup>8</sup>، كما أنّ الوزان يصف حالة هذا الحصن من خلال مشاهداته التي قيدها في كتابه وصف إفريقيا خلال القرن 10هـ/16م بقوله "هو قصر واقع في الحدّ بين هذا القفر [أي

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، 229/7.

<sup>2</sup> ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 256.

<sup>3</sup> حسن الوزان، مصدر سابق، 11/2.

<sup>4</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 227/1. ابن خلدون، العبر، 110/7. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 256.

<sup>5</sup> انشئ حصن تيمزردكت (le camp de tamzezdekt) قرب بلدية القصر وهي تقع اليوم على بعد 25 كلم من مدينة بجاية على الطّريق الوطني الرّابط بين هذه المدينة والجزائر العاصمة. بدر الدين شعباني، تمزردكت المدينة الزياتية المحصّنة، أعمال المؤتمر الخامس عشر للإتحاد العام للآثاريين العرب: دراسات في آثار الوطن العربي، مج 1، جامعة محمد الأول، وجدة، 2012، 965-957.

<sup>6</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 144/7.

<sup>7</sup> يعقوب برنشفيك على تسمية هذا الحصن بقوله: "وهو حصن تمزردكت ... ويذكر اسمه عمدا باسم قلعة قديمة من قلاع بني عبد الواد تقع في منطقة وجدة المتاخمة". روبر بارنشفيك، مرجع سابق، 178/1.

<sup>8</sup> L.voilon, oudjda et l'amalat , extrait du bulletin de la société de geographie et d'archéologie de la province d'oran, 1911-1912, imprimerie typographique et lithographique l.fouque, oran, 1912, p256.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

صحراء أنكاد] وبلاد تلمسان، شيّد قديماً على صخرة، وكان ملوك تلمسان يجعلونه في حالة تأهب دفاعي لحراسة أماكن المرور لجنود ملك فاس ... أمّا الآن وقد سقط في أيدي الأعراب فإنّه أصبح شبه إسطل، لا يدخرون فيه سوى قمحهم وبراذع جماهم، وقد هرب السّكان من جرّاء تعسّفاتهم<sup>1</sup>.

في المقابل نجد أنّ حصن تيمزردكت الشّرقي المشيّد من طرف أبي تاشفين الأوّل سنة 726هـ/1326م حضي باهتمام المؤرّخين على عكس سابقه، فقد تمّ تشييده في سياق لم يحد عن وصايا يغمراسن لابنه عثمان بالتّوسع نحو الجهات الحفصية وتجنّب الصّدّامات العسكريّة المباشرة مع الدّولة المرينيّة<sup>2</sup>، ذلك أنّ مشروع التّوسع العسكري في الجهات الحفصية تواصل إلى غاية عهد أبو تاشفين الأوّل، وقد شهدت السّنوات الثمانية الأوّل لحكمه ضغطاً عسكريّاً موجّهاً من قبله نحو الدّولة الحفصية، فكاد أن يعصف بها ويهدّد أهلها بالجماعة ممّا أدّى بعض أهلها إلى الفرار منها<sup>3</sup>، موازاة مع ذلك فإنّ أبا تاشفين استغل الفراغ الذي تركه المرينيّون لانشغالهم بالأندلس من سنة 709-740هـ/1309-1340م بعد سيطرة الاسبان على جبل طارق في إطار حركات الاسترداد ممّا أدى بسليطان غرناطة بالاستنجد بالمرينين<sup>4</sup>، فقام في سنة 719هـ/1319م بحصار بجاية ثمّ تخلّى عنها وأعاد بنو عبد الواد الكثرة سنة 720هـ/1321م، وحاصروا قسنطينة سنة 721هـ/1321م، وهاجموا ضواحي بجاية سنة 722هـ/1323م وتقابلوا مع أبي بكر ومعه بنو اللّيل في معركة سنة 723هـ/1323م انهمز فيها الحفصيون، كما تقابلوا مع الحاجب محمد بن سيد النّاس سنة 724هـ/1324م في معركة أخرى وهزموه، وأخيراً حاصروا قسنطينة سنة 725هـ/1325م، ثمّ تراجعوا عنها<sup>5</sup>، إلى أن تصاعد الصّراع وحميت شوكته فلم "يزل في كلّ سنة يجهّز الجيوش على قوّاده فيدوّخون أرض الموحدين [الحفصيين] ويضيقون ببجاية وقسنطينة وأمر قائده موسى بن علي ببناء

<sup>1</sup> الوزان، مصدر سابق، 12/2.

<sup>2</sup> جاء في هذه الوصية من يغمراسن لابن عثمان: "... يابني إنّ بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم ... فيأتاك واعتماد لقائهم .... وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم". ابن خلدون، المصدر السابق، 123/7.

<sup>3</sup> المقرئ، نفح الطيب، 223/5.

<sup>4</sup> لاستزادة حول دواعي استنجد أهل الأندلس بالسليطان أبي سعيد وظروفه أنظر: التّأصري، الاستقصا، 108/3.

<sup>5</sup> صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص75.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

مدينة على وادي بجاية فاخترت بها مدينة تامزيرديت<sup>1</sup> "وشحنها بالأقوات والعساكر، وصيرها ثغرا ملكه، وأنزل بها جنده، وعقد عليها لموسى بن علي الكردي<sup>2</sup> كبير دولته، ودولة أبيه<sup>3</sup>."

وكان لتضافر هذه الأسباب دور في اتصال أبي يحيى أبي بكر الحفصي بالسلطان المريني أبي سعيد عن طريق مراسلته وعقد مباحرة -سياسية- بين ابنته فاطمة وابن أبي سعيد الأمير أبي الحسن المريني<sup>4</sup> وذلك بغرض وضح حدّ للأعمال العسكرية التي كان يقوم بها السلطان الزيّاني أبو تاشفين<sup>5</sup>، "فاهتزّ لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن وقال لوفد الحفصيين: والله لأبذلنّ في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ولا أسيرنّ بعساكري إلى تلمسان فأنزلها"<sup>6</sup>، وقد جاءت هذه الأخبار في هذه الرسالة التي بعث بها السلطان المريني أبو الحسن (731-749هـ/1332-1348م) إلى سلطان مصر الناصر بن قلاوون (709-741هـ/1310-1341م)<sup>7</sup>، حيث جاء على منطوق لسان السلطان المريني أبي الحسن: "ولمّا سؤل الشيطان لهذا العاق [أبو تاشفين] قتل والده... أقام على بجاية عشرين سنة يشدّ على بجاية الحصار، ويشنّ على أحواز تونس الغار... فأدى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى

<sup>1</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 143.

<sup>2</sup> ورد عند ابن خلدون بهذا الاسم، بينما عند أخيه يحيى يرد باسم "العزّي"، والأصحّ هو ما ألفيناه عند يحيى لأنّ هذه الكنيّة تنسب إلى فئة الأغزاز التي شكّلت أحد الفرق المهمّة في الجيش الزيّاني وهي فئات من القبائل التركية كانت تسكن قبل الإسلام أواسط آسيا من أطراف الصين شرقا إلى البحر الأسود غربا عرفت عند المؤرّخين العرب بام "التركمان" وعند الروم باسم "ouzoï" دخلوا بلاد المغرب في دفعات وفترات زمنيّة مختلفة، وتشير النصوص إلى أنّ الطالعة الأولى منهم ترجع إلى عهد يوسف بن تاشفين الذي استخدمهم في فرقة الرّماة. يحية بن خلدون، بغية الرواد، 240/1. فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزيّاني، مرجع سابق، ص 180-181.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 332/7.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 497/6. الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 153/3.

<sup>5</sup> يقول العمري: فأما السبب الباعث لصاحب إفريقيّة على إرسال بنته إلى هذا السلطان أبي الحسن المريني فهو أنّ سلطان بني عبد الواد صاحب تلمسان كان قد حاصر بجاية، ونزل عليها، ونازلها وضايقها، ولم يطق صاحب إفريقيّة دفعه فأراد تأكيد معاضدة المريني له، فزوجه ابنته". العمري، مصدر سابق، 189/4.

<sup>6</sup> الناصري، المصدر السابق، 117-116/3.

<sup>7</sup> هكذا وردت في صبح الأعشى لكن مرسل الرسالة هو أبو الحسن بن أبي سعيد لأنّه يذكر في ديباجة الرسالة "من عبد الله علي أمير المسلمين... أبي سعيد.... ابن مولانا أبي سعيد". وهو ابن السلطان أبي سعيد بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، واسمه الكامل أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

أعزه الله تعالى أن بعث إلينا وزيره طلب النصرة رسولا<sup>1</sup>، كما أنّ هناك قرائن أخرى تشير إلى اتصال السلطان الحفصي مباشرة بالسلطان الزياني بإرسال سفراء له لطلب المهادنة والكفّ عن بجاية<sup>2</sup>.

لقد أتى هذا الحلف الحفصي المريني أكله بتحطيم هذا الحصن، لكن مقابلة التصوص تضعنا من جديد أمام تضارب يتعلّق بالمتسبّب في تخريب هذا الحصن، فابن خلدون يرى أنّ أبا الحسن انسحب بعد أن هبّ لنجدة أبي بكر بسبب تمرد أخيه أبي علي الذي كان بسجلماسة وتطلّعه للملك مستغلاً الفراغ الذي تركه أبو الحسن بذهابه لنجدة صهره أبي بكر، وبذلك فإنّ أعمال تخريب حصن تيمزرديت نسبت لأبي بكر، ذلك أنّ أبا الحسن "لمّا بلغه هذا الخبر كثر راجعا إلى المغرب لإصلاح شأنه"<sup>3</sup>، وفي هذا الصّدّد يقول ابن خلدون "وكان السلطان أبو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فانتهى إلى بجاية وبعث مقدّماته إلى ثغور بني عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتائبها. ثمّ زحف بجملته إلى تيمزرديت، وفرت عنها الكتائب المجهزة بها، فأناخ عليها حتى خرّبها وانتهب أموالها وأسلحتها، ونسف آثارها وقفل عنها إلى بلد المسيلة أختها في الغي... واصطلم نعمها وخرّب أسوارها"<sup>4</sup>، وفي نسق توافقي يرى التّاصري أنّ أبا الحسن انسحب بسبب تمرد أبي علي بسجلماسة بتواطؤ مع السلطان الزياني أبو تاشفين الذي أغراه بمساعدته في إعداد انقلاب على أبي الحسن المريني لاعتلاء سدّة الحكم مقابل إثارة القلاقل وتشتيت صفوف أخيه المتحالف مع أبي بكر الحفصي ضدّ الجيش الزياني، فلمّا استبدّ أبو علي بسجلماسة "انكفأ السلطان أبو الحسن راجعا إلى تلمسان عازما على الانتقام من أبي تاشفين الزياني... ثمّ بعث بحصّة من جنده في البحر إلى صهره الحفصي مددا له وهو يومئذ ببجاية يقاتل جيش بني زيّان عليها"<sup>5</sup>.

في المقابل فإنّ التّنسي ويحيى بن خلدون وابن مرزوق يخالفان ما جاء به ابن خلدون فينسبان أعمال التّخريب هذه إلى السلطان المريني أبو الحسن، ونلمس ذلك في قول التّنسي: "ومات السلطان أبو سعيد في تلك السنّة، فوئى ابنه السلطان أبو الحسن، فبعث رسلا أيضا متشفّعا للموحدين أصهاره، فردّت رسله أسوأ ردّ فكان ذلك سبب تحرّكه إلى تلمسان... وأرسل إلى صهره يقول شأنك وتاميزديت فجاء في جموع عظيمة، ففرّ الذين

<sup>1</sup> القلقشندي، صبح الأعشى، 91/8-92..

<sup>2</sup> يذكر ابن بطوطة في رحلته عند خروجه من طنجة سنة 725هـ أنّه لما وصل تلمسان وجد رسولي السلطان الحفصي أبي يحيى قاضي الأنكحة بتونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن إبراهيم التّفزوي والشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله القرشي الزبيدي ورافقهما في طريق العودة من تلمسان إلى الجهات الحفصية، ومن الطّبيعي أن يكون غرض هذين الرّسولين في هذه السنّة أين كانت الدولة الحفصية تشهد ضغطا عسكريا منذ سنة 714هـ حتى سنة 732هـ هو عقد مهادنة لكفّ حملات أبي تاشفين على هذه الجهات. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مصدر سابق، ص15.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 498/6.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>5</sup> التّاصري، الاستقصا، 119/3.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

كانوا فيها فاستولى عليها وهدمها"<sup>1</sup>، وكذلك يحيى بن خلدون الذي لم تخالف روايته رواية سابقه حيث قال: "وراسل [أبو الحسن] صهره السلطان أبا يحيى الموحد يقول: شأنك وتامزججت، فجمع المذكور إليها أهل إفريقية فلما قاربها فرّ من كان بها القواد تقيّة ممن وراءهم، فهدمها وقفل السلطان أبو الحسن إلى مغربه، وقد ساء ما بينه وبين أخيه صاحب سجلماسة، فنهض إليه سنة أربع وثلاثين"<sup>2</sup>. وبذلك فإنّ ثورة أبا علي واستبداده بالملك كانت بعد تحطيم حصن تيمزيردكت عند كلّ من التنسي ويحيى بن خلدون ولم يتزامن مع الهجوم على الحصن الزباني<sup>3</sup>، على عكس عبد الرحمان بن خلدون الذي جعل تمرد أبي علي سببا لانسحاب أبي الحسن قبل تخريب هذا الحصن، وبالتالي عدم مشاركته في هدمه مع أبي بكر الحفصي سنة 732هـ/1331م.

أما ابن مرزوق فيعقد مفارقة بين حصن تامزردكت الغربي المشيّد على عهد يغمراسن والشرقي المشيّد على عهد أبي تاشفين الأول<sup>4</sup> وينسب أعمال تخريب الحصن الأخير لأبي الحسن بقوله: "فكان الذي خرج إليه من الحصن الذي تحصّن فيه يغمراسن وهو تامزردكت رجلا أشر... فكان يقول: أصاب بنو عبد الوادي أبا الحسن عليّا فملكوا، وأصابهم أبو الحسن علي أمير المسلمين فهلكوا، فسبحان من جرى حكمه وحكمته في كلّ شيء"<sup>5</sup>.

والواضح أنّ عمليّة نقل الأخبار من دون تمحيص كانت سببا لهذا التضارب ففارق سنة أو سنتين قد حوّر هذه الروايات، ذلك أنّ عدم ضبط تاريخ تخريب هذا الحصن جعل ثلّة من المؤرّخين يلغون مشاركة أبي الحسن في تخريب هذا الحصن بسبب تمرد أخيه بسجلماسة، بينما أشركته مصادر أخرى ونسبت إليه أعمال التّخريب نظرا لنسب أحداث تمرد علي بسجلماسة إلى تاريخ 734هـ/1333م كما ورد عند يحيى بن خلدون، أو سنة 738هـ/1337م كما ورد عند الزركشي، أي؛ قبل واقعة هدم الحصن بفارق معدّله بين سنتين و ستّ سنوات<sup>6</sup>، فأما تاريخ تخريب الحصن فإنّ الزركشي يرى أنّه تمّ في سنة 732هـ/1331م، أما يحيى بن خلدون فيرى أنّ أعمال الهدم كانت في سنة 733هـ/1332م، وأيا ما يكن فإنّ الحلف المريني الزباني وإن لم يقدر له أن يأتي بشماره من القضاء على

<sup>1</sup> التنسي، نظم الدرّ والعقبان، مصدر سابق، ص 145.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 243/1.

<sup>3</sup> نقل التنسي العديد من الأخبار اعتمادا على كتاب يحيى بن خلدون بغية الزاود ومن الطّبيعي أن نجد في العديد من مواضع كتابه توافقا في الطّروحات مع ما ذهب إليه يحيى بن خلدون. للوقوف على الفقرات التي نقلها التنسي حرفيا عن كتاب يحيى بن خلدون أنظر: التنسي، نظم الدرّ والعيان، ص 46.

<sup>4</sup> نجد نفس هذه الرواية عند المقرّي وقد نقلها عن أبي عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق أي عم محمد بن مرزوق مؤلّف كتاب المسند الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. المقرّي، نفع الطيب، 224/5.

<sup>5</sup> ابن مرزوق، المسند، مصدر سابق، ص 463.

<sup>6</sup> ورد عند الزركشي أنّ تاريخ تمرد علي بسجلماسة كان قبل هدم حصن تيمزردكت بأربع سنوات أي في تاريخ 738هـ. الزركشي تاريخ الدّولتين، مصدر سابق، ص 68.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

الزيانيين، إلا أنه مكن السلطان أبا بكر الحفصي والسلطان أبي الحسن المريني من الانتهاء إلى بجاية وهدم حصن تيمزردكت الذي كان شجّا في حلقها بين سنتي 732هـ/1331م و 733هـ/1332م بشكل فضيع<sup>1</sup>، وبغض النظر [عن اختلاف النصوص] عن سبب افتراق الحلف الحفصي المريني بعد تطّلع أبي علي أخ أبي الحسن المريني الذي كان بسجلماسة للحكم بممالة أبي تاشفين الأول، فاستغلّ عليّ خروج أبي الحسن للقاء بني عبد الواد ليثور عليه بسجلماسة، أو بسبب احتلال تونس من جهة الأمير عبد الواحد بن اللحياني، فكان هذا الحدث مؤذنا بعودة أبي الحسن إلى المغرب قبل التقائه بالسلطان أبي بكر<sup>2</sup>.

وفي تصوير لأعمال الهدم التي لحقت بهذا الحصن يقول ابن خلدون: "فخرّ بها [أبو بكر] في ساعة كأن لم تغن في الأمس... ولحقت بها عساكر الموحدّين، فعاتوا فيها تخريبا ونهبا وألصقت جدرانها بالأرض وتنفس مخنق بجاية من الحصار"<sup>3</sup>، ويضيف أخوه يحيى: "فلما قاربها، فرّ من كان بها من القواد تقيّة ممن وراءهم وأسلموها بما فيها، وذلك سنة ثلاثة وثلاثين فهدمها"<sup>4</sup>.

يذهب Jean Pierre Laporte إلى القول أنّ حصن تيمزردكت المشيّد من طرف أبي تاشفين الأول اختفى تماما بعد سقوط بجاية في يد الاسبان 1509-1511م، ممّا يوحي بأنّ أجزاء من الحصن المهدم بقيت صامدة لأزيد من قرن ونصف من الزمن<sup>5</sup>، وكذلك الأمر بالنسبة لحصن تيمزردكت الغربي قبالة وجدة السابق الذكر فإنّه قد واصل أدواره العسكرية إلى غاية 772هـ/1371م، ذلك أنّ يحيى ابن خلدون يذكر هذا الحصن أثناء تطّرقه إلى أخبار خطّ مسير أبي حمّو موسى الثاني وفراره إلى الصّحراء في الموجهات التي جمعته بالسلطان المريني عبد العزيز خلال هذه السنّة، حيث "رحل [أبو حمّو] مغربا فأمسى بماء تاملحت... فتامزردكت، فوادي يسلي، ثمّ أخذ بمخنق وجدة"<sup>6</sup>، ويبقى هذا النّص المؤشّر الوحيد على استمرار دور حصن تامزردكت الغربي العسكري دون أدنى معطى آخر يمكن من خلاله استنتاج خراب هذا الحصن، إذا ما استثنينا عودة أخباره استمرار قيام أطلاله في فترة لاحقة تعود للقرن 10هـ/16م حسبما توضّحه شهادة الوزان السابق ذكرها.

<sup>1</sup> William et Georges Marcia, les monuments arabes de telemcen, op cit, P458.

<sup>2</sup> ابن قنفذ، الفارسية، مصدر سبق، ص 23.

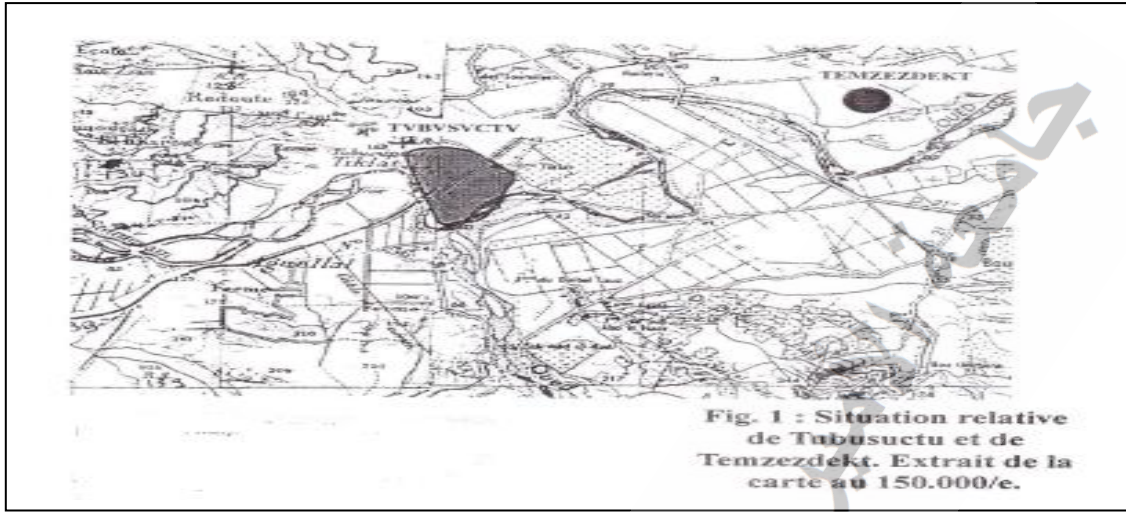
<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، 145/7-146.

<sup>4</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، 243/1.

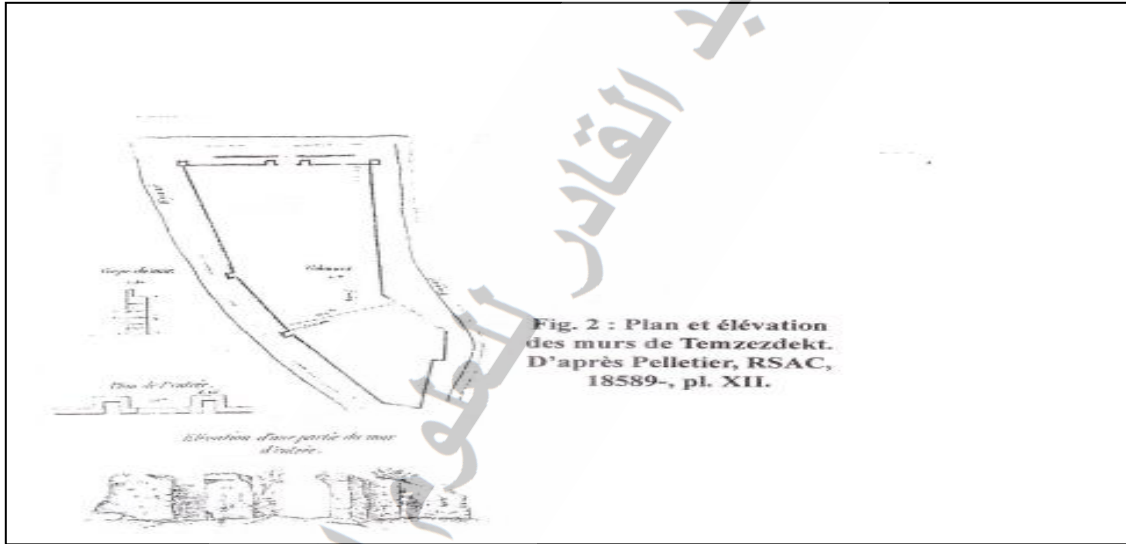
<sup>5</sup> Jean-Pierre Laporte, de l'antiquité au moyen âge: continuités et ruptures dans quelque implantations urbaines (kabylie, tetteri, hodna), athar , revue scientifique d'Archéologie et de Patrimoine, N° 7, université d'Alger 2008, p 50.

<sup>6</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 233/2.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني



رسم تقريبي للموقع الروماني "توبوسوكتو" الذي أقيم على أنقاضه حصن تيمزردكت ببجاية<sup>1</sup>.



مخطط لحصن تيمزردكت العسكري الزباني يظهر شكلها الغير منتظم بعمق 400 متر وعرض 100 متر محاطة بحفير<sup>2</sup>.

• حصن أصفون:

أنشئ هذا الحصن بالقرب من مدينة بجاية، وقد شُيّد في الحقيقة لتحقيق أهداف توسّعية هجومية بغرض تضيق الحصار على بجاية، وقد بني بأمر من السلطان الزباني أبو حمّو موسى الأوّل وشحن بمختلف الأتوات والتّموينات الصّّورية<sup>3</sup>، وتعود ظروف بنائه إلى ملاحقة أبي حمّو للمخالف راشد بن محمد بن ثابت بن منديل الذي فرّ إلى

<sup>1</sup> Jean-Pierre Laporte, op cit, p 67.

<sup>2</sup> Op cit, p 67.

<sup>3</sup> بوزيان الدّراجي، مرجع سابق، ص 260.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

ناحية شلف ثم بجاية<sup>1</sup> فتتبعه أبو حمّو إليها، وقد ساعده في إرساء دعائم مشروع التّوسع في الدّولة الحفصية-على خلفية تتبّعه لراشد بن ثابت- إغراء كاتبه عبد الله بن هلال فكان ذلك سببا لإنشاء أبي حمّو الأوّل لهذا الحصن سنة 714هـ/1314م "فانطلقوا إلى وجههم ذلك، وفعلوا الأفاعيل كلّ فيما يليه وتوغّلوا في البلاد الشّرقية، حتّى انتهوا إلى بلاد بونة، ثمّ انقلبوا من هناك ومروا في طريقهم بقسنطينة ونازلوها أيّاما، وصعدوا جبل ابن ثابت المطلّ عليها فاستباحوه، ثمّ مروا بأورار فاستباحوها وأضرموها، واكتسحوا سائر ما مروا عليه ... ولحق مسعود بن برهوم [أحد قادة أبي حمّو] محاصرا لبجاية وبني حصنا بأصفون لمقامه، وكان يسرّح الجيوش لقتالها فتجول في ساحتها ثمّ تراجع إلى الحصن"<sup>2</sup>.

لكنّ هذا الحصن لم يلبث طويلا إلى أن حُرّب من طرف الحفصيين في نفس سنة تشييده بسبب حدوث الفتنة<sup>3</sup> بين القادة الأربعة<sup>4</sup> الذين أرسلهم أبي حمّو لمراقبة حصار بجاية بعد أن "حدثت المناكرة بينهم حسدا ومنافسة ... فلم يرجعوا إلى حصارها إلّا بعد مدّة"<sup>5</sup>، فأجفلوا عن الحصن وتركوه خاويا بسبب هذه الفتنة والمنافسة التي وقعت بينهم، فلمّا وصل محمد بن يوسف ومسامح وبجّهما [أبو حمّو] وطوفهما ذنب القصور والعجز وعزلهما وبعث السلطان<sup>6</sup> عسكرا في البرّ وأسطولا في البحر بعد رجوعه من قسنطينة سنة أربع عشرة وسبعمئة لهدم حصن بني عبد الواد بأصفون، فخرّب وانتهت أوقاته وعدده"<sup>7</sup>.

### • حصن بكر:

يعود سبب بناء هذا الحصن إلى الفتنة السّابق ذكرها بين القادة الذين أرسلهم أبو حمّو الأوّل لحصار بجاية، فبعد أن حدثت المنافسة بينهم وأسمعهم أبو حمّو الأوّل سوء القول، عزل السلطان الزيّاني محمد بن يوسف عن مليانة، ممّا أدّى بمحمد إلى الانقلاب على أبي حمّو بانضمامه إلى قبائل بني توجين ومغراوة لمخالفة أبي حمّو وإثارة الفوضى والقتال ضدّ بني عبد الواد، فصرف أبو حمّو نظره عن بجاية -مؤقتا- إلى ملاحقة محمد واستطاعت جنود ابنه أبي

<sup>1</sup> ورد عند يحيى بن خلدون "وفّر المذكور إلى زواوة". يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 236/1.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 137/7-138. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 236/1-237.

<sup>3</sup> يقول التنسي عن هذه الفتنة: "وقعت بين الرّؤساء منافسة كادت تثير فتنة". التنسي، نظم الدّر والعقيان، مصدر سابق، ص 137.

<sup>4</sup> هؤلاء القادة هم: محمد ابن عمّه يوسف بن يغمراسن ومسعود بن برهوم ومولاه مسامح وأبو القاسم بن أبي يحيى. ابن خلدون، المصدر السابق، 477/6.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>6</sup> المقصود هنا هي الجيوش الحفصية وليس أبو حمّو، وقد استعان الحفصيون في هذه المرّة بأسطول مملكة أرغون النّصراية وواصل الحلف هجوماتهم على تلمسان إلى غاية سنة 715هـ. روبرار برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، 162/1.

<sup>7</sup> المصدر نفسه، ص 478.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

تاشفين الأول أن تقتله وتقصه بالرّماح وتعلّق جثته على شرفات البلد سنة 719هـ/1319م<sup>1</sup>، ثمّ أنّ حروبه أيضا في الجهات الشّرقية وفتنه المتواصلة مع الحفصيين شغلته عن الاستعاضة عن حصن أصفون المهدم إلى غاية بناء ثالث هذه الحصون وهو حصن بكر بين سنوات 718هـ/1318م و 721هـ/1321م<sup>2</sup>، لنفس الأسباب التّوسعية السابق ذكرها، و قد كان "صاحب تلمسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف واسترجاعه بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدّمناه يسرّب العساكر لحصارها. وابنتي بالوادي على مرحلتين منها قلعة بكر يجهز بها الكتائب لحصارها"<sup>3</sup> "وترك<sup>4</sup> فيه القائد يحيى بن موسى بحصّة وافرة وعاد إلى مولاه بتلمسان".

الملاحظ أنّ حصن بكر لم يجرّب وإمّا ألغى دوره العسكري، فابن خلدون اكتفى بالقول عن عدم فاعليّته دون تخصيص دواعي هذا القصور سوى ما ذكره عن بعد هذا الحصن عن بجاية، ممّا أدى بأبي تاشفين إلى الاستعاضة عنه بتشبيد حصن أكثر فاعليّة وأقرب إلى بجاية وهو حصن تيمزردكت الشّرقية -المذكور سابقا- وهذا ما نلمسه في قوله: "ثمّ عزم على الإقلاع ورأى أنّ حصن بكر غير صالح لتجهيز الكتائب إليها لبعده، وارتاد للبناء عليها ما هو أقرب منه، فاخترت بمكان سوق الخميس بوادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب ... فتمّت لأربعين يوما وسمّوها تامزيردكت"<sup>5</sup>. لكن تجاهل حصن بكر لا يعني تخريبه بالضرورة وهو ما يطرح التساؤل عن هذا الحصن واستمرار دوره العسكري؟

إنّ المعلومات التي يمكن استقاؤها حول هذا الحصن لا تزيد عن التّطرق لأخباره في المصادر عرضا في خضم عرض وسرد أخبار الفتنة التي وقعت بين قادة أبي حمّو وعزل قائده محمد بن يوسف عن مليانة، أو التّطرق إليه على خلفيّة إبراز دور حصن تيمزردكت الذي أخذ مكانه ولعب أدوار عسكريّة هامة -تفوقه- في الحملة التّوسعية في الجهات الحفصية على عهد أبو تاشفين الأول سنة 726هـ/1325م، وأمام عدم توافر قرائن مصدرية ودراسات أثرية حول هذا الحصن يجعلنا من باب التّخمين نذهب إلى أنّ إتلاف هذا الحصن تزامن مع سيطرة أبي الحسن على

<sup>1</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 143/7.

<sup>2</sup> ورد عند يحيى بن خلدون أنّ الحصن بني في عهد ابن السلطان الزّيّاني أبو تاشفين الأول سنة 721هـ خلافا لما ورد عند ابن خلدون الذي يرى أنّه شُيد قبل ثلاث سنوات من هذا التاريخ أي في سنة 718هـ على عهد أبيه أبو حمّو الأول، والرّاجح عندنا أنّ ما ذهب إليه يحيى بن خلدون هو الأصحّ لأنّ الحفصيين كانوا ليهدموا هذا الحصن مستغلّين فرصة وثب أبي تاشفين على أبيه أبي حمّو والمؤامرة التي كانت تحاك ضده موازة مع انشغال أبي حمّو بملاحقة محمد بن يوسف المتحالف مع مغراوة وتوجين وانشغاله عن الجهات الشّرقية مستغلّين هذا الظّرف المواتي لتفيس مخنق الحصار المتكررة عليهم. يحيى بن خلدون، بغية الزّواد، مصدر سابق، 239/1-240. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 484/7.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>4</sup> لم ينسب يحيى بن خلدون بناء حصن بكر لأبي تاشفين مباشرة وإمّا القائم بتشبيده هو قائد أبي حمّو الأول وقائد ابنه أبو تاشفين من بعده موسى بن علي الغزّي. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، نفس الصّفحة.

<sup>5</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 144/7.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

ثورة أخيه، وإتمام المساعدات التي طلبها منه أهل الأندلس حيث تفرّغ بعد ذلك لنجدة أصهاره الحفصيين وهدم حصن تيمزردكت وحصن بكر سنة 732هـ/1331م، وهذا ما نتحسّسه -ضمنيا- في وصف الناصري لمرحلة تفرّغ أبي الحسن بعد قضائه لهذه المشاغل، حيث جاء عنده: "لما استقام ملك المغرب للسلطان أبي الحسن بمقتل أخيه أبي علي صاحب سجلماسة ونصر الله جنده على الطاغية بالأندلس تفرّغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضيق أصهاره من بني أبي حفص في أرضهم ونازعهم في ملكهم"<sup>1</sup>.

• حصن الياقوتة:

أمر ببناء هذا الحصن كذلك أبو تاشفين الأوّل وهو آخر الحصون التي شيّدها خلال حملاته على بجاية: "ففي فترة من أخرج الفترات بالنسبة إلى المدينة الحفصية شيّد أبو تاشفين أمامها حصنا جديدا في الياقوتة، وذلك سنة 729هـ/1329م بالضبط في مصبّ نهر الزّمام، ولكنه لم يتمكن أبدا من الاستيلاء على ذلك الثغر المرغوب فيه"<sup>2</sup>، وذلك بعد أن ولّى السلطان الزياني أحد مشيخة بني عبد الواد وسمه عيسى بن مزروع"<sup>3</sup>، فأوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية من تاميزردكت فبناه بالياقوتة من أعلى واد قبالة بجاية. فأخذ بمخنقتها واشتدّ الحصار إلى أن أخذ السلطان أبو الحسن بحجزهم"<sup>4</sup>، وكسابقه فإننا لم نجد نصّا يؤرّخ لظروف أو تاريخ هدم هذا الحصن، سوى الإشارة المقتضبة -الضمنية- في قول ابن خلدون السابق التي تشير إلى أنّ أبا الحسن المريني هدم هذا الحصن خلال سنوات 732هـ/1332م و 737هـ/1337م، أي بعد تحالفه مع أبي بكر الحفصي وهدم حصن تيمزردكت سنة 732هـ/1332م وسيطرته على تلمسان سنة 737هـ/1337م.

### ب- المنصورة المرينية:

• التّخريب الأوّل للمنصورة<sup>5</sup> عقب الحصار الطويل (698هـ-706هـ/1298-1306م):

يمثّل الحصار الطويل الذي شنه أبو يعقوب يوسف في حملته الخامسة على تلمسان في الثاني من شعبان 698هـ/1298م حلقة هامة من حلقات التاريخ العسكري الزياني<sup>6</sup>، فقد استطاع أن ينصبّ بها معسكره في موقع

<sup>1</sup> الناصري، الاستقصا، 124/3.

<sup>2</sup> روبر بارنشفيك، مرجع سابق، 179/1.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 242/1.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 145/7.

<sup>5</sup> شيّدت مدينة المنصورة على بعد 4 كلم غرب تلمسان الزيانية على يد السلطان أبي يعقوب يوسف ما بين 798هـ/1298م و 702هـ/1302م خلال الحصار الطويل الذي ضربه على تلمسان. حمّو بن روستان، مصدر سابق، ص 71. ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ص 63.

<sup>6</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 294-299.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

يحدّده<sup>1</sup> يحيى بن خلدون بـ "مجشّر ابن الصقييل"<sup>2</sup>، وشرع<sup>3</sup> في حصار تلمسان فأحاطها بسياج من الأسوار وفتح فيها أبواب ومدخل مردفاً ذلك بنطاق من الحفير العميق<sup>4</sup> تحسباً لأيّ هجوم خاطف من طرف الجيش الزباني قد يعطلّ عملية التشييد، وقد اختلف المؤرّخون في تسميته فابن أبي زرع وابن الأحمر والتنسي يسمّونه بـ "تلمسان الجديدة"<sup>5</sup>، كما أنّ أحد الرّسائل التي أرسلها السلطان المريني إلى ملك أرغون في شهر آخر ذي القعدة من سنة 703هـ/1303م لاقتراح تعاون عسكري بين الطرفين لإقامة حصار مشترك على صاحب سبته تظهر أنّ المنصورة في هذه المرحلة كانت بهذا الاسم، وقد جاء في هذه الرّسالة "... من عبد الله يوسف أمير المسلمين ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ... فإنّا كتبناه إليكم بما يصلح الأحوال ويبلغ الآمال من حضرتنا السعيدة بتلمسان الجديدة كلّها الله"<sup>6</sup>، أما يحيى بن خلدون وأخوه عبد الرحمان والسلاوي فإنّهم يسمّونها بـ "المنصورة"<sup>7</sup>، وقد ظلّت التسمية الأخيرة متداولة في العقود اللاحقة بعد سقوط الدولة الزبانية<sup>8</sup> إلى غاية يومنا هذا، ويبدو أنّ إطلاق هذا الاسم -حسبما تظهره إحدى الدّراسات- على المعسكر المريني كان تيمّناً بالنصر الذي كان يأمل بني مرين تحقيقه خلال حصارهم الطويل على تلمسان خلال هذه الفترة<sup>9</sup>، وقد لا يختلف ذلك كثيراً مع الاسم الثّاني الذي أطلق عليه، فتسمية "تلمسان الجديدة" أو "البلد الجديد"<sup>10</sup> أو "تلمسان الجديدة" تحمل إشارات ضمنيّة

1

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، 231/1.

<sup>3</sup> يبدو أنّ بناء المنصورة لم يتمّ دفعة واحدة وإمّا كان على مراحل فقد زوّج أبو يعقوب يوسف بين الحرب والتشييد مستغلاً انشغال بني زيان بالاحتفاء وراء أسوارهم إلى أن اختطّ مدينته المنصورة على حدّ تعبير ابن خلدون الذي يقول: "ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه وشيّد قبالة كلّ برج من أبراج البلد برجاً على ساقه خندقه ينضح رماته بالنّبل رماتهم ويشغلونهم بأنفسهم حتّى شيّد برجاً آخر أقرب منه ... ولم يزل يتقرّب بوضع الأبراج من حدّ إلى ما بعده، حتّى اختطّها من قرب على ساقه خندقهم"، ومما يبدو أنّ أبا الحسن المريني قد اتّبع نفس التهج والأسلوب فهو يذكر الطّريقة ذاتها بكلّ دقائقها وتفصيلاتها في حصار تلمسان سنة 735هـ. القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، 8/8. ابن خلدون، العبر، 340/7.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، 127/7. التنسي، نظم الدر والعقبان، مصدر سابق، ص 130. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 387.

<sup>5</sup> ابن الأحمر، روضة التّسرين في دولة بني مرين، مصدر سابق، ص 50. ابن أبي زرع، المصدر السابق، نفس الصّفحة. التنسي، المصدر السابق، نفس الصّفحة.

<sup>6</sup> انظر الوثيقة رقم 78 في الملحق رقم 07 ص 279.

<sup>7</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، نفس الصّفحة، ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 127/7-128. التّاصري، الاستقصا، 80/3.

<sup>8</sup> يذكره ابن مرين في القرن 10هـ/16م باسم "المنصورة". ابن مرين، البستان، مصدر سابق، ص 108.

<sup>9</sup> عبد العزيز لعرج، المنصورة، مرجع سابق، ص 60.

<sup>10</sup> وردت بهذا الاسم أيضاً عند ابن خلدون. ابن خلدون، المصدر السابق، 310/7.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

على إلغاء دور تلمسان القديمة -عاصمة الدولة الزّيانية- وهو المقصد الذي استطاعت الجهود المرينية بلوغه، فبعد أن تمّ بناؤه<sup>1</sup> تمكّن السّلطان المريني من تقويض نشاط ومكانة تلمسان السّياسية والاقتصادية بفضل البلد الجديد، فقد "استفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها، واتسعت خطة مدينة المنصور المشيدة عليها، فنفتت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق"<sup>2</sup>، ومن الطّبيعي أن يتراجع دور تلمسان العسكري والاقتصادي أما تشييد هذا البلد الجديد فأبواب تلمسان ظلّت مغلقة والأسوار محاطة بها فلا داخل إليها ولا خارج منها في غالب الأحيان، والسّلطان المريني "في كلّ ذلك يشدّد عليهم الحصر ويقول: لأواصلنّه عليهم حتّى أقتلهم جوعاً"<sup>3</sup>، بل أنّه "جعل سرادق الأسوار المحيطة ملاكاً لأمره في ذلك، فلا يخلص إليهم الطّيف ولا يكاد يصل إليهم العيث مدّة مقامه عليها"<sup>4</sup>.

على الرّغم من أنّ سبب إنشاء المنصورة ومبادئه كان لأغراض عسكرية واقتصادية<sup>5</sup> إلّا أنّها لم تكن حصناً أو قلعة بذاتها يجتمع فيها المقاتلين والجند، وإمّا كانت مدينة مدينة تحتضن مختلف الفئات حسب ابن خلدون الذي يقول: "واختطّ بمكان فسطاط المعسكر قصرًا لسكناه، واتخذ به مسجداً لمصلاه وأدار عليها السور، وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين وأجروا المياه. ثم أمر بإدارة السور سياجا على ذلك سنة اثنتين وسبعمائة، وصيرها مصراً، فكانت من أعظم الأمصار والمدن وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق، واحتفال بناء وتشيد منعة. وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان، وابتنى مسجداً جامعاً، وشيّد له مئذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها، وسماها المنصورة، واستبحر عمرانها"<sup>6</sup>، والملاحظ أنّ التّقيب عن إشارات تخصّ إعمار المنصورة بعد انسحاب الطّرف المريني منها في الحصار الأوّل، تقودنا إلى قرينة هامة يقدّمها ابن خلدون الذي يقطع دابر الشك في أنّ المنصورة كانت مدينة أهلة بالسكان عندما انسحب المرينيون منها بعد إبرام اتّفاقيّة الصّلح عقب الحصار الطّويل بين سلطنتهم الجديد أبي ثابت والسّلطان الزّيّاني أبو حمّو الأوّل، حيث ذكر أنّ أبا ثابت قام بالإشراف على إفراغ المنصورة من سكّانها والعودة بهم إلى فاس

<sup>1</sup> اختلف المؤرّخون في بداية مشروع تأسيس المنصورة فابن أبي زرع يسنّب ذلك لحوادث سنة 698هـ ويتفقّ معه كلّ من عبد الرحمان بن خلدون وأخوه يحيى وابن الأحمر غير أنّ السّلاوي يذكر أنّ بداية تأسيسه كان سنة 702هـ، وربما يكون تاريخ 702هـ الذي أورده التّاصري القصد من هو الفراغ من الجزء الأكبر من بناء المنصورة وتمام إحاطة السور بها وبذلك تتوافق المعطيات بين جميع هذه النّصوص.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 128/7-293.

<sup>3</sup> ابن الأحمر، المصدر السابق، نفس الصّفحة.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 292/7.

<sup>5</sup> Charles-Emmanuel dufourcq, opcit, p 351.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 293.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

بعد عقد الصلح<sup>1</sup> "لما كانت المدينة حينئذ عامرة بالسكان مستبحرة في الاعتمار ممتلئة من الخزائن والآلة"<sup>2</sup>، ويعزّز ذلك ما أورده ابن مريم في ترجمته للوليّ الحسن بن مخلوف المعروف بأبركان حول شهادة والده هذا الولي على ترحيل من كان بالمنصورة بعد الحصار المريني الأول، فقد كانت هذه المرأة المصمودية "قد أقبلت على هذا البلد مع السلطان أبي الحسن المريني، وسكنت معه البلدة التي أنشأها في حصره لتلمسان وهي المسماة بالمنصورة بعد خرابها، فأخرجها منها زوجها ليرجها بذلك الخروج، قال الشيخ [أبركان] فإذا اجتزت مع أمي بالمنصورة أشارت إلى موضع منها وقالت لي: هناك دار سكننا حين كانت هذه البلدة عامرة"<sup>3</sup>.

لم تسلم المنصورة كسابقتها من الحصون الزياتية من أعمال الهدم والتخريب بعد تمام الحصار، فبالرغم من إبرام الطرفين الزياتي والمريني لمعاهدة صلح تقضي بعدم المساس بالمنشآت المرينية، بعد أن صرف أبو ثابت المريني للسلطان الزياتي "جميع البلاد التي كان أخذها جدّهم [يوسف] لهم، حاشا تلمسان الجديدة التي اختطها أمير المسلمين يوسف في أيام الحصار، فإنه اشترط عليه أن لا يدخلها وأن يبقيا على حالها وأن تعاهد مساجدها وقصورها بالإصلاح وما تحتاج إليه"<sup>4</sup>، إلا أنّ سلطان بني زيّان أبو حمّو الأوّل لم يتقيد بشروط هذا الصلح بعد مغادرة السلطان المريني، لأنّ بقاء المنصورة خطأ استراتيجي قد يشكّل خطرا حقيقيا على تلمسان، فكان طمس معالم المنصورة أول الأعمال التي قام بها السلطان الزياتي لتفادي إطباق حصار مريني جديد على عاصمته بذات الحصن<sup>5</sup>، فكان "أول ما بدأ به الملك أبو حمّو، هدم مدينة يوسف بن يعقوب، وإصلاح ما تثلم من تلمسان، وبنى الأسوار والستائر وحفر الخنادق"<sup>6</sup>، ويصف ابن خلدون هذه الأعمال التخريبية بقوله: "خرّبها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين إلى المغرب، وتحيّنوا لذلك فترات الفتن، فطمسوا معالمها طمسا ونسفوها نسفا"<sup>7</sup>، وفي موضع آخر: "وخرّبها آل يغمراسن عند مهلكه، وارتحال كتابه عنها، بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك، وأذنوا بالانقراض"<sup>8</sup>، ويصفها في مرحلة لاحقة عند ترميم أبي الحسن لها عند وقوع تلمسان في يده مرّة أخرى بـ: "البلد المخروب"<sup>9</sup>، ويبدو أنّ هذه القرائن التي قدّمها ابن خلدون لا غبار عليها، ذلك أنّ السلطان المريني أبا سعيد عسكري

<sup>1</sup> عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 235.

<sup>2</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 310.

<sup>3</sup> ابن مريم، البستان، ص 109.

<sup>4</sup> ابن أبي زرع، الأئيس المطرب، مصدر سابق، ص 290.

<sup>5</sup> وليام وجورج مارسلي، مرجع سابق، ص 255.

<sup>6</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 135.

<sup>7</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 310/7.

<sup>8</sup> المصدر نفسه، ص 293.

<sup>9</sup> المصدر نفسه، ص 340.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

بالملاعب<sup>1</sup> الواقع بين المنصورة وبين تلمسان عند هجومه على تلمسان سنة 714هـ/1314م<sup>2</sup> وهذا دليل على تخريبها قبل هذه السنة ودليل على عدم جاهزيتها لتكون منطقة لنزول الجيش المريني .

### ● تخريب المنصورة الثاني المرتمة على عهد أبي الحسن المريني سنة 745هـ/1344م:

تعود ظروف إقامة المنصورة للمرّة الثانية على يد أبي الحسن المريني سنة 745هـ/1344م إلى الضّغط العسكري الكبير الذي قام به سلطان بني زيّان أبو تاشفين الأوّل في الجهات الحفصية ببجاية بين سنوات 719هـ و 726هـ/1319-1325م وإنشائه لسلسلة الحصون بهذه الجهات، ممّا أدى بأبي يحيى الحفصي إلى طلب المساعدة من السلطان المريني السعيد مخبراً إيّاه أنّ أبا تاشفين الزياني "أقام على بجاية عشرين سنة يشدّ على بجاية الحصار، ويشنّ على أحواز تونس الغار... فأدّى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى أعزّه الله تعالى أن بعث إلينا وزيره طلب التّصرة رسولاً"<sup>3</sup>، وقد أثمر الجهد الذي قام به أبو تاشفين الأوّل في الأخير بدخوله لتونس بعد فرار أبي يحيى منها إليها بونة تاركا إيّاها طعمة للجيش الزيانية، فعين عليها السلطان الزيّان محمد بن أبي عمران بن أبي حفص لمُدّة أربعين يوماً وقلل راجعاً إلى بلاده، "فدخلها محمد بن أبي عمران وسمّوه بالسلطان ومقاداته في يد يحيى بن موسى [الغزي]"<sup>4</sup>. وقد شكّل هذا الطّرف خطراً حقيقياً على كلّ من الدّولة الحفصية شرقاً والمرينية غرباً، وكان ذلك سبباً لعقد حلف بين الطّرف الحفصي والمريني لوضع حدّ لحركات أبي تاشفين التّوسعية شرقاً، فأسفر ذلك عن شن حملات من طرفهما على السلطان الزيّاني وتخريب جميع حصونه التي شيّدها لحصار بجاية وقد كلّلت هذه الانتصارات المرينية الحفصية بمعاودة حصار تلمسان مرّة أخرى لمُدّة عامين من 11 شوال 735هـ-737هـ/1335-1337م ثمّ دخولها مجدداً تحت لواء الدّولة المرينية بين سنوات 737هـ-749هـ/1337-1349م<sup>5</sup> أين تمّ ترميم المنصورة مجدداً في هذه الفترة سنة 745هـ/1345م.

يعود تاريخ الفراغ من إنشاء المنصورة للمرّة الثانية إلى سنة 745هـ/1345م على يد أبي الحسن، وقد تمّ ضبط هذا التاريخ بناءً على الدّراسات الأركيولوجية، حيث تمّ العثور على عمود أثري وجد على بعد عمق مترين في الأرض من طرف أحد المستعمرين الفرنسيين-في إطار تأسيس الفرنسيين لقرية لهم بالمنصورة سنة 1849م- صدفة بعد أن أراد حفر أساسات للقيام بمنشأة على أنقاض المنصورة، فكانت الصدفة أن عثر على هذا العمود وقد نُقش عليه

<sup>1</sup> ملعب الخيل: يوجد بالجهة الجنوبية ما بين برج كيس خارج باب الجياد، مروراً أمام قلعة ابن الجاهل إلى مقربة من مصلى المدينة وهو مكان الفرجة والاستعراضات العامة والخاصة لألعاب الفروسية التي كانت تقام على مرأى من السلطان الزيّاني. سيدي أحمد نقادي، مرجع سابق، ص 185.

<sup>2</sup> ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 399.

<sup>3</sup> القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، 8/91-92..

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/333. يحيى بن خلدون، بغية الرّواد، مصدر سابق، 1/242.

<sup>5</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 146.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

"الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذه الدار السعيدة، دار الفتح، عبد الله علي أمير المسلمين ابن مولانا أمير المسلمين أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق فكمّلت سنة خمس وأربعين وسبع مائة عرفنا الله خيرها"<sup>1</sup>، فأقيم على إثر هذا الاكتشاف الهام تنظيم حفرية بالمنطقة، وأكّدت مكتشفات الحفرية من بقايا قواعد الأعمدة الرخامية المجرعة وتبليطات الأرضية والكمية الهائلة من الفسيفساء الخزفية التي ما يزال بعضها محفوظا إلى اليوم في متحف تلمسان أنّ الموقع ذاته يعود إلى منصوره أبي يعقوب يوسف ومنصوره أبي الحسن المريني<sup>2</sup>.

ويبدو أنّ أبا الحسن قد قام بإعادة إعمار المنصورة الجديدة على أنقاض المدينة القديمة، وهذا ما نستشفّه من وصف ابن خلدون لبنائها سنة 745هـ/1345م إذ يقول: "واختطّ السلطان [أبو الحسن] بغربي تلمسان البلد الجديد لسكانه، ونزل عساكره وسماه المنصورة، وأدار على البلد المخروب سياجا من لسور ونطاقا من الخندق"<sup>3</sup> ويقصد بالبلد المخروب المنصورة المخربة على عهد أبو حمّو الأوّل بعد حصار تلمسان الطويل سنة 706هـ/1306م، والملاحظ أنّ ابن مرزوق صاحب المسند كان قد كلّف بترميم جامع المنصورة حيث حفظ لنا في المسند قرينة هامة دالة على ذلك، ويظهر ذلك في قوله: "... بعد أيّام جائي أحد شاهدي البناء بالجامع الأعظم من المنصورة ... فردّهما إليّ لأنّ مولانا [أبا الحسن] كلّفني بتعاهد الجامع المذكور واعلامه بالمزيد فيه"<sup>4</sup>، وكذلك قوله: "وأما الثريا فكان عملها على يدي وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها بخطي"<sup>5</sup>، فكانت من بين العمائر التي شيدها أبو الحسن في المغرب الأوسط، وفي هذا الصدد يقدّم لنا ابن مرزوق المعاصر لإعادة إعمار المنصورة شهادة عيانة بقوله: "... كثرت في دولته العمارات وامتدّت الآمال ... وبني رضي الله عنه بلدين مستقلين أنشأ جميعهما بما اشتملتا عليه من جوامع وحمامات وفنادق وهما المنصورة بسبته ومنصورة تلمسان التي لم ير الرّاؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها... فما أظنّ المعمور اشتمل على مثلها فلحا الله من خزّهما ولقد حضرت ما أحكيه ممّا يدلّ على اقتداره رضي الله عنه على ذلك وضخامة ملكه وشموخ همته"<sup>6</sup>.

وكسابقتها فإنّ المنصورة المشيّد على عهد أبي الحسن المريني تعرّضت للتّخريب من طرف بني عبد الواد، وإن كُنّا نجعل ظروف وتاريخ تخريبها إلّا أنّ تتبّع النّصوص يقودنا إلى أنّ عمليّة التّخريب وقعت قبل سنة 772هـ/1371م، وهو التّاريخ الذي يصادف انتهاء ابن مرزوق من تأليف كتابه المسند، حيث يقدّم في كتابه

<sup>1</sup> حمّو بن روستان، تحفة الاعتبار فيما وجد من الآثار بمدينة الجدار، تحقيق علاوة عمارة وفارس كعوان، دار الهدى، الجزائر، 2021، ص 67. عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 99.

<sup>2</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 109. ويليام وجورج مارسى، مرجع سابق، ص 272.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 340/7.

<sup>4</sup> ابن مرزوق، المسند، مصدر سابق، ص 492.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 402.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 447-448.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

وصفا لخراب المنصورة في كتابه، أي أنّ ابن مرزوق قيّد ملاحظاته في مسنده في سياق زمني كانت فيه المنصورة محترّبة، وبالتالي فإنّ عمليّة الهدم كانت بين سنوات 749هـ/1349م -تزامنا مع خروج أبي الحسن لتوحيد شمال إفريقيا تحت راية المرينيين وترك عامله على تلمسان- وتاريخ وصف الخراب في كتاب ابن مرزوق الذي انتهى من تأليف كتابه سنة 772هـ/1371م، ويصف صاحب المسند بكلّ حسرة خراب جامع المنصورة فيقول: "الله حسيب من تسبّب في خراب ذلك كلّه، وهو مجازيه، فلقد محّا رسوما يفخر بها أهل الإسلام، ويعتزّ بها الدّين ما بقيت الأيّام"<sup>1</sup>، ويضيف في موضع آخر: "وأما ما أنشأه [أبو الحسن] بمدينة تلمسان، فمما يرجى من الله إعادة رسمه وجديد آثاره، فكان مما لم يعهد منه في سالف الأزمان ولا سبق شكله في قواعد البلدان"<sup>2</sup>.

في طرح توافقي لتخريب منصورة أبي الحسن يضيف لنا التنسي شهادة أخرى بعد 123 سنة<sup>3</sup> من تاريخ بنائها حيث يصفها بـ "المحرث"، وفي هذا الصّد يقول: "وثار على السلطان أبي الحسن أخوه بسجلماسة، فرجع إليه حتّى قتله، وتمهد له المغرب، فعاد إلى تلمسان وحاصرها، وبنى عليها مدينته التي هي اليوم محرث"<sup>4</sup>، ويثبت لنا هذا النّص أنّ المنصورة الثّانية التي أعاد أبو الحسن إعمارها وترميمها كانت على عهد التنسي التي انتهت أخبار كتابه في سنة 868هـ/1464م محرثا، وتتوافق هذه المعطيات مع ما يقدّمه الملاي في وصف مناقب السنوسي المتوفي سنة 895هـ/1490م في وصفه لمظهر من مظاهر الاغتراب التي كانت ديدنا للأولياء والصّوفية في المغرب الأوسط، حيث كان كثيرا "ما يخرج إلى الخلوات والمواضع التي كانت عامرة ثمّ خربت وبقيت آثارها وخصوصا المنصورة، ويعجبه الخروج إليها كثيرا، فتجده ... إذا خرج إليها يكثر من النّظر في تلك الحيطان، ويعتبر في تلك الآثار والبنيان، وما فيه من عظيم الإتقان، ويسوق الحديث ... ويقول: أين سكان هذه المدينة وكيف كانوا فيها ينعمون ويأكلون ويشربون وينكحون ويتصرفون"<sup>5</sup>.

كما أنّ ابن مريم تطرّق حين تعرّضه لأخبار الوليّ الحسن بن مخلوف بن مسعود الشّهير بأبركان إلى خراب المنصورة وإلى التّدهور العمراني الذي لحق بها بعد نكوصها، ويظهر لنا ذلك في حديث ساقه عن أمّ الشّيخ ذلك أنّ "أمّ الشّيخ امرأة مصموديّة قد أقبلت على هذا البلد مع السلطان أبي المريني، وسكنت معه البلدة التي أنشأها في حصره لتلمسان وهي المسماة بالمنصورة بعد خرابها ... قال الشّيخ: فإذا اجتزت مع أمّي بالمنصورة أشارت

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 403.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 402.

<sup>3</sup> يذهب محقّق كتاب نظم الدرّ والعقيان إلى أنّ الفارق بين تشييد منصورة أبي الحسن وانتهاء أخبار كتاب التنسي هو 130 سنة، لكن إذا علمنا أنّ إنشاءها للمرّة الثّانية بناء على الدّلائل المادّيّة الأثريّة كان سنة 745هـ، وأنّ التنسي ختم أخبار كتابه في سنة 868هـ فإنّ الفارق هو 123 سنة.

<sup>4</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 146.

<sup>5</sup> محمد بن عمر الملاي، المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، مصدر سابق، ص 326.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

لي إلى موضع منها وقالت لي: هناك دار سكنانا حين كانت هذه البلدة عامرة<sup>1</sup>، وهي إشارة على الفراغ العمراني الذي لحق بالبلد في عصره، بالإضافة إلى ذلك فإنّ محقق كتاب جذوة الاقتباس قد رسم بكلّ حسرة خراب المنصورة التي خرّبا "سلاطين بنو زيان العبد الواديون الزبانيون تشفياً وانتقاماً، ففقدت الحضارة المغربية بخرابها درّة من عقدها وجوهرة من تاجها"<sup>2</sup>.

بناءً على ما تمّ عرضه من شواهد لتخريب المنصورة نرجّح أنّ تاريخ تخريبها قد يكون قبل ذلك بكثير عند تزامنا مع ثورة أعراب أهل إفريقيّة واستيلاء الأميرين أبو ثابت وأبو سعيد الزبانيين على ملك تلمسان بين 749هـ و 753هـ/1252-1349م فقد عاود السلطان أبو عنان المريني دخول تلمسان واستطاع السيطرة عليها بين سنوات 754هـ/1253م و 760هـ/1359م لكنّه لم ينزل بالمنصورة<sup>3</sup>، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن سبب امتناعه عن النزول بمدينته المحصنة المعدّة سلفاً لتقويض النشاط العسكري الزباني. نظنّ أنّ التفسير الوحيد لعدم نزوله بها يدعم الطرح القاضي بخرابها قبل غزوه لتلمسان، وبهذا فإنّ النتيجة التي خلص إليها عبد العزيز لعرج والقاضية بتخريبها سنة 756هـ/1355م تبدو متأخّرة بسنتين عن التخريب الفعلي للمدينة<sup>4</sup>.

### المطلب الثاني: العمارة المدنيّة

ألجأت الطبيعة الإنسان منذ القدم إلى نهب العديد من السبل واتّخاذ مجموعة من الطرائق للتكيف معها، فقد اتّخذ "الغذاء ليحمله خلفاً لما يتحلّل من بدنه بالحركة والرياضة، واللباس ليدفع عن نفسه ألم الحرّ والبرد والرياح، والمسكن ليصون نفسه ويجرسها من تطرّق الآفات"<sup>5</sup>، ولما كانت صناعة البناء من بين أهمّ هذه المقومات والسبل لتذليل المصاعب التي تواجهها، فإنّ ابن خلدون قد أشاد بالدور الحضاري لتشييد البيوت وبنائها في قوله: "هذه أوّل صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتّخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى، وذلك أنّ الإنسان بما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بدّ له أن يفكر في موانع إذابة الحرّ والبرد عنه باتّخاذ البيوت ذو الحيطان والسقف الحائلة دون ذلك من جهاته"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 109.

<sup>2</sup> ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ص 63.

<sup>3</sup> محمد بن رمضان شاوش، باقة السنوسان، مرجع سابق، 223/1.

<sup>4</sup> عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 6.

<sup>5</sup> شهاب الدّين أحمد بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير المالك، تح: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996، ص 93.

<sup>6</sup> ابن خلدون، المقدّمة، مصدر سابق، 294/2.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

إنّ مفهوم المدينة لا يتحدّد إلاّ بوجود ضوابط وشروط، تتلخّص هذه المحدّدات في جلب المنافع ودفع المضار<sup>1</sup>، وعلى هذا الأساس نظّر مفكّرو الحضارة الإسلامية لشروط اختيار موقع المدينة معايير تتجلّى في؛ الحصانة الطبيعية، والمناخ الملائم، ووفرة التموين الغذائي<sup>2</sup>، "فأما الحماية من المضار، فيُراعى لها أن يُدار على منازلها معا سيح الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في متمتع من الأمكنة إمّا على هضبة متوعّرة من الجبل وإمّا باستدارة بحر أو نهر بها حتّى لا يوصل إليها إلاّ بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدوّ ويتضاعف امتناعها وحصنها. ومّا يراعى في ذلك للحماية من الآفات السّماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإنّ الهواء إذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو منافع متعفّنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد. والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب"<sup>3</sup>.

وداخل هذا الإطار العام لتخطيط المدن تلعب المنازل والوحدات السكنية الدور البالغ في رسم وتشكيل معالمها بمعيّة النواة الأخرى المشكّلة لها، ولما كانت الحرب خلال العهد الزياتي -وخلال الفترات التي سبقته- آلة لتخريب المدن فإنّ مآل هذه البيوت والمنازل لم يختلف عن الوحدات العمرانية السابق ذكرها، فقد كان مصير دور العاعة وقصور الخاصة يؤوّل في العادة إلى الخراب والتدمير من طرف العدوّ، ذلك أنّ الدولة إذا توالّت عليها الحروب كان أمدّها قصيرا و"وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخرّبت، وإن كان أمد الدولة طويلا، فلا تزال فيها المصانع تشيّد والمنازل الرّحبية تكثر وتتعدّد"<sup>4</sup>، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الدّارس لهذا العهد حسبما تصوّره أحد الدّراسات<sup>5</sup> سرعان ما يتبادر إلى ذهنه صورة العصر الجاهلي الذي غلبت عليه روح الغنيمة وحب

<sup>1</sup> من زاوية معاكسة يقرئنا المازوني في نوازل الدرر أنّ جلب المنفعة أيضا يكون بتدمير مدينة العدوّ ودرء منافعها التي تؤمّنها للعدوّ مع وضع شروط وضوابط لذلك، وفي هذا الصّدّد يقول المازوني "وإذا جاز التّعرض لقتل المسلمين بمجرد ما يرجى من فتح الحصن وهو جلب منفعة، فأحرى أن يجوز بدرء مفسدة عامة لا مفسدة أعظم منها. وهي استئصال الإسلام المستلزم... والقاعدة أنّ درئ المفسد بالإطلاق أولى من جلب المصالح بالإطلاق". المازوني، الدرر، مصدر سابق، 403/1.

<sup>2</sup> شهاب الدين أحمد بن أبي الربيع، المصدر السابق، ص 105-106. الفزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مصدر سابق، ص 7-8.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 182/2-183.

<sup>4</sup> ابي عبد الله بن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تح: علي سامي التّشار، دار السلام للطباعة والنّشر وتوزيع، مصر، 2008، 697/2.

<sup>5</sup> بوزيان الدّراجي، مرجع سابق، ص 224.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

السلب والنهب والإغارة والسبي، فتارة يغنم السلطان وجيشه غنائم كبيرة من عدوه، وتارة أخرى يترك متاعه غنيمة في أيدي عدوه بما في ذلك المنازل والأخبية<sup>1</sup> التي يدخلها العدو منتصرا عنوة فتغنم وتباح وتخرّب.

يقودنا تتبّع كرونولوجيا خراب المنازل والبيوت في المغرب الأوسط الزياني خلال الحرب إلى الوقوف على العديد من المواقف التي أبانت عن واقع عمراي جدّ متدهور شكّل فيه خراب المنازل أحد صور التكوّن العمراني، ونستهلّ هذه المواقف بحصار أبو زكريا الحفصي لتلمسان سنة 640هـ/1242م، وما حمله هذا الحصار من خوف على عاقبة تلمسان وممتلكاتهم، -فنتيجة للخوف من تبعات هذا الحصار وإجراء احترازي- اهتدى العامة إلى إخفاء أسباجهم في بيت واحد عند أحد الأولياء ظلّا منهم ببركة هذا الولي في حماية ممتلكاتهم، وإن كانت هذه الواقعة قد اكتست هالة كرامية نظرا لحضور الطابع الولائي فيها، إلا أنّها تزوّدنا بمعلومة شافية حول وضعية المنازل في تلمسان خلال الحرب، ذلك أنّ أحد جنود أبي زكريا استطاع الاطلاع على المنزل الذي جعل فيه العامة جميع أسباجهم وأرزاقهم، وأخذها كغنيمة للحرب بعد أن فرّ يغمراسن ومن كان معه إلى المدينة تاركا تلمسان، فأقام أبو زكريا "القتل والنهب فيها يوما وليلة"<sup>2</sup>، وفقد بذلك العديد من أرباب الأموال والأسر جراء هذا الحصار رؤوس أموالهم كأبي عبد الله المدخس وإخوته، وابن الجلاب، وبني اللّجام وابن حسون وغيرهم<sup>3</sup>.

ولم يكد يمض وقت طويل حتّى تفرّغ بنو مرين لشنّ هجوم آخر على تلمسان بعد أن أفل نجم دولة الموحّدين، ونسفوا القرى في البوادي والأحواز المحيطة بتلمسان والعمارات داخلها أثناء تتبّع السلطان المريني لفلول جيش يغمراسن في معركة إيسلي سنة 670هـ/1271م، فبعد أن تراجعت جيوش يغمراسن "ارتحل السلطان أبو يعقوب تابعا له حتّى وقف على وجدة فأمر بها فهدمت حتّى تركها قاعا صفصفا، ثمّ ارتحل حتّى أحاط بتلمسان ويغمراسن بها محاصر، فقاتلها وانتسف ضياعها وجنّاتها وبعث السرايا على بواديهما وأحوازها يجربون القرى والعمارات"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> لم تكن المنازل بالضرورة هي المستهدف في الحرب ففي حين القتال بنظام المحلة كانت الأخبية تقوم مقام المنازل لإيواء الجنود، وقد كان مصيرها نفس مصير المنازل فقد كانت تسلب وتمزّق بالسيوف. ابن خلدون، العبر، 7/173.

<sup>2</sup> ابن أبي زرع، الدّخيرة السنية، مصدر سابق، ص 61.

<sup>3</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 172-173.

<sup>4</sup> ابن الأحمر، روضة النسرين، مصدر سابق، ص 49.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

وفي مفارقة أخرى لتخريب المنازل خلال الحصار الطويل الذي ضرب على تلمسان من سنة 698هـ-706هـ/1298-1306م، يتضح أنّ الحرب كانت تحمّل العامة على تخريب بيوتهم خلال الحصار الطويلة الأمد للاستفادة من مواد بنائها لمقاومة هذه الحصار، فقد كان من الطبيعي أن يترك حصار مثل حصار تلمسان الأعظم الذي دام ثمان سنوات المجتمع في حالة انقطاع شبه تام لمختلف الموارد، بما فيها موارد الاحتماء من الظروف الطبيعية كالبرد، والمعروف أنّ تلمسان كانت "أشدّ بلاد عدوة المغرب الأوسط برداً وتجلاً"<sup>1</sup>، ولذلك فإنّ عامة تلمسان خلال هذا الحصار وجدوا أنفسهم ملزمين على اقتلاع أسقف بيوتهم وإيقادها ناراً للتدفئة، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "حتى لزعموا أنّهم أكلوا أشلاء الموتى من الناس، وخربوا السقف للوقود"<sup>2</sup>، فضلاً عن ذلك فإنّ شهادة أبو العباس أحمد بن مرزوق (681-741هـ/1282-1340م) والد مؤلّف كتاب المناقب المرزوقية الذي ألقاه ظروف الحصار تلمسان الطويل إلى الرحيل إلى فاس، ومفارقة تلمسان تقيّد لنا وضع المنازل التي كانت تبقى أطلالاً، فبعد انجلاء الحصار وعودته إلى تلمسان سجّل لنا ابنه رواية شفوية مباشرة عن أبيه تتعلّق بخراب منزله في الحصار الطويل، وفي هذا الصدد يقول ابن مرزوق الخطيب "... وحدثني أيضاً، قال: لما وصلت إلى تلمسان ومعني والدتك، وصلت إليها، والحال ضيقة، وألفيت الدار خربت"<sup>3</sup>.

والملاحظ أنّ وطأة حصار أبي الحسن المريني لها من 735هـ-737هـ/1334-1336م لم تكن أخفّ من حصار تلمسان الطويل، فقد تعرضت المنازل للتخريب والاكتماع بعد أن دخلتها جيوش أبي الحسن عنوة "وتراكت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السقف ومسلك الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهباً واكتساحاً"<sup>4</sup>، ممّا أدى بالعامّة إلى الاستنجد وطلب وساطة الفقهاء لدى السلطان خلال هذا الحصار للكفّ من أعمال النهب، وقد حمّل ذلك الفقيهين أبني الإمام أبو زيد وأبو موسى التّدخل لدى السلطان المريني لكبح جنوده التي أكثرت من السلب "فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكّروه بما نال الناس من النهب، فركب [أبو الحسن] لذلك بنفسه وسكن وأوزع جنوده وأشياعه من الرعيّة، وقبض أيديهم عن الفساد ورجع إلى معسكره الجديد [المنصورة]"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> ابن مرزوق، المسند، مصدر سابق، ص 222. ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 68.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 128/7.

<sup>3</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 237.

<sup>4</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، 148/7.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 341.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

وسرعان ما استطاع الأميران أبو ثابت وأبو سعيد استرجاع ملك أجدادهم الزيانيين بعد نكبة أبي الحسن في إفريقية سنة 749هـ/1348م وقيامهما بأعمال تخریبية للعديد من المنازل في طريق عودتهما من القيروان إلى تلمسان، فبعد أن أشيع خبر انهزام أبي الحسن بالقيروان ووصلت الرّسل بهذا الخبر لابنه الذي كان بتلمسان، أجفل هذا الأخير تاركا تلمسان بعد أن عيّن عليها عامله عثمان بن يحيى بن محمد بن جرّار، فتحرّك الأميران رفقة جنودهما إليها لدخولها "وأغدّوا جميعا السّير آخذين على جبل الزّان من زاوية، فاعترضهم أهله، فاستأصلوهم سلبا للموال والأنفس وحرقا للأمتعة والمساكن"<sup>1</sup>، ولم تكد تمضي 20 يوما إلى أن تحرّك أبو ثابت مجددا لإخضاع القبائل التي والت بني مرين، وكذلك المتمرّدين كإبراهيم بن عبد الملك الكومي، الذي أراد أن يحيي دولة الموحدّين ويعلن نفسه خليفة لعبد المومن بن علي الكومي، فأغار على السّاحل وكلّ من مدينتي ندرومة وهنين وقد شهدت هذه الحملات عمليّات تخریبية تُهبت فيها العديد من المنازل والأبنية<sup>2</sup>.

لم يلبث الأميران طويلا إلى أن استردّ أبو عنان المريني سلطته على تلمسان سنة 753هـ/1352م، بعد طرد الأميرين الزيانيين أبو ثابت وأبو سعيد، واستطاع كسب ولاء بعض القابل وتعيين عماله عليها، وقد كان يحيى بن علي عامل بني مرين على توجين في المرحلة التي استولى فيها أبو عنان على تلمسان من 753-760هـ/1352-1359م، وكان مناصرا لهم كما اشتهر بحملاته في منطقة توجين والبطحاء "ولم يزل يقاتل القبائل ويخرّب المداشر والمناهل، لا يراقب في دم مسلم ولا يفرّق بين محسن ولا مجرم"<sup>3</sup>، ممّا أدى بأبي يعقوب والد أبو حمو موسى الثّاني إلى مطاردته حيث ألجأه إلى الفرار من البطحاء والتّحصن بجبل وانشريس، فاشتبك مع يحيى في معركة حامية الوطيس أتت بالخراب على منازل و"أموال سويد وتوجين ومات منهم ... ومن مرين، فسلبوا البيوت والأموال"<sup>4</sup>.

عرفت أيضا فترة حكم أبي حمو موسى الثّاني (760-791هـ/1358-1388م) العديد من المواجهات العسكريّة، وضرب العديد من الحصارات على المغرب الأوسط من طرف سلاطين بني مرين، وقد تعدّدت مظاهر تخریب المنازل خلال هذه الفترة سواء من طرف جيوش العدو أو من طرف الزيانيين أنفسهم، وسنكتفي في هذا المقام بذكر ما تعيّن به أبو حمو في نظمه بما كان الزيانيون قد حقّقوه من نصر على أعدائهم، وقد شملت بعض

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 253/1.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 259/2.

<sup>3</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 70.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 72.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

الأبيات ما كانت تخلّفه حروبهم وتلحقه من خراب بالمنازل في خضم تقييد يحيى بن خلدون لحمالات أبي حمو موسى الثاني سنة 766هـ/1364م ومن ذلك :

ثُمَّ اِزْتَحْنَا لِتَامَسَلْمَتْ مَرَحَلَةً .... وَكَوَكَبُ الْفَتْحِ قَدْ وَاثَى وَمَ يَغِبُ  
حَتَّى نَزَلْنَا عَلَى دَبْدُودٍ وَسَاحَتِهِ ... جَالَتْ عَسَاكِرُنَا فِي السَّهْلِ وَالْهَضْبِ  
وَمِنْ هُنَاكَ لَوَيْنَا نَحْوَ مَلْوِيَّةٍ ... وَكَمْ تَرَكْنَا بِهَا مِنْ مَنَزِلٍ حَرْبٍ<sup>1</sup>.

وبعيدا عن استحضار هذه الأشكال التخريبية للمنازل-خطابا وممارسة- مما لا يدع مجالاً للمواربة عن حجم الخراب الذي ساد منازل وبيوت مختلف مدن المغرب الأوسط، فإنّ المناخ العام الذي كان يسوده الرعب والخوف في المخيال الجمعي لدى العامة لم يدع في الغالب أدنى فرصة لهؤلاء للاستقرار في المناطق التي تعج بالفتن والحروب، حيث ساهم في صقل مفاهيم التهجير وترك الأصول الة بما فيها المنازل لدى أذهان العامة<sup>2</sup>، وعن الأبعاد النفسية الخطيرة التي كانت تخلّفها هذه الحروب في أذهان العامة حول تملك المنازل والخوف من تركها جرّاء الصراعات العسكرية المتكررة يرصد لنا ابن مريم نصّاً غاية في الأهمية، عن حادثة أوردها ابن مريم عن الولي حدوش بن تيرت العبد الوادي، وقد جاء فيها: "جرت لي معه حكاية حين دخلنا لبلد تلمسان حين خروج التصارى منها ولم تكن عندنا دار، وصرنا نساكن بالكراء في دار الحبس زمانا ثم قلت لوالدي وإخوتي: اشتروا لنا دارا. فقال أبي وإخوتي رحمهم الله تعالى: لا بدّ لتلمسان أن يأخذها التصارى ثانيا"<sup>3</sup>. ونتيجة للخوف الدائم جرّاء الحروب الواقعة في المغرب الأوسط وحالة التخريب التي كانت تلقي بأيديها على منازل العامة وعلى مرأى منهم<sup>4</sup>، كان السكاّن يقومون بإجراءات احترازية وذلك من خلال اتخاذ غيران تحت المنازل أو في أسقفها للتخفي فيها عن أعين العدو خلال استهدافه للمنازل بعد أن تضع الحرب أوزارها، أو لاستغلالها في

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 150/2-152.

<sup>2</sup> سجّلت هذه القضايا في النصّ النوازلي، وأهمّها النازلة التي طرحت على محمّد بن مرزوق "عمن عرف بالغصب والإكراه إذ وجد بيده عقار أو غيره مدّعيا شراؤه، وادّعى من عرفه أنّ مغضوب منه هل يقبل قوله مع يمينه ولا سيما وهو تحت ولاية من فهر". المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 315/3.

<sup>3</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص108.

<sup>4</sup> الشريف التلمساني، فتاوى الشريف التلمساني، مصدر سابق، و101ظ.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

عملية حفظ الأغذية وإخفائها خلال المعارك والحروب<sup>1</sup>، ويظهر ذلك في إحدى النوازل الموجهة إلى الفقيه عبد الله القوري الذي كان مقيماً بتلمسان سنة 871هـ/1466م، يقول فيها صاحب المعيار: "كتبت إلى الشيخ أبي عبد الله القوري رحمه الله سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وأنا بتلمسان أسأله عن عدة مسائل، منها نوازل البيوع، من ابتاع داراً وتطوع بأن لا رجوع له على البائع بكل عيب يجده فيها... ثم بعد مدة أعوام ومضي شهور وأيام، تهدم شيء من فرش بيوت الدار المبيعة، فوجد تحت الدار المهتمم غار كبير، يعلم بدليل المشاهدة والعيان عدم شعور البائع به"<sup>2</sup>، وعلى الرغم من أن الونشريسي أفرد نازلة أخرى تشكك فيما ذهبنا إليه حول إمكانية أن تكون هذه الحفر المجهولة -التي كان الجهل بها عند شراء المنازل يضع المشتري أمام المسائلة النوازلية- معدة للمراحيض<sup>3</sup>، إلا أنه يبقى احتمال بعيداً، خاصة إذا علمنا أن عامة المغرب الأوسط خلال الحرب "أكثرهم اختفى في القنوت والمظاهر والصبور"<sup>4</sup> تاركين منازلهم كي لا يتم اكتشافهم وقتلهم أو اقتيادهم كأسرى حرب، أو أنهم كانوا يفرّون -وهو الغالب- فقد جاء في معرض حديث المازوني مسألة "عن أهل قرية أودع بعضهم عن بعض أنواعاً من المال مما يغاب عليه وغيره، ثم بغى عليهم أقوام فسلبوا أموالهم وسكت غريمهم واستولوا على القرية حتى جلوهم عنها"<sup>5</sup>.

والملاحظ أن هذه الإجراءات الاحترازية خلال الحرب لم تكن فقط باتخاذ المخابئ السرية في المنازل فقط، وإنما عدت تخریب الدور المتصلة بسور المدينة لغرض توسعة سورها وتأمين الخطوط الدفاعية لها من موجبات التخریب أيضاً، وهو ما استوقفنا عنده بعض النصوص التاريخية التي أشارت إلى ما قام به السلطان أحمد بن أبي حمّو في حربه مع المتوكل سنة 850هـ/1446م من تهديم للدور<sup>6</sup>، حيث عمد إلى توسعة سور المشور واضطره ذلك إلى اغتصاب

<sup>1</sup> يضرب لنا ابن أبي زرع مثالا مشابهاً عن أماكن التخزين السرية والاختباء في منازل فاس حيث اتخذوا غرفاً لا أدرج لها يلج إليها صاحب المنزل وعياله بالسلام، ويذكر أن سبب إنشاء هذه المطامير هو الهجومات المتكررة من قبائل مغراوة وبنو يفرن. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 114.

<sup>2</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 471/6.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، مصدر سابق، 267/6.

<sup>4</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 172.

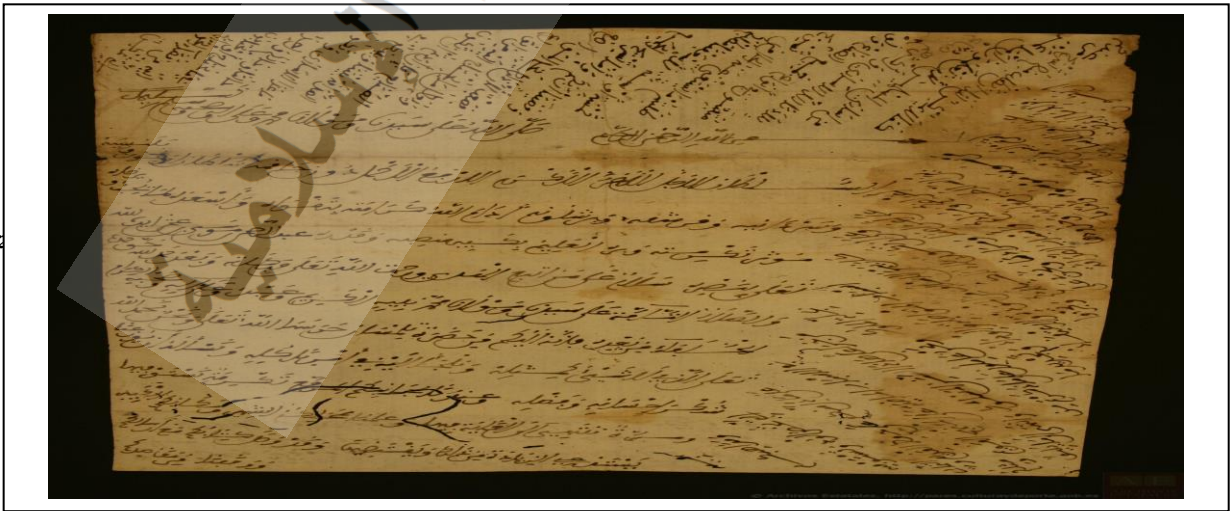
<sup>5</sup> المازوني، الدرر المكنونة، مصدر سابق، 340/3. عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع، مرجع سابق، ص 207.

<sup>6</sup> تذهب أحد الدراسات إلى أن هذه الدور كانت تابعة لليهود، لكن هذا لا يمنع من أن يتحليل السلطان أي فرصة ممكنة لخدمة أغراض ملكه حتى وإن استدعى الأمر تخریب دور التلمسانيين، فالسبب نفسه هو ما لجأ الونشريسي إلى الرحيل من تلمسان إلى

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

الدور المتصلة به، إلا أنه لم يلبث طويلا إلى أن أطاح به محمد المتوكل الزياني، ويعقب التنسي سبب الإطاحة بأحمد بقوله: "وما ذاك والله أعلم إلا لما وقع بسببه من اغتصاب كثير من الدور المتصلة به"<sup>1</sup>.

ولزيادة الأمن كانت بعض الأحياء والدروب المتصلة تشترك في باب واحد "وكان لا يدخل أحد من باب الدرب إلا من هو من سكّانه، ومن جاء زائرا يستأذن عليه من رجل وامرأة. وإن جاء حطب أو فحم، يوضع بباب الدرب، ويخرج أصحابه لإدخاله" ويصيون أقساطهم من هذا الفحم والحطب وهذا كان حال مرسى الطلبة<sup>2</sup>. حرص كل من سلاطين بني زيّان وبني مرين على تشييد القصور في المغرب الأوسط الزياني، وأظهروا ولعا بالعمارة منقطع النظير، بدءاً بمؤسّسها يغمراسن الذي تزايدت حركة العمارة وتشييد القصور في عصره، وهذا ما انتبه إليه ابن خلدون وعبر عنه بقوله: "لم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع الصروح بها بالآجر والفهر تعلو وتشاد إلى أن نزلها آل زيّان واتخذوها دارا لملكهم، وكريسيًا لسلطانهم، فاخطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه"<sup>3</sup>، مروراً بأبي حمو الأول الذي "كان مولعا بتحجير الدور، وتشييد القصور مستظها على ذلك بآلاف عديدة من فعلة الأسارى بين نجارين وبنائين وزليجين وزواقين، فخلد آثارا لم تكن لمن قبله ولا لمن بعده"<sup>4</sup>، أبو تاشفين الأول الذي يصف يحيى بن خلدون مآثره المعمارية بقوله "فكم زخرف من قصور وصروح وأطاب من غبوق وصبوح"<sup>5</sup>، وقد كانت هذه القصور حسب تعبير ابن خلدون لا يعبر عن حسناتها، اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصنّاع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبدأوة دولتهم يومئذ بتلمسان، فبعث إليهما السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحدّاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور"<sup>6</sup>.



<sup>1</sup> التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص 140.

<sup>5</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 1/238.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، 7/190.

### الرسالة رقم 91 بأرشيف التاج الأروغوي<sup>1</sup>.

وبعيدا عن مراكمة النصوص الدالة على ولع هؤلاء السلاطين بتشييد القصور، تستوقفنا بعض النصوص المتضاربة حول مفهوم القصر ودلالته في النص المصدرى، "فالنصوص لا تبين لنا كيف كانت هذه القصور"<sup>2</sup> المشيدة في العصر الزياني، ويأتي استشعار هذه المطارحة من وصفها لها باسم القصر بمعنى البنية العمرانية تارة، وإكسابها طابعا عمرانيا ذو دلالة دينية أو حربية أو لغوية تارة أخرى، وفي نسق توافقي مع هذه المطارحة نقف على هذه التناقضات في المواقف التاريخية الوسيطية الزيانية التالية:

- ورد في المصادر خبر تشييد قصر أبي حمو موسى الأول أثناء ملاحقته لراشد المغراوي الثائر في نواحي الشلف، خلال سنة 714هـ/1314م<sup>3</sup>، وفي هذا الصدد يقول التنسي: "وثار عند ذلك [أي في سنة 706هـ/1306م] راشد بن محمد المغراوي بشلف، فنهض إليه السلطان بنفسه، واستخلف ولده السلطان أبا تاشفين، فاستعصم راشد ببني بوسعيد، فنزل أمير المسلمين [أبو حمو الأول] وادي تهل لحصارهم، وبني هناك قصره

<sup>1</sup> مؤرخة في 24 ربيع الثاني دون ذكر السنة في آخر الرسالة غير أنها ترجع لفترة حكم أبي تاشفين الأول وبالضبط بين سنتي 723-724هـ، وهي رسالة وجهها السلطان الزياني تلمسان إلى ملك أرغون جاقمه الثاني (ت 727هـ/1327م) يخبره فيها بتعدّد الموافقة على إطلاق سراح جميع الأسرى النصارى المتواجدين في الأراضي الزيانية بحجة حذقهم في الصناعات والحرف وحاجته إلى إعمار تلمسان بهم، وأن إطلاق سراحهم يعني تعطيل ما تحتاج إليه من عاصمة الدولة من أنواع الصنائع وتشييد العمائر، وأن ما عمر تلمسان إلا هؤلاء الأسارى، لذلك فقد اقترح عليه أبو تاشفين الأول تسليم خمسة أشخاص أو ستة يقترحهم عليه ملك أرغون. أنظر نصّ الرسالة كاملا في الملحق رقم 08 ص 280.

<sup>2</sup> فيلالى عبد العزيز، مرجع سابق، ص 117.

<sup>3</sup> نسجل استثناءً وحيدا عند التنسي الذي ينسب هذه الحادثة إلى سياق زمني كانت فيه تلمسان خاضعة لحصار بني مرين سنة 706هـ ونرجح أنّ ميله إلى الاختصار أوقعه في الخطأ، ذلك أنّه دمج الكثير من الحوادث ونسبها إلى تاريخ 706هـ، وعلى العكس من ذلك يضبط عبد الرحمان ابن خلدون تاريخ هذه الحادثة بتاريخ 711هـ ويشير إلى بناء هذا القصر بعد هذه السنة، وفي نسق مشائي يشير يحيى إلى أنّ هذه الحادثة كانت بتاريخ 714هـ وهو الأصح عندنا. التنسي، نظم الدرر، مصدر سابق، ص 136-137. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 137/7. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، 236/1.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

المعروف به"<sup>1</sup>، ويضيف يحيى بن خلدون: "وفي سنة أربع عشر [وسبعمائة] تحرك إلى تلمسان السلطان أبو سعيد ... وكان راشد بن محمد المغراوي خلال هذا قد ثار بوادي شلف، وجدّد خلق دعوته، فنهض لحينه السلطان أبو حمو، رحمة الله عليه نحوه، وترك بتلمسان ولده السلطان أبا تاشفين، ونزل وادي تهل من شلف. وابتنى به القصر المعروف باسمه هناك لحصار بني أبي سعيد"<sup>2</sup>، وفي قرينة ثالثة يؤكّد عبد الرحمان بن خلدون "وكان راشد بن محمد بن ثابت بن منديل قد جاء من بلاد زواوة أثناء هذه الغمرة، فاحتل بوطن شلف واجتمع إليه أوشاب قومه، وحين تجلّت الغمرة عن السلطان أبي حمو نهض إليه بعد أن استعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان، وجمع له الجموع ففرّ أمامه ناجيا إلى مثنوى اغترابه بهجاية. وأقام بنو سعيد بمعقلهم من جبال شلف على دعوته، فاحتل السلطان أبو حمو بوادي تمل فخيم به. وجمع أهل أعماله لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد، واتخذ هنالك قصره المعروف باسمه. وسرح العساكر لتدويخ القاصية"<sup>3</sup>. وتحليل مضامين القرائن السابقة يتّضح لنا أن المراد بالقصر ليس المفهوم البنيوي العمراني لكلمة قصر، وإنما الدلالة اللغوية لكلمة "قصر"، ذلك أنّ القصر في اللغة "من البناء معروف وقال اللحياني: هو المنزل، وقيل كل بيت من حجر قرشيّة، وسمّي بذلك لأنّه تقصر فيه الحرم، أي تحبس، وجمعه قصور"<sup>4</sup>، الأمر الذي يفيد أنّ قصر أبي حمو لم يكن في الحقيقة سوى معسكر لنزول الجند الزياتي فيه، ترقّباً لراشد المغراوي وحصاره هناك نظراً لقربه من هذا المعسكر ولسهولة الوصول إليه من طرف الجند الزياتي، بدل ترقّبه من منطقة بعيدة كالعاصمة تلمسان، وقد تؤكّد العبارات الأخيرة من القرائن الثلاثة السابقة التي تمّ الاستدلال بها صحّة ما ذهبنا، فهي تؤكّد على أنّ الدور الوظيفي لقصر أبي حمو لم يكن للنزول والتّخاذ كمرکز للسيادة، بل اقتصر دوره على الأغراض الحربيّة وقصر الجند فيه لملاحقة راشد المغراوي.

- في مفارقة أخرى لمفهوم القصر ودلالته يؤشّر ابن خلدون على التناقض الصّارخ بين مدلول القصر ووظيفته، فيصف مسجد تازروت الذي خرّبه أبو حمو موسى الثاني بتازي بعد أن استغلّ الفتنة التي وقعت بين السلطان المريني أبو العباس وأبي يفلوسن المحاصر من طرفه سنة 785هـ/1383م بالقصر تارة، وبالمسجد تارة أخرى، وقد ورد ذلك في موضعين من عبّره، فأما الموضع الذي يصف فيه قصر تازروت بالمحلّ المعدّ لنزول السلطان فيقول فيه: "وجاء أبو

<sup>1</sup> التنسي، المصدر السابق، نفس الصّفحات.

<sup>2</sup> يحيى بن خلدون، المصدر السابق، 236/1.

<sup>3</sup> ابن خلدون، العبر، 137/7.

<sup>4</sup> ابن منظور، لسان العرب، ص 3647.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

حمو من خلفهم فحصر تازي سبعا، وخرّب قصر تازروت المعده هناك لنزل السلطان"<sup>1</sup>، ليناقض بعدها نفسه في موضع آخر من العبر بقوله: "وقصد أبو حمو في عسكره مدينة تازا وحاصرها سبعا، وخرّب قصر الملك هناك ومسجده المعروف بقصر تازروت"<sup>2</sup>، وبذلك فالقصر من حيث الدلالة العمرانية في هذه الحادثة قد اكتسب بعدا دينيا إذ أنّ ابن خلدون يصف مسجد تازروت بالقصر.

- سجّل النصّ التوازي أيضا دلالة كلمة "قصر" بمعنى "المكان المعزول" من الصحراء، في نازلة سأل فيها أبو بكر العصوي من توات فقهاء تلمسان وفاس عن مسألة اتخاذ "كنائس اليهود الكائنين بتوات وغيرها من قصور الصحراء"<sup>3</sup>، وقد أثبتت القرائن من خلال تتبع كلمة "قصور الصحراء" في هذه النازلة -المطوّلة- أنّ مدلول كلمة قصر لم يختلف عن التحليل الأول القاضي باستعمال هذه المصطلح للتعبير عن الحقل الدلالي اللغوي الدال على عن الانحياش والقصور في أماكن معزولة من صحراء المغرب الأوسط، ويأتي هذا التفسير بناءً على نصّ السؤال الموجه من طرف العصوي، إذ يحدّد بدقة أماكن تواجد هذه الكنائس في درب اليهود بتوات بين أحياء سكّانها ومنازلهم، والأهم من ذلك أماكن تواجد الكنائس الأخرى الخارجة والمعزولة عنهم بالصحاري في هذه الجهات التي كانت محلّ نزاع بين الفقهاء، باعتبار أنّ أصحابها غير معاهدين، تعدّوا على الأحكام الشرعية بخروجهم عن إقليم السّلطة المركزيّة بتوات، ونلمس ذلك في قوله: "أعلم يا سيّدي أنّ يهود توات لهم درب اختصّوا به وليس في خارجه إلا قليل منهم، وكنيستهم بين دورهم لا تلاصق دار مسلم"<sup>4</sup>، ومّا يقطع دابر الشكّ فيما ذهبنا إليه هو رأي محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي حمل لواء جهادهم ومحاربتهم في هذه الأماكن المعزولة، وتأليفه لرسالة يبيّن فيه مشروعية هدم كنائسهم في هذه التّواحي، وانتهائه في الأخير إلى هدمها، ويظهر ذلك في قوله "... فأنت ترى كيف اختلف العلماء في نقض عهدهم وسبيهم إذا اخلّوا بواحدة ممّا اشترط عليهم، فكيف ييهود لم يأتوا ولو بواحدة، بل وتمردوا

<sup>1</sup> ابن خلدون، المصدر السابق، ص 188.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 462/7. محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السّهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتّوزيع، الجزائر، 2013، ص 152.

<sup>3</sup> الونشريسي، المعيار، 214/2.

<sup>4</sup> الونشريسي، المعيار، 217/2.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

على الأحكام الشرعية بسكنى البلاد السائبة<sup>1</sup>، الأمر الذي يعكس دلالة كلمة قصر في هذه الحادثة واستعمالها للتعبير عن الأماكن المقصورة البعيدة في الصحراء.

إنّ المتتبع لمسار المواجهات العسكرية وخاصة الحصارات عبر التاريخ يمكنه تمييز ثلاثة أوجه للمواجهات العسكرية؛ أولها مواجهة الجيش لعدوّ يساويه في القوّة، أو يكون أقوى أو أضعف منه<sup>2</sup>، "وقد يقع الاختلاف في المطاولة فيكون كلّ واحد من الاثنين المتحاربين يطلب صاحبه، أو يكون أحدهما طالبا والآخر هارب أو دافعا فيختلف التدبير والعمل والمكايد على حسب ذلك"<sup>3</sup>، وفي الحالة الأخيرة يلتجأ المغار عليه إلى الاحتماء داخل وحداته الدفاعية بينما تلجأ الخاصّة كالسلطان وحاشيته إلى النزول بالقصر داخل أسوار الحصن، فيخرّب هذا الحصن من طرف العدو لضرورتين؛ أولها استراتيجية فالمغار عليه "ينازل عدوّه في أحسن مواضع الحصن ليظنّ أنّه أهمّ المواضع إليه ويشغله به عن غيره، ويتغافل عن مواضع الخلل المجهول من حصنه ويخفيه لئلا يعثروا عليه"<sup>4</sup> فيدخل العدو الحصن ويسعى لخراب حصن السلطان ومقامه باعتباره مركزا للسيادة ومحلا له، والثانية لسبب نفسي وهو بثّ الرعب في نفوس جيش العدو وإجبار الخصم على الاستسلام كرها وذلك بالسيطرة على أهمّ معقل الحصن وما يتركه ذلك من أثر نفسي على الجند ممّا قد يساهم في قلب موازين المعركة، ويضرب أبو حمّو لابنه مثلا عمّا قام به من عمليّات تخريب لقصور السلطان أبي سالم المريني وأثر ذلك في تفريق صفوف جنده بقوله: "إذا سمع العدو أنّك أوقعت في بلاده الشتات وسلبت عليه الغارات مرضت نفسه لذلك، وأيقن أنّه واقع في المهالك، وساءت ظنون أتباعه من القبائل والعساكر، وانقلب سرورهم إلى تعبیر الخاطر لما أهمّهم من تشتيت بلادهم والخوف على أهلهم وأولادهم، فيصيرون إليه لا عليه... وكان هذا حالنا مع أبي سالم"<sup>5</sup>، ويقصد أبو حمّو بذلك تخريبه للقصور الموجودة بحصون تاويريرت وأوطاط وأجرسيف وأرجو في الجهات المرينية التي امتدّت عليها أيدي بني زيّان سنة 1360هـ/761م بقيادة أبي حمّو موسى الأول، ويسجّل لنا صاحب كتاب زهر البستان رواية شفويّة عن أثر

<sup>1</sup> محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تح: عبد المجيد الخيتالي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2001، ص42.

<sup>2</sup> يقدم أبو حمّو نفس التّمطية في تقسيمه لأعداء الملك خلال العهد الزياني. أبو حمّو موسى الزياني، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 192.

<sup>3</sup> الهرثمي، مختصر سياسة الحرب، مصدر سابق، ص 67.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص61.

<sup>5</sup> أبو حمّو موسى الزياني، واسطة السلوك، مصدر سابق، ص 181، 192.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

تخريبها ومطابقتها لتنظير أبي حمّو حول الأثر البالغ الذي يتركه تحطيم وهدم هذه البنى في نفسية الجيش المريني وقائده أبي سالم خلال هذه الحملة بقوله: "فلما سمع أبو سالم ما قاله له الرسول، اعتراه الإدهاش والدّهول وسقط في يديه ورجع عليه بعد أن كان إليه"<sup>1</sup>.

وإن كانت المواجهات العسكرية سببا للتعمير وبناء هذه القصور كقصر أبي حمّو الأول المعروف باسمه الذي شيّده أثناء ملاحقته لراشد بن محمد المرغوي التائر بنواحي شلف، وهو يقع اليوم على بعد 25 كم في الجنوب الشرقي لمدينة واد رهيو، وقد تمّ تحريف هذه التسمية من "قصر حمو موسى" إلى "عمّي موسى"<sup>2</sup>، فإنّ الملاحظ أنّ سلسلة تخريب القصور في العهد الزياني سجلت حضورها في العديد من الوقائع الحربية، وأهمها قصر إيسلي الذي اندثر ولم يبق منه سوى تسمية النهر المحاذي له عند الأنقاض المعروفة اليوم باسم قصر العاجة في زكارة جنوب غربي مدينة وجدة على بعد حوالي 18 كلم منها، وقد حفظت لنا الأرصدة التاريخية معركةين باسم "إيسلي"<sup>3</sup> خلال العهد الزياني كانت أولها سنة 647هـ/1249م والثانية سنة 760هـ/1359م، ومعركة بهذا الاسم بين المغاربة والفرنسيين سنة 1260هـ/1844م<sup>4</sup>، ويشير ليون الإفريقي إلى خراب هذا القصر بقوله: "كان في القديم محاطا بأسوار متينة دمرت أثناء الحروب، فأمسى خاليا بعض الوقت، ثمّ سكنه من جديد رجال ... يتمتّعون باحترام كبير من ملك تلمسان ومن الأعراب... ولا يشتمل هذا القصر إلا على أكواخ سيئة ذات جدران من الطين وسقوف من القش"<sup>5</sup>.

كذلك فإنّ حصار تلمسان الطويل ألقى بأوزاره على القصور الزيانية، فبعد انجلاء الحصار الطويل الذي ضربه يوسف بن يعقوب المريني على تلمسان قام أبو حمّو الأول - بعد تسعة أشهر قضاها في الهجوم القبائل التي شقت عصا الطاعة- بإصلاح ما خرّبته الحصار الطويل من بلاده "فنظر في إصلاح قصوره ورياضه، ورمّ ما تلثم من بلده"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 101. يحي بن خلدون، بغية الرواد، 73/2.

<sup>2</sup> التنسي، نظم الدرّ والعقيان، مصدر سابق، ص 137.

<sup>3</sup> الناصري، الاستقصا، 31/3. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 295. القلشندي صبح الأعشى، 193/5. ابن خلدون، العبر، 115/7.

<sup>4</sup> الناصري، المصدر السابق، 102-97-51/3.

<sup>5</sup> الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، 12/2.

<sup>6</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 130/7.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

كما تشير إحدى الدراسات إلى أسف السلطان الزياني على خراب هذه القصور عقب حصار تلمسان الطويل بسبب استعمال الآلات الحربية الثقيلة<sup>1</sup>.

بالإضافة إلى ذلك فإن الصراع المتأجج بين السلطان المريني عبد العزيز ضد السلطان أبي حمو الثاني بعد الهجمات التي وجهها أبو حمو لقبيلة سويد واعتقاله لمحمد بن عريف وتشتيته لشمل هذه القبيلة كان له دوره في تخريب قصور تلمسان، ذلك أن قبيلة سويد استصرخت بالسلطان المريني عبد العزيز وأغرته بملك تلمسان، وأمام هذا الوضع أجفل أبو حمو عن تلمسان بعد أن عقد حلفاً مع قبيلة بني عامر سنة في غرة محرم من سنة 772هـ/1322م، فتتبع السلطان المريني وجيوشه فلول جيوش أبي حمو وقبيلة بني عامر و"سكلت على قصور بني عامر بالصحرَاء قبلة جبل بني راشد ... فانتهبوها وخرّبوها وعاثوا فيها وانكفؤا"<sup>2</sup>.

ويبدو أن الأثر الذي تركه تخريب السلطان المريني عبد العزيز لقصور بني عامر ظلّ محفوراً في نفس أبي حمو لتأتية الفرصة بعد 12 سنة لياشر أعماله التدميرية على القصور المرينية سنة 785هـ/1383م، ومرجع ذلك يعود إلى الصراع الذي دار بين السلطان المريني بفاس أبو العباس والأمير عبد الرحمان بن يفلوسن الذي شنّ عليه أبو العباس حصار بعاصمته مراكش لجأه إلى طلب النجدة من أبي حمو الثاني الزياني وابنه أبو تاشفين الثاني، فقام أبو حمو بعدما حشد السلطان المريني جيوشه وتحرّك إلى مراكش لحصار ابن يفلوسن بالتوجه رفقة جيوشه إلى بمقام السلطان المريني بفاس "فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها ثم عمدوا إلى مدينة تازا فحاصروها سبعا وخرّبوا قصر الملك هناك ومسجد المعروف بقصر تازروت"<sup>3</sup>، وبعد أن وصلت الرّسل إلى أبي حمو تبليغه أن أبا العباس استطاع السيطرة على مراكش انخزل راجعا إلى دار ملكه ومرّ بمزادة مستقرّ سويد سنة 785هـ/1383م "على قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه"<sup>4</sup>.

لتتبعه مرّة أخرى أعمال تخريب للقصور الزيانية من طرف السلطان أبو العباس المريني للقصور سنة 786هـ/1384م كردّ فعل على تخريب أبو حمو لقصر تازروت وقصر ونزمار بتازي، فقام أبو العباس رفقة ونزمار

<sup>1</sup> يقول عبد العزيز فيلالي: "لا شك أن العمران هو الآخر قد تعرّض إلى التّهديم والإتلاف بسبب القصف بالمنجنيق والدبابات بمختلف أدوات الحصار وآلاته، وقد أحرز السلطان أبا حمو موسى الأول رؤية خراب القصور والدور التي أنشأها وشيّدتها في عاصمته". عبد العزيز فيلالي، بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى للنشر، الجزائر، 2014، ص 131.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/177.

<sup>3</sup> الناصري، الاستقصا، مصدر سابق، 4/67.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/189.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

بتبّع أبي حمّو فنزل "على مرحلة من تلمسان بعد أن أغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور الملك بتلمسان، وكانت لا يعبر عن حسنها، اختطّها السلطان أبو حمّو الأول وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصّناع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبدعوة دولتهم يومئذ تلمسان .... فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً بزعمه من أبي حمّو، وأخذ بالتأثر منه فيما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازي، وتخریب قصره هو بمرادة، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر"<sup>1</sup>. ويصف ابن خلدون حجم الأذى على هذه القصور عند عودة أبي حمّو الثاني بقوله "وطار الخبر إلى السلطان أبي حمّو بمكانه من تاحجموت، فأغذّ السير إلى تلمسان ودخلها، وعاد بها إلى ملكه، وتفجّع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها"<sup>2</sup>.

وعلى الرّغم من إشادة الكتابات التاريخية بحركة تشييد القصور في دولة بني زيّان خاصة في عهد السّلاطين الأوائل ذلك أنّ عمرانها لم يزل " يتزايد وخطتها تتسع ... إلى أن نزلها آل زيّان واتّخذوها داراً لملكهم وكرسيّاً لسلطانهم فاختطّوا بها القصور المؤنّقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرّياض والبساتين وأجروا خلالها المياه"<sup>3</sup>، إلّا أنّ بعض هذه القصور لم يكتب لها الصّمود في وجه الحروب والفتن المتكرّرة، وفي هذا الصّدّد تشير بعض الدّراسات إلى خربها جزّاء هذه الحروب على دولة بني زيّان بقولها: " ... وقد نسب المؤرّخون مباني مدنيّة شتّى مثل قصور دار السّرور وقصر أبي فھر<sup>4</sup> ودار الملك، ولكن أعيننا لم تقرّ بهذه المعالم إذ أصبحت كلّها خراباً بعد عين"<sup>5</sup>.

### المبحث الثالث: الحرب وخراب المؤسسات الدينية والثقافية

ما إن يقتحم الباحث مجال دراسة تاريخ المغرب الأوسط الزياني في شقّه المتعلّق بالبحث عن العلائق بين الحرب والإنتاج الثقافي - والمخصوص بالذّكر هنا ما تعلّق بأثر الحرب على الوحدات العمرانية التّقافيّة والدينيّة-، حتّى يجد نفسه أمام فراغ كبير كلّما سعى إلى إيجاد تفسير موضوعي لعلاقة الحرب بخراب هذه الوحدات، فعلى الرّغم من

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 190-191. الناصري، المصدر السابق، ص 68.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 105.

<sup>4</sup> ظلّ هذا القصر صامداً إلى عصر ابن مرزوق الخطيب، وترجع أحد الدّراسات خراب هذا القصر إلى الحملات التي قام بها أبو العباس -المذكورة سابقاً- على تلمسان سنة 786هـ. فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، مرجع سابق، ص 117، 129.

<sup>5</sup> وليام وجورج مارسلي، مرجع سابق، ص 37. فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ص 121.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

حرمتها وقداستها إلا أنّ الكثير من مظاهر خراب قد مستت هذه المؤسسات والعمائر كالمدارس والزوايا والمساجد والمقابر.

لا يخفى على الباحث أنّ سقوط دولة الموحّدين شكّل مرحلة جديدة من مراحل التاريخ الإسلامي، سقط فيه "المركّب" أو "الدين" لصالح الحياة البدائية<sup>1</sup>، فتركزت على إثره عوامل قيام الدّول وسقوطها لصالح العصبية القبليّة، "وأصبح السيّف فيها هو السيّد"<sup>2</sup>، فبعدما كانت العصبية الدّينية والمذهبية بمعية العصبية القبليّة هي المحرّك وراء قيام الدّول وسقوطها، أصبح التنافس القبلي على رئاسة قبيلة زناتة على المستوى المحلّي بين بني عبد الواد وبني مرين هو المحرّك لهذه الحروب<sup>3</sup>، ومما يبدو أنّ الحروب التي حرّكتها النّعرات القبليّة في العهد الزياتي لم تكن في مخرجاتها وآثارها أقلّ عدوانيّة من الحروب التي تبنتها العصبية الدّينية والمذهبية السّابقة في المغرب الأوسط، الممثّلة في النّمودج الفاطمي والمرابطي والموحدي، باعتبار هذه العصور امتداد للحروب الإيديولوجيّة والمذهبية بامتياز، وهدفها في الأساس تحقيق مشروع سياسي وحدوي عن طريق الاصطفاف المذهبي، أو بإقامة الدّول على أساس حركات إصلاحيّة، أو بتبني العقيدة المهدويّة أو فكرة المهدي الذي يملأ الأرض إحساناً بعد أن ملئت جوراً، يتبنّاها دعاة المذاهب مستندين غالباً في ذلك على مسألة الشرف، الأمر الذي جعل من حروب المصالح وإعلاء كلمة السّلطان حسبما تشخصه أحد الدراسات<sup>4</sup> وما تحلّل ذلك من فوضى وأعمال للحرابة والقطع؛ مدعاة للتّعدي على الخصوصيّة الثقافيّة والدّينية، فضلاً عن ذلك فقد كانت الظّاهرة الحربيّة الممثّلة في الاستعمار - في المرحلة المتأخّرة - أحد الأوجه التي كانت سبباً في ثني حركة العمائر الثقافيّة والدّينية.

في المقابل - بعد أفول نجم دولة الموحّدين - نجد أنّ هذا التّوع من الحروب كان مطّية لتجاوز حرمة العمائر الثقافيّة والدّينية، فمؤسّس الدّولة الزيائيّة يغمّس عند اعتلائه لسدّة الحكم تمّ إعلاء نسبه إلى إدريس فقال: "إنّ

<sup>1</sup> يسميه مالك بن نبيّ بعصر ما بعد الموحّدين ويرى أنّ معركة العقاب وسقوط دولة الموحّدين يمثّل نقطة الانكسار في منحى تطوّر الحضارة الإسلاميّة لأنّ التّركيب (الدين) نفسه قد تحلّل فتحلّلت معه الحياة الاجتماعيّة وأخلت مكانها للحياة البدائية. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر، سورية، 2002، ص36.

<sup>2</sup> عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 155.

<sup>3</sup> يقول ابن خلدون عن التنافس الزياتي المريبي على رئاسة قبيلة زناتة: "قد ذكرنا ما كان بين هذين الحيين من المناغاة والمنافسة منذ الأماد المتطاولة بما كانت مجالات الفريقين بالصّحراء متجاورة، وكان التّخيم بين الفريقين واديا إلى فيكيك". ابنت خلدون، العبر، مصدر سابق، 111/7.

<sup>4</sup> حميد تيتاوا، مرجع سابق، ص58.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله. وأما الدّنيا فإننا نلناها بسيوفنا<sup>1</sup>، ومن جهته أعرب أبو الحسن المريني عن عدوله عن تبنّ السلطنة الدّينية بقوله: "أوصى جدنا عبد الحقّ رضي الله عنه بوصية التزمناها، وهي أنّ ثلاثة من الولاة لا مدخل للرعية فيه من السلطنة، وهم صاحب القصبية، وصاحب الشرطة، والوالي، وثلاثة المرجع فيها للرعية، وهم صاحب الصلاة والخطبة، والقاضي، والمختسب"<sup>2</sup>، وبهذا قد نقف على تفسير أكثر موضوعية لتجاوز رمزية وقدسيتها العمارة الدّينية والثّقافية خلال حالة الحرب في المغرب الأوسط الزيّاني بسبب تراجع وتيرة الحروب المذهبية والدّينية محليا لصالح الحروب القبليّة التي استبيحت فيها بعض هذه العمائر.

### المطلب الأول: العمائر الدينية

#### 1- المساجد :

يرتبط اسم المسجد بالمسلمين وذلك أنّ أول ما أُطلق هذا المفهوم حينما قدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجرا في السنة الأولى الهجرية 622م وبنى بها أول مكان للعبادة، وأصبح المسجد النبوي المرجع الأصيل في تخطيط المساجد التي بناها المسلمون، ولما كثر المسلمون أمرهم ببنائها بحسب ما تتطلبه هذه الكثرة، ومن هنا ظهر نوعان من المساجد في المدن الإسلاميّة، المساجد الجامعة ومساجد الدّور والأحياء، أمّا الأولى في التي يجتمع فيها كلّ أهل المدينة وكان النبي يتولى فيها الخطابة وأولي الأمر في مركز الخلافة ثمّ أميرهم على الأقاليم، ولهذا كان من الضّروري على المسلمين بناء مسجد وسط المدينة حتّى يسهل عليهم الالتحاق به، أمّا مساجد الدّور في المدن فكان لكلّ حيّ مسجده الخاص به لإقامة الصلوات الخمس المفروضة<sup>3</sup>.

وفي العهد الزيّاني كانت المساجد مؤسّسة دينية وثقافية تستقبل الطلبة والمصلّين في حلقات دراسية داخل المسجد بالإضافة الدّور المنوط بها للعبادة، ومع التّصوص قد أحجمت عن إعطائنا جميع أسماء المساجد التي بنيت خلال العهد الزيّاني، فإنّ بعض الإحصائيات تكشف لنا أنّ عددها بلغ ستين مسجدا بين مسجد كبير وصغير

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 97/7.

<sup>2</sup> حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 203.

<sup>3</sup> بن هو محمد، مرجع سابق، ص 16.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

ومتوسط، وهو رقم لا يعبر عن الحقيقة حسبما توضّحه أحد الدراسات<sup>1</sup>، لأنّ عدد سكان تلمسان في العهد الزياني بلغ 125 ألف نسمة<sup>2</sup>.

لا يعتبرنا الشكّ مطلقاً في أنّ الحرب التي دارت رحاها في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني على مدار ثلاثة قرون كانت لها تأثيرات سلبية على الحياة الثقافية والدينية، ومن زمرتها البنى العمرانية الثقافية والدينية، ذلك أنّ بعض المساجد كثيراً ما كانت تأتي عليها الأزمات السياسية أو الطبيعية فكانت تتركها خالية أو محترقة<sup>3</sup>، والملاحظ أنّ عملية تقصّي أخبار المساجد المخربة لم تكّد تنفكّ تجربنا عن مدى الخراب الذي طال هذه الوحدات<sup>4</sup>، فهذا ابن مرزوق يتحسّر على حال مرسى الطلبة الذي تراجع دوره بسبب تبدل الساكن، فبعدما كان مسجداً جامعاً أصبح حسب قوله: "لا يكاد اليوم هذا المسجد تقام به الجماعة، ولا أعلم داراً واحدة بقيت لمن كانت له ممن أدركته ... فسبحان سيّد الكل مفي الخلائق"<sup>5</sup>، ويتعرّض في ترجمته لأبي زكريا يحيى بن الصقيل إلى حال المساجد الخربة التي كانت تقع خارج المدينة فيقول "كانت ملازمته للمقابر والمساجد الخربة، خارج البلد"<sup>6</sup>، كما يصف تراجع إحدى المساجد التي كانت بتلمسان بموضع تفرغنبو<sup>7</sup> خلال عصره بسبب إقامة قصر أبي فهر على أنقاضه بقوله:

<sup>1</sup> فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، 145.

<sup>2</sup> مع أنّ الباحث عبد العزيز فيلالي يذكر أنّ هذا الرقم لا يعبر عن الحقيقة، إلاّ أنّه لم يوضّح لنا إن كان هذا العدد مبالغاً فيه من حيث الكثرة أو أنّه لم يرق للتقدير المنشود الذي يجب أن تغطيه فترة حكم بني زيّان، وبالتفصي عن بطلان هذا الحكم من صحته خلصنا إلى تعزيز النتيجة التي ذهب إليها ذات الباحث اعتماداً على نازلة وردت في نوازل المعيار تضبط عدد المنازل التي يجب على أساسها إقامة المسجد في القرى، بعد خلاف وقع بين قريتين افترقا وأصبح لكلّ منهما مسجد للصلاة، "طائفة تصلي في الجامع الحديث الذي في القرية التي انتقلوا إليها من الحصن أول الهدنة. واحتجّ أهل هذه القرية المذكورة بأن قالوا إنّ قريتنا فيها ثلاثون داراً، والقرية التي فيها المسجد الجامع القديم ليس فيها إلاّ اثني عشرة داراً"، وعليه فعدد المنازل التي كانت تستلزم إقامة مسجد في المتوسط كانت 30 داراً بعدل 180 فرد كأقصى تقدير، وبمقارنة نسبة 125 ألف نسمة مع تعداد 60 مسجداً نجد أنّ العدد لا يغطّي هذه الكثافة وأقلّ بكثير من التقدير العددي المطلوب. الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 222/1.

<sup>3</sup> عمر بنميرة، مرجع سابق، ص 222.

<sup>4</sup> نظراً للخراب العمراني الذي طال المساجد فإنّ العديد من الفقهاء أفتوا بجواز إقامة الجمعة في المساجد المخربة والمهدومة حين سئلوا عن "الجمعة هل تقام في المسجد المهدم أم لا؟" فقبل "إن لم يكن في البلد مسجد سواه ولا أمكن أن يقضي من سقفه قبل خروج وقت الجمعة ما يقع عليه اسم مسجد، فقبل إنه تقام فيه الجمعة على حاله ويحكم لموضع المسجد بحكم المسجد". الونشريسي، المصدر السابق، 222/1.

<sup>5</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 183.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 107.

<sup>7</sup> لم نقف على أي معلومة تتعلق بهذا المسجد.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

"صار الآن ببعض دور القصر، والمسجد الآن محمول عليه بعض القصر المعروف بأبي قير<sup>1</sup>، وبقي مهملاً، فإنَّ الله وإنَّ إليه راجعون"<sup>2</sup>، كذلك الشيخ أحمد الغماري نزيل تلمسان الذي كان يبادر إلى إصلاح المساجد المخربة، فكان "شديد الرغبة في بذل الصدقات وفك الأسارى وعتق الرقاب وبناء ما خرب من المساجد"<sup>3</sup>. وإنَّ كُنَّا لا نقصي الكوارث الطبيعية التي لحقت بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، إلا أننا نحمل الظاهرة الحربية أيضاً جزءاً من هذا الدمار، لاشتراك هذه الوحدات الدينية في الأغراض العسكرية، ولجواز تخريب كل شيء يمكن للعدو الاستفادة منه خلال الحرب<sup>4</sup>، فرغم عظم حرمة المساجد إلا أن بعض الفقهاء أفتوا بهدم أسوارها إذا تعارض ذلك مع خيار قتل المحاربين، فهدم أسوارها والتضحية بها ثم إعادة بنائها بعد أن تضع الحرب أوزارها أهون من قتل المسلمين المتحصنين بها خلال الحرب، وقد جاء في نوازل الونشريسي قضية طرحت على بعض المفتين -يتعدّر علينا ذكرهم لعدم ورود أسمائهم في النازلة- "عن مسجد في بلد تحت قصر، وزعم هل البلد أنّ المحاربين يتعلّقون بالقصر من أعلى المسجد، هل يهدمون ما يلي القصر إذا خافوا على أنفسهم منه؟. فأجاب: يهدم الجانب فإذا أمنوا أعادوه"<sup>5</sup>.

إذا استحضرنّا واقع مساجد الفترة الزيانية فإنَّنا نجدها لم تخل من المشاركة في العمل الحربي، ومثل ذلك جامع المنصورة الذي خرب جزء من معدنته<sup>6</sup> نظراً لاستخدامه كمرصد عسكري للاطلاع على العدو بالإضافة إلى دوره الديني، ومع أنّنا لا نملك دليلاً صريحاً يثبت صحّة هذه المطارحة، إلا أنّ القرائن التي انفردت بها بعض النوازل والدراسات الأثرية تبين لنا الدور الذي كانت تلعبه العمارة الدينية في الحرب وما تشكّله من خطر على العدو، فالقمرات التي كانت تُحدث في الصومعات لاستخدامها كمرصد للإطلاع شكّلت خطراً وصدر قلق للعدو، وقد أجاز الفقهاء جواز إحداث هذه المراسد في المساجد، ومن ذلك ما سئل عنه المواق "عن أهل قرية دخل التصارى

<sup>1</sup> المخصوص بالذكر هنا قصر أبي فهر وليس أبي قير كما رود عند ابن مرزوق.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 158.

<sup>3</sup> ابن سعد التلمساني، روضة التّسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين، تح: يحيى بوعزيز، منشورات ANEP، الجزائر، 2002، ص 197.

<sup>4</sup> للمزيد من التّفصيل حول هذه الجزئية أنظر: زيتوني بلال، الأراضي الزراعية والحرب بالمغرب الأوسط الزياني، مرجع سابق، ص 899-906.

<sup>5</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 445/444/8. المازوني، الدرر، مصدر سابق، ص 275.

<sup>6</sup> عاصر ابن مرزوق تخريب جامع لمنصورة ووصفه قبل وبعد عملية التّخريب. للمزيد من لتّفصيل حول تخريب هذا الجامع انظر: ابن مرزوق الخطيب، المسند، ص 148 وما بعدها.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

قريتهم فخرّبوها وخلت القرية، وبقي جامعها قائم البناء وصومعة المسجد كذلك ... فأراد أهل القرية بناء قامة على الصومعة المذكورة تكون إغاثة لأهل بلش، وأهل الأرحى، والنوتية الهابطين إلى البحر<sup>1</sup>، اعتمادا على هذه التآزلة، واعتمادا على مراكمة التصوص التي أجمعت على هدم الزيانيين لجزء من مدينة المنصورة وجامعها بعد سنة 706هـ/1306م ومعاودة هذا التخريب بعد سنة 749هـ/1348م، نجد أنّ سبب أعمال الهدم والتخريب لم يكن بدافع الانتقام فقط مثلما سبق وأن أشرنا إليه في موضع سابق من هذه الدراسة، بل أنّ تخريبها أيضا كان بناءً على أسباب استراتيجية<sup>2</sup> مخافة أن يعود المرينيون لحصار تلمسان فيستغلّون هذه المئذنة لنفس الأسباب العسكرية، وذلك باستغلالها كمرصد لمراقبة تحركات العدو ومراقبة الخارج والوافد<sup>3</sup>، وبتبني مخرجات البحث الأثري لمدينة المنصورة المرينية نجد تطابقا كبيرا مع هذه النتيجة التي خلصنا إليها، فبعد العزيز لعرج أثناء وصفه المعماري لمئذنة جامع المنصورة قدر ارتفاعها بين 38 و45 متر، وبذلك تكون هذه المئذنة ثالث أعلى المآذن في المغرب والأندلس بعد مئذنتي جامع الكتبية بمراكش الذي يبلغ طولها 67.5م، ومئذنة جامع حسن في الرباط المقدّر طولها بـ44متر، ويقول في تحليله لطول المئذنة: "لا شك أنّ هذا الارتفاع كان له غرض آخر غير الغرض الديني من الدعوة إلى الصلاة، ونقصد بذلك استخدامها لأغراض عسكرية للمراقبة والإنذار ... وذلك أنّ المئذنة أُسّست في جوّ الصراع السياسي والعسكري، وفي فترة كان السيف فيها هو سيّد الموقف بين الزيانيين والمرينيين"<sup>4</sup>، ولا نستبعد أنّ يكون جزء من هذه المئذنة قد خرّب بعد انخزال بني مرين عند انجلاء الحصار.

تجدد الإشارة أيضا إلى أنّ الصدام العسكري المباشر ونوازع الانتقام لم تخل من بعث حركة التخريب في العمائر الدينية، خاصة إذا علمنا أنّ بني زيّان كانوا ينفكثون المهاندات القاضية بعدم تخريب هذه العمائر، وننوّه إلى ثلاثة

<sup>1</sup> الونشريسي، المصدر السابق، 149/7.

<sup>2</sup> للوقوف على الأسباب الاستراتيجية التي تجعل القائد يقوم بتخريب تحصينات مدينته ذاتها أو تحصينات عدوّه العسكرية مع التماذج خلال العهد الزياني، أنظر: الفصل الثالث من هذه الدراسة مبحث تخريب المنصورة.

<sup>3</sup> في نموذج مشابه لاستعمال المئذنة كمرصد للمراقبة يزعم ألفرد بيل وجورج مارسى أنّ سبب انتقال يغمراسن من القصر القديم إلى قلعة المشور كان بسبب إزعاجه من طرف المؤذنين الذين كانوا يطلّون من أعلى مئذنة الجامع الكبير على حريمه. ومع أنّه تمّ إبطال هذا الطّرح بالشواهد المنطقية لأنّ الانتقال تمّ قبل بناء المئذنة، إلّا أنّ الاستناد إلى استدلال جورج مارسى وألفرد بيل لم يقص المآذن من دورها العسكري كاستخدامها لنقطة مراقبة. سيدي أحمد نقادي، مرجع سابق، ص33. وليام وجورج مارسى، مرجع سابق، ص176. صبرينة نعيمة دحماني، مرجع سابق، ص79.

<sup>4</sup> عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص155.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

مواقف جرى فيها التعدي على هذه الاتفاقيات وتخریب العمائر المرينية؛ تخریب المنصورة الأولى والثاني<sup>1</sup> - وقد سبق الاستدلال على ذلك-، وفي فترة ليست ببعيدة لاحقا قام أبو حمّو بحصار تازي "وتخرّب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت"<sup>2</sup> مستغلا الفراغ الذي تركه السلطان المريني أبو العباس في تازي بعدما توجه لحصار أبي يفلوسن براكش، وإن كانت النصوص التاريخية والدراسات الأثرية<sup>3</sup> قد أجمعت على تخریب المنصورة في النموذجين الأول والثاني ولم تعطنا صورة شافية على خراب جامعها، فإنّ النموذج الثالث - أي تخریب أبو حمّو لمسجد تازورت - يبرز لنا أنّ المواجهة العسكرية المباشرة بغض النظر عن تحكيم نوازح الانتقام كان مبررا كافيا لتهديم مسجد تازورت. تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ أحد صور الحرب الممثل الاستعمار الفرنسي للجزائر في مرحلة متأخرة كان له الأثر في تشويه العمارة الدينية - والتفافية كما سنذكر لاحقا-، وننوّه هنا إلى المسجد المشيد على عهد أبي حمّو الأول بالمشور داخل القصبه، الذي وصفه ابن خلدون حين تطرّق لأخبار أخذ أبي حمّو الأول للرّهائن من مختلف العمالات بقوله: "واستبلغ في أخذ الرهن منه ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه بني عبد الواد. ورجع إلى تلمسان وأنزله بالقصبه وهي الغور الفسيح الخطة تماثل بعض الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن وكان يباليغ في ذلك حتى يأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط... فملا تلك القصبه من أبنائهم وإخوانهم، وشحنها بالأمم بعد الأمم، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء. واختط لهم المساجد فجمعوا بها لصلاة الجمعة"<sup>4</sup>، وقد كان يمثّل أحد هذه المساجد هذا الجامع الذي كان جزءا من قلعة كثيرا ما هوجمت، كما أنّه كان تابعا لمسكن ملكي قد تعرّض بفعل الحروب والثورات إلى أضرار وترميمات عديدة، فقاعة الصلّاة نفسها جدّد بناؤها أثناء العهد

<sup>1</sup> للمزيد من التفصيل حول اتفاقية الصلح القاضية بعدم تخریب العمائر المرينية المشيدة في المغرب الأوسط بعد الحصار الأول، والقرائن الدالة على تخریب المنصورة بعد انجلاء الحصارين من طرف بني زيّان وعدم احترامهم لهذه المهادنة، ينظر مبحث تخریب المنصورة من هذه الدراسة.

<sup>2</sup> ابن خلدون، العبر، 7/462-188. محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السّهران في أخبار مدينة وهران، تح: النهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 152.

<sup>3</sup> يقول عبد العزيز لعرج في دراسته الأثرية لجامع المنصورة: "إننا نجهل حالة الجامع بمعدنته التي وجدها عليها أبو الحسن حين نزوله بمدينة جدّه أبي يعقوب... كما أنّنا نجهل الصّورة الحقيقيّة للجامع عمارة وزخرفة قبل أعمال أبي الحسن وليس لدينا إلّا ما هو قائم اليوم، فابن مرزوق وهو معاصر لذلك لم يعط تفاصيل تلك الصّورة وإنّما اكتفى بإعطاء صورة مجملة عن الجامع والمثدنة". المرجع السابق، ص 132.

<sup>4</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/139.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

التركي، ومع ذلك فإنّ بروسلا يصف الخراب الذي وجد عليه هذا المسجد<sup>1</sup> بقوله: "وجدنا الرّخفة محطّمة، والمخطّط مشوّشا تماما، والأرضيّة مرتفعة"<sup>2</sup>، ولعلّ ذلك راجع إلى إقامة المستشفى العسكري المشيد هناك ثمّ الكنيسة الكاثوليكيّة الصّغيرة، فالقسّ برجس يشير إلى أنّ فرقة الهندسة العسكريّة التي قامت بإنشاء هذه الملحقة العسكريّة بعدما وُكّلت إليها عمليّة الترميم قامت بردم آثار ذات أهميّة قصوى<sup>3</sup>، ويتوافق ذلك مع رأي وليام وجورج مارسي وكذلك سيدي أحمد نقادي، فكلّ منهم يرى أنّ المعلم تمّ تشويبه عمدا، وهذا ما نتحسّسه من كلام جورج ووليام اللذان يقولان: "إنّ التّغييرات التي طالت المخزن الملحق بالمشفى العسكري، ثمّ الكنيسة الكاثوليكيّة الصّغيرة، قد نزعت عنه أي فائدة فنيّة"<sup>4</sup>، وكذلك رأي الباحث نقادي الذي يقول: " نظرا "لاستعمالاته العديدة من طرف الفرنسيين فإنّه فقد كلّ سماته سواء كان ذلك في مظهره الخارجي (تغيير الشّكل الخارجي للسّقف واستعمال القرميد المسطّح لمرسيليا) أو في المظهر الداخلي... لقد فقد المسجد محرابه وزخارفه وشوّهت استدارة أقواسه وغير مدخله، ولا أثر لميضاؤه"<sup>5</sup>.

### 2- الكنائس:

استقطبت الدّولة الزيانيّة بحكم موقعها الاستراتيجي العديد من الفئات خاصّة المسيحيين واليهوديّة، وقد ازدادت أهمّيّتها وتضاعفت مع ارتفاع حركة المبادلات التجاريّة ونشاط الحركة العسكريّة، فعلى المستوى الأوّل نجد أنّ التّجار المسيحيين كانوا يمثّلون جالية أجنبيّة مستقرّة في الدّولة الزيانيّة، ازدادت من حيث الأهميّة والتنظيم في القرن 7هـ/13م حيث كان التّاجر المسيحي يخضع للسيادة المحليّة، وإذا انتهى الأجل المحدّد لإقامته وأراد البقاء يتحوّل إلى معاهد أو ذمي يدفع الجزية<sup>6</sup>، والواضح أنّ حرّية المسيحيين لأداء شعائرهم كانت محفوظة بموجب اتّفاقيّات مبرمة بين سلاطين زيان والملوك التّصراييّة منذ العهود الأولى لقيام الدّولة الزياني حسبما توضّحه الوثيقة المؤرّخة سنة 686هـ/1286م،

<sup>1</sup> نرجّح أن تكون معاينة بروسلا لهذا المسجد ما بين 17 فيفري 1840م و5 أكتوبر 1870م بناءً على المناصب التي تقلّدها بروسلا بالجزائر في هذا الحيز الزّمني إلى غاية إعفائه من منصب بريفي عمالة وهران. سي حمو بن روستان، مرجع سابق.

<sup>2</sup> ليست هذه المرّة الأولى التي يتمّ فيها أدلجة النّص التاريخي في محاولة لشرعنة أعمال التّخريب الفرنسيّة، فجورج مارسي كما سنرى لاحقا مع المدرسة التّاشفينيّة يقدّم أسابا غير منطقيّة قصد إضفاء طابع الشّرعية لتخريب هذه المؤسّسة التّعليميّة. وليام وجورج مارسي، مرجع سابق، ص 437.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، نفس الصّفحة. سيدي أحمد نقادي، مرجع سابق، ص 36.

<sup>4</sup> وليام وجورج مارسي، المرجع نفسه، نفس الصّفحة.

<sup>5</sup> سيدي أحمد نقادي، المرجع السّبق، نفس الصّفحة.

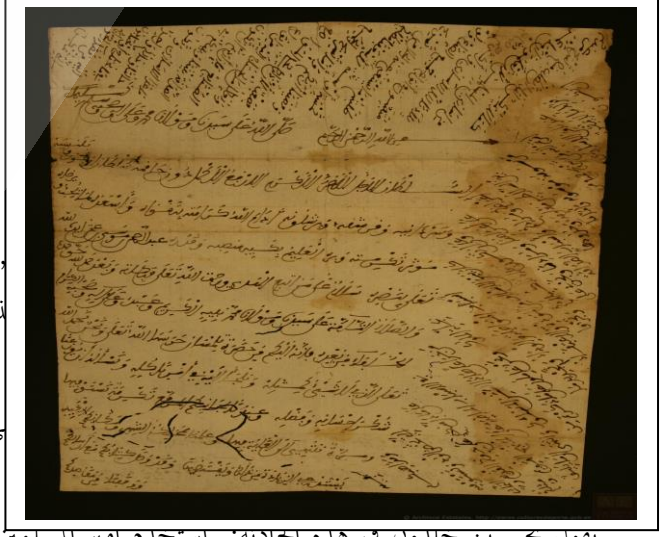
<sup>6</sup> فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، مرجع سابق، ص 190. روبر بارنشفيك، مرجع سابق، 477/1.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

المبرمة بين ألفونسو ملك أرغون وعثمان بن يغمراسن الزياني، وتقضي هذه الاتفاقية بتمكين المسيحيين المقيمين بقرى تلمسان من ممارسة شعائرهم شريطة عدم إقامة صومعة وأجراس لها<sup>1</sup>، أما على المستوى العسكري فقد وجدت المسيحيون في الجيش المرابطي والموحدي قبل قيام الدولة الزيانية<sup>2</sup>، كما أنّ يحيى بن خلدون وأخوه عبد الرحمان سجّلا لنا حضورهم في الجيش الزياني على عهد يغمراسن بعد أن قامت الفرقة المسيحية في جيشه بمحاولة تنظيم عملية اغتيال للسلطان نفسه<sup>3</sup>، ومع أنّ يحيى بن خلدون وأخاه عبد الرحمان قد أقصيا حضور الفرق المسيحية في الجيش الزياني، إلا أنّ شارل ديفورك يسجّل حضورهم في الجيش الزياني بقيادة الأب فيلاراجو Pere de Vilaragut سنة 1265م، حيث أرسل هذا الأخير من طرف الملك الأروغوني إلى تلمسان كسفير، وتلقى "نفس الصلاحيات العسكرية والمدنية لمدة ثلاث سنوات"<sup>4</sup>، وبعده بعامين أرسل قيوم قالسيران Guillem Galcerân "لنفس السبب العسكري"<sup>5</sup> حسب تعبير شارل ديفورك.

كما سجّل الأسرى رفقة التجار والقادة العسكريين المسيحيين فئة معتبرة من المسيحيين الذي تواجدوا على أراضي الدولة الزيانية وتمازجوا مع المجتمع الزياني، وقد قدرتهم بعض الدراسات بالآلاف<sup>6</sup>، وقد سجّلت الوثائق حضور هذه الفئة في مفاوضات مفاداة الأسرى بين الطرفين، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن أماكن عبادة هؤلاء ومصير الكنائس خلال حالة الحرب التي شهدتها المغرب الأوسط الزياني.



يقول يحيى بن خلدون في هذه الحادثة: استخدم أمير المسلمين ربهون مسيحيين من روم وسوميين وسومانيين من روم الأربعة والخامس والعشرين ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وستمئة، عرض عساكره كافة بالمنية من ظاهر الحضرة، فغدر به التصاري عند مروره بساقاتهم، فقتلوا أخاه محمدا... وذلك هو السبب في عدم استخدام التصاري عند بنيه حتى الآن". يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 1/227-228. ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 7/113.

<sup>4</sup> Charles- Emmanuel Dufourq, opcit, p151.

<sup>5</sup> Opcit, p 151.

<sup>6</sup> فيلالي عبد العزيز، مرجع سابق، ص 191.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

الرسالة رقم 91 بأرشيف التاج الأروغوي<sup>1</sup>. الرسالة رقم 113 بأرشيف التاج الأروغوي<sup>2</sup>.

من الطبيعي أن تنشأ الخلافات بين المسلمين وغيرهم خاصة وأن خلفيات علاقة القوى الأوروبية المسيحية والقوى الإسلامية ارتكزت على العداوة بين دينين وحضارتين اصطدمتا بعنف، وأن المغاربة كانوا يعتبرون أنفسهم قبل كل شيء مسلمين، وأن الأوروبيين أولاً وقبل كل شيء مسيحيين خاضعين لسلطة البابوية، ونحن نعلم أن البابا لن يقبل بسهولة أن تكون العلاقة متينة بين المسيحيين والمسلمين<sup>3</sup>، نظراً لتفكيره في الحروب الصليبية ضد "الكفار"، ولكنه في الوقت نفسه كان مضطراً للسماح بإقامة نشاط تجاري بين الطرفين مع فرض نوع من التقييد، والأمر نفسه

<sup>1</sup> مؤرخة في 723-724هـ وهي رسالة من السلطان الزياني بتلمسان أبو تاشفين الأول إلى ملك أرغون حول تحرير الأسرى المسيحيين، يخبره فيها بتعدّد الموافقة على إطلاق سراح لجميع بحجة حذقهم في الصناعات والحرف وحاجته إلى إعمار تلمسان بهم، وأن إطلاق سراحهم يعني تعطيل ما يحتاج إليه من أنواع الصناعات. انظر نصّ الرسالة كاملاً في الملحق رقم 08 ص 280.

<sup>2</sup> مؤرخة في 23 صفر 764هـ الموافق لـ 11 ديسمبر 1362م من السلطان الزياني أبو حمّو موسى الثاني إلى بيدرو الرابع، هذا الأخير الذي أرسل في طلبه لعقد معاهدة صلح بين الطرف الزياني والأروغوي وتخلّل ذلك طلب إطلاق سراح الأسرى المسيحيين الذي قاموا بالتعدي على السفن بمرسى هنين لكن أبا حمّو الثاني رفض ذلك بحجة أنّهم البادؤون بالإغارة، ويبدو أنّ هؤلاء الأسرى كانوا يتمتّعون بكامل الحرّيّة الدينية، وهذا ما نلمسه في قول أبي حمّو في هذه الرسالة: "وأما قضية النصارى الذين كانوا أخذوا في الأجفان وخرجوا بمرسانا هنين... فإنّهم كانوا تحت رعي وكرامة برضى منهم وطيب نفس واختيار من غير ضرر يلحقهم في ذلك ولا ضرار". انظر نصّ الرسالة كاملاً في الملحق رقم 04 ص 276.

<sup>3</sup> تجدر الإشارة إلى أنّ طابع تخريب العمارة الدينية الإسلامية ومحو مقوماتها لم تكن ظاهرة خصّت بها حالة الحرب في المغرب الأوسط فالطرف المسيحي بادر إلى تحويل المساجد والعمائر الدينيّة إلى كنائس كلّما سنحت له الفرصة وكلّما قويت شوكته، وتظهر أحد الرسائل المرسلّة من طرف سلطان بني الأحمر أبو عبد الله الذي استنجد بالسلطان المريني يعقوب بن عبد الحق حجب ذلك، فقد قام النصارى بطلب الكنائس الواقعة تحت يد بني نصر وذلك بغية تحويلها إلى كنائس وأماكن عبادة للمسيحيين، وقد جاء في هذه الرسالة: "... فقد تطاول العدوّ النصراني على بلاد الإسلام... وطلب منّا أن نلّم له ما بقي بأيدينا من المنابر والصوامع والمحارب والجوامع ليقم بها لصلبان ويثبت بها ألسنة والرهبان، وقد وطأ الله لك ملكاً عظيماً، شكرك الله على جهادك في سبيله... فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره واقتباس نوره". ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص 140-141.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

بالنسبة للسلطة الزيانية التي أبدت تسامحا مع هؤلاء، فقد وصف يحيى بن خلدون تلمسان بقوله "...وبها آثار عادية، وكنائس حتى الآن عامرة بالتصاري معمورة"<sup>1</sup>.

أما اليهود فقد استقروا في بلاد المغرب منذ العهد القديم قبل الفتح الإسلامي له، حيث جاؤوا مع الفينيقيين في موجات متعاقبة وعلى مراحل متفرقة، وعند فتح المسلمين لبلاد المغرب وجدوا جاليات يهودية تقطن مناطق مختلفة من ربوعه، وتزايد عددهم في العهد الموخدي بسبب اضطهاد مسيحي اسبانيا لهم، وهاجر طائفة منهم إلى دولة بني زيان، واستقروا بها بعد الضغط الذي تعرّضوا إليه من قبل القشاليين والقطلونيين سنة 794هـ/1391م، وتضاعف عددهم مع سقوط غرناطة 897هـ/1492م، واستقروا بالمغرب الأوسط على شاكلة المسيحيين كمعاهدين أو ذميين يدفعون الجزية وقد قدرها أبو الفضل العقباني بمبلغ 4 دنانير و40 درهما سواء في الحضر أو في البادية<sup>2</sup>، إلى أن استقرّ بهم الأمر لامتلاك رؤوس لأموال في المغرب الأوسط الزياني بسبب نشاطهم التجاري هناك، وانخراطهم في العمل الدبلوماسي بين دولة بني زيان والدول الإسبانية<sup>3</sup>، وحتى لا نستطرد بذكر أخبارهم فإنّ العامة كانت تسخط لسيطرتهم على مختلف هذه الأنشطة، فقامت بعد موت السلطان أبي عبد الله محمد الخامس الزياني بنهب أموالهم وتعرّضوا لشتى أنواع المضايقات<sup>4</sup>، ممّا يعكس حالة الاحتقان الشعبي لدى العامة لوجودهم في أراضي الدولة الزيانية.

على العكس ممّا اتّسم به طابع العلاقات الزيانية مع المسيحيين فإنّ العلاقات بين المسلمين واليهود في المغرب الأوسط في القرن 9هـ/15م تطوّرت إلى الحدّ الذي أصدر فيه فقهاء المغرب الأوسط وتلمسان فتوى هدم كنائسهم بتوات<sup>5</sup>، وعلى رأسهم محمد بن عبد الكريم المغيلي، وذلك بسبب توليتهم أحكام جلّ قرى توات ونواحيها حيث

<sup>1</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرود، مصدر سابق، 129/1.

<sup>2</sup> المازوني، الدرر، مصدر سابق 409/1.

<sup>3</sup> مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية مرجع سابق، 159/2-165. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 193.

<sup>4</sup> حسن الوزان، مصدر سابق، 20/2.

<sup>5</sup> تجدر الإشارة إلى توات كما سبق ذكره كانت تخمنا تابعا للمغرب الأوسط بناء على ما أورده الونشريسي في المعيار في نازلة "يهود توات من قصور صحراء المغرب الأوسط"، وهو بذلك ينسب توات أو جزءا منها خلال الفترة التي عاصرها إلى المغرب الأوسط. الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 214/2.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على النبنى العمرانيّة في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

تعدّوا على الأحكام الشرعيّة وبدّلوا عادات المسلمين فيها، بالإضافة إلى ممارساتهم الرباويّة<sup>1</sup> وشرائهم لذم السلاطين وجعلهم بطانة لهم يشاركون في الحكم، وقد زاد الأزمة حدّة بعد أن شيّد أولئك اليهود كنيسة لهم بتمنيط أكبر قصور توات<sup>2</sup>، وهذا ما تظهره ديباجة رسالته إذ جاء فيها: "هذا كتاب من عبد الله محمد بن الكريم بن محمد المغيلي التلمساني... أما بعد: فقد سألتني بعض الأخيار عمّا يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، وعمّا يلزم أهل الذمّة من الجزية والصغار، وعمّا عليه أكثر يهود هذا الزمان من التّعدي والطغيان، والتّمرّد على الأحكام الشرعيّة والأركان، بتولية أرباب الشوكة أو خدمة السلطان فقلت والله المستعان"<sup>3</sup>، ونظر لأهميّة هذه الحادثة التاريخيّة فإنّ أغلب المصادر قيّدت الخلاف الواقع حول تخريب كنائس اليهود في توات<sup>4</sup>، وقد عارض المغيلي في ذلك الشيخ ابن زكري والفقيه عبد الله العصنوني قاضي توات، واعتبروا ذلك ضرباً من ضروب الجاهليّة نهي عنها الإسلام الذي يدعو إلى التسامح، بينما عارضه رأي الإمام عبيد الله محمد بن يوسف السنوسي والتنسي، فأدّى ذلك بالمغيلي إلى تأليفه لرسالة في أهل الذمّة يبيّن فيها مكر اليهود لمخالفه سمّاها: "مصباح الأرواح في أصول الفلاح"<sup>5</sup>. ما إن وصل جواب التنسي والسنوسي الذي يقضي بتأييد المغيلي في فتواه حول تخريب كنائس توات حتى بادر المغيلي بجمع طائفة من أتباعه وقام بتهديمها، وكان ذلك في حوالي (891هـ/1488م)، وفي هذا الصدد يقول ابن مريم والتّمبكتي: "فأخذوا آلات الحرب وقصدوا تلك الكنائس مشمرين للقتال، وقد أمرهم [المغيلي] بقتل من عارضهم دونها فهدموها ولم يعارضهم فيها أحد"<sup>6</sup>، وقد نظم المغيلي آنذاك قصائد مدح فيها النبي " صلى الله عليه وسلم " وذم فيها اليهود ومن نصرهم بقوله: (بحر البسيط):

بَرِئْتُ لِلرَّبِّ الوُدُودِ  
مِنْ قُرْبِ أَنْصَارِ اليَهُودِ  
قَوْمٌ أَهَانُوا دِينَهُمْ  
وَأَكْرَمُوا دِينَ اليَهُودِ

<sup>1</sup> يؤكّد المازوني على نفوذ شوكة اليهود في أغلب التّجارات بالمغرب الأوسط حسبما وضّحه أحد التّوازل التي استفتي فيها أبو الفضل العقباني. المازوني، الدرر، 408/1. محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسلاطين، مصدر سابق، ص 9.

<sup>2</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 30

<sup>3</sup> محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، مصدر سابق، ص 18.

<sup>4</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 272-273. الونشريسي، المصدر السابق، 214/2-218. محمد بن عبد الكريم المغيلي، المصدر السابق، نفس الصّفحة. أحمد بابا التّمبكتي، نيل الإبتهاج، مصدر سابق، ص 576.

<sup>5</sup> محمد بن عبد الكريم المغيلي، المصدر نفسه، ص 21-22. الونشريسي، المعيار، 214/2.

<sup>6</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 273. التّمبكتي، نيسل الابتهاج، مصدر سابق، ص 577.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

يَكْفِي الْفَتَى مِنْ شَأْنِهِمْ وَخُبْتُ أَصْلَ صُنْعِهِمْ<sup>1</sup>

### ج- الزوايا

أُردفت كلمة الزاوية بالمغرب الإسلامي لكلمة "الرباط" بالمشرق الإسلامي، ويوضح ابن مرزوق ذلك إذا يرى أنّ "الزوايا هي التي يطلق عليها في المشرق الربط"<sup>2</sup>، وبذلك فإنّ الزاوية ربطت بين المفهوم الديني والروحي والدور الحربي، فالرباط معناه؛ احتباس النفس في الجهاد والحراسة، و"ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطا. وربما سميت الخيل نفسها رباطا، والرباط المواظبة على الأمر"<sup>3</sup>، ويعنى أيضا بالموضع الذي تلتزم فيه العبادة وهو محل للصوفية ومستقر لهم<sup>4</sup>.

أبرزت حالة الحرب الدائمة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي واقعا مخوفا يتميز بالديمومة وعدم الانقطاع، شكّلت فيه حالة غياب الأمن وما أفرزته من أزمات اقتصادية واجتماعية ظاهرة دورية، وقد أسهم هذا الواقع في رسم المعالم الأساسية لتعاضم مكانة الأولياء، واتساع حيز اللاجئين إليه وترسيخ ثقافة الاعتقاد في أهل التصوف والولاية وأصحاب الزوايا ودورهم في مجابهة ما أنتجته ظاهرة غياب الأمن وما انجر عنها من نتائج وآثار<sup>5</sup>، فكان العامة ينظرون إليهم على أنّهم أساس العدل، و"لولاهم لغمرت الفتن وفسدت الأرض"<sup>6</sup>، وعلى أنّهم المخلصون في الحروب والحصارات، كالولي عبد الرحمان بن أبي زيد الهزميري الذي ذكر ابن القنفذ والتمبكتي أنّ كرامته كانت سببا في انجلاء الحصار الطويل الذي ضربه أبو يعقوب يوسف على تلمسان<sup>7</sup>، أو الولي الحسن أبركان (ت 857هـ/1453م) الذي أرجع إليه السبب في فشل حملة السلطان الحفصي أبو فارس على تلمسان<sup>8</sup>، أو الولي عبد الله بن منصور الحوتي (عاش خلل ق 9هـ/15م) الذي أرجعت المصادر المناقبية كرامته سببا في إفشال أحد

<sup>1</sup> المغيلي، المصدر السابق، ص 45 .

<sup>2</sup> ابن مرزوق، المسند، مصدر سابق، ص 411.

<sup>3</sup> المقرئزي، مصدر سابق، 600/3.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، نفس الصفحة. ابن مرزوق، المصدر السابق، نفس الصفحة.

<sup>5</sup> حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 467.

<sup>6</sup> المازوني، صلحاء واد الشلف، مصدر سابق، ص 172.

<sup>7</sup> ابن القنفذ، أنس الفقير، مصدر سبق، ص 70. التمبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 242.

<sup>8</sup> ابن مريم، البستان،



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزباني

الحملة الحفصية الموجهة لتلمسان وإفساد محلاته الثلاث<sup>1</sup>... وغيرها من النماذج التي يضيق المقام عن ذكرها جميعا

نظرا لانتشار ظاهرة التعلق بالوليّ واللجوء إليه لاستجلاب بركاته والاستغاثة به " واستجاره في أماكن الخوف ومواطن النهب والأزمات"<sup>2</sup>، فقد كان العامة أو الفارّون خلال الحرب يقصدون محلات الأولياء بأماكن خلواتهم أو بالزوايا<sup>3</sup> للاحتماء ببركتهم<sup>4</sup>، وقد أكّد الونشريسي على وجود هذه الظاهرة في نازلة سئل عنها بعض الشيوخ<sup>5</sup>، في فتوى أبان فيها ظاهرة المتخفين في الزوايا من الأعراب خلال الحرب، جاء فيها: "... وكذلك أهل الخلاف من الأعراب وغيرهم، فلا تجوز إعانتهم بكل ما يتقوون به على مفسدتهم كإيواء أهل الزوايا لهم، وإطعامهم الطعام أو صومهم ممن يريدهم للانتفاع منهم. ويدخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام: من أحدث حدثا أو أوى مخذة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وقال ابن عرفة لا يعذر المرابطون بالخوف منهم، لأنهم يأوون إلى الحواضر، ويكون حالهم حال جميع الناس"<sup>6</sup>، وكذلك ما ساقه ابن مريم عن محمد الهوّاري الذي زاره الشيخ منصور بن عمر الدبلي بوهران، فلما سأله محمد عن حاله وعرف أنّ له زاوية وأنّ الناس يتعلّقون به طلبا للأمان على أنفسهم وأموالهم قال له " لا ينبغي أن يتخذ زاوية، ولا يتعرض لتأمين الناس إلا من كان بها محفوظا لا يقدر أحد أن يتعدّى عليه وعلى حرمة"<sup>7</sup>.

حتى لا نستفيض بذكر القرائن الدالة على مكانة الوليّ ودوره في الأزمات والحروب في المغرب الأوسط لاعتباره موضوع بحث بذاته، فإنّ القرائن الدالة على تحريب الزوايا خلال الحالة الحرب تكاد تكون معدومة إذا ما استثنينا تحريب زاوية الشيخ أبي يعقوب<sup>8</sup> على إثر الحملة التي وجهها محمد بن علي بن غانية في صفر 681هـ/1282م في

<sup>1</sup> ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 158.

<sup>2</sup> المازوني، صلحاء الشلف، مصدر سابق، ص 132-197. الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 6/171.

<sup>3</sup> بلغ الأمر بالاعتقاد بالأولياء حسبما توضّح نازلة طرحت على محمد بن مرزوق إلى درجة تعظيم المساجد والزوايا وذلك بأن يسقوا لهذه العمائر الأباريق والأواني والطعام والفاكهة والصّوانج. المازوني، الدرر، 4/266

<sup>4</sup> ابن سعد، روضة التّسرين، مصدر سابق، ص 230.

<sup>5</sup> لم نوصّل إلى معرفة الطّرف الذي أراد الاستفتاء في قضية بيع ما يستعان به على حرب المسلمين نظرا لأنّ الونشريسي ترك النّازلة مرسلة دون تقييد، ويظهر ذلك في قوله: "سئل بعضهم".

<sup>6</sup> الونشريسي، المصدر السابق، 6/67.

<sup>7</sup> ابن مريم، المصدر السابق، ص 255.

<sup>8</sup> نوّه إلى ضرورة التّفريق بين زاوية أبي يعقوب التي أنشأها أبو حمّو موسى الثّاني تحليدا لوالده أبو يعقوب بعد وفاته سنة 763هـ والتي يصفها يحي بن خلدون بقوله: "وفي أوائل شعبان تويّ بمدينة الجزائر والد الخليفة نصره الله المولى أبو يعقوب.... ودفنه بباب



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياتي

المغرب الأوسط، وانتهى إلى شلف فخرّب هذه الزاوية، فقد "عاث علي بن محمد ابن غانية في الأموال وفرّقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم ورحل إلى الجزائر ... مليانة ... وانتهى إلى مازونة فافتتحها"<sup>1</sup>، وبعدها إلى زاوية الشيخ أبي يعقوب بشلف " فأغار جيش ابن غانية على زاويته، وكانت كثيرة العمارة لانضمام الناس إليه لانتشار الفساد في ذلك وسلبوا الأموال والأثاث وانتهبوا المواشي"<sup>2</sup>.

الجدير بالذكر أنّ هذه الزاوية تعرّضت مرّة أخرى بعد حملة بني غانية عليها إلى هجوم آخر علي يد عبد القوي بن العباس التوجيني، والسبب في ذلك أنّ ذخائر قبيلة مغراوة كانت مخبأة كلّها في زاوية الشيخ أبي يعقوب، فلما انتهى هذا الخبر إلى عبد القوي، "جاء بقبيلته ومحلّته ونزل بشلف، وسار بجيشه للزاوية، واستلبوا كلّ ما وجدوه، وانتهك الحريم وجردوا النساء من داخل المسجد، وكلّ ذلك على عين الشيخ"<sup>3</sup>.

### 3- المقابر :

تعتبر المقابر من المعالم العمرانية التي اكتست طابعا دينيا لا يقل شأنًا عن المساجد والزاويا، وقد تفسّر بعض التوازل الحرمة الكبيرة التي حُصّت بها هذه العمائر، ومنها الفتوى التي سئل عنها محي الدين النووي حول هدم المسجد الذي بني في مقابر المسلمين، حيث سئل "عن مقبرة مسبلة للمسلمين بني بها إنسان مسجدا وجعل فيه محرّبا هل يجوز له ذلك؟ وهل يجب هدمها أم لا؟ فأجاب لا يجوز ذلك ويجب هدمها"<sup>4</sup>، وربما يدلّ هذا العكوف عن نبش المقابر إلى حدّاتها، لأننا نعلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم بني مسجده على قبور قديمة دائرة<sup>5</sup>، والظاهر

---

إعلان استناداً لبقية منه، ثمّ نقل إلى جواره أخويه السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت رحمهما الله من مدفئهما بالعباد، وشرع نصره الله حينه في بناء مدرسة وزاوية على قبورهم". وبين زاوية أخرى تحمل نفس الاسم وهي المخصوصة بالذكر هنا هي زاوية أبو يعقوب العشاءشي التي شيّدت قبل حوالي قرن من ذلك وهي التي وصفها محمد بن يوسف الزياتي نقا عن المهذب الرائق للمازوني بقوله: "ظهر شرف أبي يعقوب آخر المائة السابعة" ويواصل الزياتي: "وأبو يعقوب هذا هو الذي أخذ زاويته بالشلف تعدّيا محمد بن عبد القوي ابن عطية التوجيني بعد أن زار ولي الله واضح بن عاصم المكناسي". يحيى بن خلدون، بغية الرواد، المصدر السابق، 100/2. محمد بن يوسف الزياتي، دليل الحيران، مصدر سابق، ص 83.

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، 254/6.

<sup>2</sup> المازوني، مناقب صلحاء الشلف، مصدر سابق، ص 196.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 197-198.

<sup>4</sup> الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 329/7.

يقول الطبري في ذلك: "الصحيح عندنا في ذلك، ما حدّثنا مجاهد بن موسى، قال: حدّثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرتني حماد بن سلمة، عن أبي التياح، عن انس ابن مالك، قال: كان موضع مسجد النبي ص لبيّ النجار، وكان فيه نخل وحُرث وقُبُور من قبُور الجاهليّة، فقال لهم رسول الله ص: تأمّنوني به، فقالوا: لا نبتغي به تمنا إلا ما عند الله فأمر رسول الله ص بالنخل ففُطِع، وبالْحُرث

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

أن الونشريسي لم يغفل هذا التفصيل حيث أبان في أحد التوازل التي أجاب عليها ابن لب عندما سئل عن البناء على المقابر كبناء المسجد أو الصومعة أن ذلك يخضع لقدم المقبرة، أما المقابر الحديثة فلا يجوز نبش قبورها وإحداث أي عمائر عليها<sup>1</sup>.

إن العلاقة بين الحرب ونبش القبور ترتبط بالأساس بحفظ حالة الأمن، لأنّ دواعي تخريب المقابر الدائرة خلال العهد الزياني كان يتمّ لضرورات أمنية تتعلق بإقامة الأسوار، أو توسعتها وتشبيد الأبراج لحفظ الأمن داخل المدينة، وبناءً على أماكن تواجد هذه الأسوار تتحدّد طبوغرافيا المقابر<sup>2</sup>، وقد أكّد ذلك الانتقاد الشّديد الذي قدّمه الونشريسي بعد رحيله من تلمسان إلى فاس في عهد التوكل الزياني<sup>3</sup> لنبش القبور تحقيقاً للضرورة الأمنية، وإباحة فقهاء تلمسان لذلك سنة 876هـ/1471م، ويظهر ذلك في جوابه: "قلت: من هنا تعلم أنّ ما وقعت به الفتوى بتلمسان سنة ست وسبعين من إباحة حفر قبور ونبشها لإنشاء سور أو برج مكانها مع عدم الضرورة الملجئة لذلك خطأ صراح لا يحلّ ولا يباح"<sup>4</sup>، وإن كان الونشريسي قد حمل تشبيد الأسوار والأبراج ومختلف الاستحكامات العسكرية مسؤولية خراب المقابر، فإنّه أبان أيضاً عن مدى تساهل الفقهاء بإصدارهم لفتاوى تقضي بتخريبها ونبش القبور فيها مع عدم الضرورة الملجئة لذلك، كما أنّ أبو عبد الله بن مرزوق وضع شروطاً لحرق المقبرة، وأجاز ذلك في حالة مرور السنين العديدة على المقبرة أو ضيقها عندما سئل عن "مقبرة لها ثمانون سنة وأزيد، وإذا حُفر فيها لميت توجد بعض عظام الموتى، فهل يجوز ذلك"<sup>5</sup>، وفي نسق مشائي مع حفظ حالة الأمن مقابل الانتفاع بأي شكل من أشكال العمارات أو الأراضي نجد أنّ الفقهاء أيضاً أصدروا فتاوى تتعلق بمنح العامة أراضيهم لإقامة أسوار مكانها مقابل عوض يأخذه صاحب الأرض عند الضرر، خاصة إذا كان أمر العدو متوقعاً، وهو ما تبيّنه فتوى الوغليسي الذي سئل "عن جنة تقرب من سور البلد وخشي الإمام أن يطرقه العدو منها لقرّبها منه فابتاعها

فَأُفْسِدَ، وَبِالْقُبُورِ فُنْبِشَتْ، وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ص قَبْلَ ذَلِكَ يُصَلِّي فِي مَرَابِضِ النِّعَمِ، وَحَيْثُ أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ". أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصدر، ط2، 2/ 396-397.

<sup>1</sup> الونشريسي، المصدر السابق، 328/1، 204/7-205.

<sup>2</sup> سناء عطّاي، مرجع سابق، ص149.

<sup>3</sup> المازوني، الدرر، مصدر سابق، 17/1.

<sup>4</sup> الونشريسي، المصدر السابق، 329/1.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، نفس الصّفحة.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

من ربّها ... فأجاب: ... إلا أن يكون اختصاصها وبنائها من قبل إنشاء السور فلا بدّ من دفع الثمن على كلّ حال وهذا كلّه إذا ظهر ضرر بها"<sup>1</sup>.

وحثّى لا نحمل الجانب الحربي والضرورة الأمنية كل المسؤولية في خراب المقابر، فإننا ننوّه إلى أنّ الجوانب الاقتصادية كانت محرّكا لقضايا تحريبها، ونتحسّس ذلك في الإشارة التي قدّمها ابن مرزوق حول يحيى بن إبراهيم بن علي العطار الذي كان عاملا للسلطان الزياني أبو تاشفين الأوّل وأوعز بتخريب ضريح أبي مدين بالعباد، ذلك أنّ التجار كانوا يتحايلون في دفع الضرائب وذلك من خلال الاحتماء ببركة هذا الولي فنقصت المجابي و"ضاعت بسبب ذلك"<sup>2</sup>، ومع أنّ الهالة الكرامية قد طبعت هذه الرواية لأنها أقيمت فاعليّة الولي أبو العباس بن مرزوق الذي دعى على يحيى بن العطار بالموت ميتة تتحدّث بها مشارق الأرض ومغاربها، فكان له أن قُذِف بالمنجنيق الذي نصبه السلطان المريني أبو الحسن عند حصاره لتلمسان، إلا أنّها أشارت إلى أنّ التعارض في حفظ المصلحة الاقتصادية - على غرار الضرورة الأمنية- يعدّ من بين الأسباب لهدم أضرحة الأولياء.

### المطلب الثاني: المدارس

عقد ابن خلدون فصلا في أنّ "العلوم إنّما تكثر حيث يكثر العمران وتعمم الحضارة"<sup>3</sup>، وعلى التقيض من ذلك يربط ابن خلدون كساد سوق العلم والتعليم بوفاة العلماء وانقطاع سندهم في العلم، ونتحسّس ذلك في قوله: "وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه، وانقطاع سند العلم والتعليم"<sup>4</sup>، والدولة الزيانية بلغت -دونما شكّ- تطوّرا حضاريا ملحوظا في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمرانية، وقد شكّلت المدارس داخل هذا الإطار الحضاري خلال العهد الزياني حجر الأساس، وشكّلت أحد الروافد المهمة التي قامت بعمّة التعليم إلى جانب المؤسسات العلمية الأخرى كالمساجد والزوايا، وقد كان للتنوع التاريخي الذي مرّ به المغرب الأوسط الأثر الكبير في تنوع هذه المدارس إذ بنى الزيانيون مدرسة ابني الإمام، والمدرسة التاشفينية والمدرسة اليعقوبية<sup>5</sup>، كما بنى المرينيون في فترات سيطرتهم على العاصمة الزيانية مدرسة العباد وسيدي الحلوي، والملاحظ أنّ

<sup>1</sup> المازوني، الدرر، مصدر سابق، 274/3.

<sup>2</sup> ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 229.

<sup>3</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، 356/2.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 360/2. ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص 51.

<sup>5</sup> سيتمّ التطرق بالتفصيل إلى وصف هذه المدارس في موضع لاحق.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

هذه المدارس صمدت إلى غاية عهد ليون الإفريقي حيث أشاد بها قائلا: "لها خمس مدارس حسنة جيدة البناء، مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، شيّد بعضها ملوك تلمسان، وبعضها ملوك فاس"<sup>1</sup>. وعلى العكس من الآثار التي خلفتها الحرب على البنى العمرانية الأخرى فإنّها لم تمسّ المدارس الزيانية في العصر الزياني، نظرا لمرافقة السلاطين وتشجيعهم لحركة العلم والتعليم وتشديد العماير المتعلقة بها خلال هذا العصر<sup>2</sup>، وقد يقطع دابر الشك فيما زعمناه شهادة العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي (ت 757هـ/1356م)، حيث أدلى برأي صريح حول واقع المدارس في العهد الزياني فيما نقله تلميذه المقرّي، ويظهر ذلك في قوله: "سمعت شيخنا الآبلي يقول: إنّما أفسد العلم كثرة التّواليف، وإنّما أذهب ببناء المدارس، وكان ينتصف له من المؤلّفين والبانين وإنّه لكّمّا قال، غير أنّ في شرح ذلك طولاً"<sup>3</sup>، وأعقب ذلك بشرح لكثرة بناء المدارس وما ترتّب عنها من ضياع للعلم بقوله: "وأما البناء فلأنّه يجلب الطلبة إلى ما يرتّب فيه من الجرايات، فيقبل بها على ما يعينه أهل الرّياسة للإجراء والإقراء منهم، أو ممن يرضى لنفسه الدّخول في حكمهم، ويصرفونها عن أهل العلم حقيقة، الذين لا يدعون إلى ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا، وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم"<sup>4</sup>، الأمر الذي يعكس كثرة المدارس وسيطرة السّلطة عليها سيطرة تامة، وإسئالنا من زاوية أخرى عن المدارس المندثرة، فإن ظلّت هذه المدارس قائمة حتّى عهد ليون الإفريقي وحظيت بعناية السّلطة الزيانية فمتى تمّ تحريمها؟.

### 1- المدرسة التاشفينية :

تحمل هذه المدرسة اسم مشيّدتها أبو تاشفين بن أبي حمو الأوّل بجانب المسجد الأعظم، الذي أراد تكريم الفقيه أبو عمرا موسى المشدالي<sup>5</sup> فأنشأ له هذه المدرسة، يصفها التّنسي بقوله: "وحسن ذلك كلّه ببنائه المدرسة الجليلة

<sup>1</sup> حسن الوزان، مصدر سابق، 19/2. يقول القلصادي عن مدارس تلمسان في نهاية القرن 9هـ/15م: "أدركت فيها كثيرا من العلماء والصّالحاء والعباد والزّهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المتعلّمين والمعلّمين رابحة". أبو الحسن علي القلصادي، رحلة القلصادي، تح: محمد أبو الأجنان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م، ص 95.

<sup>2</sup> للمزيد من التّفصيل حول المدارس التي قام الزيانيون والمرينيون بتشييدها وتشجيع سلاطين بني زيّان لحركة التّعليم واستمالة العلماء للتّدريس بتلمسان، أنظر: فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، 321/2-357.

<sup>3</sup> المقرّي، نفع الطّيب، مصدر سابق، 275/5-276. الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، 479/2. التّمبكتي، نيل الابتهاج، ص 414.

<sup>4</sup> نفس المصادر، نفس الصّفحات.

<sup>5</sup> Bargès, Jean-Joseph-Léandre (1810-1896), Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom : sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments, paris, 1859, Imprimerie orientale de Harius Nicolas, à Heulan, p332.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

العديمة النظير التي بناها بإزاء الجامع الأعظم ... فكان له بالعلم وأهله احتفال"<sup>1</sup>، ويقول المقرئ فيها: "ما رأيته مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني وهي من بدائع الدنيا، وهو:

انظُرْ بِعَيْنِكَ بِهَجَّتِي وَسَنَائِي وَبَدِيعِ إِتْقَانِي وَحُسْنِ بِنَائِي  
وَبَدِيعِ شَكْلِي وَاعْتَبِرْ فِيمَا تَرَى مِنْ نَشَائِي بَلْ مِنْ تَدَقُّقِي مَائِي"<sup>2</sup>.

وعلى الرغم من إشادة المصادر بجمال هذه المدرسة ووصف اهتمام سلاطين بني زيان بها، إلا أنه لم يكتب لها أن تقاوم آلة الحرب ووظيفتها التدميرية فأصبحت خرابا بعد عين، بعد أن قاومت ربح الدهر ولم تندثر إلى غاية سنة 1876م، ويبدو أنها كانت في آخر عهدها تحمل الترميمات الهامة التي أدخلت عليها من طرف أبي العباس أحمد (834-866هـ/1430-1462م) بعد حوالي قرن، لكن التنسي استعمل أثناء وصفه لهذا الترميم تركيبا يشوبه لكثير من الغموض إذ يقول: "وبني بزوايته المدرسة الجديد وأوقف عليها أوقاف جلييلة"<sup>3</sup>، والملاحظ أنّ التنسي هنا استعمل كلمة "بني" بدل كلمة "رقم"، وهذا ما يوضحه استئناف التنسي في وصفه لأعمال هذا السلطان حيث قال أنه أعاد الحياة إلى الأوقاف والوظائف أزيد مما كانت عليه من قبل، والدليل الثاني على أنّ التنسي كان يقصد بكلمة "بني" عملية الترميم التي أقامها على هذه المدرسة، هو ذكرها باسم "المدرسة الجديدة"، وهو التركيب نفسه الذي يصف به القس برجس المدرسة التاشفينية خلال زيارته لتلمسان في منتصف القرن 13هـ/19م، حيث انتهى الحديث عن هذه المدرسة مع آخر وصف قدمه لها هذا القس الذي دوّن مشاهدته عن مدينة تلمسان غداة اقتحام الجيش الفرنسي خلال هذه الفترة، وقد أكد على صمودها إلى غاية عصره بقوله: "ما زالت المدرسة الجديدة قائمة في حالة جيّدة، تحتلّ مساحة مربعة، محاطة بسور مرتفع... والباب الرئيسي الذي يفتح على الجانب الغربي، مكسو في كلّ مكان ببلاط خزفي مطلي وبالزليج"<sup>4</sup>، غير أنّ جورج مارسلي -رغم عدم معاينته لها- يناقضه، ويشعرن لعملية تدهيم المدرسة من قبل السلطات الفرنسية بين سنوات 1289-1291هـ/1873-1875م بعدما تمّ استغلالها منذ سنة 1267هـ/1851م كمستودع للخمر بوصفه لوهرن للمدرسة فيذهب إلى القول أنّها كانت في حالة يرثى لها، وقد تمّ هدمها من قبل السلطات الفرنسية بحجة توسيع شبكة الطرق الداخليّة فكانت هذه التهيئة

<sup>1</sup> التنسي، نظم الدرّ والعقيان، مصدر سابق، ص 141.

<sup>2</sup> المقرئ، نفع الطيب، مصدر سابق، 47/6.

<sup>3</sup> لم يكن التنسي الوحيد الذي وقع في هذه المغالطة فابن مرزوق أيضا نسب لأبي الحسن المريني إنشاء مدينة المنصورة باستعماله للتركيب: "أنشأ منصور تلمسان بما اشتملت عليه" والمراد من ذلك عمليات الترميم التي قام بها أبو الحسن بعد عودة بني مرين لحصار تلمسان سنة 735هـ. ابن مرزوق، المسند، مصدر سابق، ص 447. التنسي، مصدر سابق، ص 248.

<sup>4</sup> Bargèse, opcit, p 333.

## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

على حساب هذا المعلم الأثري، وبنيت على أنقاضها دار البلدية وشيّدت ساحة عموميّة بجانبها سنة 1292هـ/1876م، وتم إرسال بعض القطع منها إلى متحف اللوفر بباريس، ومنه إلى متحف كلوني<sup>1</sup>، لكن قبل التدمير قام قائد عمليّة الهدم دانجوا danjoy برسم مدخل المدرسة كما تمكّن المعماري دوتوا duthoit من الحصول على رخصة بعث قطع جدران المدرسة إلى المتاحف الفرنسيّة<sup>2</sup>.

### 2- المدرسة اليعقوبيّة :

يعود الفضل في تشييد هذه المدرسة إلى السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني الذي قام ببناؤها تكريمًا لأبيه أبو يعقوب بعد وفاته سنة 763هـ/1361م، وقد انتهى من بنائها سنة 765هـ/1363م<sup>3</sup>، وصفها يحيى بن خلدون بقوله: "وفي أوائل شعبان [763هـ] توفّي بمدينة الجزائر والد الخليفة نصره الله المولى أبو يعقوب .... ودفنه بباب إيلان استدناءً لقبره منه، ثم نقل إلى جواره أخويه السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت رحمهما الله من مدفنيهما بالعبّاد، وشرع نصره الله حينه في بناء مدرسة وزاوية على قبورهم"<sup>4</sup>، فأقيمت حسب وصف صاحب زهر البستان "مدرسة مليحة البناء، واسعة الفناء، بُنيت بضروب من الصناعات، ووضعت في أبداع الموضوعات، سمكها بالأصبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزليج مرسوم، وجناتها بالصناعة الجبّاسيّة موشاة، وزليج أزهارها من أبداع الشّياة، غرس بإزائها بستنتين تكتنفها، ونقل له أصناف المشمومات التي تروق خضر أفنانها... صنع فيها صهريجا مستطيلا، وعلى طرفيه من الرّخام خصتان تطردان مسيلا... أوقف لها الكثير من الأوقاف وأجرى للطلّبة فيها الرّتب على أصناف"<sup>5</sup>، وأوكل أبو حمو مهمّة التدريس بها إلى الشّيخ الشّريف الحسيني أبو عبد الله (ت771هـ/1370م) "وحضر مجلس إقرائه فيها جالسا على الحصير تواضعا للعلم وإكراما له"<sup>6</sup>.

اندثرت هذه المدرسة وانقطعت المصادر عن التّطرّق لأخبارها إلى غاية منتصف القرن 19م/13هـ أين وقف القس على وصف مقتضب لمكان تواجدها غير أنّه أشار في وصفه هذا لاندثارها ووجود بعض المساحات الغير

<sup>1</sup> التنسي، نظم الدرّ والعقيان، مصدر سابق، ص 141. أحمد نقادي، مرجع سابق، ص 40-41. فيلاي، مرجع سابق، ص 142-143. وليم وجورج مارسيه، مرجع سابق، ص 38.

<sup>2</sup> M.I.Duthoit, rapport sur une mission scientifique en algerie, archives des missions scientifique, 3 eme série, tom1, P325.

<sup>3</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، 134/2.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 100.

<sup>5</sup> مجهول، زهر البستان، مصدر سابق، ص 211.

<sup>6</sup> التنسي، مصدر سابق، ص 182.



## الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزيّاني

المزروعة في موضعها، وبعض العمارات ورجح أن تكون قد بنيت على أنقاضها، وأعقب برجس هذا الوصف بقوله "أنا أسلم تخميني إلى حكم من سيأتي بعدي لدراسة الآثار"<sup>1</sup>، مع وجود إشارة لاستعمال هذه المدرسة من طرف الفرنسيين كمستودع للألبسة العسكرية في أحد الدراسات<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> Bèrges, opcit, p

<sup>2</sup> أحمد نقادي، مرجع سابق، ص 42.

# خاتمة

جامعة الأميرة  
عبد القادر للطب  
الإسلامية

### خاتمة:

من خلال بحثنا في موضوع "الحروب في المغرب الأوسط وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والعمرائية خلال العهد الزياني"، أفضى بنا البحث بعد تفكيك العلاقة بين الحرب والوضع الاقتصادي والعمرائي إلى بيان مظاهر التأثير والتاثر بين هذه المتغيرات الثلاثة خلال هذا العصر، انطلاقاً من تدهور العلاقات السياسية بين الدولة الزيانية والدول المرتبطة بها - سياسياً - فقط كانت هذه التوترات تؤول غالباً إلى التدخل العسكري الذي لا ينفك بدوره إلى التكاية بمختلف مظاهر الحياة، وفي مقدمتها المقومات الاقتصادية والبنى العمرائية، الأمر الذي أفضى بنا إلى بيان تفصيل ذلك في النقاط التالية:

- إنَّ الانطلاق في دراسة موضوع الحرب من خلال المصادر التاريخية الوسيطية يحتاج إلى تفعيل ذاتية المؤرخ والركون إلى عملية المناجاة والتخمين والاستنتاج لتغطية بعض المساحات التاريخية المظلمة في تاريخ دولة بني زيان، فالمصادر وإن جاءت في صيغتها الإخبارية لتغطية بعض المساحات من تاريخ الحرب الزياني إلا أنها لم ترصد لنا أخبار الحرب بالحيز الزمني والعمق التحليلي المطلوب، خاصة أخبار الحرب مع نهاية القرن 9هـ/15م والنصف الأول من القرن 10هـ/16م، على عكس الحمولة الإخبارية الثقيلة التي تناولت هذه الحروب في القرنين 7 و8هـ/13-14م، كما أنَّ تناقض إيديولوجيات ومشارب المصادر التي أُرخت لتاريخ الحرب خلال العهد الزياني يضع الباحث في موقف الحياد نظراً لعدم وجود قرائن في بعض الأحيان تكون معايير لتحكيم رأي على آخر وهو عائق قد يحيد بنا عن جادة المقاربة التاريخية الرصينة.

- كانت درجة تأثير الحرب على الوضع الاقتصادي وانعكاسها عليه وخيماً خاصة على الأراضي الزراعية، نظراً للدور الوظيفي للحرب المعد للتحريب والقتل والتحريق وإحداث للنزيف الديموغرافي على مستوى جبهة العدو، فضلاً عن احتياج المغير لأراضي العدو الزراعية للاستزادة في الحروب البعيدة، الأمر الذي يجعل من أراضي العدو الزراعية حظيرة طبيعية للاقتيات، كما لا ننسى أن ثني مقومات العدو الاقتصادية لإضعافه وإرغامه على الاستسلام كان من بين الاستراتيجيات التي فعلها قادة الحرب خلال العهد الزياني في حروبهم ضد الدولة الزيانية، زيادة على ذلك فإنَّ التَّنظيرات العسكرية التي كانت ترمي إلى مهاجمة أرض العدو الزراعية واستنكائها في مواسم الحصاد والجني كان لها الدور البالغ في المآل الذي آل إليه وضع هذه الأراضي بعد الحرب، وهذا ما يفسر توصيفات المصادر في ذكرها لحروب هذا العهد، إذ لا نكاد نجد توصيفاً إلا واقترن بالحقل الدلالي للتحريق والتخريب، أما على مستوى

الفئات الفاعلة في هذا القطاع فقد كانت حالة اللأمن التي تصاحب حالة الحرب تفرض واقعا من الخوف لدى الفلاحين الذين كانوا يتكون أصولهم الثابتة ويفرّون إلى المناطق المستقرار أو إلى الجبال والعياض طلبا للأمن.

- على صعيد آخر نجد أنّ انعكاسات الحرب على العمارة الزبانية لم تختلف كثيرا عن انعكاسات الحرب عن مظاهر التخريب والتّحريق السابقة للأراضي الزراعيّة، فقد جاءت الحرب شاملة في تخريبها لمختلف الوحدات العمرانيّة، بدءاً بالعمارة العسكريّة وما حوته من أبواب وأسوار وحصون وغيرها باعتبارها الواجهة الأولى للصّدام العسكري المباشر، فكانت هذه العمائر عرضة لضربات الأسلحة الثقيلة كالمجانيق والعزادات وقوس الزّيار المعدّة خصيصاً لتخريب هذا النوع من العمائر، فضلا عن العمارة الدينيّة كالمساجد والزّوايا التي كانت ملاذا لاحتفاء العامّة فيها ظلّاً بركة الأولياء في إفشال الحملات العسكريّة وتحقيق الأمن، فكان الرّكون إلى هذا النوع من العمائر في بعض الأحيان يجعلها عرضة للملاحقة والتّخريب والنّهب من طرف العدو، أمّا المقابر فقد كانت الضّروة الأمنيّة تستدعي نبش القبور فيها وإزالتها -وفقا لضوابط شرعيّة- لغرض تنمية الاستحكامات العسكريّة وتوسيع أسوار المدينة وتحسينها، ويأتي هذا الإجراء نظرا لوقوعها خارج المدينة من جهة وما يقتضيه النّظر الشّرعي من حفظ للمصلحة العامة بأعمال التشييد المتعلّقة بالعمارة الدّفاعيّة وتحسين المدينة لضمان الأمن على حساب هذه المقابر.

- أثّرت حالة اللأمن التي رافقت حروب الدّولة الزبانية في أغلب فتراتها على إرساء حالة من الخوف لدى العامّة، فقد أبانت المصادر على إرفاق الحملات العسكريّة غالبا بعمليات اقتحام وسلب للمنازل، كما أنّ تعرّض عاصمة الدّولة الزبانية إلى حصارات طويلة الأمد قد تبلغ أحيانا بضع سنوات كان يرغم العامة على التزام المنازل، ويزداد الأمر سوءاً في مواسم البرد والتّلعج فيضطرّ هؤلاء إلى اقتلاع أجزاء من منازلهم لإيقاده، ولا يساورنا الشّك أمام مظاهر الفوضى هذه وحالة الخوف عن التّساؤل عن سبب هجرة العامّة وترك منازلهم أطلالا.

- كان لحالة التّزيف الديموغرافي المرافقة لحالة الحرب انعكاسات سلبية على الأنشطة الحرفيّة والصّناعيّة نظرا لشموليّة الحرب واستهدافها لمختلف فئات المجتمع بما فيها فئة الصّناع والحرفيين، زيادة على ذلك فإنّ طبيعة التّشاط الحرفي البدوي الذي كان يعتمد على المقوم الطّبيعي كالنباتات وتربية الحيوانات باعتبارها المادّة الخام لمختلف الحرف والصّناعات الزبانية -والمحرّك غالبا للأنشطة التجاريّة- كان هاجسه الأكبر حالة الحرب التي تستهدف هذه المقومّات الحرفيّة والصّناعيّة وتخرّبها وتتركها أثرا بعد عين، لذلك فإنّ التّشاط الاقتصادي الصّناعي كان عرضة للانتكاس كلّما اقترب بحالة الحرب.

- تعتبر الطّرفية الممثّلة في عدم الاستقرار السياسي وكثرة الفتن والانفلاتات الأمنيّة المرافقة لحالة الحرب عوامل ساهمت في عرقلة حركة التّجارة الداخليّة والخارجيّة في المغرب الأوسط الزباني، ذلك أنّ أعمال القطع والحراية

واللصوحيّة التي تعدّ صورا من صور الحرب شكّلت مناخا غير مستقرّ لمزاولة هذا النشاط الاقتصادي، خاصة وأتمّا كانت تستهدف قوافل التّجار خلال هذه الفترة دون هوادة، زيادة على ذلك فإنّ تنقلات الجيش الدائمة على مدار ثلاثة قرون كان من دون شكّ عاملا لتحفظ التّجار عن ممارسة أنشطتهم التّجاريّة خوفا منهم على ممتلكاتهم وبضائعهم التي تقول لقمة في يد هذه الجيوش والمحلات، أو المغامرة بممارسة هذا النشاط تحت ظرف اللّامن، أمّا على مستوى التّجارة الخارجيّة فقد انعكست أعمال الفكّاة والقرصنة البحريّة على هذا النشاط بالسّلب كما ساهمت في تثبيط حركة موانئ المغرب الأوسط بشلّ حركة تصنيع السفن ممّا يعني زيادة حجم وارداته، فضلا عن ذلك فإنّ القوى المسيحيّة بادرت إلى تفعيل نشاط القرصنة لفرض أكبر ضغط اقتصادي على مدن المغرب الأوسط واستيراد المواد الحيويّة والأساسيّة. وعلى صعيد آخر فإنّ تدخّل الحرب بشكل مباشر لتثبيط حركة التّجارة الداخليّة والخارجيّة أو ما يسمى بالحصار الاقتصادي في عصرنا كان واردا خلال العهد الزياني، ولعلّ الاستدلال بما جاء في هذه الدّراسة بالدور الذي لعبته مدينة المنصورة على الصّعيد الاقتصادي قد يحمل جوابا شافيا لما زعمناه.

- لعبت الاستراتيجيّات العسكريّة التي تمّ تفعيلها - ميدانيا - من طرف القادة العسكريين دورا كبيرا في الخراب الذي شهده المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، فظنرا لسعة الاطلاع الواسع لبعض سلاطين بني زيّان - خاصة أبو حمّو الثاني - والتّجربة التي راكمها هؤلاء السّلاطين من خلال مشاركتهم في العمل الحربي لأزيد من ثلاثة قرون كوّن لديهم مفاهيم استراتيجيّة حربيّة، تدعو إلى تخريب مقوّمات العدو كعامل مساعد على تحقيق النّصر خلال الحروب والمعارك، وقد عزّز هذا الطّرح الانتصارات التي حققتها الأطراف المشاركة في العمل العسكري والمرفوقة بأعمال التّخريب، الأمر الذي جعل من بعض القادة الزيانيين يقوم بصياغة نظريات عسكريّة تدعو إلى التّخريب خلال حوض معاركهم تحقيقا للنّصر.

- لعب العامل التّفنسي أيضا دورا بالغ الأهميّة في حروب المغرب الأوسط، فإن كان استعمال الموسيقى في الحرب لإثارة التّفوس وإشراك النّساء لشحنها والاستطرد لبث الفوضى أو الوهن في نفسيّة الجنّد، وبث الإشاعة لتفريق الجيش، فإنّ استحضر مكنون الشّخصيّة العسكريّة وأبعادها التّفنسيّة لم يخل من تزويدنا بقرائن عن لعب هذه الأخيرة دورا بالغا في الخراب العمراني، ذلك أنّ التّرعّات الانتقاميّة المصحوب بنوازع الثّار لدى هؤلاء القادة كان يملّي عليها في غالب الأحيان خطاب تحطيم عمائر العدو ومنشآته، كما أنّ تقييد مظاهر الخراب المرفوقة للانتصار بشواهد ميدانيّة للتأثير في نفسيّة العدو، والتّغني بها في تراكيب تقيّد صورة الهازم والمنهزم، جعل من هؤلاء القادة يتغنّون بمظاهر التّخريب والهدم والتّحريق ويقيدون مظاهر هذه الفوضى في أشعارهم كدلالة على النّصر وكمظهر ماديّ لبسط السّيادة والانتصار على العدو.

# الملاحق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



## الملاحق

الملحق رقم 01: الرسالة 88 في أرشيف التاج الأروغوني مؤرخة في 09-02-1323م الموافق لـ غرة صفر 723هـ، هي رسالة من هلال بن عبد الله وزير السلطان الزياني أبو تاشفين الأول إلى ملك أروغون تتضمن رده على رسالته التي أرسلها إليه بشأن إطلاق سراح 24 نصرانيا.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم تسليما.

السلطان الأجل الأعز الأكرم الأفضل الأحب الأخلص الأكمل دون جاقمة سلطان أروغون أكرمه الله بتقواه ووفقه لما يحبّه ويرضاه محبّه ومعتقده الشاكر كثيرا على الدوام له عبد المقام العليّ خلد الله ملكه هلال بن عبد الله، سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد حمد الله حقّ حمد والصلاة التامة على سيدنا ومولانا محمد الكريم وعبدّه وعلى آله وصحبه الكرام الخلفاء من بعده فإنّا [كتبناه] إليكم من باب مولانا أيده الله بحضرة تلمسان حرسها الله تعالى وليس إلّا الخير واليسر، والحمد لله وموجبّه إليكم إعلامكم بوصول كتابكم وعلمنا ما ذكرتم فيه وأنتم تطلبون أربعة وعشرين نصرانيا متاع جوان منوال ونحن نعرفكم أنكم إذا أردتم صلح مولانا أيده الله فنحن نعطيكم الأربعة وعشرين نصرانيا الذين طلبتم متاع جوان منوال ونعطيكم أيضا زيادة عليهم ثلاثين نصرانيا من بلادكم من الذي نعطيكم نحن باختيارنا دون أن تعينوا لنا أنتم أحدا، فإن أنتم وافقتم على ما ذكرناه لكم فنعمله لكم ويقع الصلح بيننا وبينكم إن شاء الله، وإذا أردتم سلف ذهب فنسلف لكم ما تيسر لنا بعد أن تعطونا الضمان والرّهان في الذهب، وإن أنتم لم تعملوا ما ذكرناه لكم ولم توافقوا عليه فما بيننا كلام.

والله سبحانه الموفق للصواب والسلام على من اتبع الهدى ورحمة الله تعالى وبركاته.

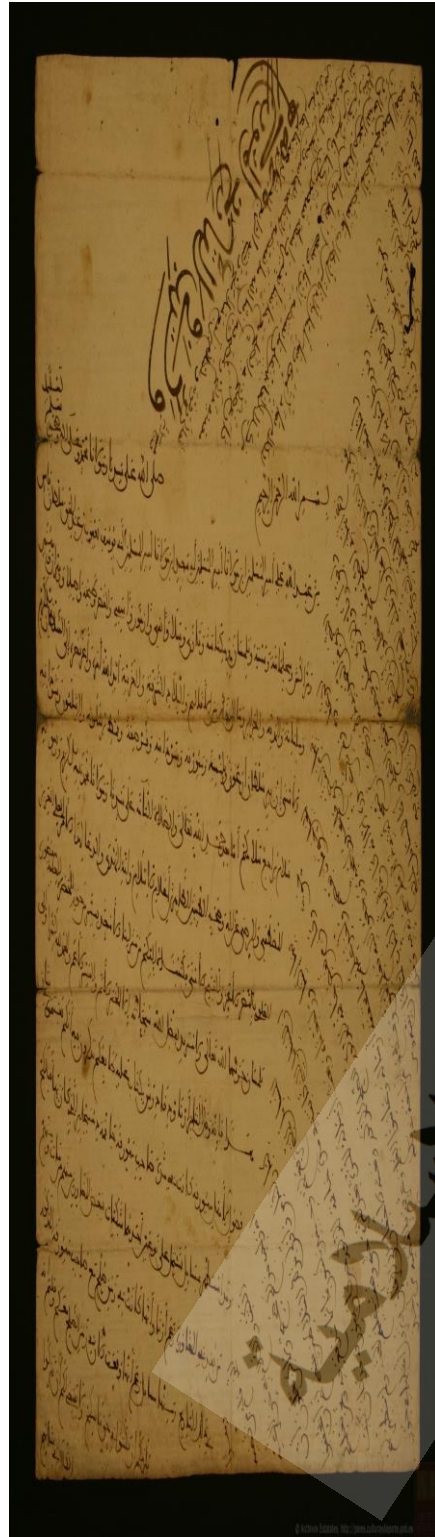
كتب في صفر عام 723.



المصدر:

[http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4799850?nm&fbclid=IwAR0ROIN0mcrBWcFXG0qR3pZo4xweUF1-O7QC0x6mYwc7kpIvA\\_9KpK4hjLI](http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4799850?nm&fbclid=IwAR0ROIN0mcrBWcFXG0qR3pZo4xweUF1-O7QC0x6mYwc7kpIvA_9KpK4hjLI)

الملحق رقم 02: الرسالة 95 في أرشيف التاج الأروغوني مؤرّخة في 17-04-1346م الموافق لـ 24 ذي الحجة 746هـ، رسالة من سلطان تلمسان المريني بعد دخوله إليها موجهة إلى بيدرو الرابع ملك أراغون لعقد الصلح.



بسم الله الرحمن الرحيم [و] صَلَّى على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.  
من عبد الله على أمير المسلمين ابن مولانا أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان فاس ومراكش وسجلماسة وسبتة وتلمسان ومكناسة وتازي وسلا وأنفي وأزمور وأسفي والقصر وطنجة وأصيلا ووهران وحنين وملبانية والمدية والجزائر وما إلى ذلك من الأقاليم والبلاد الشرقية والغربية، أيده الله أمره وأعزّ نصره، إلى السلطان المكرّم الأسنى أبي سلطان أراغون وبلنسية ومبروقة وسردانية وقرصغة وقنط برشلونة والرّسلون وسردانية سلام يراجع سلامكم.  
أما بعد حمد الله تعالى والصلاة التامة على سيّدنا ومولانا محمّد نبيّه الكريم ورسوله المصطفى والرّضا عن آله وصحبه الطّيبين الطّاهرين أعلام الإسلام وأئمة الهدى، والدعاء لهذا الأمر العليّ العزيز العلوي بالتصّر الأعزّ والفتح الأسنى.  
فكتبناه إليكم من منزلنا الأسعد بيُسره من حوز الحضرة العلية منصوره تلمسان حرسها الله تعالى ولا متزايد بفضل الله سبحانه إلّا الخير الأتم واليسر الأعمّ والحمد لله كثيرا.  
وإلى هذا فإنّه وصل التاجر أرنادو قادش بكتاب عليه طابعكم تذكرون فيه أنّكم بعثتموه في شأن فصول لأهل مبروقة كانت في مدّة صاحب مبروقة دمنجلير الذي كان به قبلكم، وقد استظهر بمسائل تشتمل على نوعين أحدهما شكايات ببعض المغيرين، منهم من مات ومنهم من فقد في المغامرة، زعم أرناود أنّها كانت في زمن صلح مع صاب مبروقة المذكور في ذلك التاريخ، ومنها مسائل زعم أنّها وقعت الآن في زمن الصلح معكم وقتلم إنّّه يلزمكم أن تكتبوا في حقّ ناسكم ولا ينبغي لكم أن تتكفوا الكلام في شأنهم، وهذا الذي قلتم فيه من قضية الكتب والكلام في حقّ الرعيّة إنّّه واجب بذلكم صحيح ولكن تعلمون أنّ كبار الناس ينبغي لهم أن يحقّقوا المسائل التي ترفع لهم، وحينئذ يكتبون بما لا مدفع فيه، ونحن نعلمكم أنّ المسائل التي كانت في مدّة جاقمة المذكور حين كان بمبروقة قد كان كتب فيها إلينا وراجعنا، وبعث إرساله المبروقة بعد المبروقة حتّى وقفت عليهم الحجّة، ولم يكن عذرهم إلّا أنّه كان ذلك بأمر الباب لما كان بينه وبين التّصاري، من العهد في ذلك، ورغب أن نسمح له في ذلك، فلم نسمح له فيه وقد وافق أرناود المذكور على قضية نقض الصلح. وأما المسائل التي زعم أنّها وقعت في الصلح معكم فتعلمون أنّ الصلح إنّما كان الكلام فيه على يد السلطان الأجلّ محلّ ولدينا أبي الحجاج بن الأحمر، إنّنا أسعفناه بذلك نظرا للمصلحة التي رغب فيه، وقد وصل كتابه الآن يقول إنّّه بعث لكم في أمور الصلّاح المذكور، فلم يرجع إليه رسوله بشيء يخلّص في ذلكم، وإنّه يبعث إليكم رسوله مرة أخرى، فإذا تمّ ذلكم إن شاء الله فيكون الكلام فيما ذكرتموه وفيما لأهل بلادنا من المطالب بما تقتضيه المصلحة، حتّى تنفصل القضية من كلا الجانبين على ما يقتضيه الوفاء، وينبغي أن يعمل فيها من الخلاص بحول الله تعالى، وإن كان غرضكم في الصلح مع جانبنا بغير واسطة فتبعنونا من كبار ناسكم من يُعتبر ويُنكّم معي في ذلك، ويمضي فيه إن شاء الله ما تقتضيه المصلحة للجانبين وفيه الخير لرعيّة الجهتين بحول الله تعالى وقوته، والسلام يُراجع سلامكم.  
وكتب في الرابع والعشرين لذي حجة خاتم ستّة وأربعين وسبع مائة.

المصدر:

[http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4799858?nm&fbclid=IwAR25-3Cl2eXZ4BvRn7ceGUHW9eavbMjkqRMdb-FzNVJIORS7R0ixNX\\_7ITM](http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4799858?nm&fbclid=IwAR25-3Cl2eXZ4BvRn7ceGUHW9eavbMjkqRMdb-FzNVJIORS7R0ixNX_7ITM)



## الملاحق

الملحق رقم 03: الرسالة رقم 111 في أرشيف التاج الأروغوني مؤرّخة في 23-02-1360م الموافق ل 04 ربيع الثاني 761هـ، هي رسالة من سلطان تلمسان إلى بيدرو الرابع ملك أرغون، تتضمن شكوى عمليات القرصنة القطلانية في ميناء وهران.

من عبد الله موسى أمير المسلمين الموكل على ربّ العلمين ابن الأمير أبي يعقوب ابن الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي زكريا ابن مولانا أمير المسلمين أبي يحيى يعمراسن بن زيان أدام الله له عزّا باهر الأنوار ونصرا عالي المانار وسعدا رفيعا المقدار إلى السلطان الأعزّ الأيمن المكرّم المرعّ المعظّم المبخّل الموثّر المرعي الأحفل الأنوه الهمام البطل الأشهر الأخطر ملك بني الغرنج سلطان أرغون وبلنسية وميروقة وسردانية وقورسعة وقُمت برشلونة وقُمت الرّسليّون وقمن سردانية ذن بيدرو أسعده الله برضاه وأرشدته إلى سبيل هُداة وأكرمه بتقواه.

أما بعد، فإنّا كتبنا إليكم كتب اللّ لكم هداية تبلغ نيل الأمل والأمال وكرامة تصحبكم في كلّ حال من حضرنا العليّة بتلمسان المحروسة ونحن نحم الله الذي لا شيء كمثلته ولنلجأ إليه في أمرنا كلّيه ونسأله أن يوزعنا شكر إحسانه وفضله وعندنا لجانبكم المرعّ تكرمه نستوفيها ورعاية تنتهي إلى الغايات فيها، وعلّمنا بمحلّكم الشّهير ومكانكم الخطير يستدعي الزيادة من ذلك ويقتضيها وإلى هذا أرشدكم الله لأحسن المذاهب ووالى لكم الخير المتتابع المتعاقب.

فإنّا لم نزل نمنح من وصل من جهاتكم ونخرط في سلك طاعتكم من التجار المتردّدين وغيرهم من ذوي الحاجات أجمعين ونوسعهم إحسانا وإنعاما ونيسرّ عليهم في جميع مطالبهم وجملة ما ربحهم إجمالا وإكراما، ولم نصيّق عليهم قطّ في جميع ما أرادوا أن يوسقوه لبلادهم ويحملوه في صدرهم وإيرادهم من زرع وغيره من الأمور التي يقضون منها الوطر وترتكب فيها في ديننا الخطر مرافقة لهم فيه أرجع إليهم وتوسعة في كلّ الأوّال عليهم، ومع هذا فد عمدت طائفة من القطلانيين في أجفان معدّين إلى مراسنا الشّهير مرسى وهران المحروسة الكبير، وحملوا منه على جهة العمدة العُدوان والجرأة والإقدام وهتكوا حرمة السلطنة وحقّ الإسلام جفنا موشوقا بالزّرع وغيره للتجار الأندلسيين كانوا أرادوا الوجه به إلى بلاد المسلمين، واستولوا على الجفن بما فيه، وذكر لنا أنّهم كلّهم الذين حملوا الزّرع في القرقورة المعروفة بالجي القطلاني، بعدما وصل إلى بلادكم توجّه تلقاء ما ذكرنا لكم.

فلما رأينا أنّ هذه التازلة وقعت وأحوال من يرُدّ علينا بالأجفان تشبّثت وتشبّثت وجهدنا لكم الآن خدمنا الخطي لدينا الشّيخ المكرّم المرعي الوجيه الخطي الموقر المحترم الأفضل الأكمل الأجدد أبا عبد الله محمد بن الشّيخ المكرّم المرعي الوجيه الخطي المبرور المرحوم المعتبر أبي الزبير طلحة البتاشلي حمله الله على كاهل السلامة وبلغه الأمن والأمان في حالي الممرّ والإقامة ووالى له الخير ووصل له الكرامة، وأودعناه ما يُنهي إليكم من مقاصد الإكرام والبرّ الموقر الأقسام ليُخاطبكم بهذه الأحوال ويطلبكم بما لكم من عندنا من القبول والإقبال، علما بأنّ ذلك يستنزّل منكم منزلة المسرة ويُرُدّ عنكم ما يُكافئ إن شاء الله عنه بموصول الإكرام والمبرّة، وحملناه من معنى الصلح بيننا وبينكم ما يُلقيه إن شاء الله مشافهة إليكم ومحاولة إبرامه والمفاوضة في عقده وإحكامه وأردنا منكم العناية بأمره، وأنّ نعاملوه ما تشكرون على بذله وما يكون ف ذلك من المصلحة لنا ولكم فشيء لا يخفى عليكم ولا يغيب عنكم فلتتقوا ذلك بحقه محمولا على صحّة الحقّ وصدقته. وكلّ ما يرُدّ من جهتكم فوارد على البرّ والتكرمة فننتهي فيه إلى الغاية المثمّنة ورأينا أرشدكم الله تعالى وهداكم ووقفكم لما يرضى به عنكم من تتميم هذا المقصد والبلوغ منه إلى الأمد الأبعد إن شاء الله وجهدنا لكم أيضا صحبة رسولنا المذكور ما يُلقى لكم مشافهة إن شاء الله معنى هذا الكتاب ويُقرّر ما عندنا لكم من الإيفار الميسرّ الأسباب، وهو قايّدنا الكبير المرعي الخطير المكرّم لدينا المتقطع بالخدمة إلينا جُوان برجلين القطلاني أجدد الله، فإذا انصرف رسولنا وقايّدنا إن شاء الله من عندكم فتريد منكم أن توجّهوا زيادة إلى ما تلقونه إليه ممّن تتخيرونه من خدامكم ومن خواص رجالكم في معنى العقد وأحكامه والصلح ومحاولة إبرامه، فنحن نرتقب أثره ونصرف إليه من العناية والرعاية والقبول أوّفي ذلك وأوقره، والله سبحانه وتعالى يُوفّق لما يُحبّه ويرضاه، ويُقدّم الخير والخيرة فيما قضاه إن شاء الله بحول الله لا ربّ لنا سواه.

وكتب في ربيع الأوّل المبارك بل ربيع الآخر الذي من عام أحد وستين وسبع [مائة] عرفنا الله تعالى خيره وبركته بيمينه وكرمه وخوله وفضله. صح في التاريخ.

المصدر:

[http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4800463?nm&fbclid=IwAR2vptv4N5teaDxlaDEk\\_pWwgYyGOsPaUj-ZF65PMClvufMTQ5VDau2KrEw](http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4800463?nm&fbclid=IwAR2vptv4N5teaDxlaDEk_pWwgYyGOsPaUj-ZF65PMClvufMTQ5VDau2KrEw)

الملحق رقم 04: الرسالة رقم 113 في أرشيف التاج الأروغوني مؤرّخة في 11-12-1362م الموافق ل 23 صفر 764هـ، هي رسالة زبانية إلى بيدرو الرابع ملك أراغون، مع العديد من النقاط أهمها الرد على رفض التوقيع على معاهدة تسريح الأسرى النصارى التي اقترحها ملك أراغون.

بسم الله الرحمان الرحيم وسلام على عباده الذين اصطفى وحسبنا الله ونعم الوكيل. من عبد الله موسى أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين ابن مولانا الأمير أبي يعقوب ابن مولانا الأمير أبي زيد ابن مولانا الأمير أبي زكريا ابن مولا أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن ابن زيان أيد الله بنصره وامدّه بمعونته ووثّره إلى السلطان الأجلّ الوجيه الحظي الموقر المعظم المبعجل المهام البطل الشهير الخطير سلطان أراغون وبنسبة سردانية ومروقة ووثنت برشلونة ووثنت الرسلون ووثنت سردانية دون يبطرو أسعد الله برضاه وسلك به سبيل هداة وأكرمه تقواه، سلام على من أتبع الهدى.

أما بعد، فإننا كتبنا إليكم كتب الله لكم هداية تُبلغكم نيل الأمل والأمال وعناية من لدنه تصحبكم في كل الأحوال وسعادة تُقضى لكم بسعادة العقبي والمال، من حضرتنا العلية تلمسان حرسها الله تعالى، ونحن نحمد الله الذي لا شئ كمثلته ونلجأ إليه في أمرنا كله وتوكل عليه ونبرء من الحول والقوة إليه ونسأله وعلا أن يوزعنا شكر إحسانه وفضله بمنّه وطوله، ولكم عندنا من البر بكم والإكرام لكم وتجديد الرعاية والعناية قبلكم ما يُليغكم أملكم إن شاء الله لا رب سواه، وإلى هذا أرشدكم الله لأحسن المذاهب ووالى لكم الخير المتتابع المتعاقب. فإنه وصل كتابكم وعقد الصلح الذي وجهتم إينا صُحبة رسولكم الفارس الرعيم الأجد الأنصح إليكم وهو فرنسيس سقوسطة أكرمه الله بتقوه وأرشدته وهداة، وتلا عقد الصلح الذي وجهتم يصلحكم صحبة رسولكم، فإنكم كتبتم فيه، وستقرنا من لفظه ومعانيه ما لا يليق بذي الملك الرفيع الخطر المعلوم المقدر أن يُخاطب بمثله الملوك الذين لهم المكافئة المكنية والمرتبئة العلية القوية المتينة، وترى رسولكم يُبين لكم ما في ذلكم إن شاء الله .

وأما ما ذكرتموه عن قضية سلف المال منا إليكم لقضاء مآربكم ومطالبكم فمقامنا هذا والحمد لله كفيل ببلوغ آمالكم وصلاح أحوالكم والذي عندنا أيضا في ذلك يُلقيه إليكم رسولكم، وأما ما ذكره رسولكم عنكم من كونكم طلبتم معاداتنا النصارى الفنشين، فرسولكم يُبين لكم ذلك أتم تبين حسبنا ألقيناه وبيناه عليه، وأما النصارى الذين كانوا أخذوا في الأخفان وخرجوا بمرسانا هُنين المحروسة حين وقع بهم الغلب، ولجؤوا إلينا بذلك السبب وهرب منهم من هرب، وتكرّر منكم في شأنهم الكُتُب والحُثْم في الطلب، فحين جاءنا رسولكم الأول طالبا لهم خلائنا سبيلهم وسرّحنا جميعهم، على أن يتوجّه رسولكم معهم، فلما سرّحناهم ورأوا أننا صرناهم وأخذنا لهم الخيل التي كُنا أعطيناهم، امتنع عن الجواز أكثرهم واختاروا الإقامة، وطلبوا منا الخدمة المستدامة، فإنهم كانوا تحت رعيي وكرامة برضى منهم وطيب نفس واختيار من غير ضرر يلحقهم في ذلك ولا ضرار، فرددنا عليهم خيلهم وأرجعناهم إلى خدمتهم وأجرنا عليهم مُرتباته وزدناهم على عادتهم، وأما الذين أرادوا الجواز منهم إلى بلادهم فهم نحو الثلاثين أو ما يقرب من عدددهم، فلما جاءوا على الانفصال وأخذوا في الرحال إلا وبلغنا أنّ المسلمين من حُدّامنا وبلادنا أخذوا من مراسينا هُنين ووهران ومستغانم على جهة التعدي والقهر والغلب والجمهرة بالفتنة والحرب، بعدما كنتم أنتم كتبتم رسم الصلح الذي به إلينا وجهتم، أمسكنا نحن عن ذلك هؤلاء الذين أرادوا الجواز إلى هناك حتى تُسرحوا أنت أولئك المأخوذين وتضربوا على أيدي المعتدين والمفسدين وتعاقبوا الظالمين فإذا سرّحتم أولئك تُسرح نحن هؤلاء لكم، عملا بمقتضى الصلح الذي أشهدتم على أنفسكم به، والتزمتم العمل بحسبه ووجهتم رسولكم فرنسيس بسببه. وأما ما ذكرتموه لنا من الحوائج التي كانت أخذت ليمتو مرسيت، فحين وصل الوكيل الذي وجهتم زوجته إلى هنا فقد أوقفناه بين أيدينا وسمعنا قوله وأحضرنا خصمه له وأمرناه أن يصل معه إلى قاضي المسلمين ليحكم بينه وبين خصمه بالشرع والحق الواضح المستبين، فإن الشرع عندنا يُقاد إلى الصغير والكبير والرفيع والضعيف والغني والفقير وسائر الناس في الحق عنده سواء، يسلك سبيل الهدى ويُطرخ الهوى، فأبى الوكيل من ذلك وامتنع من أن يقف مع غيره للشرع والحق أحق ان يتبع، وكان ذلك كله بحضرة رسولكم وهو يُبين ذلك لكم. والذي عندنا في أحوال الصلح وفي غيره يُلقيه إليكم إن شاء الله رسولكم ويعرضه عليكم بين يديكم بحول الله، والله سبحانه وتعالى يهديكم إلى سواء السبيل إنّه بذلك كفيل. كُتِب في ثالث عشرين صفر من عام أربعة وستين وسبعماية بموافقة الحادي عشر من دجنبر عرّض الله خيرها بمنّه وكرمه. وقد وجهنا لكم صُحبة رسولكم رسما مشهودا مُخطبا بعضد الصلح المبارك معكم وصحبة رسولكم ليُوصله إليكم إن شاء الله، بل يصلحكم كتابنا هذا ورسم الصلح المبارك الذي عقدنا وأشهدنا به على أنفسنا صُحبة خديمتنا الأجدد الأئنهض على القناع سلّمه الله فاصرفوا معه رسم صلحكم والأسرى من المسلمين الذين ذكرناهم لكم وتوجهوا من عندكم من حُدّامكم وثقاتكم من يقض من هنا من النصارى الذين أمسكناهم في أوليكم، ويصل بهم إليكم إن شاء الله لا رب سواه. صحّ في التاريخ.

المصدر:

[http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4800473?nm&fbclid=IwAR1E9\\_DL4o15MP1Xlke\\_cM5vnjS9THlFbjNkdeVd-\\_LEPLAixPMYbj-ZVUQ](http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4800473?nm&fbclid=IwAR1E9_DL4o15MP1Xlke_cM5vnjS9THlFbjNkdeVd-_LEPLAixPMYbj-ZVUQ)

الملحق رقم 05: الرسالة رقم 114 في أرشيف التاج الأروغوني مؤرخة في 18-12-1362م الموافق لـ 29 صفر 764هـ، هي معاهدة سلم مدتها

خمس سنوات بين أبو حمو موسى الثاني الزياني وملك أرغون

بسم الله الرحمان الرحيم وسلام على عباده الذين اصطفى وحسبنا الله ونعم الوكيل عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

هذا كتاب صلح أُسِّسَتْ قواعده ومُحِلَّتْ مصادره وموارده ومُحِيَّيْهِ بِالتَّجْحِجِ والإسعاد والتَّنْظَرِ الصَّلَاحِ للعباد والبلاذ مُنْبِثَه وَعَاقِدَه عَقْدَه بَعْدَ اسْتِخَارَةِ الله تَعَالَى سُبْحَانَه وَاسْتِشْرَاحَه وَاسْتِعَانَتَه وَاسْتِجَادَه مَوْلَانَا السَّلْطَانِ الْجَلِيلِ مَلِكِ الْأَصْبَلِ الشَّهِيرِ الْخَطِيرِ الْكَبِيرِ الرَّفِيعِ الْمَثِيلِ الْمَاجِدِ الْأَثِيلِ الْأَسْنَى الْهُمَامِ الْأَسْمَى الْمَثِيلِ الْأَرْضِي الْخَلِيفَةِ الْعَادِلِ الطَّاهِرِ الْكَامِلِ الْمَنْصُورِ الْجَيُّوشِ وَالْقَبَائِلِ الْفَدَّ الْجَلَالِ الْمُؤَيَّدِ الْأَمْضَى الْمُظْفَرِ الْمَعَانِ الْعَظِيمِ السَّلْطَانِ الْكَبِيرِ الْمَجِيدِ الْإِحْسَانِ الْأُرُوعِ الْأَعْلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبُو حَمُو مُوسَى بْنِ الْأَمِيرِ الْجَلِيلِ الْأَوْحَدِ الْأَرْفَعِ الْمَاجِدِ الْأَعْلَى الْأَصْعَدِ الْهُمَامِ الْحَافِلِ الْمَثِيلِ الْأَرْضِي الْبَطَلِ الْأَمْضَى الْأَسْعَدِ الْأَسْمَى الْبَاسِلِ الْكَرِيمِ الشَّمَائِلِ الْعَدَّةِ الْفَضَائِلِ الطَّاهِرِ الْكَبِيرِ الْخَطِيرِ الْمَثِيلِ الْمَعْظَمِ الْمَوْقَرِّ الْمَبْرُورِ الْمُقَدَّسِ أَبِي يَعْقُوبِ ابْنِ الْأَمِيرِ الْجَلِيلِ الْأَعَزِّ الْأَرْفَعِ الْأَمْنَعِ الْأَرْقَى الْهُمَامِ الْبَاسِلِ الْأَمْضَى الْأَوْحَدِ الْأَسْعَدِ الْأَرْضِي الْكَبِيرِ الْمَاجِدِ الْكَبِيرِ الْخَطِيرِ الْمَثِيلِ الْمَعْظَمِ الْمَوْقَرِّ الْمَبْرُورِ الْمُقَدَّسِ أَبِي زَيْدِ ابْنِ الْأَمِيرِ الْجَلِيلِ الرَّفِيعِ الْمَاجِدِ الْكَبِيرِ الْأَرْضِي الْأَمْضَى الْأَوْحَدِ الْمَثِيلِ الْأَعْلَى الْجَلِيلِ الْأَوْحَدِ الْمَثِيلِ الْأَسْمَى الْعَامِلِ الْفَاضِلِ الْأَرْضِي الْهُمَامِ الْأُرُوعِ الْأَمْضَى الْعَظِيمِ الْمَآثِرِ الْكَرِيمِ الْفَاخِرِ الْمُقَدَّسِ الْمَرْحُومِ أَبِي زَكَرِيَا ابْنِ السَّلْطَانِ الْجَلِيلِ الْأَعْلَى الْأَوْحَدِ الْمَثِيلِ الْأَسْمَى الْعَامِلِ الْفَاضِلِ الْأَرْضِي الْهُمَامِ الْأُرُوعِ الْأَمْضَى الْمَلِكِ الطَّاهِرِ الْكَامِلِ الْعَظِيمِ الشَّمَائِلِ الْبَازِلِ الْمَآثِرِ الْفَضَائِلِ الْمُؤَيَّدِ الْمَنْصُورِ الطَّاهِرِ مَحْمُودِ الْمَآثِرِ وَالْمُفَاخِرِ الْمُعْظَمِ الْمَوْقَرِّ الْمُقَدَّسِ أَبِي يَحْيَى بَيْغَمَرَسَانَ بْنِ زَيْتَانَ أَبْقَاهُمُ اللهُ وَعَرَفَهُمْ سَامِي الْمَرَاتِبِ، وَمَلَكَهُمْ عَظِيمِ الْمَفَاخِرِ وَالْمُنَاقِبِ وَمَجْدُهُمْ الشَّمَاخِ الدَّوَابِ سَائِرِ ذِكْرِهِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَلَا يَزَالُ مَقَامُهُمْ الْأَعْلَى مَخْصُوصًا مِنَ الْعَنَاءِ الرَّيَّانِيَّةِ بِأَرْفَعِ الْمَنَاصِبِ عَقْدًا لِلْسَّلْمِ وَالْمَصَالِحِ مَعَ الْمَلِكِ الْأَحْفَلِ الْأَسْنَى الْمَشْبِجْلِ الْمُعْظَمِ الْمَوْقَرِّ الْكَبِيرِ الشَّهِيرِ سُلْطَانَ أَرَاغُونَ وَبَلَنْسِيَّةِ وَمِيْرُوقَةَ وَسَرْدَانِيَّةِ وَقُورْسُكَةَ وَقَنْتَ بَرْشَلُونَةَ وَقَنْتَ الرِّسَالِيَّونَ وَقَنْتَ سَرْدَانِيَّةَ دُونَ بِيْدَرُو أَسْعَدَ اللهُ بَرَضَاهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى سُبُلِهِ هُدَاهُ وَأَكْرَمَهُ بِنَقْوَاهُ حِينَ وَصَلَهُ أَعَزَّهُ اللهُ كِتَابَهُ السَّلْطَانِ دُونَ بِيْدَرُو الْمَعْلُومِ، وَرَسَمَ الصَّلَاحِ الْمَخْتُومِ الَّذِي عَلَيْهِ صُورَةٌ شَكَلُهُ الْمُتَعَاهَدِ الْمَعَارِفَةِ فِي مِثْلِهِ الصَّادِرَةَ عَنْهُ الْمَتَكْرِرَةَ فِيهِ عَلَى يَدِ رَسُولِهِ الْفَارِسِ الرَّعِيمِ فَرَنْسِيْسِ سَقُوسَطَةَ عَلَى أَنْ تَكُونَ السَّلْمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ لِحَمْسَةِ أَعْوَامٍ مُتَوَالِيَةٍ أَوْلَهَا عَامٌ أَرْبَعَةٌ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةً مِنْ شَهْرِ صَفْرِ مِنَ الْعَامِ الْمَذْكُورِ الْمَوْخَرِّ بِهِ هَذَا الْمَسْطُورِ الْمَوْافِقِ مِنَ الشُّهُورِ الْعَجْمِيَّةِ لَشَهْرِ دَجَنْبِرِ عَرَفْنَا اللهُ فِيهِ الْبُرْكَهَ وَالْخَيْرَ عَلَى جَمِيعِ مَا لِإِيَالَتِهِ الْعَلِيَّةِ وَشَمَلْتَهُ دَعْوَتَهُ السُّنِّيَّةَ مِنَ الْبِلَادِ حَاضِرًا وَبَادِيًا وَتُغُورًا وَمَوَاسِطَهَا وَأَطْرَافَهَا، حَرَسَ اللهُ مَعَهَا وَعَلَى جَمِيعِ مَا لِلْسَّلْطَانِ دُونَ بِيْدَرُو الْمَذْكُورِ أَيْضًا حَاضِرًا وَسَوَاحِلًا كَثْرًا وَقَلْبًا، لَا يَتَعَدَّى أَحَدُهُمَا عَلَى أَحَدٍ وَلَا أَهْلُ بِلَدٍ عَلَى بِلَدٍ فِي حَالِي الصَّدْرِ وَالْوَرْدِ سَلْمًا مَحَافِظًا عَلَيْهَا فِي الْجِهَتَيْنِ مَحْفُوظًا عِنْدَ الْمُتَّيْنِ وَمِنْ كِلَا الْجَانِبَيْنِ، لَا يَلْحَقُ إِحْدَى التَّاحِتَيْنِ مِنَ الْأُخْرَى مَضْرُوبَةً وَلَا تَعَدِّيَ فَرْسًا أَوْ جَهْرًا، الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فِي ذَلِكَ سِيَانِ، وَالْمَسَاتِرُ فِيهِمَا بِالْأَذَى وَالْمُجَاهَرَةَ مَنُوعَانِ، لَا غَدْرَ فِيهَا وَلَا إِخْلَالَ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا، وَلَا تُشْرَفُ فِي مُدَّةِ الْمُصَالِحَةِ الْمَذْكُورَةِ غَارَةً وَلَا تُدْغَرُ سِيَارَةً، فَإِنْ كَانَ مِنْ جِهَةِ التَّضَارِي فَعَلَى السَّلْطَانِ الْمَذْكُورِ تَسْرِيحَ الْأَسْرَى وَرُدَّهُ مَا يَأْخُذُونَهُ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى جِهَةِ التَّهَبِّ وَالسَّلْبِ أَوْ الْإِنصَافِ مِنَ الْقِيَمَةِ إِنْ عُذِمَتْ الْعَيْنُ وَأَعُوذَتْ عَلَى الطَّلْبِ، وَكَذَلِكَ مَا يُؤْخَذُ عَلَى جِهَةِ الْإِخْتِلَاسِ مِنْ أَمْدِي وَغَيْرِهِ، وَعَلَى مَوْلَانَا السَّلْطَانِ أَعَزَّهُ اللهُ مِثْلَ ذَلِكَ سُوءًا، وَأَنْ يُقَابَلَ بِالْوَفَاءِ وَفَاءً، هَذَا بَعْدَ أَنْ يَشِيعَ الْأَمْرُ وَيُعْلَمَ مِنْ أَيْنَ كَانَ لِأَضْرَرٍ وَمِنْ هُوَ الْمَتَسَبِّبُ بِالغَدْرِ أَوْ الشَّرِّ. وَكُلُّ مَا يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْعَلِيَّةِ وَيَدْخُلُ فِي طَاعَةِ هَذِهِ الْإِيَالَةِ السُّنِّيَّةِ بَعْدَ هَذَا الْعَقْدِ الْمِحْكَمِ فَدَاخِلٌ تَحْتِ هَذِهِ الْمَصَالِحَةِ وَالسَّلْمِ وَهَذَا الْحُكْمِ، وَعَلَى أَنَّ التَّجَارَ الْوَاصِلِينَ مِنْ إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى بِمَتَاجِرِهِمْ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ إِلَّا الْعَشِيرُ وَالْمَخْزَنُ الْمَعْلُومُ فِي سَلْعِهِمْ لَا زَائِدَ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَيَحْمَلُونَ فِي إِقَامَتِهِمْ غَدَا حَضَرُوا فِي طَرِيقِهِمْ بَرًّا وَبَحْرًا مَهْمَا وَرَدُوا أَوْ صَدَرُوا عَلَى الْحِفْظِ التَّامِّ وَالرَّعْيِ الشَّامِلِ الْعَامِ، وَعَلَى أَنَّهُ إِنْ انْكَسَرَ جِزْفٌ لِمَنْ يَأْتِي مِنَ التَّجَارِ قَاصِدًا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ أَوْ مِنْ جِهَتِهِ لِمَنْ يَأْتِي مِنَ مَرَاسِيهِ مَوْلَانَا أَعَزَّهُ اللهُ أَوْ مَرَاسِيهِ فَيُرَدُّ عَلَى أَرْبَابِهِ جَمِيعًا مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْوُجُوهِ الْجَنْفِيَّةِ وَلَا إِلَيْهِمْ بَلْ يُخْلِ سَبِيلَهُمْ إِلَى أَمْتِيَّتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَجَنْفِيَّتِهِمْ وَسَائِرِ سَبِيلِهِمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَقَدْ التَزَمَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ، السَّلْطَانُ أَبُو حَمُو أَعَزَّهُ اللهُ هَذِهِ الشَّرُوطَ وَأَحْكَمَ فِيهَا الْعُقُودَ وَالرُّبُوطَ لِيَعْقِدَ عَلَيْهَا الصَّلَاحَ الَّذِي تَقَدَّمَتِ الْمَرَاوِضَةُ فِيهِ التَّزَامَا عَلَى الْوَاجِبِ بِمُقْتَضَى كُلِّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ، شَهِدَ عَلَى مَوْلَانَا السَّلْطَانِ أَبِي حَمُو أَعْلَى اللهُ مَقَامَهُ وَنَصَرَ أَعْلَامَهُ بِمَا فِيهِ عَنْهُ مِنْ أَشْهَادِهِ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ شَامِلِ ذَاتِهِ وَالسَّعْدِ الْمُسْعَدِ مُصَاحِبِ قَصْدِهِ وَأَدْوَاتِهِ وَهُوَ عَلَى أَكْمَلِ حَالَاتِ الْإِشْهَادِ، وَذَلِكَ فِي تَاسِعِ عَشْرِينَ صَفْرِ مِنْ عَامٍ أَرْبَعَةٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةً بِمُؤَافَقَةِ ثَامَنِ عَشْرِ مِنْ شَهْرِ دَجَنْبِرِ، فِيهِ مُلْحَقٌ بَيْنَ بَعْضِ أَسْطُرِهِ عَلَى يَدِ رَسُولِهِ فَرَنْسِيْسِ سَقُوسَطَةَ، صَحَّ مِنْهُ وَفِي الْإِشْهَادِ الْمَذْكُورِ أَنَّهُ مَهْمَا أَتَى جِزْفٌ مِنْ أَجْفِنِ إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى قَاصِدًا إِلَى مَرَسَاها مُلْجَأًا إِلَيْهَا مِنْ عَدُوِّ يَطْلُبُهُ فِي الْبَرِّ لِقَصْدِ الْإِذَابَةِ لَهُ وَالضَّرْرَ فَعَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْمَرَسَى الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا حِمَايَتَهُ وَرَفَعَ الضَّرْرَ عَنْهُ وَكَفَّ الْأَيْدِي الْعَادِيَةَ عَلَيْهِ وَحِمَايَتَهُ بِكُلِّ مَا يُمَكِّنُهُمْ جُحْدَ اسْتِطَاعَتِهِمْ إِنْ شَاءَ اللهُ وَفِي تَارِيخِهِ فَشَهِدَ بِجَمِيعِهِ. شَهِدَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ لَطْفًا بِهَمْ بِمَنْ، شَهِدَ وَمُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ بْنِ مُحَمَّدِ الْقَيْسِيِّ، شَهِدَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ وَأَحْمَدُ الْعَطِييُّ أَعْلَمَ بِاسْتِقْلَالِهِ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ سَعِيدٍ.

المصدر:

<http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4800468?nm&fbclid=IwAR3wrobX>

[KD05vIxRLJgp-98F9z08KGaVksCsIxflKsjC-ZzEZC2bjNZQ\\_6Q](http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4800468?nm&fbclid=IwAR3wrobX)



## الملاحق

الملحق رقم 06: الرسالة رقم 137 في أرشيف التاج الأروغوني مؤرخة بين سنتي 727-730هـ/1326-1329م، عبارة عن اتفاقية صلح وتحالف بين تلمسان وأروغون لفتح بجاية وتونس.



الحمد لله وحده والشكر لله على نعمه، اتفق من يخلصه بخلاصه الجميل، حملا ... درمون بن الرشنوني على أنه يعمل الصلح بين مولانا السلطان الموقر المظفر ... مع سلطانهم على أن التجار الواصلين من بلادهم يكونون في الأمان سالمين ... لهم أجفان بالتجار، فكل من فيها وما فيها من المؤمنين ... وأجفانهم، وعلى أن نعطوهم عشر العشر من كل ما يسوقوه ... سلطان بن البرشونوي فئص [لا] من قبله يكون حاكما على التجار كما جرت العادة مع غيره.

وعلى ... وجفن غزوانيه وما بدل من ما أردنا بحساب ألفي دينار ذهباً للجفن الواحد من الجميع، وأن الاختيار لنا في ... أجفان المذكورة إن أردنا واحد حتى يعرف أسما أردنا من العدد والاختيار لنا فنعطوه نصف ثمن ما أردنا من الأجفان المذكورة ويبقى النصف حتى يتم المدة المشروطة عليهم وهي أربعة أشهر، فيقيموا الأجفان المذكورة المكرية بمرسى بجاية فتحها الله، أربعة أشهر، فإن دخل جفن للمرصى المذكور فهم المأخوذون فيه إن لم يغرقوه في البحر أو يحرقوه، ويكون الاختيار لمولانا أبو تاشفين فيهم، يعمل بهم ما يريد إن لم يأخذوا جفن العدو أو يغرقوه، وليس لهم في ذلك عذر ولا من العدو ولا من كبير البحر، فإن هم حيدوا عن الموضع المذكور بسبب عدم القدرة فيما بيننا وبينهم ربط، فإذا هم وقوا بالشروط المذكورة فنحن نعطوهم النصف من المال الباقي. وإذا اتخذت بجاية المذكورة إن شاء الله تعالى والسلطان بن البرشونوي المذكور مضارحا لنا عليها في البحر بأن يكون قائد بجاية فتحها الله تعالى من تحت يد البرشونوي الذي عندنا وكذلك تونس إن شاء الله تعالى إذا هوّن الله في فتحها. ومهما أخذوا جفن على بجاية المذكورة فالنصف لنا من الغنيمة المذكورة التي في الجفن المذكور والجفن، ولا نصف من الغنيمة من الجفن، ومهما كان في الجفن المذكور مسلمين فهم لنا، وإن كانوا نصارى فهم لهم، فهذا يكون أشخاص الناس لا ... لا من النصارى. ومهما تم إن شاء الله تعالى فتاح هذا ينقسم الفرسان القطرانيين بين ابن البرشونوي وبين ابن القائد ... وهذا النصف على هذا. وكذلك نعطوه مائة ألف دينار ذهباً بعد أخذنا لبجاية إلى ابن البرشونوي ... مما صير لها، فإن لم يجلسوا الأجفان على أخذها ... ذهب شيئا، وأن ال ... المذكورة مهما تمت المدة المذكورة وهي أربعة أشهر، فإن أمرناهم أن يجلسوا [وا] على بجاية المذكورة فيجلسوا عليها، وكلما جلسوا من الأشهر فيعطاهم من الذهب من قرض ما وقع عليه الشرط في الأول وإن كان المذكورين حصروا بجاية ولم يبقوا عليها تمام ما شرطت عليهم من المدة المذكورة، فيرد لنا ابن البرشونوي الذهب الذي قبضه مئتا برسم العمارة على قلة توفيتهم لما شرطنا عليهم من الشروط. والصلح المذكور لعشر سنين إن شاء الله تعالى، والله الموفق للصواب والمعين عليه، لا ربّ غيره، ولا معبود سواه.

المصدر:

<http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4799852?nm&fbclid=IwAR2dfgjzjaNyB-Tc0bza07LIVh03ScWJWjC2Q0a8CiRipCwO6glheojkIw>



## الملاحق

**الملحق رقم 07:** الرسالة رقم 78 بأرشفيف التاج الأرغوني مؤرخة في 1304/07/05م الموافق ل 02 رمضان 703هـ، من السلطان المريني إلى ملك أرغون يطلب فيها المساعدة العسكرية لمحاصرة سبتة مقابل 100 ألف دينار من الذهب يقتسمونها مناصفة إذا نجح هذا الحصار المشترك.

بسم الله الرحمن الرحيم، ثلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا، من عبد الله يوسف أمير المسلمين ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره، وأسعد آصاليه وبكره، إلى الملك الأصدق الأوفى، الأشهد، الأجدد، دون جاقمة ملك أرغون، ألهمة الله إلى الرّشاد ووقفه إلى السّداد.

وبعد حمد الله تعالى، والصلاة التامة المباركة على سيدنا محمد رسوله الكريم المصطفى، وعلى آله وصحبه الطّيبين الطّاهرين أعلام الإسلام وأئمة الرّشد والهدى، وصلية الدّعاء لهذا المقام الكريم بالنّصر الأعرّز والفتح الأسنى. فإنّا كتبنا إليكم أُرشدكم الله بكلّ ما يصلح الأحوال ويُلغ الأمل من حضرتنا السعيدة بتلمسان الجديدة كلاًها الله، ولا جديد يُيمن الله تعالى إلاّ الخير الأتمّ واليُسّر الأعمّ، والطول الجزيل الهامي الدّمّ والحمد لله كثيرا. وإلى هذا أُرشدكم الله وأجرى أمورك على ما يُوافق الأعراض والمراد، وسنى به الخير الذي لا يزال في ازدياد فإنّا نُعزّضكم أنّه تقدّم لكم الكتب قبل هذا بأيام قلائل في شأن ما كتبتم به من أنّكم لا تملكون صلحًا مع صاحب غرناطة ولا مع صاحب قشتالة إلاّ بعد الموافقة ممّا على ذلك لأجل ما تصوّر بيننا وبينكم من الجمالة والمساعدة في جميع الأمور، وما عُلم عند الخاصة والجمهور.

والآن لما تأكّد عندنا من مشاركتكم في الأحوال التي يتسّى للجميع بها الخير في الحال والاستقبال نُعزّضكم بأنّ الختاق صاحب سبتة ترتّب لنا عنده مائة ألف دينار من الذهب في هذه السنتين السّالفة وهي الواجبة عليه المعتادة، فلما طُلبت منه صار يُعاملنا بالتسوييف، ويعتذر بأعذار لا تُقبل منه تُناسب مُحققه ومذهبه السّخيف، فبعثنا من محلاتنا وجيوشنا وقبائل بلادنا المجاورة لسبتة من يُحاصرها في البرّ أشدّ الحصار ويُذيق أهلها النّكال والوبال في عُقر الدّار، ويستولي على ما فيها من المواضع، ويقطع عنها جميع المرافق والمنافع، حتّى حتّى يصير وأهلها عبرة للذّاني والسّاسع، ونستولي عليها بحول الله فليس فيها مانع ولا مُدافع، ورأينا أن تأمروا جملة من أجنانكم تنزل عليها في البحر فإنّها من جهة المينة دون سور ليكون دُخولها هينًا في أقرب أمد، والمائة ألف التي عليهم لكم فيها إن دُخلت بالسّيف خمسون ألف دينار ولنا خمسون ألف دينار، فأنتم أولى من تختصّ به هذه المنفعة الكبيرة لأجل ما ثبت بيننا من حسن المعاملة وجميل البتيرة، والقصد بذلك أن يكون فتحها والاستيلاء عليها معجلاً، فإنّها إذا حوصرت في البرّ والبحر كان أمرها قريباً مُسهلاً، ونوجه لعمرة أجنانكم في البرّ من يقوم بهم من الزرع للعولة، وإذا دُخلت إن شاء الله فكلّ ما فيها وعند أهلها من جميع الأشياء لكم فيه أوفر نصيب، ومهدمها حتّى لا يبقى فيها إلاّ السور، وترجع أجنانكم لمكاتها ويكون لنا ملك سورها، وفعلكم في ذلك مشكور، وإن أعطى أهل سبتة المال قبل أن تُدخل البلد فلکم فيه ثلاثون ألف دينار ولنا سبعون ألف دينار، وهذه القضيّة منفعتها لكم ظاهرة وهي أحسن من كلّ ما تتوجّه إليه أجنانكم.

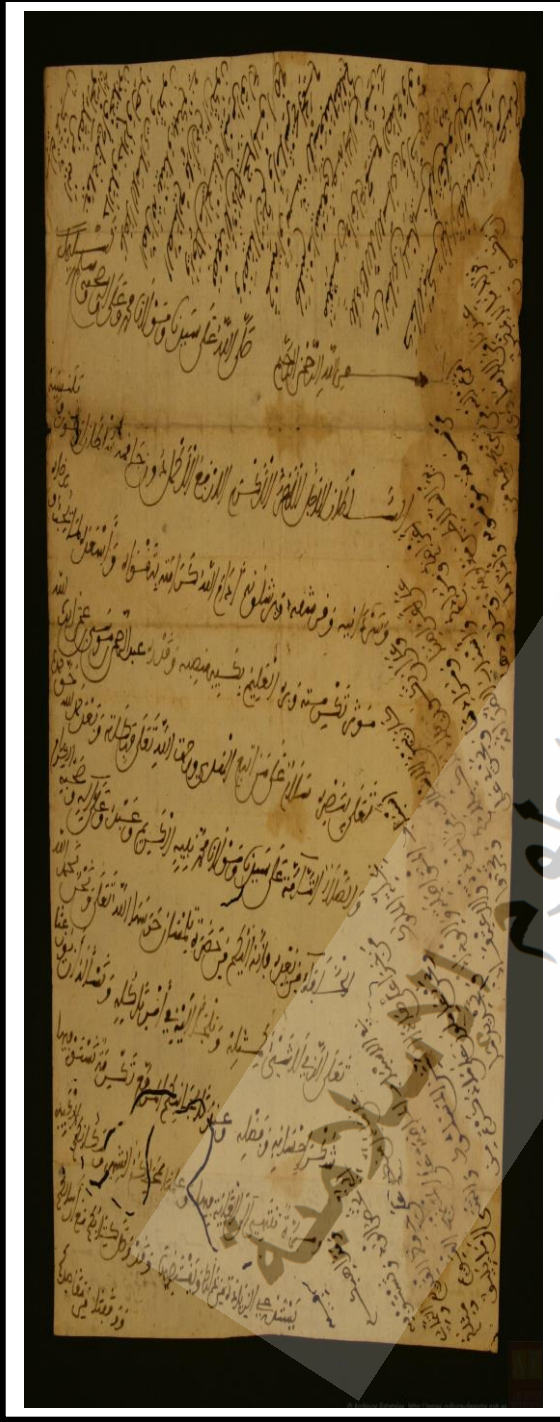
وقد ألقينا لأخي القائد الأجدد برنات سجين وللخدم أبي العباس الطرطوشي صهر ابن الكماد أعزّه الله في ذلك ما يُلبّيه لكم على التمام، والقصد في هذا أن يكون توجيهكم للأجنان معجلاً قبل أن يبرد الفصل وينقطع البحر، فإذا برد الفصل فلا فائدة لتوجيه الأجنان، فإنّ الجيش في البرّ يأخذها، فإن عزمتم على هذا فوجهوا الأجنان طال ما هو زمن عومها في البحر باق، وأما إذا انفصل زمن الحرّ، فلا تطلبوا ممّا التوفية لكم بما ذكرنا في كتابنا إلاّ إذا جدّدتم حركة أخرى في زمن الربيع، فحين إذ تُجدّد معكم أيضا من الرّبط إن بقيت سبتة لم تُؤخذ من البرّ، فخلّصوا هذا الأمر لجهة، وعجّلوا الجواب على هذا الكتاب بما فيه الخير إن شاء الله، والله يُجري الأمور على وفق المراد. وكتب في عقب شهر ذي القعدة عام ثلاثة وسبعمائة. وكتب في التاريخ.

المصدر:

<http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4799658?nm&fbclid=IwAR0P3TdWleoc3CCH6lllVWhSsLFJEewKJZRUKcZ4eQCMX8enIMU8sV-369E>

## الملاحق

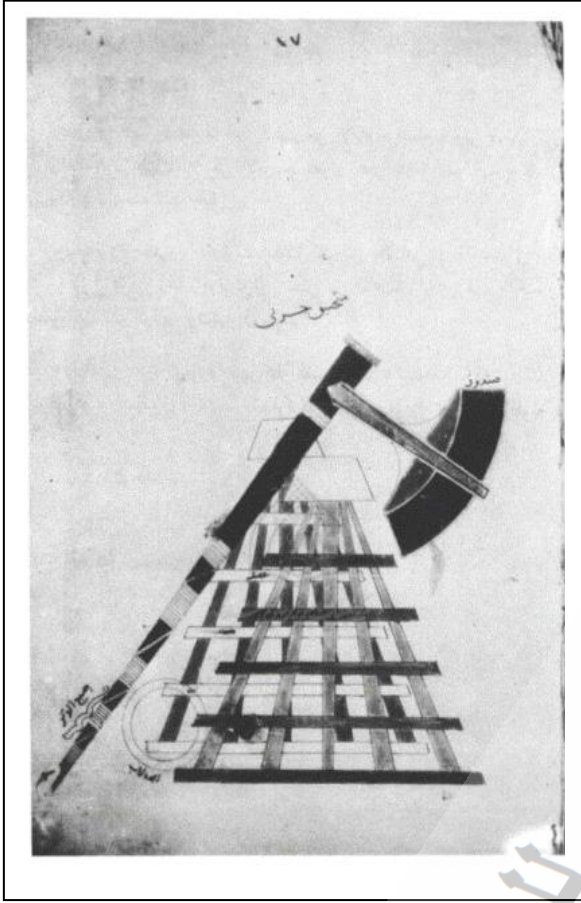
الملاحق رقم 08: الرسالة رقم 91 في أرشيف التاج الأرغوني مؤرّخة بين سنوات 723-724هـ/ 1323-1324م، هي رسالة من السلطان الزياني أبو تاشفين الأوّل إلى ملك أرغون يخبره فيها بعدم إمكانية تسريح جميع الأسرى المسيحيين لأنهم صنّاع متفتنون في جميع أنواع الصنّائع ويتولّون إعمار مدينة تلمسان.



"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيّنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا السلطان الأجلّ الأعزّ الأكرم الأرفع الأكمل دون جاقمة سلطان أرغون وبلنسية وسردانية وقوشقة وبرشلونة، أدام الله كرامته بتقواه وأسعده لما يحبّ ويرضاه، مؤثر تكرمته وبزّه العالم بكبير منصبه وقدره عبد الرحمن بن موسى بن عثمان أيّده الله تعالى بنصره، سلام على من أتبع الهدى ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد حمد الله حقّ حمده والصلاة التامة على سيّدنا ومولانا محمّد نبيّه الكريم وعبد وعلى آله وصحبه الكرام الخلفاء من بعده، فإنّا كتبناه إليكم من حضرة تلمسان حرسها الله تعالى ونحن نحمد الله الذي لا شيء كمثلها ولنلجأ إليه في أمرنا كلّه ونسأله أن يوزعنا شكر إحسانه وفضله. وعندنا لجانبكم المرفّع تكربة نستوفيها ومبزة تنتهي إلى غاية فيها. وعلمنا بمحلّمك الشّهير ومكانكم الكبير يستدعي الزيادة من ذلك ويقتضيها. وقد وصل كتابكم من إرسالكم ووقفنا على مقاصدكم فيه ومذاهبكم التي تخصّ الودّ وتستوفيه، على ما دلّ منكم على حفظ القديم والتّماذي في الأسباب الماضية على المنهج القويم، ومثلكم من جرى على هذه السنن المسلوكة وانتهى ما يلحق بجلّة الملوك، ونحن عاملون على ما ذكرتم من أسباب المواصلة على الوداد وتجديد ما كان بين الأسلاف من المودة والاعتقاد وعلى أن تكون بلادنا كبلادكم وتجروا على أغراضنا ومرادنا ونجري على أغراضكم ومرادكم، وأسباب الصّدقة بين السّلاطين معلومة وحدودها مرسومة موسومة، وأما ما أشرتم إليه من تسريح جميع من عندنا من الأسارى فذلك ما لا يمكن أن يكون كما لا يمكن لنا أن نطلب منكم تسريح من عندكم من أسارى المسلمين لأنكم تعلمون أنّ ما عمّر بلادنا إلاّ الأسارى وأكثرهم صنّاع متفتنون في أنواع جميع الصنّائع، ولو طلبتم ما يستغنى عن الحال في تسريح خمسة أو ستّة لأسعفنا مطلبكم وقضينا إربكم، وأما تسريح الجميع فصعب الآن. ذلك يخلي المواضع ويعطّل ما يحتاج إليه من أنواع الصنّائع، فإن أردتم أن تكون الصّدقة بيننا وبينكم فيما عدا الأسرى ويكون حالنا وحالكم واحد في ما تحتاج أو يحتاجون إليه من قضاء الحوائج التي تمكن ومن سرحة أو غيرها فنحن نعمل إن شاء الله على ذلك ونسلك في مودّتكم وصدّقتكم أمّج المسالك، فاعلموا ذلك والله يسعدكم برضاه ويديم كرامتكم بتقواه. والسّلام على من أتبع الهدى والرحمة والبركة".

المصدر:

<http://pares.mcu.es/ParesBusquedas20/catalogo/description/4800502?nm&fbclid=IwAR2Mpaty18RLUQKUF05dwwt3OzpUgCstw5rvYjtNi2iNut4s2nvFLmX9-IE>



الملحق رقم 10:

آلية شدّ قوس الزّيار المستعمل في حصار تلمسان<sup>1</sup>.

منجنيق حربي جاهز للرمي<sup>2</sup>.

<sup>1</sup>عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 324.

<sup>2</sup>ابن ارنبغا الزدكاش، مصدر سابق، ص 66.





المصدر: من تصوير الباحث



## الملاحق

الملحق رقم 12: صورة للسور من داخل المنصورة



المصدر: من تصوير الباحث

الملحق 13: صورة من الجهة الخارجيّة



المصدر: من تصوير الباحث



## الملاحق

الملحق رقم 14: قطعة خشبيّة من سقف زياني



المصدر: من تصوير الباحث

الملحق رقم 15: قناة نقل الماء



المصدر: من تصوير الباحث



الملحق رقم 16: صورة على الجانب الأيسر



المصدر: من تصوير الباحث

## الملاحق

الملحق رقم 17: صورة على الجانب الأيمن



المصدر: من تصوير الباحث



## الملاحق

الملحق رقم 18: صورة مقابل



الملحق رقم 18: صورة من الداخل



المصدر: من تصوير الباحث

# قائمة المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الشريف التلمساني محمد بن أبي القاسم (ت771هـ/1370م)، مجموع فتاوى الشريف التلمساني، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 232.
- أبو زكريا يحيى التلمساني، اللامع في الفقه، النّاسخ: عمر بن محمد عمر الحسني، تاريخ النّسخ 894هـ، مخطوط الأزهر الشريف، رقم: 314856، مصر.
- مجهول، نوازل ابن مرزوق، تاريخ النسخ 12هـ، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 1342. المصادر باللّغة العربيّة:
- ابن أبي دينار (كان حيا سنة 1110هـ/1698م)، المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس، مطبعة الدّولة التونسيّة، تونس، 1869م.
- ابن أبي زرع علي الفاسي (ت726هـ/1326م)، الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
- ابن أرنبغا الزردكاش، الأنيق في المناجنيق، تح إحسان هندي، منشورات جامعة حلب ومعهد المخطوطات العربيّة، مكتبة ابن كثير، الكويت، 1985م.
- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/1232م)، الكامل في التّاريخ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدّقاق، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987م.
- ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل (ت810هـ/1408م):
  - تاريخ الدّولة الزيانيّة، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة للنّشر والتّوزيع، مصر، 2001م.
  - روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكيّة، الرباط، 1962م.
- ابن الأزرق أبو عبد الله محمد (ت896هـ/1491م)، بدائع السلك في طبائع الملك، تح علي سامي التّشار، دار السلام للطباعة والنّشر ولتوزيع، مصر، 2008.
- ابن الحاج أبو عبد الله محمد بن أحمد التجي القرطي (ت529هـ/1134م)، نوازل ابن الحاج، تحقيق أحمد شعيب اليوسفي، مطبعة تطوان، المغرب، 2018م.
- ابن الحاج النميري (ت بعد 774هـ/1372م)، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1990م.



## قائمة المصادر والمراجع

- ابن الخطيب أبو عبد الله لسان الدين (776هـ/1375م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، ط2، 1973م.
- ابن الدباغ القيرواني (ت699هـ/1300م)، الأسرار الجليّة في المناقب الدهمانية، تحقيق وتقديم عبد لكريم الشبلي، كونتراست للنشر، تونس، 2015م.
- ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (627هـ/1230م)، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1997م.
- ابن الشّماع أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت861هـ/1457م)، الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة، تحقيق محمد الطاهر المعموري، الدّار العربيّة للكتاب، 1984م.
- ابن القنفذ أبو العباس أحمد (ت810هـ/1407م):
  - الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشادلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968م.
  - أنس الفقير وعز الحقير نشر وتحقيق محمد الفاسي، أدولف تور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965م.
- ابن أمير حاج محمد شمس الدين (879هـ/1474م)، التقرير والتحجير، المطبعة الأميرية، مصر، 1899م.
- ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (779هـ/1377م)، رحلة ابن بطوطة رحلة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح، محمد عبد المنعم العريان، بيروت، دار إحياء العلوم، 1987م.
- ابن حوقل أبو القاسم التّصبيي (ت367هـ/977م)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1996م.
- ابن خلدون عبد الرحمان ولي الدين الحضرمي (ت808هـ/1406م):
  - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنّشر، لبنان، 1979م.
  - العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، لبنان، 2000م.
  - المقدمة، تح عبد السّلام الشّداددي، بيت الفنون والعلوم والآداب، المغرب، 2005م.
- ابن خليل عبد الباسط الحنفي الملطي (ت920هـ/1514م):

## قائمة المصادر والمراجع

- الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، deux récits de voyage inédits en afrique du nord au 15ème siècle, thèse complémentaire pour le doctorat des lettres par Robert Brunchvicg, unéversité de paris, la rose éditeursn, 1936.
- نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام، المكتبة العصرية، بيروت، 2002م.
- ابن رحال المعداني أبو علي الحسن (1140هـ/1728م)، كشف القناع عن تضمين الصّناع، تحقيق محمد أبو الأجباف، الدّار التونسيّة للنشر، تونس، 1986م.
- ابن رضوان أبو القاسم المالقي (ت783هـ/1381م)، الشّهب اللّامعة في السّياسة النّافعة، دار الثّقافة، المغرب، 1984م.
- ابن سباهي زادة محمد بن علي البروسي (ت997هـ/1589م)، أوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك، تح المهدي عبد الرواحية، دار الغرب الإسلامي، بيروت..
- ابن سعيد المغربي (ت685هـ/1286م):
- بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، خزانة محمد نزار الدباغ، تطوان، المغرب، 1958م.
- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1955.
- ابن سعد محمد الأنصاري التلمساني (901هـ/1496م)، روضة التّسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين، تحقيق يحيى بوعزيز، منشورات ANEP، الجزائر، 2002م.
- ابن عذارى المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/1313م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين-، تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.
- ابن فضل الله العمري أحمد بن يحيى (749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح حمزة أحمد عباس، المجمع الثّقافي، أبو ظبي، 2002م.
- ابن منكلي محمد الناصري (ت بعد 773هـ/1371م)، الأدلة الرسمية في التّعابي الحربيّة، تحقيق اللّواء الركن محمود شيت خطاب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1988م.
- الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدّروب، تح نبيل محمد عبد العزيز، مطبعة دار الكتب لمصرية، مصر، 2000م.
- ابن مرزوق الخطيب أبو عبد الله محمد التّلمساني (781هـ/1380م):
- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغرا، تقديم محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

## قائمة المصادر والمراجع

- المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزهراوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2008م.
- ابن مريم أبة عبد الله محمد بن محمد أحمد المليتي المديوني (كان حيا سنة 1025هـ/1616م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تقديم محمد الصالح الصديق، منشورات السهل، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009م.
- ابن هذيل عبد الرحمان الأندلسي (ت بعد 763هـ/1361م)، تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، تح عبد الإله أحمد نيهان ومحمد فاتح صالح زعل، مركز زايد للتراث والتاريخ، دار البارودي للطباعة والنشر، أبو ظبي، 2003م.
- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل (ت 732هـ/1331م)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، مطبعة مدينة باريس السلطانية، 1830.
- أبو حمو موسى الثاني الزباني (ت 791هـ/1389م)، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق وتعليق محمود بوترة، دار الشيماء للنشر والتوزيع ودار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012م.
- الادريسي أبو عبد الله محمد (560هـ/1165م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دت.
- الاصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي (ت في النصف الأول من ق 4هـ/10م)، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927م.
- الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تحقيق وتعليق محمد زينهم، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2013م.
- البكري أبو عبيد (487هـ/1094م)، المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [د.س].
- بن روسان حمو، تحفة الاعتبار فيما وجد من الآثار بمدينة الجدار، تحقيق عمارة علاوة وفارس كعوان، دار الهدى، الجزائر، 2021.
- التنبكتي أحمد بابا (ت 1036/1627م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشور كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989م.
- التنسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (899هـ/1493م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح وتعم محمود آغا بوعيايد، الجزائر، دار موفم للنشر، 2001.
- التيجاني أبو عبد الله بن محمد بن أحمد (كان حيا سنة 708هـ/1308م)، رحلة التيجاني، تق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981م.

## قائمة المصادر والمراجع

- الثَّغري عبد الله بن محمد بن يوسف القيسي التلمساني (كان حيًّا نهاية ق 8هـ/14م)، مناقب أبي عبد الله محمد بن أحمد الشَّريف التلمساني، تحقيق قندوز ماحي، سلسلة أعلام وتاريخ حاضرة تلمسان (1)، الجزائر، [د.ت].
- الحزيري أبي محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان (516هـ/1122م)، المقامات، اعتنى بطبعه كبير الدين أحمد، مطبعة أردو كائيد، [د.م.]، 1882م.
- الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت 626هـ/1228م)، معجم البلدان، المجلد 2، دار صدار، بيروت، 1977م.
- الحميري محمد بن عبد المنعم (728هـ/1328م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت، 1984م.
- الزركشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (كان حيًّا سنة 894هـ/1488م)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
- الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 15، 2002م.
- الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ق 6هـ/12م)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدِّينية، بورسعيد-مصر، [د.ت].
- الزباني محمد بن يوسف (ت بعد 1320هـ/1902م)، دليل الحيران وأنيس السَّهران في أخبار مدينة وهران، تح النهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- السبتي محمد بن القاسم الأنصاري (كان حيًّا بعد 825هـ/1421م)، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط 2، 1983م.
- شهاب الدِّين أحمد بن محمد أبي الربيع (327هـ/842م)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تح عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996م.
- الشيباني محمد بن حسن (ت 186هـ/802م)، شرح كتاب السير الكبير، تح محمد حسن إسماعيل الشافعي، تقديم دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م.
- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ/922م)، تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد ابو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 2، مصر، 1969م.
- الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد (560هـ/1165م)، سراج الملوك، تح محمد فتحي أبو بكر، تقديم شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، مصر، 1994م.

## قائمة المصادر والمراجع

- العباسي الحسن بن عبد الله (ت710هـ/1310م)، آثار الأول في ترتيب الدول، تحقيق عبد الرحمان بن عميرة، دار الجيل، بيروت، 1989م.
- العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد (ت700هـ/1300م)، رحلة العبدري، تح علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2005م.
- العقباني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التلمساني (ت871هـ/1467م)، تحفة الناظر وغنية الذّآكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي الشّنونفي، مجلة Institut، Tom XIX، Bulletin d'études orientales، Francaise de Damas، 1967م.
- الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد (ت714هـ/1315م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببحاية، تح عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979م.
- القزويني زكريا بن محمد (ت682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، دت.
- القلصادي أبو الحسن علي (ت891هـ/1486م)، رحلة القلصادي، تح محمد أبو الأجنان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.
- القلقشندي أحمد بن عبد الله (ت861هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915م.
- المازوني أبو زكريا يحيى بن موسى بن عيسى (ت833هـ/1497م):
  - الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق مختار حساني، مراجعة مالك كرشوش، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
  - مناقب صلحاء الشلف، تحقيق عبد القادر بوباية، الرّشاد للطباعة والنّشر، الجزائر، 2017م.
- المراكشي عبد الواحد (ت647هـ/1250م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصحّحه وعلّق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.
- المغيلي محمد بن عبد الكريم (ت909هـ/1503م):
  - تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسّلاطين، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1994م.
  - مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق عبد المجيد الحّيالي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2001م.
- المقري أبو عبد الله محمد التلمساني (ت1041هـ/1632م):
  - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.



## قائمة المصادر والمراجع

- أزهار الرياض بأخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة لأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940م.
- الملاي أبو عبد الله محمد بن عمر التلمساني (كان حيا سنة 897هـ/1492م)، المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، تح علال بوريق، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
  - الناصري أبو راس محمد بن الناصر (ت1238هـ/1823م)، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غالم، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية البرنامج الوطني للبحث: السكان والمجتمع، منشورات CRASC، [د.ت.]، [دم].
  - الناصري أحمد بن خالد (ت1315هـ/1879م)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م.
  - النديم أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (ت384هـ/994م)، الفهرست، تح إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط2، 1997.
  - النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1332م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، منشورات محمد علي بيضو، دار الكتب العلمية، لبنان، 2004م.
  - المهرثمي الشعراي (كان حيا بعد 234هـ/848م)، مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عوز مراجعة محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر، [د.ت.] .
  - الهروي أبو بكر (ت611هـ/1215م)، التذكرة الهروية في الحيل الحربية، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد-مصر، [د.ت.] .
  - الوزان الحسن بن محمد الفاسي (ت944هـ/1537م)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م.
  - الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى (ت914هـ/1509م):
  - المعيار المغرب والجماع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.
  - عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، تح حمزة أبو فارس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
  - مجهول (ت372هـ/982م)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1999م.

## قائمة المصادر والمراجع

- مجهول (عاش خلال ق14/8م)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.
  - مجهول (عاش في ق6هـ/12م)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، [د.ت].
  - مجهول (ت بعد 764هـ/1362م)، زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق محمد بن أحمد باغلي، الأصالة والنشر للتوزيع، الجزائر، ط2، 2012م.
  - كرنجال مرمول (ت أواخر ق16/10م)، إفريقيا، تر محمد حجي وآخرون، مطابع المعارف، الرباط، 1989م.
- المراجع باللغة العربية:

- أبو راضي فتحي عبد العزيز، الطرق الإحصائية في العلوم الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1997م.
- أجميلي حميد، جوانب من التاريخ الديمغرافي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (6-8هـ/12-14م)، تقديم ابراهيم القادري بودشيش، منشورات مركز تافيلالت للدراسات والتنمية والأبحاث التراثية، المغرب، 2016م.
- برنشفيك روبر، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، تر حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.
- برنيان أندري وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.
- بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، ترجمة بسام بركة وآخرون، دار الفكر، بيروت، سورية، 2002.
- بشاري لطيفة، إسهامات التلمسانيين في المجالين الاقتصادي والديني بالسودان الغربي، ضمن كتاب تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والميراث الغني، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011م.
- بعيزيق صالح، بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006م.
- بلعري خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، دار الأملية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
- بلوط عمر، فنادق مدينة تلمسان الزيانية، مؤسسة الضحى للنشر والتوزيع، 2011م.
- بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

## قائمة المصادر والمراجع

- بن دريس مصطفى، الرّوابط الاقتصادية للمغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا (ق7-10هـ)، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018م.
- بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر، سورية، 2002م.
- بوتشيش ابراهيم القادري، تراث الغرب الإسلامي، وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2002م.
- بوتول غاستون، هذه هي الحرب، ترجمة مروان القنواقي، منشورات عويدات، لبنان، 1981م.
- بوزيان الدراجي، نظم الحكم في الدولة الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.
- بولعراس خميسي، النخب العسكرية بالمغرب الإسلامي قراءة في التنظير والاحتراف، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018م.
- بولقطيب الحسن، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، دراسة تاريخية، جذور للنشر، المغرب، 2004م.
- بولقطيب الحسين، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، جذور للنشر، الرباط، 2004م.
- بونابي الطاهر، الحركة الصوفيّة في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع هجريين (14-15 ميلاديين)، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، إشراف عبد العزيز فيلاي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008، 2009م.
- البياض عبد الهادي، الكوارث الطبيعيّة وأثرها في سلوك وذهنيّات الإنسان في المغرب والأندلس، دار الطليعة، بيروت، 2008م.
- تضرغوت محمد، نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامي، تق: محمود اسماعيل، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004م.
- تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 609-869هـ/1212-1465م إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنيّة، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلاميّة والعلوم الإنسانيّة، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2010م.
- جاستون بول، الحرب والمجتمع تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعيّة والثقافية والنفسيّة، ترجمة عباس الشربيني، دار النهضة، بيروت، 1983م.
- جدلة ابراهيم، المجتمع الحضري بإفريقية خلال العهد الحفصي، منشورات وحدة البحث الجنوب الغربي جامعة قفصة، مطبعة قطيف، قفصة، 2010م.

## قائمة المصادر والمراجع

- الجنحاني الحبيب، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، داري الطليعة، بيروت، 1980م.
- جاسم محمد سلطان، فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة، 2005.
- جوتشلك لويس، كيف نفهم التاريخ، ترجمة عائدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة، دار الكتاب العربي، 1966م.
- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع هجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، [د.ت].
- جيدة عبد الحميد، صناعة الكتابة عند العرب، دار العلوم العربية، بيروت، 1998م.
- حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984م.
- الحداد حميد، السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، الناية للدراسات والنشر والتوزيع ودار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، 2011م.
- حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى، الجزائر، 2011م.
- حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.
- دحماني صبرينة نعيمة، الآثار العسكرية الإسلامية بمدينة تلمسان، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 2020م.
- دهينة عطا الله، العصر الذهبي للزيانيين، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- دي كاسترو جوزيه، جغرافية الجوع، ترجمة زكي الرشيد، مراجعة محمود موسى، دار الهلال، {د.ت}.
- رستم أسد، مصطلح التاريخ، مركز تراث للبحوث والدراسات، مصر، 2015م.
- زبير لوبني، الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين، دار الأمان، الرباط، 2016م.
- زيتوني بلال، رقمنة المراسلات السلطانية وأهميتها في كتابة تاريخ المغرب في العصر الوسيط، دار نور للنشر، 2020م.
- سالم عبد العزيز والعبادي أحمد مختار، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، لبنان، 1969م.
- سامي عوض، معجم المصطلحات العسكرية، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2008م.
- سبيتان سمير ذياب، الجغرافيا العسكرية، الجنادرية للنشر والتوزيع، الأردن، 2012م.

## قائمة المصادر والمراجع

- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
- سعيدان عمر، علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي، منشورات سعيدان، تونس، 2002م.
- شورحي عبد المولى، الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون الأسعار والتقود، طباعة ونشر إدارة الثقافة والنشر، المملكة العربية السعودية، 1989م.
- طحطح خالد، الكتابة التاريخية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2012م.
- عبد الحميد حاجيات، خطر التصاري وانحياز الدولة الزيانية، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000م.
- عزّاوي أحمد، الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8 هـ دراسة وتحليل لرسائه، مطبعة الرباط نيت، المغرب، 2006م.
- عزي بوخالفة، شواهد الإحسان على مآثر المحروسة تلمسان، الجزائر، 2011م.
- علوش مسعودة، النظر المقاصدي في الفكر النوازي من خلال مخطوط الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا المازوني الجزائري (ت833هـ) مسألة الحراة أمودجا، ضمن كتاب -المغرب الأوسط في العصر الوسيط من خلال كتب النوازل -، تنسيق بوبة مجاني، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2011م.
- عياش محمد، الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان، بحث مقدّم لنل شهادة الماستير في الآثار الإسلامية، إشراف صالح بن قربة، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2005-2006م.
- غومة سالم أبو القاسم محمد، دراسة للجيش والأسطول والمنشآت في الدولة المرينية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2014م.
- فرنسيس جالجانو، ايوجين بالكا، الجغرافيا العسكرية الحديثة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي، 2014م.
- فكاير عبد القادر، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/105-1792م)، دار هومة، الجزائر، 2012م.
- فهمي التّجار، الحرب التّفسيّة، أضواء إسلاميّة، دار الفضيلة، السعودية، 2005م.
- فيلاي عبد العزيز:
- بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى للنشر، الجزائر، 2014م.



## قائمة المصادر والمراجع

- تلمسان في العهد الزباني، دار موفم للنشر، الجزائر، 2007.
- القبلي محمد، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، المغرب، 1987م.
  - قريان عبد الجليل، التعليم بتلمسان خلال العهد الزباني، جسر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
  - كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، القسم الأول، ترجمة صلاح الدين عثمان، مراجعة ايغور باييف، moskova, leninorad، 1957م.
  - كوثراني وجيه، تاريخ التأريخ - اتجاهات مدارس مناهج-، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط2، 2013م.
  - اللطيف محمد العادل، الخوف ببلاد المغرب في العصر الوسيط، تقديم محمد الطاهر المنصوري، زينب للنشر والتوزيع، تونس، 2019م.
  - لعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المريئية بتلمسان، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، ط2، 2011م.
  - لقبال موسى، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي نشأتها وتطورها، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م.
  - مارسلي وليم وجورج، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، ترجمة مراد بلعيد وآخرون، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
  - مارمول كرنجال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1988-1989م.
  - المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، [دس].
  - مرفت عثمان، التّحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشّام، دار العالم العربي، القاهرة، 2010م.
  - مزيان عبد المجيد، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، طبعة خاصة بتظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.
  - مير علم يحيى ومحمد الطيان، علم التّعمية واستخراج المعنى عند العرب، مطبوعان مجمع اللغة العربية، 1987م.
  - نبهان يحيى، معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا للنشر والتوزيع، الأردن، 2008م.
  - نقادي سيدي أحمد، خطة العمران لمدينة تلمسان ودلالاتها الاجتماعية، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م.
  - الهندي إحسان، أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1993م.

## قائمة المصادر والمراجع

- الواعر صبرينة، الغزو الإسباني للمدن والموانئ الجزائرية وهران والمرسى الكبير أنموذجا 1505-1792م، -ضمن أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا-، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط إلى نهاية العهد العثماني، جامعة الجزائر، 2009م.
- الوافي محمد عبد الكريم، منهج البحث في التأريخ والتدوين التاريخي عند العرب، منشورات جامعة قان يونس، ط3، بنغازي، 2008م.
- المقالات:
- أستيتو محمد، معوقات الاقتصاد المغربي في العصر الوطاسي من خلال كتب الرحلات والجغرافيا (أنموذج كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، ع06، أكتوبر 2005م.
- بلعري خالد، آثار المجاعات والأوبئة على تراجع الحرف والصناعات بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ع:04، 2013م.
- بلعري خالد، الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة كان التاريخية، ع06، ديسمبر 2009م.
- بن حمادة سعيد، نظام الشرطة بالغرب الإسلامي، سلسلة شرفات، منشورات الزمن، المغرب، ع92، 2017م.
- بولعراس خميسي، التنظير الحربي في الاستراتيجية والتكتيك عند أبو بكر الطرطوشي (ت520هـ/1127م) من خلال كتابه سراج الملوك، مجلة دراسات وأبحاث، ع23، جوان 2016م.
- بونابي طاهر، الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ع04، 2013م.
- حركات إبراهيم، الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ع الثالث والرابع (عدد مزدوج)، المغرب، 1978م.
- خليف رفيق، حرفيو السك النقدي في المغرب الأوسط الزياني، أسرة ابن الملاح أنودجا، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ع04، جوان 2013م.
- زيتوني بلال، الأراضي الزراعية والحرب بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني سياسة إحراق الأراضي الزراعية وتخريبها أنموذجا، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ع60، أكتوبر 2021م.
- طاهري محمد، ظاهرة التضخم النقدي في العهد مساهمة في علاقة النقد بالأسعار، مجلة المواقف والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع04، ديسمبر 2020م.

## قائمة المصادر والمراجع

- الطويل محمد حجاج، "المسألة الديموغرافية: نحو منهجية ديموغرافية محاولات إحصائية (العصر الوسيط أنموذجا)"، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، إعداد مصطفى نشاط وآخرون، ع01، 1999م.
- عزرودي نصيرة، الغش في العملة في بلاد المغرب الأوسط من خلال كتب التوازل المتأخرة، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع09، 2014م.
- الملك عدالة، القتل في المغرب عبر التاريخ، مجلة وجهة نظر، العددين 44-45، المغرب، 2010م.
- ناصري محمد، الحرب والإنسان بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني: الأسر نموذجاً، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد الرابع، ع08، 2018م.
- وردو عبد العزيز، الحرب قناة للتواصل الحضاري بين ضفتي المتوسط خلال العصر الوسيط، دورية كان التاريخية، ع08، يونيو، 2010م.
- الأطروحات والمذكرات:
- الشرفاوي ياسمين مرسى إبراهيم، حياة الحرب والجهاد في عصر الدولة الحفصية (626-981هـ/1228-1574م)، رسالة في التاريخ الإسلامي مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف محمد رضوان البارودي وصبحي إدريس، قسم التاريخ، جامعة كفر الشيخ، مصر، 2018-2019م.
- بصدیق عبد الكرم، البيوع والمعاملات التجارية في المغرب الأوسط وأثرها على المجتمع ما بين القرنين (6-9هـ/12-15م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط الإسلامي، إشراف فاطمة بلهوارى، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2017-2018م.
- بكاي هوارية، العلاقات الزياتية المرينية سياسياً وثقافياً، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف بودواية مبخوت، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم التاريخ، تلمسان، 2007-2008م.
- بلعربي خيرة، المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي (ق5-10هـ)، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف مبخوت بودواية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، قسم التاريخ، 2009-2010م.
- بورملة خديجة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط من القرن السادس إلى التاسع الهجري، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، إشراف عبد القادر بوباوية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2017-2018م.

## قائمة المصادر والمراجع

- **بوعقادة عبد القادر**، الحركة الفقهية في المغرب الأوسط بين القرنين 8-7هـ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تخصص التاريخ الوسيط، إشراف لطيفة بشاري، قسم التاريخ، جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 2014-2015م.
- **بوقاعدة بشير**، خطة الحصار العسكري في بلاد المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والثامن الهجريين (10-14م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تاريخ المغرب والمشرق والإسلامي، إشراف جميلة بن موسى، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة-الجزائر، 2016-2017م.
- **خالدي عبد الحميد**، العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب الأوسط من الفتح إلى نهاية الموحدين دراسة تاريخية نقدية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، إشراف مختار حساني، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2007-2008م.
- **شقطي هناء**، الخطاب الفقهي والزيف في المغرب الأوسط من خلال الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مذكرة لنيل درجة الماجستير، إشراف علاوة عمارة، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة 2، 2012-2013م.
- **غرداوي نور الدين**، جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية بالمغرب الإسلامي في القرنين الثامن والتاسع هجريين من خلال الدرر المكنونة في نوازل مازونة للمازوني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف عبد العزيز لعرج، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2005-2006م.
- **غطاس عائشة**، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700م-1830م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، إشراف مولاي بالحميسي، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001م.

### المراجع باللغة الأجنبية:

- fouad zaim, histoire et analyse des faites economique et sociaux, edition guessous ,1993.
- David C. Howell, statistical methods fo psychology, 7th editio, 2010, p,p 173-565.
- Pierre Clastres, "De L'ethnocide", L'omme revue francaise d'anthropologie, vol 14 N3-4, juillet-septembre 1974.
- Charles-Emmanuel Dufourc, L'essagne catalane et le maghrib aux XIIIe et XIVE siècles, presses universitaires de France 108, boulevard Saint-Germany, Paris, 1966.
- William et Georges Marcias, Les monuments arabes de Telmcen, Ouvrage publie sous les auspices du gouvernement general de l'Algerie ,Ancienne librairie thorin et fils, paris,1907.
- Adrien. Berbrugger, Mers-el-kebir, revue africaine, le numéro 52 de la revue,1865.
- jean joseph bargès, tlemcen ancienne capitale du royaume de nom, imprimerie oriental de marius nicolas, paris, 1859.

- Chales –Emmanuel dufourcq, la vie quotidienne dans l'europe médévale sois domination arabe, hachette littérature et sciences hummaines, 1978.
- Robert brunschvig, deux récits de voyage inédits en afrique du nord au XV<sup>eme</sup> siècle, abdalbasit b.halil et adorn, la rose éditeurs, paris, 1936.
- Charles emmanuelle dufourq, revue d'histoire et de civilisation du mahreb, n<sup>13</sup>, E.Lévi-provencal, la vie urbain et les corps de metiers a séville au début du XII siècle : le traité D'ibn abdoun, journa asiatique, [s.d] .
- Jourdan, Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1594), Bibliothèque nationale de France, département Philosophie, histoire, sciences de l'homme, 8-OI-213,1875.
- Charles barbet, La Perle du Maghreb(Tlemcen),Edition de l'imprimerie algerienne, alger.
- Bargès, Jean-Joseph-Léandre (1810-1896), Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom : sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments, paris, 1859, Imprimerie orientale de Harius Nicolas, à Heulan.
- M.I.Duthoit, raport sur une mission scientifique en algerie, **archives des missions scientifique**, 3 eme série, tom1.



- 210 ,178 ,163 , الآبلي  
 290 ,266 ,265 ,264 ,262 ,261 ,260 ,259  
 300 ,299  
 ابن أبي زرع, س, 35, 38, 39, 40, 41, 42, 43  
 ابن رضوان المالقي, ظ, 69, 70, 71, 72, 74, 77, 83, 88, 90, 94, 98  
 ابن زكري, 204, 103, 115, 118, 139, 178, 181, 182, 186  
 ابن عرفة, 113, 134, 171, 173, 206, 188, 203, 216, 219, 225, 229, 234, 236  
 ابن فضل الله العمري, غ, 34, 77, 168, 291, 246, 248, 249, 254, 257, 264, 289  
 ابن مرزوق, ش, ض, ط, 11, 19, 21, 39, 47, 48, 119, 128, 162, 163, 192, 219, 246, 247  
 70, 75, 112, 113, 118, 120, 122, 123  
 125, 126, 127, 128, 132, 160, 163, 164  
 167, 168, 191, 193, 196, 197, 205, 208  
 209, 211, 214, 221, 222, 223, 226, 229  
 240, 245, 250, 254, 255, 258, 266, 291, 289  
 ابن مريم, 19, 20, 22, 48, 61, 120, 146, 150  
 154, 162, 193, 204, 205, 206, 220, 225  
 226, 228, 246, 248, 250, 251, 255, 257  
 258, 292  
 ابن منظور, 4, 16, 29, 79, 83, 89, 229, 230  
 261  
 أبو إسحاق إبراهيم بن علي اللّجام, 126  
 أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف ابن دهّاق الأوسي, 225  
 أبو إسحاق, ر, 50, 225  
 أبو البقاء خالد, 44  
 أبو الحسن سعيد, 34  
 أبو الحسن, ض, ظ, 15, 22, 34, 45, 47, 48, 49  
 73, 75, 78, 79, 80, 104, 119, 173, 191  
 195, 199, 209, 211, 214, 217, 228, 235  
 238, 239, 240, 245, 250, 251, 255, 289  
 294  
 أبو العباس أحمد العاقل, 62  
 أبو العباس أحمد بن محمد القرشي, 3  
 أبو الفدا إسماعيل, 10

|  |   |
|--|---|
| أبو محمد عبد الواحد بن تومرت المسكوري, 120   | أبو الليل, 46, 55                             |
| أبو مدين, 135, 193, 209, 226                 | أبو بكر الحفصي, 10, 121                       |
| أبو هادي مصباح بن علي الصنهاجي, 22           | أبو بكر محمد بن خطاب, 106, 146                |
| أبو يفلوسن, 181, 199, 220                    | أبو تاشفين الأول, غ, 10, 14, 45, 105, 121,    |
| أبو يوسف الصنهاجي, 80                        | 129, 141, 202, 209, 227, 236, 237, 244,       |
| أبو يوسف يعقوب, 38, 43                       | 245, 249, 259, 260, 279                       |
| أحمد العاقل, 167                             | أبو تاشفين الثاني, ط, 69, 94, 265             |
| أحمد بن العزّ, 59                            | أبو ثابت, 10, 30, 49, 50, 73, 78, 129, 138,   |
| إخوان الصفا, 66                              | 235, 248, 252, 256                            |
| الاصطخري, 4, 292                             | أبو حفص عمر, 36                               |
| ألفونسو, 41, 45, 147, 201                    | أبو حمو موسى الثاني, ر, 179                   |
| الإمام مالك, 134                             | أبو دبوس, 90                                  |
| بترو الرابع, 144                             | أبو زكريا, ش, 10, 13, 32, 36, 50, 70, 76, 82, |
| البرزلي, 155, 222                            | 88, 118, 155, 228, 254, 289, 294              |
| بروسلار, 200                                 | أبو زيد عبد الرحمان بن النجار, 123, 124       |
| بيدرو الثالث, 146                            | أبو سالم, ز, ض, ظ, 60, 73, 92, 98, 230, 263,  |
| بيدرو الرابع, 22, 273, 274, 275              | أبو سعيد الزباني, ض                           |
| التمبكتي, 18, 154, 155, 204, 205, 210        | أبو سعيد عثمان الثاني, 60                     |
| التنسي, ذ, ر, ز, ش, ف, 6, 9, 10, 13, 14, 18, | أبو عامر, 38, 40                              |
| 19, 20, 24, 32, 33, 34, 35, 37, 38, 40,      | أبو عبد الله محمد المتوكل, 62                 |
| 41, 44, 45, 46, 48, 49, 50, 51, 59, 60,      | أبو عبد الله محمد المستعين بالله, 62          |
| 61, 62, 63, 88, 105, 118, 146, 153, 156,     | أبو عبد الله محمد بن يحيى, 55                 |
| 174, 204, 210, 211, 212, 215, 216, 220,      | أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي, 179         |
| 225, 234, 238, 240, 243, 246, 248, 249,      | أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي, 84, 219     |
| 251, 258, 259, 260, 261, 264, 292            | أبو عصيدة, 44                                 |
| تيتاو, ك, 16, 17, 107, 125, 128, 131, 136,   | أبو علي بن أبي العباس الملياني, 10            |
| 178, 183, 185, 194, 195, 205, 297            | أبو عمارة, 36                                 |
| ثابت بن منديل, 37, 38, 43, 45, 242, 261      | أبو عمرو عثمان, 63                            |
| جابر بن يوسف, 32                             | أبو عنان, 21, 50, 73, 119, 129, 180, 218,     |
| جاظمة, 141, 148                              | 252, 256                                      |
| الحريزي, 131, 293                            | أبو فارس عبد العزيز, 60, 92, 120, 192, 228    |
| الحسن العباسي, 68, 100, 101                  | أبو مالك عبد الواحد, 61                       |
| الحسن بن عمر الفودودي, 91                    | أبو محمد عبد الله بن أبي حمو, 60              |

- الحسن بن محمد بن عبد الله الثاني, 63  
 الحميري, 5, 8, 37, 293  
 خالد بن عامر, 54, 57  
 خايمي الثاني, 121  
 دون نونيو, 41  
 رحو بن يعقوب الوطاسي, 216  
 الربك ريكسون, 42  
 الزركشي, ش, 20, 21, 33, 119, 229, 234, 240  
 زكريا المطغري, 40  
 سالم بن إبراهيم, 58, 108  
 سعيد بن أجانا, 49  
 السلطان أبي العباس, ر, 59, 182  
 السلطان عبد العزيز المريني, ر  
 سليم, 46, 110, 121, 191, 260  
 السنوسي, 120, 132, 204  
 سوط النساء, 34, 70  
 الشريف التلمساني, 68, 71, 113, 185, 289  
 الشريف محمد الخوراني, 63  
 صالح رايس, 63  
 الطرطوشي, 29, 100, 301  
 عبد الباسط بن خليل, 18  
 عبد الحليم بن السلطان أبي علي, 73  
 عبد الرحمان الواسطي, 122  
 عبد الرحمان بن أبي زيد الهزميري, 154, 205  
 عبد القوي, 33, 207  
 عبد الكريم المغيلي, 203, 204, 222, 262, 263  
 عبد الله العصنوني, 204  
 عبد الله بن سقير العامري, 67  
 عبد الله بن مسلم, 24, 52, 53, 54, 55, 83, 105,  
 108, 116, 129, 139, 192, 228, 231  
 عبد الله بن منصور الحوتي, 205  
 عبد الله كنون, س  
 العبدري, غ, 111, 131, 132, 213, 233, 294
- عثمان بن جزّار العبد الوادي, 73  
 عثمان بن يغمراسن, 13, 36, 37, 38, 40, 42, 43,  
 44, 70, 104, 105, 106, 115, 178, 181,  
 182, 191, 248  
 العقباني, ص, ق, 68, 71, 107, 111, 112, 113,  
 117, 126, 134, 154, 163, 165, 170, 171,  
 173, 184, 203, 204, 221, 222, 223, 294  
 علي أبي عبد الله, ر  
 علي بن راشد, 30, 50  
 علي بن عمر, 36  
 عمران بن موسى, 54, 55  
 عيسى بن مزروع العبد الوادي, 9  
 الغبريني, 3, 166, 294  
 فارح, ز  
 فرناندو, 150  
 الفلقشندي, غ, 5, 15, 37, 39, 47, 85, 121,  
 217, 232, 239, 246, 249, 294  
 الكاردينال خيمينيس, 149, 151  
 لعبد الرحمان الشيرزي, 100  
 المازوني, ص, 71, 106, 107, 108, 112, 114,  
 115, 120, 126, 129, 130, 134, 137, 154,  
 155, 167, 172, 184, 197, 203, 204, 205,  
 206, 207, 208, 222, 253, 257, 258, 294,  
 299  
 المتوكل, ز, ش, ف, 63, 220, 221, 235, 258  
 مجهول, ز, س, 4, 5, 9, 18, 24, 25, 37, 50, 51,  
 69, 70, 81, 83, 84, 86, 88, 92, 94, 98,  
 99, 104, 105, 115, 127, 139, 143, 167,  
 179, 180, 186, 192, 193, 212, 218, 219,  
 223, 228, 231, 256, 264, 289, 296  
 محمّد السابع, 151  
 محمد بن أبي عمران, 10, 14, 249  
 محمد بن عطو, 38

## الفهارس

|  |   |
|--|---|
| 224 ,222 ,220 ,210 ,208 ,207 ,206 ,204         | محمد بن علي البروسي , 5                       |
| 296 ,295 ,262 ,258                             | محمد بن قاسم المشدالي , 112                   |
| الباقوتة , 14 ,47 ,93 ,245                     | محمد بن قلاوون , ظ , غ , 47 ,217              |
| يحيى بن العطار , 193 ,209                      | محمد بن منكلي التّاصري , ظ                    |
| يحيى بن خلدون , ذ , ر , 10 ,14 ,18 ,20 ,24 ,30 | محمد بن يوسف , 5 ,45 ,129 ,132 ,155 ,199      |
| ,46 ,44 ,40 ,39 ,38 ,37 ,36 ,35 ,33 ,32        | 293 ,262 ,244 ,243 ,206 ,204                  |
| ,67 ,57 ,56 ,55 ,54 ,51 ,50 ,49 ,48 ,47        | المزّاكشي , 4                                 |
| ,98 ,93 ,92 ,88 ,83 ,74 ,73 ,72 ,71 ,69        | المرتضى , 75 ,115 ,178                        |
| ,129 ,124 ,119 ,118 ,117 ,116 ,114 ,105        | مسعود الوعزاني , 60                           |
| ,155 ,146 ,145 ,140 ,139 ,138 ,137 ,130        | المغليبي , 112 ,204 ,205 ,294                 |
| ,216 ,215 ,212 ,207 ,203 ,201 ,188 ,174        | المقرّي , 20 ,133 ,137 ,210 ,240              |
| ,235 ,234 ,228 ,226 ,225 ,220 ,219 ,218        | المنتصر , 58 ,115 ,119 ,156 ,167 ,169 ,178    |
| ,249 ,246 ,245 ,244 ,243 ,241 ,240 ,236        | 192   |
| 261 ,259 ,257                                  | موسى بن إبراهيم البرنياني , 73                |
| يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز , 154   | موسى بن علي الغزّي , 44 ,46 ,244              |
| يرى ابن عذاري , 30                             | التّاصري , 21 ,94 ,103 ,162 ,168 ,216 ,217    |
| اليزناسني , 185                                | 247 ,246 ,245 ,239 ,238                       |
| يعقوب بن عبد الحق , 35 ,36 ,41 ,57 ,70 ,73 ,90 | نزمار بن عريف , 182 ,265                      |
| ,238 ,218 ,202 ,182 ,178 ,139 ,128 ,103        | هارون الرّشيد , ع                             |
| 250 ,246                                       | المهرثمي , ع , 76 ,87 ,90 ,189 ,229 ,230 ,263 |
| يغمراسن , ذ , 3 ,6 ,10 ,20 ,24 ,25 ,32 ,34 ,35 | 295   |
| ,75 ,72 ,71 ,70 ,61 ,44 ,42 ,41 ,40 ,36        | المهروي , ع , 189 ,230 ,295                   |
| ,115 ,108 ,106 ,103 ,93 ,90 ,83 ,82 ,76        | هلال القطلائي , 147 ,148                      |
| ,180 ,178 ,146 ,139 ,138 ,129 ,126 ,118        | وانزمار بن عريف , 51                          |
| ,219 ,215 ,201 ,198 ,195 ,191 ,190 ,182        | الوزان , ف , 11 ,13 ,66 ,68 ,104 ,109 ,116    |
| ,248 ,243 ,240 ,237 ,236 ,234 ,228 ,227        | ,159 ,158 ,150 ,149 ,139 ,134 ,133 ,129       |
| 29 ,259 ,254                                   | 264 ,237 ,236 ,223 ,209 ,203 ,188 ,160        |
|  | الوغلبيسي , 130 ,208                          |
|  | ولد مندبل , 33                                |
|  | الونشريسي , ش , 15 ,21 ,71 ,110 ,111 ,113     |
|  | ,170 ,169 ,167 ,165 ,151 ,143 ,117 ,115       |
|  | ,203 ,201 ,198 ,197 ,196 ,183 ,173 ,171       |

فهرس الأماكن والبلدان :

|  |  |
|--|--|
| بطويّة, 182                                    | أجادير, 228                                  |
| بلاد الديلمة, 104                              | اسبانيا, 171, 203                            |
| البندقية, 151                                  | الاسكندرية, 16, 132, 296                     |
| بونة, 10, 133, 243, 249                        | إشبيلية, 169                                 |
| تاجعومت, 59                                    | أشقيولة, 41                                  |
| تازا, ف, 35, 38, 182, 262, 265                 | أغمات, 154                                   |
| تازوطا, 42                                     | إفريقية, ق, 3, 4, 99, 103, 221, 295          |
| تاسالة, 48                                     | الأندلس, 19, 20, 21, 30, 40, 41, 45, 62, 74, |
| تافركينت, 10, 38                               | 106, 121, 145, 149, 182, 216, 237, 245,      |
| تبسة, 139                                      | 259, 266, 291, 292, 295                      |
| تدلس, 21, 53, 55, 58                           | أنكاد, 129, 133, 138, 237                    |
| تفرغنبو, 196                                   | الأوراس, 51, 139                             |
| تكدة, 132                                      | أوطاط, 231                                   |
| تلمسان, ذ, ز, ش, ض, ط, غ, ف, ق, 3, 4, 6, 7, 9, | إيلان, 126, 128, 206, 212, 226, 229          |
| 10, 11, 13, 15, 18, 19, 27, 30, 32, 34,        | باب الزّواج, 227                             |
| 36, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46,        | باب العقبة, 33, 226, 228, 229                |
| 47, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 55, 57,        | باب القرمادين, 80, 225, 229                  |
| 59, 60, 61, 62, 63, 72, 73, 74, 75, 76,        | باب إيلان, 226, 229                          |
| 77, 80, 82, 83, 84, 88, 91, 92, 93, 94,        | باب زيري, 226                                |
| 98, 103, 104, 105, 106, 108, 109, 115,         | باب فاس, 227                                 |
| 116, 118, 119, 120, 121, 122, 123, 124,        | باب كشوطة, 13, 228, 229                      |
| 125, 129, 131, 132, 133, 134, 135, 136,        | بجاية, ر, غ, 3, 4, 8, 9, 10, 12, 14, 15, 21, |
| 137, 138, 139, 140, 141, 149, 150, 151,        | 37, 44, 45, 46, 47, 48, 50, 53, 55, 56,      |
| 153, 154, 155, 156, 158, 159, 160, 162,        | 73, 94, 105, 147, 183, 191, 236, 237,        |
| 163, 164, 167, 168, 172, 173, 179, 182,        | 238, 239, 241, 242, 243, 244, 245, 249,      |
| 185, 186, 187, 188, 189, 190, 191, 192,        | 277, 296                                     |
| 193, 196, 197, 198, 199, 200, 201, 202,        | البحر الأعظم, 4                              |
| 203, 205, 208, 209, 210, 211, 213, 214,        | بحر الأقبانوس, 4                             |
| 215, 216, 217, 218, 220, 221, 222, 223,        | بحر الزّوم, 4                                |
| 224, 225, 226, 227, 228, 229, 230, 232,        | برشك, 37, 38, 62                             |
| 233, 234, 237, 238, 239, 243, 244, 245,        | برقة, 2                                      |
| 246, 248, 249, 250, 251, 252, 254, 255,        | البطحاء, 8, 15, 55, 56, 104, 116, 256        |



## الفهارس

|   |  |
|---|--|
| حصن بكر, 9, 14, 46, 243, 244                      | 256, 257, 258, 259, 260, 261, 262, 264         |
| حصن تيمزرديكت, 9                                  | 265, 266, 273, 274, 277, 279, 281, 292         |
| درب شاكر, 123, 124, 125                           | 293, 296, 298, 299, 300, 302                   |
| درعة, 54, 138                                     | تمزغان, 53                                     |
| الدولة الزيانية, ب, ت, ث, ج, ح, خ, س, ط, غ, ف, 2, | تنس, ف, 4, 37, 53, 57, 63, 78, 136             |
| 11, 24, 30, 75, 77, 80, 98, 106, 107,             | توات, 3, 15, 67, 203, 204, 262                 |
| 108, 109, 121, 128, 138, 139, 144, 145,           | تويرت, 13, 15, 43, 116, 188, 219               |
| 147, 153, 168, 169, 170, 171, 173, 195,           | تونس, ر, س, ش, غ, 6, 10, 11, 13, 14, 20, 32,   |
| 200, 201, 203, 218, 231, 232, 234, 268,           | 37, 44, 45, 47, 50, 55, 72, 109, 115,          |
| 269, 298  | 116, 133, 135, 139, 183, 185, 209, 229,        |
| ربوة توكال, 114, 129                              | 235, 238, 239, 241, 249, 289, 290, 291,        |
| الروم, 4, 166, 242                                | 293, 294, 296, 299, 300                        |
| الزاب, 59, 139                                    | تيزي, 86                                       |
| سبته, 4, 57, 123, 246, 278, 293                   | تيطري, 56, 58, 98, 104, 219                    |
| سجلماسة, 2, 35, 36, 56, 105, 132, 133,            | تيكلات, 8, 15                                  |
| 138, 139, 190, 240, 245                           | جامع المنصورة, 197, 250, 251                   |
| السنغال, 2  | جبال عياض, 139                                 |
| السودان, 4, 133                                   | جبل عياض, 51                                   |
| الستوس الأقصى, 2                                  | جرجرة, 55, 116, 129                            |
| سوق الخميس, 9, 14, 244                            | الجريد, 50, 51, 139                            |
| سوق منتشر الجلد, 61, 120, 193, 228,               | الجزائر, ذ, ز, ص, ض, ط, ع, 2, 3, 7, 9, 10, 11, |
| سويد, 45, 56, 57, 58, 59, 63, 108, 130,           | 17, 19, 21, 26, 29, 48, 52, 53, 54, 55,        |
| 182, 256, 265                                     | 56, 58, 59, 62, 63, 67, 69, 74, 79, 80,        |
| شرشال, 116  | 81, 83, 85, 91, 92, 98, 108, 120, 122,         |
| شريش, 41  | 126, 129, 131, 137, 138, 139, 140, 150,        |
| شلف, 45, 56, 57, 207, 243, 261, 264,              | 151, 153, 155, 165, 168, 170, 172, 192,        |
| صفرو, 138   | 193, 197, 199, 206, 207, 212, 218, 219,        |
| صقلية, 100  | 220, 224, 227, 228, 231, 250, 262, 265,        |
| الصهريج الكبير, 227                               | 291, 292, 293, 294, 295, 296, 297, 298,        |
| طريف, 41  | 299, 300, 301, 303                             |
| طنجة, 2, 4, 239                                   | جنوة, 149, 150                                 |
| عنابة, 3  | الحجاز, ف                                      |
|   | حصن أصفون, 9, 13, 242, 244                     |

## الفهارس

|  |   |
|--|---|
| المغرب الأقصى, زد, س, ش, غ, ك, 7, 21, 42, 49,<br>76, 91, 135, 156, 180, 188, 226, 231,<br>295  | غرناطة, 35, 45, 51, 74, 116, 121, 171, 203,<br>237, 290   |
| المغرب الأوسط, 1, 2, ب, ت, ث, ج, ح, ذ, ر, ش,<br>ص, ض, ط, غ, ف, ق, ك, ل, 1, 2, 3, 4, 5, 6, 7,<br>8, 9, 10, 12, 15, 16, 18, 30, 34, 37, 46,<br>48, 57, 59, 60, 62, 63, 64, 74, 80, 81,<br>84, 85, 86, 97, 98, 100, 101, 102, 104,<br>106, 107, 108, 109, 111, 113, 116, 117,<br>119, 120, 121, 122, 123, 125, 127, 128,<br>129, 131, 133, 134, 137, 141, 145, 146,<br>149, 153, 155, 156, 157, 164, 167, 168,<br>169, 171, 172, 175, 176, 177, 179, 181,<br>182, 184, 188, 189, 192, 194, 195, 196,<br>199, 201, 202, 203, 205, 206, 209, 213,<br>215, 218, 219, 221, 227, 229, 231, 234,<br>250, 251, 254, 255, 256, 257, 259, 262,<br>265, 268, 269, 270, 297, 298, 299, 301,<br>302, 303, 318 | فاس, زد, س, 11, 13, 35, 43, 59, 60, 61, 73,<br>75, 76, 90, 91, 92, 103, 115, 119, 132,<br>133, 138, 139, 140, 154, 168, 188, 191,<br>208, 209, 216, 220, 224, 226, 231, 233,<br>237, 247, 255, 257, 258, 289, 299 |
| قرطبة, 106, 133, 173   | قسطنطينة, 1, 2, ث, ر, س, 3, 4, 10, 21, 22, 46,<br>55, 67, 73, 85, 97, 105, 107, 140, 154,<br>158, 237, 243, 289, 299, 301   |
| قشتالة, 41, 42, 152  | قصر تازروت, 181, 262  |
| قفصة, 122, 126, 297  | القيروان, 5, 49, 111, 256   |
| متيجة, 38  | المحيط الأطلسي, 2   |
| المدية, 116, 254   | المدية, 52, 54, 56, 58, 134, 219  |
| مراكش, 32, 90, 91, 178, 181, 199, 220,<br>265  | مرسى الطلبة, 196, 259   |
| ملعب الخيل, 84, 249  | المرسى الكبير, 78, 149, 150, 151  |
| ملوية, 10, 11, 74  | مرماجنة, 14   |
| مليانة, ز, 13, 37, 44, 54, 56, 58, 78, 81,<br>129, 207, 219, 243, 244  | مستغانم, 152  |
| منتيشة, 146  | المسيلة, ث, 136, 140, 239   |
| منصورة تلمسان, ض, 47, 144, 211   | مصر, ع, غ, 4, 15, 20, 30, 47, 65, 88, 100,<br>119, 121, 128, 146, 217, 228, 232, 238,<br>253, 289, 290, 291, 292, 293, 294, 295,  |
| المنصورة, ض, 39, 80, 85, 94, 120, 133, 189,<br>198, 199, 211, 214, 216, 217, 218, 245,<br>246, 247, 248, 249, 250, 251, 252, 255,<br>270, 283, 300   | 302, 298  |
| ندرومة, 32, 39, 43, 191, 215, 256  | مغراوة, 30, 33, 37, 38, 43, 45, 49, 50, 78,<br>94, 115, 129, 207, 244, 257  |
| نحر زاع, 43  | المغرب الأدنى, 7, 140   |
| هنين, 48, 74, 142, 143, 145, 151, 202  |   |

الواد الكبير, 12  
واد رهيو, 264  
وادي تلاغ, 71, 74, 90, 128  
وادي ريغ, 139  
وادي زرقون, 139  
وادي شارف, 47  
وادي ملال, 51, 139  
وانشريس, 45, 49, 58, 104, 114, 115, 129,  
256, 181  
وجدة, 9, 34, 43, 82, 115, 133, 217, 236,  
241, 254, 264  
وهران, 10, 15, 30, 37, 43, 48, 49, 53, 54,  
94, 105, 111, 133, 136, 146, 149, 150,  
151, 152, 179, 193, 199, 200, 219, 226,  
262, 274, 293, 301, 302

فهرس القبائل والشعوب:

|   |  |
|---|--|
| ,216 ,199 ,194 ,190 ,139 ,138 ,119 ,109     | الأعاجم, 87  |
| ,245 ,243 ,241 ,239 ,238 ,236 ,234 ,228     | الإفرنجية, 68, 141                                   |
| 250   | البربر, 133, 149                                     |
| 238 ,134 ,100 ,42 ,4                        | الدواودة, 55   |
| بنو توجين, 10 ,33 ,35 ,38 ,40 ,44 ,56 ,76   | الزواودة, 44, 50                                     |
| 243 ,215 ,180 ,104                          | العجم, 66, 83  |
| ,108 ,54 ,49 ,45 ,36 ,33 ,32 ,14 ,3         | الفرنج, 87   |
| 199 ,194 ,180 ,126 ,109                     | المصامدة, 232  |
| ,44 ,33 ,29 ,24 ,20 ,19 ,16 ,8 ,7 ,4 ,3     | المعقل, 56, 59, 75, 79, 90, 91, 186, 230             |
| ,89 ,84 ,83 ,79 ,78 ,65 ,62 ,60 ,58 ,57 ,56 | اليهود, ص, 7, 113, 126, 171, 173, 174, 203,          |
| ,113 ,112 ,111 ,110 ,109 ,108 ,103 ,90      | 262 ,220 ,204  |
| ,182 ,166 ,146 ,135 ,134 ,132 ,129 ,114     | بنو أبي سعيد, 45, 261                                |
| ,261 ,238 ,236 ,229 ,215 ,207 ,184 ,183     | بنو راشد, ف, 24, 32, 56, 265                         |
| 301 ,300 ,298 ,290                          | بنو سباع, 37   |
| ,110 ,109 ,107 ,73 ,61 ,49 ,48 ,20          | بنو عامر, 37, 51, 55, 57, 58, 59, 107, 112,          |
| ,153 ,138 ,134 ,133 ,131 ,117 ,116 ,112     | 265 ,185   |
| 264 ,237 ,206                               | بنو مالك, 108  |
| ,36 ,27 ,24 ,22 ,19 ,13 ,11 ,8              | بنو مطهر, 24   |
| ,75 ,73 ,72 ,59 ,57 ,53 ,52 ,45 ,42 ,41 ,38 | بنو يزناسن, 62                                       |
| ,154 ,138 ,134 ,106 ,98 ,92 ,90 ,82 ,80     | رياح, ر, 50  |
| ,192 ,190 ,188 ,181 ,179 ,168 ,157 ,156     | زغبة, 51, 108, 219                                   |
| ,231 ,228 ,219 ,218 ,216 ,211 ,198 ,194     | زواوة, 45, 55, 243, 256, 261                         |
| 289 ,260 ,256 ,248 ,246 ,237 ,234           | لمتونة, 80   |
| ,87 ,79 ,70 ,41 ,40 ,39 ,24 ,23 ,6          | التصاري, 63, 119, 121, 133, 141, 142, 143,           |
| ,127 ,121 ,117 ,115 ,108 ,103 ,93 ,90       | ,260 ,257 ,202 ,201 ,197 ,150 ,146 ,145              |
| ,165 ,151 ,148 ,145 ,143 ,142 ,141 ,139     | 299  |
| ,206 ,203 ,202 ,201 ,197 ,195 ,186 ,170     | بنو عبد الواد, ج, ح, ذ, ر, ز, ش, ط, غ, ك, 8, 10, 13, |
| ,246 ,240 ,238 ,228 ,219 ,218 ,210 ,207     | ,56 ,55 ,49 ,42 ,40 ,32 ,27 ,26 ,24 ,18 ,15          |
| 261 ,253 ,250 ,248                          | ,107 ,99 ,98 ,91 ,85 ,81 ,66 ,64 ,63 ,59             |

فهرس الموضوعات

مقدمة: ..... أ

الفصل الأول: واقع الحروب والمواجهات العسكرية المباشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ..... 1

المبحث 01: مسألة الحدود بالمغرب الأوسط بين التقسيم الجغرافي والظاهرة الحربية: ..... 2

المطلب الأول: إشكالية التقسيم الجغرافي الإزدواجي (شرقي/غربي) لمغرب العصر الوسيط: ..... 3

المطلب الثاني: المظهر العسكري مأخذ آخر لتفسير المسألة الحدودية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني: ..... 7

المبحث الثاني: المواجهات العسكرية خلال العهد الزياني ... مقارنة إحصائية: ..... 17

المطلب الأول: نقد المصادر الأساسية: ..... 18

1- الفجوات التاريخية وضياع المؤلفات المتخصصة: ..... 18

2- ظاهرة النقول بين المؤرخين وأثرها على التقديرات العددية: ..... 20

3- أزمة الرقم وتوظيف التراكيب العامة: ..... 24

المطلب الثاني: تقديرات الحروب الزيانية في المصادر الأساسية: ..... 25

المبحث الثالث: كرونولوجيا الحصارات العسكرية خلال العهد الزياني من (627هـ-962هـ / 1229-1554م):

..... 29

المطلب الأول: الحصارات العسكرية قبيل تأسيس الدولة الزيانية إلى غاية الحصار الطويل (706هـ/1306م)

..... 32

1- الحصارات العسكرية على عهد عثمان بن يغمراسن حتى سنة 698هـ/1298م: ..... 36



## فهرس الموضوعات

- 39 ..... 2- الحصار الطويل لتلمسان 698هـ -706هـ/1298-1306م:.....
- المطلب الثاني: الحصارات الزيانية من انتهاء الحصار الطويل 706هـ/1306م إلى غاية (791هـ/1388م) 43
- 47 ..... 1- حصار أبو الحسن المريني لتلمسان 735-737هـ/1334-1336م:.....
- 2- الحصارات العسكرية في عهدي الأميرين أبو ثابت وأبو سعيد بعد ثورة الأعراب بتونس سنة
- 49 ..... 749هـ/1348م:.....
- 50 ..... 3- الحصارات العسكرية على عهد أبو حمو موسى الثاني 760-791هـ/1358-1388م:.....
- المطلب الثالث: الحصارات العسكري خلال عهد الضعف إلى سقوط دولة بني زيان 791هـ-
- 59 ..... 962هـ/1388-1554م:.....
- 65 ..... المبحث الرابع: الاستراتيجيات والتكتيكات الحربية الزيانية:.....
- 65 ..... المطلب الأول: ثنائية الحرب والموسيقى في المنظومة العسكرية الزيانية:.....
- 66 ..... 1- أنواع الآلات الموسيقية المستخدمة في المنظومة الحربية الزيانية:.....
- 69 ..... 2- الاستخدامات التكتيكية للطبول في معارك وحروب بني زيان:.....
- 70 ..... المطلب الثاني: جوانب من الحرب النفسية خلال العهد الزياني:.....
- 70 ..... 1- موقع المرأة من معادلة الحرب النفسية خلال العهد الزياني:.....
- 72 ..... 2- الوظيفة السيكولوجية للإشاعة ودورها في حروب بني زيان:.....
- 74 ..... المطلب الثالث: أساليب المواجهة العسكرية المباشرة.....
- 74 ..... 1- مركزية عنصر الماء في الاستراتيجيات الحربية خلال العهد الزياني:.....

## فهرس الموضوعات

- 2- الخندق: ..... 79
- 3- الكمين: ..... 81
- 4- استراتيجية الكرّ والفرّ: ..... 83
- 5- الزحف والقتال باستراتيجية الصّف: ..... 87
- 6- الاستطراد: ..... 89
- 7- استراتيجية التّناب خلال المعركة: ..... 93
- 
- الفصل الثّاني: أثر الحرب على النّشاط الاقتصادي خلال العهد الزّياني ..... 96
- 
- المبحث الأوّل: أثر الحرب على النّشاط الفلاحي والزّراعي... رصد لمظاهر وجغرافية الخراب ..... 97
- المطلب الأوّل: مسببات ومظاهر حرق الأراضى الزراعيّة المصاحب لحالة الحرب ..... 97
- 1- تحريق الأراضى الزراعيّة ودورها في تأمين عامل الإرهاب النّفسي للعدوّ ومضاعفة فرص استسلامه: .. 98
- 2- التّنظير الحربي باعث لتعطيل النّشاط الفلاحي في المغرب الأوسط الزّياني - مؤلّف واسطة السلوك لابن حمو موسى الزّياني أنموذجاً-: ..... 100
- 3- الإرث العسكري في حروب المغرب الأوسط نموذج تقليد وإعادة إنتاج لقلب اقتداء المغلوب بالغالب: ..... 101
- المطلب الثاني: جغرافية تخريب الأراضى الزراعيّة خلال العهد الزّياني: ..... 102
- المطلب الثالث: ثنائيّة الاقطاع والولاء وأثرها على الهجرة القسريّة للفلاحين: ..... 106
- المبحث الثّاني: أثر الحرب على مقومّات النّشاط الصناعي والحرفي: ..... 117

- 117 .....المطلب الأول: المقوم البشري
- المطلب الثاني: ملامح الاحتراف السّلافي في المغرب الأوسط الزّياني والحرب ... قراءة في علاقة التأثير والتأثر
- 121 .....
- 127 .....المطلب الثالث: الحرب وإفقار موارد الإنتاج الحرفي والصنّاعي البدوي (الثروة الحيوانية)
- المبحث الثالث: أثر الحرب على النشاط التجاري ..... 131
- المطلب الأول: التجارة الداخليّة ..... 131
- 1- الأمن التجاري الداخلي في المغرب الأوسط خلال العهد الزّياني: ..... 131
- 2- الطرق التجاريّة الداخليّة ومناطق عبور الجيش: ..... 136
- المطلب الثاني: التجارة الخارجيّة ..... 140
- 1- نشاط القرصنة المتوسطيّة والفكاكة وأثرها في تعطيل التجارة الخارجيّة البحريّة: ..... 141
- 2- التّدخل العسكري المباشر على موانئ المغرب الأوسط وأثره على التجارة الخارجيّة: ..... 149
- المبحث الرابع: مظاهر أخرى للانتكاس الاقتصادي المرافق لحالة الحرب ..... 153
- المطلب الأول: أسعار المواد الغذائيّة والأقوات ... قراءة مقارنة بين حالي الرّخاء والضائقة الحربيّة ..... 153
- المطلب الثاني: الاحتكار ظاهرة مرافقة للحرب ..... 161
- المطلب الثالث: مظاهر غش وفساد العملة ..... 165

## فهرس الموضوعات

- 174 ..... الفصل الثالث: أثر الحروب على البنى العمرانية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني
- 175 ..... المبحث الأول: مؤججات الخراب العمراني المرافق لحالة الحرب في المغرب الأوسط الزياني
- المطلب الأول: خراب العمران في المغرب الأوسط الزياني بين هاجس تحقيق الانتصار والنزعات النفسانية للقادة العسكريين: 176 .....
- 1- استحضار لمكنون الشخصية العسكرية: 176 .....
- 2- النزعات الانتقامية مدعاة للتخريب: 179 .....
- المطلب الثاني: الخراب مصدر اعتياش لبعض الفئات 181 .....
- المطلب الثالث: الاستراتيجيات العسكرية في خدمة الخراب 184 .....
- 1- التدبير الحربي باعث للتخريب خلال حالة الحرب 184 .....
- 2- الأسلحة الثقيلة آلة للخراب: 187 .....
- المبحث الثاني: حظيرة المنشآت الحربية والمدنية الزيانية في مواجهة الخراب 193 .....
- المطلب الأول: حظيرة المنشآت الحربية 193 .....
- 1- الأسوار 193 .....
- 2- الأبواب 203 .....
- 3- الحصون 210 .....
- المطلب الثاني: العمارة المدنية 233 .....
- المبحث الثالث: الحرب وخراب المؤسسات الدينية والثقافية 247 .....

## فهرس الموضوعات

|     |                                    |
|-----|------------------------------------|
| 249 | المطلب الأول: العمائر الدينية..... |
| 249 | 1- المساجد : .....                 |
| 254 | 2- الكنائس:.....                   |
| 261 | 3- المقابر : .....                 |
| 263 | المطلب الثاني: المدارس .....       |
| 264 | 1-المدرسة التاشفينية : .....       |
| 266 | 2- المدرسة اليعقوبية : .....       |
| 269 | خاتمة:.....                        |
| 272 | الملاحق.....                       |
| 288 | قائمة المصادر والمراجع .....       |
| 305 | فهرس الأعلام: .....                |
| 309 | فهرس الأماكن والبلدان: .....       |
| 313 | فهرس القبائل والشعوب:.....         |
| 320 | ملخص:.....                         |



### ملخص:

إن موضوع الحروب في المغرب الأوسط وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية خلال العهد الزياني (633-962هـ/1236-1554م) من المواضيع الهامة التي عنيت بالبحث في التجربة العسكرية ومنظومة الحرب خلال هذا العصر، من خلال تتبع مسار المواجهات العسكرية المباشرة وحرب الحصار وحصرها، وتغطية مختلف الاستراتيجيات والتكتيكات الحربية الميدانية التي تم استخدامها في المنظومة الحربية الزيانية في مواجهتها العسكرية مع مختلف القوى العسكرية المعاصرة لها لأزيد من ثلاثة قرون.

وقد ركزت هذه الدراسة على إفرزات هذه الحروب وتبعاتها التي مسّت مناحي الحياة الاقتصادية، وشرابين الاقتصاد (الفلاحة، الصناعة، التجارة)، وتداعيات الحرب على الفئات الفاعلة في هذا النشاط على خلفية كسب المعارك وتحقيق النصر المرهون بتدمير وسائل المقاومة لدى العدو، وفي مقدمتها استهداف القطاعات الإنتاجية ومقومات العدو الاقتصادية، وبيان مظاهر التتابع الطردي للواحق هذا الخراب من مظاهر ساهمت في الانتكاس الحضاري كالغش في العملة وغلاء الأسعار ومظاهر التهجير الجماعي، وغيرها من لواحق الحرب.

كما بسطت هذه الدراسة أيضا مستوى تأثير هذه الحروب والمعارك على حضيرة البنى العمرانية الزيانية، فغالبا ما كانت هذه الحروب آلة لخراب هذه البنى على غرار طابعها المدني كالمنازل، والديني والثقافي كالمساجد والكنائس والزوايا والمدارس، والعسكري كالأسوار والحصون والأبواب، وقد كانت هذه البنى -غالبا- عرضة للخراب نظرا لحضور الأسلحة الثقيلة التي تم استخدامها في حروب المغرب الأوسط الزياني لثني حركة العمران وتحطيم وحدات الدفاع العسكرية الزيانية، فضلا عن عوامل أخرى تم التطرق إليها في هذه الدراسة كان لها الدور البالغ في دعم مظاهر هذا الخراب.

**الكلمات المفتاحية:** الحرب، الحصار، المغرب الأوسط، البنى العمرانية، الأوضاع الاقتصادية.

## Résumé :

La question des guerres au Maghreb central et ses répercussions sur les conditions économiques et urbaines à l'époque Zianide et l'un des sujets importants sur lesquels des recherches se sont penchées sur l'expérience militaire et le système de guerre à cette époque, en traçant et en limitant le cours des affrontements militaires directs et des guerres de siège couvrant les différentes stratégies et tactiques de guerre sur le terrain qui ont été utilisées dans le système militaire des zianides dans ses affrontements militaires avec diverses forces militaires contemporaines pendant plus de trois siècles.

Cette étude s'est concentrée sur les résultats de ces guerres et leurs conséquences qui ont touché tous les aspects de la vie économique et les artères de l'économie (agriculture, industrie, commerce) et les répercussions de la guerre sur les groupes impliqués dans cette activité dans le contexte de gagner des batailles et d'obtenir la victoire subordonnée à la destruction des moyens de résistance de l'ennemi et au premier rang desquels se trouve le ciblage des secteurs productifs et des composantes économiques de l'ennemi et clarifié les aspects de la succession continue des conséquences de cette dévastation et les aspects qui ont contribué à la régression de la civilisation, telles que la fraude monétaire, les prix élevés, les manifestations de déplacement massif et d'autres conséquences de la guerre.

Cette étude a également abordé le niveau d'impact de ces guerres et batailles sur le pli des structures urbaines des Zianides , souvent ces guerres ont été une machine à détruire ces structures, comme le caractère urbain, à titre exemple les habitations, et le caractère religieux et culturel, tels que les mosquées, les églises, les Zaouïa et les écoles , et aussi le caractère militaire comme les murs, les forts et les portes, ces structures étaient - souvent - sujettes à la destruction en raison de la présence d'armes lourdes qui ont été utilisées dans les guerres du Maghreb central Zianide pour décourager le mouvement urbain et détruire les unités de défense militaire de Zianide, ainsi que d'autres facteurs qui ont été discutés dans cette étude qui a eu un rôle majeur dans l'appui aux aspects de cette ruine.

**Mots clés :** Conditions économiques, Guerre, Maghreb central, Siège, Structures urbaines.

---

**Abstract:**

The question of the wars in the central Maghreb and its repercussions on the economic and urban conditions in the Zayanite period and one of the important topics that research has looked into on the military experience and the system of war in this period, by tracing and limiting the course of direct military confrontations and siege wars covering the different strategies and tactics of war in the field, which have been used in the Zayanite military system in its military confrontations with various contemporary military forces for more than three centuries.

This study focused on the results of these wars and their consequences which affected all aspects of economic life and the arteries of the economy (agriculture, industry, trade), and the repercussions of war on the groups involved in this activity in the context of winning battles and achieving victory contingent upon the destruction of the enemy's means of resistance and at the forefront of which is the targeting of the productive sectors and economic components of the enemy and clarified the aspects of the continuous succession of the consequences of this devastation and aspects that have contributed to the regression of civilization, such as monetary fraud, high prices, manifestations of mass displacement and other consequences of war.

This study also addressed the level of impact of these wars and battles on the fold of Zayanite urban structures , often these wars have been a machine to destroy these structures, such as the urban character, for example the houses, and religious and cultural character, such as mosques, churches, Zaouïa and schools, and also military character such as walls, forts and gates, these structures were - often - subject to destruction due to the presence of heavy weapons that were used in the Zayanite Central Maghreb wars to discourage urban movement and destroy Zayanite military defense units, as well as other factors that were discussed in this study that had a major role in support of the aspects of this ruin.

**Key word:** Central Maghreb, Economic conditions, Siege, Urban structures, War.

People's Democratic Republic of Algeria

Ministry of Higher Education and Scientific Research

Emir Abd Elkader Arts

and Islamic Civilization

University for Islamic

Faculty

Sciences -Constantine-

Departement of Histiry



Serial Number : .....

Registration Number: .....

**The Central Maghreb Wars and their Repercussions  
on Economic and Urban Conditions in the Zayani Era  
(633/692H)**

Thesis Doctorat L M D Human Sciences-History

Specialty: political and civilizational history of Maghreb in the Middle Ages

Presented by:

Supervision Professor:

Billel Zitouni

Youcef ABED

Member of the Discussion committee

| Name & Surname      | Rank         | Original University                       | Character      |
|---------------------|--------------|---|----------------|
| Allaoua Amara       | Professor    | Emir Abd Elkader University -Constantine- | President      |
| Youcef Abed         | Professor    | Emir Abd Elkader University -Constantine- | Supper & Rappt |
| Abd eldjilil gorian | Professor    | Emir Abd Elkader University -Constantine- | Examiner       |
| Khemissi Boulaares  | Professor    | Mohamed lamin debaghin -setif 2-          | Examiner       |
| Mohamed Gouisseem   | Professor    | 20 aout 1955 -skikda-                     | Examiner       |
| El-bachir Bougaada  | Lecturer -A- | Mohamed lamin debaghin -setif 2-          | Examiner       |

University year : 1443-1444H/2022-2023 AD